

مذكرات

ونستون تشرشل

٢

مذكرات
ونستون تشرشل

الجزء الثاني

ترجمة: العميد محمد شبلي

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
١٩٧٠

على أهبة الاستعداد

فى هذه الآونة من صيف ١٩٤٠ ، أصبحنا منفردين ، بعد اندحار فرنسا ولم يكن فى مقدور دول (الدومنيون) • أو الهند أو المستعمرات أن تمدنا بالمساعدات اللازمة التى كنا فى أمس الحاجة اليها ، وكانت الجيوش الألمانية الجرارة المنتصرة المدربة وقد توافر لها السلاح الاحتياطى الضخم ، والمستودعات والمصانع التى استولت عليها غنيمة باردة • أخذت هذه الجيوش تستعد للمعركة الفاصلة •

ووقفت ايطاليا بقواتها الكثيفة الجرارة ــ وقد أعلنت الحرب علينا ــ تبحث فى لهفة عن سبيل لتدميرنا فى البحر المتوسط ومصر •

ووقفت اليابان فى الشرق الأقصى تنظر الينا نظرة غريبة يتعذر علينا تفسيرها وتطالبنا فى الحاح وتهديد باغلاق طريق بورما فى وجه المساعدات الى الصين ، وكانت روسيا السوفييتية ــ المرتبطة مع ألمانيا النازية بميثاقها ــ تقدم الى هتلر مساعدات هامة من المواد الخام ••

أما أسبانيا ــ وقد احتلت منطقة طنجة الدولية ــ فربما تغدر بنا بين آونة وأخرى فتطالبنا بجبل طارق ، وقد تستنجد بألمانيا لمساعدتها فى احتلاله ، أو فى اقامة بطاريات المدفعية الهائلة لتعويق أسطولنا عبر المضيق وقد انتقلت الحكومة الفرنسية التى يرأسها بيتان الى فيشى ، وأصبح من المنتظر بين آونة وأخرى• اعلانها الحرب علينا • على أن بقية الأسطول الفرنسى فى طولون قد أصبحت فى قبضة الألمان • وهكذا رأينا أننا لسنا فى حاجة الى مزيد من الأعداء •

وأيقن العالم ــ بعد وهران ــ أن الحكومة والشعب فى بريطانيا مصممان على القتال حتى النهاية •

ومع أنه لم تضعف معنوية بريطانيا ، الا أن السؤال الذى ظل يراودنا هو : كيف يمكن لنا أن نجتاز هذه الصعوبات القائمة ؟ لقد كان

من المعروف أن جيشنا فى الوطن لا يحمل سلاحا أكثر من البنـــادق ، وستمضى مدة قبل أن تقدر مصانعنا على تعويض ما خسرناه من عتـاد فى دنكرك ·· أليس من العجيب بعد كل هذا ألا يكون العالم بأكمله قد أصبح على يقين من أن ساعتنا الأخيرة قد حانت ؟ ··

وانتشر الرعب فى الولايات المتحدة وسائر الدول الحرة الأخرى وأخذ الأمريكيون يتساءلون فى اهتمام : هل من واجبهم أن يجازفوا بمواردهم المحدودة الضئيلة ارضاء للمشاعر الطيبة وحـدها وان كانت المخاطرة ميئوسا منها ؟ ··

أليس من الأجدى أن يبذلوا أى جهد وأن يوفروا كل سلاح لملاقاة ضعف استعدادهم · وكان التغلب على هـذه الأسانيد ، يتطلب منطقـا مستقيما وعلى جانب من الثقة ، ولا ريب فى أن الشعب البريطانى مدين لرئيس الولايات المتحدة وكبار القادة والمستشارين ، لانهم على الرغم من اقتراب موعد انتخابات المرة الثالثة للرئاسة لم يتخلوا عن ثقتهم القوية فى تصميم بريطانيا ، وقدرتها على النضال · وليس من شـك فى أن تصميم بريطانيا القوى ، الذى لم ينله ضعف أو وهن ــ وقد كان لى شرف التعبير عنه ــ كان عاملا من عوامل رجحان كفتنا فى القتال ·

فهذا الشعب الذى ظل فى سنوات ما قبل الحرب يسير فى طريق المسالمة وعدم التفهم ، ويخوض غمار المهازل الحزبية ، ويغرق الى أبعـد الحدود فى لجة السياسات الأوروبية بلا وجل ·· هاهو ذا الآن يلاقى مصير تقصيره فى التأهب والاستعداد ، وثمرة اتكاله على النوايا الحسنة والحوافز الكريمة ولكن العالم يراه فى نفس الوقت مصمما على أن تصبح بلاده قطعة من الخراب قد تبدو جزيرته ذليلة خانعة ·

وهذه بلا جدال احدى صفحات التاريخ الرائعة ، ولكنها ليست الصفحة الوحيدة به ، فعندما استولى الاسبارطيون على أثينـا ، أصرت قرطاجنة على الصمود والاستبسال حتى الموت أمام روما ، والتاريخ زاخر بصفحات أخرى كثيرة عن شعوب استماتت فى النضال ، ودول شجاعة تفيض بالكبرياء ·· آثرتْ أن تفنى وأن تموت وألا يبقى لها أثر ·

ولم يكن هناك فى ذلك الحين سوى أقلية معدودة من البريطـانيين والأجانب تقف على الأهمية الاستراتيجية لموقعنا الجغرافى المنعزل ، ولم يكن كثيرون قد عرفوا فى مدى سنوات ما قبل الحرب أننا كنا نحافظ على مقومات دفاعنا البحرى والجوى ، وقد مضى على الجزر البريطانية مايقرب

من ألف عام لم تشهد أرضها نيران غزو من الجو ، وظل كل بريطانى فى قمة الكفاح محتفظا بهدوء أعصابه ، راضيا كل الرضا بالتضحية بحياته فى سبيل بلاده وسرعان ما أخذ الأعداء والأصدقاء فى سائر بلاد العالم يدركون أن هذه هى طبيعتنا الأصلية ٠٠ وماذا يكمن خلفها ؟ ٠٠ انه الأمر الذى يمكن أن يتجلى فى الشدائد ٠

وكانت هناك ناحية أخرى ، فقد تعرضنا خلال شهر يونيو لخطر جسيم ٠٠ فقد رأينا آخرما لدينا من قوات احتياطية تسحب ليقضى عليها فى محاولة يائسة فى فرنسا ، وأن قواتنا الجوية تتضاءل شيئا فشيئا فى هذه الغارات التى نمضى بها الى القارة أو فى نقلها الى هناك ٠ ولو كان هتلر موهوبا ، أو متمتعا بحكمة خارقة ، لأبطأ فى هجومه على الجبهة الفرنسية مدى ثلاثة أسابيع أو أربعة بعد معركة دنكرك على خط عند السين ، ليتم استعداداته للهجوم على انجلترا ٠٠ ولو حدث هذا لأصبحنا فى وضع رهيب لا خيار لنا فيه ، فاما أن نتخلى عن فرنسا وفى هذا تعذيب لنا ، وألم لفرنسا ، واما أن ننثر قواتنا وننشرها مع ما فى هذه القوات من ضرورة قصوى لمستقبلنا وحياتنا ، اذ كلما حفزنا الفرنسيين على الاستمرار فى القتال ، تحتم علينا أن نغدق العون لهم ، وهذا بطبيعة الحال يؤدى الى اشتداد الصعوبات فى طريق اعدادنا للدفاع عن انجلترا نفسها ، ولا سيما بالنسبة للأسراب الخمسة والعشرين من الطائرات المقاتلة التى يتوقف مصير كل شىء عليها ٠ وبالطبع كان مستحيلا أن نتخلى عن هذه الأسراب ، ولكن رفضنا سيؤدى بالتأكيد الى اغضاب حليفتنا المستبسلة مما يعكر صفو علاقتنا ، وعلى هذا فقد رأينا عددا من كبار قادتنا ، ينظرون الى مشكلاتنا الهينة نوعا ما ــ بعد أن أصبحنا وحدنا ــ بشىء من الراحة ، وكأن عبئا ثقيلا قد انزاح عن كواهلهم ، وأصبح وضعنا كوضع مدرب أحد النوادى العسكرية الذى أخذ يخاطب لاعبا قد تهاوت معنوياته بقوله :

« أيا ما كان الأمر فقد بلغنا المعركة الفاصلة ، وسيكون نادينا ميدانها » ٠



لم تكن القيادة الألمانية العليا ، حتى هذه الفترة قد استهانت بقيمة ما عليه مركزنا من قوة ٠ وقد روى تشيانو أنه قابل هتلر فى برلين فى ١٧ يوليو ١٩٤٠ م ، وتحدث هو والجنرال فون كايتل طويلا ، كما تحدث

هتلر نفسه عن غزو لانجلترا ، فأكد له أن الرأى لم يستقر نهائيا على أى شىء وقد ذكر أن عمليــة النزول الى البر فى انجلترا غير مستحيلة ولكنها صعبة جدا ويجب أن تقوم بها ألمانيا وهى فى غاية الحذر ، اذ أن أخبارنا عن الترتيبات العسكرية فى الجزيرة ، وطرق الدفاع عن شواطئها قليلة وغامضة ومثبتة فى صحتها « وأضاف كايتل أن ما يبدو سهلا وجوهريا هو شن هجوم جوى مركز على المطارات ، والمصانع ومراكز المواصلات الرئيسية فى بريطانيا العظمى ، ومن المحتم أن يعرف كل انسان أن السلاح الجوى البريطانى فى منتهى القوة ، وذكر كايتل أن هذا السلاح يتألف من حوالى ألف وخمسمائة طائرة مستعدة لأعمــال الدفاع والهجوم المضاد ، واعترف بأن الغارات التى يقوم بهــا السلاح الجوى البريطانى قد تزايدت كثيرا ، وأنها من ناحية اصابة الأهداف من الجو فى غاية المهارة ، وكان عدد الطائرات المغيرة فى كل مرة يصـــل الى الثمـــانين ، لكن انجلترا تعانى نقصـــا شديدا فى الطيارين ، وليس فى وسعهـــا أن تستعيض عن هؤلاء الذين يهاجمون المـدن الألمانية الآن ، بالطيارين الجدد الذين ينقصهم التدريب الى حد كبير .

وأصر كايتل أيضا على ضرورة توجيه ضربة الى جبل طارق لقطع شرايين المواصلات البريطانية وشل حركتها ، ولم يشر كايتل أو هتلر الى مدة الحرب أو أجلها ، وكان هتلر وحده هو الذى ذكر عرضا بأن الحرب يجب أن تنتهى قبل مستهل شهر أكتوبر .

هذا هو التقرير الذى وضعه تشيانو فى مذكراته ، وقد عرض على هتلر استجابة لطلب الدوتشى العاجل — امداده بحوالى عشر فرق من قواته ووحدة جوية تتكون من ثلاثين سربا ، للمساهمة فى الغزو ، وقد اعتذر هتلر عن قبول القوات البرية فى لباقة ووصلت بعض الأسراب الجوية الايطالية ولكنها لم تصب نجاحا فى مهمتها كما سوف نذكر .

وقد ألقى هتلر فى ١٩ يوليو خطاب القائد المنتصر فى الريشتاغ وبعد أن تنبأ بأنى سألجأ الى كندا قدم ما يمكن أن يسمى عرضا للصلح وقد اعتذر هتلر عن قبول القوات البرية فى لباقة ، ووصلت عن طريق السويد والولايات المتحدة والفاتيكان .

وبدا من الطبيعى أن هتلر بعد أن خضعت أوروبا كلها لارادته سيكون فى غاية السرور اذا تمكن من الحصول على موافقة بريطانيا على كل ما فعله ، ولم يكن العرض فى الحقيقة يتناول السلام ، وانما يتناول

الاستعداد لتقبل اذعان بريطانيا للتخلى عن كل ما خاضت الحرب من أجله ٠

وفكرت أول الأمر فى اثارة الموضوع بصفة رسمية فى البرلمان ، ولكن زملائى الوزراء رأوا أن مثل هذا العمل يؤدى الى التشويش حول موضـــوع كنـــا جميعا متفقين عليه ٠ وتقرر ـ بدلا من ذلك ـ أن يكلف وزير الخارجية بالرد على عرض هتلر فى اذاعة موجهة ، فى يوم ٢٢ يوليو حديثا أطرح فيه دعوة هتلر لنا بالاستسلام لمشيئته ٠

ووازن فيــه بين أوروبا الهتــلرية ، وأوروبا التى نقاتل فى سبيل حمايتها ، وأعلن أننا لن نتوقف عن القتال حتى نضمن وجود الحرية ٠٠ وفى خلال ذلك كانت الصحافة البريطانية ودار الاذاعة قد رفضت أى حديث عن الصلح ، دون تدخل من حكومة جلالته ، وانما بدافع من نفسها بعد الاستماع الى خطاب هتلر فى الاذاعة ٠

ويذكر تشيانو فى مذكراته أنه « عندما أذيع أول رد بريطـــانى ـ وكان متسما بالبرودة ـ على الخطــاب فى الساعات الأخيرة من ليلة ١٩ يوليو ٠٠ ساد بين الألمان شعور بخيبة الأمل بيد أن هتلر متطلع الى التفاهم مع بريطانيا العظمى فهو يدرك أن الحرب مع البريطانيين ستكون قاسية تفيض بالدماء ٠٠ وهو يدرك تماما أن النــــاس فى كل مكان يكرهون سفك الدماء ، أما موسولينى فيخشى من ناحية أخرى أن يجد الانجليز فى خطاب هتلر الماكر للغاية مبررا للبدء فى المفاوضات ، وهذا مما يحز فى نفس موسولينى ، لانه يرغب فى الحرب الآن أكثر من أى وقت سبق » وأيا ما كان الأمر فلم يكن موسولينى فى حاجة الى الغضب أو الثورة ، فسيتاح له أن يخوض كل أهوال الحرب التى يتمناها ٠

وقد قدم رؤساء أركان الحرب بواسطة الجنرال ايسمال اقتراحا فى أواخر شهر يونيــو لأزور المنـــاطق المهــددة فى السواحل الجنــوبية والشرقية وتلبية لهذا الاقتراح أفردت يوما أو يومين من كل أســبوع للقيام بهذه الزيارة المحبوبة ، وكنت أنام ـ عندما تفرض الظروف ـ فى قطارى الخاص الذى تهيأت لى فيه كافة سبل الراحة ، ليتاح لى أداء أعمالى العادية بانتظام ٠٠ مع العلم بأنى كنت أتصل دائما بهوايتهول وقمت بزيارة « التاين » و « الهــامبر » وغيرهما من أماكن الانزال المحتملة ، وشاهدت مناورة للفرقة الكندية فى كنت ، وقمت بالكشف عن الخطوط الدفاعية الداخلية فى هارويتسن ودوفر ، وكانت احدى زياراتى الأولى

للفرقة الثالثة التى يقودها الجنرال مونتجومرى وهو ضابط لم أكن قد التقيت به من قبـل • وقد صحبتنى زوجتى فى هـــذه الزيارة للفرقة المذكورة المرابطة على مقربة من برايتون • وكانت هذه الفرقة قد أعطيت أهمية خاصة من ناحية الإعداد ، وكانت على وشك الابحار الى فرنســا عندما انتهت المقاومة الفرنسية •

وقد أقام الجنرال مونتجومرى مركز قيادته فى ستينينج ، وأرانى مناورة صغيرة ، كانت الحركة الرئيسية فيها مناورة • قامت أساسا على تحـركات حاملات مدافع برن الرشاشة التى لم يكن فى استطاعته أن يستخدم منها حينذاك سوى سبع أو ثمانى حاملات ومضت بنا السيارة بعد ذلك على الساحل عبر « شورهام » و « هوف » الى أن وصلنا الى جبهة برايتون المعروفة ولى فيها كثير من ذكريات الصبا •• وقد طعمنا عشاءنا فى فندق البيون الملكى الذى يقع على الناحية المواجهة لرصيف الميناء الداخلى • وكاد الفندق يكون مقفرا من الناس بسبب عمليـات الانسحاب الأخيرة ، ومع ذلك فكان هناك من يستنشق الهواء الطلق ويتنزه على الشاطىء ، وفى الميـــادين ، وقد سرنى أن أرى طائفة من « حرس قاذفى القنابل » يمهدون مركزا لمدفعهم الرشاش فى أحد أكشاك الرصيف • فذكرنى ذلك بما كنا نفعله فى طفولتنا ونحن نعجب بالمخلفات القديمة • وكان الجو رائعا جميلا ، وتحدثت الى القائد أحاديث مثمرة •• والحق أنى شديد الاغتباط بهذه الزيارة •

وفى أواسط شهر يوليو اقترح على وزير الحربية احلال الجنرال بروك محل الجنرال ايرونسايد فى قيادة جيوش الوطن ، وفى ١٩ يوليو حينما كنت أطوف لاستطلاع القطاعات المعرضـــة للهجوم ، زرت القيادة الجنوبية ، ورأيت تجربة واقعية أسهمت فيها اثنتا عشرة دبابة تقريبا ، ومكثت فى السيارة طيلة ما بعد الظهر مع الجنرال بروك الذى كان يتولى قيادة تلك الجبهة ، ولا شك أن سجل ماضيه كان رائعا ، فقد قاد المعركة الفاصلة عند أبيرس أثناء عملية الانسحاب الى دنكرك ثم تمكن بما أوتى من حذق وصلابة ، وفى وسط عوامل فى منتهى الصعوبة والقوة ، عندما كان يقود القوات الجديدة التى أرسلناها الى فرنسا خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من يونيو — تمكن من انقاذ حملته ، وكانت تربطنى به صلة أيضا عن طريق أخويه البطلين اللذين كانا لى صـــديقين فى بداية حيـــاتى العســكرية •

على أن هذه العلاقات والذكريات لم يكن لها أى تأثير على وجهة نظرى فى موضوع حيوى كهذا الذى يتصل باختيار القائد العام ولكنها وثقت الصلات بينى وبين آلان برون فى غضون الحرب .

وقطعنا ما يقرب من أربع ساعات معا فى السيارة فى ذلك اليوم من يوليو ١٩٤٠ ، وكنا على اتفاق تام بشأن كافة وسائل الدفاع فى داخل الوطن ، وبعد المشاورات الضرورية مع الآخرين وافقت على اقتراح وزير الحربية بتولى بروك القيادة العامة خلفا للجنرال ايرونسايد الذى واجه احالته الى التقاعد بما اشتهر عنه من اعتزاز فى جميع الظروف التى تمت بها أعماله العسكرية .

وظل بروك فى القيادة طيلة سنة ونصف تعرضنا فيها لخطر الغزو، فنظم القوات تنظيما حسنا وعندما صار فيما بعد رئيسا لأركان حرب القوات الامبراطورية استمر التفاهم بيننا رائعا حتى انتهينا الى النصر المؤزر .

وسأورد بعد قليل المكاسب التى حققتها من مشورته فى اجراء تغييرات حاسمة فى القيادات فى مصر بالشرق الأوسط فى شهر أغسطس عام ١٩٤٢ ، وما كان لها من خيبة أمل فى موضوع قيادة عملية الغزو عبر القناة (بحر المانش) فى عملية السيد الأكبر (أوفر لورد) عام ١٩٤٤ وقد أدى خدمات جليلة فى المدة الطويلة التى عمل فيها رئيسا للجنة رؤساء أركان الحرب ، فى معظم سنى الحرب ، ورئيسا لأركان حرب القوات الامبراطورية ، لا للامبراطورية البريطانية فحسب بل للحلفاء جميعا ، وسأحكى فى هذه القصة بعض الاختلاف فى وجهات النظر التى وقعت بيننا أحيانا ، وأقص كذلك كثيرا من المسائل التى اتفقنا فيها وهى تؤكد صداقتنا كل التأكيد .

وفى هذا الشهر نقلت الينا كميات وافرة من السلاح الأمريكى عبر الأطلنطى من غير أن تمس بسوء ، وبينما كانت البواخر تقترب من سواحلنا بما تحمل من عتاد لا يقدر بثمن ، كانت هناك قطارات خاصة أعدت لتحملها من الموانى ، وقد مكث الحرس الوطنى فى كل مقاطعة وكل بلدة وكل قرية متلهفا على تسلم هذه الأسلحة ، وأكب الرجال والنساء على العمل بكل قواهم لتجهيز هذه الأسلحة وجعلها صالحة للاستعمال . وهكذا أصبحنا فى نهاية شهر يوليو شعباً مسلحاً على أهبة الاستعداد لمواجهة أى غزو يقوم به المظليون ، نعم لقد أصبحت بريطانيا أشبه

ما تكون « بخلية النحل » واذا قدر أن تنهار مقاومتنا • وهو احتمال بعيد فان حشدا من الرجال والنساء ، سيظل شاكي السلاح ، وقد استطعنا بوصول الدفعة الأولى من البنادق الأمريكية الى حرسنا الوطني ، بصرف النظر عن ضآلة كمية الطلقات التي لم تزد عن خمسين طلقة لكل قطعة ، استطعنا تزويد الجيش العامل بثلاثمائة ألف بندقية بريطانية •

وبدأ كثير من الخبراء يجهزون بكل سرعة مدافع الخمسة والسبعين ملليمترا ، التي وصلت الينا ومع كل مدفع منها ألف قذيفة ، ولم يكن بحوزتنا معدات لايصال المدافع بعرباتها كما أنه لم تتواجد لدينا الوسائل العاجلة لانتاج عدد أكبر من القذائف وعلى الرغم من أن المدافع المختلفة الأحجام تعقد العمليات الحربية ، الا أنني صممت منذ البداية على استخدامها وغدت هذه المدافع منذ وصولها الينا وطيلة عامي ١٩٤٠ ، ١٩٤١ جزءا مهما في قوتنا العسكرية المدافعة عن الوطن • وقمنا بعمل ترتيبات خاصة تعد مبتكرة دربنا عليها عددا من الرجال ، لادارة هذه المدافع وربطها في سيارات الشحن لنقلها من مكان الى آخر ، وعندما تقاتل دفاعا عن كيانك فوجود مدفع خير من عدمه ، وقد مكث المدفع الفرنسي من طراز خمسة وسبعين ملليمترا سلاحا فعالا بالرغم من قدمه بالنسبة للمدافع البريطانية الحديثة من طراز خمسة وعشرين رطلا والمدافع الألمانية (هاوتزر) •

وعندما مر شهرا يوليو وأغسطس من غير أن تنزل بنا الكارثة الساحقة ، هدأنا بعض الشيء ، وازدادت ثقتنا في مقدرتنا على خوض غمار حرب طويلة وقاسية ، وكنا نشعر بقوتنا تزيد يوما عن يوم • فكل فرد في المجموع يعمل بكل طاقته ليل نهار ، ويمضي الى نومه بعد ذلك شاعرا بثمار أعماله ، واثقا بأن الوقت أصبح في صالحنا ، واننا سننتصر في الحرب من غير شك •

وازدحمت الشواطيء الآن بمختلف أنواع الوسائل الدفاعية وتم تنظيم البلاد كلها في مجموعات ووحدات دفاعية وغدا السلاح يتدفق من المصانع ، ولم يكتمل شهر أغسطس حتى أصبح في حوزتنا مائتان وخمسون دبابة جديدة • وبدأنا نجني ثمار المساعدة الأمريكية وأخذ رجال الجيش البريطاني العامل ، وزملاؤهم من رجال الجيش الاقليمي يقومون بتدريباتهم في ساعات الصباح الباكر حتى المساء ، وبهم لهفة الى لقاء العدو ، وازداد عدد جنود الحرس الوطني الى ما فوق المليون ،

وعندما كان ينقصهم السلاح ، كانوا يعمدون الى استخدام أسلحة الصيد، والرياضة ، والمسدسات الخاصة ، وأحيانا الهراوات والمجارف ولم يتكون في بريطانيا طابور خامس ، وان صادفت قوات الأمن بعض الجواسيس، حققت معهم ، أما القلة الشيوعية الموجودة ببلادنا فقد تلاشت أصواتهم، على حين أقدم الشعب كله على بذل كل ما يستطيع من تضحيات عالمية ٠

وعندما زار رينتروب روما في سبتمبر قال لتشيانو : « ان الدفاع الاقليمي عن انجلترا لا وجود له ولا شك ، وأن فرقة ألمانية واحدة يمكنها أن تؤدي الى انهيار كامل فيها » ان قوله هذا يفضح جهله بنا ، وعلى كل فقد كنت أسائل نفسي دائما : ماذا يكون لو استطاع مائتا ألف ألماني من جنود العاصفة التجمع على شواطئنا ؟ لا ريب أن المذبحة ستكون مروعة وقاسية عند الفريقين ، اذ لم يكن هناك مجال لرحمة أو هوادة ، فقد كان الألمان على استعداد لاستخدام الارهاب ، وكنا من ناحية على استعداد للاستمرار في المقاومة الى أقصى حد ممكن وقد قررت تطبيق المثل السائر : « بوسعك دائما أن تمضي بشخص آخر معك بعيدا عن هذه الدنيا » وقد قدرت أن أهوال هذا المنظر ستفضي — في النهاية — الى ترجيح كفة الولايات المتحدة ، لكن كل هذه العواطف لم توضع موضع التجربة والاختبار ، وفوق مياه المانش ومياه بحر الشمال الزرقاء رفضت عشرات العمارات البحرية المتلهفة على القتال ساهرة الليل بطوله ، بينما كان طيارو المقاتلات يحلقون في السماء أو يقفون الى جانب طائراتهم استعدادا لتلقي أي اشارة تصدر اليهم ٠٠

حقا لقد كانت تلك الفترات جديرة بالحياة أو الموت ٠ اذا وقفت على حقيقة القوات البحرية فقد وقفت على معرفة لها خطرها وروعتها فاقتحام جيش لمياه المحيطات والبحار ، بالرغم من وجود أساطيل قوية وعمارات بحرية هائلة أمامه ، عمل حربي معجز ، وقد أضاف البخار كثيرا من القدرات الى امكانيات الأسطول في الدفاع عن بريطانيا العظمى٠ ففي عصر نابليون كانت الرياح تستطيع الدفع بقواربه المسطحة القعر الى الخلف ، لكن ما جد بعد ذلك ، قد ضاعف من تفوق الأساطيل القوية، ومقدرتها على تحطيم الغزاة ، وهم في الطريق ٠ وأدى كل تعقيد في الأجهزة الحديثة بالنسبة الى الجيوش الى أن أصبحت مهمتها أكثر صعوبة ومشقة ، والى أن صارت المتاعب التي تواجه قيادتها في تزويدها بالعتاد والذخائر بعد انزالها أمرا فوق الطاقة وفي أزمة الحرب السابقة التي اهتز فيها مصيرنا كانت لنا قوة بحرية متفوقة ، ولم يستطع العدو

كسب معركة بحرية واحدة هامة ضدنا ، لقد عجز عن لقاء قوة طراداتنا ، وثمة بالطبع فرص أكثر من أن تعد تتصل برداءة الطقس وخاصة فى حال تكاثف الضباب ، على أنه على فرض قيام هذه الفرص المعادية لنا ، واستطاعة العدو النزول الى برنا فى مكان أو أكثر ، فان ، مشكلة تزويد هذه القوات بما يلزمها وتغذيتها بأية تجمعات أخرى ، هذه المشكلة تظل مستعصية الحل • هكذا كان الوضع فى الحرب العالمية الأولى • أما الآن فقد دخل عنصر الطيران ، فما تأثير هذا التغير الرئيسى على الغزو ؟ من البين أن العدو اذا تمكن من السيطرة على مضايق دوفر ، بقوته الجوية المتفوقة ، فان خسائرنا فى المدمرات ستكون عظيمة للغاية ، وقد تكون أيضا فاصلة بل قاضية علينا • ولن يوجد انسان ــ الا فى حالات نادرة ــ لديه رغبة فى الاتيان ببوارج ضخمة أو طرادات كبيرة الى مياه تسيطر عليها القاذفات الألمانية ، وبالفعل لم نضع أى بواخر ضخمة الى الجنوب من فيرث أوف فورث أو الى الشرق من بلايموث ولكننا رصدنا فى هارويش ونور ودوفر وبورتسماوث وبورتلاند دوريات دائما اليقظة تتكون من سفن حربية خفيفة ، وقد أخذ عددها يتزايد باستمرار ولم يأت شهر سبتمبر حتى أصبح هذا العدد أكثر من ثمانمائة ، لم يكن فى المقدور تدميرها الا عن طريق قوة جوية متفرقة معادية وتمارس العمل على مراحل •

وهنا يرد سؤال : لمن كان التفوق فى الجو ؟ لقد كنا نقاتل الألمان فى معركة فرنسا وهم متفوقون علينا فى العدد بضعفين أو ثلاثة أضعاف، وبالرغم من ذلك ألحقنا بهم خسائر بما يوازى النسبة السابقة وفى سماء دنكرك وقد فرض علينا الاحتفاظ بدوريات مستمرة لتغطية انقاذ جيشنا، كنا نحاربهم بكسب وغنم بالرغم من تفوق عددهم بنسبة أربعة أضعاف أو خمسة وتوقع مارشال الجو الأعلى دوادنج ، قدرتنا على قتالهم ودفع هجماتهم بنجاح فوق مياهنا وسواحلنا ومقاطعاتنا المكشوفة حتى لو تفوقوا علينا بنسبة سبعة أو ثمانية أضعاف •

وقد كانت قوة السلاح الجوى الألمانى فى ذلك الحين وفق معلوماتنا الوثيقة ــ وكانت صادقة باستثناء بعض المجموعات الخاصة ــ تعادل ثلاثة أضعاف ما نملكه •• وبالرغم من أن هذا التفاوت كبير بالنظر للقتال مع أعداء شجعان أقوياء كالألمان • فقد انتهيت الى النتيجة التى سبق التوصل اليها وهى أن فى سمائنا وفوق بلادنا ومياهنا نستطيع الانتصار على السلاح الجوى الألمانى واذا صح هذا فان بحريتنا هى الأخرى

ستدوم لها السيطرة على البحار والمحيطات ، وستقوى على احباط محاولات الأعداء الذين يحاولون شق الطريق الينا .

وظل هناك عامل ثالث يتمثل فى الامكانيات والاحتمالات ، فلو استطاع الألمان - بما عرف عنهم من مهارة وبعد نظر ، اعداد حملة ضخمة فى سرية تامة تضم قطعا خاصة للانزال لا تحتاج الى موانىء أو أرصفة وانما تقوم بانزال الدبابات والمدافع والسيارات المدرعة فى أى مكان على الشاطىء فهل يتمكنون بعد ذلك من امداد هذه القوات بالتموين ؟ .. وقد ذكرت سابقا كيف طافت بى هذه الخواطر منذ عام ١٩١٧ ، وانتهت الآن بالقيام بحركة تنفيذ مضادة نتيجة لتوجيهى المباشر . وان لم يوجد لدينا أى مبرر يحملنا على الاعتقاد بوجود هذه المخترعات لدى الألمـان ، ولكن قواعد الحساب السلمية تقضى باحتساب الخسائر تماما كالأرباح .

واقتضى منا ايجاد المعدات التى احتجنا اليهـا فى عملية غـزو نورماندى بذل الجهد الضخم المتواصل والتجارب الى جانب العون المادى الكبير فى الولايات المتحدة طيلة - أربع سنوات ، وحقيقة لم يكن الألمان فى احتياج الى هذا العدد الهائل من المعدات فى مثل ذلك الوقت ولكن ما يملكون من معابر كان قليلا فى هذه اللحظة .

وهكذا أوجب علينا غزو انجلترا فى صيف ١٩٤٠ وخريف نفس العام تفوقا جويا هائلا وسيطرة بحرية اقليمية ، وكميات ضخمة من معدات الانزال ولكن السيطرة على البحر كانت لنا ، وكان لنا التفـوق الجوى وكنا نؤمن - وقد ثبت فيما بعد صحة ما آمنا به - بأن الألمان لم يبنوا القطع البحرية الضرورية للانزال ..

هذه هى أسس تفكيرى فى عام ١٩٤٠ وكان هناك الكثير من الحديث فى هذا الموضوع والكثير من القلق فى شهر يوليو فى الدوائر الحكومية وخارجها فى بريطانيا ، وعلى الرغم من عمليات استطلاعها المستمرة وعن سفن النقل الألمانية فى البلطيق أو فى موانىء الراين والشلدات ، وقد كنا على يقين كذلك من أن أية بواخر أو صنادل من ذوات المحرك الآلى لم تعبر المضايق الى المانش وبالرغم من كل هذا فقد كان التجهيز والاعداد لمواجهة الغزو وسحقه شغلنا الشاغل جميعا . وكنا نعتمد اعتمادا كليا على هذا التفكير فى الدوائر الحربية والقيادات العسكرية .

وكانت الخطة الألمانية التى كشف عنها ، تعتمد على أن يتم الغزو عبر القناة بسفن متوسطة تتراوح حمولتها ما بين أربعة آلاف وخمسـة

آلاف طن مع قطع صغيرة أخرى ، ونحن نعلم الآن أنهم لم يتطلعوا قط الى السير بجيوشهم من موانىء البلطيق أو بحر الشمال فى بواخر كبيرة ، كما لم يدر بخلدهم الغزو من موانىء بسكاى ، وهذا لا يعنى أنهم كانوا منصفين باختيارهم للساحل الجنوبى هدفا لهم وان كان كلانا على خطأ ، فغزو الساحل الشرقى كان أكثر قيمة وأكبر أهمية لو استطاع العدو أن يوفر السبل والوسائل لمحاولته ، وطبعا لم يكن هناك مجال لغزو الساحل الجنوبى الا بعد أن تمر البواخر الضرورية جنوبا عبر مضيق دوفر ، بعد أن تتجمع فى الموانىء الفرنسية القائمة على القناة ، وطيلة شهر يوليو لم نلمح أثرا لمثل هذه التحركات •

وبالرغم من كل ذلك فقد وجب علينا أن نستعد لكافة الظروف والاحتمالات وألا نوزع — فى الوقت نفسه — قواتنا المتحركة ، وأن نجمع قواتنا الاحتياطية ونحشدها ، وفى المستطاع حل هذه المشكلة الشائكة والشائعة فى نفس الوقت ، فالأحداث تتوالى من أسبوع لآخر والساحل البريطانى المعروف بكثرة تعاريجه يبلغ طوله أكثر من ألفى ميل ، باستثناء ايرلندا ، والسبيل الوحيد للدفاع عن محيط متسع كهذا — قد يتعرض أى جزء منه أو جزءان منه فى وقت واحد لهجوم مفاجىء ناجح — يحتم علينا انشاء مراكز للمراقبة والمقاومة حول الساحل أو الحدود ، غايتها عرقلة الزحف الأجنبى ، مع ايجاد أكبر قوة ممكنة من الاحتياطى فى الوقت نفسه تضم الجنود المدربين والعاملين فى وحدات متحركة يمكنها الوصول الى أى مكان يقع عليه هجوم مفاجىء فى أقصى مدة ممكنة ثم الشروع فى هجوم مضاد •

وحين رأى هتلر نفسه محاطا — فى المراحل الأخيرة من الحرب — بأعداء ، وواجه نفس المشكلة ، ارتكب فى معالجتها — كما سنعرف بعد — أخطاء جسيمة فلقد أقام شبكة من المواصلات تشبه نسيج العنكبوت ، وأغفل العنكبوت نفسه ، ولما كانت قصة تشتيت القوات الفرنسية الخاطئة التى أدت بنا الى الكارثة واقتضتنا ثمنا فادحا ، لاتزال ماثلة فى ذهنى ، فاننى قد صرفت جهدى كله منذ البداية الى حشد قوات المناورة ، وقد رسخت هذه السياسة فى نفسى الى أقصى حد ممكن تسمح به مواردنا المتضاعفة •

وقد التقت آرائى بوجهات نظر البحرية ، وأرسل الى الأميرال بلوند فى ١٢ يوليو بيانا مفصلا مكتملا جهزه بالاشتراك مع رئاسة أركان حربه .

قائما على هـــذه الأسس النظرية .. وقد فصل البيـــان بالطبع جميع الصعوبات التى علينا مواجهتها ، وقال الأميرال باوند فى اجماله للخطة ما يلى :

ربما يصل الى شواطئنا بما يقرب من مائة ألف جندى دون أن تكون لدينا القوات البحرية الكافية لقطع الطريق عليهم ووقفهم ...

ولكن الابقاء على خط مواصلات ـ لتموين هذه القوات ـ أمر مستحيل عمليـــا اذا استطاع الســلاح الجوى الألمانى التغلب على سلاحنا الجــوى وأسطولنا فى وقت واحــد ، واذا ما قام العدو بعملية كهذه فربما كان التقدم بسرعة الى لندن ، والاعتماد فى تموينه على البلاد التى يســـتولى عليها على حين يرغم الحكومة على الخضوع والاستسلام .

وقد اقتنعت اقتناعا كاملا بهذا الاحتمال ، وتغير الوضع تغيرا حاسما فى شهر أغسطس ، فقد استيقنت مخابراتنا الماهرة من أن هتلر قد أصدر تعليماته بالاعداد لعملية « سبع البحر » وأن هذه العملية فى دور الاعداد الفعلى فى هذه الآونة ، وظهر لنا بشكل نهائى أن الرجل سيقدم المغامرة وكانت الجبهة التى سيهجم عليها تختلف تماما ، وقد تكون ثانوية بالنسبة للساحل الشرقى الذى كنت أنا قد وجهت اليه بالغ العنـــاية مع رؤساء أركان الحرب والأميرالية وسرعان ما بدأ عدد كبير من الصنادل ذوى المحرك الآلى ، والزوارق البخارية يعبر أثناء الليل مضايق دوفر ، زاحفا بمقربة من الســاحل الفرنسى ، ومتجمعــا شيئا فشيئا فى سائر الموانىء الفرنســـية الممتدة من كاليه الى بريست ، وكانت الصـــــور الفوتوغرافية التى تصل الينا يوميا ، توضح لنا هذه التنقلات بدقة وعناية ، ورأينا أنه من العسير علينا أن نبث ألغامنا على مقربة من الساحل الفرنسى ومضــينا فورا الى مهاجمة هــذه المراكب المتحركة بواحــداتنا الصــغيرة ، وركزت قيــادة قاذفات القنــابل هجوما على موانىء الغزو وسرعان ما انهالت علينا الأنباء عن احتشاد جيش أو جيوش ألمانية هائلة للقيام بهذا الغزو على قطاع الساحل المعادى ، وعن تحركات واسعة النطاق على السكك الحديدية واحتشادات ضخمة فى خليج كاليه ونورماندى ، وخرجت الى حيز الوجود أعداد وفيرة من بطاريات المدافع القوية البعيدة المدى ، منتشرة على طول الساحل الفرنسى القائم على القناة وكان علينا أن نواجه الخطر الجديد وننقل اعتمادنا على هذه القدم الى القدم الأخرى ونهيىء كافة السبل لتيسير نقل احتياطنا المتحرك الذى يتضاعف عدده

ـ الى الجبهة الجنوبية ومضى الوقت وقواتنا المتزايدة عددا المتقدمة الكفاءة وسرعة التحرك ، تطمئننا الى قدراتها وفعاليتها ولم ينقض النصف الأخير من شهر سبتمبر ، حتى كان فى استطاعتنا أن نحشد ست عشرة فرقة من خيرة الفرق نظاما واعدادا على الساحل الجنوبى ، بينها ثلاث فرق مدرعة ، عدا أجهزة الدفاع الساحلية المحلية ، وقد أصبح فى مكنتها القيام على الفور بأى عمل عسكرى يوكل اليها ضد أية عملية للغزو أو الانزال : وأصبحت لنا قوة ضاربة أو مجموعة من القوى الضاربة التى كان الجنرال بروك وحده القادر على تحريكها عندما تحين الساعة فهو أكثر سيطرة عليها من كل من عداه ٠

***

حدث كل هذا بالرغم من عدم ثقتنا بأن جميع المداخل ومصـبات الأنهار المنتشرة من كاليه الى تيرشيلينج وهليجولاند ، وكل ما أمامه من جزر تقع بالقرب من الساحلين الهولندى والدانمركى ، لا تخفى قوات معادية هائلة أخرى من نوع صغير متوسط ٠

وقد خطر ببالنا أن الهجوم سيبدأ من هارديش حول بورتماوث وبورتلاند الى بليموث ، مع تركيز خاص على مقاطعة « كنت » أيضا ، ولم توجد لدينا أية براهين أخرى ايجابية على أن موجة ثالثة من الغزو قد لا تتسق وتتوافق فى الزمن مع الموجتين الأوليين ، وتشن من موانىء البلطيق خلال مضايق سكاجراك فى سفن كبيرة ، ولا ريب فى أن مثل هذا الغزو جوهرى بالنسـبة لخطط الألمـان لتحقيق النجاح ، اذ تعتبر الوسيلة الوحيدة لوصول الأسلحة الثقيلة التى تم انزالها ، أو لاقامة مستودعات تموين كبيرة ٠

ودخلنا فى ذلك الحين فترة من التوتر الشديد ، واليقظة الدائمة وكان علينا طيلة الوقت أن نحرص على وجود قوات كبيرة فى الشمال من « دوش » حتى « كروماريتى » كما قمنا بعمل الترتيبات اللازمة لسحب جزء منها فى حالة وقوع الغزو فى الجنوب ، وكان فى مقدرتنا بفضل الشبكة الرائعة الداخلية من سكك حديدنا ، وبفضل استمرار سيطرتنا على الجو فى سماء وطننا أن نسحب ـ بكل ثقة ـ أربع فرق أو خمسا من الشمال لتعزيز الدفاع عن الجنوب فى حالات الضرورة القصوى ـ فى أيام الرابع والخامس والسادس من بدء تحرك العدو ٠

وأجرينا دراسة دقيقة لأوضاع القمر والمد والجزر وتيقنـا من ان العدو سيؤثر عبور البحر فى الليل والنزول الى الأرض عند الفجر ، وها نحن أولاء الآن نعرف أن ما تيقنا كان على صواب أيضا ، ولم نجد لدينا ذرة من الشك فى مقدرتنا على تحطيم كل ما ييسر للعدو النزول فى أكمة دوفر البحرية ، أو فى القطاع الساحلى الممتد من دوفر الى بورتسماوث الى بورتلاند وكانت أفكارنا جميعا ــ نحن الذين نتـولى القيادة ــ تسير فى اتجاه وتوافق تامين مما يثير الاعجاب لتوجيه ضربة الى عدونا تخلف دويا فى كافة أنحاء العالم ، ولم يكن فى استطاعة أى انسان الا أن يحس بالحماسة ويشعر بالتأثر من هذا الجو الذى يوحى بعزم هتلر وعتاده ٠

وكان من بيننـا من يتحرق شوقا الى قيـام هتلر بمحاولته ، يحدوهم الى ذلك العوامل المجردة التى تؤكد لهم مدى تغير مجرى الحرب لو منى هتلر بتدمير محاولته ، وتحطيم أمانيه ٠

وكنا قد انتهينا خلال شهرى يوليو وأغسطس من السيطرة الجوية على سماء بريطانيا ، وكانت قوتنا متفوقة تماما وبصـورة خاصة فى سماء القطاعات الواقعة فى الجنـوب الشرقى لبلادنا ، وأخذت المعـدات الدفاعية الدقيقة ، والمراكز المنيعة ، والحصون الشماء ، وحواجز مكافحة الدبابات ، وحواجز الطـرق ، الى غير ذلك تملأ كل مـكان وتوهجت سواحلنـا بالاجراءات الدفاعية والبطـاريات كمـا توفر لدينا عـدد من المدمرات العامة فى الأطلنطى مع ما فى هذا الاجراء من ثمن باهظ تكبدته قوافلنا التجارية فى الأطلنطى كما شيدنا عددا آخر منها ، ليزيد استحكام الدفاع عن السواحل ، وقد أحضرنا بارجة التدريب (سنتوريون) واحدى الطرادات الى بلايموث ٠ وظل أسطولنا فى ذروة قوته ، وفى قدرته أن يعمل مع تجنب كثير من الأخطار حتى الهامير أو « ووسن » ٠

وبهذا كنا على أتم الاستعداد لمواجهة أى شىء ٠ وأخيرا ٠٠ فقد اقترب موسم الزوابع الاستوائية المعروفة فى أكتوبر ، وكان سبتمبر هو الشهر الذى يتحتم على هتلر أن يوجه فيه ضربته اذا واتته الجرأة الكافية حيث تكون فى صالحه ظواهر المد والجزر والقمر فى أواسط ذلك الشهر ٠

وأرى الوقت قد حان ، لننتقل معا الى معسكر الأعداء ، حتى أطلع القارىء على مدى استعداداته وخططه ، كما وقفنا عليها فى هذه الآونة ٠

٨ عملية سبع البحر

لم تكد تنشب الحرب فى ٣ سبتمبر عام ١٩٣٩ ، حتى بدأت البحرية الألمانية ـ كما تشير الوثائق المصادرة بعد الحرب ـ عدا الدراسات اللازمة لغزو بريطانيا ٠ وقد رأت نقيض ما ارتأيناه ـ أن السبيل الوحيد هى اتمام الغزو عبر هذه المياه الضيقة لبحر المانش ولم يقدر الألمانيون أى احتمال آخر ، ولو كنا عرفنا هذه الحقيقة آنذاك ، لاسترحنا كثيرا حيث يواجه الغزو عبر المانش أكثر سواحلنا تحصينا ، وهى الجهة البحرية القديمة المواجهة لفرنسا حيث الموانى المحصنة وحيث قواعد المدمرات الرئيسية ، وأغلب المطارات ومحطات الاشراف الجوى للدفاع عن لندن ، ولم نكن نعتمد فى أى جزء من أجزاء الجزيرة اعتمادنا على هذا الجزء فى المسارعة الى العمل بقوة ضخمة ، وبجميع قواتنا المسلحة الثلاث ٠٠ وكان الأميرالاى ريدر موجها كل اهتمامه للاعداد فى حالة قيام الأسطول الألمانى بغزو بريطانيا ، وفى نفس الوقت طلب تركيز الكثير من الأوضاع ، وفى مقدمتها الاشراف الكامل على سواحل فرنسا وبلجيكا وهولندة وموانيها ومصبات أنهارها وهذا هو سبب نوم المشروع طيلة فترة « شفق الحرب » التى مضت ٠

وفجأة برزت الافتراضات بصورة تثير الاستغراب ، وتمكن ريدر بالرغم من بعض وساوسه من التقدم الى الفوهرر ، مساء معركة دنكرك واستسلام فرنسا ، بمشروع نال رضاه ، وتحدث فى ٢١ مايو الى هتلر فى الموضوع ، ثم رجع فتحدث اليه فى العشرين من يونيو ، لا عن اقتراح القيام بالغزو بل بنسبة التأكد من انه فى حالة صدور الأمر بالغزو فان اعداد التفاصيل المتعلقة بالمشروع لن يتم بطابع العجلة وكان هتلر بدوره تساوره الظنون فى النجاح فعقب قائلا ٠ انه يقدر تماما الصعوبات المحتومة التى سيواجهها مشروع كهذا وكان هتلر يتعلق بالأمل الواهى من أن انجلترا قد تطلب الصلح وتنشده ، ولم تتنبه القيادة الألمانية الى

فكرة الغزو الا في آخر أسبوع من يونيو وفي الأسبوع الثاني من يوليو صدرت التوجيهات الأولى بتجهيز خطة للغزو كأمر محتمل الوقوع ، وتقضى هذه التوجيهات بأن الفوهرر قد علق غزو انجلترا على توفر بعض الشروط الخاصة وفى طليعتها السيطرة الجوية .

وأصدر هتلر فى ١٦ يوليو توجيها منه يقول انه على الرغم من المأزق العسكرى الحرج لانجلترا فانها لم تظهر أية رغبة فى التفاهم ومن أجل هذا عزمتُ على اعداد عملية النزول فى انجلترا ، لتنفذ فى الوقت المناسب . وينبغى أن تتم الترتيبات اللازمة للخطة كلها قبل منتصف شهر أغسطس ... وكانت الاجراءات العملية لتنفيذ هذه الاشارة قد بدأت فى كل مكان .

كانت خطة الأسطول الألمانى ميكانيكية على العموم ، فتحت ستار نيران البطاريات الساحلية من كاليه فى اتجاه دوفر ، وتحت حماية مدفعية قوية على طول الساحل الفرنسى المقابل للمضيق ، كانت خطة البحرية تقضى باقامة نطاق ضيق عبر المانش فى أقصر مسافة ممكنة واحاطته من الجانبين بسياج من الألغام مع قيام الغواصات بحماية خارجية وكان من المتفق عليه أن ينقل الجيش فى صنادل عبر القناة على أن تمونه سلسلة طويلة من الامدادات والى هنا ينتهى دور الأسطول الألمانى وعلى قيادة الجيش معالجة بقية المشكلة .

فاذا قدرنا أنه كان فى استطاعتنا بفضل تفوقنا البحرى الهائل أن نقضى على حقول الألغام المذكورة بالقطع البحرية الصغيرة تحت ستار قوة جوية ماهرة وضرب الغواصات المحتشدة من الجانبين لحماية الحقول لاتضح لنا أن هذه الخطة كانت خطة متداعية منذ البداية .

وكان فى مقدور أى انسان يوقن أنه بعد انهيار فرنسا لم يكن هناك مفر من امتداد أجل الحرب وتزايد الأخطار الا اذا اضطرت بريطانيا الى التسليم .

وكان الأسطول الألمانى - كما عرفنا سابقا - قد نالت منه بصورة خطيرة معركة النرويج ولم يعد فى مقدوره بوضعه الراهن أن يقدم الى الجيش الا بمساعدة جزئية ضئيلة ومع ذلك فقد جهز الأسطول خطة ولم يكن فى مستطاع أحد أن يقول ان حسن الحظ قد هبط عليه فجأة .

وكانت القيادة العليا للجيش الألماني قد اعتبرت غزو انجلترا فى بادىء الأمر شيئا يثير التقزز ، فى النفوس ولم تكن قد دبرت أية خطط أو اعدادات لتنفيذه كما لم يتلق جنودنا تدريبا على العمليات الخاصة به ولكن بعد أن توالت أسابيع من نشوة الانتصارات الرائعة ، وجدت القيادة فى نفسها الجرأة والشجاعة للقيام بأية مهمة ولم يكن اقتحام البحر بأمان مسئولية تتعلق برجال القيادة من الناحية الادارية ولكنهم كانوا على ثقة من أن الجيش اذا بلغت قواته الضخمة شاطىء بريطانيا فى سلام وأمان فان مهمة احراز النصر على بريطانيا تصبح أمرا يسيرا .

وقد أحس الأميرال ريدر فى شهر أغسطس بوجوب توجيه أنظارهم الى ما فى عبور القنـــاة من خطورةٍ والى توقع ضياع الجيش فى هذه المحاولة .

وعندما تولى الأسطول مهمة نقل الجيش العابر أصبحت البحرية الألمانية تدور فى دوامة قلق مستمر وقابل قادة الأسلحة الثلاثة الفوهرر فى ٢١ يوليو فأبلغهم بأن الحرب قد بلغت مرحلتها الفاصلة ولكن انجلترا لا ترغب فى الاعتراف بذلك وما زالت ترجو أن تدور عجلة القدر وتحدث عما يصل انجلترا من عون الولايات المتحدة كما أشار الى احتمال تبدل فى العلاقات السياسية فى ألمانيا وروسيا واستطرد قائلا ان تنفيذ عملية « سبع البحر » تعتبر الخطة الأكثر جدوى فى التعجيل بنهاية الحرب وبعد حديث طويل مع الأميرال بدأ هتلر يكشف خطورة ماتخبئه عمليات اجتياز المانش بما فيه من تيارات ومد وجزر وبما فى البحر من غموض وأسرار ثم وصف عملية « سبع البحر » بأنها فى منتهى الجرأة والمقامرة واستطرد يقول : وبالرغم من قصر المسافة فان العملية ليست عبور نهر ولكنها اقتحام بحر يسيطر عليه العدو وليست العملية اجراء فرديا فى العبور كما حدث فى النرويج اذ لم تكن هناك عناصر للمفاجأة ولكننا هنا سنواجه عدوا مستعدا للدفاع وقد صمم على القتـــال وقد فرض سيطرته على المنطقة البحرية التى يجب علينا استخدامها وستقتضينا عملية الجيش نحوا من أربعين فرقة وربما يكون أصعب اجراء فى العملية كلها هو نقل الامدادات والتموين اذ ليس فى مقدورنا أن نعتمد على أى نوع من المؤن يتيسر لنا الحصول عليه داخل انجلترا ، وكان الأساس الأول فى نجاح الغزو هو السيطرة الكاملة فى الجو واستخدام مدفعية قوية فى مضيق دوفر والحماية عن طريق الألغام .. ثم تابع هتلر حديثه قائلا : والطقس عامل حيوى أيضا فالطقس فى بحر الشمال وفى المانش

يعنف فى النصف الثانى من شهر سبتمبر كما يتكاثف الضباب فى منتصف أكتوبر ولهذا يتحتم انهاء الغزو قبل ١٥ سبتمبر اذ بعد هذا الوقت يشق علينا أن نتأكد من قيام التعاون بين السلاح الجوى والأسلحة الثقيلة وهذا التعاون من السلاح الجوى يعد عاملا حاسما فى تحديد الموعد ٠

وقد ثار نقاش حاد تخلله شيء من الخشونة بين أركان الحرب الالمان حول عرض الجبهة وعدد المراكز التى يتحتم أن تهاجم وقد طلب الجيش أن تتم سلسلة من عمليات الانزال على طول الساحل الجنوبى لانجلترا الممتد من دوفر الى « لايم ريجيز » الى الغرب من بورتلاند وطالب أيضا بأن تنزل قوات مساعدة فى رامسجيت الى الشمال من دوفر ٠ وقد أعلن أركان البحرية الآن أن آمن مكان للعبور هذا الواقع بين فورلاند الشمالية وجزيرة وايت ٠ وعلى هذا الوضع أجرى اعداد مائة ألف جندى لانزالهم فى هذه المنطقة على أن يتبع ذلك بمائة وستين ألف جندى آخرين فى أماكن متفرقة تمتد من دوفر غربا حتى خليج لايم ٠

وأعلن الجنرال هولدر رئيس أركان حرب الجيش أن من المحتم انزال أربع فرق على الأقل فى منطقة برايتون ، كما طلب انزال قوات أخرى بين ريل ورامسجيت وأن توزع ثلاث عشرة فرقة ان أمكن فى وقت واحد فى أماكن متعددة على طول الجبهة وطلب السلاح الجوى الألمانى فى ذات الوقت سفنا كافية لنقل اثنتين وخمسين بطارية ٠ من المدافع المضادة للطائرات مع حملة الانزال الأولى ٠

ولكن رئيس أركان البحرية بين استحالة القيام بعمليات واسعة وسريعة كهذه العمليات ، وقرر أنه لا يستطيع عمليا حراسة أسطول الانزال فى هذه المسافة الممتدة من البحر وأن على الجيش اختيار أفضل نقطة أو مكان ضمن هذه الحدود التى ذكرت ـ فليس لدى الأسطول قوة تكفى لحماية أكثر من عملية عبور واحدة فى وقت واحد حتى ولو كانت لنا السيادة على الجو ٠ وهو يرى أن أضيق مكان فى مضايق دوفر هو أكثرها سهولة من ناحية الحماية بطلب نقل المائة والستين ألف جندى فى المرحلة الثانية فى عملية واحدة وذلك يحتاج الى ألف سفينة حمولتها مليون طن ٠

وأضاف رئيس أركان البحرية أنه حتى فى حالة توفر هذا الرقم الخيالى فان موانىء الابحار لا تستطيع استيعاب مثل هذا العدد الضخم ،

أما ما يمكن عمله فهو القيام بنقل الفصائل الأولى من الفرق الأربع لاقامة رءوس جسور ضيقة على أن تنقل فى خلال اليومين التاليين الفصائل الباقية من هذه الفرق فحسب دون ذكر أدنى معلومات عن الفرق الست الباقية المحتم انزالها لنجاح العملية وأشار أيضا الى أن الانزال على جبهة واسعة يعنى ايجاد فرق فى أوقات المد العالى بين مختلف الأماكن المختارة يتراوح بين الثلاث ساعات والخمس ساعات ونصف • وعلى هذا ينبغى أن نختار بين أمرين أما أوضاع المد غير الملائمة فى بعض الأماكن واما العدول نهائيا عن انزال القوات فى أماكن متفرقة فى آن واحد وكان الرد على هذا الاعتراض من أشد الصعوبات •

ومر وقت طويل ضاع خلال تبادل هذه المذكرات •• وأخيرا التقى الجنرال هولدر ورئيس أركان البحرية لأول مرة فى اجتماع عقد بينهما فى ٧ أغسطس قال هولدر فى هذا الاجتماع ، اننى أرفض مقترحات الأسطول رفضا باتا فمن وجهة نظر الجيش تعتبر العملية بهذا الوضع انتحارية فارسال القوات كما اقترحتم معناه القاؤها فى مفرمة اللحم كما يلقى اللحم • فرد عليه رئيس أركان البحرية قائلا : انه ليس فى وسعه أيضا أن يقبل عملية النزول على جبهة واسعة اذ ان ذلك لا يعنى الا شيئا واحدا هو التضحية بالجنود فى أثناء عبورهم ، وأخيرا تم الوصول الى حل وسط تولاه هتلر بنفسه ولم يقتنع به الجيش أو البحرية فقد صدر قرار من القيادة العليا فى ٢٧ أغسطس جاء فيه أن على عملية الجيش أن تتسق والحقائق التى توجبها شروط الحمولة المحدودة فى البواخر وسلامة العبور والانزال وقد تم نبذ فكرة النزول فى منطقة ريل رامسجيت ولكن تقرر أن تمتد الجبهة من فولكستون الى بوجور وهكذا لم يتم اتفاق نهائى حتى نهاية شهر أغسطس ، فكل شىء بالطبع متوقف على النصر والتفوق فى المعركة الجوية الناشئة منذ ستة أشهر تقريبا •

وتم اعداد الخطة النهائية على هدى طول الجبهة التى جددت فى النهاية وعهد بالقيادة العسكرية الى رونشتادت لكن النقص فى السفن قلل من عدد القوات فأصبحت ثلاث عشرة فرقة أساسية واثنتى عشرة فرقة أخرى احتياطية ، وتقرر أن يبحر الجيش السادس عشر من الموانىء الواقعة بين بولون وروتردام وأن تنزل بالقرب من هايث وراى وهيسنجير وايستبورن وأن يبحر الجيش التاسع من الموانىء الواقعة بين بولون والهافر وأن يهاجم المناطق بين برايتون دورتيج وقد جهزت الخطة على أساس الاستيلاء على دوفر من ناحية الير وأن يزحف الجيشان بعد ذلك

على الخط الممتد من (كانتربوري) الى (اشفورد فيفيلد وأورنديل) وستنزل إحدى عشرة فرقة فى المراحل الأولى وتمنت القيادة الألمانية أن تتمكن القـوات الغازية فى الأسبوع الأول من التقدم الى (جريفسن وريفيت وبوزفيلد وبورتسمات) وأن يقف الجيش السادس الاحتياطى على أهبة الاستعداد لتعزيز القوات الغازية أو لتوسيع منطقة الهجوم اذا ألحت الظروف الى (ويماوث) وليس ريب فى أن القيادة الألمانية لم تفتقر الى الجنود الشجعان المسلحين خير تسليح افتقارها الى سفن للنقل وسلامة العبور ٠

ووقع عبء المرحلة الثقيل فى الهجوم على أركان « البحرية » ولم يكن فى حوزة ألمانيا ما يزيد على حمولة مليون ومائتى ألف طن من السفن المعدة اعدادا كاملا ونقل القوات الغازية يحتاج الى أكثر من نصف هذه الحمولة ويؤدى الى الكثير من المشكلات الاقتصادية وعندما حل شهر سبتمبر تمكنت القيادة البحرية من أن تعلم أنها استطاعت أن تضع يدها على البواخر التالية ١٦٨ باخرة مجموع حمولتها سبعمائة ألف طن ، ١٩١٠ من الصنادل ، ٤١٩ من القاطرات وسفن صيد الأسماك ، ١٦٠٠ من الزوارق البخارية ٠

وكان من الممكن نقل هذا الأسطول العتيد بعد تجهيزه بالبحارة الى موانىء التجمع عن طريق البحر والمانش وعندما بدأت فى اليوم الأول من سبتمبر عملية اندفاع الملاحة الضرورية للغزو جنوبا كانت قواتنا الجوية تراقبها وترصد تحركاتها وتقصفها بعنف على طول الجبهات من أنتوبرب الى الهافر وسجلت أركان البحرية الألمانية مايلى : ان دفاع العدو المستمر من الساحل وتركيز غارات طائراته على موانىء ابحار عملية « سبع البحر » ومواصلة أعمال الاستكشاف توحى جميعا بأن العدو يتوقع غزوا قريبا عاجلا ٠

وذكرت تقارير أركان البحرية الألمانية أيضا ، أنه مازالت الطائرات البريطانية قاذفات القنابل وطائرات بث الألغام تواصل أعمالها بصفة دائمة وعلينا أن نقرر أن غارات الطائرات البريطانية كانت موفقة وان لم تكن فاصلة فى عرقلة السفن الألمانية الى الموانىء ٠

وبالرغم مما حدث من التدمير والتعويق فقد استطاعت البحرية الألمانية انجاز الجزء الأول من مهمتها الخطيرة ولم تجاوز الخسائر أعلى ما قدرته القيادة العليا للحوادث وهى عشرة فى المائة من مجموع قوة

الغزو كاملة أما ما بقي على أهبة الاستعداد فلم يكن بأقل من الحد الأدنى الذى قررت القيادة الألمانية حتمية وجوده للقيـــام بالمرحلة الأولى من العملية •

وقد ألقى الجيش والأسطول الألمانى العبء كله على كاهل السلاح الجوى وكانت حماية الممر بما يلازمها من بث الألغام التى بمثابة الأسوار موكلة الى السلاح الجوى الألمانى ضد التفوق الظاهر لعمليات المدمرات البريطانية والسفن الصغيرة ، أى أن الخطة كانت قائمة على هزيمة السلاح الجوى البريطانى والسيطرة المطلقة لألمانيا على الجو لا فوق المانش وجنوب شرقى آسيا فقط بل فوق مناطق العبور والانزال كذلك وهكذا وكل السلاحان الألمانيان القديمان تنفيذ الخطة الى ماريشال الرايخ جورنج •

ورحب جورنج بقبول هذه المسئولية لثقته بالتفوق العددى للسلاح الجوى الألمانى وانه لن تمضى أسابيع قليلة من القتال العنيف حتى تنزل الهزيمة بالدفاع البريطـانى وتدمير مطـاراته فى (كنت وسكس) وإحكام السيادة التامة على المانش •

واعتقد جورنج أيضا اعتقادا لا يقبل الشك أن قصف انجلترا من الجو وخاصة العاصمة سيدفع بالشعب البريطانى المنحل الذى يؤثر العافية الى الرضوخ وطلب الصلح ، هذا بالاضافة الى أن نذر الغزو كانت قد بدت فى الأفق القريب ، ولكن البحرية الألمانية لم تجاره فى تفاؤله وكانت شكوكها عميقة الجذور •

وأن عملية « سبع البحر » لا يمكن الا أن تكون اجراء أخيرا فأوصت فى شهر يوليو بتأجيلها حتى ربيع عام ١٩٤١ • الا اذا أجبرت الغارات الجوية المستمرة وحرب الغواصات الرهيبة العدو على مفاوضة الفوهرر بالشروط التى يراها ، أما الفيلد مارشال كايتل والجنرال يودل فقـد كانا مغتبطين من تفاؤل قائد الجو الأعلى جورنج •

لقد عاشت ألمانيا النازية أياما مجيـدة رائعة انتشى فيهـا هتلر بخمرة النصر قبل أن تذل له فرنسا فى هدنة كومبيين وسار الجيش الألمانى الظافر تحت أقواس النصر وعبر الكاب ايليسيه ، فهل بقى هناك شيء يعجزون عن تنفيذه ؟ فلم التردد اذن فى الاقدام على مجازفة مضمونة؟ وهكذا فان الأسلحة الثلاثة التى تشترك فى انقاذ خطة « سبع البحر » نظر كل منها الى الجانب المضيء فى الدور الذى سيضطلع به وترك الجانب المظلم الى السلاحين الآخرين •

وبمرور الأيام تضاعفت الشكوك وقامت العراقيل وكان قرار هتلر الصادر فى ١٦ يوليو قد حدد انهاء جميع الاستعدادات قبل منتصف شهر أغسطس ولكن كافة الأسلحة وجدت أن تنفيذ هذه المهمة فى الوقت المحدد غير ممكن وقبل هتلر فى نهاية شهر يوليو تحديد موعد ١٥ سبتمبر كموعد مبكر للغزو بينما أجل قراره الأخير الذى يقضى بتحديد موعد البدء فى العمل حتى تستبين نتائج المعركة الجوية التى حمى وطيسها ٠

وأبلغت البحرية فى ٣٠ أغسطس القيادة العليا ، ان استعدادات أسطول الغزو يستحيل أن تتم فى ١٥ سبتمبر بالنسبة للاجراءات المضادة التى أقدمت عليها بريطانيا وعلى هذا تأجل البدء فى الغزو حتى ٢١ سبتمبر مع اشتراط عشرة أيام كانذار مسبق ، وهذا يعنى ضرورة صدور الأمر الأول فى ١١ سبتمبر وأبلغت البحرية مرة أخرى فى ١٠ سبتمبر القيادة مدى الصعوبات الجمة التى تواجهها لرداءة الطقس وأعمال بريطانيا المضادة، وأشار الى أنه على الرغم من أن التجهيزات البحرية المطلوبة قد تتم فعلا قبل ١١ سبتمبر ، الا أن الشرط الأساسى الذى يحتم السيطرة المطلقة على جو القناة لم يتحقق بعد ٠ وقد أدى ذلك الى أن أصدر هتلر قراره فى ١١ سبتمبر بتأجيل صدور الأمر التمهيدى لثلاثة أيام أخرى ، وبهذا تأجل الغزو الى الرابع عشر ، وتأجل ثانية فى الرابع عشر ثلاثة أيام أخرى ، وفى يوم ١٧ سبتمبر تأجل اصدار هذا الأمر الى أجل غير مسمى لأسباب وجيهة فى رأيهم ورأينا أيضا ٠

وعلمنا من الأنباء التى وصلت الينا فى ٧ سبتمبر ، أن تحركات الصنادل والسفن الصغيرة مازالت مستمرة غربا وجنوبا فى اتجاه الموانىء الواقعة بين أومستند والهافر ، ولما كانت هذه الموانىء تحت وطأة الغارات البريطانية القاسية فقد كان من المعقول ألا تنتقل اليها السفن الكبيرة الا قبيل الغزو ، وتضاعفت القوة الضاربة للسلاح الجوى الألمانى بين أمستردام وبريست حتى بلغت مائة وستين قاذفة قنابل جىء بها من النرويج الى هذه المنطقة كما رأينا مجموعات من طائرات الانقضاض ذات المدى القصير فى المطارات الأمامية والواقعة فى خليج كاليه ، وقد قرر أربعة من الجواسيس الألمان تم اعتقالهم قبل مضى بضعة أيام من هبوطهم من أحد زوارق التجديف على الساحل الجنوبى والشرقى من انجلترا ، انهم بعثوا ليكونوا على استعداد فى أية لحظة أثناء الأسبوعين القادمين وارسال تقارير خاصة عن تحركات الوحدات البريطانية ٠ الاحتياطية فى قطاع أيبويس ــ لندن ــ ريدنج ــ اكسفورد وكانت أوضاع القمر والمد

بين الثامن والعاشر من سبتمبر ملائمة لغزو الساحل الجنوبي الشرقي . ولذلك فقد قرر رؤساء أركان الحرب عندنا أنهم يتوقعون الغزو في أية لحظة ، وأن على قوات دفاعنا أن تقف على أهبة الاستعداد لمواجهة أي طارىء عاجل .

ولم يكن ثمة جهاز في القيادة العامة حينذاك يستطيع أن ينقل اعلان حالة الطوارىء المحددة له ثماني ساعات الى عمل فوري ، ومع ذلك فقد صدرت كلمة السر « كروموبل » — التي يقصد بها أن الغزو محتمل في أية لحظة — الى القوات في الساعة الثامنة مساء ٧ سبتمبر والى القيادتين الجنوبية والشرقية ، للعمل الفوري السريع للفرق الساحلية الأمامية ، وجميع الوحدات في منطقة لندن والى الفيلقين الرابع والسابع من قوات الاحتياط التابعة للقيادة .

وكررت الكلمة « للعلم فقط » الى جميع القيادات الأخرى في المملكة المتحدة ، وعندما وصلت هذه الكلمة الى قادة الحرس الوطني في بعض أنحاء البلاد ، قاموا بدافع من أنفسهم باستدعاء قوات الحرس بدق أجراس الكنائس ولم أكن أنا ورؤساء أركان الحرب قد علمنا بأن كلمة «كروموبل» قد استخدمت فعلا ولذا فقد صدرت أوامرنا في الصباح التالي بضرورة ايجاد مراحل انتقالية ، يتضاعف فيها الحذر في المناسبات المقبلة دون اعلان أن الغزو قد وقع ، وفي استطاعة كل انسان أن يتخيل ما أثاره هذا الحادث من هرج ومرج ، وان لم يشر اليه سواء في الصحف أو في البرلمان .. وعلى كل فقد كان هذا الحادث بعناية تدريبا لكل من يعنيهم الأمر .

***

والآن .. وبعد أن تتبعنا مراحل اعداد القيادة العليا الألمانية حتى وصلت الى القمة .. فقد غدا في امكاننا أن نعرف كيف تغير الموقف من الزهو بالانتصار المبكر الى قيام حال من الشك ، ثم الى ضياع كل ثقة في النتيجة ، وقد شاهدها القائد البحري ريدر في شهري يوليو وأغسطس وحاول ما استطاع تثقيف زملائه من قادة البحر والجو وتبصيرهم بمتاعب الحرب البرمائية الواسعة النطاق ومشقاتها ، فقد أحس الأميرال بضعفه واحتياجه الى عامل الوقت لاستكمال المعدات وان كان تنفيذ الخطة الواسعة النطاق التي وضعها هولدر هي انزال قوات ضخمة في وقت واحد في منطقة مترامية الأطراف وكان جورنج في الوقت نفســه بخياله الجامح

مصراً على احراز نصر ساحق بقواته الجوية وحدها وأبى أن يسهم بدور متواضع فى الاعداد لخطة مشتركة تهدف الى تخفيض قوات المقاومة بحرية وجوية فى جبهة الغزو ٠

ويتضح من الوثائق والسجلات أن القيادة الألمانية العليا لم تعمل بانسجام وتعاون فى سبيل الهدف المشترك ولم تواجه مشكلات الأسلحة المختلفة الوعى الناجح السليم ٠

وكان الاحتكاك بينها واضحا منذ البداية وطالما كان فى مستطاع هولدر أن يلقى بالمسئولية على كاهل ريدر فانه لم يحاول أن يوجد الانسجام بين خططه الشخصية وبين الامكانيات العملية وكان من المحتم أن يتدخل هتلر ، وقد تدخل بالفعل ولكن تدخله لم يعمل على تحسن العلاقات بين القوات المسلحة وكانت سمعة الجيش فى ألمانيا قد سمت الى ما فوق السحب وكان القادة العسكريون ينظرون بتعال وكبرياء الى زملائهم من قادة البحرية ٠

وقد يكون من الصعب على أى انسان أن يقاوم الأدلة التى تنهض على تأكيد أن الجيش الألمانى لم يكن راضيا عن وضعه تحت اشراف البحرية فى عملية رئيسية كهذه وعندما سئل الجنرال يودل بعد انتهاء الحرب عن هذه الخطط أجاب وهو نافد الصبر : « كانت خططنا تشبه تماما الخطة التى وضعها يوليوس قيصر » ٠

وربما يكون فى هذا القول الصادر عن جندى ألمانى موثوق به بالنسبة لعمليات البحار ، ما يلقى الضوء على أن الجندى الألمانى لم تتضح فى ذهنه المشكلات الخاصة بعمليات الانزال والأخطار الناجمة من نقل قوات بحرية كبيرة وتوزيعها على ساحل قد أجيد الدفاع عنه ٠

أما نحن فى بريطانيا فضلا عما كنا نعانيه من نقص فقد خبرنا البحر ووقفنا على مشكلاته فالبحر منذ قرون عديدة جزء من كياننا وتقاليده لا تستثير بحارتنا فحسب بل الشعب البريطانى بكامله ولعل هذا التفهم هو الذى مكننا من أى عامل آخر من النظر الى خطر الغزو بكل ثقة وهدوء وقد خضع التخطيط الذى وضعناه لاشراف رؤساء أركان الحرب الثلاثة برئاسة وزير الدفاع مما أدى الى ايجاد نظام متناسق ككتلة واحدة والى التعاون التام الذى لم نر مثيلا له فى الماضى والى التعرف المتبادل الى كافة المصاعب وعندما آن الأوان لنبدأ نحن فى عمليات غزو عظيمة وواسعة النطاق من البحر كان عملنا اذ ذاك مرتكزا على أساس

وطيد من الاستعداد الشامل لأداء العمل ومن الاحاطة الكاملة بكل احتياجات تكميلية للاقدام على مشروعات واسعة لها هذه الدرجة من الخطورة ٠

ولو كان للألمان فى عام ١٩٤٠ قوات برمائية جيدة التدريب مستكملة مختلف المعدات الحربية البرمائية الحديثة لما قدر لمهمتها النجاح أمام قواتنا البحرية والجوية فما بالنا والألمان لم يكن لديهم شيء من ذلك لا من ناحية المعدات ولا من ناحية التدريب وهما ضروريان فى مثل هذه الحرب وكلما زادت رغبة الفوهرر والقيادة العليا فى المغامرة وَهَنَتْ آمالهم فيها ولم يكن فى استطاعتنا أن نصل الى معرفة أوضاع بعضنا البعض وتقديرات كل منا ولكن كلما مر أسبوع ابتداء من أواسط يوليو وانتهاء منتصف سبتمبر كان الغموض الذى يكتنف الموقف بالنسبة للبحريتين البريطانية والألمانية وللقيادة العليا الألمانية ورؤساء أركان الحرب البريطانية وبالنسبة للفوهرر ولمؤلف هذا الكتاب ينجلى رويدا رويدا ولو قدر لنا الاتفاق على نفس المستوى فى القضايا الأخرى لما وجدت ضرورة لقيام حرب فقد اتفقنا بادىء ذى بدء على أن المصير سيتقرر فى الجو وكان السؤال الذى يعرض لنا ولهم فى وقت واحد هو كيف ستنتهى هذه المعركة الدائرة فى الجو ؟ وكان الألمان يتساءلون هل يصمد الشعب البريطانى لنيران الغارات الجوية التى كان تأثيرها قد بولغ فى تقديره فى تلك الأيام ؟ أو انه سينهار تحت وطأتها ويفرض على حكومته الاستسلام وكان ماريشال الرايخ ذا أمل عريض وثقة بالنتيجة بينما كنا نحن لا نهابها ٠

معركة بريطانيا

ذكرنا من قبل أن مصيرنا أصبح رهنا باحراز النصر الجوى ، وأن قادة الألمان أدركوا أن غزوهم لبريطانيا يتوقف على السيطرة الجوية فى سماء القناة ، وفى الأماكن المعينة على الساحل الجنوبى لبلادنا ، على أنه لم يكن فى مقدور الألمان القيام باستكمال استعداداتهم فى موانىء الابحار، وحشد سفن النقل ، وتطهير المعابر من الألغام ثم القيام ببث ألغام أخرى دون أن تكون لديهم الوقاية من غارات السلاح الجوى البريطانى .

أى ان الأمر الفصل كان للسيادة الجوية فى سماء مناطق العبور والانزال ومن أجل هذا كان لابد من تدمير السلاح الجوى الملكى ، وسائر المطارات الممتدة على طول الطريق بين لندن والبحر ، ونحن نعلم الآن من الوثائق التى حصلنا عليها أن هتلر أبلغ الأميرال ريدر فى ٣١ يوليو : [« انه اذا لم يستطع سلاحنا الجوى القيام بتدمير معظم طائرات العدو وموانئه وقواته البحرية فى خلال ثمانية أيام فان عملية الغزو ستتأجل ضرورة حتى مايو من العام القادم » . وهذه المعركة التى كان علينا أن نخوض غمارها ، على أنى لم أحس بخوف لحظة واحدة ــ ولو عن طريق التصور ــ من التجربة العظمى التى كنا نواجهها وكنت فى الرابع من يونيو قد أدليت للبرلمان ببيان هذا نصه :]

[« ان الجيش الفرنسى العظيم قد أُجبر على التراجع . واضطرب جل أموره نتيجة الهجوم الذى قامت به بضعة ألوف من السيارات المدرعة ، فهلا يدافع عن قضية الحضارة بضعة ألوف من الطيارين بمهارتهم وإخلاصهم !! وأرسلت الى سمطس فى ٩ يونيو التالى أقول وانى أرى الآن بوضوح أن هتلر بشكل قاطع سيشن هجوما على هذه البلاد ، فيدمر سلاحه الجوى فى هذا الهجوم . »]

وها قد واتت الظروف الآن ٠

ولا شك أن كتبا عدة قد صدرت لتوضح مدى الصراع الجوى بين السلاحين البريطانى والالمانى ، وهو الصراع الذى يكون معركه بريطانيا ، وقد استطعنا الآن التعرف الى آراء القيادة الالمانية العليا ، والى ردود الفعل لديها فى المراحل المتباينة ، ويظهر آن خسائر الالمان فى بعض المعارك الرئيسية ، كانت أقل بكثير مما خيل الينا ، وأن تقارير الجانبين فى وقتها كانت تتسم بكثير من المغالاة ولكن لم يكن هناك خلاف على الخطوط الرئيسية لذلك الصراع المعروف الذى كانت تتوقف عليه حياة بريطانيا وحريه العالم قاطبة ٠

كان السلاح الجوى الألمانى قد التحم فى معركة فرنسا بكل ما لديه من قوة ، وأضحى فى احتياج الى الراحة بعد هذا القتال ، تماما كما حدث للأسطول الألمانى بعد معركة النرويج ، وكذلك كان الأمر بالنسبة لنا اذ أن ثلاثة أسراب من مجموع كل أربعة من أسراب طائراتنا المحاربة كانت قد أسهمت فى وقت أو آخر فى معارك القارة ، ولم يكن فى مقدور هتلر الا أن يعتقد أن بريطانيا سترحب بعرض للصلح ، بعد انهيار فرنسا ٠

وكان هتلر ــ يشبه فى ذلك الماريشال بيتان وفيجان وغيرهما من القادة الفرنسيين العسكريين والسياسيين ، الذين لم يدركوا ما لدى دولة تقوم فى جزيرة من موارد مستقلة وما حبتها به الطبيعة من شمم ، لقد كان من شانه شأن هؤلاء الفرنسيين الذين استهانوا بعزيمتنا وارادتنا ٠ وقضى هتلر شهر يونيو فى تحوير الأوضاع لتتمشى والأحوال التى وجد نفسه فيها تدريجيا ، وفى خلال ذلك كان السلاح الجوى الألمانى يقضى فترة من النقاهة واعادة تنظيماته استعدادا للمهمة الجديدة ، ولم يكن ثمة ريب فى خطر هذه المهمة ، اذ كان على هتلر أن يختار واحدة من اثنتين ، اما أن يغزو انجلترا ويحتلها ، أو يخوض غمار حرب طويلة الأمد ، تنطوى على كثير من الأخطار والمشكلات ، على أن احتمال نصر جوى يقضى على المقاومة البريطانية كان ماثلا فى أذهانهم مما يجعل الغزو الفعلى أمرا غير محتم ، الا باحتلال بلاد مغلوبة على أمرها ٠ واستطاعت القوى الألمانية الجوية فى خلال شهر يونيو ومطلع يوليو أن تنظم نفسها وتبث النشاط والحيوية فى صفوفها ، وأن تنتشر فى جميع المطارات الفرنسية والبلجيكية التى يحتمل بدء الهجوم منها ، واستطاعت الغارات الاستطلاعية والتجريبية ، الوقوف على حقيقة المقاومة التى ستجابهها ومدى طاقتها ٠

وشرعت فى ١٠ يوليو بشن أولى هجماتها الضخمة الكبيرة التى تعد بحق بدء معركة بريطانيا ، وثمة تاريخان مهمان يرتفعان أيضا فى هـــذه المعركة أولهما : ١٥ أغسطس ، ١٥ سبتمبر ، وكانت ثمة مراحل ثـلاث متتابعة ومتداخلة فى الوقت ذاته حين الغزو الألمانى ، وقد اتسمت المرحلة الأولى بين ١٠ يوليو ، ١٨ أغسطس ، بالتركيز على القوافل البريطانيـة فى المانش وعلى الموانىء الجنوبية الواقعة بين دوفر وبلايموث حيث تقرر عجم عود السلاح الجوى البريطانى وايقاعه فى حبائل المعركة والقضاء عليه ، وكذلك تدمير الموانىء التى تقرر النزول فيها ٠

وفى المرحلة الثانية الواقعة بين : ٢٤ أغسطس ، ٢٧ سبتمبر ، كان من المحتم تمهيد الطريق الى لندن وذلك بتحطيم السلاح الجوى البريطانى ومنشآته لتأمين الهجمـات المتواصلة العنيفـة على العاصمة وقطع طرق المواصلات من الشواطىء المهددة بالغزو ، أما جورنج فلا شك أنه كان يرى فى هذه الغارات غرضا أكبر وهدفا أبعد وهو احداث الاضطراب الكامل فى أكبر مدن العالم وشل حركتها ٠ وايقاع الفزع الأكبر فى بريطانيا حكومة وشعبا ، واضطرارهما أخيرا الى الخضوع لارادة ألمانيا ، واتجه أمل الجيش الالمانى ، والاسطول الى الرغبة فى أن يكون جورنج مصيبا فيمـــا رآه ، ولكن مع مرور الوقت ، وتغير الأحوال ، رأى قادة السلاحين ان السلاح الجوى البريطانى لم يقض عليه ، وأن أملهم فى عملية « سبع البحر » قد تبدو فى سبيل تحقيق ما أراده جورنج من تدمير لندن ، وأخيرا عندمـا انتابتهم خيبة أمل فى كل شىء ، وعندما تأجل الغزو الى أجل غير معلوم لأن الشرط الحيوى الأساسى وهو السيطرة على الجو لم يتحقق بدأت المرحلة الثالثة والأخيرة ٠

لقد تبدد حلمهم فى النصر الذى بدأ كسراب خادع والسلاح الجوى البريطانى مازال حيا راعدا مما حدا بجورنج فى شهر أكتوبر أن يقوم بشن غارات عمياء رعناء على لندن وغيرها من مراكز الانتاج الصناعى ٠

ليس هناك وجه للمقارنة بين طائراتنا المقاتلة وطائراتهم فالطائرات الألمانية أسرع وأقدر على الارتفاع ٠ أما طائراتنا فاقدر على المناورات وأفضل تسليحا ، وكان طيارو ألمانيا على ثقـة من تفوقهم العـددى ، كمـا كانت الانتصارات التى أحرزوها فى بولندة والنرويج والاراضى المنخفضة وفرنسا تشعرهم بالعزة والكبرياء ٠

أما طيارونا فكانوا واثقين بتفوقهم الشخصى ، وكانوا يتحلون بتلك العزيمة التى تعتبر من صفات الشعب البريطانى وتبدو فى وقت الأزمات والعواصف ·

وقد كان الألمان متمتعين بمزية استراتيجية هامة ، أحسنوا استغلالها، فقد توزعت قواتهم وانتشرت فى جبهة واسعة للغاية ، وكان فى وسعها أن تشن هجمات علينا بأعداد وافرة ، مع اتخاذ كافة الوسائل لتشتيت أفكارنا حتى لا يتسنى لنا أن نعرف مواقعهم الحقيقية ، وكان السلاح الجوى الألمانى قد جمع فى شهر أغسطس ٢٦٦٩ طائرة بينها ١٠١٥ من القاذفات، ٣٤٦ من طائرات الانقضاض ·

وأصدر الفوهرر أمرا رقم (١٧) فى ٥ أغسطس بتوسيع جبهة الحرب الجوية ضد بريطانية ولم يكن جورنج واثقا من عملية سبع البحر ، بل ركز اهتمامه على الحرب الجوية « المطلقة » ولم تكن هذه القيادة تعتبر تحطيم سلاحنا الجوى الهدف الأساسى بل تعتبر تحول الحرب الجوية بعد بلوغها الذروة الى شن هجوم على بوارجنا وسفننا وقد عبرت هذه القيادة عما تشعر به من أسف لأن جورنج لايهتم كثيرا بتركيز غاراته على الأهداف البحرية، كما أحنقها التسويف المتكرر للغارات الجوية ، وفى ٦ أغسطس أبلغت القيادة البحرية القيادة العامة بأن بث حقول الألغام فى بحر المانش أصبح من المتعذر القيام به لضغط التهديد البريطانى المتواصل فى الجو ·

وقد تركز القتال الجوى المتواصل طيلة شهر يوليو ومطلع أغسطس الى غاية « كنت » البحرية وساحل القناة ، وقد تأكد جورنج ومستشاروه من أن غاراتهم قد شغلت كل أسرابنا المقاتلة فى ميدان المعركة فى الجنوب، فقرروا القيام بغارة فى وضح النهار على مدننا الصناعية الواقعة فى الشمال، وكانت المسافة تعد طويلة على مقاتلاتهم من الطراز الأول وهى « المسرز شميت رقم ١٠٩) فاضطروا الى المغامرة بطائراتهم القاذفة على أن تصحبها طائرات المسرز شميت رقم١١٠، وهذه بصرف النظر عن قدرتها على الطيران الى مسافات أبعد ، فهى غير مجهزة بأسلحة القتال ، وهو أمر له أهمية فى هذا الوقت ، ومع ذلك فقد نجحت المغامرة ·

وهكذا قامت فى ١٥ أغسطس نحو من مائة « قاذفة قنابل » ، وأربعون طائرة مسرز شميت رقم ١١٠ ، بشن هجوم على مدينة تاينيسان ، وفى الوقت نفسه كانت أكثر من ثمانمائة طائرة تشن هجوما على قواتنا الجنوبية لصدها فى منطقتها ، اذ خيل اليهم أنها متجمعة فى هذه المنطقة لكن التوزيع

الذى وضعه دأودنج لطائراتنا المقاتلة بدأ يظهر أثره ، كان داودنج يفكر فى مثل هذا الخطر ، فسحب سبعة أسراب من « الهاريكين » و «السبتفاير» من معركة الجنوب المحتدمة للاستجمام قليلا ولحماية الشمال فى نفس الوقت وقد أحس رجال هذه الأسراب ببالغ الأسى لابتعادهم عن ميدان المعركة مضطرين ، اذ أكدوا لقيادتهم أن القتال لم يجهدهم ، ولم ينل من نشاطهم، وهاهم اولاء يفاجئون بما لايخطر على بالهم ، فقد أصبح فى مقدورهم أن يلتقوا بالمهاجمين بعد اجتيازهم الساحل ، واستطاعوا إسقاط أربعين طائـرة ألمانية أغلبها من قاذفات القنابل الثقيلة من طراز هينكل ١١١ ، التى تقل الواحدة منها أربعين رجلا مدربا ، ولم يصب أحد من طيارينا بأى جرح غير إثنين ، وليس هناك مجال للشك فى سعة أنق الماريشال الجوى داودنج وتفكيره السديد فى توجيه الطائرات المحاربة مما يستحق عليه كل ثنـاء وتقدير ، ولكن عظمة هذا الرجل تتجلى فى احتفاظه بهذه القوة من طائراتنا المحاربة فى الشمال فى أثناء الأسابيع الطويلة من اشتعال الحرب فى الجنوب وهذا النوع من القيادة يعد مثلا على العبقرية فى فن الحرب •

وأعقب هـذا اليوم الفاصـل أن أضحت مدن الشـمال فى مأمن من الغارات الجوية • ويعد يوم ١٥ أغسطس اليوم الذى بلغ فيه الصراع الجوى أشده ، فقد حدثت خمس معارك رئيسية على جبهة مساحتها خمسمائة ميل، كان حقا يوما رائعا ، وقد التحمت جميع أسرابنا الاثنين والعشرين فى موقعة فى الجنوب ، وبعضها عاود المعركة مرتين أو ثلاثا ، وكانت خسائر الألمان فى الجنوب والشمال قد بلغت ستا وسبعين طائرة ، مقابل أربع وثلاثين من جانبنا ولا شـك فى أن هذا الرقم يعد كارثة بالنسبة للسلاح الجوى الألمانى •

وليس هنا مجال للشك فى أن قادة الجو الألمان قد هالتهم نتائج هذه الهزيمة الساحقة التى انطوت على أسوأ النذر بالنسـبة للمستقبل ، وكان السلاح الالمانى قد ركز اهتمامه فى الاغارة على ميناء لندن ، ذى الأرصفة الطويلة التى تقف عليها مختلف أنواع البواخر ، واذلال كبرياء المدينة باعتبارها من أكبر مدن العالم وأوسعها على أن تحديد الهدف لايهم الطيار مما يجعل مهمته أيسر وأسهل •

* * *

وقام اللورد بيفربروك فى خلال هذه الأسابيع الطويلة من القتـال المستمر والقلق الذى لانهاية له ، بمساعدات واضحة ، فمن الضرورى ادخال تجديد على أسرابنا المقاتلة ، وتزويدها بطائرات مضمونة ، وقد

حال ضيق الوقت دون الأخذ والرد ، والاطالة فى البحث والشرح بالرغم من ضرورة ذلك فى كل نظام هادىء رتيب ، وكانت طباع اللورد مناسبة كل المناسبة للضرورة الملحة ، فلقد كانت حيويته ونشاطه من بواعث الاقبال على العمل وقد اغتبطت لذلك كثيرا فقد اعتمدتُ عليه ووثقتُ فى مساعدته فلم تخب هذه الثقة مرة واحـدة ، وها قد دنت ساعة لاظهار عبقريتـه واستعداده الشخصى مع ما يصحبها من قدرة على الاقناع وتمكنه من تذليل شتى الصعاب وكنا نلقى فى أتون المعركة بكل مواردنا ، فقد تدفقت علينا الطائرات الجديدة أو ما تم اصلاحه من أسرابنا التى اغتبطتُ حينما طالعتها هـذه الأعداد الكبيرة غير المتوقعة ، وأخذت ورش الصيانة والاصـلاح تضاعف من جهدها وقوة طاقتها • حينئذ تجلت لى قيمة الرجل وأهميته فدعوته فى ٢ أغسطس بعد موافقة الملك للاشتراك فى عضـوية وزارة الحرب وفى الوقت نفسه كان ولده الأكبر ماكس اتيكن ، قد تصدر قيادة الطائرات المقاتلة ، وأحرز انتصاره السادس •

وكان ايرنست بيفن وزير العمل والخدمة الوطنية ، من الوزراء الذين حرصت على الاكثار من لقائهم فى تلك الفترة الحرجة نظرا للمهمة الحيوية التى كان يقوم بها من ادارة اليد العاملة فى البلاد وبعث الحيوية والنشاط فيها • وكان جميع العمال فى مصانع الذخيرة مستعدين لتلقى توجيهاته ، وانضم هو الآخر الى عضوية وزارة الحرب فى شهر أغسطس •

وضحى العمال النقابيون بمكاسبهم وحقوقهم التى أحرزوها بعـد جهاد طويل والتى كانوا يولونها أعظم الرعاية ، ضحوا بهـا على مذبح المصلحة الوطنية وهم يرون قرابين الثروة والامتيازات والممتلكات تسبقهم الى التضحية ، وكنت على وفاق تام مع بيفربروك وبيفن فى أسابيع الأزمة التى خضناها ، وقد وقع خلاف بين الرجلين فيما بعد ، وهذا مما يؤسف له فقد نتج عن اختلافهما كثير من الصـدام ، أما فى تلك المرحلة من الكفاح الذى بلغ ذروته ، فقد كنا جميعا نعمل يدا واحدة ، وليس فى مقدورى الا أن أثنى كل الثناء على ولاء المستر تشمبرلين ، واثبات كافة الزملاء وكفايتهم ، فإلى الجميع تحياتى •

ولم يدرك جورنج حتى آخر شهر أغسطس أى أثر سيىء للصراع الدائر فى الجو فقد كان على ثقة هو ورجاله من أن المطـارات البريطانية وصناعة الطائرات ، وقوة السلاح الجوى البريطانية المحـاربة قد منيت بكوارث ساحقة ، وكانت هناك فترة خلال شهر سبتمبر تحسن فيهـا

الطقس ازداد فيها أمل السلاح الالماني في احراز نتائج فاصلة ، وامتحنت المطارات حول لندن بغارة جوية عاتية ، وقامت ثمان وستون طائرة ليلة ٦ سبتمبر بالاغارة على لندن تبعها في الليلة التالية هجوم آخر قامت به ثلاثمائة طائرة في وقت واحد ، وفي ذلك اليوم ، كما حدث فيما تلا ذلك من أيام حيث اتممنا تعزيز البطاريات المضادة للطائرات ، في ذلك اليوم دارت معارك شديدة ومتواصلة في سماء العاصمة ، وكانت القوة الجوية الالمانية خلال ذلك توقن بالنتيجة بسبب مغالاتها في تقدير خسائرنا .

وكان ميزان القتال الذى وقع بين ٢٤ اغسطس ، ٦ سبتمبر قد رجح ضد طائراتنا المحاربة فقد اتخذ الألمان في تلك الايام الفاصلة بصورة مستمرة قوات ضخمة لشن الغارة على مطاراتنا في جنوب انجلترا والجنوب الشرقي ، وكانوا يهدفون الى تدمير الجهاز الدفاعى عن العاصمة في أثناء النهار ، التى استبدت بهم اللهفة لمهاجمتها ، وكان العمل المتواصل في هذه المطارات ودوام تحركات أسرابنا منها ، أكثر أهمية لنا من حماية العاصمة التى منيت بحملات من القصف الجوى غرضهـا الأول نشر الرعب واثارة الفزع . وكانت هذه المرحلة فاصلة في الصراع بين الحياة والموت بالنسبة لكلا الفريقين المتنازعين ، ولم نكن نفكر حينذاك في الدفاع عن لندن أو غيرها من المدن بقدر ما كنا نتساءل لمن سيكون النصر ؟ .. وقدَّم قيادة الطائرات المحاربة في « ستاجور » احساس بالقلق وخاصة في مقر قيادة المجموعة الحادية عشرة في أوكسبريدج ، اذ منيت خمسة من مطارات المجموعة الأمامية وستة من مراكز الجبهة بأضرار جسيمة وكذلك محطة قطاع بجين هيل الى الجنوب من لندن . حتى أن سربا واحدا هو الذى استطاع العمل وحده مدة أسبوع كامل ، ولو استمر العدو في هجماته الثقيلة على ، القطاعات القريبة ، وهدم غرف العمليات فيها ، وتقطيع أوصالها التليفونية، لأصبحت جميع تنظيماتنا الدقيقة في القيادة الجوية معرضة لأهم الاخطار ، ولم يكن دليلا على مجرد توجيه الاساءة الى لندن بل على وهن اشرافنـا على سمائنا في هذه المنطقة الحيوية الحساسة وقد فرضت زيادة عدد من هـذه المحطات في ٢٨ اغسطس وخصوصا مانستون وبجين هيل القريبة من بيتى، كانت المحطتان متداعيتين وطرقهما مملوءة بالحفر ، وعندما غير العدو هجومه في ٧ سبتمبر الى لندن ، ادركت قيادة الطائرات المحاربة هـذا التغيير واستشعرت قيادتنا الكثير من الراحة لذلك ، وكان على جورنج أن يستمر في هجماته على مطاراتنا التى تعتمد عليهـا قوتنا الجوية المحاربة في ذلك الوقت ، ولكنه بتخليه عن قواعد الحرب المألوفة ، وما تمليه الروح الانسانية

من قواعد مفررة ، إرتكب أجسم الخطايا وأبشعها وكانت هـذه الآونة - الواقعة بين ٢٤ أغسطس ، ٦ سبتمبر من الأيام التى شـقت على قيادة طائراتنا المقاتلة إلى اقصى حد وكانت القيادة قد منيت فى هذين الاسبوعين بخسارة ما يقرب من مائة وثلاثة من الطيارين قتلوا ومائة وثمانية وعشرين أصيبوا بجراح خطرة ، كمـا تحطمت حوالى ٤٦٦ طـائرة من طراز الهاريكسين والسبيتفاير أو أصيبت بأضرار جسيمة ، واذا اعتبرنا أن عدد الطيارين فى قوتنا المحاربة كان فى هذه الآونة ألف طيار ، بدا لنا أن سلاحنا الجوى قد فقد ربع رجاله تقريبا ٠

ولم يكن بوسعنا ملء الفراغ الذى نشأ عن فقدهم الا باستحضار مائتين وستين طيارا جديدا ينقصهم التدريب وان لم تنقصهم الحماسـة نقلوا من وحـدات التدريب قبل أن يستكملوا مدتهم الدراسية فى كثير من الأحيان ، وتسببت الهجمات الليلية على لندن خلال عشرة أيام بعـد ٧ سبتمبر والتى استهدفت الارصفة ومراكز السكك الحديدية فى قتـل عدد كبير من المدنيين ، واصابة الكثير بجراح ، ولكنها برغم ذلك اعتبرت بمثابة نعمة هبطت علينا من السماء ، أرسلت الينا على حين كنا فى أشد الحاجة اليها لنأخذ أنفاسنا ٠

وعلينا أن نعتبر الحرب الجوية قد بلغت ذروتها فى ١٥ سبتمبر فقد شن السلاح الجوى الألمانى ـ بعـد غارتين متواليتين فى ١٤ من الشـهر نفسه ـ أكبر هجوم جوى مركز فى رائعة النهار على مدينةلندن ٠ لقـد صارت احدى المعارك الفاصلة فى الحرب ، وقد حدثت فى يوم من أيام الأحد كمعركة «واترلو» سواء بسواء وكنت فى تشيكرز فى ذلك اليوم ، وطالما قمت ـ قبل ذلك اليوم ـ بزيارة لمقر المجمـوعة الحادية عشرة من الطائرات المقاتلة لأشهد بنفسى سير احدى المعارك الجوية التى لا يحدث فيها الكثير ، وأحسست فى ذلك اليوم أن الطقس مناسب تماما ، لعدونا ولذلك فقد ركبت سيارتى الى أوكسبردج حيث زرت مقر الجمعيـة التى تتكون من حوالى خمسة وعشرين سربا تختص بالدفاع عن(ايسكس وكنت وساسكس وهمبشاير)وجميع المداخل المؤدية الى لندن ، وكان نائب ماريشال الجو بارك يقوم بقيادة هذه المجموعة منذ حوالى ستة أشهر ، وكان عليها يتوقف مصيرنا الى درجة عظيمة ، ومنذ أن ابتدأت معركة دنكرك أسند الى بارك ادارة كافة أعمال الطيران فى النهار فى جنوب انجلترا وقد بلغت استعداداته حد الكمال ، وتسللت مع زوجتى الى غرفة العمليات الحربية المحصنة ضد القنابل ، والواقعة على بعد خمسين قدما تحت الأرض

ومن المعلوم أن تفوق طائرات السبيتفاير والهاريكين انما يرجع الى وجود هذا الجهاز الدقيق من الاشراف ، وامتداد شبكة أسلاك التليفون تحت الارض قبل الحرب بفضل توجيه وزارة الطيران ونصيحة الماريشال داودنج وكانت القيادة العامة تواجه التعليمات والأوامر من مقر القيادة العليا للطائرات المحاربة فى ستاجور لكن القيادة الفعلية لأسراب الطائرات قد عهد بها الى المجموعة الحادية عشرة التى كانت تتولى الاشراف على سائر الوحدات الموزعة فى شتى محطات الطائرات المحاربة فى مختلف أنحاء البلاد ٠

وكانت غرفة عمليات المجموعة تشبه المسرح الصغير وطولها يبلغ ستين قدما ، وتتكون من طابقين واخترانا مقاعدنا فى الحلقة الوسطى وأمامنا على المائدة بسطت الخريطة الضخمة وقد التف حولنا حوالى عشرين شابا وفتاة تم تدريبهم ومعهم مساعدوهم من موظفى التليفونات وأمامنا يقع لوح أسود كبير ، بطول الجدار كله ، وقد قسمته المصابيح الكهربائية الى ستة أعمدة يمثل كل منها ٠٠ محطة من المحطات الست ، ولكل منها أيضا عمود اضافي ، مقسمة بخطوط أفقية وهكذا كانت المصابيح المنخفضة تكشف عن الاسراب « الواقفة على أهبة الاستعداد » والمستعدة للطيران فى خلال دقيقتين ، ثم تعلوها المصابيح التى توضح الاسراب المتأهبة للعمل فى خلال خمس دقائق ثم تعلوها تلك التى يتم استعدادها فى عشرين دقيقة ، وهكذا بالنسبة الى تلك التى تقوم بالطيران ، أو التى شاهدت العدو أو المشتبكة معه فى هذه اللحظة أو تلك التى تشبه المقصورة فى المسرح يجلس فيها أربعة أو خمسة ضباط من فرقة المراقبة التى كان عددها قد بلغ حينذاك حوالى خمسين ألف رجل وامرأة وشاب وقد كان الرادار آنذاك — فى بدايته ، ومع ذلك فقد كان كافيا لتوجيه الانذار بالغارات حين تقترب من السواحل ، وكان المراقبون من خلال مناظيرهم ، وتليفوناتهم المتنقلة ، مصدر كل المعلومات عن الطائرات المغيرة ، وهكذا كانت القيادة تنهال عليها ألوف الرسائل والاشارات فى غضون وقوع الغارة ٠ وكان يجلس عدد كبير من الرجال المدربين فى غرف تمتلىء بهم فى مقر القيادة الكائن تحت الأرض ، يحلون رموز تلك الرسائل ويلخصونها بأقصى سرعة وينقلون من دقيقة الى أخرى النتائج التى يصلون اليها الى الذين يضعون ويخططون للمعركة وهم جالسون حول المائدة الرئيسية ، والى الضباط المشرفين على سير العملية من مقصورتهم التى أشرنا اليها آنفا ٠

وفى الناحية المقابلة « مقصــورة » ثانية ، يحتلهاعدد من ضــباط الجيش الذين يقومون بنقل أعمال البطاريات المضادة للطائرات ، وقد كان لدينا منها تحت اشراف هذه القيادة مائتا بطارية وكان من الضرورى جدا أن تتوقف هذه البطاريات عن العمل بضع ساعات من الليل فى بعض المناطق • اذ أن طائراتنا المقاتلة تكون ـ فى تلك الآونة ـ قد اشتبكت فى القتال مع العدو ، وكنت على علم بهذا النظام فقد أطلعنى داودنج على عمل الجهاز كله قبل أن تبدأ الحرب بعام عندما زرته فى ستاغور ، ولقد مر النظام بمراحل من التحسين والاصلاح منذ تلك الزيارة وصار الآن أداة حيوية من أدوات الحرب لا نظير لها فى أى بلد من بلاد العالم •

وقال بارك عندما نزلنا الى المقر فى الطابق الاسفل « لا أستطيع التخمين عما يحدث اليوم كل شىء هادىء » •

ولم يكد يمضى ربع ساعة على هذا الكلام ، حتى كان منظمو الخطة قد بدأ تحركهم ، اذ أبلغوا أن حوالى أربعين طائرة تحركت للاغارة من المحطات الالمـــانية فى منطقة دييب ، وأخذت المصابيح تضىء فى الصف الأدنى مشيرة الى الاسراب التى وقفت على أهبة الاستعداد ثم وافى خبــر آخر مؤداه أن عشرين طائرة مغيرة أخرى تستعد ، ولم تمض عشر دقائق أخرى حتى صار من البين أن معركة قاسية فى طريق الوقوع وبدأ الجــو يحتشد بطائرات من الجانبين •

وتتابعت الاشارات ، أربعون طائرة أخرى ، ستون طائرة ، وكان اتجاه سير الطائرات المغيرة يبدو أمامنا على الخريطة من وقت الى آخر • فى علامات توضح اتجاهاتها ، بينما كانت على اللوحة المواجهـــة تضىء المصابيح ، مشيرة الى طيران أسرابنا بصورة متتابعة حتى لم يبق منها على الأرض على أهبة الاستعداد أكثر من عدد قليل ، وقد ظلت هذه المعارك الجوية التى يعلق عليها الكثير ـ أكثر من ساعة بعد وقوعها وقد كان عدونا ما تزال لديه القوة التى مكنته من ارسال هذه الدفعات المتوالية من الطائرات الى قلب الهجوم ، وكان على أسرابنا التى تم طيرانها كلها لتكون لها السيادة على الجو أن تعود الى قواعدها بعد سبعين أو ثمانين دقيقة من طيرانها لتتزود بالوقود أو الذخائر ، ولو تمكن العدو فى أثناء ذلك من حشد طائرات جديدة فى حومة القتال لاستطاع تدمير العديد من طائراتنا وهى على الأرض ولذا فقد كان هدفنا الرئيسى دائمـــا أن نوجه أسرابنا بحيث لا يتجمع عدد كبير منها على الأرض فى وقت واحد •

وسرعان ما أوضحت الاضواء الحمراء أن معظم أسرابنا ، ملتحمة مع العدو ، وكنت أسمع همسا متصلا بين القائمين بالتخطيط ، وهم ينقلون الاشارات من مكان لآخر ، ليوضحوا تطور المعركة ، وتغير الاوضاع وكان نائب ماريشال الجو بارك ، يصدر التعليمات العامة موجها طائراته المقاتلة، التي تترجم فورا الى تعليمات تفصيلية يوجهها ضابط شاب يجلس في وسط الغرفة الى كل محطة من المحطات .

وكنت أجلس بجواره ، وسألت عن اسمه بعد سنوات ، فقيل لي أنه اللورد ويلوبي دى بروك . وقد التقيت به لثانى مرة فى عام ١٩٤٧ ، عندما استجبت لدعوة من نادى الفرسان ، وكان عضوا بمجلس ادارته لشهود حفلة سباق الدربى . وقد استغرب كثيرا لأننى لم أنس لقائى الأول به .

وكان فى ذلك الحين يصدر التعليمات والأوامر للأسراب الفردية بالتحليق فى الجو ، والقيام بأعمال الدورة على هدى من النتائج الظاهرة على الخريطة .

وكان ماريشال الجو آنذاك يسير فى الغرفة جيئة وذهابا ، وهو يلحظ بعين حذرة متنبهة كل حركة وخطوة فى اللعبة مراقبا بنفسه رجال جهازه التنفيذى ، ومتدخلا اذا اقتضى الأمر بكلمة حاسمة لتعزيز نقطة مهددة . ولم تمر لحظات حتى صارت جميع أسرابنا ملتحمة فى المعركة ، ولم يبق سرب واحد فى الاحتياطى ، وتحدث بارك فى تلك الأثناء تليفونيا الى داودنج فى ستانمور ، فطلب منه أن يضع ثلاثة أسراب من المجموعة الثانية عشرة تحت تصرفه احتياطا للطوارىء وفيما اذا وقع هجوم رئيسى آخر ، خلال قيام أسرابه بالتزود بالسلاح والذخائر ، وقد تم هذا فعلا ، وكانت الأسراب ألزم ما تكون لحماية لندن ومطارات الطائرات المحاربة .. حيث أن المجموعة الحادية عشرة كانت قد استنفدت كل قواها .

واستمر الضابط الشاب ، الذى اتخذ من هذه الأمور مسألة روتين فى اعداد أوامره ، المنسقة مع تعليمات قائده العام ، بلهجة هادئة ، وسرعان ما انطلقت الأسراب الاضافية الثلاثة الى حومة الوغى أيضا ، وشعرت بقلق القائد ، الذى كان يصطنع الهدوء فى وقفته وراء مقعد مساعده ، وكنت حتى هذه الأثناء أشهد التطورات صامتا ، فسألته : « هل تملك قوات أخرى احتياطية ؟ .. » فأجابنى

نائب المارشال : « كلا .. لم يبق لدينا فى الاحتياطى أى شىء » .
وقد كتب فى تقريره فيما بعد أننى ظهرت حينذاك بمظهر المتجهم العبوس ، وربما أكون حقا قد قطبت جبينى ، وعبس وجهى ، اذ ماذا يكون الأمر لو فاجأت أربعون طائرة جديدة أو خمسون أسرابنا وهى على الأرض تتزود بالوقود لتعود الى التحليق من جديد ، أن الميزان حينذاك كان فى كف القدر ، وكانت قدراتنا محدودة ، والأخطار التى تتعرض لها جد كبيرة .

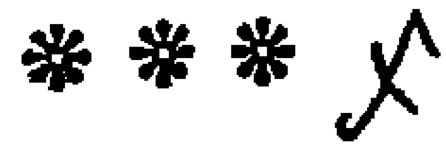
ومرت خمس دقائق أخرى ، واغلب طائراتنا المحاربة تعود الى الأرض لتتزود بالوقود ، ولم يكن فى وسع مواردنا الحالية أن تضمن لها الحماية الجوية الكافية ، وعرفنا أن طائرات العدو قد أخذت تعود من حيث أتت ، وبدأت العلامات على الخريطة تظهر اتجاه الطائرات الألمانية نحو الشرق ولم يبد أثر لأى هجوم جديد ، وبعد عشر دقائق من انتهاء المعركة بدأنا نرتقى السلم نحو سطح الأرض ، وحينما وصلنا كانت صفارات الأمان تدوى فى الأسماع منبئة بانتهاء الغارة .

وقال بارك : « أسعدنا يا سيدى ، انك رأيت المعركة ، حقيقة لقد كنا فى الدقائق العشرين الأخيرة نكاد نختنق من المعلومات التى عجزنا أمامها ، ولعلك يا سيدى شهدت القيود المفروضة على مواردنا الحالية وقد تحملت الموارد اليوم أكثر مما نستطيع » .

وسألته عما اذا كان شىء من نتائج المعركة قد وصل اليه ، وذكرت أن الهجوم قد رد بصورة رائعة وفعالة ، فأجاب بارك بأنه غير راض وان طائراته لم تستطع أن تسقط العدد الذى كان يتوقعه ، وكان من البعيد ان العدو قد اجتاح خطوطنا الدفاعية فى كل مكان تقريبا ، وقد سرت الأنباء بأن عشرات من القذائف الألمانية قد استطاعت تحت حراسة المحاربات من التسلل الى لندن ، ولكن الصورة الصادقة عن نتائج المعركة لم تتضح تماما ، كما لم تصل الينا أية أرقام نهائية عن الخسائر أو الأضرار .

وكانت الساعة قد انتهت بنا الى الرابعة والنصف بعد الظهر ، عندما رجعت الى تشيكرز ، فمضيت اثر ذلك الى فيلولنى ، ويبدو أن المسرحية التى عاينتها فى مقر قيادة المجموعة الحادية عشرة قد انهكت قواى ، حتى اننى لم أصح من نومى الا فى حدود الثامنة مساء ، وحينما

دققت انجرس حضر لى جون مارتن رئيس أمناء سرى ومعـــه موجز أخبار المســـاء من جميع أنحاء العالم .. كانت اخباره مثيرة للقلق فقد سار هذا الأمر سيرا خاطئا هنا ، وتأخر ذاك هناك ، والرد غير مقنع عن آخره أو ابتلع الأطلنطى قطعة بحرية ، ومضى جون مارتن يقول : « اننا قد حققنا فى الجو ما نهدف اليه فقد أسقطنا مائة وثلاثا وثمانين طائرة مغيرة مقابل خسائرنا التى لم تبلغ الأربعين » .



وبالرغم من أن المعلومات التى بلغتنا من العدو بعد الحرب تشـــير الى أن خسائره فى هذه المعركة لم تزد عن ست وخمسين طائرة ، الا أن ١٥ سبتمبر كان قمة معركة بريطانيا حقا ، وبدأت قيــادة طائراتنا القاذفة فى تلك الليلة القيام بهجمات مركزة على كافة موانىء العدو من يواون الى انتوبرب وقد أنزلت بالميناء الأخير خسائر بالغة ، وها نحن أولاء نعلم الآن أن الفوهرر قد قرر فى ١٧ سبتمبر تأجيل عملية سبع البحر الى أجل غير مسمى ، وتم أخيرا فى ١٢ أكتوبر تأجيل هذا الغزو نهائيا حتى الربيع التالى .

وقرر هتلر فى يوليو عام ١٩٤١ تأجيل الغزو ثانيـــة حتى ربيع سنة ١٩٤٢ عندما تكون الاغارة على روسيا قد انتهت .. وكان هذا الحلم ضروريا مع كل ما فيه من عبث واستحالة ، وفى ١٣ فبراير ١٩٤٢ اجتمع الأميرال ريدر بهتلر للمرة الأخيرة للبحث فى مسألة عمليـــة « سبع البحر » واضطره أن يقرر العدول عنها نهائيا ، ومن ذلك يتضح أن ١٥ سبتمبر عام ١٩٤٠ كان نقطة تطور هامة . ولا شك فى أننا كنا متهاونين فى تقدير خسائر العدو وفى الحقيقة نسقط طائرتين للعـــدو أو ثلاثا مقـــابل واحدة تهـــوى من طائراتنا ، وفى هذا ما يكفينا وقد استطاعت قواتنا الجوية أن تحقق النصر ، بدلا من أن يحيق بها الدمار على يد العـــدو وكان هناك مدد من الطيارين الجدد لا ينقطع ، وبالرغم من الاصابات التى لحقت بمصانع طائراتنا ــ وهى العامل الفعـــال فى قدرتنا على شن حرب طويلة الأجل ، الا مجرد امدادنا بحاجاتنا العاجلة فحسب ، بالرغم من ذلك فلم تشل حركتها نهائيا ، وبقى عمالهـــا من فنيين وغـــير فنيين وراء مخـــارطهم تزدحم بهم المصـــانع غير مبـــالين بالنيران التى تتوهج من حولهم فكانوا أشبه ما يكونون ببطاريات مدفعية تواصل عملها ، وكان هوبرت موريسون فى وزارة التموين يشـــجع الجميع على مواصلة الجهـــد ، كل فى حـــدود عمله ، وكان يحفزهم

بكلمة : « هيا الى العمل » فلا ينى أحـــد عن الاسراع بتلبية ندائه ، وقامت قيادة مقاومة الطائرات المغيرة برئاسة الجنرال بايل ، ببذل كل عون مستطاع الى معركة الدفاع الجوى ، لكن اشتراكها الرئيسى كان متـأخرا ، أما فرقة المراقبة فكانت تواصـل عملها ليـل نهار لا تعرف التعب وبدون أن يتأثر اخلاصها .

أما قيادة الطائرات المقاتلة التى تعتمد عليها المقاومة كل الاعتماد، فقـــد اقنعتنا بقدرتها على الصمود المتواصل أشهرا عديدة أمام الاجهاد المستمر ، حقا لقد أدى كل فريق واجبه أحسن الأداء .

واستمرت أرواح طيارينا وشجاعتهم وهم يخوضون غمار المعركة فى منتهى القوة والروعة ، وهكذا أنقذت بريطانيا ، وأصبح على أن أقف فى مجلس العموم وأقول « لم يسبق قط فى تاريخ الصراع الانسانى ان أحس مثل هذا العدد الضخم من الناس بما فى أعناقهم من دين جسيم نحو عدد قليل من الناس مثلما نحس به جميعا اليوم نحو طيارينا » .

صمود لندن

لا شك فى أن الآراء التى تروى عن الهجوم الجوى الألمانى على بريطانيا هى آراء متناقضة ذات أهداف متباينة ، وخطط مبتورة ، ففى خلال هذه الأشهر كلها ، كان يقلق راحتنا ، ليتخذ اسلوبا جديدا ، ولكن هذه المراحل جميعها متداخلة وليس فى المستطاع الفصل بينها بتواريخ دقيقة محددة . فالمرحلة الواحدة منها تسلم الى المرحلة الثانية ، وتتداخل فيها ، وكانت العمليات الأولى تهدف الى الالتحام مع قواتنا الجوية فى معارك فوق المانش والساحل الجنوبى ، ثم تحول القتال الى سماء القاطعات الجنوبية ، وخصوصا فى(كنت وساسكس) حيث أراد العدو أن يحطم تنظيم جهاز قوتنا الجوية ، ثم أخذ يتجه نحو لندن قليلا قليلا حتى أصبح اخيرا يحلق فى قلب سمائها ، حيث أضحت المدينة هدفه الرئيسى ، واخيرا عندما آحرزت لندن النصر ، انتقل القتال الى سماء المدن فى الأقاليم والى شريان الحياة البريطانى خلال الأطلنطى عن طريق(ميرس وكلايد).

وقد شهدنا الهجمات الألمانية العتيقة على مطارات الساحل الجنوبى فى الأسبوع الأخير من شهر اغسطس . والأسبوع الاول من شهر سبتمبر ، وفى ٧ سبتمبر تسلم جورنج علنا قيادة المعركة الجوية وجعل الغارات ليلية ، ونقل مكان المعركة من مطارات « كنت » وساسكس الى عمارات لندن وأبنيتها ، أما الغارات النهارية فلم تنقطع وان كانت ثانوية ، حدث هذا باستثناء غارة نهارية ضخمة آخرى ، لكن الطابع العام للهجوم الألمانى قد تغير تماما ، وقصفت لندن بصفة متواصلة لمدة سبع وخمسين ليلة دون انقطاع ، مما جعل أكبر مدن العالم تواجه تجربة خطيرة بل محنة قاسية ، ولم يكن فى مقدور اى انسان أن يتنبأ بالنتائج ، ولم يسبق قط أن تعرضت هذه البلدان لمثل هذا القصف الجوى الراعد ، كما لم يسبق أبدا ان واجه العدد الضخم من الأسر المشكلات والمصاعب التى أحدثها هذا القصف الرهيب ونكباته .

وقد قمنا بغارة على برلين ردا على هذه الغارات المتواصلة على لندن فى نهاية شهر اغسطس ، ولكن المسافات الشاسعة ــ التى كان على طائراتنا أن نجتازها ، تجعل مثـــل هـــذه الغـــارة شيئا مذكورا بالنسبة للغارات الألمانية المركزة على لندن من المطارات القريبة الفرنسية والبلجيكية . ولكن وزارة الحرب ، رأت نفسها فى وضع يحتم عليهـا الثأر ، رفعا للروح المعنوية ، وتأكيدا لتحدينا للعدو ، وكنت على ثقـة من صحة هذا الراى وجدواه اذ انى أعلم أن هتلر يثير اضطرابه صمود بريطانيا . واظهار قوتها وان كان هتلر فى أعماق نفسه يعجب بشعبنا ، وبالطبع واتته الفرصة حين قمنا بغارتنا الثأرية على برلين ، فأعلن ما انطوت عليه نفسه من رغبة فى تحويل لنــــدن وغـيرها من المدن البريطانية الى اطلال ورسوم حين صرح فى ٤ سبتمبر قائلا : « ان هجومهم على مدننا سيدفعنا الى ازالة مدنهم من الوجود » .

وقد بذل هتلر أقصى ما يستطيع من جهد .

واسهم فى الغارات الليلية المتواصلة على لندن بين ٧ سبتمبر ، و ٣ نوفمبر أكثر من مائتى طـــائرة فى كل غارة ، وكانت الهجمـــات التمهيدية العديدة التى نزلت بمدننا الاقليمية فى الأسابيع الثـــلاثة الماضية قد فرضت علينا أن نوزع مدفعيتنا المضادة للطائرات بصـورة فعلية وعندما أصبحت لندن الهـــدف الرئيسى للمرة الأولى لم تكن تحتوى على أكثر من اثنين وتسعين مدفعا ، ورأينا أن الأجدى ترك الجو حـرا لطائراتنا الليلية المقـاتلة تحت قيـــادة المجمـوعة الحـادية عشرة ، وكان من بين تلك الطـائرات ستة أسراب من طراز « بلنهايم » وطراز « ديفايانت » وكان الاشتباك الليلى ما يزال فى بدايتـــه ، ولذلك فان خسـائر العدو كانت طفيفة ومحدودة .

وهكذا أستمرت مدافعنا المضـــادة متوقفة عن العمل فى الليـــالى الثلاث الأوليات ، وبالرغم من عدم دقة الوسائل التى تستخدمها المدافع المضادة ، فقد اضطرنا ضعف طائراتنا الليلية المحاربة ، ومدى ما تواجهه من مشاكل فى حاجة الى الحل ، اضطرنا كل أولئك الى آن نعطى لمدفعى هذه البطاريات الحرية التامة فى اطلاق نيرانها على أهداف غير واضحة متخذين أى أسلوب يختارونه لتحديد الهدف ودقته .

وبعد ثمان وأربعين ساعة ، استطاع الجنرال بايـــل ؛ المشرف على قيادة المدافع المضـادة من زيادة عددها فى العاصمة بجلب عدد من مدن

الأقاليم ، وهكذا أخليت السماء من طرائراتنا المقاتلة ، وقامت المدافع المضادة بمهمة الدفاع .

ومكث أهل لندن ، ثلاث ليـــال متعاقبة ، ملازمين مساكنهم أو معسكراتهم غير المُعدَّة ، محتملين أعنف الغارات حتى كانت ليـــلة ١٠ سبتمبر فانطلقت مدافعنـا المضـادة فجأة تضيء لها السبيل المصابيح الكاشفة المتوهجة ، وبالرغم من دويها العظيم فلم تنزل بالعدو أضرارا جسيمة ، الا أنها أعلت الروح المعنوية بين أبنـاء العاصمة ، وتمشت الحماسة فى صدر كل انسان لمجرد الاحساس بأننا نرد الصاع صاعين، واستمرت المدافع المضادة منذ ذلك الوقت تتابع اطلاق نيرانها بصفة منتظمة ومتواصلة ، ومهد التمرين والاختراع والحاح الحاجة الى زيادة التصويب دقة ، واخذ عدد الطائرات المصابة من سلاح العدو يتكاثر ليلة بعد أخرى ، وكانت البطاريات تلوذ بالصمت أحيانا حين تنطلق الطائرات الليلية المقاتلة لتخوض غمار المعركة ، بعـد أن تحسنت أساليبها ، وظلت الغارات الليلية بل النهارية متواصلة الى الحد الذى كانت تشن فيه هذه الغارات مجموعات صغيرة من الطائرات بل طائرة واحـدة أحيانا ، وطالما أطلقت صفارات الانذار ، ودوى صوتها فترات متلاحقة طيلة ساعات اليوم بأكمله ، ولكن أهل لندن الذين يبلغون ، فى ذلك الوقت سبعة ملايين قد رتبوا حياتهم على وضـع يلائم تلك الأحـوال الشاذة .



* * *

ولتنوير القراء ، ورغبة منى فى الترفيه قليلا عنهم ، والتخفيف من وقع هـذه التجربة القاسية على مشاعرهم ، اورد هنـا بعض ملاحظاتى الشخصية عن غارات لندن ، متيقنا أن لدى الآلاف من أبناء العاصمة كثيرا من الحكايات التى تبز فى اثارتها هذه الملاحظات .

فعنـدما أخذت طائرات العـدو فى قصف جو العاصمة كنا نرى أن نواجه هذه الغارات بالتهوين وعدم الاكتراث ، فاستمر كل انسان فى حى « الويست أند » يعمل ويلهو ، ينام ويأكل كما تعود ، دون أن يغير شيئا من مجرى حياته العادية ، فالمسرح مزدحم بالنظـارة والشـوارع المظلمة تموج بالمارة ، ولعل هذا الموقف كان رد فعـل صائبا للرعب المستطير الذى بدأ فى العناصر الانهزامية فى باريس ، عنـدما تعرضت المدينة لأول هجوم جوى فى شـهر مايو واذكر انى كنت على مائدة

العشاء ذات ليلة ، مع صحبة خيرة ، عندما حدثت غارات مستمرة قوية. وكانت نوافذ قصر « ستورانواى » — حيث كنا نجلس — تطل على الميدان الأخضر « جرين بارك » الذى أنارته شعل المدافع المضادة وانفجار القذائف المضادة ، وهيىء لى أننا كنا نغامر بأرواحنا ، دون ما ضرورة أو مبرر وبعد أن تناولنا العشاء انتقلنا الى عمارة شركة الصناعات الكيمائية الامبراطورية وهى تطل على الجسر ، وكان منظر النهر يأخذ بنفوسنا ونحن نطل عليه من الشرفات العالية ، ورأينا على الأقل عشر حرائق تشتعل فى الجانب الجنوبى ، وبينما كنا نقف تساقط عدد من القنابل الثقيلة ، انفجرت احداهما بالقرب منى فدفعنى صديق الى ما وراء عمود حجرى راسخ القواعد ، وأكدت هذه الحادثة الفكرة التى خطرت ببالى وهى أن نكيف حياتنا مع الوضع الجديد ، وأن نفرض على متع حياتنا كثيرا من القيود .

وسقطت القنابل مرات عديدة على مجموعة من الأبنية الحكومية المحيطة بالبيت الأبيض ، على أن دور الحكومة فى « داوننج ستريت » قام ببنائها قبل مائتين وخمسين عاما المتعهد الاستغلالى الذى ما زال اسمه محفورا على أسس ضعيفة واهنة ، وخلال أزمة ميونخ أقيمت المخابىء لسكان رقمى (١٠ ، ١١) من هذا الشارع ، كما دعمت الأسقف بأعمدة جديدة قوية ، وأنشئت سقوف داخلية أخرى ، وكان الظن أن هذه الأسقف الجديدة تستطيع أن تصمد فيما اذا نسفت الأبنية أو انهارت ، لكنها لا تحتمل على أية حال الاصابة المباشرة ، وقد تم فى الأسبوعين الأخيرين من سبتمبر نقل مقر رئاسة الوزارة الى مكاتب جديدة أكثر تحملا وصلابة ، مطلة على ميدان « سنت جيمس » . وكنا ندعو هذه الأبنية باسم « الملحق » ، وقد ظللت مع زوجتى خلال الأيام الباقية من الحرب فى هذا البناء ، ننعم بالهدوء والراحة ، وكنا نوقن أن هذه الأبنية القوية المشيدة من الأسمنت فى وسعها ان تصد الحديد والفولاذ ، وعلقت زوجتى عددا من صورنا فى غرفة الاستقبال التى كنت أقترح عليها أن تظل بلا صور ، ولكنها نفذت فكرتها ، وتغلبت على بالطبع ، وساعدتها الأحداث ، وكان منظر لندن رائع الجمال حين نراها من سطح « الملحق » على مقربة من القبة فى الليالى الساجية ، وقد هيأوا لى مكانا على السطح ، فوقه سقف متين، كى أتمكن فى ضوء القمر من مراقبة الغارات الجوية وتحت هذا المكان أقيمت غرفة الحرب حيث زودت ببعض الأثاث الصالح للنوم ، وحيث لا تجد القنابل اليها منفذا وكانت القنابل فى تلك الأيام أصغر بالطبع.

من القنابل التى طالعتنا فى المراحل الأخرى من الحرب ، وبالرغم من ذلك كانت حياتنا فى داوننج استريت فى الفترة التى سبقت بناء هذا المسكن الجديد مثيرة للغاية ، اذ كان كل منا يحس وكأنه قد دفع به الى مركز قيادة احدى الفرق فى ميدان القتال .

ولست أنسى مساء يوم ١٧ من أكتوبر حيث كنا نتناول عشاءنا فى غرفة الحديقة بداوننج رقم ١٠ عندما انطلقت الغارة الليلية المألوفة وكان يشاركنى العشاء (آرشى سنيكلير وأوليفر ليتلتون ومور ـ برابا زون) وكانت النوافذ الفولاذية مغلقة ، وحدثت بعض الانفجارات المدوية بالقرب منا ، وسقطت قنبلة على مكان استعراض حرس الفرسان وهو لا يبعد عنا بأكثر من مائة ياردة ، وكان دويها هائلا ، وعلى حين غرة شعرت بهاتف سماوى .. ينبهنى الى الخطر الماثل . فالمطبخ عال ومكشوف ، وبه نافذة زجاجية يبلغ طولها خمسة وعشرين قدما ، والساقى والفتاة يقدمان لنا العشاء دون تأثر بدوى الانفجارات وخلف النافذة توجد السيدة لانديمير الطباخة ومعها مساعدتها دون مبالاة.. فنهضت مسرعا وغادرت المائدة ، وأمرت الساقى أن يحمل العشاء الى غرفة المائدة مباشرة ، وطلبت الى الطباخة وسائر الخدم أن يسرعوا الى المخبأ ، ثم عدت الى مكانى بالمائدة ، فلم تمر ثلاث دقائق حتى فوجئنا بدوى هائل وأصوات دمار جد قريبة وشعرنا بهزة عنيفة مما يؤكد أن البيت نفسه قد أصيب ، وجاء مفتش المباحث الملحق بخدمتى ليخبرنى بفداحة الخسائر ، فقد أصيب المطبخ ، ومخزن التموين ، ومكاتب القسم المالى ..

وذهبنا الى المطبخ لنشاهد ما جرى ، فلم نر الا أنقاضا فقد أسقطت القنبلة على بعد خمسين ياردة ، على القسم المالى ، فدمر كل ما فى المطبخ وتحول الى أنقاض وتهشمت النافذة الزجاجية الكبيرة ، وتطايرت شظاياها فى كل جوانب المطبخ ، ولو ظل به أحد الى أن حدث الانفجار ، لغدا أشلاء مبعثرة ، ولا شك فى أن الهاتف السعيد الذى خطر لى جاء فى وقته المناسب . أما مخبأ القسم المالى فى الساحة فقد أصابته قذيفة مباشرة فتناثرت أجزاؤه ، واستشهد تحت أنقاضه أربعة حراس كانوا يقومون ليلا بأعمال الخفارة ، وعلى أية حال فلم يكن فى مقدورنا أن نحدد عدد المفقودين ، فقد دفن الجميع تحت ركام الأنقاض .

ولما كانت الغارة متواصلة ، فقد لبسنا خوذاتنا وارتقينا الدرج الى سطح الملحق لنشاهد المنظر كاملا ، وقبل ذهابى لم أستطع مقاومة

الرغبة فى ان أغرى الطباخة والخـــدم بالتوجه الى المطبخ ، وبالطبع أصيبوا بالهلع من رؤية مكانهم وقد استحال الى ركام .

وصحبت آرشى الى سطح الملحق ، كان المساء ساكنا والجـو صافيا ، وكانت لندن بكاملها تجاهنا ، ورأيت معظم حى (بال مال) تأتى عليه النيران ، وعلى أية حال كانت ثمة خمس حرائق مضـــطرمة فى الجانب المقابل من المدينة على طول النهـــر ، لكن « البال مال » كان أطعمة للنـيران ٠٠ ثم أخذت الغـــارة تنزاح غمتها شيئا فشيئا الى أن دوت صفارات الأمان ، وأن ظلت الحرائق مشبوبة فى المدينـــة .. ونزلت الى مسكنى الجديد فى الطابق الأول من الملحق وقد وجـدت الضابط ديفيد فارجيسون ، رئيس مراقبى مجلس العموم ، والذى يقطن فى نادى الكارلتون ، وقد أخبرنا أن دار النادى قد أصبحت فى خبر كان ، وكنا قد تخيلنا ذلك بأنفسنا بمجرد أن شـــاهدنا اندلاع النيران ، وكان مارجيسون فى النادى عند ما دوى الانفجار ، وحوالى مائتين وخمسين من الأعضاء والموظفين ، وقد أحدث الانفجار قذيفة ضخمة مباشرة ، أطاحت بواجهة المدخل من جهة شارع « بال مال » وكان الأعضاء يزحمون قاعة التـدخين ، فتهـاوى الســقف عليهم ، وعنـدما شاهدت الأنقاض فى اليـوم التالى أخذتنى الدهشة لأن أحدا ممن كانوا فى القاعة لم يقتل ، وانما نجا الجميع رغم الأنقاض والدخان وكأنما حدثت معجزة ، ولئن أصيب بعضهم بجروح الا أنهم نجوا من الموت جميعا . وعندما سعيت بالحقائق مفصـلة الى مجلس العموم عقب زملاؤنا الوزراء من حزب العمال مازحين بقولهم « ان الشيطان لا يمس أنصاره بسوء » (أعضاء نادى الكارلتون من كبار زعماء حزب المحافظين) وقد انتشل المستر كانتان هوغ والده — وهو وزير مالية سابق — من بين الركام ، كما حمل اينياس والده الخيزاس فى حرب طروادة ، ولم يجد مارغيسون مسكنا يأوى اليه فى تلك الليلة ، فأعددنا له سريرا فى الطابق الأرضى من الملحق ، لقد كانت هذه الليلة بصـــورة عامة مثيرة للفزع ، وكان من الغريب حقا بالنظر الى اصابات المبـانى ألا يزيد عدد القتلى عن خمســـمائة شـــخص وعدد الجرحى عن ألفين أو ثلاثة آلاف .

ومضيت للمرة الثانية الى زيارة رامسغيت ، وشن علينا الهجوم فمضـوا بى الى النفق الكبير ، الذى يقيم فيه عدد كبير من الناس بصفة مستمرة ، وعندما غادرنا النفق بعد ربع ساعة تقريبـا ، بدأنا نتأمل

الخرائب التى ما زال يتصاعد الدخان من جوانبها ، وقد تهدم فندق صغير دون أن يصاب أحد من نزلائه بأذى ، على الرغم من تحوله الى تل من الركام والحجارة تتناثر خلالها قطع الأثاث المحطم ، وأدوات المطبخ ، وراعنا صاحب الفندق وزوجته والطباخون والخدم ، وهم يولولون حول فجيعتهم فى مصدر رزقهم ، ومأوى حياتهم .. وعندئذ قررت بكل مالى من نفوذ وامكانيات أن أصدر أمرا بالتعويض الفورى الكامل ، وعندما أبتْ بالقطار وأمليت على وزير المالية كنغزلى وود الرسالة التى توضح هذا المبدأ الهام وهو أن كافة الخسائر التى تحدثها الغارات يجب أن تكون على مسئولية الدولة ، وان الحكومة تلتزم بتعويضها حتى لا يقع عبؤها على كاهل الذين يصابون فى بيوتهم أو أعمالهم بل على كاهل الشعب كله تحقيقا للعدالة وقد أثار هذا القرار فزع كنغزلى وود بما ينطوى عليه من التزام لا نهائى ولكنى أكدت له ضرورة القيام بهذا الاجراء ، ولم يمر أسبوعان على ذلك حتى كانت وزارة المالية قد جهزت مشروع التأمين الذى قدر له أن يقوم بدور فعال فى حياتنا . وقد واجهت وزارة الخزانة مشاعر مضطربة ومتصادمة ازاء هذا المشروع ، فقد ظنت فى بادىء الأمر أنه سيستنزف الخزانة حتى الافلاس ، ولكن بعد مايو عام ١٩٤١ ، حيث توقفت الغارات الجوية أكثر من ثلاث سنين ، أخذت المكاسب تنهال على خزائن الوزارة بفضل هذا المشروع الذى اعتبرته أنا فى حينه عملا من أعمال التوفير والبراعة السياسية ، وفى أخريات مراحل الحرب، عندما أخذنا بغارات الصواريخ والقذائف الموجهة ، صعدت الأرقام ثانية الى جانب الخسارة وتكبدنا ما لا يقل عن ثمانمائة وتسعين مليونا من الجنيهات فى شئون التعويض ، وبالرغم من كل ذلك فقد كنت غير مستاء لما يحدث .

وغدا من المحتم فى هذه الآونة الجديدة من الحرب ، أن نستفيد بغاية ما نستطيع من العمل ، ليس فى المصانع فقط بل فى الدوائر الحكومية بلندن كذلك ، بالنسبة لتعرضها لهجوم جوى مستمر ليل نهار ، فكان الموظفون فى البداية عندما تدوى صفارات الانذار يسرعون الى الطوابق الأرضية حيث تستخدم كملاجىء للوقاية ، وكان يثير زهونا أن تتم هذه العملية فى هدوء ونجاح ، وفى أحوال كثيرة لم تكن الغارة تعنى أكثر من هجوم من بضع طائرات أو حتى طائرة واحدة ، وطالما عوقت هذه الطائرات فلم تصل الى العاصمة ، وهكذا يتوقف

العمل فى جميع المصالح الحكومية الادارية والتنفيـــذية بسبب غارة صغيرة تافهة .

ولذلك فقد فكرت فى أن يستخدم الانذار على مرحلتين · مرحلة التنبيه المبدئى ومرحلة الخطر الفعلى الذى لا تنطلق صــــفاراته الآ حين يحل الخطر ، ويصبح فى حالة مداهمة فعلية ، فقُبـل اقتراحى ، ونُسِّقت الخطة على أساسه .

وكان البرلمان أيضـــا فى أمس الحاجة الى الارشـــاد بالنظر الى مواصلة عمله فى تلك الأيام المليئة بالخطر وكان أعضاء المجلس يوقنـــون بأن واجبهم يحتم عليهم أن يكونوا مثلا للشعب ، ولا شـــك فى أن الحق كان بجانبهم فى هـــذا اليقين ، ولكن كان على أن أوجـه انتباههم الى ضرورة اتخاذ الحيطة والحذر نظرا الى الأخطار المحـدقة واستطعت اقناعهم فى جلسة سرية بوجوب اتخاذ الاجراءات الوقائية الضرورية ، فاتفقوا على كتمان مواعيد الجلسات ، وايقاف النقـــاش حين تدوى صفارات الانذار · وصاروا يخفون بنظـام الى المخـــابىء المفعمة ، والتى لم تكن معدة كما ينبغى .

ولا شك فى أن مواصلة البرلمان البريطانى أداء مهمته ، وتصريف الشئون فى تلك الآونة صفحة مشرقة فى تاريخـــه وذيوع شـــهرته ، والنواب عادة أكثر النـــاس حساسية بالنسبة لمهامهم فى هذه الظروف فكان من اليســـير على أى انســـــان ألا يحســـن الحكم على حقيقـــة تصرفاتهم ، فعندما تنزل الأضرار باحدى القـــاعات كانوا ينتقلون الى قاعة أخرى ، وكنت أواجه صعوبات جمة فى اقناعهم بضرورة الاخـــذ بوسائل الحكمة والموعظة الحسنة لكن جميع النواب فى هذه الفترة قد نهجوا نهجـــا ينم عن التعقل ووزن الأمور والحرص على الكرامة · ومن يمن الطالع أن الانفجار الذى حـــدث بعد عدة شهور ، وأطاح بقـــاعة مجلس الشـيوخ حـدث ليلا حينما كانت القاعة صفصفا ليس بها أى انســـان ، ولقد أعطانا تفوقنا على الغـــازات النهارية احساسا بالراحـة والهدوء النفسى ، أما فى خلال الشهور الأولى فقد سيطر علىّ الشعور بالقلق الذى يتمتع بحقوق الســـيادة ، والذى انتخب بطريقـــة عـــادلة ونزيهة وهى الاقتراع العـــام ، وفى يده ـ دائما ـ القدرة على اسقــاط الحـكومة ، ولكنه الآن فى أقسى الظروف كان يدعمهـا ويسند مركزها ·· وهكذا كتب النصر لبرلماننا .

واني لا أعتقد ان أى دكتاتور قد حاز من السلطات الفعلية فى بلاده مثل تلك التى خولت لوزارة الحرب البريطانية ، وكنا عندما نعبر عما نريده يعطينا نواب الشعب تأييدهم فيطيع الناس رغباتنا بسعة أفق وحرية ، وعلى الرغم من ذلك لم نحاول مرة مصادرة الحريات وان ظل الناقدون بأنفسهم يرجحون المصلحة القومية على أى شىء آخر . واذا تحدانا النقاد رأينا المجلسين يصوتان ضدهم بأغلبية ساحقة ، واذا ما قورن هذا بأساليب الدول الجماعية ، بدا لنا أن برلماننا كان يخولنا هذه السلطة ضد الناقدين بلا أدنى اضطهاد أو كبت أو ايحاء أو استعمال للشرطة وأجهزة الأمن السرية ، ولا شك فى أن هذا كان يثير زهونا واعتزازنا ، ويؤكد لنا ان الديمقراطية البرلمانية أو على الأصح ما يحق أن نسميه السلوك البريطانى فى الحياة العامة قد استطاع الصعود والانتصار والبقاء ، بالرغم من كل المحن القاسية ولم يستطع التهديد بالابادة وافناء أعضاء برلماننا أن يرهب أحدا ، وكان من حسن الحظ أن هذا التهديد لم ينفذ ، ولم تحدث الابادة .

* * *

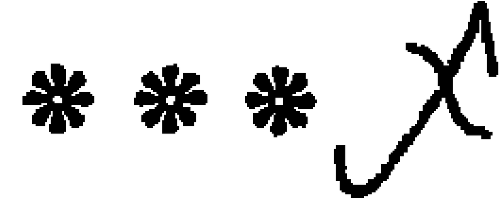
وحل منتصف سبتمبر ، ففاجأنا العدو باستعمال نوع جديد ومدمر من وسائل الحرب علينا ، فقد بدأت الطائرات تلقى بقذائف تنفجر بعد مرور بعض الوقت مما وضعنا أمام مشكلة حساسة وغريبة ، وكثيراً ما سارت فى وجوهنا مسافات شاسعة من السكك الحديدية . فنخترق الطرقات الهامة ، والسبل الموصلة للمصانع الحيوية والمطارات والمؤسسات ، وحظر علينا دخولها فى أوقات احتياجنا اليها ، اذ فرض علينا أولا أن نتعقب هذه القنابل لنفجرها أو نتلفها ، وكانت هذه عملية خطيرة وخاصة فى بداية الأمر ، عندما اضطررنا الى أن نتعلم الوسائل والأساليب بواسطة عمليات من التجارب الموضحة .

وقد تكلمت آنفا عن حكاية الألغام المغنطة ، أما هذه القذائف المتفجرة تلقائيا ، فقد أصبحت منتشرة ، وصارت مشكلة تحتاج الى التفكير ، وقد وجهت اهتمامى الى القنابل المؤقتة منذ عام ١٩١٨ عندما استعملها الألمان لأول مرة ضدنا بصورة شاملة ليرغمونا على عدم استخدام القطارات فى زحفنا على ألمانيا ، وكنت قد اقترحت أن نستخدمها فى النرويج وقناة كييل ومنطقة الراين ولا شك فى أن هذا السلاح من أكثر أسلحة الحرب فعالية .

بالنسبة إلى ما يشيعه من التوجس والقلق والارتيـاب وهكذا دار الزمن لنذوق نحن طعم هذا السلاح فأنشأنا هيئة خاصـة للتصرف فى شأنه وعهدنا الى مجموعات خاصة شكلت فى كل مدينـة وبلـدة ومقاطعة بتتبعه وسارع المتطوعون يبذلون جهودهم لمكافحـة هـذه القنابل ، وتكونت فرق كان بعض منها حَسَن الحظ وكان للأخرى سوء المصير وقد استطاع رجال من هذه الفرق النجاة من العاقبـة الوبيلة لهذا السلاح ، والسلامة الى خاتمة الحرب ، بينما نجا البعض الآخر من التجربة العاشرة أو العشرين أو الثلاثين أو الأربعين قبل أن يلقوا حتفهم ، وكنت حين أشاهد أعضاء هذه الفرق أينما ذهبت فى رحـلاتى وتجولاتى ، أرى وجوههم مغايرة تماما لكل الوجوه التى أعرفها أو رأيتها، بالرغم مما يتحلون به من شجاعة وتفان وصبر ، فعلى هذه الوجوه تبـدو واضحة ظلال الشحوب ، ومعالم الاجهاد ، وسماته الضخمة والجهد ، فضلا عن بريق العيون وزرقة الوجوه ، وجفاف الشفاه ، فاذا ما تذكرنا الأيام المضنية التى عشناها ، فيجب أن لا نستعمل كثيرا كلمة « أوقات كئيبة » اذ تكاد الكآبة كلها تخص أفراد هذه الفرق وحدهم .

وواجب عَلَىَّ هنـا أن أسرد ما حدث لأحدى هـذه المجموعات كمثال لما كانت تواجهه سائر المجموعات ، كانت هـذه المجموعة تضم اللورد سافولك وسكرتيرته وسائقه العجوز ، وكانوا يسـمون أنفسهم « الثالوث المقدس » وقد شاعت أخبار جرأتهم ، وذاع الكثير عن شجاعتهم ، وقد استطاعوا أن يتخلصوا من أربع وثلاثين قنبلة لم تنفجر ، بروح مرحـة طيبـة ، لكن القنبلة الخامسة والعشرين قد ثأرت لزميلاتها ، فانفجـر معهـا اللورد وثالوثه المقـدس ، ولكن الأيمان يملأ نفوسنا بأن أرواحهم عرفت مستودعها الأمين فى دار الخلود .

وقد توصلنا بفضل إخـلاص كل فرد فى هـذه المجموعات ، وبالتضحيات النبيلة التى بذلوها الى أن نتحكم فى هذا الخطر الجديد.



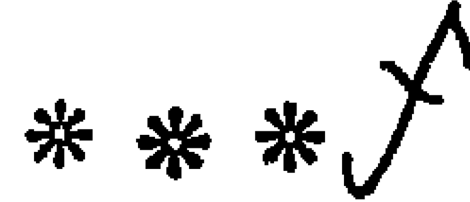
من الشقاق علينـا أن نعقد مقارنة بين الاختبار القـاسى الذى مر به سكان لندن فى شـتاء ١٩٤٠ ــ ١٩٤١ ، وبين الاختبارات التى عاناها الألمان فى سنوات الحرب الثلاث الأخيرة ، فقد غدت القنابل أشد هولا والغارات أكثر قسوة ولكن من ناحية ثانية ــ كان الاعـداد الطويل ، وما اشتهر عن الألمان من دقة قد ساعدهم على انشاء وحدات كاملة من

الملاجىء المحصنة ضد القنابل ، وكان يفرض على كل ألمانى الالتجاء اليها عند قيام الغارات كعمل عادى رتيب وعندما اجتزنا ألمانيا فى النهاية شاهدنا مبانيها قد أصبحت بكاملها خرائب وأطلالا ولكننا شاهدنا أيضا عمارات مشيدة ما تزال صامدة على الأرض وملاجىء حصينة كان السكان ينامون فيها كل ليلة بالرغم من تساقط دورهم وخراب كل ما يملكونه على سطح الأرض ، أما فى لندن ، فعلى الرغم من أن الغارات كانت أقل قسوة ، الا أن وسائل التأمين والوقاية كانت أبطأ تطورا ، فاذا استثنينا الأقبية لم نجد عندنا أماكن للوقاية والتأمين ، حقا لقد كان معه طوائف أرضية ، وطوابق تحت الأرض تستطيع أن تجابه الضربات المباشرة ولكن عددها كان قليلا لدرجة ملحوظة وكانت الغالبية من سكان لندن يمضون الليل فى الخنادق الخاصة ببيوتهم تحت سيل من قذائف العدو ، مستمتعين بما اشتهر عن الانجليز من حبهم للاسترخاء بعد يوم من العمل المثمر الجاد ولم تكن ثمة أية وسائل للوقاية الا من شظايا القذائف ، لكن الانهيار النفسى لم يكن شيئا بجانب الاحتمال البدنى ، وحقيقة لو كانت قذائف عام ١٩٤٣ قد أسقطت على لندن فى عام ١٩٤٠ لانتهينا الى وضع قد دمر فيه كل تنظيم بشرى ، ولكن لكل شىء وقته المعين ، ونسبه المحدودة ، وليس يملك انسان القول بأن لندن التى لم تجرب الخضوع قط ، كانت محصنة دائما ضد الاستسلام .

ولم تكن الحكومة قد شيدت قبل الحرب أو فى الفترة السلبية الأولى التى مرت فى مطلعها ، أية أماكن محصنة ضد القنابل ، تستطيع هيئتها المركزية أن تلجأ اليها لمواصلة الأعمال ، فقد درست خطط لتحويل العاصمة عن مدينة لندن ، وفعلا انتقلت فروع بأكملها من جميع الوزارات والدوائر الى (هاروغيت وباث وشيلتيفهام وغيرها) واستحوذت السلطات على المساكن الكافية فى مناطق شاسعة لسكنى جميع الوزراء وكبار الموظفين حين الانسحاب من لندن ، أما فى هذه الآونة وطائرات العدو تواصل عدوانها فقد انعقد عزم الحكومة والبرلمان ورغبتهما الأكيدة على البقاء فى لندن دون مناقشة وكنت أشاركهما نفس هذه المشاعر ، وكنت مثل غيرى يخيل لى أن الدمار سيكون عاما ، بحيث يصير الانتقال وتوزيع الأعمال أمرا محتما ، ولكن بالنسبة الى ما حدث بالفعل ، فقد امتلأ بعكس هذا الاحساس ، وظللنا فى تلك الأشهر نعقد اجتماعاتنا الوزارية ليلا فى غرفة الحرب فى الطابق الأسفل . ولم أكن أتخيل مدى ما يتحمله المستر تشمبرلين من

عناء هـذا السير بالنظر الى العملية الجراحية التى أجريت له ، ولكن لم يستطع أى شىء أن يقعد به عن هذه الاجتماعات التى كان يتسم فيها بكثير من الهـدوء البارد والتصـميم الأكيد والتى كانت آخـر ما شهده من اجتماعات .

ونظرت ذات مساء فى أواخر شـهر سبتمبر ١٩٤٠ م من باب دوننج ستريث الذى يطل على الطريق ، فشاهدت العمـال يقـومون بوضع أكياس من الرمال تجاه النوافذ المنخفضة من بناء وزارة الخارجية المواجهة لنا ، وسألتهم عما يقومون به فقيل لى ان المستر نفيل تشمبرلين فى أمس الحاجة الى العلاج من حين لآخر بعد العمليـة التى قد أجريت له ؛ وكان من غير الميسور أن يقوم بهذا العلاج فى ملجأ دوننج ستريت رقم ١١ لأن عشرين شخصا على الأقل يتجمعون أثنـاء قيام الغارات ، ولذلك فقد رؤى تهيئة ملجأ صغير خاص به وظل حريصا على عاداته اليومية ، لابسا خير ثيابه ، باديا غاية فى الاناقة وانسجام الهنـدام ـ وكان هـذا كله أكثر مما فى طوقه ولذلك رأيت أن أستخدم سلطاتى فذهبت الى الطريق الممتد بين رقمي ١٠ ، ١١ وحين رأيت السيدة تشمبرلين قلت لهـا : « ينبغى ألا يوجد هنـا فى هـذه الظروف ، ويجب أن تبتعدى به حتى تعاوده الصحة وسأرسل اليه يوميا بالأنباء » وذهبت السـيدة للقاء زوجها ، وبعد ساعة أرسلت الى تقـول : « لقد أبدى استعداده لتنفيذ مشيئتك .. سنرحل الليـلة » ولم ألتق به ثانية ولكنى على يقين أنه كان يرغب فى الموت أثناء قيامه بواجبه ولكن القدر شاء غير ذلك .



ونتيجة لوفاة المسـتر تشمبرلين حدثت بعض التغيرات الوزارية الهامة ، فقـد أظهر المستر هربرت موريسون نشاطا ملموسا كوزير للتموين ، كما قابل السـير جون أندرسون الهجمات على لنـدن بادارة فى منتهى الصمود والكفاية ، وتبين لى فى مطلع اكتوبر أن الهجوم المتواصل على أعظم مدن العـالم كان من القسـوة والعنف بحيث خلف الكثير من المشـاكل السياسية والاجتماعية لدى أهـل المدينة الذين واجهوا أقسى الظروف ، مما يفرض علينا أن نعهد الى برلمـانى حازم صـاحب خبرة وتجربة شئون وزارة الداخلية التى أصبحت فى تلك الآونة وزارة الأمن الداخلى كذلك ؛ فلندن هى التى تعانى قسوة الغارات ، وهربرت موريسون واحد من أهلها ، وهو عليم بكل جانب من جوانب ادارتهـا ، وكانت له

خبرة لا تبارى فى حكم مدينة لندن ، اذ كان رئيسا فيما سبق لمجلس مقاطعتها ، وكان الشخصية البارزة فى كافة أمورها وكنت فى ذات الوقت فى احتياج للسير جون اندرسون ليمثل الحكومة فى مجلس الملك الخاص ليقوم كما يملى عليه منصبه الجديد بالاشراف على كثير من الأمور الداخلية فى مجال أوسع باعتباره رئيساً للجنة الشئون الداخلية التى يعهد اليها بالكثير من المشاكل تخفيفا لأعباء مجلس الوزراء ، وأتاحت لى هذه التغيرات التى خففت العبء عن كاهلى أن أحشد اهتمامى لتصريف الحرب ٠٠ التى تبين لى أن زملائى يميلون الى توسيع مسئولياتى بشأنها وزيادة اختصاصاتى ولذلك فقد رغبت الى هذين الوزيرين اللامعين أن يحل كل منهما محل الآخر ، ولم يكن ما قدمته لهربرت موريسون طريقا مفروشا بالورود وليس فى مقدور هذه الصفحات بحال ما أن توضح المصاعب الجمة فى ادارة لندن وحكومتها فى ذلك الوقت كان يمضى فيه عشرة آلاف مواطن أو عشرون ألفا كل ليلة بدون مأوى نتيجة للهجوم الجوى المستمر، وعندما كان حذر السكان وحرصهم وَحْدَه بمثابة حرس أولى يقاوم حدوث حرائق على أسطح المنازل قد يتعذر القضاء عليها ، وعندما اكتظت المستشفيات بمشوهى القنابل من الرجال والنساء ، وعندما ظل مئات الآلاف من البشر المنهكين يكدسون كل ليلة فى هذه الخنادق التى تحتاج الى الأمان والوسائل الصحية ، وعندما كانت طرق المواصلات بالقاطرات وغيرها تغلق باستمرار ، وعندما كانت المجارى والقوة الكهربائية والغاز تدمر تدميراً ، وعندما يجب أن تظل — بصرف النظر عن كل ذلك — روح لندن المناضلة صامدة غالية ، وأن يتيسر نقل حوالى مليون مواطن فى كل يوم ليلا ونهارا من مساكنهم الى المصانع وبالعكس ، كان يجب علينا كل هذا ولم يكن فى مقدورنا أن نعرف مدى هذه المحنة ومتى تنتهى ، ولم يكن لدينا ما يشير الى أنها لن تستمر أو لن تزداد سوءا ، وعندما حَدَّثت مستر موريسون عن رغبتى بالنسبة للمهمة الجديدة كان يدرك جيداً ما ينطوى عليه هذا العرض من خطورة ومشاكل فاستمهلنى بضع ساعات ليفكر ولم يلبث أن جاءنى قائلا انه سيكون فخورا بالقيام بكل هذه المهام ، وهزّنى اعجابا به هذا القرار الذى يدل على كل صفات الرجولة ٠

وبعد أن تمت هذه التعديلات الوزارية أدى تغيير العدو لوسائله الى أن تتأثر سياستنا العامة ، فقد كانت الغارات حتى الآن تستخدم القنابل الشديدة الانفجار فحسب ، ولكن فى ليلة ١٥ أكتوبر ، وكان القمر بدراً نزلت بنا أقسى غارات جوية فى ذلك الشهر ، وأسقطت الطائرات الألمانية فضلا عن حمولتها المعروفة من القذائف المتفجرة حوالى سبعين

ألف قذيفة حارقة وكنا حتى فى هذه الأثناء نبث الشجاعة فى سكان العاصمة ونحثهم على اللجوء للخنادق وقت حدوث الهجوم ، وكنا نفتش عن كل وسيلة ممكنة لتأمين وقايتهم ولكن بعد هذه الليلة اضطررنا أن نطلب اليهم الصعود الى سطوح المساكن بدلا من اللجوء الى الخنادق فى أثناء الهجوم. وكان على وزير الداخلية الجديد أن ينفذ هذه السياسة فأعد على الفور تشكيلا هائلا لمراقبى الحرائق ، ومقاومتها على مدى واسع يكفى مدينة لندن بكاملها فضلا عن اجراءات أخرى اتخذت من المدن الاقليمية فى أقصر مدة ممكنة وكانت مراقبة الحرائق عملا اختياريا فى أول الأمر ، ولكن اشتداد الحاجة لمزيد من الأفراد والاحساس بحتمية قيام كل انسان بواجبه فى مثل هذه المحنة القاسية ليشارك فى آلامها ، فرض علينا أن نلزم المواطنين بالمشاركة فى أعمال المكافحة ، وقد أدى ذلك الى مزيد من نشاط كافة المواطنين على جميع ألوانهم ومستوياتهم وصممت النساء على الاسهام بقدر حيوى فى هذه الخدمة واتخذت التدبيرات على نطاق واسع للقيام بتدريبات عامة ولتعويد مراقبى الحرائق مكافحة كل أنواع القذائف المحرقة التى يسقطها الأعداء ، وقد تفوق الكثيرون فى أداء هذه الخدمة حتى استطاعوا أن يخمدوا ألوف الحرائق قبل شبوبها ، وسرعان ماصارت تجوبة الصعود الى أسطح المنازل ليلة اثر أخرى تحت وطأة النيران المشتعلة ودون أدنى إجراء وقائى آخر سوى الخوذة النحاسية ، أمرا عاديا مألوفا .

ورأى المستر موريسون أن يجمع الفرق المحلية للاطفاء التى يبلغ عددها حوالى ألف وأربعمائة فرقة فى تشكيل قومى موحد لمقاومة الحرائق. وأن يزود هذا التنظيم بحرس شعبى كبير للحرائق من المدنيين المدربين المتطوعين للعمل فى أوقات فراغهم ، وكان حرس الحرائق أول الأمر يتألف من المتطوعين أيضا ولكن ما لبث أن تقرر بالاجماع تحويله الى خدمة الزامية ، وقد استطعنا بواسطة الجهاز القومى لمكافحة الحرائق من استخدام النقل الآلى ، وأحدث الاجهزة وادق التدريبات فى أعمال رسمية تشرف عليها مجموعة من العسكريين .

أما أسلحة الدفاع المدنى الأخرى فقد كانت تضمن وجود مجموعات على استعداد للتوجه الى أى مكان فى خلال دقيقة واحدة وقد اكتفى باسم سلاح الدفاع المدنى عن الاسم القديم الذى عرف قبل الحرب بقوات الاحتياط من الغارات الجوية وزود رجال السلاح الجديد بملابس عسكرية خاصة تبث الشعور فى نفوسهم بأنهم يؤلفون السلاح الرابع من قوات التاج المسلحة .

وقد اغتبطت لأن لندن قد صـــــمدت أمام الموجات المتتالية من الغارات الجوية على مدننا . ان لندن تشـــبه فيما أرى حيوانا هائلا من حيوانات ما قبل التاريخ فى وسعها أن تتحمل الأذى المخيف ثم تظل رغم جراحها النازفة عتية الصمود تموج بالحياة والحركة ، وقد كثرت خنادق اندرسون فى أحياء الطبقات العاملة المكونة من بيوت ذات طابقين وقد بذلنا كل ما فى وسعنا لتكون هذه الخنادق صالحة للاقامة والحياة ، مع الحرص على تخفيفها من الرطوبة أثناء الأمطار .

وقد اغتبطت لأن لندن قد صـــمدت أمام الموجات المتتـــالية من مائدة مطبخ ثقيلة من الفولاذ محاطة الاضلاع بالاسلاك القوية ، تقـــدر على أن تقاوم كل ما يتساقط عليها من أنقاض منزل صـــغير بالتحمـــل نوعا من الوقاية لأهل ذلك المنزل ولا شك فى أن الـكثيرين قد كتبت لهم حياة جديدة بفضل هذا الخندق المبتكر وكان الشعار الشـــائع على كل لسان « تستطيع لندن أن تصمد » وقد صمد أهل لندن كثيرا وكان فى طاقتهم أن يصمدوا أكثر وأكثر ، وكنا حقيقـة فى ذلك الوقت ننتظر شيئا أقل من هدم العاصمة بأكملها ومع ذلك فقد أوضحت لمجلس العموم فى تلك الآونة أن قانون تناقص النتائج يطبق بدقة على المدن الكبيرة التى تجابه الدمار ، فسوف تهوى القنابل كثيرا على مبـــان دمرت من قبل فلا تصنع شيئا سوى اثارة الغبار ، وسترى الطائرات المهاجمة عما قليل أنه لم يبـــق الكثير الذى يستأهل قذائفها الحارقة والمدمرة ولكن الناس سكان لندن رغم كل ذلك يعيدون انشاء منازلهم هنا وهناك ويمارسون أعمالهم اليومية بارادة فولاذية وعزم لا يفل .

***

وللمرة الأولى منذ حوالى شهرين لم تدو فى الجو صفارة الانذار ليلة ٣ نوفمبر فى لندن فاستغرب الكثيرون جو الهدوء السائد ، وبدءوا يتساءلون ما الخبر ؟ .. وفى الليلة التالية شُنت الغـــارات على نطاق واسع حتى عمت أكثر الجزر البريطانية وظل هذا بصـــفة مستمرة الى بعض الوقت واتضح أن الالمان قد جددوا وسائلهم الهجومية ، وبالرغم من أن لندن استمرت كهدف أساسى الا أن جهودا ملحوظة كانت تبـذل لتشل العمل فى المراكز الصناعية البريطانية وقد أرســل العدو اسرابا جـديدة مدربة على ابتكارات جـديدة فى الملاحة الجوية لتهـاجم مراكز حساسة فى الجزيرة ، فمثلا تمرنت فرقة خاصة من الطائرات الالمانية على تحطيم مصانع وآلات الطائرات « رولزرايس » فى « هيلتنجتـــون » قرب

غلاسجو ، ولا شك فى ان هذه الخطة الجديدة لم تكن تعنى مجرد التغيير فقد قرر العدو تأجيل غزو بريطانيا الى حين ولم يكن قد انتهى من تدبير هجومه على روسيا بعد ، كما لم يفكر فيه أحد غير هتلر وخاصة المقربين، وهكذا كانت أشهر الشتاء الباقية مجرد فترة تمرينات بالنسبة لسلاح الجو الالمانى على التكتيكات الجديدة فى الهجوم الليلى والاغارة على التجارة البحرية فى بريطانيا أما الغاية من ذلك فهى تدمير إنتاجنا المدنى والعسكرى ، وكان أجدى للألمان لو ظلوا على هجومهم فى ناحية واحدة حتى آخر الشوط فربما وصلوا إلى نتيجة حاسمة ولكن الحيرة والتردد كانا طابعهم فى ذلك الوقت لأن ثقتهم بأنفسهم كانت غير كاملة ٠

وبدأت هذه الوسائل الجديدة فى الهجوم ، بغارة جوية عارمة على كوفنترى ليلة ١٤ نوفمبر ، وقد اتضح لفورنج أن مدينة لندن شاسعة الأبعاد الى الدرجة التى لا تتيح له نتائج فاصلة ، بينما كان فى مقدوره أن يزيل من الوجود مدن الاقاليم ومراكز انتاج الذخيرة ، وقد بدأ الهجوم فى الساعات الأولى من الليل وتواصل حتى الفجر واشترك فيه حوالى خمسمائة طائرة المانية اسقطت حوالى ستمائة طن من القذائف الشديدة الانفجار عدا ألوف القنابل المحرقة وكانت تلك الغارة أقسى ما دهمنا من غارات ثقيلة مدمرة بصورة عامة ، فقد تحطم قلب كوفنترى ، وأصيبت الحياة بالشلل التام فى المدينة وقد قتل حوالى اربعمائة انسان ، كما أصيب بجراح عدد أضخم من هذا بكثير وأذاعت ألمانيا أن جميع مدننا ستلقى نفس مصير كوفنترى ، ومع هذا فلم يعطل العمل بمصانع الطائرات أو قطع الماكينات الاخرى كما لم تمت حركة أهل المدينة بالرغم من عدم مجابهتهم قبل ذلك لمثل هذه الغارات ولم يمر أسبوع حتى كانت لجنة تجديد الأبنية قد قامت بأعمال رائعة تيسر عودة الحياة الى طبيعتها فى المدينة ٠

وشن العدو ليلة ١٥ نوفمبر هجوما آخر على لندن استخدم فيه عددا ضخما من الطائرات فى ضوء القمر الساطع فأصيبت العاصمة بكثير من الخسائر وخاصة فى كنائسها ونصبها التذكارية وكانت بيرمنجهام هدف العدو الثالث فشن عليها هجومه لثلاث ليال متتابعة بين ١٩ ، ٢٢ نوفمبر فأصيبت المدينة بخسائر فادحة فى الارواح والممتلكات ، ووصل عدد القتلى الى حوالى ثمانية والجرحى الى أكثر من ألفين ولكن روح بيرمنجهام وحياتها قاومتا المحنة ، وارتفع المليون من أهلها بتنظيمهم ووعيهم وتفهمهم الى أعلى مما نزل بهم من آلام وتحولت

وجهة الغارات فى آخر أسبوع من شهر نوفمبر ومطلع ديسمبر الى الموانى، وتعرضت بريستول وسوثهامبتون وليفربول لهجمات قاسية ، ومرت بلايموث وشفيلد ومانشستر وليدز وغلاسجو بالمحنة ذاتها بشجاعة نادرة ولم يعد يعنينا أن يوجه العدو ضربته فان الشعب كله واجهها بايمان وصبر وعزيمة .

وصعدت الغارات الى ذروتها مرة ثانية حين شن العدو هجومه على مدينة لندن يوم الأحد ٢٩ ديسمبر ، وقد جمع الألمان فيها كل ما حصّلوه من خبرات فكان الهجوم مفعما بالقذائف المحرقة ، التى ركزت قسوة نيرانها على حى « السيتى » وكانت هذه الغارة مدبرة لتقع حين ينحسر الماء عن النهر بسبب الجزر ، وتهدمت سدود المياه فى بداية الأمر بسبب الغام شديدة الانفجار ، أسقطتها المظلات ، واضطرت فرق المقاومة أن تكافح أكثر من ألف وخمسمائة حريق ، وكان الضرر الذى أصيبت به محطات السكة الحديد والأرصفة فادحا ، وهدمت ثمانى كنائس وشبت الحرائق فى « غيلدهول » وفى كاتدرائية القديس بولس ؛ ولم تنج من الدمار الا بجهود خارقة تفوق حد الوصف ، وأخذنا نرى الخراب يجتاح العالم البريطانى ولكن عندما زار الملك والملكة هذه الأماكن المصابة قوبلا بحماس بالغ أشد مما كانا يقابلان به فى أية زيارات أخرى .

وظل الملك صامدا فى غضون هذه الأشهر الطويلة من التجربة القاسية والتى لم تنته بعد فى قصر بكنجهام ، وقد شيدنا خنادق ملائمة فى الطابق الأسفل من القصر ، ولكن أعمال البناء استلزمت الكثير من الوقت ، وكثيرا ما حضر الملك خلال اشتداد الغارة من قصر بكنجهام ، وقد أنقذ جلالته والملكة بأعجوبة من الموت ذات مرة ، ففى حديقة قصر بكنجهام انشىء ميدان خاص للرماية ، كان جلالته وغيره من أفراد الأسرة المالكة ، وكبار رجال الحاشية يتدربون على الرماية فيه بالمسدسات ومدافع التومى ، وقد قدّمت للملك غدّارة امريكية قصيرة المدى ، كانت واحدة من مجموعة وصلتنى ، وكان سلاحا قيّما .

وبدّل الملك فى تلك الاثناء موعد لقائى الرسمى بجلالته من الساعة الخامسة مساء كل يوم ثلاثاء ، كما جرت عادته فى خلال الشهرين الأولين منذ توليت الحكم ، الى أن أتناول الغداء معه فى نفس اليوم من كل أسبوع . وكنت فى هذه الزيارات التى قد تحضرها الملكة ، أعرض على جلالته شئون الحكم ، وكثيرا ما اضطررنا الى حمل صحاف الطعام

وأقداح الشراب الى الخندق الذى كان لا يزال فى حالة الاعداد فنستكمل طعامنا فيه ، وأصبحت هذه الزيارات الاسبوعية عادة رتيبة ، وبعد مرور الأشهر الأولى ، أمر جلالته أن يبعد الخدم جميعا من هذه الاجتماعات وأن نمارس نحن خدمة أنفسنا بأنفسنا ، وقد تكشف لى خلال السنوات الاربع والنصف التالية من الحرب أن جلالته كان يطّلع بكثير من الاهتمام على جميع البرقيات والوثائق الرسمية التى أقدمها اليه ، ويقرر العرف الدستورى البريطانى ان من حق الملك ان يطلع على كل شىء يقع ضمن اختصاصات وزرائه ، وأن يقدم المشورة لحكومته بدون قيد ولا شرط ، وكنت حريصا جدا على أن أطلعه على كل شىء وكثيرا ما بدا لى خلال اجتماعاتنا الرسمية الاسبوعية أنه قد قام بدراسة كافة الوثائق التى لم أكن قد درست بعضها بعد ، واننى لأقرر ان من يمن الطالع لبريطانيا أن كان على عرشها فى مثل هذه السنوات المصيرية ملكان خيّران كملكنا ومليكتنا ، وإنى كواحد من الذين يؤمنون بالملكية الدستورية ، نظرت ببالغ التقدير الى الشرف الذى أسبغه علىّ صاحب الجلالة بهذه الصلات التى وثّق عراها معى كوزيره الأول ، واننى لا أرى لذلك نظيرا فى تاريخنا الا فى أيام الملكة آن ورئيس حكومتها مارلبورو .

وهكذا بلغ بنا العام الى نهايته ... وان كنت قد استطردت - راغبا - بعيدا عن شئون القتال الخاصة ، وسيرى القارىء أن كل هذا الدوى وتلك الزعازع لم تكن الا رفيقا على الطريق يسير مع اجراءاتنا الهادئة التى حرصنا عليها فى ادارة جهودنا الحربية ، وتوجيه سياستنا ودبلوماسيتنا ، وعلى أن أقرر هنا أن هذه الخسائر التى منينا بها والتى لم تكن مميتة ، كانت فى اعتبارنا نحن المقيمين فى قمة الموقف دافعا فعالا للتعبير عن آرائنا ، وتوطيد زمالة بارة بيننا وتدعيم أسس أعمالنا الجوهرية الواعية ، وربما يكون من غير الحكمة على كل حال أن افترض بأن الغارات التى شنت علينا لو تزايدت الى عشرة أو عشرين ضعفا أو حتى بنسبة ضعفين أو ثلاثة فان هذه الانطباعات السلمية التى فصلتها ، كانت ستوجد بصورة مؤكدة ، وعلى النحو الذى أوضحت .

الاعارة والتأجير

أطَلَّ علينا الآن فجر جديد ، وصليل الأسلحة يملأ الجو لكن مصدره هذه المرة كان مختلفا عما سبق فقد دارت الانتخابات الأمريكية للرئاسة فى ٥ نوفمبر ، وبالرغم مما تتسم به من حيوية وصلابة تلك المصارعة الحــادة التى تحدث مرة كل أربــع سنوات ، وعلى الرغم مما يثار من اختلافات شديدة حول الشئون الداخلية بين الحزبين الرئيسيين ؟ الا أن كبار الزعماء فى كل من الحزب الديمقراطى والجمهورى كانوا يجمعون على تقدير قضيتنا العظمى ، والاهتمام بها ، فأعلن المستر روزفلت فى ٢ نوفمبر بمدينة كليفلاند ، « ان سياسته تؤمن ببذل كل مساعدة فعالة للشعوب التى ما زالت تكافح العدوان عبر المحيطين الأطلنطى والهادى »، كما صرح منافسه المستر ويندل ويلكى فى نفس اليوم فى خطاب القاه بحديقة ماديسون « بأنهم جميعا جمهوريين وديمقراطيين ومســتقلين ، مصممون على مؤازرة المقاومة البريطانية الباسلة وأنهم يتعهدون للشعب البريطانى بأن يستخدم متى شاء ثمار صناعتهم » • ولا شك فى أن هذا الشعور الوطنى النبيل كان الحامى المخلص لحياة الولايات المتحدة وحياتنا نحن أيضا •

ومع ذلك فقد كنت أحس بالقلق العظيم ، وأنا أترقب النتيجة ، فليس فى مقدور كل من يتولى منصب الرئاسة ، أن يكون مسلحا بالخبرة والمعرفة كما يتمتع بهما فرانكلين روزفلت ، وليس فى مقدور أى شخص سواه ، أن يحوز نفس المواهب والـكفايات ، وكنت قد وثّقت علاقتى الشخصية به ، وحافظت على تنميتها ورأيت أنها قد بلغت أسمى مراتب الثقة والصداقة ، الى الدرجة التى أصبحت بها ذات أهمية فى تفكيرى ، وكنت لهذا أحس بالقلق ازاء كل ما يهدد هذه الزمالة ، وقد تم توطيدها بعناية وعلى مهل ، وانفر من فكرة قطع هذا الاتصــــال فى أحاديثنــــا ومبــاحثاتنا لأبدأ من جديد مع شـــخص آخر صــاحب عقلية وشخصية مختلفين ، ولم أحس منذ أيام بمثل ما أحس به الآن من قلق ، ولذلك

لقد كانت غبطتي عظيمة عندما علمت أن الرئيس روزفلت قد أعيد إنتخابه .

* * *

وكنا حتى تلك الساعة نلجأ فيما نحتاجه من الذخيرة للمصانع الأمريكية بَحَرِيّة وَجَوِّية ، وان كان ذلك يتم بعد التفاوض معها .

وأدت زيادة رغباتنا وتعدد مطالبنا الى التناقض أحيانا مزاحمة الرغبات الامريكية ذاتها مما كان ينذر بحدوث اصطدام على المستويات الخفيضة بالرغم من توافر حسن النية لدى الطرفين وكتب المستر ستيتينيوس يقول :

[« ان فى امكان سياسة موحدة من أجل تحقيق غايات المقاومة أن تؤدى أغراض هذه المهمة التى تواجهنا الآن » . ومعنى هذا أن لحكومة أمريكا أن توصى وحدها بصنع الاسلحة التى نحتاجها من امريكا وخرج الرئيس روزفلت بعد توليه الرئاسة بثلاثة أيام بنظرية جديدة تقرر الافضلية فى توزيع انتاج الاسلحة الامريكية ، على أن يكون خمسون فى المائة من انتاج أمريكا للأسلحة مخصصا لاحتياجات أمريكا الدفاعية ، وخمسون فى المائة للقوات ــ البريطانية والكندية . وأصدر مجلس الأفضلية الامريكى فى نفس اليوم موافقته على رغبة بريطانيا فى اعداد اثنى عشر ألف طائرة فى الولايات المتحدة فضلا عن رغبتنا السابقة فى احد عشر ألف طائرة أخرى ، ولكن من أين نأتى بالأموال الضرورية لنغطى ثمن الاسلحة التى نحتاجها من المصانع الأمريكية ؟]

وأمضى اللورد لوثيان فى أواسط نوفمبر يومين فى ديتشلى معى، وكان قد ركب الطائرة من مقر عمله فى واشنطن الى الوطن ، وكنت قد استمعت الى نصيحة بأن لا أمضى فى تشيكرز جميع نهايات الاسابيع ، خصوصا عندما يكون القمر بدرا ، خشية أن يعطف على العدو بلطفه الخاص ، وكان السيد رونالد ترى وزوجته قد استقبلانى احسن استقبال، أنا وموظفيّ ، فى بيتهما الكبير الجميل الذى يقع على مقربة من أوكسفورد ولا تزيد المسافة على أربعة أو خمسة أميال بين ديتشلى وبلنهايم ، وهكذا التقيت بسفيرنا فى واشنطن فى هذا الجو الآمن، وكان يعرف شتى جوانب الموقف الامريكى ولم يكن قد حصل على شىء سوى النية والثقة من واشنطن ، وكان قد اتصل منذ قليل بالرئيس الذى توثقت بينهما أطيب

العلاقات ، وكان فكره مشغولا بمسألة الدولار ، وهي مسـألة كئيبة بلا شك .

فعندما خاضت بريطانيا غمار الحرب ، كان فى حوزتهمـا حوالى ٤٥٠٠ مليون دولار اما على صورة دولار بالفعل ، أو ذهب أو استثمارات أمريكية من المستطاع أن تتحول الى دولارات ، وكانت الوسيلة الوحيدة المستطاعة لتزيد هذه الموجودات ، هي التوسع فى إستخراج الذهب فى الامبراطورية البريطانية وخاصة فى جنوب أفريقيا . وبذل كافة السبل لزيادة الصادرات الى أمريكا وخاصة الكماليات كالويسكى والمنسوجات الصوفية الرائعة ، والخزف وقد استطعنا بهذه الوسيلة زيادة حصيلتنا بحوالى ألفى مليون دولار فى خلال ستة عشر شهرا منذ بداية الحرب . وكنا فى فترة « شفق الحرب » تتجاذبنا الحيرة بين حاجة ملحة الى العتاد من أمريكا ، وبين فزعنا من نقصـان دولاراتنا الموجودة لدى أمريكا . وكان السير جون سيمون وزير المالية فى حكومة المستر تشمبرلين يتحدث كثيرا عن المصير المؤسف لأرصدتنا الدولارية ، ويوجه أنظارنا الى ضرورة الحرص عليها ، وكنا على أية حال متفقين على ضرورة الحد من مشترياتنا الامريكية بقدر المستطاع ، وكنا نبدو كما قال مرة المستر بوفيز ، رئيس لجنـة المشتريات للمستر ستيتينوس « وكأننـا نحيـا فى جزيرة منقطعة بكمية محدودة من الطعام الذى تحـاول الابقاء عليه أطول مدة ممكنة » .

وكان يقصد بهذا إعداد ترتيبات واسعة المدى لزيادة أموالنا ، وكنا قبل الحرب نمـارس حريتنا فى الاسـتيراد ، وندفع بالعملة التى نريد ، وعندما قامت الحرب اضطررنا أن نوجد هيئة لتعبئة الرصيد الخاص من الذهب والدولار والنقد الاجنبى ، وأن نقف دون تحقيق رغبـات ذوى النوايا المنحرفة فى تحويل رأسمالهم الى البلاد التى يحسون أنها أكثر أمنا من بلادهم ، وأن نقلل من قيمة الواردات غير الضرورية وغير ذلك من وسائل الانفاق الأخرى ، وفضلا عن عزمنا على الأبقاء على أموالنـا ، كان علينا أن نضمن استمرار الآخرين فى قبول عملتنـا ، وكانت بلاد الـكتلة الاسترلينية معنا فهى تحتم سياسة الاشراف ذاتها على النقد التى تحتمها ، وهى تريد التعامل الدائم بالاسترلينى ، وقمنـا بابرام عقود خاصة مع الآخرين تلزم بأن ندفع لهم بالاسترلينى الذى يقـدرون على التعامل به فى أى مكان داخل حدود الكتلة الاسترلينية ، كمـا ضمنوا الابقاء على فائض الاسترلينى لديهم ، وأن يحرصوا فى مبادلاتهم على السعر

الرسمي للنقد ، وكانت أولى العقود التى أبرمت على هـذه الشروط مـع السويد والأرجنتين ، ثم ما لبثت أن اتسع نطاقها فشملت بلادا أخرى فى القارة وفى جنوب أمريكا ، وقد تم تنسيق هذه الخطة بعد ربيع عام ١٩٤٠ ولا شك في أن مما هو جدير بالثناء وباطراء الاسترليني نفسه أننا استطعنا الابقاء عليه فى مثل هذه الظروف القاسية ، وقـد قدرنا بهذه الوسيلة على الاستمرار فى معاملاتنا التجارية مع غالبية البلاد فى العالم بالاسترليني وأن نبقى على ما لدينا من دولار وذهب ثمين لمعاملاتنا الحيوية مع أمريكا .

وعندما أصبحت الحرب واقعاً مرعبا فى مايو ١٩٤٠ ، أدركنا على الفور أننا نشهد ميلاد حياة جديدة للعلاقات الانجليزية الامريكية ، فمنذ أن توليتُ تأليف الوزارة ، وعاد الى السير كنغزلى بوزارة الماليـة ، بدأنا نسير فى طرق أكثر يسراً ، وهى أن توصى باحتياجاتنا ورغباتنـا بغض النظر عن المصاعب المالية المقبلة ، تاركين للآلهـة الخالدة أن تتولاهـا بعنايتها ، ولقد كان من الزيف فى شئون الاقتصـاد ومن الخداع بالنظر للروية والعقل أن نترك الفرصة للقلق ونحن نواجه معركة حياة أو موت ، منفردين ، لا نصير لنا ولا معين ونقع تحت وطأة هجوم جـوى مسـتمر ، ونتعرض لأهوال غزو يذيقنا من ويلاته ، أن نترك الفرصة للقلق يستولى علينا من جراء نفاد أرصدتنا الدولارية لدى أمريكا ، وكنا قد شـعرنا بالتحول الكبير فى الرأى العام الأمريكي وشعرنا بالادراك الجديد الذى سَرَى لا فى واشنطن وحدها بل فى جميع أرجاء الولايات المتحدة ، بأن مصير أمريكا وثيق الصلة بمصيرنا نحن ، وفضلا عن هذا فقد سَرَى تيار من العطف والاعجاب ببريطانيا بين صفوف الشعب الامريكي ووصلتنـا برقيات مودة من واشنطن مباشرة ، وعن طريق كندا ، لمسنا فى غضونها التشجيع والمؤازرة ، والأحساس بأن شيـئا ما فى الأفق ، سيتحقق عن قريب ولقيتْ قضية الحلفـاء فى المستر مورغنتا ووزير الخزانة الامريكية نصيرها وحاميها الذى لا يكل من الـذود عنها ، وبسبب ورود الطلبـات الفرنسية الينا فى شهر يونيو تضاعف معدل اتفاقنا فى النقد الأجنبى ، زيادة على ذلك أننا رغبنا من جديد فى صنع طائرات ودبابات وسفن تجارية من مختلف الأنواع ، وحثثنا على انشاء مصانع ضخمة جديدة فى أمريكا وكنـدا .

والى شهر نوفمبر قد قمنا بدفع الثمن لـكل ما وصلنا من أمريكا ، وكنا قد بعنا ما قيمته (٢٣٥) مليون دولار من السندات والأسهم الامريكية التى قمنا بمصادرتها من ذويها فى لندن مقابل الدفع بالاسترليني ، وكنا

قد قمنا أيضا بدفع ما يزيد على (٤٥٠٠) مليون دولار نقدا ، وأصبح كل ما لدينا ألفى مليون معظمها فى صورة استثمارات غير قابلة للبيع الفورى في الأسواق ، وظهر أن ليس فى وسعنا أن نسير على هذا المنوال ، لأننا أنفقنا كل ما فى حوزتنا من الذهب والنقد الأجنبى فلن نستطيع أن ندفع الثمن لنصف احتياجاتنا من المصانع الامريكية ، فكيف يكون الأمر والحقيقة أن امتداد زمن الحرب وشمولها يضطرنا الى أن نحتاج من المصانع الأمريكية عشرة أضعاف ما احتجنا اليه الآن ، وعلينا فضلا عن كل هذا أن نبقى على شيء فى أيدينا لنواجه به مطالبنا اليومية المتجددة .

وكان لوثيان واثقا من أن الرئيس ومستشاريه يفكرون جديا فى خير الوسائل لمعاونتنا ، أما وقد انتهت المعركة الانتخابية ، فقد دقت ساعة العمل ، وكانت المباحثات دائمة في واشنطن بين ممثل لوزارة حربيتنا هناك ـ السير فريدريك فيلبس ـ وبين المستر مورغنتاو ؛ ورغب الى سفيرنا فى أن أحرر رسالة مفصلة للرئيس توضح كل أوضاعنا ، وهكذا كتبت بالمشاورة معه فى ذلك اليوم ، الأحد فى ديتشلى ، رسالة خاصة الى الرئيس روزفلت ، ولما كان ينبغى عرض هذه الرسالة على رؤساء أركان الحرب ، ووزارة الخزانة لدراستها ، ثم توافق عليها وزارة الحرب فانها لم تكن معدة للارسال قبل رجوع لوثيان الى واشنطن ، وتمت الرسالة في صورتها الأخيرة ، ثم أرسلت بتاريخ ٨ ديسمبر الى المستر روزفلت فوراً ، فانتهت ـ وهى من أهم ما أحرزته فى حياتى ـ الى صديقنا العظيم وهو يمخر عباب البحر الكاريبى على ظهر البارجة الامريكية « توسكالوزا » مع أصدقائه وخاصته ، وأبلغنى هارى هوبكنز ، بعد ذلك وكنت لم أتعرف به بعد أن الرئيس قرأ الرسالة مرارا على ظهر البارجة وهو جالس على مقعده ، وأنه أمضى يومين فى دراستها ، الى أن وضحت أمامه مراميها ، لقد ظل فى أحضان تفكير عميق ، يتمتم لنفسه فى صمت.

ونتج عن كل هذا قرار عظيم ، فالقضية لم تكن عدم معرفة من الرئيس لحقيقة ما نريد ، وانما كانت فى أى الوسائل يجب أن يسلكها لتؤمن بلاده بالمسير معنا ، وليقتنع الكونجرس بضرورة ما يرى ، ويقول ستيتينيوس أن الرئيس كان فى أخريات الصيف الماضى قد رأى فى احدى جلسات لجنة الدفاع الاستشارية فى موضوع الموارد الملاحية أن ليس من المحتم أن يبذل البريطانيون أموالهم ، وليس من المحتم أيضا أن يستدينوا منا لهذا الغرض ، ولكن ـ مع أنه لا يوجد ما يحول دون تنفيذ كل ذلك ـ فى مقدورنا أن نأخذ الباخرة التى تم صنعها ، وأن نؤجرها لهم أثناء استخدامهم لها » .

ويظهر أنه كان هناك قانون صدر فى عام ١٨٩٢ ، يدع لوزير الحربية حرية تأجير ممتلكات الجيش ما دام يرى ، ذلك مصلحة عامة بشرط ألا يكون الجيش فى احتياج اليها مدة خمس سنوات وكانت هناك حالات طبق الجيش فيها هذا القانون ، وأجر بعض ممتلكاته من حين لآخر .

وهكذا انبثقت فكرة « التأجير » فى ذهن الرئيس روزفلت لتأمين احتياجات بريطانيا ، بدلا من تقديم قروض غير محدودة ، ربما تتضاعف الى درجة يصعب معها الدفع والتسديد ، وسرعان ما انتقلت الفكرة من المجال النظرى الى المجال العملى ، وظهرت فى هذا الزى الخلاب الذى أعلن فوراً وهو الاعارة والتأجير .

وعاد الرئيس من رحلته فى البحر الكاريبى فى ١٦ ديسمبر ، وأدلى بمشروعه العميق فى مؤتمر صحفى عقد فى اليوم التالى ، وقد أوضحه فى بساطة عندما قال : « لنفرض أن منزل جارى قد شب فيه حريق ، وكنت أملك فى حديقتى خرطوما طويلا يبلغ أربعمائة قدم أو خمسمائة ، وكان فى استطاعة جارى اذا منحته خرطومى أن يوصله بصنبور مياهه ويتغلب على النار المشبوبة ، فماذا ترون واجبى فى ذلك الحين ؟ اننى لا أخاطبه قائلا فى مثل هذه الظروف : اسمع يا جارى ، لقد كلفنى هذا الخرطوم خمسة عشر دولارا وعليك أن تدفع ثمنه أولا .. كلا ـ اننى لن أفعل ذلك ، وانما سأقول له .. أنا لا أريد الخمسة عشر دولاراً ولكننى أريد خرطومى بعد أن تخمد الحريق « ... واستطرد قائلا : لا ريب عند أى أمريكى فى أن أفضل سبل الدفاع العاجل عن أمريكا ، هى أن تنتصر بريطانيا فى الدفاع عن نفسها ، ولذلك ـ فضلا عن مصلحتنا التاريخية والحاضرة فى المحافظة على الديمقراطية كشىء جوهرى ـ فان فى غاية الأهمية ـ من الناحية الذاتية أيضا ـ وبالنسبة للدفاع الأمريكى أن نبذل كل ما نستطيع لمعاونة بريطانيا فى الدفاع عن نفسها .. « ثم ختم كلامه قائلا : اننى أحاول أن أمحو حاجز الدولار » .

وعلى هذه الأضواء ، تم اعداد مشروع الاعارة والتأجير عاجلا ليعرض على الكونجرس ، وقد وصفت هذا الجهد فيما بعد أمام البرلمان فى أحد البيانات قائلا : « أكرم عمل قام به أى شعب فى التاريخ » وفى الوقت الذى تمت فيه موافقة الكونجرس على هذا القانون ، تغير الوضع كاملا بصورة عاجلة ، فقد أعطانا القانون الحرية فى أن نبرم الصفقات الضخمة بكافة احتياجاتنا تحت رعاية اتفاق الاعارة والتأجير .

ولم ينص على اعادة الدفع ، كما لم يكن ثمة حساب رسمي يسجل بالدولار أو الاسترليني ، فكل ما نحتاج اليه يأتينا بالأجارة أو الاعارة ، لأن مقاومتنا المتصلة لجبروت هتلر ، أعتبرت أعمالا دفاعية عن مصالح الولايات المتحدة ، فقد قال الرئيس روزفلت ان الدفاع عن أمريكا لا الدولار هو الذى سيعين منذ الآن المكان الذى ستتوجه اليه الأسلحة الامريكية .

* * *

وامتدت يد الموت فى تلك الساعة الحاسمة الى اللورد فيليب لوتيان ، فانتزعته من بين جماعتنا ، بعد رجوعه الى واشنطن حيث تسلط عليه المرض بصورة غير متوقعة ، ولكنه أدى واجبه حتى النهاية وبدون أدنى توقف وتوفى فى ١٢ ديسمبر وهو كدبلوماسى مرموق فى قمة نجاحه ، فكان موته خسارة لوطنه وللقضية كلها ، ودمعت عليه عيون الأصدقاء فى جانبى المحيط ، أما أنا وكنت قبل أسبوعين وثيق الصلة به ، كما ذكرت قبل ذلك بقليل ، فقد كانت وفاته صدمة شخصية لى ، وقد أبّنته بخطاب فى مجلس العموم أعظم تأبين ذاكرا له بثناء جم جهوده ومسيرته .

وكان علىّ أن أوجه اهتمامى فورا لمن يخلفه ، وأدركت أن علاقاتنا بأمريكا فى تلك الفترة فى حاجة الى أن يكون سفيرنا اليها شخصية بارزة متمتعة بسمعة قوية خاصة ، فضلا عن الكفاءات التى ينبغى أن يكون حائزا لها سياسى مطلع على كافة شئون العالم ، وبعد أن ضمنت موافقة الرئيس روزفلت على وجهة نظرى رغبت الى المستر لويد جورج فى أن يقوم بمهام هذا المنصب ، وكان المستر لويد جورج قد اعتذر عن تولى منصب فى وزارة الحرب فى يوليو الماضى كما كانت ظروف سيئة فى السياسة البريطانية الداخلية ، وكانت آراؤه فى الحرب والاحداث التى أدت اليها تخالف ما أراه ، وبالرغم من ذلك لم يكن هناك شك فى انه ألمع رجل فى وطننا ، وفى أن كفاياته وخبراته التى لا نظير لها ستساعده كلها على حمل أعبائه ، وقد تحدثت اليه طويلا فى غرفة الحرب فى اليوم التالى حول مائدة الغذاء ، واستخفه السرور بهذا التكليف فقال :

« اننى سأخبر أصدقائى بأن رئيس الوزراء عرض على عروضا مشرّفة ، ولكنه كان على ثقة من أن رجلا فى السابعة والسبعين مثله ، ليس فى وسعه القيام بالتبعات الجسام التى

يعنيها هذا المنصب ، وبعد محادثات متواصلة معه اتضح لى أن الرجل قد أوهنته الشيخوخة لاسيما فى الاشهر الاخيرة منـــذ دعوته للاشتراك فى وزارة الحرب ، لذلك تنحيت عن اختيارى الأول ــ عن يقين يشوبه كثير من الأسف » .

وتنبهت الى اللورد هاليفاكس ، صــاحب المقام الرفيع فى حزب المحافظين والمكانة التى دعمتها أعمــاله فى وزارة الخارجية . ولا شك فى أن توجه وزير الخـــارجية الى منصب ســفارى يعنى أهمية خاصة لهذه البعثة الدبلوماسية التى تحظى برئاسته ، وبالاضــافة الى هذا المغزى فان أعماله فى سنوات ما قبل الحرب ، والأسلوب الذى سارت به الأحداث فى تلك الفترة قد وضعاه موضع عدم الاستلطاف بل العــداء أحيانا من جانب العمل فى حكومتنا القومية ، وكنت أعرف ان اللورد يدرك هذا جيدا .

وعندما عرضت الأمر عليه ، الذى لم يكن بالطبع يعنى أى ترقية ذاتية اكتفى بكلمة بسيطة متعالية تعبر عن اســـتعداده للخدمة حيث تكون خدماته نافعة ومحتمة ، وتأكيدا منى لأهمية بعثته وواجبـــاته ، رتبت الأمور على أن يباشر كعضو فى وزارة الحرب عندما يعود فى أى أجازة الى الوطن وقد نجحت فى هذا دون صعوبات بفضل ما تنطوى عليه نفوس الشخصيات التى تناولها هذا الترتيب من ذكاء وخبرة وكفاية .

ومكث اللورد هاليفاكس يعمل فى ظل الحكومة القومية الائتلافية وخليفتها الحكومة العمالية الاشتراكية كسفير فى واشـــنطن مدى ست سنوات ، فى نجاح مستمر لما يقوم به من أعمال ، ونفوذ تتضاعف يوما بعد يوم .

وقد اغتبط الرئيس روزفلت والمستر هل ، وغيرهما من شخصيات واشنطن البارزة ، بتعيين اللورد هاليفـــاكس ، وسرعان ما عرفت أن الرئيس قد استحسنه عن اختيارى الاول ، وبذلك صـــادف التعيين الجديد رضى وترحيبا فى كل من أمريكا وبريطانيا ، واعتبر منسجما مع روح الاحداث الجارية .

ولم أكن على حيرة من أمرى فى الشخص الذى ســـيخلف اللورد هاليفاكس فى وزارة الخارجية فقد ظللت طيلة السنوات الاربع الماضـــية كما أوضحت ذلك فى الصفحات السابقة متفقا اتفاقا تاما بالنسبة للقضايا الرئيسية مع انتونى ايدن .

وقد بينت مشاعر الفلق فى نفسى عندما تنحّى عن صحبة المستر تشمبرلين بعد فى ربيع عام ١٩٣٨ وكنا قد امتنعنا معا عن التصويت على اتفاق ميونيخ ، ووقفنا معا نقاوم الضغط الحزبى الذى تعرّض له كل منا فى دائرته الانتخابية فى شتاء تلك السنة المؤسفة ، وقد التقينا معا عقلا ووجدانا عند إعلان الحرب وفى خلال مسيرها ، كزميلين ، وكان ايدن قد خصص الجزء الاكبر من حياته العامة لدراسة الشئون العالمية ، وتولى منصب وزير الخارجية المرموق فملأه عن كفاية ومقدرة ، واستقال منه وهو فى الثانية والاربعين من عمره لأسباب اذا نظرنا اليها الآن بمنظار الحقيقة فسوف تنال تأييد جميع الأحزاب ، وقد قام بدور فعال كوزير للحربية فى تلك السنة الرهيبة ، وكان تصريفه لشئون الجيش ، قد قرّب كلامنا للآخر ، فكنا نتشابه فى التفكير ، حتى بدون استشارة أو عرض لوجهات النظر ، فى كثير من المسائل العملية ، التى نقابلها يوميا ، وكنت بدورى أطمح فى زمالة فياضة بالانسجام والتوافق بين رئيس الوزراء ووزير الخارجية ، وقد جنيت ثمار هذه الرغبة ، فى خلال السنوات الاربع والنصف التالية ، المليئة بأعمال الحرب والسياسة ، وقد أسف ايدن حينما ترك وزارة الحربية التى كان قد دار فى دوامة متاعبها واستشاراتها ، ولكنه عاد الى وزارة الخارجية ، وكأنه رجل يعود الى بيته •

انتصار الصحراء

عقدت الهدنة مع فرنسا ، وحدث ما حدث فى وهـــران ، وانتهت صلتنا الدبلوماسية بفيشى التى انتقلت اليها حكومة المـاريشال بيتان ، ولكن على الرغم من كل ذلك بقى لى الإيمان بوحدتنا مع فرنســا ، وإنى لأهيب بالرجال الذين لم يواجهوا المحن الشــخصية التى دهمت رجال فرنسا البارزين بالنظر الى الدمار المخيف الذى حل ببلادهم ، أن يترفقوا فى إصدار حكمهم على هؤلاء الرجال .

وليس من خطة هذا الـكتاب أن يخوض السياســة الفرنسية ، ولـكننى أقرر أننى كنت مليئاً بالثقة من أن الشعب الفرنسى لن يتوانى عن التضحية بكل ما يستطيع فى سبيل هدفنا المشترك على ضوء الحقيقة التى تبين له ، فعندما سمع هذا الشعب أن سبيل خلاصه الوحيد ينحصر فى الانقياد لمشورة المـاريشال المشهور ، وأن انجلترا لم تبذل فى سبيله الـكثير ، ستحتل عاجلا أو تستسلم لم ير أمامه مجالا للاختيار ، ومع ذلك فقد كنت على يقين من أن جموع الشعب الفرنسى ترجو لنا النصر ، وأن أكثر سرورها أن ترى بريطانيا ماضية فى القتال دون هـوادة وكان أول واجب علينا أن نؤازر بما استطعنا كفــاح الجنرال ديجول ، ودفاعه الباسل وأبرمت معه فى ٧ أغسطس اتفاقيـــة عسكرية ، تضمنت شتى الاحتياجات العاجلة ، وتوجهت الاذاعة البريطانية بنداءاته الثـائرة الى فرنسا والى العـالم كله وكان اصدار حكومة بيتان حكم الاعدام عليه ، بمثابة تمجيد لاسمه ، ورفع لشأنه وقد قمنا بكل ما نملك لمساندته ، وتوفير الأموال لحركته .

وكان الابقاء على اتصالنا بفرنسا ، بل بفيشى أيضـا ، ذا أهميـــة خاصة فى تلك الظروف ، لذلك بذلت محاولات متكررة للحصول من رجال فيشى على أكثر ما يمكن ، وقد سرنى كثيرا ارسال أمريكا فى نهاية ١٩٤٠ بسفير منها الى فيشى من طراز الاميرال ليهى وطبقتـــه ، لصلته المعروفـة

بالرئيس روزفلت وقد أبديت تشجيعا لرئيس وزارة كندا المستر مكنزى كينج لكى يحرص على بقاء ممثله المسيو دى بوى المشهور بتفوقه الديبلوماسى فى فيشى ، فبذلك توجد على الأقل نافذة لنا ، نطل منها على عالم لا سبيل الى رؤية ما فيه دون هذه النافذة ، وأرسلت فى ١٥ يوليو مذكرة لوزير الخارجية أخبرته فيها عن رغبتى فى تشجيع نوع من التآمر الخفى فى حكومة فيشى ، بحيث يذهب بعض أعضائها الى الشمال الافريقى باتفاق مع الأعضاء الآخرين ، للحصول على مساومة أفضل لفرنسا من الشاطىء الافريقى ، ومن وضع استقلالى أحسن وأفضل ، وسأستخدم لهذا الهدف سلاح الغذاء وغيره من الأمور الحافزة بالاضافة الى المبررات المعتادة ، واعتمدت سياستنا دائما على بث الشعور فى حكومة فيشى وأعضائها بأن أملنا كبير فى احساسهم بالخطأ ومحاولة اصلاح أوضاعهم ومهما يكن فى الماضى فستبقى فرنسا بالنسبة لنا زميلة السلاح وصديقة الأزمات ، ولن يقف شىء — غير انحيازها فعليا فى الحرب ضدنا دونها ودون الاسهام معنا فى ثمرات النصر .

وكان عملنا هذا شاقا على نفس ديجول ، الذى جازف بكل شىء ، لتبقى راية الكفاح خفاقة ولكن لم يكن فى وسع القلة القليلة من أتباعه خارج فرنسا أن يزعموا بأنهم يمثلون حكومة فرنسية كافية وقوية ، ومع ذلك فقد قمنا بكل ما فى وسعنا لتدعيم نفوذه ، وتوطيد سلطانه .

وكان طبيعيا أن يعارض فى أية مداعبة منا لحكومة فيشى ، ويرى بأن الواجب يلزمنا بالوفاء له وحده ، وأدرك بأن وضعه تجاه الشعب الفرنسى يحتم عليه أن يتسم بالصرامة والكبرياء فى تصرفاته مع بريطانيا الغادرة بغض النظر عن لجوئه اليها كمنفى ، واستناده الى حمايتها واقامته فى أرضها .

وكان من الضرورى أن يتظاهر بخشونة التصرف مع البريطانيين ، ليؤكد للفرنسيين انه ليس لعبة فى يد بريطانيا ولا شك فى أنه مثل خطته هذه بكل عناء وإصرار ، وقد برر لى ذات يوم هذا النهج فتفهمت تمام التفهم صعوبة موقفه ، وكنت دائم الأعجاب بقوته الخارقة ، ومهما قامت به فيشى من خير أو شر ، فمن المحال أن نتنحى عنه أو نثبط همته فى إستعادة مستعمرات بلاده ، وفضلا عن هذا كله ، صممنا على أن نحول بين أى جزء من أجزاء الأسطول الفرنسى المجرد من سلاحه ، والموجودة حاليا فى موانىء المستعمرات الفرنسية ، وبين العودة الى فرنسا ، ومضت لحظات كانت الخشية تستبد فيها بالامبرالية من أن تعلن فرنسا الحرب

علينا ، فتضاعف المصاعب التى تواجهها ولكننى كنت دائم الثقة بأن اصرارنا على النضال وقدرتنا الكافية على الصمود الى آخر الشوط ستوقظ معنويات الشعب الفرنسى الى الدرجة التى يحول فيها بين حكومة فيشى وبين القيام بمثل هذا العمل الشاق ، وفعلا سيطر على الشعب الفرنسى فى هذه الآونة ، إعجاب ببريطانيا وشعور قوى بزمالتها وظلت آمال الفرنسيين تنمو وتزداد على مر الأيام ، وقد إعترف المسيو لافال نفسه عندما أصبح وزيراً لخارجية بيتان بهذه الحقيقة .

وكان الوضع بالنسبة لأيطاليا مختلفا عن ذلك ، فبعد إختفاء فرنسا من ميدان المعركة ، وبعد إلتحام بريطانيا فى هذه المعركة المصيرية زيادا عن كيانها ، كان من المحتمل أن يرى موسولينى أن حلم سيطرته على البحر الأبيض المتوسط ، وإعادة تشييد الامبراطورية الرومانية السابقة ، قد إقترب من التحقق الفعلى ، وصار فى مقدوره ــ بعد أن أمّنَ ظهره من الفرنسيين فى تونس أن يعزز قواته المحتشدة فى ليبيا لغزو مصر ، لكن وزارة الحرب عقدت عزمها على الدفاع عن مصر ضد كل القوى المعادية ، وبشتى الموارد التى تبقى لديها بعد مستلزمات القتال العنيف الذى يدور فى أرض الوطن .

وقد غدت هذه المهمة فى غاية الصعوبة عندما أكدت الأميرالية إستحالة مرور القوافل العسكرية عبر البحر المتوسط بالنظر الى الأخطار الجوية ، ومعنى ذلك أن تدور وسائل النقل حول رأس الرجاء الصالح ، وهكذا ستنتزع من معركة بريطانيا وسائل هى فى أمس الحاجة اليها .

ومن الغريب أننا كنا فى تلك الأيام وجميع القائمين بالأمر ، نبدو مرحين هادئين ، مع أن مجرد استعادة هذه الذكريات والكتابة عنها يصيب الانسان بالرعدة .

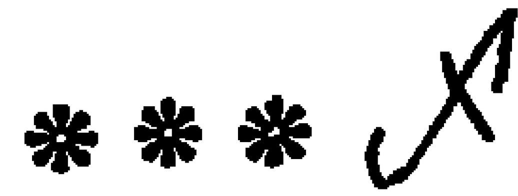
وعندما أعلنت ايطاليا دخولها الحرب فى ١٠ يونيو ١٩٤٠ ، رأت أجهزتنا الاستخبارية ــ وقد أيدت الحقائق بعد الحرب صحة ما رأت ــ أنه ــ فضلا عن القوات الأيطالية المقيمة بالحبشة وأريتريا والصومال ــ يوجد فى المناطق الساحلية من شمال أفريقيا حوالى ٢١٥١ الف جندى إيطالى بينما وحداتنا فى مصر ، لا تزيد عن خمسين الف جندى ، قد فرض عليها أن تقوم بالدفاع عن الحدود الغربية لمصر ، وأن تحافظ على الأمن فى داخل البلاد ، ومن هذا يتضح أن ميزان القوى كان فى صالح الايطاليين بالاضافة الى أن عدد طائراتهم يزيد كثيرا عن كل ما لدينا .

ونشط الايطاليون فى غضون شـــهرى يوليو وأغسطس فى أماكن عدة ، وتوقعنا خطرا من ناحية كسلا غربا فى اتجاه الخرطوم ، وساد الرعب فى كينيا بسبب حملة ايطالية تزحف من الحبشة ، وقـــد قطعت حـــوالى أربعمائة ميل نحو تانا ومدينة نيروبى • واخترقت قوات ايطالية ضخمـــة الصومال البريطانى ؛ ولـكن هذا الرعب لم يكن شيئا بجانب ما يترتب من أخطار على غزو الايطاليين لمصر ، وهو ما عرفنا انه كان فى ســـبيل الاعداد على صورة شاملة • فقبل قيام الحرب تم تعبيد طريق رائع على طول الساحل من القاعدة الرئيسية فى طرابلس بين مقاطعتى طرابلس وبرقة حتى الحدود المصرية ، وكنا نرقب على هذا الطريق خلال ما مضى من الأشهر تحركات عسكرية على مدى واسع وأنشئت فى هدوء مخازن ضخمة امتلأت بالمعدات والمؤن فى كل من بنغازى ودرنة وطبرق والبرديسة والسلوم •• ويزيد طول هذا الطريق عن ألف ميل ، انتشرت على طـوله الوحـــدات الايطالية مع معداتها وكأنها حبات مسبحة فى خيط طويل • وعلى مقربة من حدود مصر ، احتشد جيش ايطالى منظم ، يبلغ تعداده من سبعين ألف جندى الى ثمانين ألفا ، وقد زودوا بالمعدات الحربية ؛ وتجاه هذا الجيش تألقت جوهرة مصر ، ووراءه امتد الطريق الطويل الى طرابلس ومنها طريق البحر الى ايطاليا ، فاذا استطاعت هذه القوة ـ التى تم بناؤها شيئا فشيئا ودعمت أسبوعا اثر أسبوع ـ التقدم شرقا بصفة مستمرة ، مستولية على كل ما يعترض طريقها ، فانها ستكون ميمونة الطالع ، واذا ما وسعها أن تحتل مناطق الدلتا الخصيبة فى مصر ، فان شتى متاعبها بالنظر الى الطريق الطويل الممتد خلفها ستكون قد انتهت ، أما وهذا هو التقدير الثانى اذا لحقها سوء الحظ ، فلن يجد أحد من جنودها الا القليلين طريق العودة الى بلادهم ، فثمة فى جيش الميدان ، وفى حلقات مراكز التموين الضخمة بطول الساحل كان يقف فى خريف ذلك العام حوالى ثلاثمائة ألف جندى ايطالى لن يستطيعوا التراجع غربا حتى ولو هربا من مضايقات جنودنا الا على مراحل وبصورة تدريجية ، وهذا يستغرق عدة أشهر ، واذا ما فشلت معركتهم على الحدود المصرية ، واذا ما تصدعت وحدة القوات الايطالية ، ولم يجدوا فرصة كافية للتراجع ، فان مصيرها لن يكون سوى الموت أو الوقوع فى الأسر • ولـكن حتى يوليو سنة ١٩٤٠ ، لم يكن أحد يعرف من الذى سيخرج منتصرا •

وكان مركزنا الأمامى الحصين فى تلك الأثنـــاء فى آخر الخط الحديدى بمرسى مطروح ، وكانت ثمة طريق ممهدة تمتد غربا الى سيدى برانى ، ولـكن بينها وبين السلوم الواقعة على الحدود لا توجد طريق نستطيع أن

نحشد فيها قرب الحدود جيشا كبيراً لفترة طويلة ، وكنا قد أعددنا وحدة آلية صغيرة للتغطية تتألف من أمهر الجنود ، وقـــد صدرت الأوامر لهذه الوحدة بالهجوم على المراكز الايطالية القريبة من الحدود بعد اعلان الحرب مباشرة وبمقتضى هذه الأوامر عبرت قواتنا الحدود فى خلال أربع وعشرين ساعة ، وفاجأت الايطاليين بهجومها عليهم بينما هم لم يسمعوا بعد بنبأ اعلان الحرب ، ومن ثم استولت على بعض الأسرى ، وفى الليلة التـــالية أحرزت نفس النجاح ، ووضعت يدها فى ١٤ يوليو على نقطتى الحدود فى كابوتزو ومادالينا ، وأخذت حوالى ٢٢٠ جنديا أسيرا ، وتوغلت فى يوم ١٦ الى مسـافة أبعد ، فحطمت اثنتى عشرة دبابة ايطالية وقطعت الطريق على قافلة فى طريق طبرق ، البردية وأوقعت جنرالا إيطاليا فى الأسر .

ومن هذه العمليات الصغـــيرة المعبرة عن القوة والانتصار ، أحس جنودنا بمدى تفوقهم على العـــدو وأدركوا على الفور أنهم بحق ســـادة الصـــحراء ، وكان فى مقدورهم ــ ما لم تعترض طريقهم جيوش هائلة أو حصون منيعة ــ أن يصولوا ويجولوا حيثما أرادوا ، محررين الغنائم وأكاليل الغار من المعارك الصغيرة التى يشتبكون فيهـــا . وعندما يقترب جيشان كل من الآخر ، يصبح ذا أهمية بالغة ادراك أيهما يسيطر على الأرض التى يقف عليها الجيش أو ينام ، ومن يسيطر على كل شىء آخر . وقد جربت بنفسى هذا فى قتـــال البوير ، حيث لم نكن نملك شيئا سوى نيران معسكراتنا ، ووحداتنا الخلوية ، بينما كان البوير يصولون ويجولون فى مختلف أنحاء البلاد ، ووصلت خسائر الايطاليين فى الأشهر الثلاثة الأولى الى ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل بينهم سبعمائة أسير ، بينما لم تزد خسائرنا عن مائة وخمسين جنديا ، وهكذا كانت بداية المرحلة الأولى من الحرب التى شنتها ايطاليا علينا بداية مليئة بالتفاؤل .



وأحسست بالحاجة الماسة لمناقشـــة الأخطار الداهمة فى الصحراء الليبية مع الجنرال ويفل بالذات ولم أكن قد التقيت بهذا القائد الماهر الذى يرتبط به مصير كثير من الأشياء فرغبت الى وزير الحربية القيـــام باستدعائه لمدة أسبوع كى أتباحث معه عندما تتيح الظروف الملائمة ، وقد حضر ويفل فى ٨ اغسطس فتباحث طويلا مع أركان الحرب ، ومعى ومع المستر ايدن ، وكانت قيادة الشرق الأوسط فى تلك الأثناء تواجه مجموعة غريبة من المشاكل السياسية والعسكرية والديبلوماسية والادارية بالغـــة التعقيد ، وقـدمر عام تقريبا من الانتصارات والانكسارات لتبدو لى أنا

والزملاء الضرورة التى تحتـــم توزيع اختصاصات الشرق الأوسط بين القائد العام ووزير الدولة مع مسئول خاص يصرف شئون التموين وبغض النظر عن عدم موافقتي التامة على وجهات النظر التى أبداها الجنرال ويفل فى توجيه الجيوش التى يتولى قيادتها ، رأيت من الأفضل أن أعطيه الحرية فى تصرفاته . فقد أعجبت بصفاته الممتازة ، كما كنت مأخوذا بالثقة الكبيرة التى منحها الكثيرون لشخصه .

وعلى هَدْيِ مباحثات أركان الحرب أبلغنى الجنرال ديل بموافقة ايدن المتحمسة يقول : ان وزارة الحرب بدأت تهييء الوسائل لارسال حوالى من مائة وخمسين دبابة من المدافع عاجلا الى مصر . وكانت العقبة الوحيـدة التى تعترضنا هى الطريق الذى تبحر فيه البواخر المحملة بتلك المعدات. هل هو رأس الرجاء الصالح أم هو البحر المتوسط ؟ . ودار - جدل عريض حول هذه المشكلة ، فرأت وزارة الحرب أبحار هذه الوحدة المدرعة ، حتى تصل الى جبل طارق ثم يعاد النظر فى قرار نهائى ، وظل الاختيار متأرجحا حتى ٢٦ أغسطس ، وبالطبع رأينا الفرصـة متاحة لنجمع المعـلومات الضرورية عمـا اذا كان الهجوم الايطالى قد حان ميعاده أم لا ، ولم تضع وقتنا فاجراء عملية نقل الدم هذه فى ذلك الوقت الذى نستعد فيـه لمواجهة شر مستطير ، تحتاج الى قرار صائب وان كان رهيبا فى الوقت نفسه ، ولم يتردد واحد منا فى اتخاذ هذا القرار .

* * *

وكانت السيطرة على البحر الأبيض المتوسط قبل إنهيار فرنســا موزعة بين الأسطولين البريطانى والفرنسى ، ولكن بعد أن عزلت فرنسا من الحرب واشتركت فيها ايطاليا ، غدا أمامنا أسطول ايطالى ضخم فى عِدَدِهِ يؤازره سلاح جوى قوى ، وقد ظهر لنا الموقف فى بداية الأمر مرعبا حتى لقد فكرت الأميرالية فى الانسحاب من شرق البحر الأبيض. والتجمع حول جبل طارق ، وقد قاومت هذه الفكرة ، لأنها بغض النظر عن وجود كل ما يؤيدها نظرياً بسبب وجود الأسطول الأيطالى العارم لا تلتقى مع إحساسى الخاص بالمثل الكفاحية والحربية ، ويضاف الى ذلك أن هذه الفكرة تحكم على جزيرة مالطة بالموت ، وتبعا لآرائى تقرر أن نجابه القتال فى جانبى البحر المتوسط ، وكانت التبعات المنوطة بالأميرالية فى ذلك الحين بالغة الأهمية ، فَخَطَرُ الغزو مازال ماثلا ، مما يستلزم منها اعداد أكبر عدد مستطاع من المدمرات والقطع الصغيرة فى المانش وبحر الشمال .

وكانت الغواصات التى أخذت فى العمل منـــذ شهر أغسطس من موانىء خليج بسكاى ، تفرض ضريبة ضخمة على قوافلنا فى الأطلنطى دون أن تصاب بأية أضرار ، والى تلك الساعة لم يكن الأسطول الايطالى قد دخل أية معركة تضعه موضع الاختبار ، ولم يكن فى مقدورنا أن نغفل عن احتمال دخول اليابان الى ميدان الحرب ، وما يعنيه هذا الدخول من أخطار تهدد كيان امبراطوريتنا فى الشرق ، فلا غرو والحالة كما نرى أن يستولى القلق على الأميرالية من جراء فكرة المجازفة ببوارجنا فى البحر المتوسط ، وأن تتشبث بأهداب الوسائل الدفاعية فى كل من جبل طارق والاسكندرية • أما أنا فقد كنت لا أجد سببا كافيا لنحول بين هذا العــدد الهائل من قواتنا البحرية التى خصصناها فى البحر المتوســط ، وبين القيـــام بدور رئيسى منذ البداية ، وعلينـا أن نرسل الامدادات الجوية والبحرية الى مالطة وبالرغم من أن قوافل نقلنا التجارى قد اتجهت الى طريق رأس الرجاء الصالح ، وبالرغم من أن البوارج الكبيرة التى تنقل جنودنا الى مصر تتخذ نفس الطريق ، فاننى لم اكن مقتنعا باستمرار هذا البحر مغلقا فى وجوهنا وقد طمعت فى أن يكون اختراق قوافلنا لهذا الطريق وسيلة لاستثارة الأسطول الايطالى وجره الى معركة تختبر فيها قوته ، وكانت رغبتى تتلخص فى أن يجرى كل هذا ويتم امداد مالطة بالحامية وبالمعدات والطائرات والمدافع المضادة قبل أن يقدم الألمان الى هذا الميدان ، وهو أمر كنت أعمل حسابه وقد أمضيت أشهر الصيف فى مباحثات هادئة ولكنها جادة مع الاميرالية حول هـــذا الاتجاه فى نشاطنا الحربى •

وبالرغم من ذلك فقد فشلتُ فى إقناع الأميرالية بأن تمخر الوحدة المدرعة أو سياراتها على الأقل عباب البحر المتوسط ، فاستمرت كل قوافلنا تدور حول رأس الرجاء الصالح •

وقد أسفت لهذا الموقف بل غضبت منه ، ولم تحدث أية واقعة خطيرة فى مصر وبقينا ممسكين بالرغم من وجود سـلاح الطيران الايطـالى بزمام المبادرة ، كما ظلت مالطة فى مقدمة الحوادث كقـاعـدة أمامية لشن هجومنا على المواصلات الايطالية مع القوات المرابطة فى أفريقيا •

*** ٨

ويظهر أن القلق الذى اعترانا من غزو ايطاليا لمصر كان ــ كما يبدأ لنا الآن ــ أقل من القلق الذى أحاط بنفس الماريشـال غرازيانى قائد الغزو فقبل بضعة أيام من الموعد المتفق عليه طلب الماريشـال تأجيله شهرا كاملا

فرد عليه موسولينى مهددا بالاقالة من منصبه اذا لم يبادر بالهجوم يوم الاثنين ، فرد المـاريشال عليه بأنه سيمتثل للأمر ٠ وكتب تشيانو فى مذكراته : « ولم يحدث أبداً أن وقعت عملية حربية مثل هذه رغما عن مشيئة قائدها » ٠

وبدأت القوات الايطالية زحفها الرهيب على الحدود المصرية فى ١٣ اغسطس مكونة من ست فرق من المشاة ، وثمانية أفواج من الدبابات وكانت جيوشنا المواجهـة تتألف من ثلاثة أفواج من المشـــاة وفوج من الدبابات وثلاث بطاريات وسريتين من السيارات المدرعة ، وقد أصـدرنا اليها أمرا بالاشتباك مع العدو فى قتال انسحابى وهى طريقة تجيدها قواتنا لما تتسم به من شــجاعة ولما اكتسبته من خبرات فى حرب الصحراء ٠ وبدأ الهجوم الايطالى يفتح نيران المدفعية على مراكزنا قرب مدينة السلوم على الحدود ، وعندما انكشف الغبار والدخان ، تجلت القوات الايطالية مصطفة فى نظام بديع ففى المقـدمة راكبو الدراجات النارية فى تنظيمات متقنة تمتد من الجناح الى الجناح ، ومن المقـدمة الى المؤخرة ، وتليهم الدبابات الخفيفة ثم عدد من السيارات المصفحة فى صفوف منتظمة أيضا ، وعلق ضابط بريطانى على هذا المنظر فقال انه كان أشبه بحفلة عيد ميلاد فى الوادى الفسيح فى الدرشوت ؛ وأسرع فوج حـرس غولد ستريم الثالث الذى كان أمام الجيش المغير بالانسحاب بينمـا تقـاضت مدفعيتنا ضريبتها من هذه المائدة المعروضة أمامها بسخاء ٠

وتحرك الى الجنوب فوجان كبيران من أفواج العدو عبر الصحراء المكشوفة جنوبى الروابى الممتدة بمحاذاة البحر ، والتى ليس فى المقدور اختراقها الا عند «حلفايا» أو ما يعرف «بممر نيران جهنم» ٠ وهو ممر أدى دوراً فعالا فى معاركنا المقبلة كلها وكان كل فوج منهما يتكون من عدة مئات من السيارات تساندها الدبابات والمدافع المضادة لها والمدفعية التى تظهر فى المقدمة ، ثم المشاة فى الوسط حيث تقلهم السيارات وكنا نسمى هذا التنظيم الذى شاهدناه كثيرا باسم « القنفذ » وأمام هذا العدد الهائل تراجعت وحداتنا مستغلة كل فرصة لتغير على العدو الذى بدت الحيرة والاضطراب فى كل تصرفاته وقد قال غرازيانى فيما بعد انه غـير خطته فى الآونة الأخيرة التى كانت تعتمد على القيام بتطويق صحراوى الى « تركيز القوات جميعا فى الجناح الأيسر ثم شن هجوم صاعق كالبرق على طول الساحل فى اتجاه سيدى برانى » ٠ وعلى هذا الأساس زحفت الجموع الايطالية الضخمة الى الامام ببطء فى خطـين متوازيين على

الطريق الساحلى وكانوا يحشدون للهجوم مجموعات من المشاة تنقلهم السيارات : تتقدم نحو الأمام فى وحدات عدد كل منها حوالى خمسين جنديا واستمر حرس غولد ستريم فى انسحابه وعلى مهل لمدة أربعة أيام من السلوم الى مواقع متلاحقة ، منزلا بالعدو الأضرار الفادحة أثناء انسحابه .

وعسكرت القوات الايطالية فى سيدى برانى يوم ١٧ سبتمبر ، وبلغت خسائرنا أربعين رجلا بين قتيل وجريح ، بينما نزل بالعدو من الأضرار ما يقدر بعشرة أضعاف هذا العدد فضلا عن تدمير حوالى مائة وخمسين سيارة ، ورأى الايطاليون بعد أن امتدت بهم سبل المواصلات ستين ميلا أخرى ، أن يجمعوا قواهم وأن يرابطوا فى مكانهم الأشهر الثلاثة القادمة ، ولكنهم لم يعفوا من الهجمات المستمرة التى كانت تشنها جماعاتنا الصغيرة المتحفزة . وقد واجهوا أقسى المتاعب بشأن مستلزمات الصيانة ، وكان موسولينى فى بداية الأمر قد « اهتز سرورا » ، ولكن لما بلغت الأسابيع شهورا بدأ زهوه يخف فتأكدنا فى لندن أننا فى الشهرين أو الثلاثة الأشهر القادمة سنواجه قوات ايطالية هائلة أضخم من كل ما تقدر على تجنيده ، تواصل التقدم بغية احتلال الدلتا ، وهناك أيضا تهديد بالخطر الألمانى فقد يدهمنا فى أية لحظة ولم يكن بالطبع يدور بخلدنا أن فترة التوقف لزحف غرازيانى ستطول الى هذه المدة كما دار بخاطرنا احتمال حدوث معركة حاسمة فى مرسى مطروح ، وهو شىء معقول فى وسط هذه الظروف . وقد استطعنا أن نستغل هذه المدة : فوصلت دباباتنا الثمينة التى دارت حول رأس الرجاء الصالح ، دون أن يسبب لنا طول مدة دورانها أية خسائر .

وعندما أرجع بذاكرتى الى كافة هذه المشقات ، أتذكر قصة الرجل العجوز الذى حانت منيته فباح على فراش الموت بأنه واجه فى حياته كثيرا من المتاعب ، بينما لم تكن فى حياته أية متاعب .

وارى أن هذه القصة تنطبق تماما على الحالة التى مررت بها فى سبتمبر عام ١٩٤٠ فلقد انهزم الألمان فى غاراتهم الجوية على بريطانيا ، ولم تحدث أية محاولة لغزونا من البحر ، ثم تحول هتلر بعد ذلك بنظراته النهمة الى الشرق ، وعوق الغزو الايطالى لمصر ، ووصلت وحدة الدبابات التى أرسلناها عن طريق رأس الرجاء الصالح فى موعدها المناسب ، لا لتشترك فى سبتمبر فى معركة دفاعية عن مرسى مطروح ، بل لتخوض عملية أخرى كانت أكثر نفعا وأعظم فائدة .

وقد وفقنا الى الوسـائل المطلوبة لتعزيز الدفاع عن مالطة قبل أن يحاول الاغارة عليها أحد ، وفى كل مراحل هذه الفترة جبنت كل القوى عن التعرض لهذا الحصن البحرى وعلى هذا النحو مضى شهر سبتمبر.

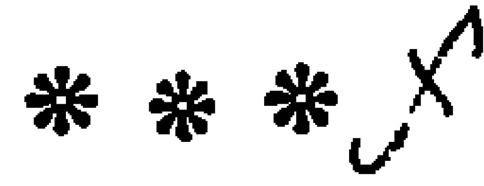
*** ٨١

وأخذ موسولينى الآن يقوم بحركة جديدة كانت فى مجال احتمالاتنا وقد أثارت لنا نظرا لمشكلاتنا العديدة ، كثيرا من الصعوبات المفاجئة ، والنتائج البالغة الأثر بالنسبة لميدان الحرب فى البحر الأبيض المتوسط.

فقد أصدر الدوتشى أوامره بشن هجوم على اليونان فى ١٥ أكتوبر ١٩٤٠ ، وقبيل فجر ٢٨ وجه وزير ايطاليا المفوض انذارا حاسما الى الجنرال متيكاس رئيس الوزراء اليونانى ، يطلب فيه موسولينى فتح الحدود أمام الجيوش الايطالية وفى الوقت ذاته زحف الجيش الايطالى من ألبانيا على اليونان من عدة أماكن فقابلت الحكومة اليونانية هـذا الطلب بالرفض وكانت جيوشها على أهبة الاستعداد فى الحدود ، وطالبتنا بتنفيذ التعهدات التى سبق أن ضمنها لها المستر تشمبرلين فى ١٣ أبريل ١٩٣٩ وكان من الطبيعى أن نحترم وعودنا ، وقد رد جلالة الملك استجابة لمشورة حكومته ، وبالاصالة عن رغبته العميقة على برقية ملك اليونان قائلا : « ان قضيتنا واحدة وسنقاتل معا ضد عدونا المشترك » وأرسلت الى الجنرال متيكاس فى أثناء ردى على رسالته أقول : « سنبذل من أجلكم كل ما فى وسعنا ، وسنحارب العدو المشترك كما سنحرز النصر متحدين » . ولقد قمنا بهذه التعهدات بعد قصة طويلة من الكفاح .

ولم يكن فى مقدورنا أن نرسل الى اليونان بأكثر من بضعة أسراب من الطائرات ، وببعثة بريطانية ، ومجموعة رمزية من القوات ، وعلى الرغم من ضآلة هذه المعاونة فقد كنا نحس بالألم ونحن ننقصها من حساباتنا فى العمليات الحادة الرهيبة التى بدأت تواجهنا فى صـحراء ليبيا ، ووضحت لعيوننا نقطة استراتيجية بالغة الأهمية وهى كريت ، التى يهيب بنا الواجب ألا ندع الايطاليين يحاولون احتـلالها ولذلك فمن الضرورى أن نحتلها نحن أولا وعلى الفور وكان المستر ايدن ليُمْن طالعنا موجودا فى تلك الأثناء بالشرق الأوسط فتم لى بذلك وجود الوزير الزميل الذى يسعنى تصريف هذا الشأن معه ، فأبرقت اليه ، وعلى الفور قامت قواتنا بدعوة من الحكومة اليونانية باحتلال خليج سودا ، وهو خير موانىء الجزيرة وأكثرها صلاحية .

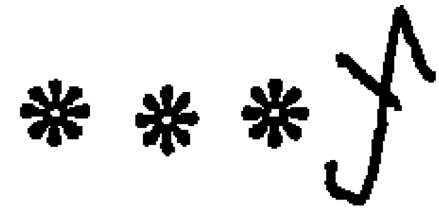
ولا شك فى أن قصة خليج سودا تثير كثيرا من الأسى ، لكن المأساة لم تحدث الا عام ١٩٤١ ، ويقينى أنه توفر لى التصرف الكامل لشئون الحرب مثلما توفر لأى رجل مسئول فى أية بلاد غير بلادنا فى ذلك الحين فقد أدت خبرتى لحقيقة الأشياء ، وإيمان زملائى فى وزارة الحرب ، وتآزرهم المخلص معى وتعاون جميع زملائى وصلاحية جهازنا الحربى المتطور على الدوام ، أدى كل ذلك إلى تركيز جميع السلطات فى يدى ، ومع كل هذا فقد كان العمل الذى قامت به قيادة الشرق الأوسط دون ما أمرتُ به ودون ما كنا نطمع الى تحقيقه ، ولكن لعلنا لم ننس بعد حدود الطاقة الانسانية ، فقد دارت عدة عمليات فى اماكن كثيرة فى وقت واحد وبالرغم من ذلك فانه ما زال يحيرنى حتى الآن عجزنا على أن يكون خليج سودا هو الحصن البرمائى لكل ما تمثله قلعة بحرية مثل جزيرة كريت.



وكان هجوم ايطاليا على اليونان من ألبانيا ، صفعة جديدة للدوتشى فقد اندحر الهجوم الأول بعد أن تكبد اضرارا جسيمة ، ومن ثم قام اليونانيون على الفور بهجوم مضاد ، وأظهر الجيش اليونانى تحت قيادة الجنرال باباغوس ضروبا من المهارة الفائقة فى حرب الجبال فتفوق على عدوه فى مجال المناورة وحركات الالتفاف ولم تأت نهاية العام حتى كانت بسالته قد حملت الايطاليين على الانسحاب الى مسافة ثلاثين ميلا على طول الجبهة ، خلف حدود ألبانيا ، واستطاعت ست عشرة فرقة يونانية فرض عدم التحرك على سبع وعشرين فرقة ايطالية لأشهر عديدة خلف حدود ألبانيا .

وبانتشار أنباء هذه المقاومة الباسلة ، دبت الحماسة والشجاعة فى نفوس الدول البلقانية الأخرى كما انهارت على أثرها سمعة موسولينى، لكن القصة لم تقف عند هذا الحد ، — فقد عاد ايدن الى وطنــه فى ٨ نوفمبر ، وقدم فى نفس الليلة ليرانى بعد بداية الغارات الجوية المعتادة وكان يطوى سرا حرص الا يبوح به لأحد ، (وكنت أود لو عرفته من قبل أى ضرر لم يحدث على كل حال) ، وتحدث ايدن كثيرا لى ولبعض صحبه المختارة ومنهم رئيس أركان حرب الامبراطورية ، والجنرال ايسماى ، وشرح بالتفصيل مشروع خطة هجومية وضعها الجنرال ويفل والجنرال ويلسون ، تقضى بألا نظل فى أماكننا بمرسى مطروح ننتظر الهجوم الايطالى المترقب، — وقد أعددنا لصده كل الوسائل الدفاعية الممكنة ، بل نبادر نحن فى خلال شهر أو نحوه بشن هجوم على العدو .

وانتشينا بهذا النبأ المثير ، وجعلت أَهِرُّ كَستِّ قِطَطَ ، فقد وقعنا على عمل يستحق التنفيذ ، وأخذنا القرار فورا بعد أن صدق عليه رؤساء أركان الحرب ، ووزراء الحرب ـ بالموافقة على الخطة واعداد كل مستلزماتها وكنت مستعدا عندما عرضت الخطة على وزارة الحرب لتوضيح الأمور ، ولكن عندما بلغ الزملاء أن قادة الميدان العسكريين ، ورؤساء أركان الحرب قد تم اتفاقهم معى ، ومع المستر إيدن بهذا الصدد ، آثر الزملاء عدم الاطلاع على تفاصيله ، حيث رأوا خيراً له وأبقى أن تظل معرفته بين عدد محدود ، وأعلنوا تأييدهم التام لفكرة الهجوم بصورة عامة ، وكان هذا التصرف مثالا لتصرفات عديدة قامت بها وزارة الحرب فى عديد من المناسبات وانى لأبادر بتسجيله هنا ليكون سابقة تحتذى فيما اذا تعرضنا فى المستقبل لظروف مماثلة .



وقد جد تحسن واضح فى موقف قواتنا فى البحر الأبيض المتوسط بالرغم مما يبدو من تفوق الأسطول الايطالى على أسطولنا المرابط هناك فى عدد جنوده ومن الناحية النظرية ، وقد استطاعت البارجة « فاليانت » وحاملة الطائرات المدرعة « ايلستريوس » وطرادان مضادان للطائرات اختراق البحر الأبيض المتوسط فى سلام وتعضيد قوات الأميرال كينجهام فى الاسكندرية وقد ظلت هذه القوات تحت مراقبة سلاح ايطاليا الجوى ، ومعرضة لهجماته .. لكن .. «الايلستريوس» بطائراتها الحديثة المحاربة وجهاز رادارها الجديد وبدورياتها المقاتلة وطائراتها المغيرة تمكنت من أن تضفى صفة السرية على تنقلاتنا ، وكانت هذه الصفات الممتازة قد جاءت فى الوقت الذى نريد .

وكان الأميرال تستبد به الرغبة منذ زمن بعيد إلى إنزال ضربة قوية بالأسطول الايطالى المرابط فى قاعدته الرئيسية فى تورنتو ، وقد وقع الهجوم فى ١١ نوفمبر كقمة لعمليات حربية متتابعة شديدة الاحكام ، وتقع تورنتو فى كعب ايطاليا فتبعد عن جزيرة مالطة بحوالى ثلاثمائة وعشرين ميلا ، وميناؤها البديع محصن تماما ضد كافة ألوان الهجوم الحديثة ، وبوصول بعض طائراتنا الاستكشافية السريعة الى مالطة استطعنا أن نحدد بالضبط مكان الفريسة ، وبعد الغسق بقليل أطلقت طائرات «الايلستريوس» من مسافة يبلغ بعدها مائة وسبعين ميلا عن تورنتو ، واحتدم القتال زهاء ساعة بين الحرائق المشتعلة والدمار الذى نزل بقطع الأسطول الإيطالى وبالرغم من قوة نيران المدافع المضادة فان ما لحق بنا من

أضرار لم يزد عن طائرتين سقطتا فى البحر ، أما بقية الطائرات فقد عادت إلى قواعدها سالمة .

وبهذه الضربة القوية تبدل ميزان القوة البحرية فى البحر الأبيض بصورة نهائية ، فقد أوضحت الصور الجوية أن بوارج ثلاثا من بينها البارجة الحديثة «ليتوريو» قد أصيبت كما أصيب طراد آخر ، حلت بظهره أضرار فادحة وهكذا أصبح نصف الأسطول الايطالى على الأقل عاجزا عن الحركة لمدة ستة أشهر ، وكان فى مقدور سلاح الأسطول الجوى أن يهتز طربا لاستطاعته بهذه المجازفة الرائعة استغلال الفرصة النادرة التى سنحت له .

ولعل من سخرية المقادير ، أن كان السلاح الايطالى ، انصياعا لأوامر موسولينى فى نفس اليوم الذى شهد هذه الضربة القاصمة يجرب الهجوم الجوى على بريطانيا العظمى ، فقد شاءت قوة من القاذفات الايطالية تؤازرها حوالى ستين طائرة محاربة الهجوم على الخُلفاء فى ميداوى ، فاشتبكت معها مقاتلاتنا وقضت على ثمانى قاذفات وخمس مقاتلات ، وكانت هذه هى التجربة الأولى والأخيرة من جانب ايطاليا بالنسبة للتدخل فى شئوننا الخاصة ، ولا شك فى أنهم عرفوا بعد ذلك أن الدفاع عن أسطولهم فى تورنتو كان خيرا وأبقى .

وأمضت قواتنا التى بات عليها أن تقوم بعملية هجوم الصحراء مدة شهر تقريبا فى تدريبات خاصة ، يتطلبها هذا الهجوم المعقد لدرجة كبيرة، ولم يكن أحد يعلم بتفاصيل الخطة سوى عدد قليل جدا من الضباط ، كما لم يحرر شىء خاص بها على أى ورقة ، وفى ٦ ديسمبر زحف جيشنا المدرع بخمسة وعشرين ألف جندى .. كل منهم لوحت وجهه شمس الصحراء وتركت على عوده صلابة طبيعتها الصارمة ، فاشتد عوده وانفتلت عضلاته زحف الجيش بهم مسافة أربعين ميلا ثم اختفى فى الصحراء عن عيون السلاح الجوى الايطالى ، وفى ٨ من الشهر نفسه استأنف زحفه الجرىء ، وفى تلك الليلة ، قيل للجنود ، للمرة الأولى ، انهم الآن لا يمارسون تدريبا صحراويا ، ولكنهم يقومون بعملية حية ، وفى فجر ٩ ديسمبر بدأت معركة سيدى برانى ولا أجد داعيا للكتابة عن تفاصيل القتال الكثيرة والدقيقة معا ، الذى ظل يدور فى خلال الأيام الأربعة التالية على أرض واسعة تكاد تماثل مقاطعة يوركشاير بكل اتساعها ، ومر كل شىء فى نظامه الذى قدرته الخطة الموضوعة وتواصلت المعركة طيلة اليوم العاشر ، وفى الساعة العاشرة أبرقت قيادة فوج حرس جولد ستريم تقول انه تعذر

عليها احصاء عدد الأسرى لكثرتهم البالغة ، ولكن ثمة « ما يملأ خمسة أفدنة من الضباط ومائتى فدان من الجنود » وكانت تصلنى فى داوننج ستريت أنباء القتال لحظة بعد أخرى ، وكان من الصعب على أن استوعب ما يحدث ، ولكن الموقف كان يملأ شعورى بالرضا والارتياح ، وقد لفتت نظرى اشارة من ضابط شاب كان يقود دبابة بالفرقة المدرعة السابعة قال فيها : « لقد وصلت الى بقبق » وتم الاستيلاء على سيدى برانى فى اليوم العاشر بعد الظهر ، وفى ١٥ ديسمبر كان جيشنا قد نفى عن أرض مصر تماما جميع القوات المعادية وكانت البردية غايتنا الثانية ، وفى محيطها الذى يبلغ سبعة عشر ميلا ، الجزء الأكبر من أربع فرق ايطالية أخرى ، وتتكون الخطوط الدفاعية عنها من خندق ممتد لمقاومة الدبابات وراءه أسلاك شائكة تستند الى بيوت من الأسمنت المسلح قائمة هنا وهناك ، يكمن وراء خط آخر من الحصون ، وكان اجتياح هذا الحصن يستلزم عددا كبيرا من المقاتلين ، ولاتمام الحديث عن انتصارنا فى الصحراء أرى أن استمر فى سرد أحداث السنة الجديدة ففى ٣ يناير استطاعت فرقة استرالية تحت حماية المدفعية الشديدة انتزاع موقف لها فى القطاع الغربى ، وبدأ مهندسونا محتمين بالاستراليين يغلقون الخندق المضاد للدبابات ، واستمرت كتيبتان استراليتان فى الاغارة الناجحة فى اتجاه الشرق والجنوب الشرقى ، وفى خلاله زحفهم كانوا يتغنون بلحن من الحان الأفلام الامريكية ، نال شهرة فى تلك الآونة فى سائر البلاد حتى فى بريطانيا أيضا ، وهو يتعلق « بساحر أوز » وعندما أصغى الى هذا اللحن اليوم تطوف لى ذكريات تلك الأيام المفعمة بالأحداث واستطاعت الدبابات البريطانية بعد ظهر ٤ يناير اقتحام البردية تؤازرها قوة من المشاة ، واستسلمت حاميتها فى ٥ من الشهر نفسه ، وكان عددهم خمسة وأربعين ألفا ، أسروا جميعا ، كما استولت قواتنا على ٤٢٦ مدفعا .

وفى اليوم التالى أى ٦ يناير تم حصار مدينة طبرق ، ولم يكن فى المستطاع مهاجمتها قبل ٢١ يناير ، ولكنها استسلمت فى صباح اليوم التالى ، وانتهت مقاومتها وغنمنا فيها ٢٣٦ مدفعا عدا ثلاثين ألفا فى الأسر ، وهكذا استطاع جيش الصحراء فى ستة أسابيع أن يزحف مائتى ميل فى أرض جرداء خالية من الماء والزراعة واستطاع الاستيلاء على ميناءين قد حصنا كاملا ضد البر والبحر والجو ، وأسر (١١٣) ألفا واستولى على أكثر من سبعمائة مدفع ، وتهاوى الجيش الايطالى الضخم الذى كان قد زحف على مصر ، وداعبته الآمال فى الاستيلاء عليها ، وسقط من الحساب كقوة

عسكرية وكانت مصاعب التموين والامتداد الهائل للمسافات هى الأسباب الرئيسية لتأخير زحف قواتنا نحو الغرب ٠

وهكذا ، كان العام يقترب من نهايته ، والصورة أمامنـــا تتنازع جوانبها مختلف الأضواء والظلال فى وقت واحد ، فنحن لم نزل أحياء ، وقد استطعنا انزال الهزيمة بالسلاح الجوى الألمـانى ، ورددنا الغزاة من بلادنا مدحورين ، وأصبح جيشنا فى الوطن فى منتهى القوة والتفوق ، ولم تستطع كل المحن أن توهن من عزيمة لندن الصامدة ، وبدأنا نسيطر تماما على سماء جزيرتنا بكافة الامكانيات ، لكن همسات الشيوعيين القذرة خضوعا لأوامر موسكو ظلت تتردد على الأسماع ، عن الحرب الاستعمارية الرأسمالية ، ثم تموت على شفاههم ، فالمصانع تفيض بالحيوية ، الشـعب بأكمله يعمل ليل نهار ، وقد ارتفعت روحه المعنوية ، وتدفق فى كيـانه احساس بالارتياح والاعتزاز ، وبدأ نصرنا النهائى ، فى صحراء ليبيـا قريبا ، كما بدأت الولايات المتحدة تقترب شيئا فشيئا من واجبها الحقيقى وهو الاشتراك الفعال معنا ٠

وفى مقدورنا أن هذه السنة المجيدة نادرة بمكاسبها ، كمـا كانت مروعة بأحداثها ، ولعلها أروع وأرهب السنين فى تاريخ انجلترا بأكمله ٠

فلقد حطمت بريطانيا العظمى بمهارتها الخاصة الارمادا الاسبانيـة وخاضت غمار الصراع الذى استمر زهاء خمسـة وعشرين عاما والـذى خاضه ويليام الثالث ووزيره مارلبوروا ضد لويس الرابع عشر ، فظلت طيلة هذه المدة تشتعل فى صدرها حمية العزيمة والاصرار ، كما اقتحمنا حلبة الصراع ضد نابليون وكنا ندين ببقائنا لسيطرة الأسطول البريطانى على البحار ، بفضل القيادة المـاهرة لنيلسون ورفاقه ، كمـا قتـل مليون بريطانى فى الحرب العالمية الأولى .. ولكن كل هذه المحن التى ذقنا أهوالها لم تكن شيئا بجانب ما قاسينا فى عام ١٩٤٠

وبرغم ذلك لم تأت نهاية العام حتى كانت الدنيا تشهد هـــذه الجزيرة الصغيرة العريقة ، بجميع شعوبها المؤمنة بها ، وبممتلكاتها المستقلة ، وعلاقاتها الناجحة تحت كل سماء ، وقد أكدت أنها قادرة على تحمل كل ما يأتى بمصير العالم من أعباء وتبعات .

ولم يعرف الضعف ولا التحير سبيلا الينا ، بل ظلت روح الشعب البريطانى ، والعنصر البريطانى فى قوة لا تغلب ، وبرهن حصن جامعة الشعوب البريطانية والامبراطورية على أنه لا سبيل الى اقتحامه ، وقررنا

ـ وحدنا ـ بتأييد كل القلوب الكريمة الطيبة ـ أن نتحدى الطاغية وهو فى قمة غروره وانتصاراته ٠

واستيقظت الآن جميع طاقاتنا الفعالة ، فقد تمت سيطرتنا على الارهاب الجوى ، وأصبحت الجزيرة حصنا لا يمس ولا يمكن تدنيسه ، ومنذ الآن سيتوافر لنا السلاح ٠ ومنذ الآن سنكون نحن جهازا حربيا ماهراً ، فقد عرف العالم كله أننا نعرف كيف نصمد فثمة نظرتان لموضوع السيطرة الهتلرية على العالم ، فبريطانيا التى كان لا يعبأ بها الكثيرون ، مازالت فى الميدان ، أضخم مما كانت عليه فى أى زمن مضى ، وهى يوما بعد يوم تزداد قوة وصلابة ، وها هو ذا عامل الزمن يتحرك ثانية الى صفنا ، ويدعم مصالحنا لا أقصد مصالحنا القومية فحسب ، فأمريكا تدعم أسلحتها بصورة عاجلة ، وتقترب شيئا فشيئا من حلبة الصراع وروسيا السوفيتية ـ التى أصدرت حكمها الخاطىء علينا بعدم الصلاحية ، والتى تساومت مع ألمانيا لتكسب مناعة عابرة وتحصل على نصيب من الغنائم ـ اخذت الآن تستكمل قوتها واستطاعت غرس أقدامها فى مواقع أمامية لتؤمّن على نفسها ، أما اليابان فربما تكون فى هذه الفترة فريسة شعور جارف بالخوف من استمرار الحرب ، وهى تنظر بقلق الى روسيا والى أمريكا وتقوم بدراسات واسعة لما تعتقد أنه سيكون فى صالحها ، ومتفقا مع دواعى العقل والحكمة . وها هى ذى بريطانيا بعلاقاتها الدولية الشاملة والتى ظهرت وكأنها على حافة الدمار ، والسيف المصلت يكاد أن يمزق أحشاءها تظل صامدة خمسة عشر شهرا ، وقد وجهت كل جهودها للاعداد الحربى ، تدرب الرجال ، وتحشد للمعركة كل ما لديها من كفاءة وجهود ، ونظرت الدول الصغيرة المحايدة والدول المستعمرة الى السماء ، فرأت فيها نجوما لا تزال متالقة فهزتها الدهشة والسعادة معاً ، واستيقظ الرجاء والعطف معاً ، فى قلوب مئات الملايين من البشر ، فستنتصر قضية الخير ولن يذهب الحق هباء تحت أقدام الطغاة ، وستظل راية الحرية ـ التى يمثلها فى ذلك الحين علم بريطانيا ـ عالية خفاقة مهما عصفت الرياح واشتدت الأنواء ٠

أما من ناحيتى أنا وزملائى الأوفياء ، الذين كنا نحيا فى ذروة الصورة ، تصلنا أدق المعلومات عن كل شىء ، فقد نازعنا كثيراً القلق ، وانتابتنا الهموم ، فما زال خطر حصار الغواصات ماثلا ، وعلى القضاء على هذا الخطر تستند كل خطتنا ، وقد خسرنا معركة فرنسا ، ولكنا ربحنا معركة بريطانيا ، وكان علينا فى ذلك الحين أن نخوض غمار معركة الأطلنطى ٠

اتساع الحرب

توثقت صلتي مع الرئيس روزفلت مع بداية السنة الجديدة ، وكنت قد أرسلت اليه تهنئتي بمطلع العام الجديد ، وفى ١٠ ينساير سنة ١٩٤١ م حضر الى داونتج ستريت انسان لطيف ومعه أوراق الاعتماد يرغب في لقائي ، وكانت البرقيات من واشنطن قد أخبرتنا أن هذا الرجل يعتبر ممثلا خاصا موثوقا به للرئيس ، ومن أجل هذا فقد رغبت فى أن يستقبله السيد براندن براكن فى المطار ، وفى اليوم التالى دعوته لنتناول الغداء معا ، وكذا التقيت بالرجل ، بالتقدير هارى هوبكنز الذى أدى دورا هاما فى جميع شئون الحرب ، وكان روحا نابضة بالحيوية فى جسد نحيل واهن ، وكان منارة تكاد أن تهوى ولكنها ترسل ضوءها الساطع الذى يهدى الأساطيل الضخام الى مرساها الأمين ، وكان يتسم بروح من الدعابة الساخرة ، وكثيرا ما رغبت فى صحبته وخصوصا عندما يسوء الموقف ، ولقد كان فى مقدرته أيضا أن يتخلى عن الرقة والدماثة وأن ينطلق فى كلمات قلبية جارحة ، وكانت خبراتى قد هدتنى الى أن أكون واحدا من هذا النوع عندما تحتم الظروف .

ودام اجتماعنا الأول ثلاث ساعات ، وبسرعة توصلت الى مميزات شخصيته الدينامية ، وما يتعلق بها من المهام ، وكنا فى أقسى فترات الهجوم على لندن ، بينما تنهال علينا المتاعب من الداخل كذلك ولكن تبين لى أن هذا الرسول الخاص من الرئيس ، ذو أهمية عظيمة لحياتنا ومصيرنا ، وقال لى وعيناه تتألقان والهدوء والتحفظ يغلف حديثه : « ان الرئيس مصمم على أن نكسب الحرب معا فأرجو أن لا تخطىء فى تفهم حديثى حين اقول :

« لقد أرسلنى هنا لأخبرك بأنه مهما تفاقم الثمن ، وأيا كانت الوسيلة ، فسيظل يؤازركم حتى النصر ، وبالرغم

من أى مصير شخصى يواجهه فلن يتوانى عن تقديم كل عون فى وسع الطاقة البشرية ان تقدمه حتى تبلغوا غايتكم » .

ولا شك فى أن كل من عرف هارى هوبكنز فى مدى سنى الحرب يرسم الصورة التى قدمتها عن شخصيته ، ومنذ التقينا بدأت تنمو الصداقة بيننا ، وتسمو على كل الانفجارات والزلازل ، ولقد كان أضمن وأقرب وسيلة للاتصال بالرئيس ، فلقد ظل هذا الرجل لسنوات عديدة موضع السر والثقة للرئيس روزفلت ، وباعث الأمل الذى يحفزه ويشجعه ، واستطاع هذان الرجلان – واحدهما مساعد بدون منصب رسمى ، والآخر يتولى مهام منصب الرئاسة – اتخاذ القرارات ذات النتائج الخطيرة بالنسبة لكافة البلاد التى تتحدث اللغة الانجليزية ، وكان هوبكنز بكل تأكيد يحتفظ بنفوذه الشخصى على الرئيس ولذلك لم يكن يتيح الفرصة لظهور أى منافس له فى صفوف الأمريكيين ، ولقد يصدق عليه قول الشاعر جراى : « ان المقرب لا صديق له » ، ولكن هذا لا يهمنى ، فها هو ذا يبدو أمام عينى نحيلا هزيلا واهنا ، ولكنه ينبض بالفهم العميق لمشاكلنا ، ومحور هذه المشكلات كما يتفهمها يتلخص فى أندحار هتلر وتدميره وذبحه فضلا عن عدد آخر من الأمانى والأهداف . ولا شك فى أن تاريخ أمريكا لم يعرف الكثيرين من طراز هذا الرجل النادر الفياض بالاخلاص .

وكان هارى هوبكنز يستشف دائما اعماق القضايا ، يصل الى جذورها ، وقد حضرت عددا من المؤتمرات التى كان يشهدها حوالى عشرين أو أكثر من الشخصيات الكبيرة صاحبة السلطة . وعندما تمتد المحادثات وتتهادى ، ويضل الكثيرون الى طريق الصواب ، كنت أجد هوبكنز يسأل الرئيس دائما بصراحة وعناد : « حسن يا سيدى الرئيس .. هذه هى المسألة التى تحتاج الى حلنا واقرارنا ، فهل نحن أولا على أهبة الاستعداد لمواجهتها ؟ » .

والنتيجة الضرورية لذلك هى مواجهة المشكلة ، ومعنى ذلك حلها والسيطرة عليها ، لقد كان قائدا عظيما للرجال ، ولم يكن أحد فى مقدوره التفوق على حماسته وحكمته حين الأزمات ، وكان ولاؤه للضعفاء والفقراء يسير جنبا الى جنب مع مقته الشديد للطغيان ، ولا سيما عندما يبدو هذا الطغيان فى موقف المنتصر .

واستمر الهجوم الجوى المدمر علينا بكل مناورته ، مع تغيير يسير ، فقد تأكد هتلر انه عاجز عن سحق بريطانيا بغاراته الجوية المباشرة ، وكان هذا الفشل هو الهزيمة الأولى التى ذاق مرارتها ولم تنجح هجماته الوحشية فى تحويل الشعب وحكومته الى موقف الخضوع ، وأخذ الأعداد لغزو روسيا فى مطالع صيف سنة ١٩٤١ يستأثر بالكثير من قوة المانيا الجوية ، ولم تكن الهجمات الكثيرة القاسية التى شنت علينا حتى أواخر شهر مايو تمثل كل ما لديه من قوات وبالرغم من أنها سببت لنا الكثير من المتاعب والمآسى فانها لم تكن على جانب كبير من اهتمام القيادة العليا الألمانية أو الفوهرر ، بل كان استمرارها على بريطانيا العظمى فى تقدير الفوهرر تمويها ضروريا ومناسبا ليخفى استعداده ضد روسيا .

وكانت آماله الواسعة تخيل اليه أن السوفييت كالفرنسيين سيتهاوون فى خلال ستة أسابيع ، وان كافة القوات الألمانية ستكون محتشدة لتوجيه ضربة قاضية لبريطانيا فى خريف ١٩٤١ ، وفى خلال ذلك سيسأم الشعب من عناده ، وتستنفد قواه ، بفضل حصار الغواصات والغارات الجوية البعيدة المدى أولا ، ثم من الهجمات الجوية على مدنه ومرافقه ثانيا ، وقد استبدلت عملية « أسد البحر » بالنسبة لبريطانيا ، بعملية « بربروسا » بالنسبة لروسيا ، وهذا بالنظر الى الجيش الألمانى . أما بالنظر الى الأسطول فقد تلقى تعليمات بأن يركز اهتمامه على طرق مواصلاتنا عبر الأطلنطى ، كما أمر السلاح الجوى بالتركيز على موانينا والمداخل الموصلة لها ، وكانت هذه الخطة أبعد ضررا من الهجمات المتفرقة العمياء على لندن وأهلها الآمنين ، ومن يمن الطالع بالنسبة لنا أن الألمان لم يستمروا فى تنفيذها بكل ما تبقى لديهم من قوات ، وبرغبات حازمة ، وأفسد سوء الأحوال الجوية فى شهرى يناير وفبراير خطط العدو واذا استثنينا الغارات التى شنها على كارديف وبورتسماوث وسوانس ، فان قوات دفاعنا المدنى قد وجدت الفرصة للراحة المناسبة ، ولكنها لم تضعها هباء بل استغلتها كاملة ، وعندما تحسنت الأحوال الجوية ، شن الهجوم القاسى ثانية ، وأخذ السلاح الجوى الألمانى فى شهر مارس فى تنفيذ ما عرف حينئذ « بالتجول على الموانىء » وكانت غاراته فردية أو مزدوجة ، ومع خطورتها الشديدة فقد فشلت فى ايقاف الحركة بموانئنا ، وتعرضت بورتسماوت فى ٨ مارس ، مدى ثلاث ليال متوالية لهجوم شديد الوطأة أنزل بأرصفتها خسائر فادحة ، وشن

هجوم على ما نشستر وسالفورم فى يوم ١١ وفيما تلا من الليالى حان دور ميرسى سايد ، وفى ١٣ ، ١٤ قامت الطائرات الألمانية بغارة شديدة على « كلايد » للمرة الأولى ، فقتلت وجــرحت ما يزيد على ألفى شخص . وظلت أحواض السفن متعطلة عن العمل حتى شهر يونيــو أو شهر نوفمبر ، ولم تنزل أقصى الضربات الا فى شــهر أبريل حيث كانت كوفنترى ، فى ٨ منه هدفا لنيران حامية ، أما فى سـائر الأيام فقد نزلت أفدح الخسائر ببورتســماوث ، وشنت على لنــدن هجمات قاسية فى ١٦ ، ١٧ فقتل أكثر من ألفين وثلثمائة انســان وأصيب ما يزيد عن ثلاثة آلاف بجراحات بالغة ، واستمر العــدو فى محاولته التدميرية لموانئنا الهامة بغارات قد تستمر فى بعض الأحيان اسـبوعا بأكمله ، وتهــدمت مدينة بريســتول ، واستمرت الغــارة على بلايموث بين ٢١ ، ٢٩ أبريل ، وبالرغم من أن الحرائق الخــادعة قد ساهمت فى انقاذ الأرصفة والأحواض الا أن انقاذ ذلك كان على حساب المدينــة وبلغ الهجــوم غايته فى أول مايو عنــدما أغير على ليفربول وميرسى سايد سبع ليال متواصلة ، فأصبح سبعة وستون ألف انســان بلا مأوى وقتل وجرح حوالى ثلاثة آلاف شخص ، وتعطل عن العمل تســعة وستون ملاذا من ملاذات البواخــر التى يبلغ مجموعها مائة وأربعا وأربعين ، وأصبحت الحمــولة التى يمكن تفريغهــا منخفضــة الى الربع ولو استمر العـــدو فى هجماته علينــا ، لغدت معركة الأطلنطى بالنسبة لنا شاقة للغاية ، ولكنه كان قد عاد أدراجه ، وقصف مدينة « هل » لمدة ليلتين متتاليتين بنيرانه الحامية وقد دمرت قنــابله المتفجــرة والحارقة مســاكن أربعين ألف مواطن ، ونسفت مخازن الأغــذية ، وأصابت الأعمال الهندسية البحرية بالشلل لمدة شهرين كاملين ، وفى هــذا الشهر أيضــا شن هجوما على « بلفاست » التى سبق له الهجــوم عليها مرتين قبل ذلك .

وكانت آخر الغارات أسوأ من سابقتها ، ففى ١٠ مايو عاد العدو الى لندن بقذائفه المحرقة التى أضرمت اكثر من الفى حريق ، ودمرت حوالى مائة وخمسين أنبوبا ضخما للمياه ، حدث ذلك اثناء المد الادنى لنهر التــايمز فصعب اصلاحها ، وفى الساعة السادسة من صباح اليوم التالى كانت نيران مئات الحرائق ما زالت متأججة وقد عز القضــاء عليها ، وحتى ليلة ١٣ كانت لا تزال اربع منها مشبوبة النيران ، وقد لحق الضرر بخمســة ارصفة وحدثت إحدى وسبعون اصابة كان عدد المصانع من بينها يبلغ النصف على الأقل ، وتعطلت لمدة اسابيع محطات

السكك الحديدية سوى محطة واحدة رئيسية ، وظلت الطرق فى حالة غير طبيعية حتى أوائل يونيو ، وسقط أكثر من ثلاثة آلاف شخص بين قتيل وجريح ، وتعتبر هذه الغـــارة من زاوية أخرى تاريخية ، فقـد نسفت مجلس العموم وأحدثت قنبلة واحدة أضرارا فادحة يحتـــاج اصلاحها الى عدد من السنين ، وحمدنا حسن الحظ لأن أحـــدا من اعضاء المجلس لم يكن بالقاعة ، واسقطت بطارياتنا وطائراتنا المحاربة بدورها ست عشرة طائرة مغيرة ، وهو أكبر عدد تكبده العدو أثنـــاء غاراته الليلية .

وكانت هذه الغارة ــ دون أن ندرك ذلك فى حينه ــ آخر غارات العدو علينا ، ففى ٢٢ مايو تحول كيسلرنغ بمقر قيادة أسطوله الجوى الى بوزن ، ولم تأت بداية شـــهر يونيو حتى كانت قوات العـــدو الجوية بأكملها قد تحولت الى الشرق ، فمرت ثلاث سنوات قبل أن يتحرك دفاعنا المدنى بتنظيماته ليعـــالج آثار « الهـجوم الصغير » الذى شن فى فبراير ١٩٤٤ ، وما تبعه من غارات شديدة الوطأة بالصواريخ والقذائف الطائرة، وكاد عدد ضحايانا من المدنيين فى الاثنى عشر شهرا المنصرمة بين يونيو سنة ١٩٤٠ ، ويونيو سنة ١٩٤١ ، يبلغ حوالى ٣٨١و٤٣ انســـانا قتلوا بينما أصيب بجراح خطرة حوالى ٨٥٦ر٥٠ آخرين ، ممـا يصل بالمجموع الى ٢٣٧و٩٤ شخصا .

ان التفريق بين الامور العسكرية والسـياسة يصـــبح متعذرا فى الحروب الكبيرة ، فكل المسائل فى القمة تصبح واحدة ، وطبيعى أن يعتبر الجنود الشئون العســكرية فريدة فى نوعهــا ومتفوقة فى أهميتها وأن ينظروا الى الاعتبارات السياسية نظرة استهزاء وزراية ، ولا ريب فى أن كلمة « سياسات » قد لاقت الكثير من الصعوبات ، بل صادفت التشويه لاقترانها بالسياسات الحزبية ، ولذلك فان معظم ما كتب عن هذا القرن الفياض بالمآسى تؤثر عليه الفكرة القائلة انه فى زمن الحرب تؤخذ بكل عنـاية الاعتبارات العسكرية وحدها ، وان الجنود كثيرا ما تصدم أفكارهم المستنيرة الحرفية تطاولات الساسة ، الذين يلعبون بنيران المعارك الفاصلة انسياقا لمصالحهم الشخصية والحزبية ، ولكن العلاقات الدائمة التى شملتها الثقة بينى وبين وزارة الحرب ورؤساء الأركان ، واختفاء كل أثر فى بريطانيا للحزبية فى تلك الأثناء ، قد قربت وجهات النظر وقللت من سبل الخلاف الى أدنى حدوده .

وبينما استمر القتال فى شمال أفريقيا الشرقى سائرا فى طريق النصر وبينما ظل اليونانيون يخترقون لهم طريقا داخل البانيا بكل شجاعة ، كانت الاخبار التى نستقيها عن تحركات الالمان ورغباتهم تؤكد يوما بعد يوم أن هتلر يقترب من التدخل فى البلقان والبحر الابيض على أوسع نطاق ، وقد علمت فى بداية شهر يناير أن وحدة جوية ألمانية قد نزلت بصقلية ، وأدركت ما تعنيه هذه التحركات من خطر على مالطة ، ومن تهديد للآمال التى راودتنا بشأن اعادة الملاحة فى البحر الابيض وأصبت بالزعر من جراء انتقال قوات ألمانية وغالبا ما تكون من المدرعات الى طرابلس ، ولم يكن فى مقدورنا أن نرتاب فى أن خطط الالمان كانت تسعى الى ايجاد ممر من الشمال الى الجنوب عبر ايطاليا الى أفريقيا كما تريد فى الوقت ذاته وبنفس الاساليب مصادرة تحركاتنا عبر البحر المتوسط شرقا وغربا .

وكان الخطر الذى يجابه الدول البلقانية ومن بينها اليونان وتركيا يتجسم أمام عينى فى صورة اغراء أو ارهاب لتنضم الى امبراطورية هتلر فان لم ترضخ لهذه الرغبة اجتاح حدودها ، وبذلك نشهد ثانية الحركة الخطيرة التى رأيناها فى النرويج والدانمرك وهولندة وبلجيكا وفرنسا ، تعاد مرة ثانية فى جنوب شرقى أوربا .

أحقا ... سيحكم على الدول البلقانية بالعبودية واحدة بعد أخرى ومن بينها اليونان المكافحة ثم تعزل تركيا حتى تضطر آخر الامر الى فتح أبوابها أمام الجيوش الالمانية الجرارة ، فتزحف على فلسطين ومصر والعراق وفارس ؟ .. ألا يوجد أمل فى تكتيل وحدة بلقانية وجبهة بلقانية ، تتقاضى حتى من العدو أفدح الاثمان عن هذا العدوان الجديد ، أليس فى الاحتمال أن تكون للمقارنة البلقانية لالمانيا ردود فعل بالغة الاثر توقظ الامل فى روسيا السوفييتية ، لا شك أن فى هذا الميدان تتأثر مصالح الدول البلقانية نفسها ، وقد تتأثر المشاعر أيضا اذا سمح البلقانيون لمشاعرهم أن تتأثر على حسابهم ، وهل نقدر بمواردنا المستنزفة والمتزايدة فى الوقت نفسه أن نعثر على المشاركة الخارجية الاضافية التى تسعى لتوحيد هذه الدول المتماثلة للعمل من أجل هدف واحد أو أن الواجب علينا من ناحية أخرى أن نركز اهتمامنا على أمورنا ، وأن نحرز نصرا من حملتنا فى شمال شرق أفريقيا ، وأن ندع اليونان والبلقان وتركيا وغير ذلك من بلاد الشرق الاوسط تنزلق نحو هاويتها المنتظرة ؟ لا شك فى أن هذا الرأى الاخير يعفى الكثيرين من المتاعب والتفكير . وقد لقى معضدين له فى رسائل كل الضباط الذين كانوا يحتلون مراكز ثانوية ، والذين

بعثوا بآرائهم ، ولا شك فى أن هؤلاء الضباط قد انتهزوا فرصة الحديث عما حل بنا من أضرار ، ولـكن معلوماتهم لم تكن كافية ليعرفوا المصير الذى كان ينتظرنا لو سرنا وفق وجهة النظر هذه ولو استطاع هتلر دون قتال أن يجبر اليونان على الخضوع وأن يرغم جميع الدول البلقانية على طاعته ، وأن يفرض على تركيا عبور قواته الى الجنوب والشمال ، ألا نتوقع حينئذ أن يتفاهم مع السوفيت على السيطرة على هذه المنـــاطق الشاسعة وتقسيمها ، ثم يقوم بتأجيل موقعته الفاصلة معهم الى أجل آخر فى حسابه؟ ثم ألم يكن فى مقدوره إذا دانت له كل هذه الرغبات أن يشن هجومه على روسيا بجيوش أكبر وفى ميعاد أسبق ؟ وفى الفصول التـــالية سأحاول التعمق فى بحث سؤال رئيسى وعرضه فى صورة سليمة ، ويتلخص هذا السؤال فيما اذا كان ما نفذته الحكومة البريطانية بالغ الاثر بصور واضحه على تصرفات هتلر فى جنوب شرق أوربا ، وأنه أدى الى نتائج بعيدة المدى فى نظرة روسيا للامور أولا ، وفى مصيرها ثانيا ٠؟ وطوال شهرى يناير وفبراير كانت تصلنا أخبار طيبة من ميدان الشرق الاوسط فقد أعد الدفاع عن مالطة فاستطاعت الصمود فى آخر لحظة ، لغارة مجتاحة قام بها السلاح الجوى الالمـــانى عليهـــا من صقلية ، واقتربت عملية احتلال الامبراطورية الايطالية فى الاريتريا والصومال والحبشة من نهايتها المنتصرة ، وفى خلال شهرين استطاع جيش الصحراء أن يستمر فى زحفه الى مسافة خمسمائة ميل وأن يقضى على جيش ايطالى يربو تعداده على تسع فرق ، وسيطر جيش الصحراء على بنغازى ومنطقة برقة بأكملها ٠٠

وبالرغم من كل هذا فقد ظلت المسائل المحفوفة بالخطر من دبلوماسية وعسكرية بالغة الاهمية وكان الجنرال ويفل تتراكم عليه التبعات مما حدا بلجنة الدفاع أن توفد فى ١١ فبراير وزير الخارجية والجنرال ديل رئيس أركان حرب الامبراطورية الى القاهرة ، وطار ايدن من القـاهرة الى أثينا يرافقه ويفل وغيره من الضباط الكبار لاجراء مشاورات مع ملك اليونان وحكومته ٠

وقرأ المسيو كوريسيس رئيس وزراء اليونان أثنـاء الاجتماع بيانا تضمن قرارات كان قد انتهى اليها مجلس وزراء اليونان فى اجتماع عقده فى اليومين السابقين ، ولأن هذا البيان قد أصبح قاعدة لأعمالنا فانى أورد القسم الحيوى منه هنا تاما ! أود أن أؤكد ثانية أن اليونان كحليفة تضمن قرارات كان قد انتهى اليها مجلس وزراء اليـــونان فى اجتماع عقده فى اليومين السابقين ، ولأن هـــذا البيان قد أصبح قاعدة لأعمالنا مخلصة ستظل ماضية فى القتال باصرار حتى يتحقق النصر ، ولا تقتصر عزيمتها

على مناهضة ايطاليا وحدها بل يشمل ذلك أى عدوان ألمانى .. وأيا كان الأمر وسواء كان لليونان نصيب فى صد الهجوم عن مقدونيا أم لم يكن فانها ستظل مدافعة عن أراضيها حتى ولو اضطرت الى الاعتماد على قوتها وحدها دون عون آخر وقد أبانت الحكومة اليونانية أنها صممت على هذا القرار قبل أن تتأكد من مقدرتنا على مساعدتها أم عدم استطاعتنا ذلك .
فأكد المستر ايدن لهم أن عزم لندن قد انعقـد مع كل قادتها فى الشرق الأوسط على بذل كل عون لمؤازرة اليونان ، واستمرت المؤتمرات العسكرية ومحـادثات الاركان طوال الليلة ، وفى ثانى يوم أرسل الينا ايدن فى ٢٤ فبراير ببرقية بالغة الاهمية هذا نصها :

[« لقد هزتنا صراحة المفاوضين اليونانيين ووضوح آرائهم فى سائر الشئون التى أتممنا بحثها وانى على يقين من اصرارهم على المقاومة لآخر جهد فى طاقتهم ، وليس أمام حكومة صاحب الجلالة سوى أن تؤازرهم بصرف النظر عن كل النتائج ، ونحن على يقين تام بأننا قد آثرنا السبيل السوى ، ولما كانت الساعة قد أعلنت الحادية عشرة فانى متأكد أنك لا ترغب فى الاطالة مؤجلا التفاصيل حتى ألتقى بكم ، ان المغامرة ضخمة ، ولكن الامل فى النجاح كبير »]

وعلى هدى من هذه المكاتبات التى حملت موافقة كل من ديل وويفل أصدرت وزارة الحرب تأييدها للاقتراحات تأييدا كاملا .

سافر المستر ايدن بعد ذلك الى أنقره ، حيث قام بمشاورات طويلة مع الاتراك ، ولم يصل الى نتـائج مشجعة ، فالاتراك يدركون الصعوبات التى تواجههم كما ندركها نحن ولكنهم يقررون أن ليس فى وسعنا تقديم قوات بالقدر الكافى لتغيير نتيـجة أى معركة فاصلة ولأنه لا توجد لديهم أية قوة هجومية فقـد رأوا أن ما يستطيعون أن يقوموا به هو أن تلتزم بلادهم بموقف الحياد الى أن يستكملوا جوانب النقص التى يحسون بها ، والى أن تصير قواتهم على درجة كافية من التأثير والفعالية ، أما اذا شن عليها هجوم فانها ستخوض غمار الحرب بكل تأكيد ، وقد أدركت كاملا الموقف الذى تواجهه تركيا ، وبدأ من الصعب عليها أن تلتزم بالمعـاهدة التى أبرمت معها قبل الحرب لتغير الظروف وعندما بدأت الحرب فى عام ١٩٣٩ ، واستعد جيش تركيا الباسل ولكن هذا الجيش يعتمد على وسائل الحـرب العالمية الأولى والمشاة الاتراك من أفضل الجنـود ومدفعيته مقبولة ولا غبار عليها ، ولكنهم يفتقرون الى الاسلحة الحديثة التى أكدت منذ مايو

١٩٤٠ أنها فاصلة فى الحرب الدائرة كما أن الطيران التركى كان فى صورة بدائية هزيلة الى درجة تستدعى الرثاء وليس فى حوزتهم أيضا دبابات أو سيارات مدرعة ، كما لا توجد عندهم المصانع التى تنتجها أو تشرف على صيانتها وليس فى حوزتهم أية مدافع مضادة للطـائرات أو الدبابات أما سلاح الاشارة فساذج ، والرادار شيء لا ندرى به ، كما أن جنودها ليس لديهم التأهيل الكافى لادراك هذه التطورات الحديثة ·

أما بلغاريا فقد قامت المانيا بتسليحها بكميات ضخمة من العتاد من شتى الانواع التى غنمتها من فرنسا والبـلاد المنخفضة بعد معارك سنة ١٩٤٠ وبهذا أمكن لألمانيا أن تجد فائضا من العتاد تسلح به حلفاءها ، أما نحن فقد خسرنا كثيرا فى دنكرك وكان علينا أن ندعم قواتنـا لنصد أى هجوم على الوطن ونجابه أقسى الغارات على مدننا فى الوقت الذى نواصل فيه القتال فى الشرق الاوسط ، ولهذا لم يكن فى مقدورنا أن نبذل الكثير ولا أن نضحى بما يلزمنا ·

وهكذا نرى أن الجيش التركى فى تراقيا ، سيكون بالنظر الى هـذه الظروف فى حالة سـيئة وربما يائسـة تجـاه الجيش البلغارى ، فاذا ضاعف هذا الخطر أسراب من سـلاح الجو الألمانى ووحدات من السلاح المدرع فان مهام تركيا ستصبح فوق المستطاع .

وفى هذه المرحلة المهددة بخطر إمتداد الحرب كان الأمل الوحيد هو خلق كتلة واحدة تضم جيوش يوغوسلافيا واليونان وتركيا وكان هذا ما نسعى الى تحقيقه وتمثل عوننا لليونان فى ارسال ، بعض الأسراب الجوية من مصر عنـدما بدأ موسولينى زحفه عليهـا واقتصرت المرحـلة التالية على تقـديم عرض بارسال وحـدات فنية وقد رفضه اليونانيون ، الأسباب أحسبها معقولة جدا ، وها نحن أولاء نقدم على المرحلة الثانية حيث رأينا أن فى وسعنا حشد جيش صحراوى قوى فى بنغازى وفيما وراءها ، لتوفر الجزء الأعظم من قوات المناورة والاحتياط الاستراتيجى لمصر .

وكنا الى ذلك الوقت لم نقدم على أية خطوة سوى تركيز معظم الاحتياطى الاستراتيجى من قواتنا فى الدلتا ، ورسم الخطط والاستعداد اللاحى لارسال قوات الى اليونان ، واذا تغيرت الظروف بحدوث تغير فى وجهة النظر اليونانية أو لأى أسباب اخرى فسنقدر على مواجهـة الوضع ومقابلة الطوارىء ، وكان من المحتم علينا بعد كل الذى لقيناه

من ضغط شديد أن نستطيع انهاء القتال بنجاح فى الحبشة والصومال والاريتريا ، وأن نضم عددا من الفرق الى قواتنا المرابطة فى مصر وفى الوقت الذى صعب فيه معرفة نوايا العدو أو مدى ردود الفعل ونوعها عند الأصدقاء والمحايدين : اتسع مجال الاختيار أمامنا وظل المستقبل بالنسبة الينا فى غاية الغموض ، ولكننا لم نبعث بقواتنا بعد ولم نضيع أى يوم فى الاعداد .

معركة الأطلنطى

الشىء الذى أثارنى حقــا فى غضـــون الحرب كان هو تهـــديد الغواصات فقد كنت متأكدا من فشل الغزو ، وقد مهدت ليقينى هذا نتائج المعركة الجوية فقد أحرزنا النصر الجوى ، وبذلك أصبح الغزو شيئا طيبا بالنسبة لنا ، حيث يخوض الانسان معـاركه برضى بغض النظر عن شناعة الحرب وقسوة ظروفها ، ونحن الآن نواجه خطـرا شديدا اذ إن شريان حياتنا حتى فى غمار المحيطات وخصوصا فى مداخل جزرنا يهدد باستمرار وكان القلق ينتابنى من جراء هذه المعركة أكثر مما لقيته وأشد حين خضنا غمار المعركة الجوية المجيدة فى ســماء بريطانيـــا .

واستولى هذا القلق ايضا على الأميرالية الذين كنت دائما معهم فى ود وتفاهم مستمرين ، وكان يتحتم علينا حماية شواطئنا من أى غزو واستمرار خطوط مواصلاتنا مع العالم الخارجى حرة دائمة ، وكان هذا العمل واجبا مقدسا يقتنع به أسـطولنا ويحرص عليه ، وهكذا كنا دائمى التفكير والبحث فى هذه الأزمة ، وليست هذه المعركة قتالا عنيفـا أو أعمالا خلابة ولكنها عبـارة عن أرقام ومخططات ورسوم بيانية لا يستطيع الشعب ولا الجماهير معرفتها ولا تفهمها .

فالى أى مدى تستطيع أن تصيب به حرب الغواصات وارادتنا وملاحتنا وهل فى وسعها أن تصـــل الى حد القضاء على مقومات حياتنا وهنا لا يتسع المجال للحـــدس ولا للعواطف ولكنه يقتضى التخطيط الهادىء الدقيق ورســم الخرائط التى توضح احتمالات خنق حياتنا ، فاذا ما عقدنا مقارنة بين نتائج هذه الحرب ونتائج الحروب الأخرى ظهر لنا أن لا قيمة للجيوش الباسلة المستعدة للوثب على الغزاة ، ولا لما أعد من خطط جيدة لمعركة الصحراء ، كما أن لا جدوى من الروح المعنوية العالية التى يتحلى بها شعب فى مثل هذا الخضم المظلم ، وليس لنا أن

نختار فاما أن نحصل على الغـذاء والمؤن والسلاح من العالم الجـديد ومن الامبراطورية واما أن نحصـــل على شيء من ذلك ، أما الألمان فبعد أن استطاعوا السيطرة على سواحل فرنسا من دنكرك الى بوردو لم يضيعوا وقتهم عبثا ، بل سارعوا الى اقامة قواعد لغواصاتهم والطـائرات المقاتلة على مدى الساحل المحتل ، وبعد شهر يوليو اضطررنا الى تحويل ملاحتنا من مداخل ايرلنده الجنوبية حيث لم نستطع حشد طائرات مقاتلة ؛ وفرض علينا أن تدور كل سفننا حول ايرلنده الشمالية ، وقد ظلت الستر هنا صامدة بعون الله ، كحارس لا ينام ، فميرس وكلايد هما رئتان بدونهما لا نســتطيع استنشاق الهـواء ، واســتمرت البواخر الصغيرة تمر قرب الشاطىء الشرقي وشواطىء القناة على الرغم من تهديد الغارات الجوية ، وهجمات زوارق الطوربيد الألمانى ، فضلا عن الألغام المبثوثة فى كل مكان ولكن مرور كل قافلة بين فيرث اوف فورت ولندن وحده قد أصبح عملية يومية فى غاية الصعوبة ٠

وأصبحت الأضرار التى لحقت بملاحتنا التجـــارية فادحة ، فى مدة الاثنى عشر شهرا من يوليو ١٩٤٠ الى يوليو ١٩٤١ ، وهو التاريخ الذى كنا نستطيع أن نؤكد فيه أنباء انتصارنا فى معركة الاطلنطى وكان أشد الاسابيع علينا منذ نشب القتال هو الاسبوع الذى ينتهى بيوم ٢٢سبتمبر سنة ١٩٤٠ وفى خلاله منينا بغرق حمولة أكثر من أية حمولة خسرناها فى ظروف مشابهة من عام ١٩١٧ وتزايد الضغط علينا باستمرار ، بينما الخســائر كانت تربو على أعـداد البواخر الجـديدة التى نسرع فى بنائها بصورة مذهلة ، أما موارد الولايات المتحدة الهائلة فقد كانت تقترب من ميدان العمل ببطء وعلى هوادة ، ولم يكن احتمالنا أن نرث فجأة عددا من الســفن كتلك التى غنمناها بعـد استســلام النرويج والدانمارك والبلاد المنخفضة فى ربيع سنة ١٩٤٠ ، فقد فقدنا سبعا وعشرين باخرة أغلبها كان فى قافلة محروسة ، ثم منينا بقافلة أخرى فى شهر أكتوبر بالأطلنطى، غرقت منها اثنتان وعشرون من بواخرنا التى يبلغ مجموعها أربعا وثلاثين، ومع مرور أيام شـــهرى نوفمبر وديسمبر بدأت مداخل ومصبات الانهر كالميرس وكلايد تمثل خطرا أشـــد من أية عوامل أخرى فى الحـرب ، وكنا نستطيع آنذاك أن ننزل على أيرلنده ديفاليرا وأن نعيد الينا بالقوة السيطرة على الموانىء الجنوبية ٠ ولكننى أعلنت سابقا أننى لن أتخذ خطوة كهذه الا دفاعا عن النفس ، وعلى أية حال لم تكن مثل هذه الخطوة الجريئة العنيفة لتخفف شيئا من حدة الموقف وقسوته ، وكان الاجراء الوحيد هو أن نضمن حرية الدخول والخروج من نهرى الميرس والكلايد واليهما ، وكانت القلة

العارفة بحقيقة الموقف عندما تجتمع فى كل يوم ينظر كل منهم الى الآخر. وفى استطاعة الانسان أن يدرك حالة الغواص تحت سطح البـــحر وهو يعتمد من دقيقة الى الاخرى على الأنبوبة الهوائية الممتدة للخارج ، ومدى شعوره حين يرى مجموعة من كلاب البـحر · تحـــاول أن تمزق له هذه الأنبوبة ، بالاضافة الى أنه لا يجد فرصة للوصول الى السطح لأن الواقع أن ليس هناك سطح بالنسبة الينا ، ولم يكن الغواص سوى ستة وأربعين مليونا من البشر فى جزيرة غاصة بالسكان، يستمرون فى عمل كبير وشاق هو الحرب فى شتى أنحاء العالم ، وقد استقر هذا الغواص بحكم الطبيعة والجاذبية فى قاع البحر ، وماذا يمكن لكلاب البـــحر أن تصنعه بأنبوبة هوائه وكيف يستطيع اقصاءها عنه أو تحطيمها ؟..

وثمة جانب آخر لحرب الغواصات ، فقد كانت الامبرالية فى بداية الامور تركز اهتمامها قبل كل شىء فى ايصـــال البواخر سليمة الى الميناء ويحدد نجاحها قلة عدد البواخر الغارقة ، ولكن هذه التجربة لم تعد الآن ملائمة ، فقد أصبحنا نعرف أن حياة هذه البلاد وجهودها الحربية يركزان بصورة ثنائية على حمولة الواردات التى يتم انزالها على الميناء فى سلام. ففى الأسبوع الذى انتهى بيوم ٨ يونيو أى فى غمار معركة فرنسا وقصة انقاذها ، استطعنا أن نوصل للبلاد حمولة مليون وربع مليون طن فضلا عما نستورده من الزيت ، وقد تدرجت الارقام فى الهبوط من هذه الذروة حتى نهاية يوليو الى أقل من ثلاثة أرباع المليون طن كل أسبوع وفضلا عما أصابنا من تحسن فى شهر أغسطس فقد كان المعدل الاسبوعى لايزال فى هبوطه ولم يتعد طيلة الشهور الثلاثة الأخيرة من العام ثمانمائة ألف طن فى الأسبوع ، وأصابنى هـذا الهبوط المشئوم فى الواردات بقلق شديد وأرسلت الى لورد البحر الأول فى منتصف شهر فبراير سنة ١٩٤١ رسالة بخط يدى أقول فيها « إن الأرقام تشير إلى أن وصول البواخر المحملة فى شهر يناير كان أقل من نصف ما وصل الينا فى مثل هذا الشهر من السنة الماضية » .

ونظرا لوسائل التأمين الكثيرة وتقدمها ، وتسيير السفن ، وتحويل الطرق البحرية ومحاولات تطهير البحر من الالغام المبثوثة ، وعدم ابحارنا فى المتوسط ، وامتداد طرق مواصلاتنا فى الزمن والمسافة ، والتخلف فى الموانىء نتيجة للغارات الجوية وعمليات التعتيم ، كل ذلك أدى الى هبوط انتاج حركتنا الملاحية الى حد مزعج تفــوق خطورته كل ما أصبنا به من أضرار ، وازدحمت موانينا يوما بعد يـــوم بالبواخر التى يتـــأخر تفريغ

شحناتها ولم يأت شهر مارس حتى غدت البواخر المصـــابة تبلغ حمولتها حوالى مليونين وستمائة ألف طن ، لا يستطيع أكثر من نصفها مبـــاشرة العمل لما يلزمها من استصلاحات ٠

وفوق خطر الغواصـــات دهمنـا خطـر آخـر تمثـل فى الطائرات التى تذهب الى أعماق المحيط تبـحث عما تفترسه من البواخر ، وكانت الفوكاوولف ٢٠٠ « المعروفة باسم كوندور » هى أشد هذه الطائرات خطورة وان كان عددها قليلا من بداية الأمر لحسن حظنا وفى مستطاع هذه الطائرات أن تقلع من بريست أو بوردو لتقـوم بجولة على شواطىء الجزر البريطانية ثم تتزود ثانية بالوقود من النرويج لتئوب فى اليـــوم التالى الى مقرها الأول ، وفى وسع هذه الطـائرات فى الذهاب والعودة أن تبصر قوافلنا الكبيرة تحتها المكونة من أربعين أو خمســـين باخرة ، أرغمنا على تسييرها فى قافلة واحدة بالنظر الى قلة ما نجده من وحدات الحماية ، وهى تقوم برحلاتها من الجزر البريطانية واليها داخلة وخارجة، وفى مقدور هذه الطائرات أن تسقط على هذه القوافل أو البواخر المنفردة قذائف ماحقة وأن ترسل فى ذات الوقت اشارات لاسلكية للغواصـــات المتحفزة لتوجهها الى قطع الطريق عليها ٠

ودب النشـاط فى الطرادات الالمانية العنيفة ، فالأميرال شير تعمل الآن فى جنوب الأطلنطى متوجهة الى المحيط الهندى ، وقد اســـتطاعت خلال ثلاثة أشهر اغراق عشر بواخر تبلغ حمولتهـــا ستين ألف طن ثم تمكنت من الافلات والرجوع الى المانيا ، وكانت « هيبر » لاجئة فى ميناء بريست ، وفى نهاية شـــهر ينـــاير تلقت البـــارجتان ــ الطرادتان شارنهورست وغنيزناد ــ بعد أن تم قبل قليل اصلاحهما لحق بهما من تعطيل فى معركة النرويج ، تلقتا أمرا بالمسير الى شمال الأطلنطى ، بينما تقوم « هيبر » بالاغارة على الطريق البحرى الممتد الى سيراليون واستطاعت الطرادتان خلال شهرين اغراق أو أسر اثنتين وعشرين باخرة تبلغ حمولتها مائة وخمسة عشر ألف طن ، أما « هيبر » فقد أغارت على قافلة فى طريقها الى الوطن بالقرب من جزر الأزور ، ولم تكن لحقت بهـا وحدات للحماية بعد ، واستطاعت فى اغارتها الوحشية التى استمرت زهاء ساعة كاملة اغراق سبع بواخر من تسع عشرة باخرة تألفت منهـــا القافلة دون أن تحاول قط انقاذ الناجين من البحر ، ثم أتت سالمة بعد يومين الى بريست، وقد اضطرتنا هـذه الطرادات المفزعة الى أن نحشد كل ما لدينا من بوارج

حربية ضخمة فى تأمين القوافل ، وقد مضى وقت ولم يكن فى قاعدة القائد العام لاسطولنا غير بارجة وحيدة ٠

ولم تكن بسمارك قد انضمت الى البواخر المستخدمة بعد ، ولا شك فى أن الأميرالية الالمانية كانت ترقب اتمامهـــا بصبر نافد ، واكمال قرينتها تيربيتز ، ولم يكن هناك سبيل يمكن لهتلر أن يســـتخدم فيه بارجتيه الهائلتين بطريقة أكثر فائدة وجدوى من وجودهما على أهبـــة الاستعداد دائما فى الاطلنطى ، واشاعة الامتناع عن خروجهما المحتمل من وقت لآخر وكان مثل هذا العمل سيفرض علينا أن نركز قواتنا بقدر المستطاع فى سكابافلو أو ضواحيها ، لنكون كفءا لاستعداده ، بينما يظل هو حرا تماما فى اختيار وقت العمل ، ولاضطرار البوارج لأن تذهب الى قواعدها بين الحين والحين بسبب احتيـــاجها الى بعض الترميمـــات والاصلاحات فقد كان يتعذر علينا دائما الاحتفاظ بمستوى من التفوق والكفاءة ، فأى خطر مفاجىء كان كافيا لتدمير هذه الكفاءة ٠

وظللت أفكر ليل نهار فى هذه المشكلة المرعبة ، وتجمع أملى فى نصر مؤكد ، فى قدرتنـــا على اثارة حرب طويلة الآن الى أن يأتى اليوم الذى نملك فيه التفوق الجوى ، وتقف دول كبيرة ـ كما هو المحتمل ـ الى جانبنا ، ولكن هذا الخطر الذى كان يقف بالمرصاد لأسباب حياتنا كان يفعمنى ألما ، وفى بداية شهر مارس نقل الاميرال باوند الى وزارة الحرب أخبارا عن ابتــلاع البـــحر لمجموعة أخرى من البواخر ، واستمعت الى الأرقام ، ثم قلت لباوند بعد هذا الاجتماع الذى تم فى غرفتى بمجلس العموم : (علينا أن نضع هذه المشكلة فى اعتبارنا وأن نهتم قبل أى شىء آخر ، وسأعلن بداية حرب الأطلنطى) واشبه هذا الاعـــلان باعلان السابق عن معركة بريطانيا منذ تسعة أشـــهر ، ويعنى ذلك الايعاز الى كافة الدوائر والوزارات المختصة بتركيز اهتمامها وجهودها على حرب الغواصات ٠

وانشأت (لجنة معركة الاطلنطى) لرغبتى فى متابعة هذه المشكلة واعطائها مزيدا من العناية والاهتمام ، ولأستطيع باستخدامها توجيـــه التعليمات الضرورية لازالة المصاعب والعقبات وفرض العمل على معظم الدوائر والفروع المختصة ، وبدأت هذه اللجنة فى اجتماعات أســبوعية يشترك فيها كل الوزراء المنفـذين المعنيـين من عســـكريين ومدنيين ٠ ويمتد الاجتماع الأسبوعى الى ساعتين ونصف تقريبا ، نستعرض خلاله كل أمر ، ونبحث فى كل موضوع ، بل نقتل المشكلة بحثا وتمحيصا ،

لننتهى الى قرارات واضحة ، وهكذا وجدت هذه اللجنة الجديدة التى كوناها من الدوائر الواسعة لقيادتنا الحربية التى تضم الألوف من الرجال ذوى الخبرة والولاء ، والتفت حول هذه اللجنة مئات العيون الفاحصة القلقة .

وفى هذه الآونة أخذت الغواصات تستخدم طرقا جديدة أصبحت تعرف بأسلوب (جماعات الذئاب) ويعنى هذا الأسلوب أن تشترك مجموعة من الغواصات فى عمل واحد ، وأن تنقض على الفريسة دفعة واحدة من جوانب مختلفة ، وكانت هذه الهجمات آنذاك تشن ليلا ، وعلى سطح البحر ، وفى غاية السرعة ، وكان فى مقدرة المدمرات وحدها أن تلحق بهذه الغواصات بينما لم تكن أجهزة المكافحة ذات جدوى ، وكان الحل يتمثل فى زيادة عدد الحارسات السريعة كالغواصات ، وفى تحسين الرادار بصورة جوهرية ، بحيث تقدر شاشته على انذارنا باقتراب الغواصات قبل وصولها وأخذ العلماء والبحارة والطيارون يبذلون كل ما فى استطاعتهم ، وبرغم ذلك كانت النتائج تمشى على مهل ، وكنا فى احتياج الى سلاح جوى ينسف الغواصات العائمة ، والى وقت ندرب خلاله قواتنا على ذلك ، فاذا ما توصلنا الى سد هذين الاحتياجين فان الغواصات ستمضى الى الاعماق كوضعها المعتاد ، ويصبح فى مقدورنا معالجة ذلك بوسائلنا القديمة وخبراتنا التى مهدنا عليها ، لكن هذا لم يتحقق الا بعد مرور عامين .

وفى خلال ذلك كان برايان المعروف وسواه من قادة الغواصات الالمانية يستخدمون فى اندفاع أسلوب (جماعات الذئاب) الذى انتجه الاميرال دونتس قائد سلاح الغواصات ، وقبطان الغواصات الذائع الصيت فى الحرب العالمية الأولى ، ولكن عدالة القصاص لم تمهلهم فقد غرق برايان مع جميع رجاله على ظهر غواصته (يد ٤٧) فى ٨ مارس بواسطة المدمرة وولفيرين ، وما مرت تسعة أيام حتى نزل الغرق بالغواصتين (يو ٩٩ ويو ١٠٠) فى قتال اشتد أواره عقب مهاجمتهما لاحدى القوافل ، وكان قائداهما من ألمع الضباط البحريين ، فأدى فقدان هؤلاء الثلاثة الممتازين الى ضعف هجوم الغواصات ، وكان القادة الذين تبعوهم الى العالم الثانى من طراز كفاءة وشجاعة ، ففى شهر مارس غرقت خمس غواصات فى المداخل الغربية وبرغم أن هجوم الغواصات قد ألحق بنا أضرارا بالغة ، تمثلت فى (٢٤٣) ألف طن ، غير (١١٣) ألف طن تكبدناها على أيدى

الطائرات ، فان الجولة من معركة الاطلنطى قد انتهت بنتيجه متعادلة بيننا وبين العدو .

ولما رأت الغواصات خسائرها الفادحة فى المداخل الغربية ، اتجهت الى الغرب أى الى المياه التى لا يمكن للمدمرات الكثيرة أن تصــل اليها بالنظر الى حرماننا من موانىء ايرلنـدة الجنــوبية ، والتى لا نقدر على حمايتها جويا بالنظر الى بعدها ، ولم يكن فى مقدور مدمراتنا أن تحرس قوافلنا المقلعة من المملكة المتحدة فى طريقها الى هاليفاكس غير مســافة ربع الطريق فقط ، وفى بداية شهر أبريل أغارت ارتال من الغواصات بطريقة (جماعات الذئاب) على قافلة بريطانية عند خط الطول ٢٨ درجة، غربا ، قبل أن تلحق بها الوحدات المدافعة عنهــا ، وقد غرقت عشر بواخر من اثنتين وعشرين مقابل غواصة واحدة ، واضطررنا الى أن نبحث عن وسائل كافية لحمايتنا ، والا فان نهايتنا ستكون قريبة .

وتقــع جزر نيوفوندلند وغرينلند وايسلنده بين كنـدا وبريطانيا العظمى ، وهذه الجزر جميعها تقع بالقرب من جناح الدائرة الكبرى بين هاليفاكس وسكوتلندا ، وفى إستطاعة قوات تكمن فى (نقطة الوثب) هــذه أن تســيطر على الطريق كله بعد توزيعه الى قطـاعات ، وكانت غرينلند لا يوجد بها أى مورد ، أما الجزيرتان الاخريان فالافادة منهمــا مستطاعة ، وكان من الاقوال الشائعة « ان من يسيطر على ايسلنده وبيده مسدس يمكنه أن يسدده فى ثقــة الى انجلترا وأمريكا وكندا » وكانت هذه الفكرة هى التى دفعتنا الى احتلال الجزيرة بعد موافقة الأهالى عندما احتل الالمان الدانيمرك فى عام ١٩٤٠ واقمنا فيها قواعد فى ابريل عام ١٩٤١ لفرق حراستنا البحرية وطائراتنا وبهذه الطريقة امتد اتســاع حراستنا السطحية الى خط الطول (٣٥) درجة غربا ، وبالرغم من ذلك فقد بقيت هنــاك ثغرة مروعة فى الغرب ، لم يكن فى مقدورنا آنذاك ســدها ، وفى شــهر مايو أغير على قافلة آتية من هاليفــاكس عند خط الطول (٤١ غربا) وخسرنا تسع بواخر ، قبل أن تلحق النجـدة بالقافلة .

وبدا من المحتم علينــا فرض الحماية من الطرف الى الطرف أى من كندا الى بريطانيا ولهذا طلبت الامبرالية فى ٢٣ مايو من حكومتى كندا ونيوفولاند اعداد مينــاء سنت جون فى نيوفوندلاند كقاعدة أماميــة لوحدات الحراســة المشتركة ، وكانت الاســتجابة سريعة ، فلم تأت نهاية الشهر حتى تحققت الحراسة الدائمة على طول الطريق ، ومنذ ذلك

الوقت تعهد الاسطول الملكي الكندى بأن يقوم بحماية القوافل فى القطاع الغربى من طريق المحيط ، بامكانياته وحدها وكان فى استطاعتنا أن نضمن من ايسلنده ومن بريطانيا العظمى حماية كافية على باقى الطريق ومع ذلك فقد ظلت القوات التى لدينا قليلة الى درجة مزعجة واستمرت خسائرنا فى التزايد ، وقد استطاعت الغواصات وحدها فى الاشهر الثلاثة المنتهية بآخر مايو اغراق ١٤٢ باخرة تبلغ حمولتها ٨١٨ر٠٠٠ طن منها ٩٩ باخرة بريطانية .

وفى غمار هذا التوتر الشديد ، قام الرئيس روزفلت ، بمقتضى السلطات التى خولها له الدستور الامريكى ، ولأنه القائد الاعلى للقوات المسلحة . بمد يد المعونة العسكرية لنا ـ فقد أصدر أمرا بعدم السماح للغواصات الالمانية والسفن الاخرى المهاجمة بأن تقترب من الساحل الامريكى ، وأن يضمن له وصول الذخائر التى كان يرسلها الى بريطانيا سالمة حتى منتصف الطريق على الأقل ، وتمخض عن الخطط التى كانت قد أعدت منذ زمن طويل مشروع يقتضى بأن تتضامن الدولتان الناطقتان بالانجليزية فى حماية المحيط الاطلنطى ، ولاقناعنا بوجوب اقامة قاعدة لنا فى ايسلندة ، فقد بادر الرئيس روزفلت الى اتخاذ الخطوات اللازمة لاقامة قاعدة جوية أمريكية فى جرينلند ، وكان من المسلم به ان الألمان أنشئوا محطات لرصد الاحوال الجوية على الشاطىء الشرقى من الجزيرة فى مواجهة ايسلنده ، ولهذا أتى عمل الرئيس فى وقته المناسب وأصدر الرئيس أوامره الاخرى التى تقضى بأن تتوجه السفن المصابة فى معارك البحر المتوسط أو غيره من البحار لاجراء عمليات اصلاحها فى الأحواض الامريكية ، مما يسر الكثير من العبء الملقى على أحواضنا .

وفى مطلع شهر أبريل وصلتنا أنباء رائعة ، فقد تلقيت برقية من الرئيس فى ١١ آبريل يخبرنى فيها أن أمريكا قد قررت توسيع دائرة أمنها التى تجوب فيها دورياتها ، وهو الاجراء الذى اتخذته منذ أن نشبت الحرب ، الى خطر يمر بكل مناطق شمال الاطلنطى الواقعة الى الغرب من خط الطول ٢٦ درجة غربا ، وتحقيقا لهذه الغاية فهو يقترح ، أن تستخدم الطائرات والقطع البحرية العاملة من غرينلند ونيوفوندلند ونوفاسكوشيا والولايات المتحدة وبرمودا وجزر الهند الغربية مع توقع امتداد ذلك الى البرازيل ، وحثنا على أن تصله تحركات قوافلنا فى طريقة غاية فى السرية (لنتمكن بمجموعات دورياتنا من التنقيب عن سفن الاعداء أو طائراتهم التى تعمل الى الغرب من خط منطقة الأمن المذكورة) . ومن جهة

أخرى سيسرع الأمريكيون في الاعلام بالمناطق التى تحدد دورياتهم وجود السفن أو الطائرات المعادية فيها ، وقد أرسلت هذه البرقية مباشرة الى الاميرالية وأنا أشعر بارتياح بالغ .

وأعلنت حكومة أمريكا فى ١٨ أبريل خط الحدود الجديد الذى يفصل بين نصف الكرة الارضية الغربى ونصفها الشرقى وهو الذى أشار اليه الرئيس فى برقيته السابقة ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح هذا الخط هو الحدود البحرية لأمريكا ، وقد شملت الممتلكات البريطانية التى تقع فى القارة الامريكية أو بالقرب منهـا ، وغرينلند وجزر الأزور ثم شملت بعد قليل ايسلنده كذلك ، وأكد هذا القرار أيضـا أن السفن الحربية الامريكية ستقوم بأعمال الدورية فى مياه نصف الكرة الغربى ، وسترسل الينا مباشرة عن أى تحركات معـادية ، لكن أمريكا حرصت على موقف الحيـاد ولم يكن فى مقدورها آنذاك أن تضفى حمايتها على قوافلنا ، فظلت بريطـانيا وحدها تضطلع بعبء هذه المشكلة طيلة الطريق .

وكانت سياسة الرئيس الجديدة بعيدة النتائج ، واستمر نضالنا ، وقد خف عبء كبير من أعبائنا ليقوم به الأسطولان الكندى والأمريكى ، وبدأت أمريكا رويدا رويدا تقترب من حلبة الصراع ، وقد قوى هـذا التيـار العالمى اختراق البـارجة بسمارك الأطلنطى فى نهاية شهر مايو ، فعلى أثر ذلك أعلن الرئيس فى ٢٧ مايو ـ وهو التـاريخ الذى غرقت فيه بسمارك ـ ان انتظارنا حتى يدهمنا الخطر نوع من الانتحار ، ولهـذا فقد وسعنا أعمال دورياتنا شمالا وجنوبا فى ميـاه الأطلنطى وما كاد الرئيس ينهى خطابه حتى أعلن فى البلاد « حالة الطوارىء لأجل غير مسمى » .

وليس هناك أى برهان على أن الألمان قد هزتهم هذه الخطوات من قبل أمريكا فقـد أراد الأميرالان ريدر ودونتس أن يصدر الفوهرر أمرا بتوسيع المجال للغواصات الالمانية ، ويطلق لها حرية العمل فى اتجـاه الساحل الامريكى وضد البواخر الامريكية اذا سارت فى قوافل أو بدون أضواء ولكن هتلر ظل عنيدا فى موقفه ، لانه كان لا يأمن عاقبة الحرب مع أمريكا ، ويصمم على أن تتجنب القوات الألمانية أى استثارة من هـذا النوع .

ونتيجة لاتساع نشاط العدو لحقت به خسائر فادحة ، ففى شهر يونيو ، كان للعدو فضلا عن العدد الموجود تحت التدريب حوالى خمس

وثلاثين غواصة فى قلب البحر ، وكان ما بعده من غواصات جديدة يزيد بكثير عما لديه من بحارة مدربين ولا سيما القباطنة ذوى الخبرة والتجربة، وهكذا بدأ عدد بحارة غواصاته الجديدة يقل تدريجيا وأصبحت غالبيتهم من الشبان قليلى الخبرة ولذلك فقد فاتتهم الدقة والمهـــارة الكافيتان ، وأدى شمول المعركة للاطراف البعيدة من المحيط الى عدم استمرار التعاون المخيف بين الغواصات والسلاح الجوى ، ولم يكن من قديم اعداد الطائرات الالمانية الكافية أو تدرب طياريها على العمل فوق البحر ، ومع ذلك فقد استطاعت فى خلال مارس وأبريل ومايو أن تغرق (١٧٩) باخرة حمولتها (٥٤٥) ألف طن ، غرق معظمها فى المناطق الساحلية ، ومن بين هذه السفن عدد تصل حمولته الى أربعين ألف طن غرق بسبب غارتين جويتين فى غاية العنف على أرصفة ليفربول فى بداية شهر مايو ، وقد حمدت الله لأن الالمان لم يستمروا فى شن هجماتهم على هذا الجانب الواهن ، وفى الوقت نفسه استمر خطر الالغام الممغنطة مسلطا على سواحلنا غامضا وخداعا ، ينزل بنا أفدح الخسائر وان كانت قد بدأت تقل شيئا فشيئا ، وقد نهضنا بقواعدنا فى ايسلنده وكندا ودعمناها فورا ،ووضعنا مخططات قوافلنا على هَدْيٍ من هذا الاعداد ، وضاعفنا الطاقة الوقودية لمدمراتنـــا القديمة كما وسعنا مجال تحركاتها ، وخاضت القيـــادة المشتركة التى كونت حديثا فى ليفربول بكل امكانياتهـــا غمار المعركة ، ومع تزايد المدمرات الحـــارسة بالاضافة الى خبرة بحـــارتها استطاع الاميرال نوبل تقسيمها الى وحدات دائمة ، لكل وحدة منها ، قائد معين ، وتقوت روح العمل الجماعى وتعود الرجال الاتحاد والتفاهم على العمل مع ادراك عميق لوســـائل قائدهم ، وهـــكذا أصـــبحت وحدات المدمرات تخطو نحو القوة والمنعة بينما بدأت قوات الغواصات تنحدر الى هاوية الضـــعف والوهن .

ولم يأت شهر يونيو حتى كنا قد صعدنا الى درجة التفوق ، وكنا نبذل كل جهد لتطوير أسلوب قوافلنا ، وتدعيم الدفاع عنها ، وتحسين الاسلحة والاختراعات الحديثة ، وكانت احتياجاتنا الضرورية تتمثل فى حيازة عدد أكبر وأسرع من سفن الحراسة بشرط قدرتها على تحمل لوازم الوقود لأطول زمن ممكن وانشاء أكبر عدد من الطـــائرات ذات المدى البعيد ، ورادار على جانب كبير من الكفاية والصلاحية ، ولم تكن الطائرات المقاتلة فى القواعد الساحلية تســـتوفى الشروط المطلوبة ، بل ظلت القوافل فى احتياج لطائرات تحملها البواخر لتنقض على أية غواصة تبدو

على مدى اطلاق النار فى وضح النهار ، وتضطرها الى أن تنسحب الى أعماق المياه فيحال بينها وبين القتال ، أو لتخبر عنهـــا القطع البحرية الاخرى فتصل الى المكان فى وقت مناسب وقد استطاعت فى مدى قصير طائراتنا المقاتلة التى تطلقها أجهزة قاذفة أقيمت لهذا الغرض خاصة على ظهر البواخر التجارية العادية أو البواخر التى تحولت الى بوارج وأمدها السلاح الملكى بالرجال ، استطاعت أن تواجه خطر طائرات «الفوكاولف» وكان الطيار المقاتل الذى ينطلق كصقر يطارد فريسة يعتمد فى بداية الأمر على احدى سفن الحراسة لانقاذ حياته ، وبهذا أصبحت « الفوكاولف » فريسة مطاردة بعد أن كانت الطائر المنقض ، وفرض غزو هتلر لروسيا على القيادة الالمانية توزيعا جديدا لقواتها ، وهكذا بعد أن ارتفعت خسائرنا فى شهر أبريل الى القمة حتى بلغت ثلاثمائة ألف طن اسبوعيا أخذت تهبط الى خمس هذا الرقم فى أشهر الصيف ·

وقام الرئيس الآن بخطوة جديدة هامة ، فقد رأى انشاء قاعدة فى إيسلنده ، وان ترابط بموافقتنا وحدات أمريكية بها ، بدلا من القوات البريطـــــانية · وفى ٧ يوليو وصلت الحاميـــة الامريكية الى الجزيرة فأصبحت جزءا من الدفاع عن النصف الغربى ، وأخذت قوافل أمريكا تحت حماية بوارجها تصل بصفة مستمرة الى ريكجافيك منذ هذا التاريخ، وبغض النظر عن أن أمريكا لم تكن قد دخلت الحرب الا أنها قد أصبحت تحمى البواخر الاجنبية مع قوافلها ·

وفى قمة هذا الصراع ، قمت باصـــدار أمر تعيين ، أحسبه أهم ما أصدرت من تعيينات وأحسنها حظا ، فى ادارتنا الحربية ، ففى سنة ١٩٣٠ ، وقد كنت خارج الحكم ، قبلت لأول مرة ولآخر مرة فى حياتى أن أكون عضوا لمجلس ادارة احدى الشركات ، وكانت مؤسسة فرعية لمنظمة اللورد انشاب الخاصة بخطوط الملاحة الشرقية والهندية ، وظللت مداوما ثمانى سنوات على حضور الاجتماع الشهرى الذى يعقده مجلس ادارة الشركة ، وحريصا على تأدية واجباتى نحوها حرصا تاما ، وخلال الجلسات تعرفت شيئا فشيئا برجل من ألمع الشخصيات ، كان يرأس حوالى ثلاثين أو أربعين شركة ، كانت واحدة منها ولعلها أصغر الجميع الشركة التى كنت أحد أعضاء مجلس ادارتها ، وقـد عرفت على التو أن فردريك ليثرز هو الرأس المدبر والقوة الموجهة لهذه المنظمة بأكملها ، وكان واسع المعرفة ، ويمتلك الثقة به امتلاكا ، ومكثت ألاحظه عاما بعد عام من منصبى المتواضع فى الشركة التى يرأسها ، وكثيرا ما حدثت

نفسى : « اذا نشبت حرب أخرى فهذا هو الرجل الذى فى وسعه أن يقوم بالدور العظيم الذى أداه كبار رجال الاعمال الذين كانوا رهن توجيهى فى وزارة الذخائر خلال عامى ١٩١٧ ، ١٩١٨ ٠

وكان ليثرز قد أبدى استعداده لوزارة الملاحة لدى قيام الحرب فى سنة ١٩٣٩م فى المساهمة بخدماتها ، ولم تقم بيننا صلة وثيقة حينما كنت فى الاميرالية لأن المهام التى كان يقوم بعبئها فنية وليست توجيهية، أما الآن وفى سنة ١٩٤٠ م عندما واجهت صعوبات معركة الاطلنطى ، وكنا فى أمس الحاجة الى تنسيق الأعمال بين ادارة شئون باخراتنا التجارية وبين تحركات تموينننا بالسكك الحديدية والسيارات من موانينا المجهدة، فقد لمع اسمه فى ذاكرتى ، وتنبهت اليه فى مايو ، وبعد مشاورة طويلة نظمت من جديد وزارتى الملاحة والنقل فى جهاز واحد متكامل ، وعهدت الى ليثرز رئاسته ، ولأعطى له امكانيات السيطرة اللازمة عليه أوجدت منصب وزارة النقل البحرى ووليته عليها ، وكنت أحس بحرج شديد أمام مجلس العموم حين أقفز بأشخاص الى أعلى المناصب الوزارية دون أن يكونوا قد نموا داخل المجلس ومكثوا به بضع سنين وتستبد الرغبة بالأعضاء المحنكين من غير أعضاء الوزارة لأن يعملوا على مضايقة كل قادم جديد ، فيجد نفسه بدون أية مناسبة متضايقا من أعداد الخطب والقائها فى المجلس ، لذلك رجوت العرش أن يتفضل بمنح الوزير الجديد لقب « لورد » ٠

وأصبح اللورد ليثرز منذ ذلك التاريخ حتى انتهاء الحرب قائما بالاشراف الكامل على وزارة النقل الحربى ، وصار اسمه يصعد رويدا رويدا وقد استطاع أن يحرز ثقة رؤساء أركان الحرب وجميع أركان الحرب وجميع الوزارات فى الوطن ، ووثق صلاته بالأمريكيين اللامعين فى ذلك الميدان ، وكان على صلة طيبة وفى غاية النجاح بالمستر لويس دوفلاس رئيس مجلس الملاحة الأمريكى ، الذى غدا بعد ذلك سفير بلاده فى لندن ، وفى استطاعتى أن أقرر أن ليثرز كان مساعدا هاما لى على تصريف شئون الحرب ، وقل أن عجز هذا الرجل ذو الكفاءة الممتازة عن القيام بأعباء المهمات التى كنت ألقيها على عاتقه ٠

وحينما كانت تفشل الوسائل الوزارية أو الأركانية فى تصريفها لبعض الشئون كنقل فرقة اضافية أو تحويلها من البواخر البريطانية الى الأمريكية ، أو انجاز بعض المهمات العاجلة كنت التمس عونا

شخصيا ، وعلى التو اجد هذه التعقيدات قد حلت وكأنما مستها يد ساحرة •

ورابطت البارجتان ـ الطرادتان الالمانيتان شار نهورست وغنيزناو في بريست طيلة هذه الأشهر القاسية ، وكان انطلاقهما الى الاطلنطي محتملا في أية لحظة ، وبفضل السلاح الجوى الملكي شل نشاطهما فقد استمرت طائراتنا تشن الهجوم عليهما وهما في الميناء ، منزلة بهما أفدح الأضرار ، مما تركهما عاطلتين عن العمل طيلة العام ، وقد توجه انتباه العدو الى اعارتهما لألمانيا ولكنهما عجزا عن تحقيق ذلك أيضا حتى عام ١٩٤٢ ، وسنعرف في اللحظة المناسبة مقدار نجاح اسطولنا وقيادة سلاحنا الجوى الساحلي ، وكيف أصبحنا مسيطرين على الموقف في المداخل وكيف باتت الغواصات تنهار في نفس البحار التي عملت على تدميرنا فيها الى أن استطعنا ثانية بأسلحتنا تطهير مداخل الجزر البريطانية •

يوغوسلافيا واليونان

فرض علينا أن نصل الى قرار حاسم بشأن جيش النيل .. هل نرسله الى اليونان أم لا ؟ وكان اجتياز هذا التساؤل فى غاية الأهمية ، لا لمعاونة اليونان ومؤازرتها فى محنتها وعذابها فحسب ، بل أيضـــا لتكوين خط دفاعى بلقانى يضم يوغوسلافيا واليونان وتركيا لعدم الهجوم الالمانى المحتمل مع ما يتضمنه ذلك من تأثير على روســـيا السوفييتية ، لا يمكن أن نعرف مداه الآن ، وان كنا لا نستطيع أن ننكر خطورته ، هذا اذا كان الحكام الروس قد تفهموا المخاطر التى تهددهم ، ولم يكن ما نقدر على ارساله هو الذى سيوجه المسألة البلقانية ، فغايتنا المعروفة هى اثارة العمل الجماعى وتنظيمه ، واذا اســـتطعنا عن طريق التلويح بقوتنا أن نستثير يوغوسلافيا واليونان وتركيا على الاشتراك فى العمل، فاننا سنقهر هتلر على الاختيار بين أمرين ، اما أن يترك أطماعه الحالية فى البلقان واما أن يخوض قتالا عنيفا مع جيوشنا المشتركة حيث يجد قـــوة واحدة متآزرة فى الميـــدان ، ولم يصلنا آنذاك أنه عقد العزم على زحفه الجرىء على روسيا ولو عرفنا ذلك فى حينه لكنا على يقين أكبر من فوز خططنا وكنا نعرف أنه يغامر بالسقوط بين مقعدين ، وقد يُقهر على التحول عن مشروعه الضخم الى اتخاذ خطوات مبدئية فى البلقان ، وهذا هو الذى حدث بالفعل ، ولم يكن فى مقدورنا أن نصل الى معرفة آنذاك، وقد يعتقد البعض أن ما افترضناه كان صحيحا ، أو أنه كان أصح مما كنا ندرك ، فقد سعينا الى ضم يوغوسلافيا واليونان وتركيا فى جبهة قوية، أما واجبنا حتى ذلك الوقت فقد كان يفرض علينا تعضيد اليونانيين ، ولجميع هذه الاهداف فقد كان موقف فرقنا الأربع فى الدلتا فى وضعه الملائم .

وفى مطلع مارس أخذت القوات الالمانية تنهـــال على بلغاريا ، واستعد الجيش البلغارى بكل قواه ، ووقف على أهبـة الاستعداد على الحدود اليـــونانية ، وكانت الجيوش الالمانية بصـــفة عامة تزحف نحو

الجنوب ، يؤازرها البلغاريون بشتى الطرق والوسائل ، واستأنف المستر ايدن والجنرال ديل فى اليوم التالى محادثاتهما فى أثينا ، وأرسل الينا المستر ايدن على هدى ذلك ببرقية غاية الأهمية ، غيرت بعض الشيء من أفكارنا بلندن ، وبالرغم من أن الأميرال كينجهام كان مقتنعا بصحة آرائنا الا أنه لم يدعنا فى شك من الأخطار البحرية التى تهددنا فى المتوسط ، والتى تحملها هذه الآراء وسجل رؤساء أركان الحرب العوامل العديدة التى تنمو باطراد متعارضة مع خططنا فى البلقان وخصوصا مع نوايانا فى تسيير جيش الى اليونان ولخص الرؤساء رأيهم فى هذه العبارة : « ان الأخطار قد تزايدت على المشروع بصورة واضحة » لكنهم لم يرتابوا على الاطلاق فى تأكيد القادة العسكريين العاملين فى المنطقة بأن الأمور لا تدعو الى اليأس بأى حال من الأحوال وبعد أن أعملت التفكير منفرداً فى تشيكرز ليلة الأحد تلك وقلبت وجهات النظر التى عرضت بوزارة الحرب فى الصباح الماضى ، أرسلت الخطاب التالى الى المستر ايدن ، الذى كان قد رجع الى القاهرة من أثينا ، وكان هذا الخطاب يشير الى تغير ملحوظ من موقفى ، ولكننى أحمل كل المسئولية فى القرار الأخير ، اذ اننى كنت واثقا فى قدرتى على ايقاف كل شيء لو اقتنعت وايقاف العمل أسهل دائما على كل انسان من العمل ، وقد جاء فى خطابى :

[« لقد حاولنا بكل الوسائل ايجاد اتحاد بلقانى ضد المانيا ، وعلينا أن نتذرع بالحذر فلا ندفع اليونان وحدها دون رغبتها الحرة ، الى المقاومة الباسلة ، فى الوقت الذى ليس فى مقدورنا مؤازرتها الا بمجموعة ضئيلة من الجنود تستطيع أن تصل الى ميدان المعركة فى الفرصة المواتية ، وقد تثار مشاكل امبراطورية هامةعندما نزج بالجيوش النيوزيلندية والاسترالية فى عمل وصفته أنت بالخطورة البالغة . ولذا علينا أن نحرر اليونانيين من احساسهم بالتزام الرفض لأى انذار ألمانى ، أما اذا أصروا من ناحيتهم على الكفاح فعلينا أن نؤازرهم فى موقفهم بقدر المستطاع ولكن سرعة الزحف الألمانى ستقف بكل تأكيد دون اشتراك جيوش امبراطورية كبيرة فى القتال. ولا تعتبر خسارة اليونانوالبلقان بأىحال من الأحوالبالنسبة لنا خسارة جوهرية بشرط أن تظل تركيا بكل أمانة وصدق على الحياد ، ونستطيع أن نستولى على رودس ، وأن نعد لاحتلال صقلية أو طرابلس وتشير علينا جهات عديدة بأن الاطاحة بنا من اليونان يضر بسمعتنا فى اسبانيا وفيشى ، أكثر من تركنا

للبلقان ، الذى لا نقدر على الحيلولة بينه وبين السقوط فى يد العدو ولضآلة قواتنا » .

وقد أرفقت بهذه البرقية التقرير الهام الذى وصلنى من رؤساء أركان الحرب .

وعندما قرأ رسالتى سفيرنا لدى اليونان ، أصيب باليأس وخيبة الأمل ، وأرسل الى وزير الخارجية برقية يقول فيها : « كيف يتسنى لنا أن نترك ملك اليونان وحده بعد ما أبدى له القائد العام ورئيس أركان حرب الجيش تأكيدات واضحة عن الفرص المتاحة للنصر ، اننى لا أتصور موقفا كهذا لأننا سنضع أنفسنا موضع التشهير فى اليونان وفى كافة أنحاء العالم ، وسيشاع أننا لا نعرف الوفاء بالوعد ، فليس هناك مجال لأن نترك لليونانيين حرية رفض أو قبول الانذار الألمانى ذلك لأنهم قد بيتوا العزم على قتال ألمانيا وحدهم اذا لزم الأمر والقضية الآن هى : أنمد لهم يد العون أم لا ؟ ..

وعلى هدى ذلك قررت وزارة الحرب تأجيل خطتها الى أن يصلنا رأى المستر ايدن ، وفى اليوم التالى وصلتنا برقية يعبر فيها عن رأيه بقوله : « لاشك فى انهيار اليونان دون أن نحاول انقاذها بالتدخل العسكرى ، خصوصا بعد أن أدرك العالم كله أن انتصارات الصحراء قد وفرت لنا القوات المطلوبة ، سينذر بفاجعة محتمة ، فحينئذ ستهوى يوغوسلافيا أيضا ، ولن نثق فى امكانيات تركيا على الصمود اذا استطاع الألمان والايطاليون أن يحتلوا اليونان دون أن نقاومهم بأى مجهود من جانبنا ، ولا أشك فى أن سمعتنا ستتأثر من طردنا من اليونان طردا معيبا لكن القتال فى اليونان وتكاليفه أخف بكثير على أى حال من أن نتخلى عنها لتقابل أقدارها بلا معين وبالنسبة الى الظروف الحاضرة ، فكلنا هنا نرى أن ما رأيناه سابقا يجب أن ينفذ ويجب أن نمد اليونان بكل عون .

وذهبت أنا ورؤساء أركان الحرب ، الى وزارة الحرب التى كانت تحيط علماً بكل شىء اثر وقوعه لتقرر بصدده الرأى الأخير ، وهناك عرضنا القضية للبحث ، وعلى الرغم من ادراكنا للحقيقة الماثلة التى تؤكد عجزنا عن ارسال طائرات أكثر عددا من التى قد أرسلناها أو من التى مازالت فى طريق وصولها ، فاننا لم نجد سبيلا للتردد ولم تختلف آراؤنا وقد أدركت أن المسئولين هناك قد مروا بتجربة مفيدة ، لم يكن ثمة ريب على الاطلاق فى أنهم يقعون تحت أى ضغط سياسى من لندن ، وقد اقتنع سمطس بوجهة النظر هذه وهو الدقيق الرأى ، الذى يتمتع باستقلال

فكرى خاص ، ولم يكن فى طاقة أى انسان أن يدعى أو يفترض أننا تطفلنا على اليونان وأجبرناها على العمل ضد ارادتها ، اذ لم تكن ثمة دولة أكثر منها اقتناعا بالسير فى الطريق الذى سلكته ، وكنا بقرارنا قد حصلنا على تعضيد كافة الرجال المسئولين الذين أصدروا حكمهم فى حرية كاملة ، وعلى هدى من ادراكهم التام للموقف من مختلف جوانبه ، وكان زملائى الذين حنكتهم التجارب قد انتهوا بكامل حريتهم الى النتيجة ذاتها ، وكان المستر متزيس الذى تثقل المهام كاهله بالنسبة لهذا الموضوع فى غاية الشجاعة لقد كان من جذوة متقدة تنادى بالعمل وكان الاجتماع قصيرا والقرار حاسما والرد مختصرا وهذا هو : « رأى رؤساء أركان الحرب ، انه بالنظر الى اصرار قادة المنطقة ورئيس أركان حرب الجيش البريطانى ، ورؤساء الوحدات المعدة للعملية ، على وجهة نظرهم فى أن يستمر تنفيذ القرارات السابقة ، فقد انتهى رأى وزارة الحرب الى أن تتحمل أنت مسئولية تنفيذ العملية ، وهى فى قرارها هذا تتحمل كافة التبعات ، وستتصل بحكومات استراليا ونيوزيلنده تنفيذا لهذا القرار .

وعلينا الآن أن نتحدث عن مصير يوغوسلافيا ، كان الدفاع عن منطقة سلانيك يعتمد اعتمادا كاملا على دخولها الحرب ، وكان فى غاية الأهمية أن نقف على حقيقة نياتها وقد اجتمع سفيرنا فى بلغراد المستر كامبل فى ٢ مارس بالمستر ايدن فى أثينا ، وأوقفه على مدى الفزع الشديد الذى يستولى على يوغوسلافيا من ألمانيا ، وأن الأحوال الداخلية ليوغوسلافيا يسودها القلق بسبب النزاع السياسى ، لكن هناك فرصة لضمان تأيد اليوغوسلافيين اذا ما ادركوا سياستنا فى مساندة اليونان ، وأرسل وزير الخارجية فى ٥ مارس مستر كامبل الى بلغراد ومعه رسالة مخطوطة الى ولى عرش يوغوسلافيا الامير بول ، وقد صور المستر ايدن مآل يوغوسلافيا اذا وقعت فى أيدى الالمان ، وأبدى له تصميم تركيا واليونان على الدفاع اذا وقع أى هجوم عليهما ، فعلى يوغوسلافيا فى مثل هذا الموقف أن تنحاز الينا ، وطلب من السفير ان يبلغ الأمير بول شفويا أن بريطانيا قد أعدت قوات كبيرة برية وبحرية لتمد بها اليونان بصورة عاجلة وأنه اذا ما وصل الى أثينا أحد ضباط الأركان اليوغوسلافيين فسيشترك فى المباحثات الدائرة .

وانعقد الكثير من الأمل على ظروف الوصى ، فقد كان الأمير انسانا محبوبا ، يحب الفنون ولكن سمعة الملكية فى البلاد كانت سيئة للغاية ،

وكان فى هـذه الآونة يحرص على موقف الحياد حرصا تاما ، وكان يخاف من تفسير الالمان لأية حركة تتخذ من جانب يوغوسلافيا على أنها استثارة لهم ، فيزحفون جنوبا فى اتجاه البلقان ، وقد أبدى اعتذاره عن قبول زيارة للمستر ايدن قد رغب فى القيام بها ، وكان الرعب مستوليا عليه ، ولم يكن فى وسع الوزراء والساسة المرموقين ان يبدو رأيهم بوضوح ، ولكن كان هناك رجل واحد فقط يدعى سيموفيتش يخرج على هذا الاجماع وهو جنرال فى السلاح الجوى ، يمثل العناصر الوطنية بين ضباط الجيش وقد أصبح مكتبه الخاص منذ ديسمبر مكانا سريا لمقاومة التسلل الألمانى الى البلقان ، ومناهضة موقف الجمود الذى طبع تصرفات حكومة يوغوسلافيا .

وقام الأمير بول بزيارة سرية لبيرخيتسفارن فى ٤ مارس ، وانصياعا للتهديد الشفوى الشديد تعهد بأن تنحو يوغوسلافيا منحى بلغاريا ، وعندما عاد كانت فى انتظاره وجهات نظر متعارضة فى مجلس التاج ، وفى المحادثات الفردية التى قام بها مع القادة ــ سياسيين وعسكريين ــ وكان الجدل حادا ، ولكن الانذار الالمانى كان حقيقة صارخة وعندما استدعى الجنرال سيموفيتش الى القصر الأبيض حيث يقيم الأمير بول على التلال المطلة على بلغراد ، عارض الاستسلام بشدة ، وأكد أن مثل هـذا القرار سترفضه بلاد العرب وان الأسرة المالكة ستواجه الاخطار ، ولكن الأمير كان قد بذل تعهده السالف باسم بلاده .

وعقد مجلس الوزراء ليلة ٢٠ مارس جلسة وانتهى فيها الى قرار الاشتراك فى المعاهدة الثلاثية فاستقال ثلاثة وزراء احتجاجا ، ومن محطة جانبية للسكة الحديدية استقل رئيس الوزراء ووزير خارجيته القطار الى فيينا ، وأبرما الميثاق فى اليوم التالى مع هتلر ــ وأذيع النبأ مباشرة من راديو بلجراد ، وسرعان ما أعقبته شائعات فى جميع مقاهى العاصمة اليوغوسلافية ومنتدياتها عن الويلات المتوقعة .

وكانت المجموعة الصغيرة من الضباط الموالية لسيموفيتش قد فكرت منذ اشهر فى القيام بعمل ايجابى اذا ما استسلمت الحكومة للالمان ، وعندما شاعت فى ٢٦ أنباء رجوع الوزيرين من فيينا الى بلجراد رأى هؤلاء أن يدءوا العمل . ولسنا نعرف عددا كبيرا من الثورات كان فى مثل نعومة ثورتهم ، حيث لم ترق قطرة من الدماء فقد قاموا باعتقال عدد من كبار الضباط ، وساق رجال الشرطة رئيس الوزراء الى مكتب سيموفيتش حيث وقع مرغما على استقالة ، واخبر الأمير بول بأن

سيموفيتش قبض على ناصية السلطة نيـــابة عن الملك وأصدر أمرا بحل مجلس الوصاية ، واقتيد على التو الى مكتب سيموفيتش الأمير نفسه ، حيث فرض عليه وعلى زميله ان يوقعا على وثيقة تنازلهما عن الوصاية ، وأمهل الأمير بضع ساعات ليحزم متاعه ؛ وليغادر البلاد مع أسرته الى اليونان فى الليلة نفسها .

وقد وضعت هذه الخطة وتم تنفيذها بواسطة مجموعة صـغيرة من الضـباط الوطنيين الصربيين الذين تحسسـوا بوعى مشاعر الجماهير الحقيقية ، فأثار عملهم موجة طاغية من التأييد الشـعبى ، وانطلقت الجماهير الصربية فى شوارع بلغراد تهتف « الحرب ولا المعاهدة والموت ولا العبودية » وتناثرت حلقات الرقص فى الميادين العامة وانتشرت الاعلام الانجليزية والفرنسية فى كل مكان ، ورددت الجموع الصربية اليائسة المناضلة النشيد الوطنى فى اندفاع عارم وشهد الملك فى ٢٨ مارس صلاة شكر فى كاتدرائية بلجراد ، وكانت الظروف وحدها هى التى خلصته من مجلس الوصاية ، وحضر الصلاة جمهور ضخم مندفع ، ووجهت علنا الاهانات لوزير ألمانيا المفوض ، وبصق الشـعب على سـيارته وأثارت المفاجأة العسكرية موجة فياضة بالحماس والوطنية واستيقظ الشعب الذى كان قد حرم من حرية العمل ، تحت سلطة حكومة مستبدة ، وحكام فاسدين ، والذى رأى الكثير من الشباك تنصب من حوله ، استيقظ ليعلن تحديه للطاغية وهو يحلم بالفتح فى عزة بطشه وسلطانه .

وكأنما أصيب هتلر بلدغة ثعبـان ، فاهتـاج ذلك الاهتياج المدمر الذى يعوق التفكير السليم لبعض الوقت والذى كان يودى به أحيانا الى أخطر مغامراته واكثرها جرأة ، واستدعى فى فورة اهتياجه رجال القيادة العليا الألمانية ، فأسرع جورنج وكايتل ويودل ، ولحق بهم على الفور ريبنتروب ، وقال ان يوغوسلافيا قد أصـبحت عاملا مريبا فى الخطة المدبرة ضد اليونان ، وفى خطة « بربروسا » القادمة ضد روسيا كذلك ، واستطرد قائلا ان اعلان يوغوسلافيا عن حقيقة نواياها ليس سيئا على كل حال قبل الشروع فى عملية « بربروسا » ثم أضاف : يجب تدمير يوغوسلافيا ووحدتها القومية والعسكرية ، ويجب أن تنزل بها ضربة قاضية ، وامضى القادة العسكريون طيلة الليلة يعدون خطط العملية ويحضرون أوامرها ، وقد أيد كايتل وجهة نظرنا فى أن الخطر الأكبر الذى تتعرض له ألمانيا يتمثل فى هجوم من المؤخرة على الجيش الايطالى ، واستطرد قائلا : « وكان قرار هتلر بالهجوم على يوغوسلافيا

يعنى نقض كافة الخطط والترتيبات العسكرية التى أعددناها حتى ذلك الوقت وفرض علينا أن نضع ثانية ترتيبات الهجوم على اليونان ، وان ننقل وحدات أخرى من الشمال عبر المجر ، اجل لقد فرض علينا الارتجال فى كل شيء .

وكان تأثر المجر متوقعا بصفة عاجلة ، وبالرغم من أن الغزو الالمانى المباشر ليوغوسلافيا سيمر عبر رومانيا ، الا أن كافة سبل المواصلات تخترق الأراضى المجرية ، وكرد فعل لما حدث فى بلجراد بعثت ألمانيا بوزير المجر فى برلين الى بودابست بالطائرة ، ومعه رسالة فورية الى الأميرال هورتى الوصى على عرش المجر هذا نصها :

[« ستمحى يوغوسلافيا من الوجود ، لمناهضتها علنا لسياسة التفاهم مع المحور ، ويجب أن تعبر معظم القوات الألمانية المسلحة أراضى المجر أولا ، لكن الغزو الرئيسى لن يتم عبر الجبهة المجرية ، وعلى القوات المجرية أن تتدخل فى هذه الجبهة ، ومقابل هذه المعاونة سترد للمجر كل الأراضى التى كانت لها سابقا والتى أرغمت فيما مضى على التنازل عنها الى يوغوسلافيا ، ان المشكلة عاجلة تماما والمانيا تنتظر الرد السريع الايجابى »]

وكانت المجر قد أبرمت مع يوغوسلافيا معاهدة صداقة فى ديسمبر ١٩٤٠ ، لكن الرفض الصريح لمطالب ألمانيا سيؤدى الى احتلال المانيا للمجر فى غمار الزحف العسكرى الذى أصبح متوقعا فى كل حين ، ولا سبيل الى اغفال الاغراء الألمانى برد مناطق الحدود الجنوبية التى انتزعتها يوغوسلافيا من المجر بعد الحرب العالمية الأولى ، وكان الكونت تيليكى رئيس وزراء المجر يحافظ باستمرار على حرية بلاده فى التصرف، ولم يكن مقتنعا بأية حال بانتصار المانيا فى الحرب وعندما وقع المعاهدة الثلاثية ، وكان غير متأكد من استقلال ايطاليا كشريكة فى المحور .

وكان معنى انذار هتلر له أن يتخلى عن الوفاء ليوغوسلافيا بما تفرضه معاهدة الصداقة لكن القيادة المجرية العليا تحت قيادة الجنرال ويرث وهو ألمانى الاصل ، قد تسلمت زمام المبادرة منه ، ووضعت مع القيادة الألمانية العليا خطة مشتركة بدون أن تدرى حكومة المجر .

وقد أسرع تيليكى فاتهم الجنرال ويرث بالخيانة ، ووصلت برقية من وزير المجر المفوض فى لندن الى رئيس الوزراء فى ٢ ابريل

سنة ١٩٤١ - يخبره فيها أن وزارة الخارجية البريطانية تعتبر — كما أبلغته رسميا — آن مساهمة المجر فى أية عملية ضد يوغوسلافيا اعلان لبريطانيا للحرب ضدها .

وهكذا رات المجر نفسها فى موقف اختيار بين مقاومة لا جدوى منها لاختراق الجيوش الألمانية لاراضيها ، وبين الوقوف علنا ضد الحلفاء وخيانة يوغوسلافيا ، ولم يجد الكونت تيليكى سوى طريق واحد لانقاذ شرفه الشخصى ، فما تجاوزت الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم بقليل حتى كان قد ترك وزارة الخارجية وذهب الى غرفته الخاصة بقصر ساندور ، وبعد محادثة تليفونية يغلب على الظن أنها أخبرته باجتياز القوات الألمانية لحدود بلاده ، أطلق الرصاص على نفسه منتحرا .

وبذلك قدم حياته قربانا للتكفير عن نفسه وعن شعبه من جريمة الغزو الألمانى ليوغوسلافيا ولا شك فى أن هذا العمل قد برأ ساحته أمام التاريخ ولكنه لم يوقف الغزو الألمانى ؛ ولا ما تسبب عن هذا الغزو من نتائج .

وبدأت فى خلال ذلك عملية زحفنا فى اتجاه اليونان ، وقد سار الزحف تبعا لترتيب قيامه من اللواء البريطانى المدرع الأول ، والفرقة النيوزيلندية ، والفرقة الاسترالية السادسة وقد جهزت هذه القوات بالعتاد الكامل على حساب غيرها من الفرق فى الشرق الأوسط وكان المفروض أن يذهب فى اثرها اللواء البولندى ، والفرقة الاسترالية السابعة ، وأعدت الخطة على أن تأخذ قواتنا خط الياخمون الذى يبدأ من مصب النهر الذى يسمى الخط باسمه مارا بفيريا وادهيسا حتى الحدود اليوغوسلافية ، وكان على جيوشنا أن تنحاز الى الجيش اليونانى المقيم فى هذه المنطقة ، والذى كان يبلغ حوالى سبع فرق ، على أن يتولى القيادة العامة الجنرال ويلسون .

وكانت القوات اليونانية أقل عددا مما تعهد به الجنرال باباغوس بادىء الأمر ، فقد كان القسم الأكبر منها يبلغ خمس عشرة فرقة فى ألبانيا ، أما الباقى ففى مقدونيا ، وقد رفض باباغوس أن يسحبها ، وقد أصبحت قوة غير عسكرية بعد أربعة أيام من الغزو الألمانى ، وتكونت قواتنا الجوية من حوالى ثمانين طائرة محاربة ، أمام قوة جوية ألمانية يبلغ عددها عشرة أضعاف ذلك العدد ، وكانت نقطة الضعف فى خط

الياخمون تتمثل فى جناحه الأيسر الذى يتمكن الألمان بزحف سريع عبر المناطق الجنوبية اليوغوسلافية من محاصرته ، ولم يكن هناك اتصال بالقيادة اليوغوسلافية العليا حيث لم تكن نحن واليونانيون قد وقفنا على مدى استعدادها ونوع خطتها للدفاع وعلى أية حال فقد تمثلت أمامنا فى الأرض الوعرة التى يجب ان يجتازها العدو ، وطبيعتها التى تستطيع أن تعطى الفرصة لليوغوسلافيين لتعويق الزحف فترة من الزمن ، ولكن هذا الظن تبدد سريعا ولم يجد الجنرال باباغوس ان عملية الانسحاب من ألبانيا تستطيع أن تواجه حركة التطويق هذه فهى ستؤثر أولا فى الروح المعنوية للجيش ، كما ان وسائل النقل السريعة غير متاحة للجيش اليونانى كما أن وعورة الطريق تجعل هذا الانسحاب متعذرا جدا ولا شك فى ان تأخير قرار بهذا الشأن قد ضيع الفرصة المتاحة ، وفى غضون هذه الملابسات وصل الى الجبهة الأمامية لواؤنا المدرع فى ٢٧ مارس ، وتبعته بعد أيام قليلة الفرقة النيوزيلندية .

ولا شك فى أن أخبار ثورة بلغراد ، قد بثت فى نفوسنا الارتياح والأمل فهى على أقل تقدير مكسب وحيد ملموس لما بذلنا من جهود متوالية فى سبيل قيام جبهة للحلفاء فى البلقان . ولمنع أن تسقط الدول واحدة بعد أخرى فى يد هتلر بسهولة ويسر ورؤى ان يظل ايدن فى أثينا للتصرف فى أمر تركيا • وأن يتوجه الى بلجراد الجنرال ديل ، وكان فى استطاعة كل انسان أن ييئس من وضع يوغوسلافيا الا اذا تكتلت سائر الدول المعنية فى جبهة واحدة بمنتهى السرعة ، وكانت الفرصة متاحة بالنسبة ليوغوسلافيا على الأقل لتسديد ضربة الى مؤخرة الجيوش الايطالية المضطربة فى ألبانيا ، واذا سدد الجيش اليوغوسلافى ضربة فورية حاسمة استطاع أن يحقق عملا جوهريا من وجهة النظر العسكرية فمع أن بلادهم معرضة للغزو من الشمال الا أن هذه الفرصة ستمكنهم من احراز كمية هائلة من الذخائر والعتاد . تقدر على تموينهم فى حرب العصابات بالجبال ، وقد اصبحت أملهم الوحيد ، ولا شك فى أن تحقيق مثل هذه الضربة سيكون أمرا عظيما للغاية ، ويسدى صداه فى أرجاء الجانب البلقانى بأكمله وهذا ما كنا ندركه تماما فى لندن .

ولكن أخطاء السنين لا يمكن معالجتها فى ساعات ، فعندما هدأت شعلة الحماس العام التى اتقدت فى صدر كل انسان ببلجراد بدأ كل منهم يدرك أن بلاده على حافة الهاوية ، وان ليس فى مقدوره أن يقوم

بأى عمل لانقاذها ، وكان فى اســـتطاعة القيـــادة العامة على الأقل أن تحشد قواتها لكن لم يـكن لديها أية خطة استراتيجية ، ولم ير ديل الا الركود وســـوء النظام وربما تكون الحكومة اليوغوسلافية نتيجة لخوفها من الوضع الداخلى قد عزمت على تجنب أى عمل يثير آلمانيا ، وها هى ذى الجيوش الالمانية تتدفق عليها كجبال من الثلج ؛ وكان بمقدور اى انسان حين يتأمل فى موقف الوزراء اليوغوسلافيين وآرائهم أن يظن أنهم عقدوا العزم منذ أمد بعيد تجاه الحرب مع ألمانيا أو الصلح معها . والواقع انهم لم يبـدأوا التفـكير فى هـذا الصدد الا فى غضون الاثنتين والسبعين ساعة . التى سبقت اجتياح الألمان لبلادهم .

ولاحت طائرات ألمانيا فى سماء بلجراد صباح ٦ أبريل ، وأمطرت الطائرات العاصمة اليوغوسلافية بوابل من القنابل ، ثلاثة أيام متوالية بصورة منظمة نموذجية وكانت تحلق على ارتفاع قريب من أسطح العمائر بدون أن تهاب أية مقاومة ، فشاع الدمار فى كل أنحاء المدينة بصورة تخلو من احســـاس بالرحمة أو الانســـانية ، وقد عرفت هذه الغارات باسم «عمليات العقوبة» وعندما خيم الهدوء ثانية على ســـماء بلجراد فى ٨ أبريل تكشف عن حوالى سبعة عشر ألف انسان من أبناء العاصمة وقد صـاروا جثثا هامدة على جوانب الطريق أو تحت الانقاض وانطلقت الوحوش الضـــارية الى فك حصـارها من حـديقة الحيوانات بعد هـذه الغيوم الثقيلة السوداء المليئة بالدخان والشرر ، وسار دب ذاهل لايدرك شيئا مما يحدث حوله وسط هذا الجحيم فى خطوات ثقيلة ومرعبة نحو نهر الدانوب ، ولكنه لم يكن آخر دب لا يفهم .

وفى الوقت نفسه وبلجراد تعانى أهوال الغارات الوحشية ، كانت القوات الألمانية تجتاح من كل الجوانب حدود يوغوسلافيا ، ولم تتحرك القيـادة اليوغوسلافية العليـا لتسديد ضربتها الوحيدة القاتلة الى مؤخرة الايطاليين ، واعتبرت أن الواجب يلزمها بعدم التخلى عن كرواتيا وبلاد السلوفين ولذلك فقد حاولوا الدفاع عن جميع مناطق الحدود ، ولم يمض وقت طويل حتى وجدت الفرق اليوغوسلافية الأربع العـاملة فى الشـــمال نفسها ، محاصرة بالوحدات الألمانية المدرعة تؤازرها الوحدات الهنغـارية التى عبرت نهر الدانوب ، والوحـدات الألمانية والايطاليـة الزاحفة نحو زغرب .

واضطرت الجيوش اليوغوسلافية الى الانسحاب الى الجنوب فى ارتباك وفوضى ، ووصل الألمان الى بلجراد فى ١٣ أبريل ، وفى خـلال

ذلك كان الجيش الألماني الثاني عشر المرابط في بلغاريا قد اجتاح بلاد الصرب ومقدونيا واقتحم « موناستر » و « يانينا » في اليوم العاشر من ابريل ، فقطع بذلك كل اتصال بين يوغوسلافيا واليونان ودمر جيش يوغوسلافيا في الجنوب .

وما مرت سبعة أيام حتى أعلنت يوغوسلافيا استسلامها ، ونسف هذا الانهيار آمال الاغريق وكان هذا مثالا جديدا لخطة هتلر « عدو واحد في كل مرة » وقد بذلنا ما فوق الطاقة ، لايجاد نوع منظم من العمل ، ولكننا عجزنا ، وليس الخطأ في ذلك خطأنا ، وبدت لنواظرنا صورة قاتمة مروعة ، فقد تعاونت خمس فرق ألمانية ــ ثلاث منها مدرعات ــ على غزو أثينا من الجنوب وبدا لنا أن مقاومة يوغوسلافيا في الجنوب كانت تلقى تدميرا كاملا وان جناحنا الأيسر على نهر الياخمون سيدهمه الخطر عما قريب وفعلا بدأ الهجوم على حرس جناحنا في ١٠ أبريل ، ولكنه توقف اثر مقاومة عنيفة ظلت يومين في طقس قاس للغاية . وغربا كانت فرقة واحدة من الفرسان اليونانيين متصلة بالقوات المرابطة في ألبانيا ، فرأى الجنرال ويلسون التراجع بجناحه الأيسر نتيجة لما يلقاه من ضغط شديد .

وتم هذا في ١٣ أبريل ، ولكن القوات اليونانية أخذت حينذاك في التمزق ، ومنذ ذلك الوقت أضحت القوات البريطانية في الميدان وحدها ، وبالنظر للخطر الذي يحدق بالجناح الأيسر رأى الجنرال ويلسون التراجع به الى ترموبولي ، واستشار باباغوس فوافق على رأيه ، وعرض بدوره أن تنسحب في هذه المرحلة الوحدات البريطانية عن اليونان ، وكانت الايام القليلة التي أعقبت ذلك أياما فاصلة وبعث ويفل في ١٦ أبريل برقية يقول فيها ان باباغوس اعترف للجنرال ويلسون بأن القوات اليونانية تواجه ظروفا قاسية ، وتعاني مصاعب جمة في التموين والادارة نظرا للغارات الجوية ، وكانت أوامر ويفل الى ويلسن تشير باستمرار الى القتال بجانب اليونان ما داموا قادرين على القتال ولكنه ترك له حرية تقدير الجلاء عندما تحتم الظروف ، وأعطيت التعليمات لكافة البواخر الذاهبة الى اليونان بالعودة اذا كان الموقف في غناء عن امدادات جديدة أما البواخر التي بسبيل تنزيل حمولتها فيجب أن تتم مهمتها .

وقد قلت ردا على خطورة هـذه الانباء غير المنتظرة انه يهمنا الاستمرار فى اليونان ضد رغبة قائدها العام ، اذ نكون بذلك قدعرضنا البلاد للدمار والخراب .

ولذلك أصدرت أوامرى بالانسحاب فورا اذا ما رأت حكومة اليونان ذلك وأضفت الى ذلك قولى : « أما كريت .. فمن المحتم الأبقاء عليها فى يدنا بكل وسيلة » .

واستقل الجنرال ويلسون فى ١٧ أبريل زورقه البخارى من طيبة الى القصر الملكى فى تاتوى حيث اجتمع بالملك والجنرال باباغوس وسفيرنا ، وقرروا التراجع الى ترموبولى كعمل حازم ممكن ، وكان الجنرال ويلسون على يقين من مقدرته على الصمود بهذا الخط الى وقت ما ، وتركز الحديث على أسلوب الانسحاب ونظامه ، واستقر الرأى على الا تجلو الحكومة اليونانية الا بعد أسبوع على الأقل .

وقد أوردت سابقا اسم المسيو كوريسيس رئيس وزراء اليونان ، وقد وقع الاختيار على هذا الرجل ليسد الثغرة التى خلفها ميتاكساس بوفاته ، وكانت مؤهلاته التى رشحته لهذا المنصب .. سيرة شخصية نظيفة ، ومعتقدات واضحة ثابتة ، واتضح لى أن ليس فى مقدوره أن يشاهد تدمير بلاده ، كما لم يعد فى وسعه النهوض بأعبائه ، فحذا حذو الكونت تيليكى ، رئيس وزراء المجر وقرر أن يضحى بحياته ثمنا لكل ما حدث فانتحر فى ١٨ أبريل ، ولا شك أن ذكراه ستبقى محفوفة بكل تقدير .

وكان الانسحاب الى ترموبولى مهمة قاسية ، ولكن تغطية المؤخرة البارعة ، صدت رغبات الجيش الألمانى المتحفزة ، مُنزلة به اضرارا جسيمة ، ولم يات يوم ٢٠ أبريل ، حتى كانت جيوشنا قد سيطرت تماما على مواقعها الجديدة ، وكانت الجبهة قوية أما جنودنا فكانوا متعبين جدا ، واستمر الجيش الألمانى فى زحفه ببطء ، ولم تحدث أى محاولة شديدة وجادة لاختيار الموقع ، وفى اليوم نفسه أعلنت القوات اليونانية التى كانت لا تزال على حدود ألبانيا استسلامها وفى ١١ ابريل أبلغ جلالة ملك اليونان الجنرال ويفل ، أن الزمن وحده هو الذى لم يساعد اية قوة يونانية على مؤازرة الجناح البريطانى الأيسر قبل أن يملك العدو فرصته للهجوم ، وقد قال ويفل أن واجبه فى مثل هذا الموقف يهيب به أن يعمل على انسحاب سريع للجيش ، حتى ينقذ منه مايمكن

انقاذه وقد لاقى هذا الرأى قبولا تاما من الملك فيبدو انه كان يفكر فيه وعبر عمـــا يشعر به من اسف لأنه كان السبب فى أن تلاقى الجيوش البريطانية هذا الوضع المحرج وأبدى استعداده لتقديم كل ما فى وسعه من مساعدة ، لكن هذا كله كان هباء ، وفى ٢٤ ابريل استسلمت اليونان استسلاما تاما للزحف الألمانى الجبار .

وأصبحنا الآن أمام عملية انســحاب تشـــبه تلك العمليات التى فرضت علينا عام ١٩٤٠ ، واتضح لنا أن اجلاء مايزيد عن خمسين ألف رجل بصورة منتظمة من اليونان ، فى مثل هذه الأوضاع القاسية ، أمر مستحيل ، ففى دنكرك كنا متفوقين جويا أما اليونان فالألمان يقبضــون بيد من حديد على ناصية الجــو ، وفى وسعهم الاستمرار فى الاغارة على الموانى وعلى القوات المنسحبة ، وكان من الواضح أن الجلاء لا يمكن أن يحدث الا أثناء الليل ، وان المفروض على الجنود ألا يبصرهم العدو نهارا قريبين من الساحل ، انها قصة النرويج تعود من جـديد ، مع تزايد الصعوبات التى تلقاها عشرة أضعاف على الأقل .

وقـــذف الأميرال كينجهام بكل الوحدات البحرية الخفيفة لتحمل العبء وتتألف هـــذه الوحدات من ستة طرادات وتسع عشرة مدمرة ، وبدأت عمليات الجلاء ليلة ٢٤ من الموانىء اليونانية الصغيرة ، وسواحلها الرملية فى الجنوب واستخدمت فيها فضلا عن القطع البحـرية ، سفن النقل ، وسفن الهجوم ومجموعة من القطع الصغيرة .

وتواصل العمل طيلة خمس ليال متوالية ، وسيطر العدو فى ٢٦ على الجسر الهام على قناة كورنث ، بهجـــوم جوى عن طريق جنــود المظلات ، وانهالت القوات الالمانية على شبه جزيرة البلوبونيس ، يمطرون جنودنا المجهـــدين وابلا من النيران الحامية ، بينما هم يجاهدون لكى يصلوا الى الشطآن الجنوبية ، ونزلت بنا فى نوبليون احدى الكوارث ، فقد مكثت الناقلة « سلامات » فى الميناء وقتا اكثر مما ينبغى فى محاولة مستميتة ــ ولكنها غير مجدية ــ لتنقذ أكبر عدد من القوات ، وماكادت تقلع من الشاطىء بعد الفجر حتى انقضت عليهـــا طائرتان فأغرقتاها ، وسعت مدمرتان لانقاذ القوات التى كانت تقلها ويبلغ عددهم سبعمائة جندى ولكن الغارات الجوية أغرقت المدمرتين أيضـــا ، ولم ينج رجال من القطع الثلاث سوى خمسين رجلا تقريبا .

وقام طرادان وست مدمرات فى ٢٨ ، ٢٩ بنقل ثمانية آلاف جندى وحوالى ألف وأربعمائة لاجىء يوغوسلافى من السواحل القريبة من كالامانا وما كادت تصل احدى المدمرات الى المكان لتبدأ فى عملية الاجلاء حتى كان العدو قد احتل البلدة وشوهدت نيران الحرائق مشتعلة ، فعدلت المدمرة عن المهمة ، وفضلا عن أن قواتنا شنت هجوما على القوات المحتلة وأرغمتها على الانسحاب من البلدة ، فلم يقدر النجاة لأكثر من أربعمائة وخمسين رجلا من الشواطىء الشرقية عن طريق أربع مدمرات استعانت بها الزوارق ، وكانت هذه الاحداث نهاية لعمليات الانسحاب الأساسية ، واستطاعت قطعنا البحرية انقاذ جماعات صغيرة متناثرة فى عديد من الجزر أو فى زوارق صغيرة بالبحر فى غضون اليومين التاليين ، كما استطاع حوالى ألف وأربعمائة ضابط وجندى بفضل اليونانيين ورغم الأخطار الهائلة أن يمهدوا السبيل لهم نحو مصر فرادى فى خلال الأشهر التالية .

وهكذا خسرنا حوالى أحد عشر ألف جندى ، ولكنا استطعنا انقاذ (٥٠٫٦٦٢) رجلا ، من بينهم رجال السلاح الجوى الملكى ، وعدة ألوف من قبرص وفلسطين واليونان ويوغوسلافيا ، وهذا العدد يبلغ حوالى ٨٠٪ من القوة الاساسية التى أرسلت الى اليونان . وكان هذا — بكل تأكيد — بفضل بحارة أسطولنا التجارى وأساطيل أصدقائنا وما امتاز به أولئك البحارة من عزيمة قوية وخبرة وافرة ، وتصميم على أداء المهمة تحديا لكل ما قام به العدو من محاولات مستميتة عنيفة ، وقد خسرنا نتيجة للهجوم الجوى ٢٦ باخرة منذ ٢١ ابريل حتى نهاية الانسحاب . وقد بذل السلاح الجوى الملكى ووحدة من سلاح الاسطول الجوى من كريت كل مافى طاقتها ، ولكن العدو كان يتفوق دائما عليهما بأعداد ضخمة من الطائرات ومع ذلك فقد قام سلاحنا الجوى بمهمات رائعة منذ نوفمبر الماضى الى آخر معركة اليونان فقد أسقط بكل تأكيد (٢٣١) طائرة معادية ، وأمطر العدو بما يقدر بخمسمائة طن من القنابل . أما خسائر سلاحنا فكانت فادحة أيضا ، فقد أسقطت (٢٠٩) طائرات منها (٧٢) فى المعارك الجوية ، التى شهدت أمثلة نادرة من البطولة .

وكان الأسطول اليونانى الصغير قد فر الى الاسكندرية وكان عبارة عن طراد وست مدمرات حديثة ، وأربع غواصات ، وصلت كلها سالمة فى ٢٥ أبريل وانضمت الى قواتنا تحت اشراف قادتنا وقد أبدى هذا

الأسطول الصغير مهارة ملحوظة فى كل المعارك التى خاض غمارها بجانبنا منذ ذلك التاريخ فى البحر الأبيض المتوسط .

واذا كانت كتابتى عن هذه الكارثة توحى بأن جيوشنا البريطانية والامبراطورية لم تعضدها المساعدات العسكرية اليونانية ، فان علينا أن لا ننسى أن هذه الأسابيع الثلاثة من الحرب من شهر ابريل ضد الحشود الهائلة ، تعتبر لدى اليونانيين قمة النضال الذى امتد خمسة أشهر ضد ايطاليا ، والذى قضى على كل منابع القوة والحياة فى البلاد ، فقد هوجم اليونانيون فى أكتوبر من عام ١٩٤٠ دون سابق انذار بقوات تبلغ ضعف مالديهم على الأقل ، فصمدوا أمامها أولا ، ثم شنوا هجوما أرغم العدو على الانسحاب مسافة أربعين ميلا داخل ألبانيا ، كما استمر اليونانيون طيلة الشتاء القاسى ينازلون فى الجبال عدوا قد تفوق عليهم فى العدد والعتاد . ولم تكن فى حوزتهم وسائل النقل فى الشمال الغربى أو سبله اللازمة للقيام بمناورة سريعة يصدون بها الهجوم الألمانى العنيف فى آخر لحظة والذى يطوق مؤخرة الجيش اليونانى ويحاصر جناحه ، ولقد استنفد الجيش اليونانى كل طاقته فى الدفاع الباسل عن حياض وطنه .

ولم يكن ثمة سبيل ، لالقاء التهم ، فما لقيناه من أخوة ومساعدة من الجيش اليونانى قد استمرا فى صدق واخلاص الى النهاية ، وكان سكان أثينا وغيرها من مناطق الانسحاب الأخرى ، مهتمين بسلامة من عرفوا أنهم ما جاءوا الا لحمايتهم ، أكثر من اهتمامهم بسلامتهم الشخصية ، وسيظل الشرف العسكرى اليونانى نقى السيرة .

ووجهت اذاعة الى الشعب حاولت فيها أن لا أعبر عن مشاعر العالم الناطق بالانجليزية فحسب ، بل أن أعرض الظروف التى صنعت أقدارنا أيضا وجاء فيما أذعته :

« وبينما ننظر قلقين متألمين الى أحداث أوربا وأفريقيا والى ماقد يحدث فى آسيا ، علينا أن نسيطر على أعصابنا وألا يستبد بنا الفزع أو الاحساس بوهن العزيمة ، وعندما نسلط نظرة فاحصة على المتاعب التى مازالت تنتظرنا ، فاننا نتذرع بالايمان من جديد اذا مالاحظنا العقبات التى استطعنا اجتيازها الى اليوم ، وكل مايحدث اليوم لا يمكن أن تقاس أخطاره بالأخطار التى واجهناها فى العام الماضى ، ولا شىء

مما قد يحدث فى الشرق يمكن أن يقاس بما يعد اليوم فى الغرب .

وانى لأذكر أبياتا من الشعر ، أحس بأنها تتوافق مع ظروفنا الراهنة ، ويملؤنى الاعتقاد بأن كل أرض تنطق بالانجليزية ستصدر عليها هذا الحكم وكذلك كل بلد تحقق فيه راية الحرية .

« وبينما ــ عبثا ــ تتكسر الأمواج الواهنة

يائسة من الحصول على شبر من الشاطىء الهادىء

بعيدا .. هناك .. عبر الخلجان والمداخل

تأتى الموجة الغامرة ... فى هدوء

***

وعبر النوافذ الشرقية .. وحدها .. لا يأتى الضوء

عندما يشرق نور الصبح .. وتنسل الأشعة من النوافذ التى تصعد الشمس أمامها الى أجواء الفضاء .

بطيئة وعلى مهل ...

بل هناك .. الى الغرب .. لا تزال الشمس مشرقة .»

جناح الصحراء

١ - روميل - طبرق

أصبحت كل مهمتنـــا تكوين جبهة بلقانية مع الابقاء على جنـــاح الصحراء فى شمال افريقيا ، وكان فى مقدورنا أن تكون هذه الجبهة فى طبرق ، ولكن ويفل اختار أن يستمر فى زحفه السريع غربا وأن يستولى على بنغازى ، مما مد لنا الاستيلاء على برقة كاملة ، وكانت الزاوية البحرية فى « العقيلة » هى المدخل لهذه المنطقة ، وتقرر فى القاهرة ولندن أن تستمر هذه الجبهة بكل الوسائل ، وأفرادها بالأولوية دون أية مغامرة أخرى ، وقد اقتنع ويفل نظرا الى تحطيم الجيوش الايطالية تحطيما كاملا فى برقة . وبالنسبة للمسافات البعيدة التى يفرض على العدو اجتيازها قبل أن يستطيع الاتيان بقوات جديدة بأن فى استطاعته الى فترة طويلة الابقاء على هذا الجناح الفعال بوحدات معقولة والاستعاضة عن الوحدات المجربة بأخرى أقل خبرة ، ولم يكن يخطر ببال أحد أن يضحى بهـذا المرتكز الذى يعتمد عليه كل شىء فى الصحراء أو تعرضــه للخطر فى سبيل اليونان أو من أجل أى شىء آخر فى البلقان .

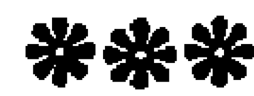
ولكن صعد الآن على المسرح وجه جديد ، هو مقاتل المانى سيفرض نفسه كثيرا على أساطير قومه وبطولاتهم الحربية .

ولد ايروين روميل فى هايد نهايم فى دورتمبرج فى نوفمبر سـنة ١٨٩١ وفى الحرب العالمية الأولى اشترك فى معـــارك الأرغون ورومانيا وايطاليا ، وجرح مرتين واســتحق أرفع الأوسمة من الصليب الحديدى ومنح وسام الاستحقاق،وتولى فى بداية الحرب العالمية الثانية قيادة مقر الفوهرر فى الحملة على بولندا ثم تولى قيادة الفرقة السابعة المدرعة (البانزر) من الفيلق الخامس عشر ، وقد سميت هذه الفرقة باسم « الأشباح » وكانت خلال جبهة الموز بمثابة رأس الرمح للاختراق الألمانى ، ونجا من الأسر بما يشبه المعجزة عندما شن البريطانيون هجوما مضـــادا على أراس فى

٢٢ مايو سـنة ١٩٤٠ ، وكانت فرقته ثانية رأس الرمح الذى اخترق السوم متقدما نحو السين فى اتجاه روان مطوقا الجناح الفرنسى الايسر ، وموقعا عددا كبيرا من الفرنسيين والبريطانيين حول ســان فالبرى فى أسره ، واحتلت فرقته شربورج . بعد أن تم انسحابنا ، واستسلمت له المدينة ، وما بها من القوات الفرنسية التى يبلغ تعدادها ثلاثين ألفا .

وكانت هذه المهام الجسيمة هى الدافع الى اختياره ، فى عام ١٩٤١ ، قائدا للقوات الالمانية المرسلة الى ليبيا . وكانت أمانى الايطاليين فى ذلك الحين تنحسر فى الابقاء على مقاطعـة طرابلس وتولى روميل قيادة الفرق الألمانية النشيطة تحت الاشراف العام للقيـادة الايطالية ، وحاول اثر وصوله تدبير هجوم قوى وعندما طلب منه القائد الايطالى فى بداية شهر ابريل أن يتعهد له بعدم تحرك القوات الألمانية الافريقية بدون أوامره قال له روميل محتجا : « بصفتى قائدا ألمانيا يجب على اصدار التعليمات حسب ما يملى على الموقف » .

ولقد أبدى روميل فى الحملة الافريقية ضروبا من البراعة فى قيادة التنظيمات وتوجيهها وخصوصا فى ارجاع التجمع على الفور بعد أية عملية، والاستمرار فى اكتساب النصر والغلبة ، ولقد كان مغامرا عسكريا نادرا، يسيطة بكل براعة على شئون التموين ويستخف بالدفاع ، وكانت القيادة العليا الألمانية قد ألقت له الزمام فى بداية الأمر فأدهشها بانتصاراته ، وجنحت الى تقييد تصرفاته ، وقد أنزلت بنا حيويته أضرارا فادحة مؤلمة، ولكنه جدير بالتحية التى أُرْسَلْتُها فى مجلس العموم فى يناير ١٩٤٥ ، مع ما جَلبته الى من لوم الجماهير فقلت آنذاك ان أمامنا خصما جريئا بارعا بل انى لأجد من الجرأة فى نفسى ما أستطيع به أن أقول : اننـا نواجه جنرالا عظيما ، خليقا بكل تقدير ، لأنه على الرغم من كونه جنديا ألمانيا مخلصا ، بدأ يمقت هتلر ويكره كل أعماله ، واشترك فى مؤامرة عـام ١٩٤٤ لانقاذ ألمانيا من قبضة الدكتاتور المجنون ، وقد دفع ثمنا حياته لهذا العمل .



كان مضيق العقيلة مرتكز الموقف كله ، فاذا استطاع العدو اجتياح جبهتنا والوصول الى اجدابية ، فان بنغازى وكل مايقع الى غرب طبرق ، تغدو فى خطر ، وكان على العدو أن يختـــار بين أن يمضى فى الطريق

الساحلى الممهد الى بنغازى وما وراءها وبين الطرق الصحراوية التى تصل مباشرة الى المخيلى وطبرق . والتى تتخلل منطقة صحراوية يبلغ طولها مائتى ميل وعرضها مائة وقد اخترنا نحن هذا الطريق فى شهر فبراير الماضى فحاصرنا وأسرنا بضعة آلاف من الايطاليين المنسحبين عبر بنغازى ولم نكن نفاجأ قط اذا اقتحم روملى الطريق نفســه ، وواجهنا بلعبتنا السابقة ، ولكن مادمنا مسيطرين على العقيلة فانه لن يستطيع استغفالنا بهذه الصورة .

وقد اعتمدت كل خطوة على ادراك طبيعة الحرب البرية والصحراوية معا فان الحرب فى الصحراء تستلزم تفوقا فى السلاح المدرع ، وفى نوع الجنود لا كميتهم وتستلزم جوا معينا . ولو ضمنا هذه الأمور لاستطعنا أن ننتصر فى معركة الانهيار والتماسك فى الصحراء حتى ولو أصبحنا ببوابة العقيلة ، ولكن أى وضع من هذه الأوضاع لم يتهيأ لنا برغم كل الاعدادات التى اتخذناها . كانت قوات العدو الجوية متفوقة علينا ، وكان سلاحنا المدرع فى حالة غير صالحة لأسباب سأذكرها فيما بعد ، كما كانت أحوال جنودنا التدريبية ومعداتهم الى الغرب من طبرق تثير الأسى .

وبدأ روملى فى هجومه على العقيلة يوم ٣١ مارس ، وتراجعت وحدتنا المدرعة التى لم تكن فى الحقيقة تتألف الا من لواءواحد مع مســـاعديه ، تراجعت فى بطء خلال اليومين التاليين ، ووضح منذ البداية تفوق العدو الجوى ، ولم نكن نلقى بالا ـ للطائرات الايطالية ، فثمة مائة طيارة ألمانية مقاتلة ، ومائة من القاذفات المنقضة وفى مواجهة قسوة هذا الهجوم انتثر نظام جيوشنا ونزلت بنا أفدح الخسائر وانهار فى يوم واحد ، وفى ضربة واحدة ، جناح الصحراء الذى كان أساس جميع خططنا .

وأرسلت التعليمات بالجلاء عن بنغازى ، ولم تأت ليلة ٦ أبريل ، حتى كان الاخلاء يتم بسرعة بالغة ، وكانت طبرق قد دعمت بقوات اضافية وأصررنا على الاحتفاظ بها ، ولكن الفرقة الثانية المدرعة وكتيبتان هنديتان مدرعتان فوجئت بحصار من قوات العدو فاستطاع عدد من الرجال اختراق طريق للنجاة بأنفسهم من هذا المأزق وأسروا حوالى مائة جندى ألمانى ، ولكن الأغلبية قد استسلمت مرغمة ، وعلى التو اندفع العدو الى البردية والسلوم بواسطة عدد كبير من السيارات المدرعة الثقيلة والمشاة المحملين على الســيارات ، بينما شــــنت قوات أخرى هجومها على خطوط طبرق الدفاعية ، واستطاعت قواتها الصمود أمام هجومين منزلة بدبابات العدو

أضرارا بالغة ، وهكذا استتب الأمر فى تلك الآونة بكل من طبرق والحدود المصرية .

***

كانت الهزيمة التى منى بها جناح الصحراء على حين وجود جيوشنا فى معركة اليونان فاجعة من نوع فريد ، واستبدت بى الحيرة الكاملة فى العوامل التى أدت الى هذه الكارثة . ولذا فقد أسرعت فى مساءلة الجنرال ويفل فى بداية فترة التوقف ، وطلبت اليه أن يوضح لى بصورة كافية كل ما حدث ، وكان مما لاينسى أن الجنرال تسب الى نفسه كل تقصير ، ورأى أنه سبب الكارثة التى استنفدت كل ما لديه من سلاح مدرع .

وبينما كنت فى رتيشلى أقضى عطلة الأسبوع فى يوم الأحد ٢٠ أبريل وصلتنى رسالة كتبها الجنرال ويفل الى رئيس أركان حرب الامبراطورية يوضح فيها خطورة الموقف ، وقد توسع فى الحديث عما يوجد لديه من دبابات .

ورسم لى لوحة قاتمة . واستطرد قائلا :

« ويظهر من هذا بوضوح أن هناك فرقتين فقط من الدبابات السريعة فى مصر فى أواخر شهر مايو ، بينما لم تكن هناك أية قوة متوافرة لسد الفراغ حين وقوعه ، وبالرغم من أن لدينا بمصر قوات مدربة ومتفوقة تكفى لعدة كتائب ، وان مدّنا بالدبابات الثقيلة والسريعة أمر جوهرى وخصوصا أن الدبابات الثقيلة تنقصها السرعة وتحتاج الى مجال العمل الفسيح الذى تحتمه العمليات الصحراوية ، أرجوك يارئيس الأركان أن تبذل شخصيا كل ما فى وسعك » .

وقد فزعت من قراءة هاتين الرسالتين ورأيت أن أتغافل عن كل تردد يبدو على الأميرالية من ارسال القوات عبر البحر الأبيض المتوسط ، وأن أرسل الى الاسكندرية رأسا قافلة تتضمن ما يحتاج اليه الجنرال ويفل من الدبابات . وكنا قد جهزنا قافلة بامدادات مدرعة ضخمة ، وكادت أن تقلع الى مصر عن طريق رأس الرجاء الصالح ، فقررت أن تتجه البواخر السريعة الحاملة للدبابات فى القافلة من جبل طارق نحو مصر متخذة أقصر طريق حيث توفر أربعين يوما ، وحضر الجنرال إيسماى ليرانى عند الظهيرة وكان يقيم بالقرب من المنزل الذى أقيم فيه ، فدفعت اليه برسالة خاصة

ليبلغها بدوره الى رؤساء الأركان ، ورغبت اليه في أن يذهب بها عاجلا الى لندن ، وأن يؤكد لرؤساء الأركان أنني أعطى أهمية بالغة لتنفيذ هذه الفكرة عاجلا .

وكان رؤساء الأركان في الوقت الذى وصل فيه ايسماى الى لندن يعقدون اجتماعات ، فأخذوا يناقشون رسالتى ساعة متأخرة من الليل . وكانت احساساتهم الأولى لا تؤيد ما جاء بها ، كما كان ميلهم ، ضعيفا فى أن تستطيع السفن المحملة بالدبابات أن تمخر عباب المتوسط ، متجنبة كل خطر بينما تواجه بعد اجتيازها مالطة ودخولها في المضايق هجمات من طائرات العدو المنقضة ، بينما لا تستطيع طائراتنا المقاتلة فرض حماية عليها من قواعدها الساحلية ، وأشار بعضهم الى حاجتنا للدبابات فى داخل البلاد والى أن أى خسارة فى الدبابات خارج البلاد تستلزم - لتعويضها ارسال دبابات أخرى من سلاحنا الداخلى .

وعندما اجتمعت فى اليوم التالى مع لجنة الدفاع أحسست بالارتياح لوقوف الأميرال باوند الى جانب رأيى ، وموافقته على عبور القافلة فى البحر المتوسط وتعهد ماريشال الجو بورتال رئيس أركان السلاح الجوى بأن يبذل كل ما فى وسعه لارسال وحدة من طائرات « البوفاتير » ، لتضفى من جزيرة مالطة حمايتها على القافلة ورغبت حينئذ الى اللجنة أن تبحث فى ارسال مائة دبابة سريعة أخرى مع القافلة ، فاعترض الجنرال ديل على ذلك بحجة افتقارنا الى الدبابات فى الدفاع الداخلى ، ولكنى تذكرت أنه أبدى موافقته سابقا وقبل عشرة شهور على ارسال نصف ما تحت يدنا من دبابات الى الشرق الأوسط عن طريق رأس الرجاء الصالح وكان هذا فى يوليو سنة ١٩٤٠ ، لذلك لم أسلم بحجته الراهنة ، ولعل القارىء يذكر أن خطر الغزو لم يكن بالنسبة لنا فى ابريل سنة ١٩٤١ خطرا مهددا بالنظر الى ما أعددناه من ترتيبات المقاومة ، وهانحن اليوم نرى أن رأيى كان صائبا وقد استقر الرأى أخيرا على تنفيذ هذه الخطة التى دعوناها باسم « النمر » .

***

وبينما حدث كل هذا كانت طبرق لا تزال تملأ خواطرنا ، فقد فقدنا كل طائرات « الهاريكين » فى اليونان . وفى طبرق حطم عدد منها أو أسقط ، وأكد ماريشال الجو لونغمور أن كل محاولة للابقاء على سرب من الطائرات المقاتلة فى طبرق ستضيف خسارة جديدة دون أن تخدم غاية،

وهكذا سيمضى العدو فى سيطرته الكاملة على سماء طبرق الى أن نقدر ثانية على تجهيز قوة جوية محاربة ، ومع ذلك فقد صدت قواتنا هناك هجوما جديدا للعدو وكبدته خسائر لايستهان بها ، وأسرت من رجاله مائة وخمسين ٠

وقد أرسل الينا الجنرالى ويفل عاجلا أخبارا مروعة أخرى عما ينتظره رومل من امدادات جديدة ، وأخبرنا بأن نزول الفرقة الألمانية المدرعة الخامسة عشرة الى الساحل سيتم فى ٢١ ابريل ، وكانت هناك علامات على استخدام بنغازى فى هذه العمليات بشكل منظم ، وعلى الرغم من أن حشد المؤن يستلزم خمسة عشر يوما على الأقل الا أن ويفل توقع أن تبدأ الفرقة الألمانية الجديدة المدرعة ، والفرقة الخامسة الآلية الخفيفة ، والفرقتان الايطاليتان اريتى وتورنتو هجوما فى منتصف يونيو ، وقد أزعجنا ونحن فى الوطن أن نعجز عن استخدام بنغازى قاعدة ، مفيدة ، بينما يستطيع الألمان بعد سيطرتهم عليها استخدامها على هذا النحو ٠

وفى الأسبوعين التاليين أخذ اهتمامى وقلقى يجتمع فى سير عملية « النمر » ولم أهون أبدا من مدى الاخطار التى أخذ على عاتقه لورد البحر الأول مواجهتها ، وأدرك أن الأميرالية تنظر للعملية بقلق وخوف ، ومرت القافلة المكونة من خمس بواخر تسير بسرعة خمس عشرة عقدة بمضيق جبل طارق فى ٦ مايو تحت حراسة من قوة الأميرال سرموفيل التى تتكون من ربناون والملايو وأرك رويل وشيفلد واحتوت القافلة كذلك على المجموعات التى بعث بها لتدعيم أسطول متوسط وتتكون من الملكة الياصبات ـ ونایاد وفيجى . وصُدت الغارات التى شنت على القافلة فى ٨ مايو دون أن تصاب احدى القطع بأى سوء ، لكن الألغام فى تلك الليلة قد انفجرت فى باخرتين لدى اقتراب القافلة من مضيق صقلية فنشبت الحرائق فى احداهما وغرقت بعد الانفجار الذى حدث على سطحها وقدرت الثانية على الاستمرار فى الرحلة مع القافلة ، وعندما وصلت القافلة مدخل المضيق من جانب قناة سكيركي غادرها الأميرال سومر فيل بقواته وعاد الى جبل طارق وجاء الأميرال كنجهام الذى تهيأت له الفرصة فى ٩ مايو لتسيير قافلة الى مالطة فالتقى بقافلة « النمر » بأسطوله على بعد خمسين ميلا جنوب الجزيرة ، وشقت كل هذه القوات طريقها ٠ نحو الاسكندرية حتى رست بها فى أمان دون أى ضرر أو خسارة ٠

وبينما كان قدر العملية كلها مجهول المصير ، ذهبت بأفكارى الى جزيرة كريت التى كنا على يقين من وقوعها تحت وطأة هجوم جوى بين لحظة وأخرى ، وفكرت فى أن الألمان اذا قدروا على احتلال مطارات الجزيرة واستعمالها ، فستكون لديهم الفرصة دائما لتعضيد مركزهم وتدعيم أوضاعهم ، وان فى مقدور اثنتى عشرة دبابة أن تفرض عليهم حرمانا أبديا من هذه الفرصة ، ولهذا طلبت من رؤساء أركان الحرب أن يدرسوا احتمال اقلاع عدد من بواخر القافلة « النمر » الى كريت لتمدها بعدد قليل من هذه الدبابات قبل أن يصل الى الاسكندرية .

وعلى الرغم من موافقة زملائى الخبراء على الأهمية القصوى لارسال هذه الدبابات الا أنهم رأوا أن الأسلم عدم استهداف بقية ماتحمله الباخرة لخطر مؤكد نتيجة لهذا التغيير ، واستنادا لهذا طلبت فى ٩ مايو تجنبا لما يحدث من أخطار أنه لو أبحرت احدى السفن كطلان لامونت مثلا الى خليج سودا فى كريت ، أن تبحر هى أو سواها بعد أن تنزل حمولتها فى الاسكندرية وتحمل اثنتى عشرة دبابة لتنزلها هناك ، وأصدرت التعاليم بمقتضى هذا مباشرة ، وأرسل الينا ويفل فى ١٠ مايو أنه قد تمت الاجراءات لنبعث الى كريت بست دبابات ثقيلة وخمس عشرة دبابة خفيفة .

ويحتمل وصولها خلال الأيام القليلة القادمة اذا واتت الظروف ، وكانت الأمور تسير سيرا حسنا لكن الزمن كان معنا فى سباق .

كريت

فى مختلف شئوننا فى البحر الأبيض المتوسط بدت بوضوح الأهمية الاستراتيجية لكريت فالبوارج البريطانية التى تتخذ من خليج سودا قاعدة لها أو التى تتزود منه بالوقود تستطيع أن تفرض حماية – ليس من السهل تجاهل أهميتها – على جزيرة مالطة ، فاذا استطعنا حماية قاعدتنا فى كريت ومقاومة كل الغارات الجوية ، فان تفوقنا البحرى يصد بصورة كافية كل هجوم عن طريق البحر ، ولكن على بعد مائة ميل فقط من الجزيرة كانت توجد قلعة رودس الايطالية بما جهزت به من مطارات شتى ومنشآت حربية هامة ، بينما لم يكن يوجد فى كريت سوى الصمت والجمود وكنت قد أرسلت التعليمات المتوالية بضرورة تحصين خليج سودا ، وأشرت فى احداها الى ضرورة أن يصير هذا الخليج « سكابافلو » جديدة والآن وقد مرت على الجزيرة وهى تحت سيطرتنا أكثر من ستة أشهر ، وليس فى وسعنا تدعيم الميناء بمجموعة حديثة من بطاريات المدفعية المضادة للطائرات الا اذا انتقصنا من حاجتنا الماسة فى جوانب أخرى ، كما أن قيادة الشرق الأوسط كانت لاتعرف السبيل لسد احتياجاتها الى العمال اللازمين لتوسيع المطارات واصلاحها ، ولم تكن هناك ضرورة ملحة لوجود قوات كبيرة فى كريت أو حشد وحدة جوية كبيرة فى مطاراتها ، مادامت بلاد اليونان فى يد الحلفاء ، ولكن كان المفروض أن تعد كريت كقاعدة تستقبل الامدادات حين توفرها ، وعند اقتضاء الظروف لارسالها ولا شك فى أن تبعة القصور فى تفهم المشكلة ، وفى ضعف التنفيذ للأوامر الصادرة تتوزع بين القاهرة وهوايتهول معا ، ولم تتضح لى جسامة الأعباء التى يحملها كاهل الجنرال ويفل وجهازه ، ومدى القصور فى تكوين هذا الجهاز الا حين حلت بنا الكوارث فى برقة وكريت والصحراء ، لقد جهد ويفل وسع طاقته ، لكن الجهاز التنفيذى الذى كان تحت يده لم يكن كفؤا

لتحمل الأعباء الكثيرة الهائلة المفروض اضطلاعه بها نتيجة لأربع أو خمس معارك تنشب فى وقت واحد .

***

وكان جهاز مخابراتنا فى ذروة دقته ومهارته فى تلك الآونة ، ففى غمار الاضطراب الشديد الذى اجتاح اثينا غداة الاحتلال الألمانى لها ، بدأ ضباط الأركان الألمان يتخففون مما اشتهر عنهم من حيطة وحذر ، وكتمان شديد للأسرار الحربية ، فدب النشاط فى وسائل استخباراتنا ، وتذرعوا بالجرأة والحيوية ، مما أتاح لنا فى الأسبوع الأخير من شهر ابريل أن نتلقى معلومات هامة عن الضربة القادمة لالمانيا ولم يكن فى مقدور الألمان التستر على تحركات الفيلق الجوى الحادى عشر ولا نشاط رجاله ، أو اخفاء سرعة تجميع القطع البحرية الصغيرة فى الموانىء اليونانية عن العيون اليقظة والآذان المرهفة ، وقد تحملت بما لم يسبق له مثيل - متاعب شخصية فى دراسة كافة التقارير وتقدير شتى البراهين ، للتأكد من درجة الوعى اللازمة لدى القادة بالأهمية الخاصة للهجوم المنتظر ، وللتأكد من أنهم قاموا بنقل هذا الوعى الى قادة العمليات الفعلية فى الميدان .

وكنت قد رغبت الى رئيس أركان الحرب ، أن يتولى الجنرال فيربرغ قيادة - جزيرة كريت ، فأبلغ الرئيس بدوره رغبتى الى الجنرال ويفل الذى وافق على الفور ، وكان فيربرغ صديقى من سنين عديدة ، وكان حائزا على وسام صليب فكتوريا ووسام الخدمة الممتازة ، ووسامين آخرين، مما يؤكد تفوقه فى أداء واجبه العسكرى ، وكان كمثيله الأوحد - كارتون دى ويارث - يستحق لقب «الضفدعة» الذى أطلقته عليه ، فكلا الرجلين :

بطل جابه النيران بصلابة وكاد أن يطير أشـــلاء دون أن يتأثر فى جسده أو فى معنوياته بما يتعرض له من أهوال ، ولم يكن أحق منه فى بداية الحرب بتولى قيادة الفرقة النيوزيلندية فتولى قيادتهـا ، وكان يدور بذهنى فى سبتمبر سنة ١٩٤٠ أن يعهد اليه بقيادة أكثر فاعلية ، وها هى الفرصة المواتية التى تتقدم اليه فيها هذه القيادة المهمة ليتولى زمامها .

ولم يكن أى من فيربرغ وويفل واهما أو خياليا ، فالوضع الجغرافى لجزيرة كريت يجعل من الدفاع عنها معضلة ، فهناك طريق واحد يسير فى محاذاة الشاطىء الشمالى للجزيرة وتوجد على امتداده كل النقاط الصالحة للهبوط والغزو فى الجزيرة وكان من المحتم أن تصبح فى كل نقطة الوسائل الكافية لتأمينها ، ولم يكن فى وسعنا توفير قوة احتياطية ، حرة التحرك

نتمكن من الانتقال الفورى الى أى نقطة يقع عليها تهديد بعد أن يكون العدو قد قطع الطريق المشار اليه ورغم موقفه فيها ، وهناك طرق غير صالحة للسيارات تمتد من جنوب الجزيرة الى شمالها وعندما اقترب الخطر من الجزيرة أخذت العقول الموجهة تبذل ما فى وسعها لحشد الامدادات والتموين والأسلحة وخاصة المدافع فى الجزيرة ، ولكن الوقت كان قد مضى ، ففى الأسبوع التالى من شهر مايو كان السلاح الجوى الألمانى من قواعده فى اليونان وجزر بحر ايجه قد قام بتطويق عنيد وكبدنا أضرارا جسيمة فى وسائل النقل وخاصة على الساحل الشمالى ، وهو مكان الموانىء الوحيدة فى الجزيرة فلم نستطع انزال أكثر من ثلاثة آلاف طن من سبعة وعشرين ألفاً من الامدادات الهامة أرسلناها فى الأسابيع الثلاثة الأولى من شهر مايو الى البر ، وقد عادت بقية الحمولة ، وكنا قد أوجدنا فى الجزيرة حوالى خمسين مدفعا مضادا للطائرات ، وأربعة وعشرين كشافا ، وكان لدينا هناك كذلك خمس وعشرون دبابة خفيفة بعضها كان فى حاجة الى اصلاحات وتناثرت حامياتنا فى شتى المناطق التى يتوقع هبوط العدو بها وكان مجموع هذه القوات يبلغ حوالى ثمانية وعشرين ألفاً .

ولكن السبب الرئيسى الذى مهد لهجوم الألمان هو ضعفنا الجوى فكانت طائرات سلاحنا الجوى فى بداية مايو لاتعدو ستا وثلاثين طائرة يصلح النصف منها فحسب لدخول معركة وقد وزع هذا العدد القليل على ربيتموومالیمی وهیراقلیون وكانت شيئا لا يعبأ به بالنظر الى الأفواج الهائلة التى انهالت على سماء الجزيرة وقد أدرك جميع من يهمهم الأمر ضعف سلاحنا الجوى ، وفى ١٩ مايو أعطيت التعليمات بانسحاب لما تبقى من طائرات الى مصر ، وكانت وزارة الحرب ورؤساء الأركان والقادة العاملون يدركون أن عليهم أن يختاروا بين أمرين : اما الاشتباك وسط هذه العوامل المروعة ، أو الجلاء عن الجزيرة كما كان ذلك متاحا فى مطلع شهر مايو ، ولكن اتحدت وجهات نظرنا على ضرورة الاشتباك ، وعندما ندرك الآن بالنظر الى ما توفر لنا أخيراً من دلائل ، اننا بغض النظر عن كل صعوباتنا كدنا ننتصر فى القتال وأن ما أحرزناه بفشلنا كان مكسبا بعيد المدى ونحس بالارتياح لأننا قررنا أن نغامر وسط هذه الأخطار ، وأن ندفع الثمن مهما كان غاليا .

* * *

بدأ القتال فى صباح ٢٠ مايو ، ولم نشهد حتى هذا التاريخ هجوما أكثر منه اندفاعا وعنفا ، فقد كان لأسباب كثيرة طرازا وحده ، لم ير العالم مثله ، لقد كان أول هجوم فى سجل الحروب ينقل بالجو على نطاق واسع ،

وكان الفيلق الألمانى يمثل عنفوان حركة الشـــبيبة الهتلرية ، كما كان تجسيداً عنيفاً للثأر من اندحار عام ١٩١٨ ، وكان جنود المظلات النازيون بولائهم الشديد وبسالتهم النادرة تعبيرا عن عنفوان الرجولة الألمـانية ، وعاطفتها المندفعة للتضحية على مذبح مجد ألمـانيا ، ووهم السيطرة على العالم ، وقد شاء القدر لهم أن يصطدموا بكبرياء جنود أتى أكثرهم من طرف العالم الآخر عبر المحيطات والبحار متطوعا للدفاع عن الوطن الأب وعن كل ما يؤمن به من قيم الحق والحرية .

وبذل الألمـان أقصى ما فى وسعهم من قوة ، فقد اعتبر جورنج هذا الهجوم أعظم ما سيقوم به ، وكان من المحتمل أن يفرض هذا الهجوم على انجلترا ذاتها سنة ١٩٤٠ لو دمر سلاحنا الجوى آنذاك ، ولكن هذا الأمل ضاع هباء ، وكان ربما يقع على مالطة ، ولـكننا أسرعنا بتفادى هــذه الضربة ، وقد لبث الفيلق الألمانى الجوى ينتظر ما يزيد عن سبعة أشهر ليسدد هذه الضربة ، وليكشف عن مدى قوته ونوع معدنه ، وها هو جورنج يجد فى وسعه أخيرا أن يصدر الأمر الذى تحرقوا شوقا اليه ، وعندما شب القتال لم تكن لدينا المعلومات الـكافية عن جنود المظـلات لدى العدو ، وكان من المحتمل أن يكون الفيلق الجوى الحادى عشر وحدة من مجموع وحدات ست من هذا الطراز ، وقد مرت بضعـــة شهور على المعركة قبل أن نعرف يقينا أن هذا الفيلق كان وحده كل ما لدى الألمان من هذا الطراز ، لقد كان فى الواقع رأس الرمح للسلاح الألمانى ، وهذه هى حكاية نجاحه وحكاية تدميره .

تم اسكات مدافعنا المضادة للطائرات فى ماليمى دفعة واحدة ، وقبل انتهاء الضرب الجوى أخذت الطائرات التى تسير بلا محركات تنزل غرب المطار ، وكانت الطائرات تمطر قواتنا حيث توجد وابلا من قذائفها ، واستحال القيام بهجوم مضاد فى وضح النهار ونزلت هذه الطائرات أو ناقلات الجنود على السواحل وعلى السهل الضيق وعلى أرض المطـار الذى حطمته القذائف ، واستطاع خمسة آلاف جندى ألمـانى النزول الى الأرض فى أول يوم حول ماليمى وكانيا وفيمـا بينهما ، وقـــد كبـــدتهم نيران النيوزيلنديين الذين التحموا معهم فى معركة بالســـلاح الأبيض اضرارا جسيمة ، وعندما أتى المساء كان المطار لا يزال تحت أيدينا ، ولكن من كان لا يزال باقيا من الفوج انسحب عنه الى النقط المساعدة أثناء الليل واستهدف القصف الجوى العنيف ربيتيمو وهيراقليون فى ذلك الصباح ، وأعقب ذلك هبوط جنود المظلات عند الظهيرة ، وشبت معركة حاميــة ،

وعندما جن الليل كان كل من المطارين تحت سيطرتنا الكاملة ، وهكذا كانت نتيجة الاشتباك فى اليوم الأول مرضية الى حد ما باستثناء القتال فى ماليمى ، ولكن عدد الجنود الذين نزلوا فى نقطة من النقاط كان ضخما ، وقد كان عنف الهجوم أكثر مما دار فى خواطرنا كما أن العدو لم يكن يتوقع هذا الدفاع المستميت .

وفى اليوم الثانى واصل العدو غاراته القاسية ، عندما أطلعت الطائرات من حاملات الجنود ، وبالرغم من أن مطار ماليمى ظل تحت وابل من نيران مدافعنا القريبة منه ، الا أن حاملات الجنود استمرت فى النزول به ، وغربا منه رغم وعورة الأرض ، وبدأ أن القيادة الألمانية كانت تستهين بالخسائر فقد دمرت حوالى مائة طائرة على الأقل خلال نزولها فى تلك المنطقة ، ومع ذلك واصل العدو عنفوان هجومه ، وشنت هجوما مضادا فى تلك الليلة ، زحفت فيه نحو أسوار المطار ، ولكن عندما بزغ النهار عادت الطائرات الألمانية من جديد فاستحال على قواتنا الابقاء على مكاسبها .

وأصبحت ماليمى فى اليوم الثالث بالنسبة للعدو مطارا حسنا للعمليات واستمرت ناقلات الجنود تنهال بما يبلغ عشرين طائرة فى كل ساعة .

وكان فى مقدور هذه الطائرات أن تكرر عملياتها ، وقد بلغ عدد الطائرات التى هبطت فى تلك الأيام والأيام التالية حوالى ستمائة طائرة، ونتيجة للضغط المتفاقم بدأ اللواء النيوزيلندى يتراجع الى ما بعد عشرة أميال من ماليمى ، ولم يتغير الموقف فى كانيا وسودا ، أما فى ريتيموا ، فقد بقيت لنا السيطرة على الموقف فى هيراقليون بدأ العدو فى عملية انزال شرقى المطار ، وأخذ فى تثبيت أقدامه على مساحة تتسع شيئا فشيئا .

وفى الليلة التالية رأت قواتنا المجهدة ناراً تشتعل فى صفحة السماء من ناحية الشمال وشاهدوا بريق انفجارات ، فأيقنوا أنأسطولنا بدأ يدخل المعركة وأخذت أول قافلة ألمانية بحرية تبذل محاولة مستميتة فتعقبتها البوارج البريطانية طيلة ساعتين ونصف الساعة مغرقة اثنى عشر زورقا على الأقل وثلاث بواخر مفعمة بالجنود الألمان ،ويبلغ عدد الغرقى من رجال العدو حوالى أربعة آلاف فى تلك الليلة ، وفى خلال ذلك كان الرير أميرال كنغ قد أمضى الليلة يمخر عباب البحر أمام هيراقليون على طراداته الأربع ومدمراته الثلاث ، وعندما أطل صباح الثانى والعشرين بدأ يذهب نحو الشمال ، فأغرق أحد الزوارق المزدحمة بالجنود ، ووصل

الى جزيرة ميلوس فى الساعة العاشرة ، وبعد دقائق قليلة رؤيت مدمرة معادية ترافقها بعض الزوارق الصغيرة فى شمال الجزيرة ، فناوشـــتها الوحدات البريطانية وشب بينهما القتــال ، ولاحت مــدمرة اخرى وهى تنفث سحبا من الدخان ، وتحت هذا الستار يغيب عدد آخر من القوارب وهكذا اعترضت وحداتنا البحرية طريق قافلة أخرى مبهمة للعدو محملة بالجنود ، وقد أخبرت طائرات الاستطلاع هذا الى الاميرال كاننجهـام ، ولكن مرت أكثر من ساعة قبل أن يتأكد الأميرال كنغ من هذه الأخبار ، وكانت قطعه البحرية تغير عليها الطائرات المعادية منذ الصباح وعلى الرغم من سلامتها التامة فان ذخيرة المدافع المضادة للطائرات قد قاربت الانتهاء ، ولم يدرك الأميرال أى مكسب كان على بعد خطوات منه ، ولكنه أحس بأن استمراره فى المضى شمالا ، يهدد قواته بالتوقف تماما عن الحركة ، ولذا فقد أعطى تعليماته بالتراجع غربا ، وعندما وصلت التعليمات الى القائد العام أصدر أوامره الحاسمة :

« احرص على موقعك ، واتصل بنا باستمرار ..

يجب الا ينزل الجيش الألمانى فى كريت ، من المهم جــدا ألا ينزل جنود الأعداء من البحر فى الجزيرة .

وقد مضت الفرصة الآن لتدمير القافلة التى رجعت أدراجها وتناثرت فى اتجاهات شتى بين مختلف الجزر ، وهكذا فــر خمسة آلاف جندى ألمـانى من نفس المصير الذى لقيه زملاؤهم ولعل ما وضح الآن من غرابة هذا التصرف للقيادة الألمانية ، واصدارها الأمر لهذه القافلة بالسير محملة بالجنود ، ودون أن تفرض عليها أية حماية فى مياه لا تسيطر بحريا عليها ولا جويا ، يعتبر مثالا لما كان يمكن أن يحدث ، وعلى مدى أوسع فى بحر الشمال وقناة المانش فى سيتمبر من سنة ١٩٤٠ أنه يشير الى نقصان خبرة الألمــان ومدى فهمهم القاصر لأثر القوة البحرية فى مقاومة القوات المهاجمة ويشـــير كذلك الى الثمن الباهظ الذى قد تدفعه حياة البشر عقابا على هذا النوع الغريب من الجهل » .

وكان الأميرال كننجهام قد عقـــد عزمه ، على تحطيم الغزاة بطريق البحر مهما اتخذ من وسائل ، ولذلك فقد ألقى بكل جنوده فى لهيب المعركة ، ولم يعتره أى تردد فى هدفه فقذف بعدد من بوارجه الغالية فى الميدان بل أقحم كل أسطول الشرق الأوسط عن آخره ، وقــد أجمعت

الأميرالية اجماعا تاما على قراره ، ولم تكن القيادة الألمانية تقامر وحدها بكل شيء لديها في هذه المعركة ، ولذلك أكدت الأحداث التي وقعت في الثماني والأربعين ساعة بين الحرب البحرية للعدو أن محاولة انزال قواته من البحر مستحيلة ، فلم يكرر المحاولة نفسها مرة أخرى حتى تحدد مصير جزيرة كريت ٠

وفي يومي الثاني والعشرين والثالث والعشرين من مايو دفع أسطولنا ثمنا غاليا فقد مني طرادان منه وثلاث مدمرات بالغرق كما توقفت البارجة وورسبايت عن التحركات لمدة غير قصيرة ، ومنيت البارجة الأخرى فاليانت وغيرها من القطع البحرية بخسائر فادحة ، وبالرغم من كل ذلك حمينا الجزيرة بحريا ، ووفق الأسطول في أداء واجبه ، ولم يستطع ألماني واحد أن يطأ بقدمه الجزيرة عن طريق البحر الى أن انتهت المعركة ٠

وكان يوم ٢٦ مايو يوما فاصلا ، فطيلة الأيام الستة الماضية كانت قواتنا هدفا لقسوة ضارية ، ولم يكن في وسعها أن تصمد أكثر ، فاتخذ في تلك الليلة قرار الانسحاب من كريت ٠ وفرض علينا أن نقوم من جديد بتلك العمليات الشاقة المزعجة ، وأن نتوقع أفدح الخسائر ، وأن يقوم الأسطول المنهك القوى بعملية ترحيل لحوالى اثنين وعشرين ألف جندي أغلبهم من الساحل المنكشف في « صفاقية » وكان من المحتم أن تستتر القوات بالصخور الى أن تدعى لركوب البواخر ، وكان هناك على الأقل خمسة عشر ألف جندي يتخذون من شقوق الأرض وأخاديدها مخابيء لهم بالقرب من صفاقية ، بينما استمرت المؤخرة في مناوشات مستمرة مع الأعداء ٠

وحدثت فاجعة للحملة التي جهزها الأميرال رولينجز في نفس الوقت لانقاذ رجال الحامية الى الطرادات المنتظرة بالخارج ، وتمت المهمة في الساعة الثانية والنصف صباحا ، وأبحر أربعة آلاف جندي على السفن الحربية التي أخذت سبيل العودة ، وكانت القيادة قد دبرت تأمينا جويا لها ولكن الطائرات المقاتلة لم تستطع الوصول ، ولا العثور على السفن لتغير المواقيت وفي السادسة صباحا بدأت الغارة العنيفة تمطرهم بوابل من القذائف ، وتواصل ذلك حتى الثالثة مساء عندما بدت القافلة على بعد مائة ميل من الاسكندرية ، وأصيبت المدمرة « هيروورد » اصابة شديدة في الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والعشرين ، ولم تقدر على الاستمرار في رحلتها وقرر الأميرال وكان محقا في ذلك أن يدع المدمرة المصابة لتواجه أقدارها ورؤيت للمرة الأخيرة بالقرب من شواطيء كريت ، وقد نجا أكثر من كانت تقلهم من الجنود ، ولكن الألمان قد أسروهم ، وفيما بعد حدث

أسوأ من ذلك ، فقد أصيب الطرادان ديدو ، وأوريون ، والمدمرة ديكوى في خلال الساعات الأربع التالية وخفت سرعة القافلة الى احدى وعشرين عقدة ، ولكن سائر قطعها استمرت فى السير نحو الجنوب ، وعلى سطح الطراد أوريون كانت الأحوال مثيرة للرعب فعلا ، فقد كان هناك ألف ومائة جندى فضلا عن رجالها ، وقد قتل حوالى ٢٦٠ جنديا ، وأصيب ٢٨٠ جنديا آخر بجراح نتيجة لاختراق قنبلة ظهر الطراد ، وقد سقط قبطان الطراد « باك » قتيلا وشبت فيه الحرائق ولاحت في الأفق لدى الظهيرة طائرتان من نوع الفولمار من سلاحنا الجوى فأثارت فى النفوس مشاعر التفاؤل ، وبرغم ماقام به سلاحنا الجوى من جهود فلم تستطع طائراته أن تعثر على الوحدات المعادية ، مع أنها اشتبكت فى أكثر من قتال وأصابت طائرتين من طائرات العدو على الأقل ، وعندما انتهت القوات الى ميناء الاسكندرية فى الساعة الثامنة مساء ٢٩ ، رؤى أن مجموع الذين قتلوا أو جرحوا أو أسروا يبلغ خمس قوات الحامية التى كتبت لها النجاة من هيراقليون .



وبعد هذه المحن كان على الجنرال ويفل ورفاقه أن يفكروا الى أى مدى سيحاولون انقاذ جنودهم من جزيرة كريت ، فقد كان الجيش فى خطر داهم ، وليس فى وسع السلاح الجوى أن يفعل شيئا ، وكل الأعباء تثقل كاهل الأسطول المنهوك القوى الذى أصابته القذائف وكان من رأى الأميرال لينجهام أن ترك الجيش ليواجه قسوة هذا الاختبار أمر يتجاوز حدود تقاليده البحرية وصرح الأميرال بأن انشاء سفينة واحدة يستغرق ثلاث سنوات من الأسطول ولكن تدعيم تقاليد جديدة يتطلب ثلثمائة عام ولذلك فلن تنقطع مهمة نقل الجنود .

وعندما أتى صباح ٢٩ كان خمسة آلاف جندى قد أنقذوا ، ولكن مازال عدد كبير يدفع ثمن بقائه ، ويتستر فى مداخل صفاقية ، ويتعرض لنيران العدو اذا ما غادر مخابئه بعض الوقت وكان اتخاذ قرار الانقاذ بما فيه من مغامرة أخرى بخسائر بحرية غير معروفة المدى قرارا يحمل مبرراته ليس بالنظر الى بواعثه فحسب ، بل باعتبار النتيجة أيضا .

وأبحر الأميرال فى يوم ٢٨ الى صفاقية واستطاع ستة آلاف جندى فى الليلة التالية أن يصلوا الى سفن النقل دون ما تدخل من الأعداء ، وعلى الرغم من استهداف القوات البحرية للهجوم ثلاث مرات يوم ٣٠ من نفس الشهر الا أنها وصلت الى الاسكندرية سالمة ، وهم مدينون لحسن

حظهم لطائرات السلاح الجوى الملكى ، التى استطاعت رغم عددها الضئيل أن تصد الطائرات المعادية فى أكثر من غارة قبل أن تتمكن من أهدافها ، وفى صباح يوم ٣٠ أبحر القبطان أرليس ثانية الى صــاقية وبصحبته مدمرات أربع ، اضطرت اثنتان منها الى العودة ، واستطاعت الأخريان اجلاء ألف وخمسمائة جندى بنجاح ، وبرغم الأضرار التى أصيبتا بها فى طريق العودة الا أنهما وصلتا الى الاسكندرية بســلام · وكانت القطع البحرية قد نقلت ملك اليونان بعد أن صادف كثــيرا من الصعاب وفى رفقته وزيرنا المفوض فى أثينا ، وفى تلك الليلة أيضا ، تم انقاذ الجنرال فريبرج عن طريق الجو تنفيذ الأوامر القائد العام ·

وأرسلت التعليمات بالقيام بمحاولة أخيرة فى ٣٠ مايو لاجلاء من ظل هناك من القوات ، وكان عـــدد الموجودين فى صفاقيــة لا يزيد فى احتمالنا عن ثلاثة آلاف جندى ولكن الأنباء التالية أكدت أن هذا العــدد يبلغ الضعف ، وفى صباح يوم ٣١ أبحر الأميرال ليتنج ثانيــة ولم يكن هناك رجاء فى اجلاء الجميع ولكن تعليمات الأميرال كننجهام اقتضت بأن تحمل البواخر أقصى ما يمكن ، وقيل للأميرالية فى الوقت نفسه بأن هذه آخر ليلة فى عمليات الانقاذ ، وتم الركوب فى أمان وفى الساعة الثالثة من صباح أول يونيو أبحرت البواخر وعلى ظهرها حوالى أربعة آلاف جندى وصلوا الاسكندرية بسلام ·

وبقى فى كريت أكثر من خمســة آلاف جنـــدى من الوحــدات البريطانية والامبراطورية وأذن الجنرال ويفل لهم بالاستسلام ، ولــكن كثيرين منهم تناثروا فى أنحاء الجزيرة الجبلية التى يبلـغ طولهـــا مائة وستين ميلا ، وقـــد أعانهم أهل القرى والريفيـــون بحاجاتهـم من المؤن وضمدوا جراحهم ، هم والجنود اليونانيين ، ولـــكن وقعوا تحت طـائلة عقـــاب وحشى عندما عرف الألمان حقيقتهم ، وامتدت هــذه العقوبات الوحشية للفلاحين الطيبين الأبرياء ، فصدرت أوامر اعدامهم بالجملة فى مجموعات يبلغ عدد كل منها عشرين أو ثلاثين انسانا ·

وكان هذا هو السبب الذى دفعنى لأن أقدم اقتراحا بعد ثلاث سنوات أى فى سنة ١٩٤٤ الى مجلس الحرب الأعلى يقضى بمحاكمة مرتكبى هــذه الجرائم الوحشية فى جزيرة كريت وأن يحاكم المتهمون فى قلب الجزيرة فأخذ باقتراحى وسددت كثير من الديون الضخمة ·

إنسحب إلى مصر فى سلام ستة عشر ألفا وخمسمائة جندى ، أكثرهم من قوات بريطانيا وامبراطوريتها ، واستطاع حوالى ألف جندى آخر أن يمهدوا لهم طريق الفرار بمعاونة الفدائيين الباسلة ، ووصلت خسائرنا الى ثلاثة عشر ألفا بين قتيل وجريح وأسير ، فضلا عن الفين من رجال القطع البحرية ، وقد أحصيت بعد الحرب بالقرب من ماليمى وخليج سودا حوالى أربعة آلاف قبر ألمانى ، وألف قبر أخرى بالقرب من ويتيمو وهيراقليون فاذا ما أضيف الى هذه الأعداد الضخمة المجهولة التى ابتلعتها الأمواج ، بدت لنا خسائر الألمان فى صورة باهظة ، فلن يبلغ عددها أقل من خمسة عشر ألفا بين قتيل وجريح ، كما دمرت حوالى مائة وسبعين طائرة من طائرات النقل ، وأيا ما كان الأمر ؛ فان النصر الذى أحرزوه لا يمكن أن يقارن بالمجازر التى نزلت بهم .

فمعركة كريت ليست سوى مثال للنتائج الفاصلة التى يتمخض عنها قتال عنيف بعيدا عن قدرات المناورة للفوز بمواقع استراتيجية ، ولم نكن ندرى شيئا عن عدد فرق جنود المظلات الألمانية ولكن الفرقة السابعة المحمولة بالجو كانت الفرقة الوحيدة التى فى حوزة جورنج ، وقد دمرت هذه الفرقة فى كريت ، فقد قضى على أكثر من خمسة آلاف جندى من أكثر محاربيه شجاعة وقد تهدم الكيان الكلى لهذه الوحدة بصورة يعز ترميمها ، فلم تظهر ثانية بشكل حيوى فعال ، وتستطيع القوات النيوزيلندية والبريطانية والامبراطورية واليونانية أن تقول أنها احتملت عبئا لا ينكر فى عملية جلبت لنا الكثير من راحة الأعصاب فى ظروف مروعة .

فقد زال الخطر الرهيب لسلاح جنود المظلات الالمانى فلم يعد الى الظهور بصورة حيوية فى معارك الشرق الاوسط ، نتيجة للاضرار البالغة التى حاقت به فى محاربيه الممتازين ، وقد نال جورنج فى كريت انتصارا أشبه بالهزيمة ، لان الجهود التى بذلها هناك كانت كافية لسيطرته على قبرص والعراق وسوريا وربما فارس أيضا فمثل القوات ضرورية للاستيلاء على مناطق واسعة الآماد ، حيث لا تواجه بمقاومة جادة أو عنيفة ، ولعله أصيب بكثير من خطل الرأى الى الدرجة التى أطاح فيها بمثل تلك الفرص السانحة بينما ضحى بقوات لا تعوض فى قتال يائس لعب فيه السلاح الابيض الدور الأكبر مع مقاتلى الامبراطورية البريطانية .

وقد حصلنا على « تقرير المعركة » الذى أعده الفيلق الجوى الالمانى الحادى عشر الذى كانت الفرقة السابعة المحمولة بالجو بعضا منه ، وعندما

توجه نقدنا القاسى الى أنفسنا والى خططنا ، فقد يكون من المفيد أن نضيف الى ذلك وجهة نظر الفريق المضاد ولقد كتب الألمان ما يلى : كانت قوات البر البريطانية فى كريت ثلاثة أضعاف ما دار فى احتمالنا ، وقد أعدوا فى غاية المهارة والدقة عمليات الدفاع فى الجزيرة ، وجهزوا المنطقة بكل الطرق المستطاعة ·· واتقنت عمليات التعمية بمهارة فائقة ، ونتيجة لافتقارنا الى المعلومات الصائبة عن مدى قوة العدو ونوع موقفه ، عرضنا هجوم الفيلق الجوى الحادى عشر للخطر ، وكبدناه أضرارا جسيمة ظهرت نتائجها ··»

واهتز الموقف فى البحر المتوسط نظريا على الاقل بالاضرار الجسيمة التى حاقت بنا فى جزيرة كريت وحين الانسحاب منها ، وكانت معركة ماتاپان فى ٢٨ مارس قد اضطرت الأسطول الايطالى أن يلتزم مواقعه حينا · أما الآن فقد منى أسطولنا بخسائر جديدة باهظة ، وبانتهاء القتال فى كريت لم يجد الأميرال كننجهام تحت تصرفه سوى بارجتين وثلاث طرادات وسبع عشرة مدمرة ، وهناك تسع طرادات أخرى ومدمرات رهن الاصلاح فى مصر، أما البارجتان وورسبايت و «برهام» ، وحاملة الطائرات الوحيدة «فورميدال» ، وسواها من القطع البحرية ، فكان عليها أن تبحر من الاسكندرية حيث تستصلح فى مناطق أخرى، وقد خسرنا ثلاث طرادات وست مدمرات وعلينا أن نرسل فورا بالامدادات التى تعيد التكافؤ للموقف البحرى ، ولكن كوارث أخرى كانت معنا على ميعاد وهذا ما سيتضح بعد حين ، وهيأت ظروفنا الشائكة أحسن الفرص للعدو ليتحدى سيطرتنا على البحر المتوسط والشرق الاوسط ، ويتمادى فى الشك بهذه السيطرة ، بكل ما يعنيه هذا الشك وذلك التحدى من أخطار علينا ، ولم نكن نستطيع أن ننكر عدم فوزه اذا خاض غمار التجربة ·

نهاية جهد الجنرال ويفل

بينما كان وطيس المعركة فى كريت والصحراء الغربية يشتد الى أبعد مداه والبحث عن البارجة « بسمارك » باقتناصها ومواراتها فى أمواج الاطلنطى كانت مصاعب لم تسفك فيهـــا كثير من الدماء ، ولم تبلغ فى أخطارها حدا كبيرا قد بدأت تعترض طريقنا فى سوريا والعراق ، وكانت معاهدتنا مع العراق سنة ١٩٣٠ ، تسمح لبريطانيا فى أوقات السلم ـ فضلا عن أشياء أخرى ـ بانشاء قاعدتين جويتين أولاهما قرب البصرة والاخرى فى الحبانية ، وتعطى لقواتنا المسلحة ومعداتهـا حق المرور فى سائر الأوقات وتضمنت المعاهدة أيضا أن لجيوشـنا فى حالة الحرب أن تجد كل تسهيلات مستطاعة من خطوط حديدية وانهار وموانىء ومطارات لتيسير التنقلات ، وعندما أعلنت الحرب ، قطع العراق علاقته الدبلوماسية مع ألمانيا ، وان كان لم يشهر عليها الحرب ، وصارت المفوضية الايطالية فى بغداد هى مقر الدعاية للمحور ، واثارة مشاعر العداء لبريطانيا وكان يسهم فى تلك المهمة مفتى القدس الذى فر من فلسطين قبيل ، اعلان الحرب وذهب الى بغداد كلاجىء سـياسى وتعرضت سمعة بريطانيا بعـد هزيمة فرنسا للتدهور ، وانتابنا القلق للاوضاع هناك ، ولكننا لم يدر بخلدنا أن نقوم بأى اجراء عسكرى وكان علينا أن نستمر فى اتخاذ أفضل مانستطيع من وسائل .

وفى مارس عام ١٩٤١ حدث التغير السيىء ، فقد أصبح رشيد عالى الذي كان منساقا للالمان رئيسا للوزراء ، وفر من العراق الأمير عبد الاله الوصى المتضامن مع بريطانيا ، وتحتم علينا أن نستوثق من بقاء البصرة ، الميـنـــاء الرئيسى للعراق على الخليج العربى ، مؤمنا لحسابنا ، ولذا فقد أرسل الجنرال أوكنلك القائد العام فى الهنـد مجمـــوعة لواء ، استقلت الشاطىء فى ١٨ ابريل دون مقاومة ، وبدأ رشيد عالى الســكيلانى العمل مستندا الى مساعدة الطائرات الألمانية وجنود المظلات فى تحركاته .

وكان اتجاهه فى بادىء الأمر نحو الحبانية ، قاعدتنا الجوية للتدريب فى صحراء العراق وبها حوالى ٢٢٠٠ جندى وتسعة آلاف عامل مدنى ، وأصبحت مدرسة الطيران هناك ذات أهمية خاصة . فبدأ مارشال الجو الذى كان يتولى قيادة القاعدة فى اتخاذ اجراءات مؤقتة صغيرة ، وكان كل مافى القاعدة من طائرات كان طائرات تدريب أو طائرات أصابها العطب ، فطلب من مصر بعضا من طائرات « الجلاديتيور » فتوافد الى القاعدة على الفور حوالى اثنتين وثمانين طائرة شكلت فى أربع مجمـــوعات ، ووصلت دفعة أخرى بريطانية من الهند فى ٢٩ أبريل وكان محيط كل هذا القطاع حوالى سبعة أميال ليس به من وسائل الدفاع سوى خط واحد ضعيف من الاسلاك ، وفى ٣٠ ابريل لاحت القوات العراقية القادمة من بغداد على ربوة لا تبعد عن المعسكر أكثر من ميل واحد ، وتطل عليه وعلى المطار فى نفس الوقت ثم انضمت اليها قوات أخرى للتعزيز حتى بلغ العدد حوالى تسعة آلاف جندى وخمسين مدفعا ، ومر اليومان التاليان فى مباحثات من الجانبين بلا جدوى . وفى فجر ٢ مايو بدأ الاشتباك .

وواجهنا فى سوريا خطرا ممـــاثلا مع ضيق مواردنا وقلتها وكانت سوريا احدى ممتلكات فرنسا فيما وراء البحار ، ورأى الفرنسيون فيها أن الهدنة التى وقعتها حكومتهم فى فيشى تسرى عليهم شروطها ، وكانت السلطات فى فيشى من جانبها تحاول جاهدة أن تحول بين جنود فرنسا فى الشرق وبين الانضواء تحت لواء الحلفـــاء فى فلسطين ، وفى شـــهر أغسطس عام ١٩٤٠ وصلت لجنة الهدنة الايطالية الى البلاد ، وأفرج عن المعتقلين الموالين للألمان الذين تحفظ عليهم منذ نشوب الحرب ، فأتيحت الفرصة ليبذلوا كل الجهود ، ولم تأت نهاية العام حتى وصل عدد آخر من الالمان واستطاعوا بالاموال الكثيرة التى بذلوها أن يوقظوا المشاعر المعادية لبريطانيا والصهيونية بين العرب فى نفس الوقت الذى استولى رشيد عالى فيه عنـــوة على السلطة . فأثارت سوريا قلقنا أيضا . كانت الطائرات الألمانية قد بدأت فى شن غاراتها على الســــويس من قاعدتها فى جزر الدوديكانيز ، وكان فى مقـدورها أن تعمـل اذا رغبت ضد سوريا ، وخصوصا بقوات منقولة عن طريق الجو ، ولو استطاع الألمان التمكن من سوريا لأضحت مصر وقناة السويس ومعـــامل تكرير الزيت فى عبادان واقعة تحت خطر التهديد المباشر من الهجوم الجوى المتواصل ، وستكون طرق مواصلاتنا البرية بين فلسطين والعراق معرضة للخطر أيضا ، وربما تثير هذه التغيرات قلاقل فى مصر ، كما أن هذا سيعتبر ضربة قاصمة على سمعتنا فى تركيا وسائر دول الشرق الأوسط .

وما كان رشيد عالى يطلب العون العسكرى من هتلر حتى بدأ الأميرال فى اجراء مباحثات مع الالمان حول اتفاق مبدئى عن سـوريا واتفقوا على توصيل ثلاثة أرباع المواد الألمانية الموجودة لدى بعثة الهدنة الايطالية فى سوريا والعراق ، وأن تسهل للطائرات الالمانية سبل النزول فى مطاراتها، وصدرت التعليمات للجنرال وانزل المفوض السامى الفرنسى والقائد العام بتنفيذ هذه الأوامر ، وما اقترب مايو من نهايته حتى استعملت مطارات سوريا مائة طائرة ألمانية وعشرين ايطالية .

ومنذ أن بزغ هذا التهديد الجديد ، بدا على الجنرال ويفل تردد واضح فى القدرة على استيعاب مهام جديدة ، وأبدى أن كل ما فى وسعه ليعده ضد سوريا لا يعدو مجموعة لواء واحد ، وقال انه سيبذل كل مافى وسعه، وسيطلق الشائعات عن وجود قوة كبيرة على أهبة الاستعداد فى فلسطين فربما تفكر حكومة العراق فى موقفها ، ولكن ما يقدر على توجيهه بالفعل لا يحقق النتيجة المرجوة وربما يكون بعد فوات الأوان . وأى ضعف ينتاب قواتنا فى فلسطين يوقفها على حافة الخطر ، خصوصا والحث على الثورة يجوب أنحاءها ، أبرق قائلا : « لقد حذرتكم دائما أن من المستحيل ارسال أية مساعدة للعراق فى الظروف الحالية عن طريق فلسطين ، وكثيرا ما نصحت بالابتعاد عن أى التزام هناك ، فقواتى منتشرة الى أبعد مدى فى كل مكان ، وليس فى استطاعتى أن أقامر بأى فريق منها فى عمليات يملؤنى اليقين بعدم جدواها » .

أما الجنرال أوكنلك ، فقد عرض علينا مدى المساعدات التى فى مقدوره أن يمد بها العراق ، اذا حصلت على الحماية الكافية فى وسائل النقل الضرورية ، والتى أوضح أنها تصل الى خمسة ألوية من المشاة عدا قوات أخرى مساعدة ، مما أثار اعجابنا بحماسته واندفاعه . أما الجنرال ويفل فلم يكن ينصاع للتعليمات دون أن يرفق بذلك احتجاجه وتبرمه ، وفى ٥ مايو أرسل لنا برقية قال فيها :

« أرى من واجبى أن أحذركم بلا تردد فى أن امتداد القتال فى العراق يعرض الدفاع عن فلسطين ومصر للخطر، وقد يترتب عليه من النتائج السياسية ما لم يدر فى الحسبان، وقد يحدث نتيجة له ما بذلت عامين فى محاولة تجنبه ، وهو اندلاع فتن خطيرة داخل قواعدنا ، ولهذا فانى أستحثكم ثانية بكل قوة واصرار على أن الواجب يحتم عليكم التباحث مع

العراق من أجل الوصول الى ترضيات مقبولة فى أقصر مدى مستطاع » .

ولم أكن مقتنعا بذلك ، وعندما عرفت أن رؤساء أركان الحرب يوافقوننى عرضت القضية على لجنة الدفاع عندما انعقدت ظهر اليوم التالى ، وانتهى الاجتماع الى قرارات نهائية مؤكدة ، فأرسلنا الى الجنرال ويفل تبعاً لذلك التعليمات الآتية : « لا نقبل انهاء الموقف عن طريق المباحثات الا بخضوع العراقيين وتعهدهم بالتخلى عن أية مشاريع قادمة للمحور فى العراق ، أما الوضع هناك فانه يؤكد الولاء التام للمحور من جانب رشيد عالى ، وانه كان ينتظر الوقت الذى يمد فيه المحور له يد العون ، قبل أن يكشف عن حقيقة اتجاهاته ، وقد اضطره وصولنا للموصل الى الافصاح عن نواياه ، قبل أن يقدر الألمان على مساعدته ، وهناك فرصة لا شك فيها للسيطرة على الموقف ثانية بالعمل الفورى الحاسم .

«وقد تعهد رؤساء أركان الحرب بتحملهم لكل مسئولية تنتج عن ارسال القوات المعينة فى برقيتك على الفور ، وتطلب لجنة الدفاع الابراق الى نائب ماريشال الجو سمارت بأن المساعدة المطلوبة فى طريقها اليه : وأن الواجب يحتم عليه فى خلال ذلك الدفاع عن الحبانية الى أقصى ما يمكن ، ومن المحتم أن نرسل الى العراق غاية ما فى الوسع من المدد الجوى لتعضيد العمليات هناك بشرط أن تستمر حماية الأمن فى مصر » .

وفى خلال ذلك بدأت طائراتنا فى الحبانية وقاذفاتنا العاملة من طراز ويلنجتون من قاعدة الشعبية تشن هجومها على القوات العراقية المتجمعة على ربوتها ، وقد أجابت هذه القوات بمدافعها المضادة ، وأسهمت الطائرات العراقية بقذائفها ونيران مدافعها الرشاشة ، وقد قتل وجرح حوالى أربعين جنديا من قواتنا فى اليوم الأول كما تحطمت حوالى اثنتين وعشرين من طائراتنا ، وعلى الرغم من الخطورة التى تهدد الطيران من منطقة تقترب منها نيران مدفعية العدو ، الا أن طيارينا خاضوا التجربة ببسالة ، ولم يهاجمنا المشاة العراقيون ، وصمتت مدافعهم بعد قليل ، فلم تستمر فى قصفها لغاراتنا الجوية ، أو لطائراتنا حينما تحلق فوق قواتهم ، فكانت حالتهم العصبية فرصة لنا انتهزناها فى اليوم الثانى ليقوم بهجوم جوى جزء من سلاحنا الجوى على قواعد السلاح الجوى العراقى، وشنت الدوريات هجومها فى ليلتى الثالث والرابع على الجبهة العراقية ، وفى اليوم الخامس

وبعد أربعة أيام من هجمات سلاحنا الجوى الملكي ، كنا قد أنزلنا الكثير بالعراقيين فاضطروا في تلك الليلة الى الجلاء عن مواقعهم وتبعتهم قواتنا في حملة ناجحة كانت نتائجها أن أسرنا أربعمائة عراقي ، واستولينا على اثني عشر مدفعا وستين مدفعا رشاشا وعشر سيارات مصفحة ، ووجدت طائراتنا قوات في طريقها للتعضيد فأمطرتها وابلا من نيرانها ، وفي ٧مايو فك الحصار ، وفي ١٨ من نفس الشهر وصلت طلائع المدد الحربي المرسل من فلسطين ٠

وعندئذ أصبح العراقيون غير منفردين، ففي ١٣ مايو هبطت بالموصل طليعة الطائرات الألمانية وغدت المهمة الاولى لسلاحنا الجوى شن الهجوم عليها ، وقطع طرق تموينها من سوريا في الخطوط الحديدية وبعد بضعة أيام كنا قد دمرناها ووصلت مجموعة من الطائرات المقاتلة الايطالية فيما بعد ، ولكن تحركاتها قد شلت تماما ، ووصل الضابط الألماني الذى يحمل عبء توزيع العمليات في العراق بين قوات المحور وقوات العراق وهو ابن الماريشال بلومبرج ، وصل الى بغداد ، مصابا في رأسه ، بطلق نارى من حلفائه ، ولم يستطع من جاء بعده — وقد انتهى الى مطار بغداد سالما — القيام بأى عمل ، فتبدد كل أمل للمحور ، في أن يكون عاملا له أثره في العراق ٠

وفي ٣٠ مايو زحفت مقدماتنا حتى مشارف بغداد ، وعلى الرغم من وهن قواتنا ، ومن وجود فرقة عراقية كاملة ببغداد ، الا أن أعصاب رشيد عالى وزملائه ، لم تستطع الصمود أمام زحف جيوشنا ، فالتمسوا الفرار الى ايران ، وبصحبتهم وزيرا ألمانيا وايطاليا في بغداد ومفتى فلسطين ، وفي اليوم التالى عقدت الهدنة وأعيد الوصى الى منصبه وشكلت حكومة عراقية جديدة ، وسيطرت قواتنا على جميع المناطق الهامة في العراق ٠

وهكذا حاق الفشل بالخطة الألمانية التي هدفت الى احداث انقلاب في العراق والاستيلاء على هذه الجبهة العريضة بثمن زهيد في اللحظة الأخيرة، وكان لديهم في ذلك الوقت بكل تأكيد قوات تنتقل عن طريق الجو ، وتمهد لهم وسائل الاستيلاء على سوريا والعراق وايران بكل ما تملكه من آبار البترول الغنية ، وكان في استطاعة يد هتلر الممتدة أن تصل بعيدا الى الهند ، وأن تمر على اليابان ولكنه على أية حال قد رغب — كما عرفنا — أن يوجه سلاحه الجوى بكل قواه في طريق آخر ، ولا شك أنه لم ينتهز هذه الفرصة طمعا في هدية أعلى بتكاليف أقل في أنحاء الشرق الأوسط طولا وعرضا ٠

واضطررنا لكبح آمال الألمان فى سوريا أن نوالى الضغط على ويفل، وقد رغب فى ألا تحمله تبعات حملة فى سوريا ، الا اذا أصبحت الحاجة ماسة الى ذلك ، وقد أجابه رؤسـاء أركان الحرب بأن لا مندوحة له عن حشد أكبر عدد ممكن لغزو سوريا على ألا تتأثر سلامة قواته المرابطة فى الصحراء الغربية ، وفى ٢١ مايو فى الوقت الذى بدأ الألمان فيه يشـنون هجـومهم على كريت كان ويفل يبلغ تعليماته للجنرال ويتلاند ولسون بالاستعداد للزحف ·

وبدأت الاغارة فى ٨ يونيو بتعضيد من أحرار الفرنسيين ، وقوبلت بالمقاومة بادىء الأمر ، ولم يكن من الواضح مدى ما ستحارب اليه فيشى، وعلى الرغم من عدم وجود عنصر المفاجأة فى زحفنا ، الا أن البعض قد ظن أننا سنلقى مقاومة رمزية ليس الا ، ولكن عندما أدرك الفرنسيون ضعف موقفنا قويت عزائمهم على القتال وربما لا نجد سببا آخر لعنف مقاومتهم سوى الاحتفاظ بسلامة شرفهم العسكرى ، وبدا لويفل بعد قتـال دام أسبوعا أن عليه أن يرسل مؤازرة أخرى ، فاستطاع أن يعد فوجا آخر ومن بين قواته الوحدة التى استولت على بغداد فيما سبق، واستولى الاستراليون على دمشق بعد ثلاثة أيام دار فيها قتال مرير وكان ذلك فى ٢١ يونيو ، وقد عضدت زحفهم على المدينة عملية باسلة استوجبت الثمن غاليا هبطت فيها وحدة من الفدائيين الحادية عشرة خلف خطوط العدو من البحر، وأحس الجنرال رانتز بأنه بذل ما فى وسعه واستنفد طاقته ، وكان لا يزال حوالى أربعة وعشرين ألف جندى يقاتلون معه ، ولـكن أمله فى الاستمرار كان قد انهار فلم يبق من قواته الجوية الا حوالى الخمس ، وفى الثامنة والنصف من صباح ١٢ يوليو وصلت رسـل من فيشى ترغب فى الهـدنة ، وقد استجبنا اليهم بالطبع ، وأبرمنا اتفاقا، انضمت سوريا على أثره الى سيطرة الحلفاء ، وكانت خسائرنا حوالى ٤٦٠٠ بين قتيـل وجريح ، بينما كانت خسائر الاعداء ٦٥٠٠ ، ولم يبق هناك غير اجراء واحد مثير · فقـد قامت السلطات الفرنسية بترحيل الأسرى الى فيشى ، ومعنى هذا أنهم سينتقلون بكل تأكيد الى معسكرات ألمانيا ، وعندما عرفنا هذا الاجراء الغريب الذى عجز الفرنسيون عن تفسيره قمنا باعتقـال الجنرال رانتز وكبار ضباطه كرهائن ، مما أدى الى أحسن النتائج اذ عاد جنودنا فى سلام ·

وتحسنت أوضاعنا الاستراتيجية فى الشرق الأوسط نتيجة للعمليات الموفقة فى سوريا والعراق فَسُدَّ الطريق أمام أية رغبة للعدو فى التوغل شرق البحر المتوسط ، وامتد شمالا خط دفاعنا عن قناة السويس مسافة

مائتين وخمسين ميلا ٠ وزال القلق عن حدود تركيا الجنوبية ، وأصبح فى يقينها الآن أن باستطاعة دولة صديقة أن تمد يد العون العـاجل فى أى وقت يلوح لها الخطر ، وقد دمرت معركة كريت مع ما دفعنا فيها من ثمن باهظ القوة الضـاربة للعدو ، وسحقنا أخيرا الثورة العراقية ، وبقوات صغيرة تستدعي الشفقة أعدنا سيطرتنا على منطقة شاسعة وحدد استيلاؤنا على سوريا وهجومنا عليها الذى ارغمتنا عليه الضرورة الملحة رغبات العدو فى الانطلاق باتجاه خليج البصرة والهند بصـورة حاسـمة ولو استجبنا لدواعى التريث والعقـل ولم تحـول وزارة الحرب كل مشروع الى عملية ظافرة ، ولو لم نفرض وجهة نظرنا على كافة القادة العسكريين فى المنطقة، لكنا فى موقف الراضين عن الاضرار الجسـيمة التى تكبدناها فى كريت ، ولم نحقق الأرباح العظيمة التى جنيناها من حربنا المجيدة هناك ولو تخاذل الجنرال ويفل تحت وطأة السهام الجسيمة التى ألقتها الحوادث على عاتقه، وصمدت أمامنا وجهة نظره ، فان ما أسفرت عنه الحرب وان مستقبل تركيا كان سيحدث فيها تغيرات رئيسية ، فاذا كانت هناك حسنات لتخلى الانسان عن كل ما ليس فى وسعه ، وعن اقلاعه عن كل عمل لا يقتنع به شخصيا، فلكل قاعدة ــ فى الحرب وفى الحياة ــ شواذها ٠

ويجب ألا ننسى أن ثورة العراق ، والانطلاق الى سوريا لم يكونا غير أحداث صغيرة من الأخطار المفـاجئة فى الشرق الأوسـط التى عاش فى غضونها الجنرال ويفل ، وأحاطت بكل كيانه ، وعلى نفس النمط والمثال كان ميدان الشرق الأوسط بأكمله ليس سوى أمر ثانوى بجانب مشاكلنا العالمية التى كنا نبصرها فى لندن ، حيث يقفز فيهـا الى مقدمة اهتمامنا خطر الغزو ، وحرب الغواصات ، والتهديد اليابانى ، وقد انتصرنا على سائر هذه الاختبارات القاسية بدون أن ننسى ما منينا به من خسـائر فادحة بفضل قـوة وزارة الحرب والتفاهم بين أعضـائها ، وصلات الاحترام المتبادل ، واستعراض وجهات النظر بين القادة العسكريين والسياسيين، وبفضل جهازنا الحربى الذى كان يعمل فى هـدوء ورتابة ، وليس أمامى الآن ما أعرضه فى مجال البحث سوى القتال فى الصحراء الغربية ، وكان موضوعها يستأثر بعظيم اهتمام منى ومن رؤساء الأركان ومع اننا لم ننل فيها أى انتصار الا أننا فرضنا على رومل التوقف لمدة خمسة شهور أخرى٠

***

وكانت مخابراتنا فى ذلك الوقت قد نفذت الى مقر قيادة رومل وتولى عميلنا ارسال أدق الاخبار عما يواجهه رومل من مصاعب شتى فى موقفه

المتجمد الغريب وكنا ندرك تماما الثغرة الوحيـــدة التى كان يأمل القائد الألمانى فى الابقاء عليها ، كما كنا نقف على الأوامر الصارمة والتحذيرات الشديدة التى كانت تصله من القيادة الألمانية العليا ، منذرة اياه بالا تهرب المكاسب التى حازها حتى هذه الآونة فى خضم اعتماده أكثر مما ينبغى على يمن الطالع ٠

وكنا نمد ويفل بكافة المعلومات ، وقد رغب بدافع شـخصى بحت ، وفى غمار القتال الدائر فى كريت أن يجرب مخالبه فى روميل قبل أن تلحق به الفرقة الألمانية المدرعة التى تنشر الرعب ، وهى الفرقة الخامسة عشرة، عابرة طريق طرابلس الطويل وقبل أن يتاح له فتح أبواب بنغازى، لتكون الطريق القصير لوسائل تموينه ، وأراد أن يشن هجوما حتى قبل أن تباشر الدبابات التى أرسلنـــاها فى عملية « النمر » أداء مهمتها ، وأرادت قوة صغيرة يتولى قيادتها الجنرال غوت أن تتولى هى شن هذا الهجوم ولكنه اندحر تماما وفاتت الفرصة التى كانت متاحة لهزيمة روميل قبل أن تلحق به التعزيزات اللازمة ٠

وعلى الرغم من اسراعنا فى اتخاذ الاعدادات ، الا أن التأخير فى تفريغ واستصلاح وتجهيز دبابات عملية النمر للقتـال ، كان فى غاية القسوة واتضح بعد القيام بتفريغ الشحنة أن بعض الدبابات التى كانت بطيئة من الناحية الميكانيكية لا تصلح ، وعاجلا ما سهلت الأمور ، فقد جمع روميل القسم الأكبر من فرقته المدرعة الخامسة عشرة ، وحشد قواته على الحدود بين كابوتزو وسيدى عمر ، ودار فى احتماله قيامنا بهجوم عنيف للسيطرة على طبرق ، ولذلك فقد قرر الاستيلاء ثانية على حلفايا والابقاء عليها ليصبح هذا الهجوم صعبا للغاية وكانت الدفعة الثـــالثة من حرس جولد ستريم وكتيبة مدفعية الميدان ، ووحدتان من الدبابات تقـوم بحماية هــــذا الممر المعروف فى ٢٦ مايو بدأ العدو تقدمه ، واستولى على مركز فى الشمال ، يشرف على سائر النقط التى يرابط فيها الفوج ، وفى صباح اليوم التالى، وبعد أن دوت طلقات المدافع ، قام فوجان ألمانيان تؤازرهما على الأقل ستون دبابة بهجوم مجتاح ، جعل قواتنـــا على حافة الخطر ، وكانت الوحدات الاضافية بعيدة بحيث لا تملك المشاركة فى القتال ، ولم تجد أمامنا سبيلا سوى القيام بانقاذ قواتنا فى هدوء ودون جلبة ، وقد قمنا بذلك فعلا ولكن الثمن كان باهظا ، فلم تبق من دباباتنا الا اثنتان صالحتان للعمل ، ووصل روميل الى ما يريد وبدأ يدعم موقفه فى حلفايا ٠ وقد كانت سيطرته على هذا الموقع ــ كما كان يتطلع ــ سبيلا بتعويق قدرتنا على العمل بعد ثلاثة أسابيع ٠

وظللنا نعد في هجوم حيوى حاسم سميناه «فأس المعركة» ولكن كان أمامنا جانب مظلم ففى يوم ٣١ مايو ارسل الينا ويفل يخبرنا بالمصاعب الفنية الجمة التى تعترض طريقه في اعادة تجهيز الفرقة السابعة المدرعة وذكر أن أول موعد يسعه أن يبدأ فيه الهجوم هو ١٥ يونيو ، وأكد أنه يدرك تبعات التأجيل ، وقد تصل الى العدو أمداد جوية أخرى ، وقد يشن هجوما عارما على طبرق ، الا ان المعركة القادمة فيما يرى ستكون قتالا بين الدبابات ولهذا فعليه أن يمنح فرقته المدرعة كل ما يستطيع ، وأكد لنا أن فرصة التأجيل والتريث تزيد من احتمالات النصر ٠

وفى هذه الاثناء كنت نافذ الصبر يتجاذبنى الرجاء والخوف من جراء هجومنا فى الصحراء متعجلا لوقوعه ، متيقنا أنه قد يحول الى لغتنا سير المعركة الافريقية كلها ، واستطاع الالمان استغلال ميناء بنغازى فى سرعة ، مع أننا لم نوفق الى ذلك فى بداية العام ، وعن طريق هذا الميناء وصلت اليهم كثير من المؤن والذخائر ، وقد عرفنا ـ فيما بعد ـ أن الالمان استطاعوا رصد جزء كبير من سلاحهم المدرع فى خطوطهم الأمامية وحشدوا حوالى مائتى دبابة فى مقابل دباباتنا البالغة نحواً من مائة وثمانين ٠

وفى صباح ١٥ يونيو بدأت عملية «فأس المعركة» وفى بداية الأمر سارت الأمور كمـــا نحب غير أنه فى ١٧ يونيو أى فى اليوم الثالث من المعركة أخذ كل شىء ينقلب على عقبه ، وأدركنا أننا منينا بالفشل فى غارتنا ، فبدأت عمليات التقهقر المنظم ، تحت حماية من سلاح الطيران ، ولم يبد العدو أى محاولة لتعقبنا ، وربما يكون ذلك بسبب الاضرار التى أنزلتها بسلاحه المدرع قاذفات قنابلنا ، وربما تكون هناك أسباب أخرى فقد علمنا فيما بعد أن أوامر رومل كانت تحرص على الدفاع وتوفير القوى لهجوم فى الخريف ، ومعنى ذلك أن القيام بمطاردتنا يتنافى مع خططه ، فضلا عما يتكبده من أضرار فادحة ٠

ومع أن هذا القتال كان محدودا اذا قورن بالمعركة الواسعة المدى فى البحر الأبيض المتوسط فى شتى اشتباكها ، فان ما أصبنا به من فشل كان ضربة مؤلمة ، لأن نجاحنا فى الصحراء يعنى تدمير جيش رومل المغامر، والاستيلاء على طبرق وانقاذ حاميتها ، وسرعان ما انسحب العدو الى مابعد بنغازى بنفس الطريقة التى زحف بها ، وقد كلفنا هذا الهدف كثيرا فنحن لم ننس الاخطار التى صاحبت عملية « النمر » ، ومقامرتنا باشياء كثيرة، ولم أكن بعد قد عرفت شيئا عما وقع فى يوم ١٧ ، ولكن الأخبار كانت ستصلنى حتماً بعد قليل ، لذلك فقد ذهبت الى شارتويل ، الموصدة ومنذ

مدة ، أنشد هناك نوعا من العزلة ، وأحيا وحيدا ، فجاءتني هنالك الانباء، فمضيت أتجول في الوادى حزينا وحيدا ... عدة ساعات .

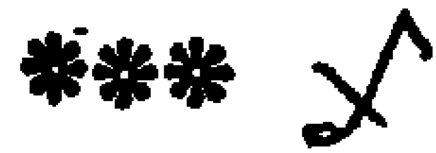
***

ولا شك في أن القارىء الذى تابعنى ، قد تهيأت نفسه لتقبل القرار الذى انتهيت اليه في الثلث الأخير من شهر يونيو سنة ١٩٤١ ، فقد قر شعورنا في لندن بأن ويفل أصبح شخصية شائكة ، ومن الصائب أن يقال اننا ركبنا الجواد حتى استنفد قواه ، ولا شك أن اجتماع خمسة أو ستة ميادين للقتال في تقارب مثير بما تزخر به من نصر أو هزيمة ، تتغلب فيه الاخيرة دائما ، ثم وقوع ذلك كله على كاهل القائد العام فرد ، يؤلفان عبئا لم يسبق أن صادفه الا عدد قليل من القادة ، ولم أقتنع بما قدمه ويفل تبريرا لفشله والذى عزاه الى قتـالنا في كريت ، والى عدم امداده بعدد آخر من الدبابات ، وكان رؤساء أركان الحرب قـد تخطوا آراءه فعلا في عملية العراق البسيطة الناجحة ، والتى أدت الى السيطرة النهائية على الحبانية ، والى أن نحصل على نجـاح محلى هام ، ثم جاءت خطة « فأس المعركة » التى نفذها ويفـل نظرا للاخطار الشديدة التى أحاطت بعملية «النمر» ولم أكن راضيا عما استقبلت به قيادة الأوسط دبابات «النمر» من اجراءات مع ما اعترضها من مصاعب تغلبت عليها لحسن الحظ ولكننى كنت معجبا من ناحية أخرى بروح المغـامرة التى أبداها فى هذه المعركة الصغيرة وعدم التفاته لما يهدد شخصه من أخطار حين طيرانه ذهابا وايابا، فوق هذه المساحات الشاسعة ، التى تُشب في أنحـائها والمضطربة مثل هذه المعارك الراهنة ولكننى كنت واثقا من عدم التوفيق ، في وضع خطته العلمية ، خصوصا حين فشلت في تحقيق اندفاع من ناحية طبرق ، في الوقت الذى حدث فيه الهجوم ليكون تمهيدا لذلك ليس أكثر ، وحركة مصاحبة في ذات الوقت .

وفضلا عن ذلك كانت هناك الضربة التى سددها روميل لجناحها في الصـحراء فقضت على كل الخطط التى كنا على أهبة تنفيذها باليونان ، ودمرت كيانها بما تنطوى عليه من جوانب قائمة وانتصارات باهرة ، كانت تلوح لنا على أطراف المسرح البلقانى الكبير ، وتذكرت قولى السابق ؟ «ان روميل قد نزع أكاليل الغار عن رأس ويفل ومرغ بهـا في الرمال » وقد لا يكون ذلك مستساغا ، ولكنه على أية حال نتيجة لحزن ملم ، ولكن الحكم الصائب على كل ما حدث من الممكن أن يستمد دعائمه مما تشـير اليه الوثائق المدونة في أوانه ، ومما يكشف عنه المستقبل من أدلة أخرى ،

والذى حدث أننى انتهيت الى رأى حاسم بعد معركة «فأس المعركة» وهو ضرورة تغيير جوهرى فى القيادة ٠

وكان الجنرال أوكنلك القائد العام في الهند ، مازال يثير اعجابى بمــــا فعله فى نارفيك فى خلال الحملة النرويجية ، فقد لمست فيه الميل الشديد للسلامة والتحسس بالنتائج ، وهما أمران مفقودان فى الحرب ، مع القناعة بكل ما يتوقع منه تحقيق الحد الادنى من الرغبات ، لكننى على أية حال كان يثير اعجابى مواهبه الشــــخصية ، وذهنه المتألق وأخلاقه الرفيعة ، وعندما كان قائدا للمنطقة الجنوبية بعد نارفيك في انجلترا . وصلتنى كثير من الرسائل من جهات رسمية وغير رسمية تصف مابثه من حيوية ونشاط في قيادته الجديدة ، وقد استحسن الجميع تونيه للقيادة العامة فى الهند وقد وقفنا قبل هنيهة على مقدار حماسته لتسيير القوات الهندية للبصرة ، وضرورة القضاء على ثورة العراق وكنت أعتقد أن أوكنلك دم جديد سيثير الحيوية ويتحمل التبعات بشجاعة اذا تولى قيادة الشرق الأوسط كما أن ويفل سيصادف فى توليه قيــــادة الهنـــد العظيمة فرصة لاستعادة انفاسه ، قبل أن تهجم الأخطار المتوقعة فى كل حين ، ووجدت موافقة تامة لآرائى هذه فى الوزارة ، وبين رؤساء الاركان فى لندن ولعل القارىء لا ينسى أننى لا أحرص قط على أن أتولى أى سلطات استبدادية وان آرائى كانت تتمشى دائما مع وجهـــات نظر الخبراء والسياسيين ، وأصدرت أوامرى الجديدة فى ٢١ يونيو ، فتلقاها ويفل فى هدوء ، وكان يهم برحلة الى الحبشة سرعان ما وضحت أمامه مخاطرها ، وقد كتب من أرخ حياته قائلا أن الجنرال عندما وصلته برقيتى قال : «ان رئيس الوزراء على حق فالموقف هنا يحتاج الى يد جديدة وعين أخرى »



وكان القلق ينتابنى منذ أشـــهر لما وجدت عليه قيادة القاهرة من نقصان الكفاءة الواضح ، وأدركت جيدا مدى الأعباء الثقيلة التى تتراكم على كاهل القائد العام المنهك ، وكان ويفل نفسه وغيره من القادة العاملين قد عبروا عن احتياجهم فى ١٨ مايو الى بعض المعاونين ، وقد أكد ذلك أيضا رفيقاه القائد العام الجوى والقائد البحرى ، وكانت زيارة المستر آيدن تثير الارتياح فى نفوس جميع القادة لاحساسهم بوجود شـخصية ذات سلطة سياسية عليا معهم ، وعند عودته الى الوطن شعروا بفراغ كبير ٠

وكنت لم أسمع عن ولدى راندولف كثيرا فى الايام الاخيرة وقد كان واحدا من الفدائيين الذين تفرق شملهم الآن الى حد ما فى الصحراء ، وفى

٧ يونيو وصلتني برقية منه عن طريق وزارة الخارجية أرسلها من القاهرة بعد اطلاع سفيرنا عليها السير مايلز لامبسون ، ويقول فيها :

[« أرى – لننتصر في القتال – ضرورة وجود شخصية مدنية ذات كفـــاءة في الميدان ، توضح المعـــالم السياسية والاستراتيجية يوما بعد يوم ، فلم لا تبعث بأحد أعضاء وزارة الحرب هنـا يرأس كل الجهـــود الحربية ، وكل احتياجه لا يتعدى – فضلا عن مجموعة صغيرة من الموظفين – الى رجلين قديرين ينسق أحدهما شئون التموين ، ويقوم الآخر بالرقابة والدعاية • ويرى هنا كثير من المفكرين أن الحاجة ملحة لتغيير جوهري ، وليس الى تبديل الأفراد فحسب ، فالفرصة سانحة تماما لاجراء تعديل في الكيان كله ، أرجو أن تغفر اقلاقي لك ، فقد اضطررت اليه ليقيني بأن الوضع هنا أصـبح لا يحتمل وأن العمل العاجل ضروري لأي نصر متوقع »]

ولا ريب في أن هذه الرســالة دعمت نواياي نحـــو العمل النهائي الحاسم ، وقد أرسلت اليه بعد اسبوعين : « لقـد توافقت آراؤك القيمة والمرتبة في رسالتك الى مع ما كان يخـــالج نفسي من أفكار منذ مدة غير قليلة » ، وعلى هدى من ذلك اتخذت طريقي •

وكان الكبتن أوليفر ليتلتون قد اشترك في الوزارة وزيرا للتجارة منذ أكتوبر سنة ١٩٤٠ وكنت أعرفه منذ صـــباه ، ففي غضون الحرب العالمية الاولى اشترك في وحدة قاذفي القنـــابل ، وأصيب مرات عديدة ببعض الجراح ، واســـتحق عددا من الأوســـمة ، وبعد أن ترك الخدمة العسكرية خاض غمار الاعمال الحرة ، وأصبح عضـــو مجلس الادارة المنتدب لشركة معدنية كبرى ، ولما كنت واثقا من مواهبه الخـــاصة فقد عملت على اشراكه في البرلمان واسهامه في الوزارة ، وقد استأهل تقديرا من جميع زملائه في حكومتنا القومية ، وكنت قد تعديت وجهة نظره في توزيع الملابس بالبطاقات ، ولكن لما وافق مجلس الوزراء ومجلس العموم على ذلك رضيت به ، ولا شك في أن ذلك جاء في أوانه ؛ لقـــد كان رجلا كفؤا للعمل بمهـــارة في كافة الميـــادين ، مما جعلني أثق في صلاحيته للمنصب المقترح الجديد ، كعضو في وزارة الحرب مقره الشرق الأوسط ولا شك في أن هذا العمل سيخفف كثـيرا من العبء الواقـــع على القادة العسكريين ، وأيد كل زملائي من جميع الأحزاب هذا الرأى ، وعلى ذلك عين على أن تكون مهمته الأولى « المساهمة في حمل التبعات المنوطة بالقادة

العسكريين واصدار التعليمات العاجلة على هدى من تفهم سياسة حكومة جلالته في شتى الشئون المتعلقة بمختلف الوزارات والدوائر التي كانت تصل قبل ذلك الى لندن للفصل فيها » ٠

ولا شك في أن هذه التنظيمات الجديدة ، بما تتضمنه من نتائج ادارية ، جاءت ملائمة كل الملاءمة للتغيرات التي حدثت في قيادة الشرق الأوسط ٠[٢]

نيميسيس
آلهة الثأر السوفيتية

تقـــول الأساطير « أن نيميسيس آلهة غاضبة ، تنزل النقمة بكل خط يتجاوز الحدود ، وتحد من غلواء كل مغرور ، وتثأر من كل من يقترف جريمة نادرة الوقوع » .

وعلينا هنا أن نوضح تماما ما ترددت فيه الحكومة السوفيتية من أخطـــاء فاضحة ، وغرور مأفون قدرت على أثره الموقف هى وجهازها الشيوعى الضخم ، وأن نكشف ما كان يسودها من جهل أبعـــدها عن ادراك حقيقة موقفها .

وكانت هذه الحكومة قد أبدت عدم اهتمامها بمصير الدول الغربية على الرغم من أن هذا لا يعنى سوى تحطيم الجبهة الثانية التى قامت بعد ذلك بقليل للمطالبة الملحة بها ، وظهر أن هذه الحـــكومة لم يدر فى خاطرها أن هتلر قد عقد العزم منذ شهور ستة على تدميرها ، واذا كانت مخابراتهـــا قد أوصلت اليها انباء انتشار القوات الألمانية على مدى واسع فى اتجاه الشرق ، وقد أخذ يتضاعف يوما بعد يوم ، فانهـــا تكون قد تغـــافلت عن اتخـــاذ اجراءات حاسمة لمواجهتـــه ، فهاهى ألمانيا تحت رضائها تجتاح البلقان بأكمله ، وحكومة السوفييت تنكر الديمقراطيـــات الغربية وتستهين بها ، ولكن كان فى استطاعتها أن تؤازر بريطانيا فى تكتيل دول البلقان الأربع ، تركيا ، ورومانيا ، وبلغاريا ويوغوسلافيا فى حلف واحد لمقاومة هتلر بالنسبة لأن هذه الدول تعتبر ذات أهمية خاصة لأمنها وسلامة حدودها ، ومع ذلك فقد رضيت بأن تنهـــار وأن تجتاحها الفوضى والاضـــطراب ، وأن تختفى واحدة بعد واحدة عـــدا تركيا - من الوجود ، وقد تكون الحرب فى مجملها مجموعة من الاخطاء ، ولكننى أشك فيما اذا كانت هناك جريمة أخرى تعادل فى شــــناعتها ما ارتكبه ستالين وقادته السوفييت من جرم عندما تغاضوا عن كافة امكانيات دول البلقـــان ولبثوا فى حالة خمول وتراخ أو جهل وحاجة

المزيد من الادراك ؛ ينتظرون الخطر الجامح الذى كان مسلطا على رقبة روسيا ، وكنا آنذاك نعدهم فئة من الأنانيين فى تقديراتهم ، ولكنهم أكدوا لنا فى تلك الفترة أنهم سذج مغفلون كذلك وكان علينا أن نرى فى ميدان المعركة كل ما اشتهر عن « روسيا الأم » من شجاعة وقدرة على الحشد والاحتمال ، ولكن بالنظر الى الاستراتيجية والسياسة وتفهم الأمور فقد بدأ ستالين ورفاقه فى هذه الفترة كأغبى الناس فى تاريخ الحرب العالمية الثانية .

وكانت عملية « بربروسا » التى أصدر بها هتلر تعليماته فى ١٨ أكتوبر سنة ١٩٤٠ ؛ تتضمن الخطة لحشد القوى بصورة عامة كما وضحت التبعات الأولى للجيوش التى حشدها ضد روسيا ، وكان كل عدد الوحدات الألمانية الموجودة فى ألمانيا عند اصدار هذه التعليمات يزيد عن أربع وثلاثين فرقة ؛ وزيادة هذا العدد الى أكثر من أضعافه الثلاثة عمل هائل يدل على التخطيط والاعداد . استنفد الأشهر الأولى من سنة ١٩٤١ ، واحتاجت المغامرة البلقانية . التى رضى هتلر أن يخوض غمارها أن يوجه فى شهر يناير وفبراير حوالى خمس فرق ، من الشرق الى الجنوب ثلاث فرق منها مدرعات ، ولم يأت شهر مايو حتى كانت القوات الألمانية فى الشرق قد وصل تعداد فرقها الى سبع وثمانين ، بينما كان هناك خمس وعشرون فرقة تواجه الموقف فى البلقان ، واذا ما نظرنا جيداً الى ماينطوى عليه غزو روسيا من أخطار ، وما يلزمه من قوات ؛ فقد كان من خطل الرأى تحويل الحشود لهذا العمل الخطير ، وسنعرف بعد قليل كيف أرغمت احداث البلقان ، ومقاومتنا الصامدة هناك ، ولاسيما ثورة يوغوسلافيا ، أرغم كل ذلك هتلر على ان يؤجل مغامرته الكبيرة خمسة أسابيع أخرى ، ولم يكن أحد يعرف مدى أهمية هذا التأخير وآثاره ، الا حين حل الشتاء ، وما صحبه من تغيير فى اقدار الزحف الألمانى على روسيا ، ومن الطبيعى أن يرى الانسان أن الفضل لهذا التأجيل فى تجاه موسكو ، وقد تم خلال شهر مايو وبداية يونيو سحب اغلب الفرق الألمانية المدربة تدريبا جيداً من البلقان الى الجبهة الشرقية ، وكان الألمان فى ابان هجومهم يملكون مائة وعشرين فرقة من بينها سبع عشرة فرقة مدرعة واثنتا عشرة فرقة آلية ، وتبعت ست فرق رومانية أخرى مجموعة القوات الجنوبية ، وكان هناك ست وعشرون فرقة أخرى تجمعت أو هى على وشك التجمع كقوات احتياطية ولم يكد يطلع يوليو حتى كان لدى القيادة الألمانية فرصة استخدام مائة وخمسين فرقة على اقل تقدير،

تسندها قوة السلاح الجوى الالمانية الضاربة . وتقدر بحوالى الفين وسبعمائة طائرة .

وكان يخالجنى الشك حتى شهر مارس فى تصميم هتلر على قتال روسيا . ولم يدر بخاطرى أن ذلك سيحدث قريبا جدا . وكانت مخابراتنا قد أمدتنا بملعومات مفصلة عن تحركات الجيوش الالمانية الكبيرة فى اتجاه دول البلقان . وهو ماشهدته الشهور الثلاثة الأولى من عام ١٩٤١ . وكان فى مقدور جواسيسنا الانتقال بحرية فى تلك البلاد نصف المحايدة ، وأن يواصلوا اطلاعهم الدقيق على تحركات الجيوش الألمانية الهائلة فى السكك الحديدية او فى الطرق المعبدة الى الجنوب الشرقى ؛ لكن هذه التحركات كافة لم تكن تقطع الشك بأى محاولة من غزو روسيا . وكان من السهل تفسيرها برغبة المانية فى المحافظة التامة على مصالحها برومانيا . وبلغاريا ، وما تضمره نحو اليونان . وأوضاعها مع يوغوسلافيا والمجر . أما التقريرات عن التحركات الواسعة التى تقع عبر المانيا تجاه الجبهة الروسية أساسية وهى التى تمتد من رومانيا حتى البلطيق ، فكانت اقل وأصعب تفهما مما سبق . وكان فى تفكيرى ان فتح آلمانيا لجبهة رئيسية أخرى مع روسيا فى هذه الآونة ، وقبل ان تستقر الاوضاع فى البلقان أمر يثير الدهشة حقا لأنه بعيد فى غرابته .

ولم يحدث ما يشير الى انتقاص القوى التى تواجهنـــا بهـا المانيا عبر المانش ، فمايزال الهجوم الجوى الالمانى على بلادنا فى عنفوانه ، وكان مجرد غفلة روسيا السوفييتية ثم قبولها اخيرا لهذا التدفق الألمانى على رومانيا وبلغاريا ، والبراهين التى بين أيدينا على مدى العون الضخم الذى تمد به روسيا المانيا ، والاشتراك الواضح فى مصلحة الدولتين حين تسحق الامبراطورية البريطانية ويجتاح الشرق ، كل هذا يوحى لنا بأن هتلر وستالين يفكران فى صفقة مشتركة على حسابنا ولن يقف احدهما موقف العداء من الآخر ، وها نحن الآن قد ادركنا أن هذه الصـــفقة كانت من بين آمال ستالين الواسعة التى طالما طافت بأحلامه .

وكان يتفق معى فى هذه المشاعر والتقديرات أفراد لجنة للمخابرات ، وقد حملوا إلىّ فى ٧ ابريل ان أخبارا تجوب الآن انحاء أوربا عن خطة المانيا فى اجتياح روسيا ، ولكنهم رأوا أن هذا الاحتمال مســتبعد فى الظروف الراهنة على الاقل ، لأنه بالرغم من تدفق جيوش المانية ضخمة على الشرق ، واحتمال قتال المانيا لروسيا فى وقت آخر ، فان الوقت

الحاضر غير ملائم لتخوض ألمانيا مع روسيا غمار معركة رئيسية . وقد رأوا أن الاحتمال المعقول أن يظل هدف ألمانيا الجوهري فى عام ١٩٤١ هو انزال هزيمة ببريطانيا . وفى ٢٣ مايو رأى أعضاء هذه اللجنة المشتركة ممن يمثلون القوات المسلحة الثلاثة ، ان شـــائعات الهجوم الألمانى على روســـيا قـد ضعفت قليلا ، وأن الشائع الآن هو اعتزام البلدين توقيع معاهدة جديدة بينهما فى أقرب فرصة .

وكان رؤساء اركان حربنا أكثر معرفة من معاونيهم ، وأشد تثبتا ، فقد أرسلوا تحذيرا الى قيادة الشرق الاوسط العامة فى ٣١ مايو ، جاء فيه : « لدينا البراهين الدالة على أن الألمان يجمعون قوات هائلة وسلاحا جويا كبيرا ضد روسيا ، ومن المحتمل أن يطلبوا منها مهددين لها طلبات تضر بصالحنا ، فاذا أبى الروس شنوا عليهم الهجوم » .

وفى ٥ يونيو رأت لجنة المخابرات المشتركة أن الاعدادات العسكرية الألمانية فى شرق أوربا واسعة النطاق . وان شيئا حاسما سيحدث أكبر أهمية من أى اتفاق اقتصـــادى وربما تهـدف ألمانيا الى أن تزيل من حدودها الشرقية أى خطر محتمل أن يكون مصدره القوات السوفييتية الهائلة العدد ، ولكن اللجنة حائرة تماما فى تعيين الهدف الحقيقى وهل هو الحرب أم المعاهدة ؟ »

ولم أقنع بهذا الأسلوب من التقارير العامة ، وملت الى أن اطلع بنفسى على مصـــادر هذه التكهنات ، فرغبت الى الرائد (الميجـــور) ويزموند مورتون ، بأن يجهز لى قصاصات مختارة من التقارير منذ بداية الصيف لسنة ١٩٤٠ ، وأن يستمر فى هذا العمل يوميا ، مما استطعت به استنباط وجهة نظر خاصة عن القضية قبل وقـوع أحداثها بزمن كاف .

وعندما اطلعت على تقرير المخابرات ، أرسله أحد عيوننا الموثوقة جدا ، فى يوم من الأيام الأخيرة من شهر مارس سنة ١٩٤١ ، شعرت بكثير من الارتياح لدى قراءته ، وكان عن تحركات المدرعات الألمانية ، والتحركات المضادة لها على الخطوط الحديدية والواصلة بين بوخارست وكراكاو ، وقد أوضح هذا التقرير أنه عقب توقيع الوزراء اليوغوسلافيين على الميثاق الثلاثى ، فان ثلاث فرق مدرعة (بانزر) من بين خمس فرق كانت قد عبرت رومانيا جنوبا فى اتجاه الحدود اليونانية واليوغوسلافية قد اتجهت الى الشمال نحو كراكاو ثم عادت على التو أدراجها بعد ثورة

بلجراد . ورجعت الفرق الثلاث الى رومانيا وليس من سبيل الى ان تسير هذه الاعداد الضخمة من القطارات التى تصل الى ستين قطارا ثم تنقلب على عقبها فورا . دون أن يقع على ذلك عملاؤنا اليقظون فى المنطقة .

وأضاءت لى هذه المعلومات الطريق لتفهم الموقف ، فتوجه هذا العدد الضخم من المدرعات الى كراكاو وتحوله عن المسرح البلقانى فى أشد الأوقات احتياجا له ، يعنى بصورة واضحة أن هتلر قد بيت عزمه على الهجوم على روسيا فى شهر مايو ، وهذا ماوثقت فيه غاية الثقة . أما عودة هذه المدرعات فلا تعنى سوى أن تأجيلا حدث لموعد الهجوم على روسيا من مايو الى يونيو ، واتجه تفكيرى الى تلمس سبيل لاستثارة ستالين وانذاره بهذا الخطر المحدق ، محاولا أن يكون بينى وبينه من اتصلات ما بينى وبين الرئيس روزفلت ، وأرسلت اليه رسالة مختصرة يحوطها الغموض ، آملا أن يثير هذا الغموض وكونها أول رسالة أرسلها اليه بعد الرسالة الرسمية التى ابرقت اليه بها فى ٢٥ يونيو سنة ١٩٤٠ ، أوصى فيها بقبول تعيين السير ستافوردكريبس سفيرا لنا فى روسيا ، أن يثير هذا وذاك انتباهه للموقف وهذا هو نص رسالتى :

— « من رئيس الوزراء الى السير ستافورد كريبس ، ٣ أبريل ١٩٤١ » .

— « مع هذا رسالة خاصة الى المستر ستالين ، بشرط ابلاغها اليه شخصيا » .

—[« لدى براهين وثيقة من مصدر لا يتطرق اليه الشك بأن الألمان عندما يتيقنون من وقوع يوغوسلافيا فى قبضتهم — أى بعد ٢٠ مارس — بدأوا يتحولون بثلاث فرق مدرعة من فرقهم الخمس من رومانيا الى جنوب بولنده ، وعندما فاجأتهم ثورة الصرب ، عادت الفرق على أعقابها ، ولا شك فى أن فخامتكم ستقدرون هذه الحقائق الهامة » .]

ولم يصلنى رد من السفير الا فى ١٢ ابريل عندما اخبرنى أنه قبيل تسلمه رسالتى كان قد وجه خطابا خاصا الى فيشينسكى ، وأوضح فيه تخاذل الحكومة السوفييتية عن مواجهة احتياج ألمانيا لدول البلقان ، وحث الاتحاد السوفييتى بعبارات شديدة ، من أجل

مصالحه الخاصة أن يحول سياسته الى سياسة متآزرة مع الدول التى لا تزال تحارب المحور فى تلك الجبهة ، وأضاف السفير قائلا :

[واذا كنت الآن سبلغ ستالين عن طريق مولوتوف برقية رئيس الوزراء ، التى يفهم منها نفس الفكرة ولكنها تعرضها بصورة أكثر اختصارا وحزما ، فانى أخشى أن يكون تأثيرها الوحيد إضعافا للأثر الذى أبقته رسالتى فى نفس فيشنسكى ...] .

وقد احنقنى هذا التصرف ، والتأخير الذى حدث ، وكانت هذه هى الرسالة الوحيدة التى ارسلتها الى ستالين شخصيا قبل أن يُشن الهجوم ، وكان الهدف من ايجازها ، والظروف الخاصة بها ، وصدورها عن رئيس حكومة لتبلغ مباشرة وبصفة شخصية عن طريق السفير الى رئيس الحكومة الروسية ، كان الهدف من كل ذلك أن تقع موقعا خاصا من نفس ستالين وتثير انتباهه لما حوله ، وقد عرفت أخيرا أن السير ستافورد كريبس قد سلمها الى فيشنسكى فى ١٩ أبريل ، وأن هذا بدوره قد أبلغ السفير فى يوم ٢٣ ، أن مضمون الرسالة قد بُلّغ الى ستالين .

وليس فى استطاعتى أن أقرر جازما مدى ما كانت تفعله رسالتى لو سارت فى الطريق الذى رسمته لها ، وما فيه من اختصار وشكليات ، فى مجرى الحوادث ، ولكنه ما زال يحز فى نفسى الا تنفذ تعليماتى كما رسمتها . فلو أتيح لى اتصال شخصى بستالين لاستطعت فى الأعم الاغلب أن احول دون تدمير جزء كبير من سلاحه الجوى على الأرض .

الآن نحن نعرف أن تعليمات هتلر فى ١٨ ديسمبر قد عينت يوم ١٥ مايو موعدا لشن الهجوم على روسيا ، وان الغضب الذى اجتاحه بسبب ثورة يوغوسلافيا قد أجلت هذا الموعد شهرا ، ثم عاد الموعد فتأجل ثانية الى يوم ٢٢ يونيو ، ولم تتطلب طبيعة التحركات الألمانية فى شمال الجبهة الشرقية حتى منتصف شهر مارس أية وسائل لاخفائها وعلى كل فقد اقتضت الأوامر الصادرة من برلين فى ١٣ مارس اغلاق البعثات الروسية العاملة فى المانيا وارجاعها الى وطنها ، فلم يصبح من المحتمل أن يستمر الروس فى المانيا بعد يوم ٢٥ مارس وفى خلال ذلك الوقت كانت مائة وعشرون فرقة المانية من أفضل الجند تنتشر على مدى الجبهة الروسية ، وتتوزع فى ثلاثة تشكيلات ، وكانت المجموعة الجنوبية تحت قيادة رونشتادت ـ منهوكة القوى للعوامل التى سبق

أن أوردتها ، ولم تكن فرقها المدرعة (البـــانزر) قد قدمت من اليونان ويوغوسلافيا الا منذ فترة قليلة ، وكانت على الرغم من أن الغزو قد تأجل الى ٢٢ يونيو فى أمس الحاجة الى الراحة والاستصلاحات ، بعد مابذلته من جهد آلى فى البلقان .

وفى ١٢ ابريل وصل الى برلين شولنبرج من موسكو ، ولم يستدعه هتلر للقائه الا فى يوم ١٨ من الشهر نفسه . واشبعه شتائم فى روسيا ولكن شولنبرج تمـادى فى تأكيد الرأى الذى أبداه فى كافة رسائله ، وذكر أن روسيا قد اكدت لمندوبينا الاقتصاديين استعدادها اذا طلبت وعبر عن ثقته الشديدة فى استعداد ستالين للتنازل عن أشياء جديدة فى ظروف ملائمة تقدم الينا خمسة ملايين طن قمحا فى العـام ، ورجع شولنبرج من اصرار هتلر على القتال ، ويبدو أن تحذير سفير روسيا فى برلين الى موسكو فى ٣٠ ابريل مصابا بخيبة الأمل من هذا اللقاء ، فقد أيقن ديكانزوف من الموقف واستمر شولنبرج فى موقف الذود عن سياسة التفاهم الروسى ــ الألمانى حتى النهاية .

وكان ديزاكر ، الرئيس الرسمى لوزارة الخارجية الألمانية ، من نوع الموظفين المهرة الذين تجدهم فى دوائر الحكومة فى كل الدول ، ولم يكن ديزاكر سياسيا صاحب سلطات تنفيذية ، وهو فى اعتبـــار التقاليد البريطانية لا يعد من بين المســئولين عن ســياسة الدول ، ومع ذلك أصدرت عليه محـاكم الحرب التى انشأها المنتصرون حكما بالسجن لمدة سبع سنوات ، وعلى الرغم من معاملته كمجرم حرب الا أنه قد قام بالنصح الحسن لرؤسائه ومن يمن طالعنا أنهم لم يســـتمعوا اليه ، فقد لخص رأيه فى هذه المقابلة بقوله « بودى أن أوجز رأيى عن العـلاقة بين المانيا وروسيا ، فلو كانت كل مدينة روسية تسعى الى تدميرها تساوى عندنا اغراق بارجة بريطانية ، فاننى كنت حينئذ أؤيد فكرة الهجوم هذا الصــــيف على روسيا ، ولكننى متأكد اننا سننتصر على روسيا عسكريا فحسب ، أما اقتصاديا فسنبوء بالخسران .

وقد يكون من المثير حقا تسديد ضربة قاضية الى النظام الشيوعى وقد يقال ايضا أن المنطق يقتضى نشر سيطرتنا على هذه القارة الأوربية الآسيوية ، لنســـتطيع بعد ذلك حشد قوانا فى الصراع ضــــد العالم الانجلو ــ سكسونى وتابعيه ، لكن السؤال الذى سيظل يتردد ، هل هجومنا على روسيا سيعد خطوة فى سبيل القضـــاء على انجلترا .. وســـيمنح غزونا لروسـيا طاقة معنوية جديدة لبريطانيا ، فسيفهمونه

على أن الباعث اليه عدم لقتنا فى الانتصار عليهم ، ويعتبر قيامنا بهذا الغزو ليس اعترافا بأن الحرب ستمتد فحسب بل عملا فعالا على امتداد زمنها بدلا من تقريب نهايته » .

وفى ٧ مايو أخبر شولنبرج حكومته بأن ستالين قد تولى بنفسه رئاسة الحكومة السوفييتية (مجلس مفوضى الشعب) بدلا من مولوتوف وكان هذا بالنسبة اليه يبعث الأمل من جديد ، فأضاف الى ذلك قائلا « اننى متأكد من أن ستالين بحكم منصبه الجديد سيكون عاملا فعالا فى استمرار الصلات الطيبة بين روسيا وألمانيا والحرص عليها » .

وردد نفس الفكرة ملحق ألمانيا البحرى فى موسكو ، كما جاء فى البرقية التى أرسلها « أن ستالين هو مرتكز التعاون الالمانى ـ السوفييتى » وتضاعفت البراهين على رغبة روسيا فى خدمة ألمانيا ، فاعترفت الحكومة الروسية فى ٣ مايو اعترافا رسميا بحكومة رشيد عالى فى العراق الموالى لالمانيا ، وطرد المفوضان الديبلوماسيان لحكومتى بلجيكا والنرويج من موسكو فى ٧ مايو ، ولقى الوزير اليوغوسلافى نفس المصير للنمسا لرضاء ألمانيا ، وفى بداية شهر يونيو انهت روسيا عمل المفوضية اليونانية فى بلادها وقد سجل الجنرال توماس ، رئيس قسم الاقتصاد فى وزارة الحرب الالمانية فى تقرير كتبه فيما بعد عن اقتصاد الرايخ الحربى ما يلى :

[ـ « استمر الروس فى ارسال عونهم حتى مساء اليوم الذى بدأ منه الغزو ، وقد نقلنا بسرعة المطاط من الشرق الأقصى فى الايام الأخيرة باستخدام القطارات السريعة » .]

ولم تصلنا معلومات كافية عن حقيقة الأوضاع فى روسيا ، ولكن الغايات الألمانية كانت فى غاية الوضوح ، وقد أرسلت برقية الى الجنرال سمطس فى ١٦ مايو قلت فيها :

« يبدو أن هتلر يعبىء قواته ضد روسيا ، فهناك تحركات مستمرة للحشود والفرق المدرعة وسلاح الطيران من البلقان شمالا ، ومن فرنسا وألمانيا شرقا » .

ولا شك فى ان ستالين قد بذل الكثير فى سبيل الابقاء على انطباعه النفسى الخاص نحو هتلر ، للدرجة التى استطاع شولنبرج أن يرسل الى وزارة الخارجية فى ١٣ يونيو أى بعد مرور شهر بأكمله على تحركات القوات الألمانية الضخمة وحشدها ، يرسل ما يلى : « أبلغنى مفوض

الشعب مولوتوف منذ قليل محتوى البيان الذى ستذيعه وكالة تاس الليلة . والذى ستنشره صحف موسكو فى الغداة ، وهذا نصه :

[« قبل أن يذهب سفير بريطانيا كريبس الى لنـدن ، وبعد عودته خاصة ، روجت كثير من الشائعات ، عن قتال يوشك أن ينشب بين روسيا والمانيا ، وقد روجت هـذه الشائعات الصحف الانجليزية والأجنبية ...]

[وبالرغم مما فى هذا من كذب سخيف ، فان المسئولين فى موسكو رأوا أن يؤكدوا أن هذه الترهات ليست سوى مناورات سيكلوجية طائشة ، يشنها أعداء الاتحاد السوفييتى والمانيا هادفين الى نشر الحرب واندلاعها » .]

وبات فى مقدور هتلر أن يحس بالرضا لنجاحه فى اضفاء السرية التامة على تحركاته ، وفى خداع الفريسة التى ما زالت تحيا تحت سيطرة الأوهام .

وخليق بنا أن لا ننسى هنا غفلة مولوتوف الى آخر لحظة ، فقد أرسل شولنبرج برقية فى الساعة الواحدة والدقيقة السابعة عشرة من صباح ٢٢ يونيو ، الى وزارة الخارجية الالمانية جاء فيها :

[« فى التاسـعة والنصف من هذا المسـاء اسـتدعانى مولوتوف ، وبعد أن حدثنى عن حوادث اختراق طائراتنا مرارا للحدود الروسية قال : « هناك براهين عديدة على عدم رضاء الحكومة الالمانية عن الحـكومة الروسـية ، وقد تضافرت الأنباء على أن القتال أصبح لا محالة منه بيننا وبين ألمانيا ، وليس فى استطاعتنا آن نجد مبررا لهذا التغير من جانب المانيا ... ولذا سيكون شاكرا اذا أبلغته العوامل التى طورت الموقف الى هذا الحد فى الصلات بين المانيا وروسيا »]

[وقد أجبته بأنى لا أملك التفسيرات للموقف ، لاننى محتاج الى معلومات كافية ، كما وعدته بأن أبلغ رسالته الى برلين » .]

ولكن الموقف كان قد وصل الى غايته ، وفى الساعة الرابعة من صباح اليوم نفسه اى فى يوم ٢٢ يونيو سنة ١٩٤١ ، كان رينتروب يقدم اعلان الحرب الرسمى الى سفير روسيا فى برلين ولدى الفجر كان هناك

لقاء بين شولنبرج ومولوتوف فى الكرملين كذلك ، وانصت جيدا الأخير الى الرسالة التى تلاها السفير الالمانى ثم قال :

[« اذن هو القتال ، لقد اغارت طائراتكم منذ هنيهة على عشر قرى مكشوفة ، فهل انت على يقين بأننا نستأهل منكم ذلك ؟ » .]

وكان من الصعب علينا بعد البيان الذى اذاعته وكالة تاس ، وقد أوردته منذ قليل ، أن نقول شيئا بعد التحذيرات الكثيرة التى وجهها أيدن لسفير روسيا فى لندن ، أو الى ما قمت به بنفسي لأثير انتباه ستالين للخطر الذى يدهمه ، وكانت حكومة امريكا قد أطلعت روسيا على تفاصيل دقيقة لتطور الأوضاع ، ولكن ما فعلناه ذهب هباء ازاء المصطلحات النهائية التى حال بها ستالين بينه وبين رؤية الموقف الرهيب ، وعلى الرغم من أن التقديرات الألمانية ذكرت أن مائة وستا وثمانين فرقة روسية قد وقفت على الحدود ومن بينها مائة وتسع عشرة فرقة فى مواجهة القوات الالمانية ، فان الواضح أن الحشود الروسية قد فوجئت تماما بالزحف الألمانى ، ولم يجد الألمان اثرا لأية استعدادات دفاعية فى المناطق المتقدمة ، وقد اسرعت الى الانهيار كل الوحدات الروسية التى حشدت على الحدود ، وكان من المحتم أن كارثة كتلك التى حاقت بالسلاح الجوى البولونى فى أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، ولكن على مدى أوسع ، بالمطارات الروسية ، وفوجئت مئات الطائرات هناك عند الفجر وهى رابضة فى أرض مطاراتها ، فتحطمت قبل أن تستطيع التحليق فى الجو ، وهكذا كان دوى القذائف الالمانية عند الفجر أقوى من صوت الدعاية الروسية التى قامت فى أثناء تلك الليلة يشن حملة واسعة ضد بريطانيا وأمريكا ، وهكذا نرى أن الشريرين ليسوا دائما أذكياء ، وأن الطغاة ليسوا دائما على صواب .

وليس لى أن استمر فى البحث دون الاشارة الى الاجراء الفظيع الذى قرر هتلر أن تتبعه السياسة الالمانية ضد اعدائه المحدثين ، والذى اتخذ تحت هول القتال المرير فى المناطق المجدبة وبين غضب الشتاء ففى يوم ١٤ يونيو سنة ١٩٤١ عقد اجتماعا اصدر فيه توجيهات شفوية بشأن معاملة القوات الالمانية لجنود الجيش الروسى وافراد الشعب السوفييتى فى تلك المعاملة التى بلغت غاية القسوة والوحشية ، وقد أدلى الجنرال هولدر فى محاكمات نورمبرج بالشهادة التالية :

٨***

[« قبل بدء الهجوم على روسيا دعا الفوهرر إلى إجتماع خاص حضره جميع القادة والأفراد الذين هم على علاقة بالقيادة العليا ، ليتناقش معهم بشأن الهجوم المنتظر على روسيا وقد نسيت موعد الاجتماع بالضبط ولكنى لم أنس ما قاله هتلر من أن القتال الذى سينشب مع روسيا يجب أن يكون مغايرا تماما للقتال الذى شن على الغرب ... وأضاف الفوهور إن النزاع بين روسيا وألمانيا هو نزاع روسى ، ولما كانت روسيا لم تشترك فى معاهدة جنيف فان أسرى الحرب يجب أن يعاملوا معاملة خاصة غير التى تنص عليها المعاهدة .. وذكر أيضا أن من يسموا بالمفوضين يجب ألا يعتبروا من أسرى الحرب » .]

وكتب كايتل مايلى :

[« كان هتلر يرى أن القتال سيكون حاسما بين مبدئين وانه نظرا لذلك فلا يجب أن نستخدم مع روسيا فى هذا القتال الأساليب التى نقرها نحن الجنود ، والتى يقر العرف القانونى الدولى بأنها الأساليب الوحيدة الصائبة» .]

وفى مساء يوم الجمعة ٢٠ يونيو ذهبت وحيدا بسيارتى الى نشيكرز ، وكنت أعرف أن الاجتياح الألمانى لروسيا قد يبدأ بعد أيام أو بعد ساعات ، وكنت قد انتويت توجيه رسالة من الاذاعة فى مساء السبت ، خاصة بهذا الشأن ، فكان على طبعا ، أن أصوغ أفكارى فى كلمات دقيقة ، اختارها بكل عناية ، خصوصا وقد أعتبرت الحكومة الروسية فيما سبق كل ما يصدر عنا من نصائح أو تحذيرات — جهلا منها أو تكبرا — ليس سوى محاولة يائسة من قوم حاقت بهم الهزيمة لدفع الآخرين الى نفس المصير ، وعلى هدى من هذه الخواطر التى دارت بنفسى فى السيارة ، رأيت تأجيل الاذاعة الى مساء الأحد ، اذ يزداد الموقف وضوحا ، وهكذا مضى يوم السبت بأعبائه العادية .

وعندما صحوت صباح الأحد ٢٢ يونيو ، استمعت الى أخبار مشروع هتلر فى هجومه على روسيا فانتقل اليقين الى واقع ، ولم يعد لدى أى تردد فى اختيار الموقف الذى يجب علينا أن نلتزمه ، كما كنت على يقين مما سيذيعه ، ولا ينقصنى فى هذا السبيل الا اعداده ، وطلبت من الاذاعة أن تعلن عن اذاعة لى فى تمام التاسعة مساء ولحق بى

الجنرال ديل من لندن ، حاملا لى كل تفاصيل الموقف ، لقد كان الهجوم الالمانى على منطقة عريضة ، وفاجأوا قسما كبيرا من طائرات السلاح الجوى الروسى وهى رابضـــة فى أماكنها ، ويبـــدو أن الألمان يواصلون توغلهم فى سرعة كبيرة وبمنتهى الغلظة والعنف ، وأضاف رئيس أركان حرب الامبراطورية قوله وانا واثق من أن الجيوش الروســـية ســـيتم حصارها فى مجموعات كبيرة » .

وأمضيت النهار فى إعداد كلمتى ، ولم تكن لدى الفرصـة لأستطلع آراءوزارة الحـرب كما لم أجد ما يحتم هذا فقـــد كنت على ثقـــة من مشاركة الجميع لى بمشاعرهم ازاء هذه المسألة وزارنى المستر ايدن واللورد بيفر بروك والسير ستافورد كريبس ، الذى كان قد ترك موسكو فى ١٠ يونيو ، وقد قلت فى غضون الخطاب الذى وجهته للاذاعة « لا تكاد النازية تختلف عن أســـوأ ملامح الشيوعية ، فالنازية مجدبة من كل اعتقاد ومن أية مبدأ ، اذا استثنينا نزعة السيطرة العنصرية الغاشـــمة ، أن النظام النازى فى عنفه ووحشـــيته يفوق كل ما يتصور من نظم همجية قاسية وأنا أشد الناس كرها للشيوعية . وأكثرهم عداء لها ومقاومة فى مدى الخمسة والعشرين عاما الماضية ، وبكل تأكيد لن أتنازل عن أية كلمة ضدها قلتها سابقا ، ولكن هذا كله يتوارى أمام ما نشهده اليوم، ان الماضى يتوارى فى لمحة بصر بكل ما ينطوى عليه من جرائم وحماقات ومآسى وكل الذى أشهده اليوم هو الجنود الروس ، وقد وقفـــوا على عتبات بلادهم ، يحرسون الحقول التى قلّب آباؤهم تربتهـــا منذ فجر التاريخ ، ويذودون عن البيوت التى تصلّى فيها أمهـــاتهم وزوجاتهم ، حيث يضرع الجميع فى مثل هـــذه الأوقات الى الله ، أن يحفظ لهن أحباءهن ، ومن يتولى أمورهن ، ويدافع عنهن ، ويحميهن ، وانى لأشهد عشرة آلاف قرية روسية ، ينتزع فيها القوت انتزاعا من الارض ومع ذلك ، مع هذه الحياة الجافة فما تزال هذه القرى تموج بأمواج انسانية أصيلة ، حيث تنطلق ضحكات العذارى ، ويتمادى الأطفال فى لهوهم ، وأشهد معدات القتال النازى تغير على هذه القرى فى هجومها المجتاح وفى مقدمة المغيرين الضباط البروسيون يصلصلون ويجلجلون ، ويتأنقون فى لباسهم العسكرى ، والعملاء الماكرون الذين أجادوا وسـائل اخضاع الشعوب وتعذيبها ، (وأشهد كذلك الجموع المنهمرة من جنود الهون بكل ما عرف عنهم من بلادة وخشونة ووحشية وانقياد أعمى وهم ينطلقون فى كتل زاحفـــة كالجراد المنتشر ، وأرى القـــاذفات والطائرات المحاربة الالمانية وهى تذرع الفضـــاء جيئة وذهابا ، وعلى ظهـــورها آثار جراح

احدثتها السياط البريطانية ، وقد هزها الفرح لوقوعها على ما ترى أنه فريسة سهلة الاصطياد .

« وخلف كل هذا الرجاء ، وكل هذه الرياح الهوجاء ، يوجد فريق من الرجال الأوغاد يضعون الخطط ، وينظمون ، ويثيرون هذه الجبال المتراكمة من الشر والحقد على الانسانية جمعاء .

واني لأعلن قرار حكومة جلالته : واني على يقين كبير بأن دول الدومينونات المستقلة ستجد في هذا القرار ما نوافق عليه ونؤيده في الوقت الملائم ، وذلك لأن الظروف تحتم علينا أن نتكلم مباشرة وبدون أرجاء ذلك الى يوم واحد سأعلن هذا القرار ، ولكن هل يخالجكم شك فيما سننهجه من سبل ؟ » .

أن لنا هدفا واحدا واضحا ، وأملا لن نتوانى عن تحقيقه ، فنحن نصر ونصمم على ضرورة القضاء على هتلر وتدمير نظامه النازى ، ولن يحول بيننا وبين هذه الغاية شيء على الاطلاق ، فلن نتحدث أو نتباحث مع هتلر او مع أى واحد من أفراد عصابته ، بل سنقاتله في البر ، وسنقاتله فى البحر ، وسنقاتله فى السماء ، حتى نستطيع باذن الله ، انقاذ البسيطة منه ومن شبحه ، ونحرر الشعوب من قبضة استذلاله ، وكل رجل يقاتل هتلر وكل دولة تقاتل النازية ، سنمد اليها يد العون ، وكل من ينحاز الى جانب هتلر فهو عدونا اللدود .

هذا هو نهجنا ، وهذا هو قرارنا . وعلى هدى من ذلك سنبذل لروسيا ولشعبها كل ما نستطيع من مساعدة ، وسنناشد كافة أصدقائنا وحلفائنا فى شتى أنحاء العالم أن يسيروا فى نفس هذا السبيل ، كما ستسير فيه سياستنا بكل اخلاص واصرار .

« وليست هذه الحرب صراعا طبقيا ، وانما هى نضال مشترك بين الامبراطورية البريطانية وجامعة شعوبها ، دون تميز بالعنصر أو الدين أو الحزب ، وليس من حقى أن أعبر عن أمريكا ، ولكن الذى أستطيع قوله أنه اذا كان هتلر يظن أن زحفه على روسيا سيؤدى الى خلاف فى الرأى أو اضعاف فى البذل ، فى جانب الديمقراطيات العظيمة التى تصر اليوم على محقه والقضاء عليه فانه لبالغ الخطأ اذ أن العكس تماما هو الذى سيحدث ، فهذا الهجوم الجديد لن يؤدى الا الى مضاعفة الجهود المبذولة لانقاذ البشرية من وحشية ، وسنضاعف مواردنا وجهودنا وعزيمتنا .

ولا ارى الوقت مناسبا لتدعيم القيم الاخلاقية ورثاء حماقات الدول التى أعطت العدو كل فرصة لضربها واحدة بعد اخرى بينما كانت تستطيع بالتكتل والعمل الجماعي أن تنجو بنفسها وبالعالم كله ، من هذه الكارثة ، ولكن عندما أشرف منذ قليل الى ظمأ هتلر للدماء ، وشهواته البغيضة التى دفعت به الى مغامرة الهجوم على روسيا ، قلت أن هناك هدفا بعيدا من كل ذلك العنف ، فهو يتطلع بعد ان يحطم القوة الروسية الى أن يعود بقواته الرئيسية وجيشه الجرار وسلاحه الجوى من الشرق الى هذه الجزيرة التى يعلم أن عليه أن يسيطر عليها والا فسيعاقب على كل ما اقترف من آثام ، فهذا الغزو لروسيا ليس الا تمهيدا لهجوم كبير على بريطانيا ، وهو يتطلع بلا ريب الى الخلاص من مغامرته قبل هجوم الشتاء ، لينطلق الى بريطانية فيفرض سيطرته قبل أن يستطيع أسطول امريكا وقواتها التدخل ، انه يستطلع الى استخدام تلك الخطة التى انتهجها كثيرا فى تدمير أعدائه واحدا واحدا وقد أصاب نجاحا الى اليوم فى تنفيذها ، حتى تتهيأ له كل الظروف للقيام بعمليته الأخيرة التى بدونها تظل كافة انتصاراته لا معنى لها ، وهذه العملية هى محاولة السيطرة على نصف العالم الغربى .

ولذلك فان ما يواجه روسيا من أخطار يواجهنا نحن أيضا ويواجه امريكا كذلك ، كما ان قضية كل روسى يهب للدفاع عن أرضه وبيته هى قضية كل انسان حر فى سائر أرجاء العالم ، وهى قضية الشعوب الحرة جميعا وعلينا الا ننسى عبر هذه المحن التى نقاسيها جميعا ، وأن نبذل ــ جهودا مضاعفة ، وأن نسدد متحدين ضربة قاصمة مادامت فينا ارادة ، وإحساس بالحياة .

الحلف الأكبر

من ٧ ديسمبر سنة ١٩٤١ ومايليه

لن أضير أمريكا حين أقول :

[ان انضمام امريكا الينا فى الحرب كان مبعث
سرور لم احس به فى حياتى من قبل]

تشرشل

حلفاؤنا الروس

كان اشتراك روسيا معنا فى الحرب أمرا نحبذه بشدة ، بالرغم من أنه لم يكن مجديا لنا فى هذا الوقت ، فقد بلغت الجيوش الألمانية من القوة ما يمكنها من تهديد انجلترا بالغزو عدة شهور ، وتوغلها فى الوقت نفسه داخل الأراضى الروسية ٠

وقد أجمع القادة العسكريون على أن الجيوش الروسية ستقهر بسرعة وستباد عن آخرها ٠ ولا شك فى أن اغفال الحكومة السوفييتية احتمال مفاجأة سلاحها الجوى فى مطاراته ، وتوانيها عن اتمام الترتيبات العسكرية ، كانا سببا فى البداية السيئة التى لحقت بها ، والتى تحملت الجيوش الروسية أضرارها الجسيمة ٠

وبالرغم من الدفاع الباسل ، ومن قيادة المعركة بقوة جبارة ، وبالرغم من التغاضى عن قيمة الحياة الانسانية ، والبدء فى حرب عصابات طاحنة فى مؤخرة الزحف الألمانى ، بالرغم من ذلك كله حدث تراجع شامل على طول الجبهة التى تمتد ألفا ومائتى ميل من جنوب

لينينجراد الى مسافة أربعمائة أو خمسمائة ميل عمقا • ويرجع الفضل في القضاء على القوات النازية الى عوامل متعددة : سيطرة الحكومة ، وقدرة الشعب الروسى على الاحتمال ، والعدد الوافر من جنود الاحتياط وسعة رقعة البلاد ، وقسوة الشتاء الروسى •

لكن هذه العوامل لم يظهر واحد منها فى عام ١٩٤١ ، وقد أُتهم الرئيس روزفلت بالتهور والجراة حينما أعلن فى سبتمبر أن الروس سيصمدون ، وأن موسكو لن تسقط فى يد هتلر •

ولكن حب الشعب الروسى لبلاده وقوته الفائقة أثبتا صحة ما أعلنه الرئيس •

وكان الجنرال بروك ، الذى صحبنى فى سفرى الى موسكو فى أغسطس عام ١٩٤٢ لعقد عدة اجتماعات هناك ، يرى أن الألمان سيستولون على جبال القوقاز ويصلون الى بحر قزوين ويسيطرون عليه ، ولذلك جهزنا حملة على نطاق واسع للدفاع عن ايران وسورية ، وكان رأيى أنا فى استطاعة روسيا الصمود والمناضلة يفوق دائما رأى مستشارى العسكريين تفاؤلا ، لأننى أيقنت بما أكده لى ستالين فى موسكو من أنه سيحمى خط القوقاز وان الألمان لن يستطيعوا أن يبلغوا بحر قزوين بقوات كثيرة ، ولكنا كنا نجهل فى الواقع الكثير عن موارد الروس وما يضمرونه حتى استعصى علينا تكوين فكرة صحيحة بعيدة عن التخمين •

وفى الواقع أن خوض روسيا الحرب أبعد غارات الألمان الجوية عن بريطانيا العظمى ، وخفف من حدة خطر الغزو الذى كان يهولنا ، ومنحنا فرصة لأن نستجم ونستريح فى البحر المتوسط • ولكن من جهة أخرى حملنا أعباء مضنية وتضحيات كثيرة ، فقد أخذنا نستكمل النقص فى أعدادنا ، وبدأت مصانع الذخيرة يتدفق انتاجها من شتى الأصناف والأحجام ، وكانت قواتنا فى مصر وفى ليبيا تقتحم قتالا طاحنا ، وتطلب مرات ومرات امدادها بأحدث الأسلحة ، وخاصة من الدبابات والطائرات ، وكانت قواتنا هنا تنتظر هى الأخرى على أحر من الجمر ما كانت قد وعدت به من هذه الأسلحة الحديثة المبتكرة التى أخذت تتدفق عليها ، فقد اضطررنا حينئذ الى تطوير معظم أسلحتنا وامداداتنا الهامة المتنوعة ومنها المطاط والنفط • وحملنا على كواهلنا تبعات تنسيق القوافل التى تحمل معدات بريطانيا وأمريكا ، ونقلها الى مورمانسك وأركانجل مجتازين

المحيط المتجمد الشمالى برغم ما فى ذلك من أخطار ومخاوف • ولم ترسل أمريكا الينا الا بعض ما كانت تنوى ارساله من الامدادات عبر المحيط الأطلنطى ، واضطررنا أمام هذا التغير الكبير وتوقع قطع المعونات الأمريكية عنـا دون الاضرار بحملتنـا فى الصحراء الغربيـة ، أن نوقف كل الاستعدادات التى فرضتها علينا ضرورة الدفاع عن شبه جزيرة الملايو وغيرها من أجزاء امبراطوريتنا الشرقية وأملاكنا ضد التهديد اليـابانى المتزايد •

وليس من شك فى أن هناك حقيقة سيسجلها التاريخ حتما ، وهى أن مقاومة الروس هى التى دمرت قوة الجيش الألمانى وأصابتها بأضرار فادحة ، ووجهت الى الطاقة البشرية للشعب الألمانى ضربات قاضية ، وان كنت أرى من الصواب ابراز حقيقة أخرى وهى أن روسيا بقيت أكثر من سنة منذ اشتراكها معنا فى الحرب تشكل حملا علينا لا مساعدا لنا ، وبالرغم من ذلك فقد رحبنا بهذا الحمل كل الترحيب ، حيث أن شعبا قويا سيقف الى جانبنا فى الحرب ، وكنا نحس بأن الجيش الروسى سيقاوم حتى ولو اضطر الى التراجع الى جبال الأورال ، وسيكون أداة فعالة اذا واصل القتال • ولم تكن الحكومة الروسية حتى اللحظة التى أغار فيهـا هتلر على أراضيها تعنى بغيرها من الدول ، وقد ظهر هذا واضحا بعـد ذلك • فقد ظلت واقفة وقفة المتفرج ، الجامد جمود الصخر تشاهد تحطيم جبهتنا فى فرنسا عام ١٩٤٠ ومجهوداتنا الأخيرة فى عام ١٩٤١ لتكوين جبهة فى البلقان • وقد منحت ألمانيا النـازية معونات اقتصادية مهمـة وساعدتها فى نواح كثيرة وان تكن بسيطة ، والآن تحس بأنها قد خُدعت وأُخـذت على غرة وأصبحت معرضة لسلاح ألمانيا الفتاك ، لقـد كانت سياستها التقليدية تملى عليها أن تتجه إلى بريطانيا العظمى وامبراطوريتها لتنـال منها أكبر ما يمكن من معـونة • ولم يتوان الروس عن مطـالبة بريطانيا المناضلة المنهكة فى الحاح بأن ترسل اليهم الذخيرة التى تحتاج اليها قواتهم وحثوا أمريكا على أن تنقل اليهم أكبر كمية من الذخيرة التى كنا نعتمد عليها • وبدءوا يطالبون كذلك ــ وهذا هو الأكثر أهمية ، حتى صيف عام ١٩٤١ ــ بنزول قوات بريطانية فى أوربا دون اهتمام بالأضرار والثمن ، وانشاء القوة الثانية • وبدأ شيوعيو بريطانيا ــ الذين قدموا حتى الآن أردأ ما عندهم فى مصانعنا ، ولم يكن كثيرا ، والذين كانوا يصفون معركتنا « بالحرب الرأسـمالية والاستعمارية » ــ يتحولون بين

عشية وضحاها فيملئون الجدران باللافتات التى تحمل شعارهم « الجبهة الثانية ٠٠٠ الآن » ٠

بيد أننا لم ندع على أية صورة هذه الحقائق المؤسفة المخزية تؤثر فى اتجاه تفكيرنا ، وركزنا نظرتنا على ما يقدمه الشعب الروسى من تضحيات فى ظل تلك الكوارث التى جلبتها حكومتهم عليهم ، ودفاعهم الباسل عن أرض وطنهم ٠ ولا شك فى أن هذه البسالة وذلك النضال طول فترة المعركة ، يكفيان للتعويض عن كل شىء ٠

ولم يفكر الروس مطلقا ، ولو الى حد ضئيل ، فى طبيعة العمليات العسكرية البرمائية الضرورية لنزول قوات على أرض معادية أُحكم الدفاع عنها ، وامدادها بالمعدات والمؤن ٠ وكان الأمريكيون فى هذه الفترة على جهل تام بهذه المصاعب ٠ فالحصول على السيطرتين البحرية والجوية فى مكان النزول والاستيلاء لابد منه ٠ يضاف الى هذين عامل ثالث هام هو ان تأمين أسطول ضخم لا يُهزم من سفن الانزال المجهزة خصيصا لنزول الدبابات فى مجموعات كبيرة ، هو الأساس لنجاح أى غزو مهما يقابله من دفاع ٠ وكنت قد بذلتُ أقصى جهدى وما برحتُ أبذله لتكوين هذا الأسطول ، ولكن لم يكن فى الاستطاعة تأمين بعضه ولو فى دائرة محدودة قبل صيف عام ١٩٤٣ ٠ ولم يكن فى الوسع أيضا ــ وهذا ما يدركه الجميع الآن ــ تنمية قوته على نطاق واسع حتى عام ١٩٤٤ ٠ وفى هذا الوقت الذى بلغناه من صيف عام ١٩٤١ لم نكن قد تمكنا من السيطرة الجوية على أى جزء فى أوربا ما عدا خليج كاله ، حيث توجد أقوى الحصون الألمانية مناعة ٠

وكانت سفن الانزال ما برحت فى دور التشييد ، ولم يكن قد تكون عندنا حتى فى بريطانيا جيش قوى ممرن ، أُحسن تجهيزه واعداده مثل القوات التى لابد أن نلتقى بها على أرض فرنسا عند نزولنا ٠ وبالرغم من ذلك انهمرت علينا سيول من الحمق وردىء القول فيما يتعلق بالجبهة الثانية ٠ وبدهى لم يكن عندنا أمل فى أن نقنع الحكومة الروسية فى هذه اللحظة أو غيرها ٠ وقد رأى ستالين فى كلام لاحق معى أنه اذا كان البريطانيون يخافون هذا النزول فهو على استعداد لأن يبعث بثلاثة فيالق روسية أو أربعة الى بريطانية لتؤدى هى المهمة ولم يكن فى استطاعتى بسبب احتياجنا الى السفن ووسائل النقل العملية الأخرى الا أن أقيده بكلمته وأدفعه الى تنفيذها ٠

ولم يصل الينا من الحكومة الروسية رد على الرسالة الاذاعية التي وجهتها الى روسيا والعالم حين بدأ الهجوم الألماني عليها الا ما روى لنا من أن فقرات من هذه الرسالة قد نشرتها جريدة « البرافدا » وغيرها من الصحف الرسمية وأن الحكومة الروسية طلبت الينا أن نستقبل وفدا عسكريا نوت ارساله الينا • وكان السكوت في الدوائر العليا يدعو للدهشة والعجب • فقررت أن أبدد هذا الجمود وأدركت أن القادة السوفييت قد يحسون بخجل من كل ما حدث منذ قامت الحرب من مواقف بين الروس والحلفاء الغربيين • وتذكرت ماحدث بيني وبين الحكومة الثورية البلشفية منذ عشرين عاما تقريبا • ولهذا أرسلت رسالة الى ستالين في السابع من يوليه ذكرت له فيها تصميمنا على تقديم كل مساعدة ممكنة الى الشعب الروسي • وفي العاشر من يولية أرسلت مثل هذه الرسالة • ودارت اتصالات رسمية بين وزراء خارجيتنا بيد أنني لم أتسلم رد ستالين الأول الا في التاسع عشر من يولية •

استهل ستالين رسالته بشكرى على برقيتي اليه ثم قال : « أرجو الا أبعد عن الحقيقة ان قلت ان موقف القوات الروسية في الجبهة ما فتيء حرجا • ولهذا يظهر لي أن موقف الروس وبريطانيا سيتحسن تحسنا كبيرا اذا استطاعتا أن تنشئا جبهة ضد هتلر في الغرب وفي شمالي فرنسا وفي شمالي المحيط القطبي الشمالي » •

ولا شك في أن انشاء جبهة في شمال فرنسا سيؤدى الى تغيير وجهة قوات هتلر عن الشرق ويجعل من الصعب عليه أن يغزو بريطانيا العظمى • ولا شك أيضا في أن انشاء مثل هذه الجبهة سيلقى كل ترحيب لدى الجيش البريطاني ولدى جميع سكان المناطق الجنوبية في بريطانيا •

ولا شك في أنني أفهم كل الفهم الصعاب التي تقابل ايجاد مثل هذه الجبهة • ولكنني بالرغم من ذلك مقتنع بضرورة قيامها لا لمصلحة قضيتنا المشتركة وحدها بل لمصلحة بريطانيا كذلك • ولعل هذه الفترة أنسب وقت لايجادها حيث أن هتلر وجه كل قواته الآن الى الشرق ولم يكن لديه وقت كاف لتأمين المواقع التي استولى عليها في الغرب •

ولعل من الأيسر انشاء جبهة في الشمال • ولا تفتقر بريطانيا العظمى هنا الا الى عمليات بحرية وجوية دون أن ترغم على انزال قوات أو مدفعية لان قوات روسيا البحرية والجوية ستشترك معها فيها • وسنقبل بكل ارتياح توجيه ما يشكل فرقة خفيفة أو أكثر من متطوعي

النرويج الى هذه الجبهة حيث يمكن استغلالهم فى شمال النرويج للثورة على الألمان » .

ويظهر من هذه الرسالة أن ضغط روسيا لانشاء جبهة ثانية قد بدأ منذ تبادلتُ الرسائل مع ستالين ، وهو ضغط تكرر فى كل الاتصالات التالية مع تغاض كلٍّ عن الحقائق العملية الطبيعية عدا ما يختص منهـا بأقصى الشمال . وقد رأيت فيما احتوته الرسالة الأولى التى بعثت بها الى ستالين اشارة وحيدة الى الأسف من مواقف روسيا السالفة . فقد انبرى ستالين لتسـويغ أسباب تغيير روسيا وموقفها وتوقيعها الاتفاق الذى أبرمته مع هتلر قبل الحرب . وصمم كما ذكرت قبل على أن مصلحة روسيا الاستراتيجية تقتضى بقاء القوات الالمانية فى أبعد مكان ممكن غربا فى بولندا اغتناما للفرصة وتنفيـذا للخطط التى رسمت للنهوض بروسيا واعدادها عسكريا . ولم أهون من شأن دفاعه هذا ، ولذلك أمكننى أن أرد عليه ردا منطويا على الفهم .

وقد كرست طاقتى منذ الوهلة الأولى لمعاونة روسيا بالمؤن والذخيرة بالاتفاق على توجيه المعونات الأمريكية اليها ، أو بالمساعدات المباشرة من بريطانيا . وأرسلنا فى أول شهر سبتمبر ما يقرب من سربين من طائرات الهاريكين على متن « أرغوس » الى مينـــاء مورمانسك فى الشمـــال ، للمساهمة فى دعم الدفاع عن هـــذه القاعدة البحرية ومساعدة الجيش الروسى فى تلك المنطقة .

ودخل السربان القتال فى الحادى عشر من سبتمبر ، وقاتلا ببسالة طيلة الأشهر الثلاثة اللاحقة ، وكنت أرى أننا فى أول تحالفنا لا يمكننا أن نعمل الكثير . وحاولت أن أشغل الفراغ بحسن المعاملة ، وأن أنشىء بوساطة الاتصالات البرقية ، ما يضاهى تلك العلاقات الطيبة التى أنشأتها مع الرئيس روزفلت . بيد أنى فى هذه الحلقات الطويلة من الاتصالات قل أن تلقيت كلمة طيبة ، وانما كنت أجد الاعراض . وكثيرا ما بقيت برقياتى بلا رد ، أو رد عليهـا ستالين بعد وقت طويل . ووجد عنـد الحكومة الروسية انطباع بأنها تسدى الينا معروفا كبيرا ، لانها تحارب فى أرضها دفاعا عن أرواح مواطنيها وكلما ازدادت الحرب قسوة ازداد هذا المعروف وتضاعف الدَّيْن الذى نحمله على عواتقنا ، ولم تكن الفكرة طبعا سليمة أو مضبوطة . وارغمت مرتين أو ثلاثا خلال مكاتباتنا الطويلة على أن أحتج بأساليب صريحة وخاصة على المعاملة السيئة لبحارتنا الذين كانوا يقتحمون المخـــاطر والأهوال لنقل الإمدادات الى مورمانسك أو

أكانجل ، وكثيرا ما أرغمت على الصمت ، وعلى سماع التبكيت من الآخرين حينما يقولون : « لا تكترث • فالألم هو الوسام الذى يمنحه كل من يجب عليه أن يتعامل مع الروس » • وفعلا كنت أتجاهل كل شيء نظير ما يلقاه ستالين والشعب الروسى من ضغط وعنف • وليس فى امكانى • هنا أن أوضح للقارىء أكثر من الملامح الظاهرة فى هذا الكفاح الجبـــار الحديث الذى بدأ الآن بين الجيوش والشعوب • وقد استطاع الألمان فى الشهر الأول أن يشقوا طريقهم متوغلين داخل روسيا ثلاثمائة ميل • وفى نهاية شهر يوليو حدث تعارض رئيسى فى الرأى بين هتلر وبراوختيش القائد العام للقوات الألمانية ، وكان من رأى براوختيش أن مجموعة القوات الروسية التى يقودها تيموشنكو تكون القوة الرئيسية للجيش الروسى وأنه يجب تدميرها ودحرها أولا •

وكان هـــذا الرأى صحيحا وقال براوختيش : انه اذا نفذ ذلك فسيكون من المستطاع الاستيلاء على موسكو وهى مركز العصب الحساس لروسيا عسكريا وسياسيا وصناعيا • ولكن هتلر خالفه فى رأيه كل المخالفة • فهو يطلب احتلال الأرض وتحطيم القوات الروسية على أكبر نطاق ممكن ويطلب الاستيلاء على ليننجراد فى الشمال وحوض الدونتر الصناعى فى الجنوب ، وشبه جزيرة القرم ومداخل القوقاز التى بها موارد غنية بالبترول ، ويرى تبعا لذلك أن تتولى موسكو دورها •

وجرت مناقشات حامية ، وأصدر هتلر أوامره معارضا آراء قادة الجيش ، وحملت الامدادات من الوسط الى القوات الشمالية التى كلفها أن تضاعف من عملياتها للاستيلاء على ليننجراد • وطلب من القوات الوسطى أن تقف موقف الدفاع ، وأن ترسل قوة من المدرعات « البانزر » فى الجنوب لتطويق جنــاح الروس الذين كان رونشــتادت يقوم بمطاردتهم مجتازين نهر الدنييبر ، واستطاع الألمان أن يقوموا بهــذا العمل فقبل شهر سبتمبر تجمع عدد كبير من القوات الروسية حول كييف وفى قتال طاحن دام طوال هذا الشهر قتل أو أسر نصف مليون جندى تقريبا ولم يتمكن الألمان فى الشــمال من احراز مثل هــذا النصر • وقد حوصرت ليننجراد ولكنها لم تسلم • وبهذا ثبت أن قرار هتلر كان غير سليم • واضطر الى أن يرجع بفكره وقوته وعزمه الى منطقة الوسط ووجه الأمر الى القوات التى تطوق ليننجراد بارسال قوات متحركة وجزء كبير من قوتهــا الجوية لدعم هجوم جـديد يوجه الى موســكو ورجعت القوة المدرعة التى كانت قد توجهت لمساندة فون رونشتادت فى الجنوب الى الوسط.

لتشترك فى الهجوم • وفى أواخر شهر سبتمبر كان المسرح قد جهز مرة أخرى للتقدم فى الوسط ، وهو تقدم كانت الخطة المرسومة له قد عدل عنها قبل وقت وجيز ، فى حين استمرت القوات الجنوبية فى زحفها شرقا ناحية الحوض الأدنى لنهر الدون ، الذى يمهد السبيل أمامها الى القوقاز •

وبدأ الآن اتجاه آخر للقصة ، فبالرغم من الأضرار الفادحة التى أصيب بها الروس استمرت مقاومتهم قوية عنيدة • قواتهم تحارب حتى النهاية وتزداد قوة وبراعة ، وراح الأنصار يسرعون خلف خطوط الألمان ويخربون مواصلاتهم فى حرب طاحنة قاسية • وثبت أن المواصلات التى استولى عليها الألمان غير صالحة • وبدأت السبل تتـــداعى تحت حركة النقل الثقيلة ، وأصبح المشى فى هذه الطرق بعد انهمار الأمطار مستحيلا وبدأت سيارات النقل يظهر عليها الجهد والعجز ••••[وليس أمام حلول الشتاء الروسى المريع الا شهران تقريبا ، فهل ستسقط موسكو قبل قدوم الشتاء ، واذا سقطت فهل فى سقوطها الكفاية ؟]

هذا هو السؤال المروع • ومع أن هتلر ما برح يحيا على أمجاد انتصاره فى كييف فقد بدأ القادة الألمان يحسون أن مخاوفهم الســالفة لها ما يسوغها تماما فقد مضت أربعة أسابيع على القوة التى أصبحت الآن القوة الحاسمة ، ولم تتم عملية القضاء على قوات العدو فى روسيا البيضاء التى كانت مكلفة بها قوات الجبهة الوسطى ولكن بانقضاء أشهر الخريف ، واستمرار الموقف الصعب فى الجبهــة الروسية ازدادت طلبات الروس مناشدة والحاحا ورجع اللورد بيفر بروك من أمريكا بعد أن حفز قواها وضاعف هممها لزيادة الانتاج بصورة هائلة • وأصبح الآن الداعية الأول فى وزارة الحرب الى ضرورة تقديم المساعدة لروسيا •

وقد قدم فى هذا الطريق معونات فعالة ، نافعة وحينما ننظر الى ما تعرضنا له من ضغط للتجهيز لمعركتنا فى الصحراء الغربية والقلق الذى كنا نشعر به جهة اليابان التى تهدد كل مصالحنا فى الملايو والشرق الأقصى ، والى أن كل ما نقــدمه لروسيا يؤخـــذ من حاجات بريطانية الضرورية ، ندرك ادراكا كاملا الداعى لوجود شخص كاللورد بيفر بروك فى ذروة مجهودنا الحربى ، ليتــولى ــ الدفاع عن حتمية اجابة مطــالب روسيا • وقد حاولت أن أحتفظ بالتعاون والتعادل على هدى ما فكرت واشترك معى فى تفكيرى كل رفاقى ، ورأينا احتمال تعريض أمننا الحيوى وخططنا للتدهور من أجل حليفنا الجديد ، والذى كان الى زمن قريب نهازا للفرص ، طماعا ، لا يكترث بوجودنا أو صمودنا •

وشعرت أن على بيفر بروك وافريل هاريمان حينما يرجعان من واشنطن ويضحى فى مقدورنا أن نواجه كل احتمالات المؤن والذخيرة ، أن يقصدا الى موسكو ويعرضا كل ما يمكننا أن نستغنى عنه ، وجرت محادثات طويلة وجادة وشعرت وزارات الدفاع بأن ارسال هذه الامدادات بمنزلة رمى بعض لحمنا وبتره • وبالرغم من ذلك جمعنا كل ما أمكننا جمعه ، وقبلنا تحويل معونات ضخمة كانت سترد الينا من أمريكا وكنا فى غاية الشوق واللهفة اليهـا لنشـترك اشتراكا ايجابيا فى المقـاومة الروسية •

وعرضت على رفاقى فكرة ارسال اللورد بيفر بروك الى موسكو فى الثامن والعشرين من شهر أغسطس ، ورغبت الوزارة رغبة صادقة فى أن يبسط اللورد الفكرة لدى ستالين وشعر الرئيس روزفلت أن هاريمان سيمثله على أحسن وجه فى تلك المباحثات • وأوجزت لهذا الوفد الموقف كخطوة أولى فى فقرات عامة ضمنتها رسالة أرسلتها الى ستالين وفى ليلة الرابع من سبتمبر قدم المسيو مايسكى لزيارتى وسلمنى رد ستالين • وكانت هذه أول رسالة شخصية أتلقاها منه منذ شهر يولية • وقد شكرنا على ما عرضناه من تقديم مائتى طائرة مقاتلة أخرى ثم راح يكرر اللهجة القديمة فيقول :

« ان الهدوء النسبى فى المنطقة الذى نجحنا فى خلقه منذ ثلاثة أسابيع تقريبا ، قد تبدد فى الأسبوع الأخير بنقل مايقرب من ثلاثين الى أربع وثلاثين فرقة جديدة من المشاة الألمان الى المنطقة الشرقية مع عدد كبير من الدبابات والطائرات الى جانب اتساع نشـاط الفرقة الفنلنـدية العشرين والفرقة الرومانية السادسة والعشرين •• ويعد الألمان الخطر فى الغرب مجـرد خدعة لا غير ، ولذلك حولوا كل قواتهم الى الشرق دون خشية أو رعب ، لأنهم مقتنعون بأنه ليسـت هناك جبهـة ثانية فى الغرب ولا يمكن أن توجد • ويرى الألمان ضرورة تدمير أعدائهم الواحد تلو الآخر ، الروس أولا ثم الانجليز من بعدهم • وقد خسرنا بسبب هذا أكثر من نصف أوكرانيا ، وأصبح العدو على أعتاب ليننجراد ••

وأنا أوقن انه يوجد طريق واحد للنجاة من هذا المأزق ، وهو انشاء جبهة أخرى خلال هذا العـام فى أى مكان ، فى البلقان أو فرنسا ، تستطيع أن تجتذب ما يقرب من ثلاثين الى

أربعين فرقة من الألمان • وأن تضمنوا لنا فى الوقت نفسه ثلاثين ألف طن من الألمنيوم فى مستهل شهر أكتوبر المقبل وأن ترسلوا الينا معونة شهرية لا تقل عن أربعمائة طائرة وخمسمائة دبابة من الحجمين المتوسط والصغير ••••• » •

واستمر السفير الروسى الذى كنت أصاحبه أنا والمستر ايدن يحدثنى أكثر من ساعة ونصف ساعة • وفى أسلوب مؤلم أكد أن روسيا تحملت وحدها تقريبا ضغط الهجوم الألمانى الجارف فى الأحد عشر أسبوعا السالفة • وقال : ان القوات الروسية تحمل الآن أثقال هجوم لم يشهد التاريخ مثله • وقال : انه لا يرغب فى استعمال لغة المسرح ، ولكن قد يثبت الوقت الحالى أنه بداية تحول فى التاريخ • فاذا اندحرت روسيا فكيف يستطيع البريطانيون أن يأملوا فى النصر ؟ وفى أسلوب مؤلم يدعو للعطف والشفقة أكد المسيو مايسكى أن الموقف حرج للغاية على الجبهة الروسية • وحينما شعرت من خلال هذا الكلام بنغمة مستترة من التهديد ، انقلب عطفى الى غضب ، وقلت للسفير الذى كنت أعرفه من سنين بعيدة : لتعلم أننا قبل أربعة أشهر لم نكن نعتقد أنكم لن تخوضوا الحرب مع الألمان ضدنا ، بل كنا نعتقد احتمال خوضكم لها ، وبالرغم من ذلك كنا نثق فى انتصارنا فى نهاية الحرب • ولم يتراء لنا أن وجودنا أو عدمه معلقان على الخطة التى ستشتركون بها فى القتال أيا كانت • وليس لكم وحدكم من بين الدول الأخرى حق توجيه اللوم الينا مهما جرى ، ومهما عملتم • ولما أحس السفير الغضب فى لهجة حديثى هتف « أرجو أن تسكن يا عزيزى المستر تشرشل » • وبعد ذلك غير لهجته كلية •

ثم واصل الحديث على الأسس التى وضحناها فيما تبادلنا من برقيات ، ودعانا السفير للنزول فورا فى فرنسا أو فى الأراضى المنخفضة ، فأبديت له الموانع العسكرية التى تعترض تنفيذ طلبه ، والأسباب التى تسلبه النفع للروس مطلقا • وقلت للسفير أننى أمضيت خمس ساعات يومئذ مع الفنيين فى دراسة الطرق اللازمة لمضاعفة طاقة ما تحمله الخطوط الحديدية الايرانية • وتكلمت عن بعثة بيفربروك ــ هاريمان ، وعن عزمنا على بذل كل ما يمكننا ادخاره أو شحنه من امدادات ، وقلت له أنا والمستر ايدن فى النهاية : اننا من جهتنا مستعدون لأن نبين للفنلنديين أننا سنحاربهم اذا توغلوا داخل روسيا وتخطوا حدودهم الطبيعية التى رسمت عام ١٩١٨ • ولم يستطع المسيو مايسكى طبعا أن يعدل عن رأيه فى ضرورة انشاء جبهة ثانية فورا ، وصار من العبث مواصلة المناقشة فى هذا الموضوع •

وأخذت رأى الوزراء فورا فى المسائل التى درسناها فى اجتماعنا وفى رسالة ستالين ، وأرسلت فى المساء ردا كان أهم ما فيه العبارات الآتيـة :

« بالرغم من أننا لن نتوانى عن تقديم أى مجهود ، فليس هناك أى احتمال لأن تقوم بريطانيا فى الغرب بأى عمل غير العمل الجوى ، ولا أمل فى انشاء جبهة ثانية فى البلقان دون معاونة تركيا • وأتمنى — ان أذنتم لى فخامتكم — أن أبسط كل الدواعى التى دعت رؤساء أركان الحرب الى الوصول الى تلك النتائج وقد درسنا هـذه الدواعى مع سفيركم اليـوم دراسة مفصلة فى اجتماع شمل وزير الخارجية ورؤساء أركان الحرب أيضا • فالعمل الذى يؤدى الى اختلال باهظ النفقات — مهما كان فيه من نيات حسنة — لا ينفع غير هتلر •

ونحن متأهبون الآن لأن نرسم معكم خططا مشـتركة ، وهنـاك وقائع غير ممكن مشاهدتها حاليـا ، يتوقف عليهـا احتمال استطاعة القوات البريطانية عام ١٩٤٢ أن تبلغ درجة تمكنها من الاسـتيلاء على البر الأوربى ، وقد نسـتطيع أن تعاونكم فى أقصى الشمال على أية صورة حينما يسود الظلام تلك المنطقة• ونتمنى أن يزداد تعداد قواتنا العاملة فى الشرق الأوسط الى ثلاثة أرباع المليون قبل أن ينصرم العام الحالى والى المليون فى صيف سنة ١٩٤٢ • وعندما ننتهى من تحطيم القوات الألمانية والايطالية فى ليبيا ، تستطيع قواتنا جميعها أن تنضم الى جناحكم الجنوبى • وأملنا كله معلق على الأقل على اقناع تركيا بأن تبقى محايدة حيادا كليا • وفى خـلال ذلك سنستمر فى ضرب ألمانيـا من الجـو بقوة فائقة وترك البحار مفتوحة ، والابقاء علينا أحياء ••• » •

وتراءى لى أن المسألة على درجة كبيرة من الأهمية ، وأرسلت حينئذ برقية الى الرئيس روزفلت بسطت فيها الصور التى بقيت حية فى ذاكرتى وهذا نص البرقية :

« لقد استعمل السـفير الروسى ••• لهجة لها أهميـة خفية تتحدث عن حرج الموقف ، وحقيقة بداية التحول التى هى متعلقة بردنا •

وبالرغم من أنه لم يرد فى كلامه ما يثبت هذا الرأى ، فليس فى مقدورنا أن نتناسى احتمال تفكير روسيا فى صلح منفرد ٠٠٠٠ وأوقن أن الفرصة قد أضحت حاسمة ٠ وليس فى طاقتنا الا أن نبذل غاية جهدنا » ٠

وفى الخامس عشر من شهر سبتمبر تسلمت برقية أخرى من ستالين هذا نصها : « لا أشك فى أن حكومة بريطانيا تتمنى من أعماق قلبها أن ينتصر الروس وأنها ترنو الى ما يحقق هذا النصر من طرق ووسائل ٠ واذا كانت بريطانيا ترى استحالة اقامة جبهة ثانية فى الغرب حاليا فمن الممكن الحصول على وسيلة أخرى لبذل المساعدة العسكرية الايجابية لروسيا » ٠

« وأنا أوقن أن بريطانيا العظمى تستطيع بلا مخاطرات أو مغامرات انزال خمس وعشرين أو ثلاثين فرقة فى اركانجل ، أو نقل مثل هذه القوة الى المناطق الجنوبية من روسيا مجتازة ايران ٠ وفى هذا الظرف يسهل اقامة تعاون عسكرى بين قوات روسيا وبريطانيا على أرض روسيا ٠ وقد قام مثل هذا التعاون فى فرنسا فى الحرب العالمية الأولى ، ومثل هذا الوضع يحقق عونا كبيرا ، وفى الوقت نفسه يعد ضربة عنيفة تدك عدوان هتلر ٠٠٠٠٠ » ٠

ولا أكاد أصدق نفسى حين أشاهد رئيس الحكومة السوفيتية يبدى مثل تلك التفاهات العجيبة ، مع أن لديه كثيرا من القادة العسكريين وظهر لى أنه من غير المجدى مجادلة رجل تفكيره غير واقعى ، ولذلك أرسلت اليه ما أمكننى من رد حسن ٠

وفى خلال ذلك اختتمت مباحثات بيفربروك ــ هاريمان فى لندن ، ورحلت بعثة التموين الانجليزية الأمريكية فى الثانى والعشرين من سبتمبر عن ميناء سكابافلو على متن الطراد « لندن » متجهة الى أركانجل مجتازة البحر المتجمد الشمالى ، وعلى نجاح تلك البعثة يتوقف كثير من المسائل ، وقد استقبلت البعثة استقبالا فاترا ، وكانت المباحثات التى جرت غير مرضية للغاية ، لأن الروس يرجحون أن ما يكابدونه انما هو وليد خطئنا ٠ ولم يقدم القادة والموظفون الروس لرفاقهم البريطانيين والأمريكيين أية بيانات ، ولم يودوا أيضا أن يطلعوهم على الأسس التى قدرت عليها احتياجات روسيا من خاماتنا الحربية الثمينة ٠ ولم يقم أى حفل رسمى احتفاء بالبعثة ــ سوى دعوة أعضائها لتناول طعام العشاء

فى الكرملين فى آخر ليلة لها بموسكو ، وينبغى ألا يتبادر الى ذهننا أن الأشخاص الذين تشغلهم أهم القضايا ، لا تساعد مثل هذه المناسبات لديهم على تحسن سير العمل الرسمى ، فعلى العكس كثيرا ما يدفع تبادل الأشخاص الآراء فى مثل هذه الظروف الى الوصول الى اتفاقيات رسمية ولكن لم تبد روسيا حاليا شيئا من هذه الحفاوة ، وكأننا نحن الذين قدمنا لطلب المعونات منها ٠

ولعل واقعة صغيرة احتفظ بها الجنرال ايسماى على صورة كتاب حر ، تلقى شعاعا على هذه القصة ٠ فقد قام دليل من مصلحة السياحة فى روسيا بمصاحبة جندى من بحارة الأسطول الملكى البريطانى يقوم بخدمة الجنرال ليشاهد روسيا ، وقال الروسى : « هذا هو فندق ايدن وكان يسمى فى الماضى فندق ريبنتروب وهذا هو شارع تشرشل وكان يسمى شارع هتلر ، وهذه محطة بيفربروك ، وكانت تدعى محطة جورنج ٠ هل ترغب فى سيجارة يا صاحبى ؟ » فرد الجندى البريطانى « لا وشكرا أيها الرفيق ، أو اللئيم سابقا » ٠

وهذه القصة على ما فيها من تهكم تلقى شعاعا على ذلك الجو العجيب المحيط بتلك الاجتماعات ٠

وأخيرا توصلوا الى اتفاق ودى ، ووقعوا ملحقا يبين المعونات والمطالب التى تكفلت بريطانيا وأمريكا بامداد روسيا بها ابتداء من أكتوبر عام ١٩٤١ الى يونية عام ١٩٤٢ ٠ وقد تضمن الملحق ضرورة اعادة بحث خططنا العسكرية السالفة التى أثر فيها تأثيرا بالغا ما حدث لتموييننا من نقص بَيِّنٌ ٠ وقد تحملنا الحمل كله لأنه وجب علينا أن ننزل عن انتاجنا الى جانب ما كان مقررا أن ترسله الينا أمريكا من معونات ٠ ولم يكن فى وسعنا نحن والأمريكيين أن نبذل الوعود ارتجالا ، بشأن نقل هذه المعونات مجتازة السبل البحرية القطبية الوعرة ، المحفوفة بالأخطار ٠ ونظرا لما سمعناه من ستالين من أسلوب اللوم والتعبير المنكر حينما قلنا ان القوافل لن تتحرك الا بعد أن تسيح الثلوج ، فقد كان ما تكفلنا به هو أن تكون هذه المعونات معدة فى مواطن الانتاج البريطانية والأمريكية ٠ واختتمت ديباجة الملحق بهذه الفقرة :

« ستقدم بريطانيا العظمى وأمريكا كل مساعدة ممكنة لنقل تلك المعونات الى روسيا والمساهمة فى توصيلها » ٠

وبعث الى اللورد بيفربروك برقية يقول فيها : « ان فائدة هـــذا الاتفاق تنحصر فى رفع الروح المعنوية في موسكو الى درجة كبيرة • أما الابقـــاء على قوة هذه الروح فانه يســتند الى وصــول المعــونات الى روسيا •••• ولست أرى أن الموقف العسكرى هنا قد اجتــاز مرحلة الخطر مدة أشهر الشتاء ، وفى طاقة الروح المعنوية أن تنجيه وتؤمنه » •

وبالرغم من أن الجنرال ايسماى كان له الحرية المطلقة فى دراســة الموقف العســـكرى من جوانبه المختلفة وتوضيحه للقــادة الروس ، فان بيفربروك وهاريمان قررا ألا يعقدا مهمتهما باثارة قضايا يتعذر الاتفاق حولها • ولذلك لم يدرس هذا الجانب حاليــا فى موســكو • واستمر الروس يطالبون بصفة غير رسمية باقامة جبهة ثانية فورا ، ولم يكن لديهم استعداد لسماع ما يبدى حول استحالتها من أدلة وعذرهم فى ذلك ما يكابدونه من آلام ، واضطر سفيرنا الى أن يصبر على مضض •

وأوشك الخريف أن ينصرم وعاودت القوات الألمانية الوسطى بقيادة فون بوك زحفها على موسكو ، وقد تقدم جيشاها مباشرة نحو العاصمة من الجنوب الغربى مع قوات ضخمة من المدرعات تحاول تطويق الجنـــاح • واستولى الألمان على أوريل فى الثامن من أكتوبر ، واستولوا بعــد أسبوع على كالينين التى هى فى طريق موسكو ــ ليننجراد • وأرغم المارشال تيمو شنكو تجاه هذا الخطر الذى بدأ يهدد جناحه ، وتحت شدة الهجوم الرئيسى من الوسط ، على ارجاع قواته الى خط يوجد على مسافة أربعين ميلا غربى موسكو ، وهناك قرر الصمود والنضال من جديد • وكان موقف روسيا حينئذ مهددا كل التهديد • وقد تم انتقال الحكومة الروسية والسلك الدبلوماسى وما أمكن نقله من مصانع من العاصمة الى مدينة كيوبشيف الواقعة على مسافة خمسمائة ميل شرقا • وفى التاسع عشر من أكتوبر أعلن ستالين حالة الطوارىء ، وأصدر الأمر الأولى التالى :

« سنناضل عن موسكو الى آخر فرد » • وقد امتثل لأمره فى طاعة ووفاء • وبالرغم من زحف قوة جودريان المدرعة من أوريل الى تولا ، وبالرغم من محاصرة موسكو الآن من جوانبها الثلاثة ، وتعرضها للهجوم الجوى ، اشتدت المقاومة الروسية فى آخر شهر أكتوبر ، وأوقف الى حد ما وبوضوح تقدم الألمان •

وأحست قرينتى بأن الشعب البريطانى بدأ يتضاعف قلقه وألمه بسبب عجزنا عن امداد روسيا بالمساعدة العسكرية ، وخاصة أن الأشهر

تمضى ، والقوات الألمانية تواصل تقدمها مجتازة سهول روسيا فقلت لها : أن مسألة الجبهة ليست مهمة فى الوقت الحالى وأن كل ما نستطيع عمله مدة طويلة هو متابعة امدادها بمختلف أنواع المؤن والمعدات على أكبر نطاق وشاركنى المستر ايدن فى تشجيعها على أن تبحث امكان جمع تبرعات اختيارية للاسعاف وقد شرع الصليب الأحمر البريطانى وجمعية القديس يوحنا فى مثل هذا العمل ، ولم يلبث أن أنشئت جمعية مساهمة سميت جمعية « مساعدة روسيا » ودعيت قرينتى لتولى رياستها . وفى آخر شهر أكتوبر وتحت اشراف الجمعية الجديدة وجهت أول نداء لها الى الشعب البريطانى الذى لباه على الفور تلبية كريمة سخية . وخصصت قرينتى لهذه المهمة السنوات الأربع اللاحقة فى حماسة واحساس فياض بالمسئولية . وجمع من تبرعات الأثرياء والفقراء معا ما يزيد على ثمانية ملايين من الجنيهات .

وقد دفع بعض الأغنياء مبالغ كبيرة للجمعية ، ولكن معظم هـذه المبالغ جمعت من التبرعات الأسبوعية التى تبرع بها الشعب . وبالتنظيم الفائق الذى هيأه الصليب الأحمر البريطانى ومنظمة القديس يوحنا ، وعلى الرغم من الأضرار الفادحة فى قوافل المحيط المتجمد الشمالى ، أخذت امدادات قيمة من المواد الطبية والجراحية وأصناف متعددة من المرفهات والابتكارات الخاصة سبيلها فى سيل متدفق متواصل مجتازة البحار المتجمدة المخوفة ، الى القوات الروسية الشجاعة والشعب الروسى المكافح .

الاجتماع بروزفلت

فى خلال ذلك جرت فى البلاد التى تتكلم الانجليزية أحداث كثيرة مهمة • ففى منتصف يولية قدم الى بريطانيا المستر هارى هوبكنز مبعوثا من الرئيس فى مهمة أخرى • وكان موضوع دراستنا الأول هو الموقف الجديد الذى أحدثه هجوم هتلر على روسيا ، وأثره على كل الامدادات التى كنا نستعيرها من أمريكا أو ندفع لهـا أجرها ، والتى كنا نستند اليها استنادا كليا • وبعد ذلك انتقل الى تقرير أعده القائد الأمريكى الذى قدمنا له ما يلزم من تسهيلات للاطلاع على كل شىء ، والذى طرح فى تقريره ظلالا من الشك على استطاعتنا الثبات أمام الغزو الألمانى مما سبب اضطرابا واضحا للرئيس •

وعلى هدى هذا انتقل الى الموضوع الثالث ، وهو ما يساور الرئيس من شكوك فى حكمة محاولتنا حماية مصر والشرق الأوسط ، فهو يخاف أن نفقد كل شىء بمحاولة حماية كل شىء • وفى النهاية بحث المستر هوبكنز مسألة اعداد اجتماع بينى وبين روزفلت فى مكان ما وعلى أية طريقة فى أقرب فرصة مستطاعة • وفى هذه المرة لم يكن هوبكنز وحده ، فقد كان بلندن عدد من كبار ضباط جيش أمريكا وأسطولها المختصين بشئون الاعارة والتأجير ، وفى مقدمتهم الأميرال جورملى الذى كان يعمل مع الاميرالية البريطانية فى حل مشكلات الأطلنطى ، وفى ليلة الرابع والعشرين من يوليو اجتمعت مع زملاء هوبكنز ورؤساء أركان الحرب فى دواننج ستريت رقم ١٠ • وقد أحضر هوبكنز أمير اللواء سيتنى وهو مراقب خاص والأمـير جورملى ، والزعيم لى ملحق أمريـكا العسـكرى ، واشترك معنا فى الاجتماع أيضا أفريل هاريمان الذى رجع فورا من رحلة الى مصر ، حيث ألم بكل شىء بأمر منى • وقال هوبكنز : « ان المسئولين فى أمريكا الذين يشغلون مناصب رئيسية ، والذين يصدرون القرارات فى القضايا العسكرية يرون أن الذود عن الوضع فى الشرق الأوسط غير ممكن ، وأن الامبراطورية البريطانية تبذل تضحيات غير مفيـدة لحماية

هذا الوضع • ويرون أن موقعة الاطلنطى يتحتم أن تكون الموقعة الفاصلة الأخيرة فى الحرب ، وأن تركز كل القوى عليها » • وقال : « ان الرئيس مع ذلك يرغب فى مساندة الدفاع فى الشرق الأوسط ، نظرا للمبدأ القائل ان مقاتلة العدو واجبة أينما كان • وبعد ذلك نظم الجنرال سيتنى مشكلات الامبراطورية الأربع على الوضع الآتى : الدفاع عن بريطانيا وعن السبل البحرية فى الاطلنطى والدفاع عن سنغافورة والسبل البحرية الى استراليا ونيوزيلندا ، والدفاع عن السبل البحرية بوجه عام • والدفاع عن الشرق الأوسط » ، وقال الجنرال : « ان كل تلك المعضلات مهمة على هذا الترتيب • وأقر الجنرال لى ما رآه الجنرال سيتنى وكان الأميرال جورملى معتنيا بسبيل تموين الشرق الأوسط ، وخاصة اذا كانت تموينات أمريكا ستمضى الى هناك فى مجال واسع • ولكن ألا يمكن أن يدفع هذا الى الاضعاف من معركة الأطنطى ؟

وحينئذ طلبت الى رؤساء أركان حرب بريطانيا أن يوضحوا وجهات نظرهم فأبدى أمير البحر الأول الدوافع التى تدفعه الى أن يعتقد ويثق الآن أكثر من العام السابق أن فى استطاعة بريطانيا تدمير أية قوات تجهز للغزو • وتكلم رئيس أركان السلاح الجوى عن سلاحنا الجوى فى حالة مقارنته بالسلاح الجوى الألمانى ، وفى حالة مقارنته بقوته فى سبتمبر الماضى ، وأكد استطاعة قواتنا تحطيم موانى الغزو الألمانية • وتكلم رئيس أركان حرب جيوش الامبراطورية فأكد تقدم قوة الجيش أكثر مما كانت عليه فى سبتمبر السابق تقدما رائعا • وتدخلت لأبين ما اتخذناه من احتياطات خاصة لتحصين الدفاع عن مطاراتنا بعد ما تلقيناه من دروس فى كريت ودعوت ضيوف أمريكا لزيارة أى مطار يريدونه • واستطردت أقول : « وقد يضطر العدو الى حرب الغازات ، ولكنه اذا اضطر اليها فستكون هلاكا له ، لأننا أخذنا الأهبة للانتقام فورا ، وسيكون هدفنا جموعه التى على السواحل • وسنوجه فعلا حرب الغازات أيضا الى أراضيه » • ودعوت ديل حينئذ أن يتكلم عن الشرق الأوسط فقدم عرضا هائلا مؤيدا بالأدلة والحجج ، للدوافع التى تدفعنا الى أن نبقى هناك كضرورة لا مفر منها •

وفى آخر النقاش ملأنى احساس بأن أصحابنا الأمريكيين قد أقنعهم ما عرضناه من بيانات ، وأثر فيهم ما ظهر منا من تكاتف واجماع •

لكن تلك الثقة التى كنا نتكلم بها عن الدفاع فى الداخل لم تمتد لتعم الشرق الأقصى حين تعلن اليابان الحرب علينا • وقد أقضت تلك

المخاوف أيضـــا السـير جون ديل • وكان انطبــاعى أنه أكثر معرفة بسنغافورة منه بالقاهرة • وكان هذا الحكم طبعا مدعاة للأسف الشديد والكمد البالغ فالموقف يضاهى تماما موقف ذلك الرجل الذى يخير بين قتل ابنه أو ابنته • وكان رأيى أنا أنه مهما يقع فى الملايو فانه لا يشابه فى أهميته ما يحتمل وقوعه اذا فقدنا مصر (١) أو قناة السويس أو الشرق الأوسط • ولن أتساهل مطلقا فى فكرة ترك الدفاع عن مصر ولو ضحيت بالملايو كلها • وكان يشاركنى فى موقفى هذا رفاقى فى وزارة الدفاع •

وفى عصر يوم ما قدم الى هارى هوبكنز ، فقعدنا نتكلم فى شمس حديقة دواننج ستريت ، وفجأة قال لى : ان الرئيس يتمنى أن يجتمع معى فى مكان بعيـــد منعزل • فقلت له : انى أوقن أن مجلس الوزراء سيوافق على اذن باجازتى وجهزنا كل شىء بسرعة • واختير خليج بلاسنتيا بجزيرة نيوفوندلند • وحـدد التاسع من أغسطس ميقاتا للاجتمــاع ووجهت الأوامر بالاستعداد والتأهب الى أحدث بوارجنا « الأمير ويلز » وكنت فى غاية الشوق للاجتماع بالرئيس روزفلت الذى كانت علاقتى معه وطيدة نامية منذ عامين تقريبا ، وخاصة أن مثل هـــذا الاجتماع سيشير الى تآلف أقوى بين بريطانيا وأمريكا مما يلقى الانزعاج فى نفوس أعدائنا ، ويرغم اليابان على أن تطيل النظر ، ويشجع حلفاءنا • وكانت ثمة مسائل متعددة يجب دراستها ، أهمها تدخل أمريكا فى الأطلنطى ، ومعــاونة روسيا ، ومركز تموينياتنا ثم تضاعف التهديد اليـــابانى • وصحبت معى السير اليكســندر كادوجان من وزارة الخارجية ، واللورد شيرويل والعقيــدين هوليس وجيكوب من وزارة الدفاع ، وموظفى مكتبى الخاص ، الى جانب عدد من كبار ضباط الأقسام الفنية والادارية وفرع التخطيط • وقال الرئيس انه سيحضر معه قادة القوات المسلحة ، والمستر سمزويلز من وزارة الخارجية • واستدعى تفرق الغواصات الألمانية فى شمال الأطلنطى التزام أبعد ما يستطاع من احتياطات التكتم والسرية ، وذهب الرئيس يقضى اجازة فى يخته الخاص فى عرض البحر ، وغادره الى الطراد أوجسطا ، وترك اليخت يمشى خلفه كعملية تغطية •

وفى خلال ذلك نال هارى هوبكنز ، بالرغم من مرضـــه ، موافقة الرئيس على السفر الى موسكو فى رحلة جوية مضنية ، خطرة ، جاب

---

(١) يتحدث تشرشـل الاســتعمارى وكأنما مصر ملك لبريطانيا فما اعجب منطقه! «التحرير»

فيها فضاء النرويج والسويد وفنلندة ، ليعرف من ستالين رأسا ماهية مواقف الروس وطلباتهم ، وتقرر انضمامه الى البارجة « الامير ويلز » فى سكابافلو .

وركبت من تشيكرز القطار الخاص الذى يحمل كل هذا العدد من الموظفين ومنهم عدد كبير من كتاب « الرموز » من لندن ، وفى سكابافلو انتقلنا الى البارجة عن طريق مدمرة صغيرة . وفى الرابع من أغسطس قبيل حلول الظلام بدأت البارجة رحلتها فى الأطلنطى تحميها المدمرات . ولقيت هارى هوبكنز منهكا من رحلاته الجوية المتتالية ، ومن الاجتماعات التى أقامها فى موسكو . وقد وصل قبل يومين الى سكابافلو فى حالة سيئة من المرض والانهاك ، مما دفع الأميرال الى اجبـاره على أن يذهب الى فراشه على الفور . ومع ذلك بقى مرحا على طبيعته ، وقد استرد عافيته بسرعة فى أثناء الرحلة ، وكلمنى عن رحلته الأخيرة .

عندما تثور رياح البحر يكثر اهتزاز الحجرات الواسعة الموجودة فوق حجرات الآلات ، المريحة عادة ، وبذلك تضحى غير صالحة للاقامة، ولهذا انتقلت الى غرفة الأمير الموجودة فوق الجسر ، واستعملتها للنـوم وللمكتب . وقد أحببت قبطاننا « ليشر » حبا كثيرا لأننى رأيت فيه كل سمات البحار البريطانى المحبوب ، ومع بالغ الأسى غرق هو وأكثر زملائه وبارجته الهائلة تحت عباب المحيط . وفى اليوم اللاحق اشتدت الريح حتى اضطررنا ان نختار بين الامهال فى السـير ، أو أن نترك مدمراتنا الحارسة . وأصدر الأميرال باوند أمير البحرية الأول القرار ، فذهبنا وحدنا فى أقصى سرعة ممكنة . وأخبرنا أن هنـاك عددا من الغواصـات تخترق المحيط ، فقمنا بحركات انعطاف وميل لتفاديها ، وفضلنا طبعا الكف عن أى اتصال لا سلكى من جانبنا . وكان فى وسـعنا أن نستقبل الرسائل دون أن نجيب عليها الا فى أوقات مخصوصة . وبذلك حدث جمود فى حياتى اليومية المنظمة ، وأحسست بنوع من الراحة لم أحس به منذ قامت الحرب . وكان فى وسعى لأول مرة منذ عدة أشهر أن أطالع كتابا للمتعة والترفيه . وكان أوليفر ليتلتون وزير دولتنا فى الشرق الأوسط قد منحنى رواية « الكبتن هو رنبلاور » التى ألفها فوريستر ، فقرأتها وكانت ممتعة غاية المتعة . وقد أرسلت اليه رسالة حينما بدت لى فرصة قلت فيها « لقيتُ هورنبلاور رائعة » . وقد أوجدت هذه الرسالة القلق فى قيادة الشرق الأوسط ، اذ تراءى لهم أن هورنبلاور الاسم الرمزى لعملية عسكرية خاصة لم يرد بعد خبرها اليهم .

وفى الساعة التاسعة من صباح يوم السبت التاسع من أغسطس، وصلنا الى المكان المحدود ، وبعد تبادل التحيات البحرية المعهودة ، ذهبت الى متن الطراد أوجسطا ، وهناك حييت الرئيس روزفلت الذى استقبلنى بكل مظاهر التقدير والحفاوة ووقف مستندا الى ذراع ابنه ايليوت ، فى حين صدحت الموسيقى العسكرية بالسلامين البريطانى والأمريكى ، ثم استقبلنى بحفاوة ومحبة خالصتين ، واعطيته رسالة من الملك ، ثم عرفته بمن معى ، وفى سرعة بدأت المباحثات بينى وبين الرئس وحضرها المستر سمزويلز والسير اليكسندر كادوجان ، وأفراد القيادتين ، واستمرت المباحثات دون توقف طول الأيام الباقية من زيارتنا فى صورة مؤتمرات عامة أو اجتماعات خاصة لا يشهدها غيرنا نحن الاثنين .

وفى صباح الاحد العاشر من اغسطس قدم الرئيس على متن «الأمير ويلز» وشاهد مع رجاله وضباطه ، ومئات من ضباط البحرية الأمريكية على اختلاف رتبهم وجنود الأسطول ، حفلا قداسيا أقيم على متن البارجة ، وقد شعر كل من رأى هذا القداس بما يشير اليه من تصوير لوحدة العقيدة بين شعبينا . ولا يمكن لكل من حضره أن ينسى ما شاهده من روعة فى ذلك الصباح المشرق على متن البارجة المزدحمة ، وقد رفرف العلمان البريطانى والأمريكى فوق المنصة جنبا الى جنب ، وقام القسان البريطانى والأمريكى يتناوبان القراءة والصلاة ، وأمامهما وقف كبار القادة من الدولتين من بحريين وعسكريين وجويين فى مجموعة واحدة خلفنا أنا والرئيس ، ووراءهم حشود البحارة من الفريقين وقد اندمجوا فى مجموعة واحدة يتلون الكتب نفسها ، ويقرءون الصلوات نفسها . وقد انتقيت نشيد «الى هؤلاء ، المهددين بالاشراف على الهلاك فى البحر» ونشيد « الى الأمام يا جند المسيحية » . واختتمنا بالصلاة المعهودة « يا رب ، يا مجيرنا ، فى الأيام السالفة » . وظهر ان كل كلمة كانت تستثير القلوب . وعشنا ساعة رائعة كتب على أكثر من نصف من شهدها الموت بعد وقت وجيز .

وفى أحد اجتماعاتنا الأولى قال لى الرئيس روزفلت : انه يرى أن فى استطاعتنا ان نصدر بيانا مشتركا يضع بعض الأسس العريقة الخاصة التى يتحتم ان توجه سياستنا فى السبيل نفسه . ولرغبتى فى تتبع هذا الرأى المفيد للغاية ، قدمت اليه يوم الأحد موجزا مدروسا لمثل هذا البيان ، وبعد دراسة طويلة مستأنية واتصالات برقية بوزارة الدفاع فى لندن ، اصدرنا البيان التالى :

ميثاق الأطلنطى أو

« بيان مشترك من الرئيس ورئيس الوزراء »

١٢ من اغسطس عام ١٩٤١

اجتمع الرئيس الأمريكى روزفلت والمستر تشرشل رئيس وزراء بريطانيا ممثلا للحكومة البريطانية ورأيا من الأوفق اعلان بعض الأسس المشتركة فى سياسة بلادهما الوطنية التى يعلقان عليها آمالهما فى تحقيق مستقبل أفضل للعالم .

ولما كان من غير المستطاع صيانة السلام فى المستقبل اذا بقيت الشعوب التى تنذر أو التى يحتمل أن تنذر بالعدوان خارج حدودها تستعمل الأسلحة البرية والبحرية والجوية فى هذا الغرض ، فانهما توقنان أن نزع السلاح من مثل هذه الشعوب أمر ضرورى الى أن يتم اقامة جهاز أوسع وأكثر دواما للأمن العام . وستعاونان وستشجعان أيضا كل الطرق العملية التى تخفف أثقال التسلح عن عواتق الشعوب المحبة للسلام .

وقد تكشفت الأهمية الكبرى لهذا البيان الذى أصبح يسمى فيما بعد « ميثاق الاطلنطي » . والمدهش فى هذا البيان أن دولة « ما زالت محايدة من الجبهة الفنية » كأمريكا قد اشتركت فى اصداره مع دولة محاربة .

ولا مرية فى أن اشتمال البيان على تدمير العدوان النازى عن آخره « وهذه فقرة جاءت فى المسودة التى جهزتها » ، يعد تحديا ظاهرا يمكن اعتباره بمنزلة عمل حربى . وأخيرا برزت ظاهرة أخرى هى ما تجلى فى الفقرة الأخيرة من البيان من واقعية وشجاعة فقد دلت على أن أمريكا ستشترك معنا بعد الحرب فى القيام بأعمال البوليس الدولى الى أن ينتهى العالم من وضع نظام أحسن . وتم الوصول فى الاجتماعات الدورية بين قوادنا العسكريين والبحريين الى اتفاقات كثيرة بينهم . وكنا نرى الخطر فى الشرق الأقصى ماثلا باستمرار . وكانت حكومتا بريطانيا وأمريكا منذ عدة أشهر على وفاق تام نحو البيان . وفى آخر شهر يوليه تم احتلال اليابانيين عسكريا للهند الصينية ، وبهذا الاعتداء السافر أصبحت جيوشهم العسكرية فى موقف يمكنها من توجيه الضربة الينا فى الملايو ، والى الأمريكيين فى الفليبين ، والى الهولنديين فى جزر الهند الشرقية .

وفى الرابع والعشرين من شهر يوليه طلب الرئيس روزفلت من حكومة اليابان « كخطوة أولى للوصول الى تسوية عامة » ، اعلان حياد الهند الصينية ، وجلاء الجيوش اليابانية عنها . ولكى يكتسب هذا الطلب طابع التنفيذ أصدر الرئيس أمرا بتجميد كل الأموال اليابانية فى أمريكا . ودفع هذا العمل الى وقف كل الاتصالات التجارية مع اليابان ، وقامت حكومة بريطانيا باجراء مشابه ، وقام الهولنديون بعد يومين بالعمل نفسه . وكان اشتراك هولندا فى هذه الأعمال ، معناه قطع كل تموينات البترول عن اليابان بضربة واحدة .

ومرت رحلة العودة الى ايسلندة بدون حادث ، بالرغم من أننـــــا

إيران والصحراء

دفعت ضرورة ارســـال الامدادات والذخيرة المتعددة الأنواع الى الحكومة الروسية والمتاعب الكثيرة فى سبيل البحر المتجمد الشـــمالى ، والاحتمالات الاستراتيجية القادمة الى ارادة قوية بفتح أبعد ما يستطاع من مواصلات مع روسيا عن طريق ايران .

وبالطبع كنت أحس بالقلق بسبب الاقبال على فتح جبهة حديثة فى الشرق الأوسط ، ولـكن الدواعى اليها كانت قوية وقاهرة . وكانت آبار البترول الايرانية دافعا حربيا رئيســيا ، وكان علينا أن نـــكون مستعدين للاستيلاء عليها حين تقهر روسيا . وثمة أيضا خطر قائم على الهند . وقد أفسدتُ خطة هتلرفى الشرق نتيجة اخماد الثورة فى العراق ، والاحتلال الانجليزى ـ الفرنسى لسورية ، وقد تما فى آخر لحظة . وقد يرجع الى المحاولة من جديد حين يُهزم الروس . وكان فى طهران وفد المانى يشمل عددا كبيرا من الموظفين ، وكان صيت الألمان فى البلاد قد سما الى السماء . وفى مساء ســـفرى الى خليج بلاسينتيا لمقابلة الرئيس روزفلت أُوصيت لجنة خاصة بتنظيم الخطط الضرورية لعملية تستهدف ايران ، وقد حملوا الى بالبرق وأنا فى عرض البحر آثار عملهم بعد أن وافقت عليها وزارة الدفاع . وكان من الجلى أن الايرانيين لن يطردوا عملاء الالمان ورعاياهم من بلادهم . وانه يجب أن نستعمل القوة لتحقيق ذلك . وفى الثالث عشر من أغسطس قام المسيو ما يسكى بزيارة المستر ايدن فى وزارة الخارجية واتفقا على نصوص المذكرات التى سترسـلها الحكومتان الى طهران ، وفى السابع عشر من اغسطس أرسلت حـكومتا بريطانية وروسيا مذكرة مشتركة الى ايران قوبلت مقابلة غير ودية ، وتقرر اليوم الخامس والعشرون من أغسطس موعدا لدخول قوات بريطانية وروسية ايران .

وأنجزت العملية فى أربعه أيام . وفى فجر الخامس والعشرين من أغسطس نزل الى البر لواء مشاة بريطانى قام من البصرة واستولى على

مصفاة الزيت في عبدان وقد فوجئت معظم القوات الايرانية بالهجوم ، ولكنها هربت بالناقلات ، وجرى بعض القتال فى الشوارع ، وأُكتشفتْ بعض قطع بحرية أيرانية صغيرة . واستولت قواتنا من جهة الشاطىء فى الوقت نفسه على ميناء « خرمشهر » فى حين اتجهت قوة الى الشمال ناحية الأهواز . وحينما كانت قواتنا تدنو من الأهواز وردت أخبار تحمل أوامر الشاه بوقف اطلاق النار ، ووجه القائد الايرانى أوامره الى جنوده بالرجوع الى ثكناتهم ، واستولينا على حقول النفط فى الشمال ، وأمنا من الخطر ، ولم تتجاوز أضرارنا اثنين وعشرين قتيلا ، واثنين وأربعين جريحا .

وتم الاتفاق مع الروس فى سهولة وليونة على كل الخطوات والأعمال السريعة وقد فرضت شروط رئيسية على الحكومة الايرانية هى : وقف العمليات الحربية ، وطرد الألمان من البلاد ، والحياد فى الحرب ، واستعمال الحلفاء للمواصلات الايرانية لنقل الامدادات الحربية الى روسيا . وتم الاستيلاء على فارس فى أمن وسكون . وتقابل جنود بريطانيا وروسيا فى محبة وصداقة .

وفى السابع عشر من سبتمبر تم الاستيلاء على طهران بصورة مشتركة ، ونزل الشاه عن عرشه لابنه الأكبر الموهوب الذى يبلغ من العمر اثنين وعشرين سنة . وفى العشرين من سبتمبر أرجع الشاه بمشورة الحلفاء الملكية الدستورية ، وبعد أيام قليلة ذهب والده الى منفاه المريح حيث مات فى جوهانسبورج فى يولنيه سنة ١٩٤٤ وغادرت أكثر جيوشنا البلاد ، ولم ندع إلاّ فصائل صغيرة للدفاع عن طرق المواصلات وفى الثامن والعشرين من أكتوبر تم خروج القوات البريطانية والروسية من طهران . وقد عملت قواتنا منذ ذلك الحين تحت قيادة الجنرال كينان فى تجهيز الخطوط الدفاعية لمواجهة أى زحف من ناحية القوات الألمانية التى تعبر تركيا أو القوقاز وفى أخذ العدة الادارية لاستقبال معونات هائلة ستصل عندما يصير هذا الزحف حقيقة واقعة ، وغدا إنشاء طريق رئيسى لامداد روسيا عبر خليج البصرة غرضنا الأول ، وكان فى الاستطاعة بمعاونة الحكومة الحليفة فى طهران ، توسيع الموانى والنهوض بالمواصلات البحرية ، وتشييد الطرق ، ومد الخطوط الحديدية .

وفى سبتمبر عام ١٩٤١ بدأ الجيش البريطانى فى هذا المشروع ، وقطع فيه شوطا الى أن اخذته الحكومة الامريكية بعد قليل لتوسعه وتشرف عليه . وبوساطة هذا المشروع استطعنا أن نبعث الى روسيا فى

مدة أربع سنوات ونصف السنة أكثر من خمسة ملايين طن من الامدادات . وهكذا انقضت تجربة قصيرة ، منتجة لاستخدام قوة كبيرة باطشة ضد دولة عتيقة واهنة .

وكانت بريطانيا وروسيا تحاربان دفاعا عن حياتهما ، وقد أبهجنا كثيرا أن انتصارنا تم به حفظ استقلال ايران .

ولنرجع الآن الى مسرح البحر المتوسط الهائج : فى الخامس من يونيه تولى الجنرال أو كنلك القيادة الرسمية فى الشرق الأوسط ، وبدأت صلاتى بقائدنا الجديد ، وقد احتوانى الأمل . ولكن بعد أن تبادلنا عددا من البرقيات تبين لى أن هناك اختلافات خطيرة فى الآراء والقيم بيننا . فقد رأى الدفاع عن جزيرة قبرص بفرقة على الأقل فى أسرع وقت مستطاع ، كما أكد وجوب استرداد برقة ، ولكنه لم يكن موقنا أن فى امكان طبرق أن تصمد بعد شهر سبتمبر . وذكر أن تركيب دبابات أمريكا الحديثة وتسليحها أدخلا تغييرات فى العمليات التكتيكية ولا بد أن تستغرق الدراسات الخاصة بهذه التغييرات وقتا حتى يتم . ووافق بأنه سيكون عنده فى آخر شهر يوليه ما يقرب من خمسمائة دبابة من الدبابات السريعة والثقيلة والأمريكية . ولكنه يرى على أية صورة أن أية عملية تستدعى خمسين فى المائة من مجموع الدبابات كقوة احتياطية نصفها يكون تحت الاصلاح فى المصانع ، ونصفها الآخر يحل محل ما يصاب من دبابات فى المعركة . وكان مثل هذا الرأى مانعا يحول دون أية عملية فمثل هذا الترف لا يتم بالجنرالات الا فى جنان الفردوس — والجنرالات الذين يريدون مثل هذا الترف ويفرضونه لا يبلغون الجنان عادة . وألح « أو كنلك » فى لزوم عنصر الزمن للتمرين الفردى والجماعى ، ووجود روح العمل المشترك كفريق وكشرط أساسى للكفاية والايجابية ، وايقن أن هجوم الألمان من الشمال أى عبر تركيا وسورية وفلسطين سيكون جبهة حاسمة لا يرى وقوعها فى الصحراء على أى حال .

وبسبب كل هذه الآراء لم أقل الكثير مما كنت آمل وضللتنى أيضا قرارات الجنرال الأولى ، وفزت فى النهاية بعد اصدار والحاح بنقل الفرقة البريطانية الخمسين الى مصر . وكنت حساسا بالنسبة للدعاية المضادة التى تقول ان سياسة بريطانيا تقوم على خوض الحرب بجنود غير جنودها ، وأنها تتحاشى إراقة دماء الانجليز فى حربها . وكانت أضرار البريطانيين فى الشرق الأوسط كله ، بما فيه اليونان وكريت ، أكثر من أضرار القوات الأخرى العاملة معنا ، ولكن التسميات المعروفة أشارت الى انطباعات

«مغلوطة» عن هذه الحقائق ، فمثلا الفرق الهندية التى كان ثلث مُشاتها وكل مدفعيتها من البريطانيين ، لم تكن تسمى بالفرقة « البريطانية — الهندية » وكانت الفرق المدرعة التى تحملت بأس القتـــال وضغطه كلها بريطانيه ، ولكنها لا تسمى بالفرقة البريطانية . ودَفعُ عدم ذكر القوات البريطانية فى البلاغات الحربية « إلاّ قليلا » إلى إسباغ شيء من الحق على دعايةُ العدو المُشهرة بنا ، وأُهاجت انتقادات مؤلمة إلا فى أمريكا وحدها ، بل فى استراليا ايضـــا وكنت متعطشا الى وصـــول الفرقة البريطانية الخمسين كسلاح حاسم للتغلب على هذه التيارات المضادة . وكان قرار الجنرال أو كنلك باختيار هذه الفرقة بالذات وارسالهـــــا الى قبرص ، اختيارا يفتقر الى المنطق ، لأنه يُمكن العدو من الحصـــول على مـــادة يستعملها من غير حق فى تعييرنا والاستخفاف بنا . وقد أذهل اتخـاذ هذا القرار العجيب باستخدام مثل هذه القوة الفائقة جميع رؤساء أركان الحرب فى الوطن . ودفع تصميم آخر أكثر خطورة من الجنرال أوكنلك ، الى ارجاء كل عمل حربى ضد رومل فى الصحراء الغربية فترة ثلاثة أشهر أولا ، وأربعة أشهر ونصف شهر فيما بعد . مما سوغ ما تناوله «ويفل» من عمل فى الخامس عشر من يونيـــه فى عملية « فأس المعركة » اذ أنه على الرغم مما اصابنا من ضرر ، وبالرغم من تراجعنا الى مواقعنا الأصلية ، لم يستطع الألمان مطلقا ان يتقدموا طول هذا الوقت الطويل ، ولم تكن مواصلاتهم التى نهددها طرقا كافية لتمكنهم من المجيء بالتعزيزات الواجبة من المدرعات حتى من ذخيرة المدفعية ، ليتمكن رومل من أن يقوم بأكثر من الصمود بفضل ارادته وصيته . وكانت تغذية جنوده تكلفه مجهودا صعبا يعوقه عن زيادة هذه القوات الاّ بشكل تدريجى .

وفى مثل هذه الظروف كان من اللازم أن يظل متصديا للاشتباكات مع القوات البريطانية التى كانت تفوقه فى يسر مواصـــــلاتها البرية والحديدية والبحرية ، والتى كانت تستقبل دائما المعونات والتعزيزات على أوسع نطاق فى الرجال وأدوات الحرب .

وظهر أيضا ان المبالغة فى وصف الانزعاج على جناحنــــا الشمالى نتيجة طبيعية لسوء التقدير . وليس من شك فى أن الدفاع عن هذا الجناح كان يستوجب غاية الحرص ، ويسوغ اتخاذ الكثير من اســتعدادات الدفاع وانشاء خطوط دفاعية محصنة فى فلسطين وسورية . ولـكن الموقف فى هذه الجبهة أصبح الآن أحسن بكثير مما كان عليه فى يونيه . فقد سيطرنا على سورية وأطفأنا ثورة العراق ، وجيوشنا صامدة فى كل المواقع المهمة فى الصحراء . والى جانب هذا أدى الصراع بين المانيـــا

وروسيا الى عودة الثقة من جديد الى تركيا فما دامت الحرب قائمة بينهما وما دام مآلها معلقا فى كفة القدر فلا يتصور أن تطلب ألمانيا من تركيا اجتياز قواتها اراضيها .

ودفع العمل « البريطانى الروسى المشترك » بايران الى معسكر الحلفاء وهكذا كان الموقف العام يعزز القيام بعمل حاسم فى الصحراء الغربية وبدلا من ذلك شعرت بحرج موقف الجنرال أوكنلك من ناحية هذا الموضوع ، وهو حرج لا يخدم الأغراض التى نعمل لها كلنا ، وليس فى مصلحتها . وقد أوردت الاسفار التى صدرت بعد انقضاء الحرب ، كيف عارضت طوائف غير رئيسية — ولكنها ذات نفوذ فى هيئة أركان العمليات الحربية فى القاهرة — قرار ارسال الجيش البريطانى الى اليونان . ولم يكن هؤلاء يعلمون أن الجنرال ويفل هو الذى ارتضى اتخاذ هذه السياسة بخالص ارادته واختياره ، وان وزارة الدفاع ، وهيئة رؤساء أركان الحرب ، تركتا له القرار مفتوحا مع ارادة اتخاذه قرارا سلبيا .

وقد روى أن السياسيين قد أجبروا ويفل ، وأن موافقته على ارادتهم أظهرت سلسلة متتابعة من المحن . والآن كمكافأة له على سجيته الطيبة أقصى عن منصبه بعد كل تلك الانتصارات ، وحين غدت الهزيمة قريبة الوقوع . ولا ريب عندى فى أن دوائر ضباط الأركان هناك قد عمها احساس بأن على القائد الجديد الا يسمح للآخرين بدفعه الى مغامرات خطرة . بل يتحتم عليه أن يعمل فى تؤدة . وألا يقوم بأية خطوة الا اذا وثق من نتائجها ، ولا مرية لدىّ فى أن مثل هذا الرأى قد حول الى الجنرال أوكنلك نفسه . وبدا لى أن المكاتبات لن تدفع الى أى تقدم . فدعوت الجنرال فى شهر يولية للقدوم الى لندن . وكانت زيارته مجدية من عدة نواح . فقد أنشأ صلات ودية مع أعضاء وزارة الحرب . ومع رؤساء الأركان . ومع وزارة الحربية وقضينا معا اجازة طويلة الى آخر الأسبوع فى تشيكرز . وحينما نمت معرفتنا بهذا الضابط المتألق . الذى يتعلق بكفايته مآلنا وأقدارنا ، وحينما غدا هو الآخر أكثر معرفة بالدوائر العليا فى جهاز بريطانيا الحربى ، ورأى كيف يعمل هذا الجهاز فى مرونة ويسر عظمت الثقة المتبادلة . ولم يكن فى طاقتنا من الجهة الأخرى اقناعه بالتحول عن اصراره على مطله فى التأهب لهجوم دقيق التفاصيل يبدؤه فى الأول من نوفمبر . وتقرر تسمية هذا الهجوم « بالصليبى » على أن يكون أكبر عملية قمنا بها حتى الآن . ولا شك فى أنه انتصر على كل مستشارى العسكريين بالأدلة المفصلة التى جاء بها ، ولم أقتنع برأيه .

ولكن كفاياته التى لا ريب فيها وقوة بسطه للموضوع وشخصيته السامية الجذابة القوية كلهـا دوافع أوحت إلىّ بالاحسـاس بأنه قد يكون على صواب ، وبأنه لو كان مخطئا فهو أفضل قائد يتقلد هذا العمل ، ولهـذا خضعت لموعد نوفمبر الذى قرره للبدء فى الهجوم ، واتجهت بكل ما أملك من مجهود لانجاحه . وقد حزنا جميعا اشد الحزن لأننا لم نتمكن من اقناعه بأن يوصى بالقيادة للجنرال ميتلاند ويلسون عند قيام المعركة ، فقد فضل عليه الجنرال آلان كانتجهام ، الذى ذاع صيته عند انتهاء الانتصار البريطانية فى الحبشة . وكان يلزمنا على أية حال أن نستفيد من الموقف كل الاستفادة ، وألاّ نقنع بأنصاف الحلول أو الاستعدادات. وهكذا اشتركنا فى المسئولية باحتضـان كل القرارات التى اتخذها . ومع ذلك ينبغى أن اثبت يقينى هنا بأن الشهور الأربعة ونصف الشهر التى استغرقها الجنرال أوكنلك فى ارجاء الاشتباك مع العدو فى الصحراء الغربية ، كانت غلطة وكارثة فى الوقت نفسه .

والآن ونحن نعلم تماما ما كانت تفكر فيه القيادة العليا الألمانية فيما يختص بوضع رومل . فقد كانت هذه القيـادة مغرمة بإقدامه وبانتصاراته المدهشة التى حققها ولكنها فى الوقت نفسه كانت تحس بأنه فى موقف بالغ الخطورة . وقد كفته بشدة عن القيام بأية مغامرة جديدة الى أن يتم امداده بقوات كبيرة وحديثة . ومن الممكن بالنسبة لشهرته الطنانة أن يرضينا ، وأن يصمد فى الموقف الذى يجد نفسـه فيه ، الى أن تتدفق عليه الامدادات التى سترسل ، وخط مواصـلاته يمتد الف ميل الى طرابلس . وتصلح بنى غازى كقاعدة قريبة لبعض تمويناته وامداداته ، لكن أيا من هذين الميناءين يتصدى النقل البحرى اليه بضربة فادحة وتكاليف باهظة وما فتئت القوات البريطانية التى تفوقه الآن فى العدد آخذة فى الازدياد يوما بعد يوم ، أما تفوق الألمـان فى الدبابات فمقصـور على النوع والتنسيق ، والألمان فى الجو أوهن من غيرهم . وهم يحتاجون كل الاحتياج الى ذخيرة المدافع ويخافون أن يجدوا أنفسهم . مضطرين الى اطلاق عدد مما عندهم من قذائف قليلة وما برحت طبرق تظهر كتهديد قاتل فى مؤخرة رومل ، وقد ينطلق منها فى أية برهة هجوم يقطع عليه سبيل مواصلاته . ولكن كان فى امكانهم أن يشكروا لنا كل يوم يمضى دون أى عمل ما دمنا نقف مشدودى اليدين للخلف .

واستثمر الفريقان أشهر الصيف لتقوية جيشيهما • وكان اعداد مالطة بالأسلحة والمؤن أمرا مهما بالنسبة الينا • بعد أن منعنا من اتخاذ كريت قاعدة للوقود ، يمكنها أن تكفل لأسطول الاميرال كانتجهام مركزا قريبا لتمكين قوتنا البحرية المدافعة من العمل • وقويت الاحتمالات بقيام ايطاليا وصقلية بهجوم بحرى على مالطة ، وان كنا اليوم نعلم أن هتلر وموسولينى لم يرضيا بمثل هذه الخطة الا فى سنة ١٩٤٢ • وكانت مطارات العـدو فى كريت وبرقة تهـدد سـبيل قوافلنا البحرية من الاسكندرية الى مالطة بصورة خطيرة ، حتى أننا لجأنا الى الاعتماد على الغرب فى نقل المؤن الى الجزيرة وقد قدم الاميرال سومرفيل بفرقة (هـ) العاملة فى جبل طارق مساعدات هائلة فى هذا الطريق • وقد غدا السبيل الذى كانت الأميرالية تعده أكثر السبل خطورة الطريق الوحيـد المفتوح أمامنا الآن • ولحسن حظنا أجْبَرَتْ مطالب الحملة فى روسيا هتلر على سحب قواته الجوية من صقلية ، مما هيأ لمالطة فرصة للاستجمام ، ورد الينا السيادة على مضيق مالطة التى كنا قد فقدناها ولم يدفع هذا التحول الى معاونة قوافلنا على الوصول من الغرب بل مكننا من أن نسدد ضربات عنيفة الى سفن التموين والنقل التى تتولى تموين روِمل •

واستطاعت قافلتان مهمتان أن تشقا سبيلهما عنوة بنجاح ، وكان ذهاب كل منهما عملية بحرية شاقة • وفى شهر أكتوبر استطعنا أن نغرق ستين فى المائة من امدادات روِمل وهى فى طريقها • ولكن اشفاقى ما برح قائما • وحضضت الاميرالية على أن تضـاعف جهودها • وكنت أريد بصورة خاصة ايجاد قوة بحرية تعمل باستمرار فى قاعدة مالطة وقد ارتضيت هذه السياسة وان احتاج تنفيذها الى بعض الوقت • وفى شهر أكتوبر أنشأنا قوة هائلة فى مالطة سميناها القوة « ك » وشملت الطرادين أوردرا وبنيلوبى ، والمدمرتين لانس ولايفلى • وقد قامت كل هذه الاجراءات بدورها فى المعركة الجديدة التى تقرر بدؤها •

ويحتاج وصف المعارك الحديثة الى ذلك الشعور الدراماتيكى الذى كان يصاحب معارك التاريخ ، لأنها تنبسط الآن على مساحات واسعة ، ويستدعى البت فى مصيرها عدة أسابيع ، فى حين كانت معارك التاريخ المشهورة التى قررت مآل الشعوب والامبراطوريات تجرى فى عدة أميال مربعة من الأرض ، ويتقرر مآلها فى خلال ساعتين • ولا مرية فى أن معارك المدرعات السريعة والآلية فى الصحراء تصور هذه المفارقة فى صورة جلية • وقامت الدبابات مقام فرسان الماضى ، بأسلحة أقوى وأبعد غاية

وغدت مناوراتها قريبة الشبه من عدة وجوه بالحرب البحرية التى تقوم فيها بحار الرمال مقام المياه المالحة • والقوة المدرعة مقام سرب الطرادات وهى التى تحدد مصير المعركة اكثر مما يحدده الموقف الذى تواجه فيه العدو ، أو الناحية التى تظهر فيها • وتستطيع فرق الدبابات وألويتها حتى وحداتها الصغيرة أن تنشىء قوى فى كل ناحية بسرعة فائقة • حتى أن خطر الحصار أو التطويق غدا أمرا لا وزن له • ومن جهة أخرى يستند كل شىء من لحظة الى أخرى ، الى الوقود والذخيرة ، والامداد بهما مشكلة بالنسبة للقوات المدرعة أكثر صعوبة منها بالنسبة الى البواخر التى لديها اكتفاء ذاتى ، أو الأسراب التى فى عرض البحار ، وهكذا تتحدث الأسس التى يقوم عليها فن الحرب عن نفسها بأسلوب جديد ، وتمنح كل معركة دروسا جديدة مستقاة من خبرتها •

ويلزمنا أن ننقص من قوة المجهود الحربى الذى تشتمل عليه هذه المعارك الصحراوية • وعلى الرغم من أن القوات المقاتلة فى كل معركة لا يربو عددها على تسعين ألف جندى أو مائة ألف بالنسبة لكل من الفريقين ، فانها تفتقر الى ثلاثة أضعافها من الرجال الذين يتولون امدادها بالقوة والذخيرة لمعركة تقرير المصير وهكذا تبرز معركة سيدى رزق القاسية التى كانت أول هجوم شنه الجنرال أو كنلك ، حين تدرس بشكل واف ، عددا من أهم ملامح الحرب الجبلية • فلقد كان التدخل الشخصى للقائدين العامين للفريقين متحكما وحاسما ، وكان مصير المعركة يتأرجح كما كان فى الأيام الماضية •

كان هدف أو كنلك أولا العودة الى احتلال برقة وتدمير مدرعات العدو خلال هذه العملية ، وثانيا احتلال طرابلس اذا سارت الأمور على مايرام ولتنفيذ هذين الهدفين أوصى الجنرال كانتجهام بقيادة الجيش الثامن المكون حديثا والذى يشمل الفيلقين الثالث عشر والثلاثين ، ويضم مع حامية طبرق ما يقرب من ست فرق ، وثلاثة ألوية احتياطية وسبعمائة وأربع وعشرين دبابة وتضمن السلاح الجوى فى الصحراء الغربية ألفا واثنين وسبعين طائرة حديثة تصلح للحرب ، الى جانب عشرة أسراب تعمل بقواعدها فى مالطة • وعلى مدى سبعين ميلا من مؤخرة رومل توجد حامية طبرق المكونة من خمس مجموعات ألوية ولواء مدرع ، وكانت القلعة أهم ما يشغله وقد منعت بمركزها الاستراتيجى أى تقدم من جهته فى الأراضى المصرية • وكان غرض القيادة العليا الألمانية المقرر هو تصفية قاعدة طبرق ، وقد اتخذت كل التأهبات المستطاعة للبدء فى الهجوم عليها فى الثالث والعشرين من نوفمبر وكانت قوات رومل تتكون من الفيلق

الألمـانى القوى المـكون من الفرقتين المدرعتين الخامسة عشرة ، والحـادية والعشرين ، وفرقة المشاة الخفيفة التسعين ، وسبع فرق ايطالية ضمنهـا فرقة مدرعة واحدة ولدى العدو خمسمائة وثمان وخمسون دبابة منهـا المتوسط والثقيل ، وثلثاها من الدبابات الألمـانية التى تحمـل مدافـع أضخم من مدافع دباباتنا ذات الرطلين •

وكان العدو يسبقنا فى الأسلحة المضـادة للدبابات ، وكانت القوة الجوية للمحور وتتكون عند الهجوم من مائة وعشرين طائرة ألمـانية ومائتى طائرة ايطالية •

وفى الثامن عشر من نوفمبر وثب الجيش الثامن فى جو ممطر للغاية وفى الأيام الثلاثة الأولى مشت الأمور على ما يرام ، واسـتطاعت الفرقة البريطانية المدرعة السابقة التى تكون جزءا من الفيلق الثـلاثين ، أن تستولى على « سيدى رزق » ولـكن الفيلق الألمـانى الذى ركز مدرعاته هاجمها بسرعة ، وقامت معركة قاسية وحشية طيـلة الحادى والعشرين والثانى والعشرين داخل المطار وحوله ، وامتدت كل القوات المدرعة للفريقين الى هذه المنطقة ، وكانت تلتحم فى معارك مضطربة تحت ضغـط نيران المدفعية المتسابقة • واستطاع الألمـان بتفوقهم فى الدبابات ، وزجهـم بأكبر عدد منها فى المعركة ، وتفوقهم فى العدد ، أن ينتصروا • وقـد تفوق الألمـان بالرغم من قيادة الزعيم جوك كامبـل الباسلة والفائقة ، وأصبنا بأضرار أكثر من أضرارهم • وفى ليلة الثانى والعشرين استرد الألمـان « سيدى رزق » وفقدت قواتنا ثلثى مدرعاتها ، وصدر اليها أمر بالتقهقر عشرين ميلا لاعادة ترتيب صفوفها ، وكانت نكسة شـديدة للغـاية •

وفى خلال ذلك ، وكانت مدرعات العدو ملتحمة فى القتال ، أصدر الجنرال كانتجهـام فى الحادى والعشرين من نوفمبر ، أوامره الى الفيلق الحادى عشر بالزحف ، فاستولى على مقر قيادة الفيلق الافريقى الألمانى وفى الثالث والعشرين من الشهر أوشك أن يسترد « سيدى رزق » التى طُرد منها قبل قليل رفاقهم من رجال الفرقة السابعة المـدرعة • وفى الرابع والعشرين ركز « فربر » ثقل قواته النيوزيلندية على مدى خمسة أميـال الى الشرق من المطار • وقام دفاع طبرق بهجوم لتحطيم الحصار المفروض عليهم وكانوا يقاتلون بوحشية المشاة الألمـان ، ولـكنهم لم يستطيعوا أن يفتحوا فجوة فى صفوفهم • وأمام « سيدى رزق » توقف النيوزيلنديون بعد تقدم ظافر موفق •

وقد تم عزل فرق دفاع العدو على الحدود ولـكن مدرعاتها كانت قد فازت في المعركة ضد الفيلق الثلاثين ، ونزلت بالفرقتـين ضربات كاسرة وأضرار فادحة ، ولـكن مآل المعركة ما فتىء معلقا فى كفة القدر .

وهنا حدثت رواية مسرحية تفـكرنا بطواف « جيب » سـيتورات حول ماكميلان سنة ١٨٦٢ فى شبه جزيرة « يورك تاون » خلال الحرب الأهلية الأمريكية . ولـكن قوة مدرعة هى التى نفذت هذه الرواية فى هذه المرة . وهى وحدها جيش قائم بنفسه ، كان تحطيمه سيعرض جيش المحور فى افريقية كلها لأفدح الأخطار . وقد قرر رومل أن يتولى زمام المسارعة التكتيكية ، وأن يسلك طريقه شرقا الى الحدود بمدرعاته راجيا أن يحدث الكثير من الفوضى والذعر في صـفوف قيادتنا ، ليجبرها على العدول عن الهجوم والتقهقر . ولعل رومل وهو يفكر فى خطته الجـديدة قد رجع بمخيلته الى ما تهيأ له من حظ طيب فى تقدمه المدرع فى معركة الصحراء السالفة فى الخامس عشر من يوليه . وهو التقدم الذى دفع الى تقهقرنا فى تلك اللحظة الصعبة وسيتضح فى سـياق القصـة التى سأسوقها مدى ما استطاع أن يحققه من نصر .

جمع رومل معظم قوات فيلقه الافريقى ، وكان لايزال أقوى قـوة عاملة فى الميدان وأخطأ بأعجوبة موقع فيلقنا الثلاثين ، ومخزنين ضخمين للذخيرة ، لم يكن فى طاقتنا أن نستمر فى القتال بدونهما ، ثم بلغ الحدود المصرية ، وهنا وزع رومل قوته الى عدة فرق اتجه بعضها شمالا والبعض الآخر جنوبا ، وبعدها توغل عشرين ميلا داخل الاراضى المصرية ، وأحدث الاختلال والفوضى فى مناطق مؤخرتنا ، وأسر من الرجال عددا كبيرا ، لكن فرقة لم تتمكن من أن تؤثر على الفرقة الهندية الرابعة التى ظلت تطاردها بوحدات تم تركيبها بسرعة ، والى جانب هذا استمر سلاحنا الجـوى الذى كان قد أحرز السبق والسيادة على أجواء القوات المتحاربة ، يتتبع قواته ويقصفها من الجو ، وقاست قوات رومل التى لا يؤيدها سلاح جوى آلاما جساما مثلما قاست جيوشنا من قبل حين كانت ألمانيا تسيطر على أجواء المعارك . وفى السادس والعشرين اتجهت كل مدرعات العدو الى الشمال تفتش عما أنزل من الجو . وقاست قوات رومل التى لا يؤيدها سلاح جوى آلاما جساما مثلما قاست جيوشنا من قبل حين كانت ألـمانيا تسيطر على أجواء المعارك . وفى السادس والعشرين اتجهت كل مدرعات العـدو الى الشمال تفتش عما أنزل من الطائرات فى البردية على كثب منها . وفى اليوم التالى اتجهت الى الغرب بسرعة راجعة الى « سيدى رزق » حيث طلب

منها أن تعود الى هناك بسرعة ، وهكذا طاشت ضربة رومل الجريئة ، ولكن الفضل فى طيشها يرجع الى فرد واحد ، هو القائد البغيض له وأقصد به أوكنلك ٠

فقد دفعت الضربات الشديدة التى نزلت بنا ، وحالات الفوضى التى حدثت خلف جبهتنا بسبب غارات رومل ، الجنرال كانتجهام الى أن يقترح على القائد العام وقف هجومنا ، ويصور له أن مواصلة الهجوم ستؤدى الى افناء ما عندنا من دبابات ويعرض أمن مصر كلها للخطر ٠ وكان تصويره يقصد الاقرار بالهزيمة وفشل العملية كلها وفى هذا الظرف الحاسم تدخل الجنرال أوكنلك نفسه ٠ فقد أجاب طلب كانتجهام وطار مع ماريشال الجو تيدر الى مقر قيادة الصحراء في الثالث والعشرين من نوفمبر ، ومع علمه بكل الأخطار ، أصدر أمره الى الجنرال كانتجهام بالاستمرار فى مهاجمة العدو ٠ وهكذا نجى أوكنلك المعركة بعمله الشخصى ، وأقام الحجة على ما يتمتع به من فضائل كقائد ظاهر فى الميدان ٠

وحينما رجع الى القاهرة فى الخامس والعشرين قرر أن يحل نائب رئيس أركان حربه الجنرال ريتش محل الجنرال كانتجهام مؤقتا ، وسوغ قراره بأنه استخلص مع الأسف أن كانتجهام على الرغم من قيادته العجيبة حتى الآن بدأ يفكر تفكيرا دفاعيا لما أصبنا به من خسارة فادحة فى الدبابات ٠ وقد أيد وزير الدولة أوليفر ليتلتون ، هذا القرار وأوضحه فأرسلت اليه ردى بالموافقة ٠

وأحب هنا أن أدع هذا الحادث الممض الذى حدث لهذا الضابط الشجاع ولأخيه قائدنا البحرى العام ، وللجنرال أوكنلك الذى كان صديقا شخصيا للأخوين ولكننى أود أن أفصح عن كلمة تقدير لسلوك الجنرال أوكنلك الذى سما فوق مستوى الاعتبارات الذاتية ، وفوق كل ما يتصدى له الانسان من خداع لاتخاذ عمل وسط أو ارجاء اتخاذ القرار٠

وفى خلال ذلك كان فريبرج والنيوزيلنديون ، يعززهم لواء من دبابات الجيش الأول ، مستمرين فى الضغط على « سيدى رزق » فرجعوا الى الاستيلاء على الموقع بعد يومين من القتال الوحشى القاسى ، وفى الوقت نفسه بدأت حامية طبرق محاولاتها لكسر الحصار ، وفى ليلة السادس والعشرين استطاعت أن تتصل بالقوة المنجدة ، واقتحمت بعض الوحدات طبرق المطوقة ٠ ودفع هذا الموقف الى رجوع رومل من البردية ، فسلك سبيله الى « سيدى رزق » على الرغم من أن فرقتنا السابقة المدرعة التى أعادت ترتيب نفسها الآن شنت هجوما على جناحه بمائة وعشرين دبابة ٠

ورجع رومل الى الاستيلاء على «سيدى رزق» وأجبر اللواء النيوزيلندى على التقهقر بعد أن حمّله خسائر ثقيلة ، متراجعا الى الحدود فى اتجاه جنوبى شرقى ، حيث أعادت الفرقة الشجاعة تنظيم نفسها بعد أن فقدت أكثر من ثلاثة آلاف رجل • ورجعت قوة طبرق الى العُـــزلة ، وان كانت قـــد احتفظت بشجاعة بكل مغانم حصلت عليها من الأرض • وشـــغل الجنرال رتشى الآن اعادة جمع قواته ، فىحين قام رومل بهجوم أخير لينجد قواته على الحدود ، ورُدّ هذا الهجوم ، وبدأ تراجع جيش المحور العام الى خط الغزالة وفى الأول من ديسمبر ذهب أوكنلك نفسه الى مركز القيـــادة الأمامى حيث أمضى عشرة أيام مع الجنرال ريتشى ولم يتول أوكنلك زمام القيادة شخصيا ، ولـكنه استمر يشرف على أعمال مساعدة ولم يظهر لى أن هذا العمل سليم بالنسبة الى الرجلين ، ولـكن قـوة الجيش الثـــامن أصبحت متقدمة الآن • وفى العاشر من ديسمبر كان فى استطاعة القائد العام أن يرسل الينا قائلا : « يظهر أن العدو يتقهقر تقهقـرا تاما تجاه الغرب •• وأوقن أن فى طاقتى الآن الأعداء برفع الحصار عن طبرق •• نحن نستمر فى المطاردة بتعاون تام مع ســلاح الجو الملكى » • ونعرف الآن من سجلات الألمان أن ما خسره العدو فى المعركة وصل الى ثلاثة وثلاثين الف رجل ، وثلاثمـــائة دبابة ، أما ما خسرته الجيوش البريطـــانية والامبراطورية فى الوقت نفسه فلم تتعد نصف هذا العدد من الرجال ، ومائتين وثمان وسبعين دبابة • وقد حدث تسعة أعشار هذه الأضرار فى أول شهر من الهجوم على أية حال بلغنا الآن فترة من الاستجمام طبعـــا بالنسبة لحرب الصحراء •

ولـكن قوتنا البحرية فى شرق البحر المتوســط حطمتها تقريبـا سلسلة متتابعة من المحن فى هذا الظرف الحاسم • فقد أطل زمن قوتنـا وتقدمنا على النهاية ، اذ بلغت الغواصات الميدان • ففى الثامن عشر من نوفمبر أصاب طوربيد من غواصة ألمانية حاملة طائراتنا « ارك رويال » وهى فى سبيل عودتها الى جبل طارق بعد أن نقلت كثيرا من الطائرات الى مالطة وعجزت كل المحاولات لانقاذها ، وغرقت البارجة التى قامت بدور كبـير واضح فى كثير من معاركنا البحرية ، على مدى خمسة وعشرين ميلا من جبل طارق •

وأصيبت « برهام » بعد أسبوعين بثلاثة طوربيدات وغرقت فى أقل من ثلاث دقائق ، وعلى متنها ما يقرب من خمسمائة رجل • ولم يكن هذان الحادثان كل شيء • ففى ليلة الثامن عشر من ديسمبر دنت غواصة ايطالية

من الاسكندرية وقذفت ثلاثة طوربيدات حية • ويوجه كل منهما رجلان ونفذت الطوربيدات من مدخل الميناء حينما كان الباب مفتوحا لمرور السفن وقد وضع الرجال قنابل زمنية انفجرت صباح اليوم الثانى أسفل البارجتين « الملكة اليزابيث » و « فاليانت » وقد أصيبت البارجتان بأضرار فادحة • وغدتا غير صالحتين للعمل شهورا عدة • وقد استطعنا أن نخفى الضرر الذى أصاب أسطولنا وقتا طويلا ، ولكن القوة «ك» لحقتها أيضا ضربة قاصمة • ففى اليوم الذى حدثت فيه كارثة الاسكندرية ، جاءت الأخبار الى مالطة بأن قافلة ــ مهمة للعدو فى سبيلها الآن الى طرابلس • وفى الحال خرجت ثلاثة طرادات وأربع مدمرات لمطاردة القافلة وحينما دنت بوارجنا من طرابلس ، سقطت فريسة حقل ألغام وأصيب طرادان استطاعا أن يبحرا بالرغم من ذلك ، أما الطراد الثالث فقد أخذته الألغام المغنطة وأغرقته ولم ينقذ من بحارته الذين يربون على السبعمائة الا رجل واحد وقع فى أسر العدو بعد نجاته مع قبطانه أوكونور وثلاثة عشر رجلا آخرين على عوامة من الطراد ، ولكن العوامة غرقت فى ثلث الليل الأول بزملائه كلهم • ولم يبق من أسطول البحر المتوسط الشرقى غير ثلاثة طرادات من سرب الأميرال فيان وبعض مدمرات •

وفى الخامس من ديسمبر ، وبعد أن عرف هتلر أخيرا ما تصدى له رومل من خطر بالغ ، أصدر أمرا بنقل فيلق جوى تام من روسيا الى صقلية وشمالى افريقية • وبدأ الجنرال كيسلرنج الذى تقلد القيادة الجوية ، بتوجيه هجوم جوى جديد على جزيرة مالطة ، وبلغت هذه الغارات أقصاها ولم يكن فى طاقة الجزيرة أن تعمل شيئا غير الدفاع بقوة فى سبيل حياتها • ولم يأت آخر العام حتى كان السلاح الجوى لألمانيا هو المسيطر على السبل البحرية الى طرابلس مما أتاح لرومل أن يعيد تكوين قواته وتنسيقها بعد ما منى به من هزيمة • ولم يحدث مطلقا فى تاريخ الحروب بوضوح أهمية تعاون الأسلحة البحرية والجوية والبرية كما اتضح فى حوادث هذه الشهور القليلة •

ولكن هذه الأشياء كلها غدت الآن ذاوية تحت ضغط الأحداث العالمية •

ميناء الدر
« بيرل هاربور »

كنت أنا والسفير وينانت وافريل هاريمان وحدنا في تشيكرز مساء الأحد السابع من ديسمبر عام ١٩٤١ ، وحولت مؤشر الراديو لننصت الى نشرة أنباء الساعة التاسعة التى بدأت قبل لحظات ، وكان ثمة بعض الأخبار عن القتال فى الجبهة الروسية ، وفى الجبهة الليبية ، ثم تبع ذلك بعض الأنباء عن هجوم يابانى على السفن الامريكية فى جزر هاواى وعلى البواخر البريطانية فى جزر الهند الشرقية الهولندية • وتبع ذلك أذيع أن المستر « فلان » سيذيع تعليقا بعد الأنباء ، ثم يتبع ذلك برنامج « وحدة الألباب » أو ما ضاهى ذلك • ولم يخطر ببالى شخصيا أى شىء ، بيد أن أفريل هاريمان ذكر أن ثمة شيئا عن هجوم يابانى على الأمريكيين وبالرغم مما كنا نشعر به كلنا من جهد ، تجددت كل مشاعرنا • وكان سويزر الساقى : قد سمع بما حدث فحضر الى الحجرة يقول : « هذا صحيح لقد سمعنا أنفسنا ما وقع فى الخارج ، فقد أغار اليابانيون على الأمريكيين » وعم جوّنا الوجوم ، وكنت قد أذعت فى حفلة غداء رسمية أقيمت فى الحادى عشر من نوفمبر أن بريطانيا ستعلن الحرب على اليابان بعد ساعة واحدة اذا هاجمت أمريكا • وغادرت مقعدى على المائدة ، واجتزت القاعة الى المكتب الذى يعج بالعمل ، وطلبت تسجيل محادثة تليفونية لى مع الرئيس • وأدركنى السفير فى الخارج • وقد توهم أننى أنوى القيام بخطوة يعسر اصلاحها ، فقال : « ألا ترى من الأحسن أن نتيقن أولا ؟ » •

وكان الرئيس روزفلت بعد دقيقتين أو ثلاث دقائق على الناحية الأخرى من الخط التليفونى فقلت : « يا سيدى الرئيس •• ما الذى يردد حول اليابان ؟ » قال : « انه صحيح • لقد أغاروا علينا فى ميناء الدر •• وها نحن أولاء معكم الآن على السفينة نفسها • وناولت وينانت السماعة ، وجرى كلام قصير ، سمعت خلاله السفير يقول : « حسنا •• حسنا » •

ثم ينطق فى جد أكثر « آه » • ورجعت أتكلم الى الرئيس فقلت : « ان هذا التطور ييسر الأشياء • والله معك » ورجعنا الى القاعة ، والتمسنا تهيئة أفكارنا للحدث العالمى الضخم الذى حدث ، والذى كان مفاجئا بطبعه ، بحيث جعل أولئك المسئولين يلهثون من الحيرة• وتحمل صاحباى الأمريكيان الصدمة تحملا يثير الاعجاب ، ولم تكن عندنا فكرة اطلاقا عن أن الأسطول الامريكى قد أصيب بأضرار بالغة : ولم ينتحبا أو ينـدبا بسبب دخول بلادهما الحرب • ولم يبديا كلمة واحدة فى الافصاح عن الألم والعتاب • بل فى امكان الانسان أن يقول ان هذا التطور خلصهما من عـذاب ألم طويل • ولم ينعقد البرلمان قبل يوم الثلاثاء ، وكان الأعضاء موزعين فى نواحى الجزر البريطانية ، ومن العسير جمع شملهم لتعسر طرق الاتصال بهم • وطلبت من مكتبى أن يتصل حالا برئيس المجلس ومراقبته للعمـل على دعوة البرلمـان بمجلسيه الى الانعقاد فى اليوم التالى • وأبرقت الى وزارة الخارجية أطالبها بأن تجهز حالا دون أى تخلف اعلانا بالحرب على اليابان ، مع مراعاة كل الخطوات الرسمية الضرورية ، وأن يكون كل شىء معدا فى وقت انعقاد البرلمان ، وطلبت أيضا دعوة كل أعضاء وزارة الحرب لاخبارهم ، وكذلك رؤساء أركان الحرب ووزراء القوات المسلحة الذين كنت أتوقع وصول الأخبار اليهم •

وربما لا يتضرر أى أمريكى اذا قلت : ان وقوف أمريكا الى جانبنـا فى الحرب كان مبعثا لأعظم سرور لى • ولم يكن فى طاقتى أن أتـكهن بما تجرى به الأحداث ولا أقول اننى كنت قد قدرت بصورة دقيقة قوة اليابان الحربية ، ولـكننى علمت فى هذا الوقت أن أمريكا قد غـدت غارقة فى الحرب حتى رأسها ، وستواصلها حتى النهاية • وهـكذا فقـد كسبنا فى النهاية • نعم لقد كسبنا بعد دنكرك ، وبعد أن سقطت فرنسـا ، وبعـد حكاية وهران المرعبة ، وبعد خطر الغزو ، حينما كنا شعبا غير مسلح ، اذا استثنينا الأسطول والطيران ، وبعد نضـالنا الدامى ضد حرب الغواصات وبعد أن انتصرنا بمشقة فى الجولة الأولى من معركة الاطلنطى وبعد سبعة عشر شهرا من القتال وحدنا • وتسعة عشر شهرا من تقلد المسئولية فى أحلك الظروف • نعم لقد كسبنا الحرب ، فستحيا انجلترا وتحيا بريطانيا وتحيا جامعة الشعوب البريطانية ، والامبراطورية • أما إلى متى ستستمر الحرب ، وعلى أية صورة ستنتهى فلم يكن فى طاقة إنسان أن يعلمه ، ولم يهمنى أن أعلمه فى هذا الوقت فسنخرج مرة أخرى فى تاريخ جزيرتنـا المديد ، وبالرغم مما يلاحقنا من ضربات وما يصيبنا من مشقة ، فائزين سالمين • وهكذا لن نفنى ولن ينقرض تاريخنا ولن ننتهى كأفراد أيضا •

لقد تقررت نهاية هتلر ، وتقررت نهـــاية موسولينى • أما اليابانيون فسيعركون عركا كالطحين • وما بقى لا يتجاوز كونه مجرد تطبيق سليم للقوة العاتية المتفوقة • فالامبراطورية البريطانية ، ورروسيا ، وأمريكا فى النهاية ، كلها تتماسك الآن بكل ما عندها من حياة وقوة ، أراها على هدى معلوماتى ، تصل فى قوتها الى ضعفين أو ثلاثة أضعاف ما عند أعدائها • ولا ريب ثمة فى أن القتال سيستمر • وترقبت تدهورا أو اضرارا خطيرة فى الشرق ، ولكن هذا التـــدهور لن يكون غير مجرد فترة تمر • وفى طاقتنا بوساطة اتحادنا أن نخضع كل قوة معادية فى العالم • وقد تحدث خطوب ، وقد ندفع أثمانا غالية ، ونجتاز محناً عنيفة ولـكن لا مرية فى النهاية ولا شقاق •

وقد التمس بعض السخفاء ، وهم كثرة ، لا ينحصر وجودهم فى بلاد العدو ، بُخْس وزن القوة الأمريكية فقـــال بعضهم : ان الأمريكيين مترفون • وقال البعض الآخر : انهم لن يأتلفوا مطلقا ، وانهم سيمشون كالرُعناء من بعيد ، ولن يجازفوا بأنفسهم فى المعركة ، فهم لا يطيقون تحمل إراقة الدماء ، وستوقف ديمقراطيتهم ونظم انتخاباتهم المتكررة جهدهم الحربى ، وسيكونون أدنى الى وصمهخفية فى نواحى الأصدقاء والأعداء على حد سواء • وسنشاهد الآن وَهَنْ هؤلاء الناس الوافرى العدد ، الـكثيرى الغنى والثرثرة ، ولـكنى كنت قد درست الحرب الأهلية الأمريكية وعلمت أنها قد سارت الى عاقبتها المحتومة • وسرى الدم الأمريكى فى شراييني • ورَجَعَتْ الى مخيلتى ملاحظة كان إدوارد جراى ، قد قالها قبل ثلاثين عاما تقريبا وهى أن أمريكا أكثر شبها بمرجل ضخم ، فإذا أوقدت النار تحته فليس هناك ما يخفف من القوة التى يولدها • وذهبت الى فراشى فى تلك الليلة وقد إمتلأتُ وأثقلت بالمشاعر والعواطف ، فرقدتَ رقاد الانسانالذى يحس بالرضا والخلاص • وحينما تنبهتُ من رقادى ، قررتُ السفر للقاء روزفلت • وبسطتُ الموضوع على وزراء الحرب حينما اجتمعنا ظهر ذلك اليوم ، فوافق كل الرفاق ، وبعد ذلك كتبت الى الملك فوافق جـلالته كذلك •

وأعطتنى وزارة الحرب حق اعلان الحرب على اليـــابان فورا ، وقد نُفّذت كل الأعمال المطلوبة ، وحينما شرع إيدن فى رحــلة الى موسكو وكنت مسئولا عن وزارة الخارجية ، أرسلت الى السفير اليابانى الرسالة التـــاليـــة :

وزارة الخارجية : ٨ من ديسمبر

« سيـــدى

فى الليلة السابعة من شهر ديسمبر عــرفتْ الحكومة البريطانية أن القوات اليابانية دون أى إنذار سابق فى صورة إعلان بالحرب أو تحذير أخير بأعلان إلْتَمَسَتّ الهبوط الى شاطىء الملايو ، وضربت سنغافورة وهنج كونج •

ونظراً لما حدث من عــدوان قائم على الأســتخفاف ، والتحدى المباشر للقانون الدولى ، وخاصة للمــادة الأولى من ميثاق لاهاى الثالث المرتبط ببدء الأعمال الحربية وهو الميثاق الذى وقعته كل من اليابان وبريطانيا • صـدرت الأوامر الى السفير البريطانى فى طوكيو بأخبــار حكومة الامبراطورية اليابانية باسم حكومته فى بريطانيا أن حالة الحرب قد بدأت بين دولتينا •

لى الشرف يا سيدى مع وافر التقدير أن أكون خادمكم المطيع » ••

ونستون تشرشل

ولم يرض هذا التعبير المجامل بعض الناس • ولكن ليس ثمــة ما يحول دون أن تكون مهذبا مع من ترغب أن تقتله شخصيا •

وانعقد البرلمـان فى الثالثة مساء ، وامتلأ بالرغم من قصر الوقت وبنص الدستور البريطانى على اعلان الحرب من حق المــلك باستشارة وزرائه ، ويواجه البرلمان هذه الحقيقة على أنها أمر قائم ، وعلى هذا فقد كنا أكثر وفاء لوعدنا مع أمريكا ، اذ أعلنا الحرب فعلا على اليابان قبل تقرير الكونجرس الأمريكى إعلانهـا • وكانت الحكومة الملكية الهولندية قد جهزت إعلانها كذلك • واقترع المجلسان على هذا القرار وأجمعا عليه ومر زمنٌ مّا قَبْلَ أن نسمع ما حدث فعلا فى ميناء الدر تفصيلا • ولكن الحكاية سجلت الآن بصورة تامة ووافية • لقد كانت الخطة اليابانية الى أول عام ١٩٤١ تنبنى على اشتباك الأسطول اليابانى الرئيسى فى موقعة هائلة فى مياه الفلبين ، على حين يلتمس الأمريكيون ، كمـا هو مترقب سلوك سبيلهم مجتازين الباسفيك ، لنجدة حاميتهم فى هذا الموقع الأمامى ولكن فكرة الهجوم المباغت على ميناء الدر ، ثبتت فى رأس الأميرال

ياماماتو القائد الأعلى اليابانى . وكملت التأهبات لهذه الضربة المخاتلة ــ قبل إعلان الحرب ، فى سرية وتكتم بالغين وفى الثانى والعشرين من نوفمبر نزلت قوة خارقة مكونة من ست حاملات تؤيدها البوارج والطرادات في ميناء لم تتعود القدوم اليه فى جزر كوريل ، شمالى اليابان مباشرة وعُيِّنَ يوم الأحد السابع من ديسمبر موعدا للهجوم وفى السادس والعشرين من نوفمبر أبحرت القوة الهائلة بقيادة الأميرال ناجومو ، واتجهت القوة فى سيرها الى الشمال من هاواى ، مجتازة السحاب والزوابع فى هذه المناطق الشمالية ، الى أن دنت من غرضها دون أن يحس بها أحد ، وقبل بزوغ شمس اليوم الموقوت شُنَّ الهجوم من موقع يبعد مائتين وخمسة وسبعين ميلا عن شمال ميناء الدر ، وأسهمت فى الهجوم ثلاثمائة وستون طائرة تشمل قاذفات من شتى الأنواع ، تحميها المقاتلات وفى السابعة والدقيقة الخامسة والخمسين وقعت القنبلة الأولى وكانت البوارج الثمانى لأسطول الباسفيك الهدف الرئيسى للهجوم . وكانت ثمة أربع وتسعون بارجة من سفن الأسطول الأمريكى فى الميناء . ولحسن الحظ كانت حاملات الطائرات مع قوة كبيرة من المدرعات ، متخلفة عن الميناء فى مهمات خاصة . وانقضت المعركة فى العاشرة صباحا ، وتراجع العدو تاركا خلفه أسطولا مدمرا تلتهمه الحرائق والدخان وروح الثأر التي سادت أمريكا . وقد انفجرت البارجة أريزونا ، ودمرت البارجة أو كلاهوما ، وغرقت البارجتان ويست فرجينيا وكاليفورنيا ، وأصيبت كل البوارج الأخرى بأضرار ما عدا بنسلفانيا . وقتل ما يقرب من ألفى أمريكى ، وجرح ما يقرب من الفين آخرين . وانتقلت السيطرة على المحيط الهادى إلى أيدى اليابانيين ، وتحول الميزان الاستراتيجى العالمى فى الوقت الحالى تحولا كاملا .

وكأن مما قضى به على أصدقائنا الأمريكيين أن يتحملوا سلسلة أخرى من النوازل فى الفلبّين ، حيث يتقلد القيادة الجنرال ماك آرثر . وفى العشرين من نوفمبر استقبلنا انذارا يومىء الى تطور خطير فى العلاقات الدبلوماسية وشرع الأمير هارت قائد الأسطول الأمريكى المتواضع فى آسيا ، مباحثاته مع السلطات البحرية البريطانية والهولندية القريبة ، وبدأ تحقيقا لخطته الحربية ، يوزع قواته ناحية الجنوب حيث نوى أن يجمع قوة هائلة فى المياه الهولندية بالاسهام مع أصدقائه المرتقبين ولم يكن تحت امرته سوى طراد ثقيل واحد ، وطرادين خفيفين الى جانب اثنتى عشرة مدمرة وعدد من السفن المساعدة . وقد تجمعت قوته فى غواصاته التى كان لديه منها ثمان وعشرون ، وفى الساعة الثالثة من

صباح الثامن من ديسمبر تلقف الأميرال رسالة تتضمن أخبارا مدهشة عن حدوث هجوم على ميناء الدر وبادر فورا دون أن يترقب تأكيد واشنطن للخبر بتحذير كل من يهمهم الأمر ببدء العمليات الحربية ، وعند الفجر قامت طائرات الانقضاض اليابانية بتسديد ضربتها ، واستمرت الغارات الجوية طوال الأيام اللاحقة على مدى يزداد باستمرار . وفى العاشر من ديسمبر التهمت الحرائق القاعدة البحرية فى كافيتى التهاما كاملا وفى صباح اليوم نفسه قام اليابانيون بانزال أول قوة فى شمالى جزيرة نوزوان وتوالى انزال القوات بسرعة مذهلة . ودمرت اكثر طائرات أمريكا فى المعارك أو على الأرض . ورحل ما بقى منها فى العشرين من ديسمبر الى بورت داروين فى استراليا . وكانت سفن الأميرال هارت قد شرعت تتوزع جنوبا قبل عدة أيام ، ولم يبق غير الغواصات لتنازع العدو السيادة على البحر . وفى الحادى والعشرين من ديسمبر نزلت قوة الغزو اليابانية الرئيسية فى خليج لينجابن لتهديد مانيلا نفسها ، وبدأت الأحداث منذ هذا التاريخ تتتابع على نحو ما يجرى فى الملايو ، ولكن الدفاع بدأ يمتد ، وهكذا تفجرت خطط اليابان المرسومة منذ وقت بعيد فى شعلة من انتصارات .

وبهت هتلر وأركان حربه ، وحكى يودل فى محاكمة كيف حضر هتلر الى حجرة خرائطى فى بروسيا الشرقية عند منتصف الليل ليحمل هذه الاخبار الىّ وإلى الماريشال كاتيل . وكان مذهولا منها فعلا . ولكنه على أى حال أصدر أوامره صباح الثامن من ديسمبر الى الأسطول الألمانى بمهاجمة السفن الأمريكية أينما كانت . وسبق هذا بثلاثة أيام اعلان ألمانيا الحرب على أمريكا بصورة رسمية .

ودعوتُ الى اجتماع فى الساعة العاشرة من ليلة التاسع من ديسمبر فى حجرة الحرب الوزارية ، لاستعراض الموقف البحرى ، وكان أغلب الحاضرين من رجال الامبرالية . كنا اثنى عشر شخصا تقريبا . والتمسنا تقويم ما نتج عن هذا التغير الأساسى فى موقفنا الحربى ضد اليابان فقد فقدنا السيادة على كل بحر ما عدا الاطلنطى . وأصبحت استراليا ونيوزيلنده وكل الجزر الهامة الأخرى فى منطقتها متصدية للهجوم . ولم يبق لدينا غير سلاح واحد مهم . فقد بلغت البارجة « الأمير ويلز » والبارجة « ريبالس » سنغافورة وقد أرسلنا هاتين البارجتين الى هذه المياه لنباشر بوساطتهما ذلك التهديد الخفى ، الذى

يصاحب البوارج الكبرى ذات القدرة الحربية العـالية حينمـا تعلن تحركاتها . ولكن كيف نستطيع أن نستخدمها الآن ؟ لا شك فى أنه يلزمهما الذهاب الى البحر والاختفاء بين الجزر التى لا تُعَدّ ولا تُحَدّ . واتفق على هذا بالاجماع وتراءى لى أن أحسن طريق لهما هو اجتيازهما المحيط الهادى وانضمامهما الى ما بقى من الاسطول الامريكى . ولا شك فى أن حركة كهذه ستكون ذات دلالة كريمة فى مثل هذا الوقت ، وتُدَعِّم الروابط بين دولتى العالم الناطقتين ـ بالانجليزية وكنا قد قبلنا عن طيب خاطر، طلب وزارة البحرية الأمريكية عودة بوارجها الكبرى من الاطلنطى .

وهكذا يستطاع فى خلال أشهر قليلة خلق أسطول على ساحل امريكا الغربى يمكنه أن يخوض معركة حامية حاسـمة اذا دعت الضرورة . وسيكون وجود مثل هذا الأسطول ، ومثل هذه الحقيقة أفضل درع مستطاع يحفظ أصدقاءنا فى استراليا . وقد استهوتنا كلنا هذه الفكرة ولكننا قررنا إرجاء البت تلك الليلة وفى الصـباح تقرر ما سنعمله بالامير ويلز وريبالس .

ولم تمر ساعتان حتى أصبحت البارجتان فى قاع البحر . وفى الصباح العاشر كنت أفتح عينى حينما رن جرس التليفون على كَثَبٍ مِن سريرى وكان المتكلم لورد البحر الأول ، وظهر صوته غريبا لى ، وتنحنح أولا ولم أتمكن فى بادىء الأمر أن أسمع قوله جليا . قال : «يا رئيس الوزراء يحزننى أن أحمل اليك اغراق اليابانيين الأمير ويلز وريبالس ، بوساطة الطائرات كما نعتقد . لقد غرق توم فيليب . فقلت صائحا « هل أنت متيقن مما تقول ؟ » فأجاب « نعم ياسيدى ، تمام اليقين » . ووضعت سماعة التليفون ، وشكرت الله على اننى كنت وحدى . فلم أتلق قبل طوال الحرب كلها خبرا صاعقا مثل هذا الخبر .ولا مرية فى أن القارىء رأى ما علقناه على هاتين البارجتين من أمان وخطط وجهد . وحينما تقلبت فى فراشى على الجانب الآخر هيمن على فكرى ما تحتويه هذه الكارثة الجديدة من مخاوف ، فليس ثمة فى المحيطين الهندى أو الهادى أية بوارج بريطانية أو أمريكية كبيرة غير تلك التى نجت من ميناء الدر ، والتى بدأت تبادر بالهرب الآن الى كاليفورنيا وغدت اليـابان المهيمنة على هذه أرجاء الشاسعة من البحار ، وغدونا نحن أذلة وعراة فى كل مكان .

وعند انعقاد مجلس العموم فى الحادية عشرة من ذلك الصباح ، نزلت اليه لأحمل الى الأعضاء شخصيا أنباء ما وقع ، وفى اليوم اللاحق

قدمت انيهم توضيحا وافيا عن الموقف الجديد . وسيطر على احساس شامل من الحيرة ، كما عمنا احساس من الغضب على هذه المعركة الطويلة الجارية فى ليبيا ، والتى كانت نهايتها فى يد القدر . ولم أحجب عن الأعضاء امكان تعرضنا لألوان متعددة من النكبات على أيدي اليابانيين .

وفى الوقت نفسه كشفت انتصارات روسيا الحجاب عن زلّة هتلر المميتة فى حملته الشرقية والشتاء على الأبواب . وفى ذلك الحين سيطرنا على حرب الغواصات ، ونزلت نسبة اضرارنا الى حد كبير . وفى النهاية يحارب معنا الآن أربعة أخماس العالم فالفوز الأخير مكفول . وهذه هى خلاصة ما ذكرته ذلك اليوم . وقد استعلمت أبعد ما فى فن القصص الواقعى من برود متفاديا الوعد بالنصر القريب . وساد المجلس الوجوم ، وظهر لى أنه يرجىء قراره إنتظارا للأحداث ، وكان هذا كل ما رغبت فيه وكل ما ارتقبته .

رحلة في معمعة الحرب العالمية

اقتضت عوامل خطيرة جمّة أن أكون فى لندن فى هذا الوقت الذى حدث فيه الكثير . ولم يكن عندى أقل ريب فى سيادة التفاهم بين بريطانيا وأمريكا ، لكن كان على أن أمضى الى واشنطن على الفور مع أقوى نخبة يستطاع تكوينها من المستشارين الخبراء . وكان الرأى الغالب ان سفرنا بالجو فى هذا الفصل من العام بالغ الخطورة . لهذا رحلنا الى الكلايد فى الثانى عشر ، ولم يكن « الأمير ويلز » هناك . وكان « الملك جورج الخامس » يرقب البارجة الألمانية تيربتز . وكانت طاقة البارجة الحديثة « الدوق أوف يورك » أن تقلنا ، وأن تنتهز فرصة رحلتها لتتمرن تمرينا وافيا فى الوقت نفسه . وكانت النخبة التى صحبتنى تتكون من اللورد بيفربروك ممثلا لوزارة الحربية والأميرال باوند ، لورد الأميرالية الأول ، وماريشال الجو بورتال رئيس أركان حرب الطيران ، والفيلد مارشال ديل الذى أعقبه الآن الجنرال روك فى رياسة أركان حرب الامبراطورية . وكنت أود أن يبقى بروك فى لندن ليحل المشكلات المفزعة التى تنتظره وطلبت بدلا منه ديل الذى يعيش فى صميم مشكلاتنا وهو محل ثقة الكل وتقديرهم ، وقد اتسع له فى واشنطن أفق جديد .

وصاحبنى كذلك اللورد موران الذى غدا مستشارى الطبى الدائم سنة ١٩٤١ وكانت هذه أول رحلة يصاحبنى فيها ، ولكنه منذ ذلك أصبح يرافقنى فى كل رحلاتى ، ولا مرية فى أننى أدين بحياتى لاهتمامه الطبى الزائد . وبالرغم من أننى كنت لا أنجح فى اقناعه بالاصغاء الى نصائحى حين يمرض ، وبالرغم من أنه لم يكن يعتمد أبدا على طاعتى المطلقة لكل توجيهاته . غدونا صاحبين حميمين . على أى حال لقد انتصرنا على كل الأسقام والأمراض .

وكنا نود أن نقطع المسافة فى سبعة أيام بسرعة عشرين عقدة فى الساعة ، بعد أن وضعنا فى حسابنا أن نسير فى خطوط غير مستقيمة

لنفادى الغواصات • وقد طلبت منـــا الأميراليـــة أن نتوجه من المضيق الايرلندى الى خليج بسكاى • وكان الجو سيئا كل السوء ، فقد كان البحر ثائرا ، والزوابع عنيفة ، وامتلأت السماء بسحب كثيفة • وكان علينـا أن نقطع خط غدو الغواصات ورواحها الممتد بين موانى فرنسا الغربية وأماكن الصيد فى الاطلنطى • وكان تعدادها كبيرا لدرجة أرغمت الأميرالية على أن تأمر قبطاننا بأن يستمر فى السير مع مدمرات الحراسة ولا يدعها تسير خلفه • ولكن المدمرات لا يمكنها أن تقطع فى البحار الهائجة أكثر من ست عقد فى الساعة •

وهكذا قطعنا الدورة حول ساحل جنوب ايرلندة فى أكثر من ثمان وأربعين ساعة ، وسرنا على مدى أربعمـــائة ميل من بريست وما برح خاطرى فى هذه الفترة التفكير الملح فى كيف اســـتطاعت الطائرات التى تحمل الطوربيد والتى تعمل فى القواعد الساحلية أن تحطم «الأميرويلز» و « ويبالس » قبل أسبوع ؟ وقد حالت السحب بين طائرات الحراســة وبين مصاحبتنا فيما عدا طائرة واحدة ، وحينما ذهبت الى الجسر شاهدت الكثير من زرقة السماء التى لا نحتفى بها • لكن لم يحدث شىء على أى حال • وسار كل شىء على ما يرام • واســـتمرت السفينة الكبيرة ، مع مدمراتها الحارسة تشق أمواج المحيط ، وأوشك صبرنا أن ينفد من بطء السير • ودنونا فى الليلة اللاحقة من نهر الغواصات • وقال الأمير باوند الذى أصدر القرار بنفسه : ان تحطيم غواصة معادية خير لنـــا من أن تنسفنا هى بطوربيداتها كانت الليلة حالكة للغـــاية • وهكذا نجونا بمدمراتنا وعبرنا الطريق وحدنا بسرعة فائقة فى ذلك الجو السىء • وشكا اللورد بيفربول من أنه كان يفضل سفرنا نحن فى غواصة •

وكان فى إســـتطاعة موظفى « رموزنا » أن يســـتقبلوا بوســاطة اللاسلكى عددا من الرسائل • وكان فى طاقتنا أن نجيب عن بعضـها الى حد معين • وحينما انحازت الينا وحدات حراســـة أخرى من جزر الأزورو ، كان يمكنها أن تستقبل منا رسالات بالرموز باشارات مورس الواضحة ثم تتخلف عنا مائة ميل أو ما يقرب من ذلك ، ونرجع فننشر رسائلنا من غير أن تكشف مركزنا ، ومع ذلك فقد كنا فى معمعة الحرب، وكان هناك كثير من مغرمى اللاسلكى •

كانت الحرب دائرة فى كل الجهات • فاليابان هاجمت هونج كونج فى الوقت الذى هاجمت فيه مينـــاء الدر • ولم يكن عندى ريب فى عاقبتها تحت ضغط القوات اليابانية الضخمة • وقبل اثنى عشر شهرا

عارضت فى تقوية حاميتها ، لأن فقدها شيء مؤكد ، وكنت أرى انقاص الحامية الى عدد رمزى ، ولكنى أذنت للآخرين بالانتصار علىّ فى هذا الرأى ، وفى سرعة أرسلنا معونات الى الجزيرة • هاهى ذى الحامية تواجه الآن قوات تفوقها وقد صمدت أسبوعا كاملا ، واشترك فى أعمال المقاومة اليائسة كل من يقدر على حمل السلاح • وقد فاق تحمل المدنيين البريطانيين بأس الحامية العسكرية • ولكن القوة نفد صبرها يوم عيد الميلاد ، وغدا الاستسلام أمرا لا مناص منه • وفى سرعة أشرفت علينا قوة أخرى من المظليين فى الملايو ، اذ صحبت هبوط اليابانيين على شبه الجزيرة غارات محطمة على مطاراتنا ، عطلت قوتنا الجوية الضعيفة ، وجعلت المطارات الشمالية لا تصلح مطلقا لاستخدامها ولم يدن آخر الشهر حتى كانت قواتنا التى اقتحمت بعض معارك وحشية قد غدت الآن على مدى مائة وخمسين ميلا من المراكز الأساسية التى كانت فيها حين بدأت الهجوم • وقد أنزل اليابانيون ثلاث فرق كاملة على الأقل ضمنها فرقة الحرس الامبراطورى •

وفاقت فاعلية طائرات العدو التى انتشرت بسرعة فوق كل المطارات التى تم احتلالها • كل ما كان مرتقبا ، وقد أرغمنا على الدفاع• وكانت أضرارنا بالغة •

وكان كل عضو من أعضاء فريقنا يواصل العمل ، فى حين تستمر البارجة « الدوق أوف يورك » فى السير غربا ، وتجمعت كل أفكارنا حول المشكلات الواسعة الجديدة التى فرض علينا مواجهتها وحلها • وبدأنا نرقب فى شوق ممزوج بشيء من الحيرة أول إتصال يتم بيننا كحلفاء وبين الرئيس ومستشاريه السياسيين والعسكريين وكنا قبل أن نغادر بلادنا نعلم أن هجوم ميناء « الدر » الخاتل ، قد أثار الشعب الأمريكى من أعماقه • وبدا لنا من التقارير الرسمية ومن موجز الصحف الأمريكية ، أن غضب الشعب الأمريكى كله سينصب على اليابان • وكنا نخشى ألا تعرف النسبة الصحيحة للحرب على حقيقتها ، وكنا نشعر بخطر قائم من مواصلة أمريكا الحرب ضد اليابان فى المحيط الهادى ، وتركنا نحارب ألمانيا وايطاليا فى أوروبا وافريقية والشرق الأوسط •

وانقلبت معركة الأطلنطى الأولى بصورة واضحة الى مصلحتنا • ولم يعد فى إمكاننا الاحتفاظ بسبلنا البحرية مفتوحة • وكنا على يقين من قهر هتلر اذا أراد غزونا فى جزيرتنا • وحفزتنا قوة المناضلة الروسية وكان تيمننا بالغا وفى مكانه من الحملة الليبية ، لكن كل خططنا القادمة

متعلقة باستمرار وصول سيل الامدادات الأمريكية المختلفة الأنواع الينا ، مثل تلك التى تشق الآن أمــواج الاطلنطى • وكنا أولا وقبل كل شيء نستند الى الطيارات والدبابات والى ما تشـــيده لنا أحواض السفن الأمريكية من سفن تجارية • وكان الرئيس حتى الآن باعتباره شـخصا غير محارب مســـتعدا لتحويل كميات كبيرة من عتاد القوات الأمريكية المسلحة الينا ، لأن جيوشه لم تكن مشـــتبكة فى الحرب • ولــكن هذه العملية ستقيد الآن بعد أن غدت أمريكا فى حالة حرب مع ألمانيا وايطاليا ثم مع اليابان • وستمنح الأولوية الآن طبقـــا لما تفتقر اليه بلاده وقد ضحينا بعد الهجوم على روسيا بالعديد من الزاد والعتاد الذى أخذت مصانعنا تنتجه لمعاونة القوات الروسية فى نضالها •

وقد حولت أمريكا الى روســـيا أكبر مقادير من الامدادات التى كانت تنوى ارسالها الينـــا • وقد قبلنا كل هذا لما أظهره الروس من مقاومة فائقة للغزاة الألمان •

ولكن كان من الصعب علينا تأخير امداد جيوشنا بما تحتاج اليه من عتاد ، وخاصة منع ما يفتقر إليه جيشنا الذى يقتحم معارك وحشية فى ليبيا ، من أسلحته الضرورية • وعلينا أن نتوقع أن مبـدأ « أمريكا أولا » سيسيطر على حليفتنا ، ونخاف أن يمضى زمن قبل أن تبدأ القوات الأمريكية العمل على مجال فسيح • وأن نتصدى نحن فى هــذا الوقت العسير من التأهب للمحنة والشدة • وسيحدث هذا فى فترة يلزمنـــا فيها أن نواجه عدوا جديدا شنيعا فى الملايو والمحيط الهنـدى وبورما والهند • ومن الجلى أن توزيع المعونات يحتاج الى اهتمام بالغ ، وخاصة أنه سيقابل الكثير من الصعاب والنواحى الدقيقة • وقد تلقينا تنبيهـا يقول ان برامج المعدات الممنوحة بمقتضى الاعارة والتأجير ستقف الى أن يكمل اصلاحها • ومن حسن طالعنا ان انتاج الذخائر والطـائرات فى مصانعنا قد كثر وبلغ درجة رفيعة وسيصبح فى القريب بالغ الضخامة ولكن فى اللحظة التى كانت بارجتنـــا فيها تشق أمواج المحيط بين الزوابع المتتابعة ، كنا نشاهد أمام أبصـــارنا سلسلة طويلة من المحن والشدائد ، ومنع بعض ما نفتقر اليه حتما مما يؤثر على انتاجنا كله • وكان بيفر بروك متفـــائلا كسجين فى فترات المحن • فأعلن أن موارد أمريكا لم تُصَبّ حتى الآن ـ وأنهـــا ضخمة ولا تُعد ولا تُحد • وأن قوة الشعب الأمريكى حينما تحول الى النضال ستحقق نتائج أكثر مما يتخيله أى انســـان • وهو يوقن أن الأمريـكيين لم يعرفوا حتى الآن

ماهية قوتهم فى مجال الانتاج • وسـيفوق الجهد الأمريكى كل الأرقام الحالية ويسبقها ، ويكفى الجميع • ولا مرية فى أنه كان مسددا فى حكمه وتقديره •

ولكن كل هذه الاعتبارات صغرت أمام المشـكلة الاستراتيجية الرئيسية فهل فى طاقتنا أن نقنع الرئيس روزفلت ورؤسـاء أركان القوات المسلحة بأن قهر اليابان لا يؤدى الى قهر هتلر ، وانمـا قهر هتلر يؤدى الى قهر اليابان ، وجعل الخلاص منهـا أمرا يقرر فى خلال زمن قليل ؟

وقد أمضينا سـاعات طوالا ونحن نبحث هذه المشكلة الخطيرة ، وجهز رئيسـا الأركان والجنرال ديل وهوليس وضـباطه عددا من المذكرات التى تتصل بالموضوع كله ، وجزموا بأن الحرب فى نظرهم كلٌ لا يتجزأ ، وسيظهر لنا فى القريب أن كل مخاوفنا ومشقاتنا لا يوجد ما يدعو لها •

وتمكنت بما أوجبته علىّ رحلة الأيام الثمانية من تخفيف أثقـال الأعمال العادية حيث لا نقيم اجتماعات وزارية ولا نستقبل أشـخاصا من استعراض الحرب بصورة وافية كما أشاهدها وأشعر بها على هدى امتدادها المباغت • وتذكرت كلام نابليون عن استطاعته أن يركز التفكير على المسائل وقتا طويلا من غير احساس بنصيب أو شعور باجهـاد • وأردت أن أفعل هذا المتبع عن طريق بسط أفكارى كتابة بطريقـة املائها • ولارادتى تهيئة نفسى للقاء الرئيس ، وللتباحث مع الأمريكيين ، وللتيقن من وجود رئيسى الاركان باوند وبورتال معى الى جانب الجنرال ديل ، ومن امكان التيقن من الحقائق فى الظرف المناسب بوساطة الجنرال هوليس وموظفى السكرتارية جهزت ثلاث مذكرات عن سير الحرب مستقبلا كما أرى ، وقد استغرق العمل فى كل مذكرة أربع ساعات أو خمسا ، طوال ثلاثة أيام على التوالى • ولما كانت الصورة كلها حاضرة فى بالى • فقد كمل تجهيز هذه المذكرات بكل يسر وان كان بطيئا • وحين اتمامى كل وثيقة بعد مراجعتها فى دقة كنت أرسلها الى رفاقى الفنيين كافصاح عن آرائى الخاصة • وكانوا هم الآخرون يجهزون مذكرات من ناحيتهم لمؤتمرات الأركان المشتركة • وفرحت كثيرا لاتفاق الآراء بين المذكرات التى جهّزتُها وبين مذكرات القادة العسكريين ، على الرغم من أن آرائى تناولت النواحى العامة وتناولت آراؤهم النواحى الفنية البحتة • ولم تحدث أية خلافات تدعو الى اثارة مناقشات • ولم تحتج الا الى بعض

الحقائق تصويبا لها • وهكذا على الرغم من أن أحدا منا لم يرتبط بصورة جامدة أو دقيقة ، فقد وصلنا جميعا لحمل بعض العقائد ذات الصــفة الانشائية ، وكنا متفقين جميعا بشـــأنها • وقد تضمنت المذكرة الأولى الدوافع التى تدفعنا الى أن نجعل غرض حملاتنا فى سنة ١٩٤٢ فى المسرح الأوربى الاستيلاء على كل سواحل افريقية فى الشرق الأدنى من داكار الى حدود تركيا بجيوش بريطانية وأمريكيــة • وتناولت المذكرة الثانية ما يجب اتخاذه من اجراءات لارجاء الهيمنة على المحيط الهادى ، وحددت مايو سنة ١٩٤٢ كشهر يستطاع فيه تحقيق هذا الهدف • وأطنبت فى الكلام بصورة خاصة عن وجوب مضاعفة عدد حاملات الطــائرات ، والمبادرة بانتاجها بمجموعات وافية • وحددت المذكرة الثالثة كفرض أخير تحرير أوربا بانزال قوات بريطانية وأمريكية كبيرة فى أى مكان يرى أنه أفضل مكان لمثل هذا الانزال فى المناطق التى تستولى عليها ألمانيا ــ وحددت سنة ١٩٤٣ كميقات لتسديد هذه الضربة الرابعة •

وقد حكيت قصص متعددة فى أسفار ومقالات عن بُغْضِى العميق لعمليات فسيحة المجــال فى القارة ، حتى بات من الضرورى أن أذكر الحقيقة وأقوِّيها • فقد كنت أرى باستمرار أن الهجوم المُركَّز على البلاد التى تستولى عليها ألمانيا فى أوربا وعلى مجال واسع هو الطريق الوحيد لكسب الحرب وكنت أرى اختيار صيف سنة ١٩٤٣ موعدا للقيام بهذا الهجوم • وكنت منذ آخر سنة ١٩٤١ أحسب أن هذه العملية المنتظرة تفتقر الى أربعين فرقة مدرعة ، والى ما يقرب من مليون جندى من الجيوش الاخرى ، وذلك فى المرحلة الاولى وحينما أرى عدد الكتب التى صدرت والتى يتحتم بصورة خاطئة اننى لم أعضد غزو القارة ، أرى أن أوجه نظر القارىء الى هذه الوثائق الصحيحة الرسمية • التى كتبتُها فى هذا الظرف والتى سنرجع الى الحديث عنها فيما بعد •

وقد أعطيت الرئيس هذه المذكرات الثلاثة قبل عيد الميلاد وأبنت له انها بالرغم من افصاحها عن أفكارى الشخصية ، لا تتجاوز مجــال الاتصالات الرسمية التى دارت بين ضباط أركاننا • وكنت قد صغتهــا فى صورة وثائق مقدمة الى لجنة رؤساء أركان الحرب البريطانيين • وقلت له كذلك • اننى لم أرد اطلاعه عليها فقط ، بل رأيت أن من الضرورى أن يعلم شيئا مما يتحرك فى رأسى ، ومما أرغب فى عمله ، ومما ستريد بريطانيا العظمى أن تفعله من جهتها • وقد قرأها الرئيس بمجرد استلامه

لها وسألني في اليوم التالى عن امكان حصوله على نسخ منها • وقبلت ذلك طبعا وأنا مغتبط كل الاغتباط •

وأحسست أن الرئيس كان يفكر فى الاتجاه الذى كنت أفكر فيه فيما يتصل بشمال أفريقيـــة الفرنسى • وها نحن أولاء قد غدونا الآن اصدقاء • ويلزم أن نعمل معا وفى مجال فسيح وأصبحت متيقنا انى والرئيس سنجد مجالا واسعا للاتفاق ـ وأن الأرض مهيأة تمام التهيؤ لذلك • وهكذا غدوت مستبشرا ونلت كما سيرى القارىء موافقة الرئيس النهائية على القيام بحملة أسميناها « عمليـــــة المشـــعل » فى افريقية الشمالية ، وقد قضى لها أن تكون أول هجوم برمائى رائع نقوم به معا•

وقد كان من المهم جدا رسم خطط للمستقبل فقد نتكهن بالنتائج من بعض النواحى الا أنه يصعب تحديد الظروف المعينة لمثل هذه الأحداث الكبيرة التى قد تتوقف أو تتخلف بسبب عمل العدو أو ضرباته المواجهة• ولقد نفذنا كل الأغراض التى وضعتها فى المذكرات الثلاث بوســـاطة القوات البريطانية والأمريكية • فكان رجائى أن يستطيع الجنرال أوكنلك تطهير ليبيا قبل فبراير سنة ١٩٤٢ ولكن هذا الرجاء مُنِيَ بالخيبة • فقد مَرّ بسلسلة من التدهور المؤلم سأوضحها فيما بعد ـ وحفز هذا الفوز هتلر فقرر أن يقوم بمجهود واســع النطاق للاســتيلاء على تونس وفى سرعة أرســل ما يقرب من مائة ألف جنــدى من جنوده الجدد مجتازين ايطاليا والبحر المتوسط • وهكذا فُرِضَ على الجيوش البريطانية والأمريكية أن تقتحم فى أفريقية الشـــمالية حمــلات أطول وأكبر مما تخيلتُ من قبل • وهكذا فرض على الخطة المرسومة تخَلُّفٌ لا يقل عن أربعة أشهر ، ولم تستطع جيوشنا الحليفة أن تحقق الهيمنة على كل سواحل افريقية الشمالية من تونس الى مصر ، حتى شهر مايو سنة ١٩٤٣ ولهذا لم يكن من المستطاع تنفيذ المشروع الأكبر لاجتياز قناة المانش • وتحرير فرنسا• وهو المشروع الذى كنت أعمل ملحقا لتنفيذه ، فى ذلك الصيف • وتقرر ارجاؤه تبعا لذلك سنة كاملة ، أى حتى صيف سنة ١٩٤٤ •

وقد اقنعنى ما وقفت عليه بعد الحرب من معلومات ، وتفكير طويل فيها بأننـــا كنا مَيْمونِي الحظ جدا ، لمّا أدْرَكْنا من خيبة الرجاء فيمـــا يختص بتوقيت خططنا • فقد نَجّانا إرجاء شامل تام فى وقت الغزو مما كنا سنتصدى له من مهالك مفزعة • ومن نازلة متوقعة ترج العالم كله بأصدائها • ولو كان هتلر يتقن الأمور لوفر على نفســـه ما مُنِيَ به من

أضرار فى شمال افريقية ، ولقابلنا فى فرنسا سـنة ١٩٤٣ بِضِعْف ما قابلنا به من قوات فى سنة ١٩٤٤ ، وقبل أن تبلغ الجيوش الأمريكية التى تم تجهيزها حديثا ما بلغته من نُضْج وتقدّم ، وقبل أن يتم صنع تلك الأساطيل الكبيرة من سفن الانزال والموانى العائمة · وأنا موقن الآن أن عملية « المِشْعَلْ » لو انتهت كما رُسمت لها أن تنتهى فى سنة ١٩٤٢ · أو حتى لو لم نُرِدْها مطلقا وأردنا إجتياز المانش فى سنة ١٩٤٣ لمُنِينا بفشل مميت من الطراز الأول كان فى اســتطاعته أن يخلف أثرا لا يقدر على نتيجة الحرب كلها ·

وقد زاد فهمى لهذه الحقيقة طوال ســنة ١٩٤٣ · وقبلتُ كأمر لا مفر منه ارجاء عملية « السيد الأكبر على الرغم من ادراكى كل الادراك لما كان يشعر به حلفاؤنا الروس من غضب وسخط وكان من المقرر أن نشق أمواج البـوتوماك ونبلغ البيت الابيض ، ولكن صبرنا فرغ بعد عشرة أيام فى البحر ، وكنا فى شوق بالغ الى انهاء رحلتنا ، ولهذا تأهبنا للطيران من « هامبتون رودز » ونزلنا حلول بعد الظـلام فى الثـانى والعشرين من ديسمبر فى مطار واشنطن · كان الرئيس ــ ينتظرنا ثمة فى سيارته · وأمسكت يده القوية أحركها فى راحة وفرح · وبلغنـا بِسُرعةٍ البيت الأبيض الذى غدا بيتنا فى كل جهـة من الجهات طوال الأسابيع الثلاثة اللاحقة · وهنا احتفت بنا السيدة روزفلت التى لم تدع طريقة الا اتبعتها لتكفل لنا الراحة ·

وعلىّ أن أقر هنا بأن لُبىّ كان فى شـغل فى هذا الحين بدوّامة الأحداث وبالمهام الشخصية التى كُلفت تأديتهـا ، حتى ان مخيلتى لم تحفظ بالرغم من تنبيهها غير ذكريات خافتة عن تلك الأيام · لقد كان المظهر الواضح من غير شك اتصالاتى بالرئيس · فقد كان كل منا يرى الآخر بضع ساعات كل يوم ، وكان هارى هوبكنز ثالثنا فى تنـاول الغذاء ، ولم تتجاوز أحاديثنا حدود العمل ، وتوصلنا الى اتفاقات كثيرة على عدة نقاط صغيرة وكبيرة · وكانت فرصة العشاء مناسبة اجتماعية ، طريفة وان كانت محدودة بجمع قليل من الناس · كان الرئيس يجهز كئوس الكوكتيل الأولى بنفسه وكنت أقوده بكرسيه من حجرة الاستقبال الى المصعد كبرهان على التقدير ، وأتخيل السير وولتر رالى وهو يبسط عباءته أمام الملكة اليزابيث ، وتولد فى نفسى حب قوى جارف كبير مع أعوام الرفقة الطويلة لهذا السياسى القوى ، الذى أملى رغبته على المسرح

الأمريكى أكثر من عشر سنوات ، والذى كان قلبه يلبى كثيرا من الدوافع التى كانت تستفزنى • ولما كنا نحن الاثنين بحكم الطبيعـــة أو الحاجة مضطرين الى أن نقوم بأكثر أعمالنا ونحن فى الفراش فقد كان يجىء الى حجرتى لزيارتى حينما يحس بالميل الى ذلك ويحفزنى على زيارته فى حجرته • وكانت حجرة هوبكنز أمام حجرتى التى أرقد فيها وبجوارها حجرة الخرائط التى جهزت لى بسرعة • وقد اعتنى الرئيس كل العناية بهذه الحجرة التى أحكم الكتبة تجهيزها • وكان مجيئه مفروضا ليدرس باهتمام الخرائط الكبيرة لكل ميـــادين الحرب التى أصبحت تكسو كل الحوائط فى سرعة ، والتى تظهر عليهـــا كل تحركات الجيوش والأساطيل بجلاء ودقة ووضوح ، ولم يمر زمن طويل حتى كان الرئيس قد جهز لنفسه حجرة خرائط من النموذج الأول •

ومضت أيام كنا نعـــدها بالساعات • وفى سرعة فهمت أن عَلَىّ أن أخطب بعد عيد الميلاد مباشرة فى الكونجرس الأمريكى ، وبعد أيام أخرى فى برلمان كندا فى أوتاوا • وتوجب مثل هذه المناسبات أعباء كثيرة على حياتى وطاقاتى ، الى جانب مساوراتنا اليومية ، والأعباء التى أقوم بها، ولا أعلم كيف مررت بكل هذه الأشياء •

واكتفينا فى عيد ميلادنا بحفلات صغيرة ، فقد نُصِبَتْ شجرة عيد الميلاد التقليدية فى حديقـة البيت الأبيض ، وألقيتُ أنا والرئيس فى الجماهير الغفيرة التى تجمعت فى الظلام خطبتين قصيرتين من الشرفة •

وسرت مع الرئيس الى الكنيسة يوم الميلاد ، وأحسست بالسكون الروحى فى الصلاة البسيطة • وتمتعت باشتراكى فى انشاء الاهازيج العادية •

ألقيتُ خطابى فى الكونجرس الأمريكى بوافر الحماســة القلبية • وكانت المناسبة ضرورية فيما يتعلق بما اعتقدتُ أنه التحالف الغـالب للشعوب التى تتكلم الانجليزية • ولم يسبق لى قبل ذلك اليوم أن ألقيتُ خطابا فى برلمان أجنبى • ولكن بالنســـبة إلىّ وإلىّ إدعائى سريان دم أمريكى فى شراييني بوساطة الجد الخامس لوالدتى الذى كان ملازما فى جيش جورج واشنطن ، أحسست بشىء من الحق فى تحدثى الى ممثلى الجمهورية العظيمة حول فكرة قضيتنا المشتركة ولا مرية فى أنه كان من العجيب أن تمشى الأمور فى هذا الاتجاه ، وشعرت مرة أخرى بأننى قد أعذر فى استخدامى خطة مقررة بالرغم من عدم كفايتى •

وأمضيت يوم عيد الميلاد كله في اعداد خطابي . وأملّ الرئيس لي حظا سعيدا حينما سرت في السادس والعشرين من ديسمبر في كنف رئيسي مجلسي الشيوخ والنواب من البيت الأبيض الى دار الكابيتول . وظهر لي أن ثمة جموعا كثيرة من النـــاس على حافتي الطريق ولـكن احتياطات الأمن في أمريكا التي تبز في دقتها ما عرفناه في بريطانيا ، أبعدت أولئك الناس عن السبيل في حين كانت تحف سيارتي سيارتان أو ثلاث مملوءة برجال الشرطة المسلحين أقوى تسليح وهم في ملابسهم العادية . وحينما خرجت من السيارة رغبت في السير الى الجماهير الهاتفة لأحييهم تحية الأخوة ، ولكن حرسي أبىَ أن يسمح لي بذلك . وحينما دخلنا الى القاعة كانت الصورة رائعة ، مؤثرة ، وكانت القـــاعة التي أبصرها نصف دائرية عِبَرّ عدد من مكبرات الصوت ، مزدحمة بالناس .

وينبغي أن أقر بأنني لم أحس بأي اضطراب ، وكنت هذه المرة مطمئنا الى نفسي أكثر من مرات متعددة ، ظهرت فيها أمام مجلس العموم ، وواجه الحاضرون قولي بكثير من الاهتمـام وتلقيت من المنصتين ما كنت أترقبه تماما من صياح وضحك في نقاط كنت أرغب فيها هذا الصـياح وهذا الضحك ، وكان أقصى رد فعل منهم حينما كنت أتكلم عن الهجوم الياباني فقلت : « أي صنف من الناس يؤمنون بأننا منه ؟ » وانبجست من كل جهات الجمعية العظيمة كل احساسات القوة والارادة المتمثلة في الأمة الأمريـكية . فهل هناك من يرتاب في أن كل شيء سيسير سـيرا مرضيا ؟

وحينما انتهيت خرج معي رئيسا المجلسين الى حيث كانت تقف الجماهير حافة بالمبنى ، لأحييها من القلب تحية حارة ، وفي سرعة قدم رجال دائرة المباحث في سياراتهم وحاصروني ورجعـوا بي الى البيت الأبيض ، عند الرئيس ، وقد انصت الى خطابي كله ، فهنأني على فوزي .

وفي ليلة ٢٨ ـ ٢٩ من ديسمبر سافرت بالقطار الى أوتاوا لأنزل ضيفا على الحاكم العام اللورد اثلون . وفي التـاسع والعشرين حضرت اجتماعا لوزارة الدفاع الكندية . وبعد قليل قدمني رئيس الوزراء المستر مكنزي كينج الى زعماء المعارضة من حزب المحـافظين وتركني معهم . وشاهدت هؤلاء السادة يتّقدون طاعة ومضاء ، ولـكنهم يحسون ببعض الألم ، لأن الحظ لم يرد أن يشرفهم بأن يشنوا هم الحرب ، وأراد أن

يدفعهم الى الانصات الى العواطف الزاخرة التى يفصح عنها الآن خصومهم الأحرار بعد رفعهم لواءها طوال حياتهم ٠

وفي الثلاثين من ديسمبر تكلمت فى البرلمان الكندى ٠ وكان تجهيز الخطابين اللذين القيتهما عبر الأطلنطي ، واللذين أذيعا على العالم كله ٠ فى غمرة الأحداث وانقاذ العمل المُلِحّ الذى يتطلب سرعة الحسم ، أمرا متعبا كل التعب ٠ وليست الخطابة حملا ثقيلا على السياسى المخضرم ، ولكن الصعوبة تنشأ من تحرى ما يقال ، ما عسى أن يذكر وما ينبغى الا يذكر فى مثل هذا الجو المتوتر ، وقد عملت ما أمكننى ، ولعل النقطة التى صادفت نجاحا كبيرا فى خطابى الكندى هى المرتبطة بحكومة فيشى التى كانت كندا ولا تبرح تحتفظ معها بعلاقات دبلوماسية ، فقد قلت :

« لقد كان من المفروض عليهم فى سنة ١٩٤٠ وكان هذا فى مصلحتهم ، أن يمضوا الى شمالى أفريقية ، حيث يستمرون على رأس الامبراطورية الفرنسية وكان فى وسعهم الاحتفاظ فى افريقية بمعاونتنا بقوة بحرية متفوقة وكان يمكنهم أن يحصلوا على اعتراف أمريكا وأن يستعملوا كل الذهب الذى كان مودعا لهم فيما وراء البحار ٠ ولو عملوا هذا حينذاك، لكان من المتوقع اخراج ايطاليا من الحرب قبل آخر سنة ١٩٤٠ ولكان فى امكان فرنسا أن تأخذ مكانها فى مجالس الحلفاء وفى مؤتمر الصلح بين المنتصرين ٠ ولكن قادتهم العسكريين ضيعوهم ٠ وحينما نبهتهم الى أن بريطانيا ستحارب وحدها على الرغم من كل ما قد يعملونه قال ، قادتهم العسكريون لرئيس وزرائهم ولمجلس وزرائهم المنشق على نفسه : « ستُكسَر رقبة انجلترا بعد ثلاثة أسابيع وكأنها دجاجة » ولكن أية دجاجة كُسِرَ رأسها وأية رقبة » ٠

كان هذا عجيبا ، ولأرجع الى الماضى لأترنم بالأغنية التى ألفها السير هارى لورد عن الحرب السابقة والتى يستهلها ٠

« لو نظرنا كلنا الى تاريخ الماضى ؛

لاستطعنا أن نقرر فى أى مكان نقف » ٠

وكنت قد كتبت فى صحائفى حين أشرت اليه هذه العبارة « ذلك الكاتب الساخر الكبير » وهنا واتتنى فكرة « الشاعر الموسيقار » وكانت فكرة عجيبة ولا شك فى انه يسمعنى وسيفرح بهذا التعبير ، وأفرحنى كثيرا أننى لقيت الكلمة المناسبة حقا لهذا الشاعر الذى تمكن بأناشيده المستوحاة وحياته الباسلة أن يقدم مساعدات لا تحد ولا تقدر لشـــعبه الاسكتلاندى والامبراطورية البريطانية .

وكان لى حظ فى توقيت خطبتى فى واشنطن وأوتاوا ، فقد أتينا فى ظرف كان فى وســـعنا كلنا أن تحتفى فيه باقامة الحلف الاكبر ، بكل ما عنده من توقعات القوة الرائعة ، وقبل أن ينحدر علينا ذلك الصخر الضخم من الهلاك على أيدى الهجوم اليابانى الذى أحكم إحكاما عجيبا منذ وقت طويل . وبينما كنت أتكلم بلهجة الموقن المطمئن كنت أوشك أن أشعر بالسياط المحتلة تقترب ـ لتلهب أجسامنا العارية . وكان يلزمنا كلنا ، بريطانيا وهولنده ، وأمريكا . أن نؤدى جزية هائلة فى المحيط الهندى والهادى ، وفى كل الجزر والشواطىء فأمامنا وقت غير محدود من الكوارث العسكرية ـ ويلزمنا أن نصبر شهورا طويلة نعـــانى فيها من الظلام والجهد والفشل ، قبل أن يبزغ علينا النور من جديد .

وحينما رجعت بالقطار الى واشنطن مساء رأس السنة طُلب الى أن أذهب الى العربة المملوءة بكبار رجال الصـــحافة فى أمريكا . ولم أكن غارقا فى الخيال حينما وددت لهم عاما جديدا مجيدا وأنا أقول : «لنشرب نخب عام ١٩٤٢ ، عام الجهد والمشقة والنضال والخطر ، والسير البعيد فى ســـبيل الفوز ، فليأخذ الله فيه بيدنا كلنا ، لنخرج منـــه بشرفنا وسلامتنا » .

الاتفاقات الانجليزية الأمريكية

كان أول مشروع قدمه إلىّ الرئيس رزوفلت عقب قدومي من انجلترا ، وضع بيان عظيم الشأن ، توقعه كل الدول التى تحارب ألمانيا وايطاليا أو اليابان وقد راجعت مع الرئيس التعبيرات التى استخدمناها فى صياغة ميثاق الاطلنطى وجهّزنا مسودات البيان ، ثم أكملنا صياغته معا ، وقد كنا متفقين تماما من جهة المبدأ والشعور حتى فى الأسلوب كذلك . وسرعان ما فوّضتُ وزارة الحـــرب ، وتحيّرتُ من السرعة التى عقدنا فيها الحلف الأكبر . ثم تُبودلت الرسائل ، وأُثيرت نقاط ومتاعب بشأن الحكومات والسلطات التى يلزم أن توقع هذا البيان ، وتسلسلها وقد تنازلنا عن طيب خاطر لأمريكا عن مكان الصدارة ، وحينما رجعتُ الى البيت الأبيض من كندا ، كان كل شيء قد أُعد لتوقيع ميثـــــاق الأمم المتحدة . وتبودلت البرقيات بين لندن وموسكو ، وكان كل شيء قد تقرر الآن . وقد أذاع الرئيس كل ما عنده من مجهود لاقناع لتفينوف السفير الروسى الذى عاود الظهور بعد تغير الأحداث ، فتقبل عبارة « الحرية الدينية » وقد دعى لتناول الغذاء معنا فى حجرة الرئيس خاصة لهذا الهدف . ولكن كان على هذ الشخص بعد مروره باختبارات متعبة فى بلاده ، أن يكون يقظا كل اليقظة ، وجرى كلام طويل بينه وبين الرئيس عن الروح وعن عذاب جهنم . ولعل ما قرأه علينا الرئيس فى مناسبات متعددة عن وصف لما جرى بينه وبين السفير الروسى كان مؤثرا حقا . وفى احدى هذه المناسبات وعدت الرئيس روزفلت بأنى سأوصى بتعيينه رئيسا لاساقفة كنتربرى اذا فشل فى انتخابات الرياسة القادمة . لكننى على أية حال لم أقدم مثل هذه التوصية الى الملك أو مجلس الوزراء لأن الرئيس فاز فى معركة الانتخابات فى سـنة ١٩٤٤ ، ونقل لتفينوف وهو يرتجف خوفا مشـكلة « الحرية الدينية » الى ستالين فارتضاها كأمر واقع ، واضافت وزارة الحرب البريطانية عبارة التكافل الاجتماعى . وقد وافقتُ عليها باعتبارى واضع أول قانون ضد البطالة . وبعد أسبوع

من تبادله البرقيات مع كل جهات العالم تم الاتفاق على « الحلف الأكبر » .

وقد اقترح الرئيس تغيير اسم « الدول المتماسكة » باسم « الأمم المتحدة » واقتنعت بجمال هذه التسمية ، وبسطت على صاحبي الأبيات الشعرية التي أتت على لسان اللورد بيرون في قصيدته «شايلد هارولد»

« هنا حيث سُل سيف الأمم المتحدة

كان مواطنونا يقاتلون في ذلك اليوم

وهذا عظيم ، لأن الأمر لن يمضي رخاء »

وفي صباح الأول من يناير حُمل إليّ الرئيس في مقعده المتحرك ، وخرجت من الحمام ووافقت على المسودة . وليس في طاقة البيان وحده أن يربح المعارك ولكنه إبان من نحن ، ولماذا نقاتل ؟ ووقع روزفلت وأنا ولتفينوف وسونج ممثلاً الصين هذه الوثيقة العظيمة في ساعة متأخرة من ذلك اليوم في مكتبة الرئيس وأوصيتُ وزارة الخارجية الامريكية بجمع توقيعات الدول الاثنتين والعشرين الباقية ، وأرى أن نسجل هنا الصورة الأخيرة للوثيقة :

« بيان مشترك من أمريكا وبريطانيا العظمى وشمال ايرلنده ، واتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية ، والصين ، واستراليا ، وبلجيكا ، وكندا ، وكوستاريكا ، وكوبا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وجمهورية الدومنيكان ، والسلفادور ، واليونان ، وجواتيمالا ، وهايتي ، وهندوراس ، والهند ، ولكسمبورج ، وهولندا ، ونيوزيلنده ، ونيكاراجوا ، والنرويج ، وبناما ، وبولنده ، وجنوب افريقية ، ويوغوسلافيا ، وتعلن الحكومات الموقعة أدناه والمذكورة أعلاه .

انها باشتراكها في برنامج موحد الأهداف والمبادىء التي احتواها البيان المشترك الصادر عن الرئيس الأمريكي ، ورئيس وزراء بريطانيا العظمى وشمال ايرلنده ، والمؤرخ في الرابع عشر من اغسطس سنة ١٩٤١ والمعروف بميثاق الأطلنطي ، ولاقتناعها بأن النصر الأخير ، على أعدائها ضروري للدفاع عن الحياة والحرية والاستقلال والحرية الدينية ، وصيانة حقوق الانسان والعدالة في بلادها وفي غيرها من

البلدان ، ولما ترتب على اشتراكها الآن فى صراع مشترك ضد قوى الوحشية التى تريد أن تستعبد العالم ، تعلن :

(أولا) تتعهد كل حكومة باستغلال كل مواردها العسكرية والاقتصادية ضد أعضاء المحور الثلاثى ، والدول المنضمة اليه ، والتى تشتبك هذه الحكومة فى حرب معها .

(ثانيا) تتعهد كل حكومة بالتعاون مع الدول الموقعة على هذه الوثيقة ، وبعدم عقد هدنة منفردة أو صلح منفرد مع العدو .

« تستطيع الدول الأخرى أن تنضم الى هذا البيان بشرط أن تكون هذه الدول مشاركة مادية فى النضال للتغلب على الهتلرية » .

قد يرى مؤرخو المستقبل أن أهم نتيجة وصل اليها مؤتمرنا الأول فى واشنطن الذى أطلق عليه اسم « أركاديا » وأبقاها أثرا . هى انشاء لجنة اشتهر اسمها بلجنة رؤساء أركان الحرب المشتركة . وقد تقرر أن يكون مكانها فى واشنطن .

ولما كان من الضرورى وجود رؤساء أركان حرب بريطانيا على كثب من حكومتهم ، فقد رئى أن يمثلهم فى واشنطن بعض كبار الضباط ويتخذوا من العاصمة الأمريكية مقرا لهم . وكان هؤلاء الممثلون يتصلون يوميا ، بل بين كل ساعة وأخرى ، بلندن ، وكان فى طاقتهم أن يفحصوا عن آراء رؤساء أركان حرب بريطانيا ويجلوها لرفاقهم الأمريكان ، حول أية مشكلة تتعلق بالحرب فى كل وقت من أوقات النهار أو الليل . وقد جمعت المؤتمرات المعروفة التى عقدت فى أماكن مختلفة من العالم كالدار البيضاء وواشنطن وكويبك وطهران والقاهرة ومالطة والقرم ، بين الرؤساء أنفسهم أوقات تمتد أحيانا الى أسبوعين . وقد اجتمع خلال هذه المؤتمرات ما يقرب من تسع وثمانين جلسة من مجموع مائتى الجلسة الرسمية التى عقدتها لجنة رؤساء أركان الحرب المشتركة طوال الحرب . وفى هذه الجلسات اتخذت أغلب القرارات الهامة .

وكان الأجراء الطبيعى أن تجتمع كل لجنة من لجان رؤساء أركان الحرب للدولتين منفردة فى الصباح . ثم يجتمع الفريقان خلال النهار ، ويكونان لجنة واحدة ، وقد يرجعان الى الاجتماع معا فى المساء . ويبحث المجتمعون سير الحرب قاطبة . ويقدمون الى الرئيس والى توصيات

متفقا عليها . وفى خلال ذلك استمرت اتصالاتنا المباشرة نحن الاثنين عادة بوساطة التليفون أو اللاسلكى ، وكنا نحن نتصل مباشرة بأركان حربنا . وفى جلسات تمهيدية كانت تبحث اقتراحات المستشارين المحترفين ، وعلى هدى ذلك تصدر الأوامر الى قادة الميدان . وأيا كان النزاع حاميا فى وجهات النظر فى لجنة رؤساء أركان الحرب المشتركة . وأيا كان المنقاش واضحا وحادا ، فان الولاء الصادق للقضية المشتركة كان ينتصر على المصالح الذاتية حتى القومية . وحينما تُبلّغ القرارات الى رئيسى الحكومتين ويوافقان عليها ، يمضى الجميع فى تنفيذها بصدق مطلق وخاصة أولئك الذين كانت القرارات معارضة لوجهات نظرهم الأولى . ولم تفشل قط فى الوصول الى اتفاق ايجابى للعمل . او الى بعث توجيهات بينة الى القادة فى كل ميدان . وكان كل قائد منفذ يعلم أن هذه التعليمات التى يتلقاها تحمل معها آراء الحكومتين المشتركة وتوجيه خبرائهما . ولم يقم قط جهاز حربى عملى كجهازنا بين أى من الحلفاء ، وانى ليبهجنى استمرار هذا الجهاز فعلا أن لم يكن صورة حتى يومنا هذا .

ولم يمثل الروس فى لجنة رؤساء أركان الحرب المشتركة . لقد كانت جبهتهم قضية وحيدة مستقلة ، ولم تكن ثمة حاجة ولا طريق للانضمام الى أركان الحرب . وكان يكفى أن نعلم الاتجاه العام لحركاتهم وميقاتها ، وأن يعلموا هم اتجاه حركاتنا وميقاتها . ومن هذه الجهة حافظنا على أكبر قدر من الاتصال المتين بهم مثل ما سمحوا لنا به . وسأبحث فى الظرف السانح فى زياراتى الشخصية لموسكو وكان رؤساء أركان حرب الدول الثلاث ، يجتمعون حول مائدة واحدة فى المؤتمرات المشتركة التى أقمناها فى طهران ويالتا وبوتسدام .

فيما سلف ذكرت أن الفيلد مارشال ديل ، بالرغم من أنه لم يعد رئيسا لأركان حرب الامبراطورية ، أتى معنا على متن البارجة « الدوق أوف يورك » وقد أدى المارشال دوره كاملا فى كل المباحثات التى جرت على ظهر البارجة ، بعد اجتماعنا بالزعماء الأمريكيين . وفى سرعة تبينت أنه يتبوأ منزلة بارزة فى رأيهم ويؤثر عليهم تأثيرا كبيرا ، ولم يسبق أن نال أى ضابط بريطانى أرسلناه عبر الاطلنطى خلال الحرب مثل هذا التقدير وتلك الثقة من ناحية الأمريكيين ، وقد تمكن من أن يحظى بشخصيته وقوة ادراكه وحذقه ، ثقة الرئيس روزفلت وتمكن فى الوقت نفسه من انشاء رفقة خالصة ، وصحبة شخصية مع الجنرال مارسال .

وصدر الأمر بالتوسع الهائل فى حقل الانتاج . وكان بيفربروك فى كل ذلك دافعا قويا . ويشهد تاريخ أمريكا الرسمى عن التخطيط الصناعى للحرب . على هذه الحقيقة شهادة كريمة . وقد وضع دونالد نيلسون المدير التنفيذى للانتاج الحربى الأمريكى خططا رائعة . وهنا يتحدث التاريخ الأمريكى « ولكن الافتقار الى الاقدام كان أمراً أوحىَ به اللورد بيفربروك الى نيلسون بصورة مسرحية » ولعل الصورة التى رسمها نيلسون نفسه أحسن وصف للحقيقة التى وقعت .

أثبت اللورد بيفر بروك الحقيقة القائمة بأنه يلزمنا أن ننظر فى برامج انتاجنا الى أقصى من مدى سنة ١٩٤٢ لنستطيع مواجهة عدو عنيد ، جم الموارد وأومأ الى أننا ما برحنا نحتاج الى التجارب بالنسبة الى ما طرأ من خسائر فى المواد فى حرب من النوع الذى نخوضه الآن ، وكانت الفكرة التى يوحى بها اللورد بيفربروك الى لبنيلسون ، ينشرها فى الوقت نفسه فى رأس الرئيس . وفى مذكرة قدمها اللورد بيفربروك الى الرئيس وضع الأرقام المحتملة لانتاج سنة ١٩٤٢ فى أمريكا وبريطانيا وكندا ، بالنسبة الى ما تفتقر اليه بريطانيا وروسيا وأمريكا . وقد أبانت المقارنة عجزا كبيرا فى برنامج الانتاج المقترح لسنة ١٩٤٢ وكان العجز فى الدبابات (١٠ر٥٠٠) وفى الطائرات (٢٦ر٧٣١) وفى المدافع (٢٢ر٦٠٠) وفى البنادق (مليونا وستمائة ألف) وكتب اللورد بيفربروك أن أرقام الأغراض الانتاجية يتحتم زيادتها . وركز اعتقاده فى تنفيذها على « امكانيات الصناعة الأمريكية الرائعة » وكانت النتيجة تفوق عدد من الأغراض الانتاجية فى ضخامتها على ما اقترحه نيلسون من أرقام ، وقد سلم الرئيس بوجوب التوسع الكلى فى مضامين قوتنا الصناعية .. واصدر توجيهه بضرورة تنفيذ برنامج يدعو الى انتاج خمس وأربعين ألف طائرة مقاتلة وخمس وأربعين الف دبابة وعشرين ألف مدفع مضاد للطائرات وأربعة عشر ألف وتسعمائة مدفع مضاد للدبابات ونصف المليون مدفع رشاش سنة ١٩٤٢ .

وفى آخر سنة ١٩٤٣ تحققت هذه الأرقام ، وتفوق بعضها . ففى الملاحة مثلا شيدت أمريكا فى سنة ١٩٤٢ بواخر حمولتها (٥ر٣٣٩ر٠٠٠) طن فى حين شيدت فى سنة ١٩٤٣ ما حمولتها (١٢ر٣٨٤ر٠٠٠) طن .

ودفع تركيز الفكر المستمر على الحرب ككل ، ومشاوراتى المتواصلة مع الرئيس ومع كبار مستشاريه ومستشارىّ ، وخطبتى فى واشنطن وأوتاوا — ورحلتى الى كندا ، وتدفق العمل المتواصل الذى يستدعى

سرعة البت ، وكثرة البرقيات المتبادلة مع رفاقى فى الوطن . الى أن أصبح الوقت الذى أمضيته فى واشنطن ليس مجهدا فقط بل منهكا كذلك . وترا،ى لأصحابى الأمريكيين اننى أبدو مجهدا وأنه يلزمنى أن أستجم ، ووضع المستر ستيتينيوس دارا يملكها فى مكان بعيد على الساحل بالقرب من «بالم بيتش» تحت تصرفى ، وفى الرابع من يناير طرت الى هناك . ولقيت الوقت الكافى لعلاج بعض القضايا الصعبة التى ادركتنى هناك . وقد سبق لى أن فسرت الطوربيد البشرى الايطالى والغارة التى شنها على الاسكندرية والتى عطلت « الملكة اليزابيث » و « فاليـــانت » قد أتت هذه الكارثة بعد كل الخسائر البحرية التى أصبنا بها فى هذه الفترة مقلقة للنهاية وفى ظرف غير مناسب وان وقفتُ على خطورتهـا فورا . وغدا أسطول البحر المتوسط فى الظرف الحالى غير موجود ، كما غدت طاقتنا البحرية للدفاع عن مصر ضد الغزو البحرى المبـــاشر محفوفة بالخطر . وظهر لى أن من المحتم فى مثل هذه الحالة العارضة أن نرسل الى مصر ما يتوافر عندنا فى ســواحل انجلترا الجنوبية من الطائرات وقاذفات الطوربيد . وقد كانت نهاية هذا العمل وبيلة .

وأقلقنى جدا ما حمله المستر ايدن حين رجوعه من موســكو من تقارير عن مطامع الروس الاقليمية وخاصــة فى دول البلطيق . وكان بطرس الأكبر قد استولى على هذه الدول التى بقيت تحت حكم القياصرة أكثر من مائتى عام . وغدت هذه الدول منذ الثورة الروسية حصن أوربا الأمامى فى وجـه البلشـفية . وهى من الصنف الذى يســمى الآن « بالديمقراطيات الاشتراكية » ولكنها تنبض بالحيوية وسوء الخلق ، وقد رمى بها هتلر أمام الروس فى بداية الحرب ، كالطُعم ، فحدثت فيها عمليات تطهير شيوعية وروسـية شديدة ، وتمت تصفية كل من فيها من عناصر وشخصيات ظاهرة . وانتقلت حياة هذه الشعوب القوية الى الأعمال البوليسية . وفى سرعة قام هتلر كما سترى بعملية تطهير نازية مقابلة . وعاد الروس الى الهيمنة عليها فى النهاية حين الفوز الأخير .

وهكذا مضى الصراع الفتاك باستونيا ولاتفيا وليتوانيا غدوا ورواحا ولا يوجد أدنى ريب على أى حال فى أين يكون الحق ، فالدول البلطيقيــة يتحتم أن تكون مستقلة . وصاحبة سيادة .

وفى ليلة التاسع من يناير عدتُ بالقطار الى واشنطن وبلغت البيت الأبيض فى الحادى عشر منه ، وهناك لقيت لجنة رؤساء أركان الحرب المشتركة قد حققت فوزا عظيما فى أعمالها . وأتى ما حققته مؤتلفا مـع

آرائى . وفى الثانى عشر من يناير دعا الرئيس الى اجتماع عام ، وتم الاتفاق على الأسس العريضة للحرب وأغراضها ، واقتصر الاختلاف على التأكيد والتفضيل . وقد سيطر عليها عامل باغ جبار هو الملاحة . ويتحدث السـجل البريطانى ركز الرئيس جهوده الجليلة على ترتيب حملة أمريكية بريطانية مشتركة توجه الى شمال افريقية . وتم وضـع برنامج لاعداد حملة قوامها تسعون ألف أمريكى وتسعون ألف بريطانى تؤيدهم قوة من الطائرات فى حملة الى شمال افريقية .. وبالنسبة الى الاستراتيجية الـكبرى اتفق رؤسـاء الأركان على ألا ينقل من مسرح العمليات ضد المانيـا الا أقل ما يستطاع من القوات اللازمة للدفاع عن المصالح الهامة فى مسارح الحرب الأخرى . وكان الجنرال مارشال له الفضل الأكبر فى الوصول الى هذا القرار الرئيسى ..

وفى الرابع عشر من يناير استأذنت من الرئيس روزفلت فى السفر وأظهر لى ما يساوره من مخاوف حول الرحلة ، فقد علم العالم كله منذ عشرة أيام بوجودنا فى واشنطن ، وأبرزت الخرائط وجود أكثر من عشرين غواصة معادية فى سبيل رجوعنا الى الوطن . وفى جو جميل طرنا من نورفولك الى برمودا ، حيث كانت الدوق أوف يورك ومدمرات الحراسة ترتقبنا على شواطئها المرجانية ـ وطرت فى سفينة طائرة كبيرة من طراز بوينج ، خلفت أثرا عميقا فى نفسى . وفى خلال الرحلة التى استوعبت ثلاث ساعات أصبحت صاحبا للطيار كيلى روجرز الذى ظهر لى رجلا قوى الشخصية كثير الحنكة ، وتقلدت القيادة بعض الوقت لاختبر هذه الآلة الضخمة التى تزن ثلاثين طنا وأكثر ، والتى ترتفع فى الجو وأصبحت أكثر تعلقا بهذه السفينة الطائرة ، وسألت القائد : ما رأيك فى طيراننـا من برمودا الى انجلترا ؟ وظهر لى شىء من الشجاعة خلف مظهره الوادع وقال : « فى طاقتنا طبعا أن نفعل ذلك . أن قراءة حالة الجو الحالية تومىء الى أن سرعة سير الريح معنا أربعون ميلا فى الساعة . وفى طاقتنا أن نتم الرحلة فى عشرين ساعة وسألته عن المسافة فقال : انها ثلاثة آلاف وخمسمائة ميل تقريبا . وهنا بدأت أفكر .

وحينما نزلنا ، درست الموضوع مع بورتال وباوند . فثمة أحداث كبيرة تحدث فى الملايو ، ويجب أن نرجع فى أسرع وقت مستطاع وقال رئيس أركان حرب الطيران فورا : ليس ثمة ما يدعو الى هـذه المجازفة كلها وأنه لا يمكنه أن يتحمل مسئوليتها . وعضد لورد البحر الأول رأى رفيقه . فثمة « الدوق أوف يورك » بمدمراتها الحارسة وبما فيهـا من

أمن واستجمام ، تترقبنا وقلت : « ولكن ما رأيكما في الغواصات التي أومأنا اليها » فأومأ الأميرال باحتقار مما يشير الى حقيقة رأيه في هـذا الخطر بالنسبة الى بارجة سريعة محروسة خير حراسة • وتراءى لى أن القائدين يوقنان أنى سأطير وحدى وأدعهما يرجعان في البارجة ولهـذا قلت « سيكون المكان بالطبع فسيحا لنا كلنا » وهنا تبدل وجهاهما • وبعد تفكير قصير قال بورتال : ان القضية خليقة بالبحث وأنه سيبحث الموضوع تفصيلا مع قائد السفينة الطائرة • وسيدرس حالة الجو مع سلطان الأرصاد الجوية • وعند هذا الحد تركت الموضوع •

وبعد ساعتين رجع القـائدان ، وقال بورتال : انه يوقن أن في وسعنا بأن نقوم بالرحلة ففي امكان الطائرة أن تقوم بهـا في أوقات مناسبة • ويظهر أن حالة الجو سانحة تماما ، بمساعدة الريح • ولا مَرِيّة في أن من المهم الاسراع في الوصول الى أرض الوطن • وقال باوند : انه كَوّن لنفسه فكرة جميلة عن الطائرة وقائدها الذى يظهر له متمتعا بحنكة لا تبارى • ولا شك أن ثمة مغامرة ، ولكن في الرحلة البحـرية مغامرة كذلك لوجود الغواصات • وهكذا قررنا السفر بالطائرة الا اذا ساء الجو • وتقرر أن نشرع في الرحلة في الثانية بعد ظهر يوم غد • ورئى أن من اللازم تخفيف المتاع الذى نحمله ، والاكتفاء ببعض صناديق من الأوراق اللازمة التى لا غنى عنهـا ، وقد تقرر أن يظل « ديل » في واشنطن كممثل عسكرى شخصى لى لدى الرئيس • ولهذا انحصر فريقنا رِفيّ وفي باوند وبورتال ، وماكس بيفربروك وشارل موران وهونيس أما الباقون فسيعودون في « الدوق أوف يورك » •

وفي ساعة مبكرة من صباح الغد صحوت دون وعى ، وقد هيمن على اعتقاد بأنه يجب ألا أرقد • ويتحتم أن أقر بأننى أحسست بشىء من الرعب وتخيلت هـذه المسافات الواسعة من المـاء وأننا سنبعد عن البر بمقدار ألف ميل حتى نقترب من الجزر البريطـانية ، وتراءى لى اننى اقترفت عملا طائشا وأننا وضعنا عددا أكثر من اللازم من البيض في سلة واحدة • وكنت أرنو الى رحلة جوية عبر الأطلنطى بعين الخوف • ولكن السهم قد نفذ • ومع ذلك فاننى أعترف بأنهم لو قَدِمُوا الىّ عند الفطور أو قبل الغداء ، وأخبرونى أن الجو تبدل وأنه يلزمنا السفر بالبحر فاننى كنت أوافق قطعا على المضى في السفينة الرائعة التى قطعت كل هـذه المسافات البعيدة لنقلنا • وكان الأمر كما ترقب قائد الطائرة وهو انه المشقة في الارتفاع فوق الماء ،وفكرت في أن يلزمنا أن ندفع التلال المنخفضة

التى تقفل سبيل الميناء ، ولم يكن ثمة خطر فعلا • فقد كنا فى أيد أمينة وطارت الطائرة الجبارة على علو ربع ميل فوق الجرف ، وكان قدامنا مسافة أخرى يمكننا توفيرها فى العلو • وليس هناك ريب فيما يحس به المسافر من راحة فى هذه السفن الطائرة • وسارت الحركة بسهولة ، وقضى على التردد فى يسر ، وأمضينا فترة بعد الظهر فى حالة رائعة ، ثم تناولنا عشاء مرحا • وتتكون هذه الطائرات من طبقتين ، ويصعد الشخص سلما ليصل الى حجرة القيادة ، وحل الظلام ، وكانت كل التقارير طيبة ؛ فقد كنا نطير على علو سبعة آلاف قدم تقريبا بين ضباب كثيف • وكان فى طاقتنـــا أن نرى الطرف الأمامى للأجنحة وقد تتــابعت فوقها الشرارات النارية من تفريغ الزيت المحترق • وفى هذه الطائرات أنبوبة كبيرة من المطاط تتمدد وتنكمش أحيانا لمنع التجمد • وقد أوضح لى قائد الطائرة طريقة عمل هذا الجهاز ، وكنت أبصر من حين الى آخر الجليد وهو يتحلل وذهبت الى النوم حيث نمت نوما عميقا عدة ساعات وتنبهت قبل الفجر، وذهبت فورا الى حجرة القيادة ، وبدأ نور النهار ينداح شيئا فشيئا ؛ وأبصرت من تحتنا أرضا غير خالية من السحب ، وبعد أن أمضيت ساعة تقريبا وأنا قاعد فى مقعد مساعد الطيار ، شعرت باحساس من الانزعاج حولنا ، وكان مفروضا أننا ندنو من انجلترا من الجنوب الغربى ، وكان مفروضا أن نكون قد عبرنا جزر شيلى ؛ ولكننا لم نتمكن من مشاهدتها خلال الفتحات التى بين السحب ، ولما كنا قد طرنا أكثر من عشر ساعات فى سحاب كثيف لا نبصر فيه غير نجم واحد فمن المتوقع أن نكون قد ملنا عن سبيلنا • وكانت الاتصالات اللاسلكية مرتبطة طبعا بقواعد الحرب العادية • وبان من المناقشات الجارية أننا لم نكن نعلم أين نحن بالضبط • وفورا تكلم بورتال الذى كان يشرح الوضع لقائد الطائرة وقال لى : سنتجه فورا الى الشمال وفعلا تم هذا ، وبعد نصف ساعة تقريبا خرجنـــا من السحب لنبصر انجلترا أمامنا وفى سرعة بلغنا سماء بلايموث ، حيث نزلنا بعد أن تفادينا المناطيد المنيرة ، بهدوء وراحة •

وحينما غادرت الطائرة قال لى قائدها « لم أحس قط يا ســيدى بالراحة فى حياتى كما أحسست بها وأنا أنزل بك فى الميناء بســلام ولم أدرك أهمية ملاحظته حينئذ ولكننى عرفت فيما بعد أننا لو استمررنا فى السير خمس دقائق أو ستا أخرى قبل اتجاهنا شمالا ، لصرنا فوق بطاريات الألمان المضادة فى بريست • فقد ملنا أكثر من اللازم جهــة

الجنوب خلال الليل · والأدهى من هذا أن التعديل المضبوط الذى تم فى سيرنا قد بلغ بنا انجلترا لامن الجهة الجنوبيـــة الغربيـــة التى كانوا يترقبون قدومنا منها بل من الجهة الجنوبية الشرقية التى تجىء منهـــا طائرات العدو عادة ، وقد أسفر هذا عن وصول الخبر بأن طائراتنا هى قاذفة قنابل معادية آتية من بريست ، وصـــــدر الأمر الى ست طائرات هاريكين من القيادة المحاربة بأن توقعنا · ولكنها لم تفلح فى ايقاعنا ·

وأرسلت برقية الى الرئيس روزفلت أقول « لقد وصلنا من برمودا الى هنا بوثبة واحدة تدفعنا ريح مواتية سرعتها ثلاثون ميلا ·

سقوط سنغافورة

كان من المرتقب أن ألقى خطابا مطولا فى البرلمان عن مهمتى فى واشنطن ، وعن كل ما حدث فى الأسابيع الخمسة التى أمضيتها بعيدا عن الوطن ، وحضرت فى ذاكرتى حقيقتان ، الأولى : أن الحلف الأكبر سيكسب الحرب فى النهاية وان يكن على مدى بعيد ٠ والأخرى أن سلسلة غير محدودة وغير محصورة من الكوارث ترتقبنا فى هجوم اليابان الساحق وكان فى طاقة كل شخص أن يشعر شعور الاطمئنان بأن حياتنا كشعب وكامبراطورية ، لم تعد فى خطر ٠ ولكن الاحساس بانتهاء خطر الحرب من الجهة الأخرى ، قد دفع كل ناقد حسن النية أو سيئها ، الى التخلص من الايماء الى ما اقترف من أخطار جمة ٠ والى جانب هذا شعر كثيرون بأن واجبهم يدعوهم الى تحسين طرقنا فى ادارة دفة الحرب ٠ وباختصار مداها ٠ وقد قلقت أشد القلق من الهزائم التى نزلت بنا ٠ ولم يكن أحد يدرى أكثر منى أن هذه الهزائم ليست الا أول الطوفان ، ودفع تصرف الحكومة الاسترالية ، وانتقادات الصحف الواسعة الانتشار غير المتحيزة وطعن ما يقرب من عشرين أو ثلاثين نائبا من أكثر النواب كفاية دائما ، والمناورات البرلمانية الى وجود احساس من الضيق والقلق فى نفسى متخيلا وجود رأى عام شقى غافل ، يتظاهر ضدى مرتفعا من كل صوب ٠

ولكننى كنت من الجهة الأخرى واثقا من صلابة موقفى ، فقد كنت أستطيع أن أعتمد على حسن نية الشعب فيما قمت به من مشاركة فى المحافظة على بقائه فى سنة ١٩٤٠ ٠ ولم أبخس من قوة الصفاء العميق الفسيح الذى يزج بى إلى الأمام ٠ وقد أظهرت لى وزارة الحرب ورؤساء الأركان كل مظاهر الطاعة والأخلاص ٠ وكنت واثقا من نفسى ٠ وقد أبنت لمن حولى أننى حين تحتم الضرورة لن أقبل انقاص أى شىء من سلطتى أو مسئوليتى ٠ وكانت الصحافة مفعمة بالاقتراحات التى تقول باستمرار

رئيسا للوزارة ألقى الخطب فى البرلمان على أن أنزل عن الاشراف الفعلى على توجيه دفة الحرب لآخرين • وأصررت على الا أنزل عن شيء لأية ناحية وأن أحمل شخصا المسئولية الذاتية الرئيسية المباشرة ، وأن أطلب الاقتراع على الثقة بى فى مجلس العموم • وتذكرت القول الفرنسى المأثور :

« الصمت أفضل طريق للهيمنة على النفوس » •

وكان من الواجب أن أحذر المجلس والبلاد من الكوارث المحتملة • وليس هناك خطأ فى القيادة العامة أفحش من التلويح بآمال كاذبة سرعان ما تنهدم ففى امكان الشعب البريطانى أن يقابل الأخطار والمحن بجلد وأناة ونشاط ولكنه يأبى بمرارة أن يختل • أو أن يدع هؤلاء المسئولين عن أموره يحيون فى جنة الحمقى ، وأحسست بأن من الواجب لا بالنسبة الى مركزى فقط بل الى اتجاه الحرب قاطبة ، أن نخفف من كوارث الغد بتوضيح الوضع الحالى فى أكثر التعبيرات سوادا وظلاما وكان من المستطاع أن ينجز هذا فى هذه المرحلة من غير أن يؤثر على الموقف العسكرى أو يقلل من الايمان والنصر الأخير الذى يعمر الآن كل قلب • وعلى الرغم مما كنا نطالع به كل يوم يشرق علينا من الهزات والمتاعب فاننى لم آسف على الاثنتى عشرة ساعة أو الأربع عشرة ساعة التى تستغرق فى تدبيج خطاب من عشرة آلاف كلمة • يتناول جهات متعددة وبينما كانت ألسنة النار من حرب الصحراء غير المواتية تلسع قدمى ، استطعت أن أجهز خطابى وتقديرى للموقف كله •

وقد انهارت آمالى فى نصر يقضى به على رومل قبل أن أودع البيت الأبيض فلم تكن النتائج التى حققتها انتصارات أوكنلك فى سيدى رزق والغزالة حاسمة ، ودفع عودة نشاط قوة العدو الجوية فى البحر المتوسط فى شهر ديسمبر ويناير • واختفاء هيمنتنا الى حد ما على البحر عدة أشهر • الى حرمان أوكنلك من ثمار الفوز الذى كافح كثيرا لتحقيقه والذى ترقبه طويلا • وكان التفاؤل الذى حالف رسم خططنا لعملية انزال جيش انجليزى أمريكى فى افريقية الشمالية الفرنسية قد تلاشى اذ أرجئت هذه العملية ، كما هو معروف عدة أشهر •

ومن الصعب أن ينزل بنا الآن ما هو أسوأ • ويحول طول الشقة بينى وبين الاحاطة الكاملة بالكارثة العسكرية التى حلت بنا للمرة الثانية فى هذه الناحية نفسها ، وبعد سنة من محنتنا الأولى ، والتى كتب لها

أن تدمر الحملة البريطانية كلها فى الصحراء سنة ١٩٤٢ ويكفى أن أذكر أنه فى الحادى والعشرين من يناير قام رومل بهجوم استكشافى قوى من مواقعه فى العقيلة ، نهض به ثلاث فرق تتكون الواحدة منها من ألف من المشاه المنقولين بالسيارات تؤيدهم الدبابات وفى سرعة شقت هـذه الفرق سبيلها مجتازة الفجوات الموجودة بين قواتنا الأمامية التى تحتاج الى المدرعات فصدر اليها الأمر بأن تتراجع • ورجع رومل فبرهن من جديد على تفوقه فى الحروب الصحراوية • اذ استطاع بوساطة التفوق على قادتنا فى أصالة الرأى أن يسترد الجزء الأكبر من برقة • وتم الانسحاب مسافة ثلثمائة ميل ، مما أجهز على كل آمالنا « وأفقدنا بنغازى » ، وكل المخازن التى كان الجنرال أوكنلك يجهزها للهجوم الذى يأمل أن يقوم به فى منتصف شهر فبراير وأرجع الجنرال ريتش كل قواته المدمَّرة فى المنطقة المجاورة للغزالة وطبرق • وظلت عمليات المطاردة والهجمات المضادة هنا حتى آخر مايو ، حينما استطاع رومل أن يسدد ضربته من جديد •

وفى السابع والعشرين من يناير بدأت المناقشة فى مجلس العموم ، وكان فى وسعى أن ألمح روح انشقاق تهيمن على المجلس ، اذ أثيرت اعتراضات متفرقة على أسس متعددة لا تمت بصلة الى مستلزمات الساعة وقد كنت طلبت تسجيل خطابى ليمكن اذاعته على الامبراطورية وأمريكا ولهذا فقد سحبت طلبى مع أن مثله لا يرفضه أى برلمان آخر فى العالم وهكذا أقدمت على الخطابة فى مثل هذا الطقس •

وبسطت على الأعضاء وصفا لمعركة الصحراء ، ولكن المجلس لم يتمكن من تقدير الأهمية التى تحتوى عليها حركة رومل المضادة الناجحة لأن المجلس كان على جهل بالخطط العريضة التى كنا نجهزها للبدء فى هجوم بريطانى سريع يدفع إلى الاستيلاء على طرابلس • وظهرت خسارة بنغازى وأجدابية التى نشرت ، جزءا من عمليات الجزر والمباغتة فى حرب الصحراء • والى جانب هذا عدم توافر المعلومات الدقيقة لدىّ عما وقع ، وكيف وقع •

وانتقلت فى سرعة الى الموضوع الأكبر ، وهو موضوع مانشكو منه من عراء فى الشرق الأقصى فقلت :

ولم تمض مدة ولن تمضى ، كان فى وسع بريطانيا العظمى وحدها أو الامبراطورية البريطانية وحدها أن تحارب ألمانيا وايطاليا ، وأن تقتحم معارك بريطانيا والأطلنطى والشرق الأوسط • وأن تكون متأهبة فى

الوقت نفسه فى بورما وشبه جزيرة الملايو والشرق الأقصى قاطبة ، لمواجهة ضغط امبراطورية عسكرية قوية كاليابان ، تملك ما لايقل عن سبعين فرقة متنقلة ، وثالث أسطول فى العالم ، وقوة جوية كبيرة • وزحفا يقوم به مايقرب من ثمانين الى تسعين مليونا من الآسيويين المحاربين القساة • ولو شرعنا فى توزيع قواتنا على هذه الأماكن الواسعة من الشرق الأقصى • لأدركنا الهلاك • ولو نقلنا جيوشا هائلة نفتقر إليها أشد الإفتقار فى جبهات القتال إلى أماكن لم تنشب الحرب فيها بعد ، وربما لا تنشب أبدا ، فإننا نكون مخطئين جدا ، ونكون قد رمينا بالفرصة ، التى غدت الآن أكثر من مجرد فرصة ، لنجاتنا كلنا من الحالة الرهيبة التى غرقنا فيها •

« وكنا قد إتخذنا قرارا لنشارك فى معونة روسيا ولنحاول الانتصار على رومل • ولنكوّن جبهة أقوى تمتد من الشرق الأدنى الى بحر قزوين • ودفع هذا القرار الى أنه ليس فى طاقتنا الا أن نرسل بعض قوات معتدلة الى الشرق الأقصى لمقابلة خطر الهجوم اليابانى المحتوم • وقد جمعنا فعلا ما يقرب من ستين ألف رجل فى سنغافورة ، ولكنا منحنا وادى النيل الأولوية فى الطائرات الحديثة والدبابات والمدافع المضادة للطائرات •

وأمضيت ما يقرب من ساعتين ألقى على المجلس حِمْلاً فوق قدرته • وقد ارتضى المجلس كل ما قلته له من غير حماسة ، ولكن وجد عندى انطباع بأن المجلس قد آمن بما قلته • ونظرا لما كنت أترقبه من أمور سيئة • رأيت اختتام كلامى بوضع الأمور فى مكانها الصحيح مهما يكن سيئا ، وبعدم التقدم بأى وعود من غير أن أحرم الأعضاء لذة الأمل •

وظلت المناقشة ثلاثة أيام • ولكن لهجة الأعضاء فيما يختص بى كانت ودية ولم يكن عندى أقل ريب فيما سيفعله المجلس ، ودافع أعضاء وزارة الحرب وفى مقدمتهم المستر أتلى عن قضية الحكومة بشجاعة وجرأة ، وكان على أن أنهى المناقشة فى التاسع والعشرين • وخِفْت فى هذه الفترة ألا يحدث اقتراع على الثقة وأردت بوسيلة الاستثارة أن أدفع ناقدينا الى الاقتراع ضدنا من غير أن أسىء الى المجلس الذى ظهر كله الآن مؤتلفا معنا • ولكن لم يكن فيما رددته ما يخص الشخصيات التى كانت مناهضة لنا من المحافظين والعمال الأحرار على الاقتراع ضدنا • وحين دار الاقتراع على الثقة صوت ضدنا نواب ثلاثة من حزب العمال المستقل

وكان صوتان منهم يؤخذان طبعا للتزكية ، ولهذا كانت النتيجة أربعمائة وأربعة وستين ضد صوت واحد • وقد شكرت لجيمس ماكستون زعيم الأقلية سيره بالموضوع الى الأمام • وكانت الصحافة قد أحدثت جلبة كبيرة الى حد أدى الى انصباب برقيات التهنئة على من كل نواحى العالم الحليف • وكان أكثر هذه البرقيات حرارة من حلفائنا الأمريكيين فى البيت الأبيض • وكنت قد أرسلت الى الرئيس روزفلت أهنئه بعيد ميلاده الستين • فأبرق الى يقول : « لعل مما يضحك اننى معك فى السنة نفسها » أما الصحفيون الذين يزداد نقيقهم فلم يكفوا ولم يمتنعوا عن نقيقهم • وفى سرعة استداروا بما عرف عن الغربان من خفة فى الحركة يقولون : هل كان من الواجب طرح الثقة بالوزارة ؟ فمن الذى يقدم على التفكير فى أن يسقط حكومة قومية ؟ •• لكن هذه الأصوات العاوية كما كنت أسميها ، لم تكن الا نذر الكارثة الغربية غير المتوقعة •

وقررت استحالة التحقيق بوساطة لجنة ملكية فى العلل والظروف التى أحدقت بسقوط سنغافورة وما فتئت الحرب جارية • فليس فى امكاننا أن نستغنى عن الرجال أو عن القوى الكامنة •

وقد ارتضى البرلمان هذه النظرية ، ولكننى رأيت اتمام هذا التحقيق عقب انتهاء الحرب انصافا لكل الضباط والجنود • لكن هذا التحقيق لم يتم على أيدى الحكومة القائمة • فقد مضت السنون وفنى الكثيرون من الشهود • ولعلنا سنعجز أبدا عن إصدار حكم قاطع ، على أفدح كارثة وأكبر استسلام فى التاريخ البريطانى ، عن طريق محكمة لها صلاحية • ولن أبغى فى هذه الصفحات وضع نفسى مكان محكمة كهذه ، أو اصدار حكم على سير الأشخاص • وفى موضع آخر سجلت الحقائق كما أيقنتها • وعلى القارىء أن يؤلف من هذه الحقائق ومن الوثائق التى سجلت فى ذلك الظرف الفكرة التى يشاؤها •

ومما هو خليق بالاستقصاء على الأقل ، هو أليس من الأفضل تركيز قوانا على الدفاع عن جزيرة سنغافورة • ومحاولتنا صد الهجوم اليابانى المنحدر من شبه جزيرة الملايو بقوات متنقلة خفيفة • وقد قبلت ما قرره القادة فى المنطقة من اقتحام سنغافورة فى جوهور ، مع محاولة إعاقة العدو عن بلوغها إلى أبعد حد مستطاع • ويكون الدفاع عن البر الماليزى من إنسحاب دائم ، مع شن حرب عصابات فى المؤخرة •

وكانت كل الميزات فى جانب العدو ، فقد مسح قبل الحرب مسحا دقيقا طبيعة الأرض ودرس الأحوال فيها • وجهز خططا فى غاية الإحكام كما أرسل مندوبين سريين يتسللون الى المنطقة • واشتملت التجهيزات على مجموعات كبيرة من احتياطى الدراجات ليستعملها راكبو الدراجات اليابانيون ، وجمع العدو قوات فائقة واحتياطيا كبيرا • لم يفتقر الى بعضه فى المعركة • وكانت كل الفرق اليابانية قد تدربت على حرب الأدغال ، الى جانب سيطرة اليابان فى الجو ، وهو ما أوضحته ، والذى يبدو منه إفتقارنا الشديد الى الطائرات فى أماكن أخرى ، عاملا فتاكا آخر ، لا صلة لقادتنا هناك به وليسوا مسئولين عنه • وهكذا فان القوة الأساسية المحاربة للجيش الذى أوصيناه بالدفاع عن سنغافورة ، وكل الامدادات التى أرسلناها بعد اعلان اليابان الحرب ، استغلت فى القتال الباسل الذى جرى فى شبه الجزيرة ، وحينما اجتاز هؤلاء المعر المائى الى المكان الذى كان يتحتم أن تجرى فيه معركتهم الأساسية ، كانت قوتهم قد نفقت • وهنا انحازوا الى الحامية المحلية ، والى جماهير المدافعين عن القاعدة الذين ضاعفوا عددنا من غير أن يزيدوا شيئا فى قوتنا •

وهكذا تبدد الجيش الذى كان فى وسعه أن يقتحم معركة سنغافورة الحاسمة والذى جهز لهذا الغرض الرئيسى فى هذا المسرح ، قبل بدء الهجوم اليابانى وقد يكون عدد رجاله مائة ألف رجل ، ولكنه لا يعتبر جيشا مطلقا •

وبدا الآن أن الجنرال « ويفل » الذى غدا قائدا أعلى للحلفاء فى هذه المناطق الشرقية كان يرتاب فى استطاعتنا أن ندافع طويلا عن سنغافورة. وكنت أستند الى مقاومة الجزيرة والقلعة لحصار يابانى طويل يستدعى انزال المدافع الثقيلة ونقلها واقامتها • وقبل أن أترك واشنطن كنت أترقب أن تمتد المقاومة شهرين على الأقل • وكنت أتوقع « بشىء من التشاؤم » استنزاف قوى جيشنا خلال تقهقره فى شبه جزيرة الملايو ، من غير أن أعمل عملا قاطعا للتدخل ، وكان ثمة من الجهة الأخرى عامل كسب الوقت •

وفى السادس عشر من يناير أبرق « ويفل » الينا يقول :

« كانت كل الخطط حتى زمن قريب تقوم على صد الهجمات الموجهة من البحر الى سنغافورة ، والمقاومة على أرض جوهور، أو فى الشمال منها ولم نعمل شيئا لتكوين خطوط الدفاع

من النـاحية الشمالية من الجزيرة لنمنع العدو من اجتيـاز مضيق جوهور ، مع أن الخطط رسمت لنسف طريق الجسر. وتصلح مدافع القلعة الثقيلة العيـار لاطلاق النار فى كل اتجاه ، ولكن اتجاه سير المقذوفات يجعلها غير صالحة لمقابلة الأسلحة المضادة للمدفعية . وليس فى طاقتنا فعلا أن نكفل الهيمنة على مدفعية العدو إنْ فُرض الحصار عليها » .

وشعرت بحيرة ممزوجة بالألم حينما قرأت هـذه الرسالة صـباح التاسع عشر من الشهر . اذن ليس هناك حصون دفاعية مستمرة تدافع عن الجزيرة من جهـة البر ، وعن المدينة والقاعدة البحرية . والى جانب هذا ، وهو ما أذهلنى لم يقم واحد من القادة منذ قيام الحرب ، وحتى منذ ثبت اليابانيون أقدامهم فى الهند الصينية باقامة حصون دفاعية ميدانية تستحق الذكر . ولم يقم أحد من هؤلاء القادة حتى بمجرد التنبيه بأن مثل هذه الحصون غير قائمة فعلا .

وقد تأكد لدى ، بفضل ماشهدت من الحرب وقرأت عنها ، وخاصة بالنسبة الى قوة النار الحديثة ، اعتقاد راسخ بان عدة أسابيع تكفى لايجاد دفاع ميـدان قوى ، واحاطة جبهـة العـدو وحصرها بحقول الألغـام وغيرها من الموانع . ولكن لم يدر ببـالى قط أنه ليس هنـاك دائرة من الحصون المتفرعة ذات الطبيعة الدائمة ، تقـوم بالدفاع عن مؤخرة القلعة المشهورة . ولم يكن فى طاقتى أن أدرك مطلقا كيف حدث هذا . ولكن يظهر أنه لم يفهم هذه الضرورة المهمة أحد القادة فى المنطقة أو من خبرائى المهنيين فى الوطن ، واذا كان أحدهم قد فهمها ، فانه على الأقل لم يومىء بأهميتها لى ، حتى أولئك الذين اطلعوا على برقياتى المركزة على الاحتمال المخطىء بضرورة التأهب لحصار طويل متسق . وكنت قد قرأت عن معركة بليفنا فى سنة ١٨٧٧ ولم تكن المدافع الرشاشة قد عرفت بعد ، فقد اخترع الأتراك طرقا حديثة فى الوسائل الدفاعية لمقابلة خطر الهجـوم الروسى ، وبحثت كذلك معركة فردان فى سنة ١٩١٧ ، حيث استطاع جيش ميدان يجثم فى قلاع محصنة موزعة أن يسجل فوزا باهرا على جيش مهاجم . وقد ركزت اعتقادى على اجبار العدو على استعمال مدفعية على مدى واسع لدق مراكزنا الحصـينة فى سنغافورة ، ومن المشـقات المثبطة ، والتخلف الطويل الذى سيعوق تركيز مثل هذه المدفعية وجمع الذخيرة الضرورية لها عبر المواصلات الماليزية ، وها هى ذى كل أحلامى

تنحرف بغتته ، فأبصر أمامي المنظر المريع • منظر الجزيرة العارية والجنود المتعبين ان لم نقل المنهوكين ، ينسحبون اليها •

أنا لا أكتب هذا دفاعا عن نفسي • لقد كان من واجبي أن أعلم - ولقد كان من واجب مستشاري أن يعلموا ، وأن يخبروني بالحقيقة ، وكان على أنا أن أسألهم • ولعل السبب في عدم سؤالي هذا السؤال الوحيد بين آلاف الأسئلة ، التي كنت أوجهها ، أنني لم أتخيل ان سنغافورة ليس لديها وسائل دفاعية ضد البر ، كما لم أتخيل مطلقا نزول بارجة الى البحر من غير أن يكون لها عمق ، وقد اطلعت على كل الأسباب التي قدمت لتسويغ هذا العيب المكشوف ، ومنها اشتغال القوات في التدريب ، وانشاء الخطوط الدفاعية في شمال الملايو ، وقلة الأيدي العاملة من المدنيين ، ورواسب ما قبل الحرب ؛ واشراف وزارة الحرب المركزي ، والقول بأن دور الجيش كان الدفاع عن القاعدة البحرية الموجودة على الساحل الشمالي من الجزيرة ، ولهذا فان واجبه أن يقاتل أمام الساحل لا عليه ، وأنا لا أعد كل هذه المسوغات صحيحة ؛ سليمة ؛ لقد كان من الضروري أن تنشأ الخطوط الدفاعية •

وكان أول رد فعل على ما حدث اعتزامي اصلاح هذا الاهمال بقدر ما يسمح عامل الوقت ، ولكنني حينما استيقظت صباح الحادي والعشرين من الشهر ، وجدت هذه البرقية المتشائمة التالية من الجنرال ويفل ، تأخذ مكان الصدرة فوق أوراقي :

« عاد الآن الضابط الذي أرسلته الى سنغافورة لتجهيز خطط الدفاع عن الجزيرة • تُتّخذ الآن التأهبات للدفاع عن الجزء الشمال من الجزيرة • ويفتقر الدفاع عنها الى قوات معادلة ان لم تكن متفوقة في العدد على القوات الضرورية للدفاع عن جوهور ، أمرت برسيفال (القائد العام) بأن يقتحم المعركة في جوهور ، وأن يرسم الخطط لمد المقاومة عن الجزيرة الى أبعد غاية مستطاعة اذا خسرنا معركة جوهور • ولكن يلزمني أن أنذرك بصعوبة المحافظة على الجزيرة طويلا اذا أسقطت جوهور • فمدافع القلعة مقامة للدفاع عنها من جهة البحر ، وذخيرتها من الصنف الذي ينفع لهذه الغاية فقط • ولا يمكن أكثر هذه المدافع اطلاق نيرانه الا جهة البحر • وقد أرسل بعض الحامية الى جوهور ، وارتاب في القيمة الحربية لمن تبقى منها • آسف لمنحك صورة معتمة ، ولكنني لا أشاء

أن أمنحك صورة خاطئة عن قلعة الجزيرة لقد أنشئت حصون سنغافورة للدفاع عنها من جهة البحر ، وما فتئت أرجو أن تقاوم جوهور حتى تصل القافلة القادمة » ·

واستمررت أفكر فى هذه الرسالة وقتا طويلا · فكل ماركزت عليه رجائى حتى الآن · هو اجبـــار دفاع الجزيرة ، بقلعتها ومدينتها على المقاومة ، وكان هـــذا هو الموقف الذى يتحتم أن نحـــافظ عليه ، الى أن يحدث تغيير فى سياستنا هناك · أما الآن فقد أخذت أفكر أكثر وأكثر فى بورما ، وفى هذه المساعدات التى تسير الآن فى سبيلها الى سنغافورة فمآل هذه المساعدات الى التحطيم أو الى التحول · وما فتئت الفرصـــة سانحة لتتجه القوافل شمالا الى رانجون · ولهـــذا فقد جهزت المذكرة التـــالية لرؤساء أركان الحرب ، وناولتها للجنرال ايســـماى فى الظرف المناسب ليقدمها اليهم حين يجتمعون فى الساعة الحادية عشرة ونصف الســـــاعة من صـــباح الحادى والعشرين · وأننى لأقر مع ذلك بأن عقلى لم يقرر شيئا · واتجهت الى أصحابى ومستشارى ، ولكننا كلنا كنا نقاسى الآن الحـــالة نفسها :

نظرا لهذه البرقية السيئة التى وصلتنا من الجنرال ويفل ، أرى انه يجب علينـــا أن نبحث الموقف كله فى اجتماع تعقـــده الليلة لجنـــة الدفاع ·

لقد اقترفنا الخطأ الذى كنت أخاف أن نقترفه · فقـــــد انقسمت القوات التى كان يمكنها انشاء جبهة حصينة فى جوهور ، أو على الأقل على حاجز سنغافورة المائى أقساما صغيرة · ولم يقم أى خط دفاعى على الجزيرة جهة البر · ولم يقم الأسطول باقامة خطوط دفاعية تجاه حركات التطويق العادية من الساحل الغربى من شبه الجزيرة · وقد أبان الجنرال ويفل أن الدفاع عن سنغافورة يستدعى قوات أكثر من تلك التى يتطلبها النصر فى معركة جوهور · وقد انتهت معركة جوهور تقريبا بالخسارة ·

ولا تومىء رسالته بالأمل فى دفاع مديد · ومن الجلى ان مثل هـــذا الدفاع سيكون المساعدات التى هى فى الطريق الآن · واذا كان الجنرال ويفل يرتاب فى القدرة على المقاومة عدة أسابيع أخرى ، فان الســـؤال الذى يثار الآن هو : أليس من الأحسن ان ننســـف الأرصفة وبطاريات المدفعية والمصانع وننسحب من سنغافورة ، ونركز كل شىء على الدفاع عن بورما ، وعلى ابقاء سبيل بورما مفتوحا ·

أومن بأن هذا الموضوع يتحتم أن يقابل على هـذا النحو مقـابلة صريحة وأن يبسط بهذه الصورة على الجنرال ويفل • وما قيمة سنغافورة عند العدو بالنسبة الى بقية الموانى فى جنوب غرب الباسفيك ، اذا قمنا بعمل التخريبات البحرية والعسكرية بشكل دقيق ؟ •

وستكون خسارة بورما من الجهة الأخرى ضربة كاسرة انها ستفصلنا عن الصين • التى برهن جنـدها حتى الآن على أنهم أكفـأ من غيرهم فى قتـال اليابانيين • وقد نخسر كلا من سنغافورة وسبيـل بورما حين تضطرب الأمور ونتردد فى اتخاذ قرار حازم مهما يكن كريها • وكل شىء يتوقف طبعا على الغاية التى سيستطاع فيها الاحتفاظ بالدفاع عن الجزيرة، واذا كان هـذا الدفاع سيقتصر على عدة أسـابيع ، فاننى أرى أنه ليس جديرا بأن نضيع عليه كل معوناتنا وطائراتنا •

ويلزم الانسان مع ذلك أن يدرك أن سقوط سنغافورة مع سقوط كوريجيدور سيهز الهند هزة قوية ، لا ينجيها منها إلا قوات كبيرة تصل إلى جبهة بورما وتقوم بعمل مظفر فيها •

« آمل أن تبحثوا كل هذه النقاط ، فى هذا الصباح » •

ولم يتوصل رؤساء أركان الحرب الى نتيجة قاطعة ، وحينما اجتمعت لجنة الدفاع فى المساء ، هيمن علينا تردد متشابه نحو الاقدام على اتخاذ مثل هذه الخطوة الحاسمة • واستمرت المسئولية المباشرة الأولى متوقفة على الجنرال ويفل باعتباره القائد الأعلى للحلفاء • وقد وجدت شخصيا أن القضية صعبة الى حد بالغ ، حتى اننى لم ألح فى ضرورة تنفيـذ خطتى الحديثة ، وهو ماكنت أفعله قطعا لو كنت قد حزمت أمرى • ولم يكن فى طاقة أحد منا أن يترقب تدهور الدفاع وهو ماحدث فعلا فى ثلاثة أسابيع• على أى وضع كان فى امكاننا أن نمضى يوما أو يومين آخرين فى تدبر أكثر •

ولم يشـهد السـير ايرل بيج ممثل استراليا طبعـا اجتماع رؤساء أركان الحرب ، كما اننى لم أدعه لحضور اجتماع لجنة الدفاع • بيد أنه حصل بطريق أو بآخر على نسخة من المذكرة التى أرسلتها الى رؤساء أركان الحرب • وقد أبرق الى حكومته فى الحال • وفى الرابع والعشرين من يناير تلقينا رسالة من المستر كيرتن رئيس وزراء استراليا أقتطف منها الفقرات التالية :

[حمل الينا بيج أن لجنة الدفاع تبحث الآن توقع الجلاء عن الملايو وسنغافورة • وفي طاقتي أن أجزم بأنه فيما يختص بالتأكيدات السالفة التي تلقيناها منكم سيعتبر الجلاء عن سنغافورة هنا وفي مواطن أخرى غدرا ليس في الوسع التساهل فيه على الاطلاق ••• لقد أدركنا أن سنغافورة ستكون قلعة لا يستطاع الوصول اليها ، وهي على أي وضع تستطيع أن تصمد وقتا طويلا الى أن يصل الأسطول الرئيسي •

ومن المفروض حتى لو وقع طارىء ، توجيه المساعدات الى جزر الهند الهولندية لا الى بورما ••• وقد يسبب أي عمل مخالف غضبا ونقمة وقد يؤدي بالهند الهولندية الى عقد صلح منفرد وقد أدينا دورنا في الصفقة بكل اخلاص وأمانة تحقيقا لوعودنا ببعث سيل لا ينقطع من المساعدات • ونحن نرجو ألا تقضوا على الهدف كله بهذا الجلاء •]

ويلزمنا أن نجد المبرر الكافي لهذه الحال النفسية التي وجدت استراليا نفسها فيها بسبب الفاعلية المرعبة لجهاز الحرب الياباني • فقد زالت قيادة المحيط الهادي ، وكان في مصر ثلاث من أحسن فرق الاستراليين العسكرية وكانت الرابعة في سنغافورة • وقد فهموا أن سنغافورة يهددها خطر عاجل وخشوا أن تغزى استراليا نفسها فعلا وتسقط كل مدنهم الكبرى التي تشمل أكثر من نصف سكان القارة على شاطىء المحيط • وبدءوا الآن يقابلون توقع هجرة جماعة الى الداخل ، وترتيب حرب عصابات من غير أن تكون عندهم مخازن أو مؤن كافية ، ومعاونة الوطن الأب • قضية غير متوقعة ، وليس في الوسع ارجاع فرض القوة الأمريكية في المياه الاسترالية الا بعد وقت وبشكل تدريجي • ولم أعتقد أن اليابانيين سيغزون استراليا بعد أن يقطعوا ثلاثة آلاف ميل من مياه المحيطات ، في الظرف الذي تكون فيه في متناول أيديهم فريسة سهلة في جزر الهند الهولندية • والملايو • بيد أن الحكومة الاسترالية كانت تنظر الى الموضوع من ناحية مختلفة ، وكانت ثمة عوامل كثيرة تضغط عليها • واستمرت الخلافات الحزبية في استراليا قائمة حتى بشأن هذه المشكلات الشائكة المعقدة • ولم تتجاوز أكثرية الحكومة العمالية في البرلمان عضوين • وكانت الحكومة تعارض مشروع الخدمة الاجبارية حتى للدفاع الداخلي • ولم تنشأ في البلاد حكومة قومية مع أن المعارضة قد مثلت في مجلس الحرب •

ومع ذلك كانت برقية المستر كيرتن خطيرة ، غير مألوفة • فاستخدام عبارة « الغدر الذي لا يستطاع التساهل فيه » لم يكن متفقا مع الحقيقة

أو مع الوقائع العسكرية • فثمة كارثة مرعبة تدنو منا شيئا فشيئا • فهل في طاقتنا أن نتفاداها ؟ وكيف يقوم ميزان المكاسب والخسائر ؟ وحتى هذا الحين كان تقسيم المهمة لا يزال تحت اشرافنا • ولم يكن في طاقة لجنة الحرب الاسترالية أن تقدر الموقف كله • والا ماحض كيرتن على ضرورة ترك بورما ، وهي التي أثبتت الوقائع أنها المكان الوحيد الذى لدينا وسائل نجدته •

وليس من العدل أن يقال أن رسالة المستر كيرتن هي التي قررت القضية • ولو اتفقنا كلنا على السياسة التي يتحتم الاتفاق عليهـا كما اقترحت لكان في وسعنا أن نتقدم الى ويفل بقرارنا الذى اتفقنا عليه • ولكنني رأيت شيئا من التشدد في الرأى في معارضة ترك هذا الموقع الهام المشهور في الشرق الأقصى • وكان من العسير أن يتخيل الانسان مايمكن أن يظهر من أثر لمثل هذا « القرار » البريطاني في كل جهات العالم وخاصة في أمريكا ، في الظرف الذى يحارب الأمريكيون فيه بعناد واصرار في كوريجيدور • ولم يكن ثمة ريب مطلقا في طبيعة القرار الذى كان من المفروض أن يتخذ على هدى الاعتبارات العسكرية المجردة • وهكذا تقرر باتفاق الجميع أن تبذل كل الالتماسات لتعزيز سنغافورة وتقوية دفاعها • وذهبت الفرقة البريطانية الثـامنة عشرة ، التي أنزل جزء منها • تتم انزالها •

وعلى أية حال كان وزن هذه المساعدات وغيرها ، أقل مما تومىء به أعدادها فقد كانت تفتقر الى بعض الوقت لتجهيزها من جهة تكتيكية ، ولكن كان واجبها أن تلقى بنفسها في أتون المعركة الفاشلة عقب نزولها ، وتركزت على طائراتنا المحاربة من طراز « الهاريكين » التي أرسلنا أعدادا منها الى الميدان ، آمال كبيرة • لأن في وسع هذه الطائرات من جهة كيفها أن تكون ندا للطائرات اليابانية • وقد جمعت بسرعة فائقة ، وألقى بها من الجو • واستطاعت في الأيام الأولى أن تنزل أضرارا جسيمة • ولكن غرابة الأوضاع العامة على من وصل من الطيارين حديثا ، وكثرة عدد اليابانيين ، جعلا خسائرنا باهظة • وبدأت قوتنا الجوية تضعف بسرعة • وكانت عند اليابانيين خمس فرق تامة • وبدأ جنودهم ينزلون الى السـاحل بطريقة مذهلة ، وفي السابع والعشرين من يناير قرر الجنرال برسينال الانسحاب الى جزيرة سنغافورة بسرعة ، وكان لابد أن يمر كل رجل وكل سيارة بطريق الجسر في المرحلة الأخيرة ، وقد خسرنا الجزء الأكبر من لواء واحد في المراحل الأولى ، ولكن أكثر القوات مرت بالجزيرة في صباح الحادى والثلاثين

فى يناير مجتازة طريق الجسر الذى قامت قواتنا بنسفه • ولم نكن فى الوطن نعلق آمالا كاذبة على توقع امتداد الدفاع ولكن السؤال الوحيد الذى كان يدور فى أذهاننا هو الى متى سيمتد الدفاع ؟ ولم تكن المدافع الكبيرة والتحصينات الدفاعية التى يمكنها أن تطلق نيرانها جهة الشمال، لها جدوى وفائدة عظيمة ، لذخيرتها المحدودة ، وانطلاقها تجاه أرض تكسوها الأدغال ، ويجمع فيها العدو قواته • ولم يبق فى الجزيرة غير سرب واحد من الطائرات المحاربة ، وليس بها إلا مطار واحد يصلح للاستعمال • وقد أثرت الخسائر والضياع فى خفض عدد أفراد الحامية من مائة وستة آلاف كما قدرتهم وزارة الحربية الى ما يقرب من خمسة وثمانين ألفا منهم رجال الوحدات الادارية والجنود غير المقاتلين • وكان ما يقرب من سبعين ألفا من هؤلاء مسلحين ولم يتفق اعداد أجهزة الميدان الدفاعية والمواقع ، بالرغم مما بذل فيها من جهود محلية ضخمة ، مع ضرورتها الملحة التى بدت الآن • ولم تكن ثمة خطوط دفاعية راسخة على الجبهة المتصدية الآن للهجوم • وقد وهنت روح الجيش المعنوية بسبب تقهقر الجيش الممتد ، والقتال المرهق فى شبه الجزيرة • وخلف الجميع تقوم مدينة سنغافورة التى كانت تضم حينئذ ما لا يقل عن مليون شخص يمثلون عدة جنسيات من بينهم جمع زاخر من اللاجئين •

وفى صباح الثامن من فبراير ذكرت الدوريات أن العدو يجمع قوات كبيرة فى الحقول الواقعة شمال غربى الجزيرة • وتصدت مراكزنا لقصف المدفعية الشديد • وفى الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والأربعين مساء بدأت طلائع موجات الهجوم تجتاز مضيق جوهور فى قوارب انزال مدرعة ، أتى بها نتيجة تخطيط طويل دقيق ، الى مواقع الهجوم بطريق البر • وجرى قتال وحشى • وأغرقت بعض قطع الانزال ، ولكن قوات استراليا البرية كانت ضعيفة واستطاعت فرق من العدو أن تنزل فى عدة أماكن • وفى الليلة التالية حدث هجوم جديد مشابه حول طريق الجسر • ونجح العدو من جديد فى ايجاد مكان له • وامتاز الحادى عشر من فبراير بقتال مضطرب على امتداد الجبهة كلها • وكان طريق الجسر قد دمر من الجهة المقابلة للعدو ، وأمكن اصلاحه بسرعة بعد تراجع قوات تغطيتنا وتقدم الحرس الامبراطورى اليابانى على امتداد الجسر تلك الليلة • وفى الثالث عشر من فبراير نفذت الخطة المعدة لاجلاء ما يقرب من ثلاثة آلاف شخص معروفين عن طريق البحر الى جزيرة جاوه وأكثرهم من القادة المهمين وضباط الأركان والممرضات وآخرين تعد خدماتهم لازمة لمواصلة الحرب •

وقد بلغت الأوضاع فى الجزيرة الآن درجة مخيفة ، فقد توقف العمل الادارى وتدهور ، وأصبح خطر توقف مشروع المياه ماثلا ، وقل ما عند الجنود من احتياطى المؤن والذخيرة ، بسبب وقوع بعض المستودعات فى قبضة العدو ، وشرع فى تنفيذ برنامج التدمير المنظم على قدم وساق ، وحطمت مدافع التحصينات الدفاعية الراسخة وكل مدافع الميدان والمدافع المضادة للطائرات ، والأجهزة وأحرقت الوثائق السرية أيضا ، وفجرت كل مخازن الوقود ومستودعات قنابل الطائرات وحدث بعض الاضطراب من جراء عمليات التدمير فى القاعدة البحرية . ولكن الأوامر صـــدرت فأغرق الحوض العائم . وحطمت الطلمبات وروافع البواخر . ولكن معظم تفاصيل خطة التحطيم لم ينفذ بدقة .

وفى الرابع عشر من فبراير أرسل ويفل الى الرسالة التالية التى ظهرت لى أخيرا وقاطعه :

[« تناولت رسالة من بيرسيفال تقول ان العدو دنا من المدينة وأن قواته لم تعد تستطيع شن أية هجمات مضادة . أمرته بالاســتمرار فى انزال أقصى ما يســتطيع من الاضرار بالعــدو وبالقتال فى المنازل والشوارع اذا اقتضى الأمر . لكننى أخاف على أى حال ألا تمتد المقاومة » .]

وعسى القارىء يذكر الآن المذكرة التى أرسلتها الى رؤساء أركان الحرب فى الحادى والعشرين من يناير حول ترك الدفاع عن سـنغافورة وتوجيــه المساعدات الى بورما . وكيف أننى لم أتمسك بهذه النقطة . وحينما تصلبت أفئدتنا جميعا حول قرارنا بالدفاع عن سنغافورة ، كان الأمل الوحيد فى الفوز وفى كسب الزمن ، وهو كل ما كان فى طاقتنا أن نأمله ، أن نصدر الأوامر القاطعة بالسير فى القتال اليائس حتى النهاية . وقد ارتضى الجنرال ويفل هـــذه الأوامر واحتضنها وضغط على الجنرال بيرسيفال لتنفيذها . ومن الصواب أبدا ألا يعلم القائد فى الميدان بما يجرى من ريب فى ذروة الجهاز المشرف على ادارة الحرب ، وأن يتلقى توجيهاته سهلة وجلية . أما الآن وقد بان لى أن كل شىء قد انتهى فى سنغافورة فقد رأيت أن من الخطأ مواصلة مذبحة لا داعى لها ، وليس عندنا أمل فى الظفر ، باجبار المدينة الشاسعة على اقتحام أهوال معركة شوارع ، يذهب ضحيتها السكان الخائفون والقانطون والذين هيمن عليهم الذعر.وأخبرت الجنرال بروك رأيى فلقيته متفقا معى ، على ألا نفرض ضغطا من ناحيتنا

على الجنرال ويفل وأن نمكنه من اصـــدار القرار الذى لا مناص منه . والذى نتقاسم فيه المسئولية ٠

وفى يوم الأحـــد الخامس عشر من فبراير عـام ١٩٤٢ حل وقت الاستسلام وليس ثمة فى الجزيرة من احتياطى الغذاء للعسكريين أكثر من مقدار يكفى عدة أيام ، كما نفد عتاد المدافع ولم يبق وقود للسيارات ٠ والأدهى من هذا كله أن تموين الماء لم يكف أكثر من أربع وعشرين ساعة أخـرى ٠ ونصح كبار ضـباط الحامية قائدهم الجنرال برسيفال ، بأن الاستسلام هو الطريق الوحيد لأن القوات المجهدة لم يعد فى طاقتها أن تقوم بهجوم مضاد وقرر برسيفال الاستسلام وطلب اليابانيون أن يكون مجردا بلا قيـد أو شرط ، فقبل طلبهم ٠ وفى الثـامنة والنصف مساء توقفت العمليات الحربية ٠

بالرغم مما حدث من تعديل فى حكومتى ، لم يتأثر مركزى طوال هذه المدة من الاضطراب السياسى ، والتغيرات فى الوطن ، والكوارث فى الخارج وكانت المشكلات التى تحدث من ساعة الى أخرى تشغلنى كثيرا ، حتى انه لم يكن عندى وقت كاف للتفكير فيها ٠وبان أن سلطاتى الشخصية قد قواها ما حام حول بعض رفاقى الوزراء أو الأشخاص الذين يصحبونهم ، من ريب ، ولم أقاس من الرغبة فى التخلى عن بعض مسئولياتى ٠ وكان ما أرغب فيه هو الموافقة على ما أريده بعد نقاش معقول ٠ وقد قربت الكوارث بينى وبين رؤساء أركان الحرب ، وقد شعرت كل دوائر الحكومة بهذه الوحدة ٠ ولم تكن هناك همسات عن دسائس أو شقاق فى وزارة الحرب ، أو فى صفوف مجلس الوزراء الأكبر حجما ، ومع ذلك كان ثمة ضغط متواصل من الخارج لتغيير أساليبى فى توجيه دفة الحرب ٠ للحصول على نتائج أفضل من النتائج الحالية ٠ وكانت النظرية المسيطرة تقول ٠ كلنا مع رئيس الوزراء ، ولكنه مجهد بالعمل ، ويجب أن نرفع عن عاتقه بعض الاثقال ٠ وكانت ثمة نظريات أخرى ٠ لكننى كنت مصرا اصرارا تاما على الاحتفاظ بكل سلطاتى فى توجيه دفة الحرب ٠ ولايستطاع تحقيق هذا الا بالجمع بين منصبىّ رئيس الوزراء ووزارة الدفاع ، وفى العادة تكون المشقة والجهد فى الانتصار على المعارضة وتسوية الآراء المتعارضة والمتضاربة ، لا فى اصدار القرارات نفسها ، ومن المهم جدا أن يكون ثم فى القمة عقل واحد يهيمن على كل الميادين ٠ ويعالج بصدق وتصوب أخطاؤه باخلاص ٠ بشرط ألا يكون هذا العقل مقسما ٠ ولن أظل طبعا فى منصب رياسة الوزارة ساعة واحدة اذا حرمت منصب وزارة الدفاع ٠ وكان ادراك الجميع لهذه الحقيقة سببا فى ابعاد أى تحد لى ٠ حتى فى أشد الأوقات واقساها ٠ وهكذا تدهورت أكثر الاقتراحات الصادرة عن نية حسنة . أو المتضمنة انشاء لجان أو أجهزة عامة ٠ ويلزمنى

أن أسجل هنا شكرى العميق لكل هؤلاء الذين أعانونى على التغلب على هذه المشقة ٠

وكُتب علينا أن توافينا سنة ١٩٤٢ برجّات في غاية القسوة ٠ ففى الأشهر الستة الأولى منها ، تعثرت الأمور تعثّرا مخيفا ، وكانت معركة الاطلنطى أقسى الجبهات ـ فقد زاد أسطول الغواصات الى ما يقرب من مائتين وخمسين غواصة ٠ وكان فى طاقة الأميرال دونتس أن يبلغ الفوهرر أن مائة منها على الأقل تعمل مع خمس عشرة غواصة أخرى تخرج الى عرض البحر كل شهر ٠ وبدأت هذه الغواصات تشق المياه الامريكية متحدية أية رقابة أو هيمنة ٠ ووصلت خسائر شهر يناير الى احدى وثلاثين باخرة ٠ حمولتها مائتا ألف طن ، غرقت على كثب من الساحلين الأمريكى والكندى ٠ وامتد الهجوم بسرعة جنوبا الى هامبتون رودز وراسى هايتراس ومن ثمة الى ساحل فلوريدا ٠ وقد حدث هجوم على الممر المائى الكبير فى ظرف كانت البواخر الامريكية والحليفة ليس فيها سلاح للمقاومة ٠ وعلى امتداد هذا السبيل يسير أسطول ناقلات البترول الثمين سيرا متواصلا من موانى النفط الى فنزويلا وخليج المكسيك ثم اليها ٠ وقد وجدت الغواصات لها هنا فى البحر الكاريبى فرائس ثمينة من الناقلات ٠

وهوجمت بواخر الدول المحايدة دون تمييز ، وآتسعت دائرة المذبحة اسبوعا بعد أسبوع ٠ وفى شهر فبراير حطمت الغواصات احدى وسبعين باخرة حمولتها (٣٨٤) ألف طن فى الأطلنطى ، غرقت كلها ما عدا باخرتين فى المنطقة الأمريكية وكان هذا أقصى رقم قياسى فيما تحملناه من خسائر حتى الآن . ولكن هذا الرقم تحطم بسرعة أيضا ٠

وقد تم كل هذا التحطيم الذى بز كل ما عرفناه فى هذه الحرب ٠ وأنا لم يبلغ أرقام النوازل التى منينا بها فى أسوأ أيام سنة ١٩١٧ على أيدى مالا يربو على اثنتى عشرة أو خمس عشرة غواصة تعمل فى المنطقة فى وقت واحد ٠ واستمرت الحماية التى يقدمها الاسطول الامريكى بضعة أشهر ، غير كافية بصورة تدعو الى اليأس ٠ ومن المحير انه ابان عامين من دنو الحرب الجماعية من القارة الأمريكية لم تتخذ وسائل وقائية أكبر ضد هذا السلاح الفتاك ٠ وكانت أمريكا قد قدمت لنا كل شىء بمقتضى سياسة الرئيس القائلة بتقديم كل معونة الى بريطانيا ماعدا ـ الحرب ٠ وكنا قد نلنا خمسين مدمرة أمريكية قديمة وعشر بواخر من مكافحات التهريب ، مقابل القواعد النفسية فى جزر الهند الغربية ٠ ولكن ها هى

ذى حليفتنا تفتقد هذه القطع الآن • فقد أخذ المحيط الهادى بعد معركة ميناء الدر يضغط بشدة على أسطول أمريكا ، ومن العجيب حقـــا أنهـم بالرغم من كل ما حصلوا عليـــه من بيـــانات عن اجراءاتنا الدفاعية خوضهم الصراع وبعده ، لم يضعوا خططا للقوافل الساحلية أو حراســة سفنهم الصغيرة الكثيرة • ولم يطوروا سلاحهم الجوى الدفاعى الســاحلى كذلك • ولم يجتز السلاح الجوى الأمريكى الذى يشرف على كل الطائرات الحربية العاملة فى قواعد ساحلية ، أى تمرين على حرب مكافحة الغواصات فى حين كان الاسطول وهو المعد بالطائرات العائمة والطائرات البرمائية ، يحتاج الى الوسائل لمـكافحة هذه الغواصـات • وليس ممـكناً فى هـــذه الأشهر الصعبة ايجاد جهاز دفاعى أمريكى فعـــال ، الا بخطى عسيرة تتوقف بين وقت وآخر •

ولو دفع الألمان ببوارجهم العائمة الضخمة فى معركة الأطلنطى فى هذه المرحلة لكانت خسائرنا أثقل وأضخم ، ولكن هتلر كانت تهيمن عليه الفـكرة التى تقول أننا ننوى غزو شـمال النرويج فى وقت مبكر وهـكذا ضحى بفرصة وضاءة تصميما منه على خطته التى تستهدف القتال فى جبهـــة واحدة فى آن واحد ، اذ جمع كل ما اســتطاع من قطع بحرية ومن غواصات نفيسة فى المياه النرويجية • وكان يقول : ان النرويج هى مكان الغدر فى هذه الحرب • وبالطبع كانت النرويج مهمة للغـاية ولـكن فرصة الألمـان كانت فى الأطلنطى اذ ذاك • وأراد أمراء البحرية أن يستدرجوه الى شن هجوم بحرى ، ولـــكن فوهررهم اسـتمر جامدا كالصخرة ، وقد فوت ندرة الوقود قراره الاستراتيجى وقد أرسل فى شهر يناير بارجته الوحيدة « تيربيتز » وهى أقوى بارجة فى العالم ، الى تروند هايم ، وفى الثـــانى عشر قرر أن يســـتدعى الى موانىء الوطن الطرادين ، البتروجتين شهارنهورست وجنتزناو اللذين أجهز عليهمـــا بالحصار فى ريست منذ سنة تقريبا • وقد دفع هذا الى حادث سبب كثيرا من التوتر والثورة فى انجلترا مما يستدعى البيان والتوضيح •

كان مامُنينا به من خسائر بالغة فى البحر المتوسط ، والشـــلل المؤقت الذى أحدق بأسطولنا الشرقى كله ، من الدوافع التى أجبرتنـــا على أن نرسل كل ما لدينا من الطائرات حاملات الطوربيد الى مصر للدفاع عنها ضد ما يتوقع من غزو بحرى • ولكنا اتخذنا فى الوقت نفسه كل التأهبات المستطاعة لمراقبة بريست ومهاجمة أية محـــاولة للخروج قد تقوم بها البارجتان بالقنابل وبالطوربيدات فى الجو والبحر • وبثثنـــا

الألغام على امتداد الطريق الذى يتوقع مرور البارجتين به مجتازة بحر المانش والساحل الهولندى . وارتقبت الأميرالية أن تجرى المحـــاوله لاجتياز مضايق دوفر فى الليل ، ولكن الأميرال الألمانى فضّل استغلال الظلام لتفادى دورياتنا حين تركه بريست ، والمخاطرة بالمرور أمام مدافع دوفر فى وضح النهار وهكذا أبحر من تريست فى الحادى عشر من فبراير قبيل منتصف الليل . وكان صباح الثانى عشر كثيف الضباب . وحينما أبصرت بارجتنا العدو ، عجز رادار طائرات دورياتنا عن تحديد موقعهما ، وعجز رادارنا الساحلى أيضا عن هذا التحديد . وتراءى لنـا حينئذ أن الأمر ناتج عن حادث طارىء بسبب سوء الحظ . ولكننا عرفنـــا بعد انتهاء الحرب أن الجنرال مارتينى رئيس الرادار الألمانى قد وضع خطـــة متقنة وكانت التأثيرات الألمانية المضادة على أجهزتنا حتى هذا الوقت غير مفيدة . ولكنها تضاعفت بفضل ادخال أجهزة حديثة . ولكن خوفاً من اثارة شبهات قواتنا الجوية شرعت هذه الأجهزة فى عملها بصورة تدريجية، بحيث لا تبدو التأثيرات المضادة بصورة جلية الا يوما بعد آخر ولهـــذا لم يرتب عمال اللاسلكى لدينا فى أى شىء ، ولم تخـــالط الريب أى انسان فى وجوه شىء غير عادى . ولكن التأثيرات المضـــادة كانت يوم الثانى عشر قوية ، لدرجة أضحت معــه أجهزة الرقابة الرادارية غير مفيدة . ولم تتلق الأميراليـــة الأخبـــار الا فى الســـاعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والعشرين وقد وصلت البارجتان مع القوات الحارســة لها جوا وبحرا . الى مدى عشرين ميلا من بولون . وقذفت مدافع دوفر بعد الظهر نيرانها الحامية ، وقامت خمسة زوارق من قاذفات الطوربيد فورا بهجوم فى البحر ومن قاعدة مانســـتون فى « كنت » قامت ست طائرات من حاملات الطوربيد بقيادة الكوماندور ايزموندبهجوم دون ارتقاب معاونة عشر طائرات من قاذفات اللهب كانت فى سبيلها لمعاونتهـــا . وهاجمت مقاتلات العدو طائراتنا بقوة ولكن هذه اسـتطاعت أن ترمى طوربيداتها بعد أن منيت بخسائر شديدة ، فقد خسرت الطائرات الست . ولم ينج غير خمسة من رجالها . ومنح ايزموند وسام صليب فكتوريا بعد وفاته .

واستمرت موجات متتالية من القاذفات وحاملات الطوربيـــد تهاجم العدو حتى نزول الظلام . وكان ثمة قتال شديد مضطرب مع المقاتلات الألمـــانية منيها خلاله بخسائر شديدة تفوق خسائر العدو . وذلك لتفوقه فى العدد علينا . وحينما دنت بارجتا العدو من الساحل الهولندى فى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر هاجمتها خمس مدمرات قامت من

قاعدة « هارويش » وأطلقت عليها الطوربيدات من مســـافة ثلاثة آلاف ياردة تحت ضغط نيران مرعبة • وذهب السرب الألماني دون أن يصاب من نيران البطاريات الساحلية أو من الطوربيدات ، وفي صباح الثالث عشر وصلت كل قطعة سالمة الى أرض الوطن • وقد حيرت هذه الأخبار الرأى العام البريطانى الذى لم يمكنه أن يفهم ما قرأه « الا على أســـاس أنه برهان على سيادة المانيا على بحر المانش » • وفي سرعة استبان جهاز مخابراتنا السرية ، أن البارجتين ، الطرادتين شارنهورست وجينزناو قد أصيبتا بالغامنا التى القيناها من الجو ، وقد مضت ستة أشهر قبل أن يتمكن جينزناو من استئنافه العمل ، أما شارنهورست فلم يرجع قط الى الظهور فى البحر ، ولكننا لم يمكننا اذاعة ذلك • واستمر غضب الشعب مهيمنا وقويا •

ورغبـــة منا فى محو الريب قررنا عمل تحقيق رسمى قام بنشر ما سردته منحقائق واذا تطلعنا الى الحقائق على هدى ما تبيناه فيما بعد وعلى هدى الجهات العامة • فان سير القصة كان لمصلحتنا تماما • وأبرق الرئيس يقول : وحينما أتحدث الى الشعب فى الاذاعة مســـاء الاثنين القـــادم • سأومىء الى أولئك النـــاس الذين يتكلمون عن قصة القناة الانجليزية وكأنها هزيمة • وأنا أكثر يقينا الآن بأن حصر كل البــواخر الألمـــانية فى ألمـــانيا سيجعل مشكلاتنا البحرية فى شــــمال الأطلنطى أقل صعوبة وأكثر سهولة ولكن الصورة ظهرت ســـيئة لكل شخص فى دولة الحلف الأكبر خارج دائرة حلقاتنا السرية •

وفى خلال ذلك كان التوتر مهيمنا على ساحل أمريكا المشرف على الأطلنطى وأرسل قائد احدى الغواصات تقريرا الى الأميرال دونتس يقول فيه : انه لو زاد عدد الغواصات الى عشرة أضعاف فانها تجد أهدافا يسيرة المنـــال وكانت الغواصات تستجم فى قاع البحر طوال النهار ، وحينما يحل المساء تبادر الى افتراس أثمن صيد لها • وكان كل طوربيد تحمله يلقى فريسة له • وحينما ينتهى ما تحمله منطوربيدات ، تســـتخدم مدافعها وتحقق بها النتائج التى ترغب فيها • وكانت المدن الواقعة على ساحل الاطلنطى ، والتى تستمر واجهاتها المائية مضـــاءة طول الليل كله ، تسمع كل ليلة أصوات المعركة ، وتبصر الحرائق الناتجة عما يغرق من بواخر قرب الساحل ، فتبادر الى انقاذ الناجين والغرقى • وقد احتدم الغضب واحتدمت المرارة من الادارة الامريكية التى غدت حائرة • ولكن يظل من الأيسر استثارة ــ الامريكيين لارهابهم وازعاجهم •

وكنا في لندن ننظر الى هذه الكوارث بعيون يملؤها الاسى والقلق وفي العاشر من شهر فبراير قدمنا اربعا وعشرين سفينة من أحسن السفن المقاومة للغواصات لدينا والمعدة أحسن اعداد ، وعشر سفن أخرى من ذات المدفع الواحد مع بحارتها الى الأسطول الأمريكي • واحتفت حليفتنا بهذه الهدية النفيسة التي وصلت أولى قطعها الى نيويورك في اليوم الأول من مارس • وكانت هذه المعونة يسيرة الا أنها كانت أقصى ما وسعنا تقديمه ولم يكن في الوسع تجهيز قوافل ساحلية الى أن يتم اقامة تنظيم خاص به تسنده وحدات الحراسة • وأسند أولا الى الطائرات والسفن الحربية المتيسرة الدفاع عن المناطق المهددة فبدأت غواصات العدو تتفادى هذه المناطق وتفتش عن صيد في مناطق أخرى وانصب الضغط الشديد الآن على المنطقة الواقعة بين شارلستون ونيويورك ، في حين كانت الغواصات الفردية تسير خلال مياه الكاريبي وخليج المكسيك ، بحرية وانطلاق كان من العسير توقفهما ووصلت حمولة السفن الغرقى الى ما يقرب من نصف المليون طن . وقد غرق أكثرها على مدى ثلاثمائة ميل من الساحل الامريكي ونصفها من ناقلات النفط • ولم تنجح الطائرات الأمريكية في اغراق أكثر من غواصتين في المياه الأمريكية ، ولم تتمكن البوارج العائمة من اغراق أية غواصة حتى الرابع عشر من ابريل ، حينما أغرقت المدمرة الأمريكية « روبر » غواصة ألمانية •

وفي أوربا انقضى شهر مارس بمغامرة سان نازير البطولية الهائلة وكان هذا هو الميناء الوحيد على ساحل الأطلنطي ، الذي يُمكّن تربيتز أن تقصد اليه لاصلاح ما يلحق بها من دمار اذا اصيبت • فاذا أمكن تحطيم أحواض السفن فيها ، وهي من أكبر الأحواض في العالم • فان خروج تيربيتز من تروند هايم الى الأطلنطي يصبح في غاية الخطورة ولا يستوجب المغامرة وكان فدائيونا تواقين لاقتحام المعركة ، وهنا يظهر العمل المجيد ، ويتعلق بأعظم ما في الحرب من خطط استراتيجية • وبعد ظهر السادس والعشرين من مارس تحركت من ميناء فالماوث حملة من المدمرات والسفن الساحلية الخفيفة بقيادة الكوماندور رايدر من الاسطول الملكي ، والعقيد نيومان من كتيبة ايسكس ، تقل ما يقرب من مائتين وخمسين فدائيا • وكان عليهم أن يجوبوا أربعمائة ميل من البحر الذي تسير فيه دائما دوريات معادية • ثم يصعدوا خمسة أميال في مصب نهر اللوار •

وكان الغرض هو تدمير أبواب القفل الكبير • وتقدمت كامبلتاون ، وهي احدى المدمرات الأمريكية الخمسين القديمة ، تحمل ثلاثة أطنان

من المتفجرات الشديدة الى مداخل القفل ، تحت بأس نار شديدة قوية ، وهنا أُغرقت المدمرة تمهيدا لاغرافها ، وجهزت الفتائل والـكبسولات لتفجير ما تحمله من متفجرات تحت اشراف مساعد الكوماندور بيتى • ووثب من فوقها الرائد كوبلاند مع جماعة معدة للنزول لتحطيم أجهزة الأحواض • وواجههم الألمان بقوة رائعة ، وبدأ قتال وحشى ، وقتل كل الذين أنزلوا أو أسروا ما عدا خمسة فقط • واستمرت سفن الكوماندور رايدر عائمة بمعجزة بالرغم من اطلاق النار عليها من كل النواحى ، الى أن أمكن الافلات الى البحر بمن بقى على متنهـا ورجعـوا سالمين الى الوطن • لكن انفجارا كبيرا سيقع فيما بعد ، بسبب حدوث خطأ فى الكبسولات ، وفى اليوم التالى ، وكان عدد كبير من الضـباط الالمان والفنيين يقومون بتفتيش حطام المـدمرة كامبلتاون التى أغرقت ونفـذت المياه اليها فى بوابات القفل ، قضى على مئـات من الألمـان حينما انفجرت المدمرة بصورة مفزعة ، واهتزت جوانب القفل الكبير المدة الباقية من الحرب • وعامل الألمـان الأسرى باحترام بالغ ، وكان قـد أنعم على أربعة منهم بوسام صليب فكتوريا ، فى حين انزلت عقوبة شديدة بالفرنسيين البسلاء الذين بادروا حين وقوع الحادث من كل مكان لمعاونة البريطانيين فى تنفيذ ما تصوروه بداية معركة التحرير •

وفى الأول من ابريل استطاع أسطول أمريكا فى النهاية أن يبدأ فى ترتيب قوافل جزئية • ولم يتجاوز هذا التنسيق فى بداية الأمر القيام بوثبات نهارية مسافة الواحدة منها مائة وعشرون ميلا تقطعها القوافل كل نهار بين الموانى التى تحرسها حراسة قوية ، وفى الليل تتوقف حركة الملاحة جميعها • وكان ثمة ما يقرب من مائة وعشرين باخرة تفتقر الى الحماية كل يوم بين فلوريدا ونيويورك ، وكان هذا التأخر فى التنقل كارثة ولكن بصورة أخرى • وفى الرابع عشر من مايو اقلعت القافلة الأولى المنسقة تنسيقا دقيقا من هامبتون رودز الى كى ويست ، وفى سرعة امتد التنظيم شمالا الى نيويورك ، وهاليفاكس ، ولم يأت آخر الشـهر حتى كانت الدائرة قد تمت على امتداد الساحل الشرقى من كى ويست الى الشمال • وهكذا كان الابلال فوريا ، وسرعان ما وقعت الخسائر •

وفى سرعة انتقل الاميرال دونتس بمراكز هجومه الى البحر الكاريبى وخليج المكسيك ، حيث أن نظام القوافل لم يكن قد اتبع بعد • وانفسحت نواحى نشاط الغواصات فبدأت تظهر أمام ساحل البرازيل وفى نهر سنت لورنس ، ولم يكن فى الوسع اتمام نظـام القوافل ليغطى كل هـذه

البحار والمحيطات الواسعة قبل آخر العام • ولكن شهر يونية شهد تقدما جلياً ، وفي الوسع اعتبار الأيام الأخيرة من شهر يونيه نهـــاية المجزرة الشنيعة التي نزلت بالبواخر على الساحل الامريكي • ووصلت خســائر الحلفاء في الاطلنطي من الغواصات في سبعة أشهر الى أكثر من ثلاثة ملايين طن ، شملت (١٨١) باخرة بريطانية حمولتها (١٣٠,٠٠٠ر١) طن ، أدنى من عشرها كان مع القوافل • وحتى شهر يوليه لم يخسر العدو أكثر من أربع عشرة غواصة غرقت في الأطلنطي والمحيط المتجمد الشمــالي ، غـرق منها ست فقط في مياه أمريكا الشمالية •

واستردذنا زمام المبادرة بعد هذا التاريخ •فأغرقنـــا في شهر يوليه وحده خمس غواصـــات على ســـاحل الأطلنطي الى جانب ســت غواصات ألمانية أخرى وثلاثة ايطالية اغرقت في مناطق نائية . ودفع هذا الرقم القياسي الذي وصل في شهر واحد الى اربع عشرة غواصة نصـفهـا بالبوارج الحـارسة للقوافل ، الى بعث الشـــجاعة والرجاء في نفوسنا ، لقد كانت أحسن نتيجـــة حققنـــاها حتى الآن • لـكن عدد الغواصات التي كانت تنزل الى البحر كل شـــهر ما برح متفوقا على ما نغرقه منها وكان الاميرال دونتس الى جانب هذا يغير أماكن غواصاته في الوقت الذي كنا نبدأ انتصاراتنا ، فانفساح آفاق المحيطات يضمن باستمرار وقتا قصيرا من الحصانة في منطقة جديدة • وفي شهر مايو فقدت قافلة من عابرات الأطلنطي سبع بواخر على مدى سـبعمائة ميـل الى الغرب من ايرلنده • وسرعان ما ادركتنـــا كارثة أخرى قرب جبل طارق ، وعادت الغواصات من جديد تظهر حول فريتاون . وقدم هتلر مرة أخرى لنجدتها بتصميمه على ابقاء عدد من الغواصـــات متأهبة لاحبــاط محاولة الحلفاء القيام بالاســـتيلاء على جزر الآزور أو جـــزر ماديرا ، ولم تكن فكرته في هذه الناحية في غير مكانها ، ولكن طلبه أتى متسقا مع القضاء أيام الهدوء على الساحل الأمريكي كان أســوا ما ينـزل بنا هو هجمات الغواصات ، وكانت الحكمة تقضي على الألمان بالمقامرة بكل شيء على هذا النحو ، واني لأذكر ما كان يقوله أبي : « يجب أن تتمسك في دنيا السياسة بما تضع يدك عليه » .

ولا مرية في أن هـذه الحكمة تنطبق على الأسس الاســتراتيجيــة كذلك وكما كان جورنج ينقل دائما أهدافه الجوية في معركة بريطانيـــا سنة ١٩٤٠ ، كذلك وهنت الآن حرب الغواصات من جـــراء عوامل الجذب المنافسة ، قد يكون من الأفضل هنا أن ننتقل الى سرد الأحـداث

فى أماكن أخرى وأن نسجل فى ايجاز تطور معركة الأطلنطى حتى آخر سنة ١٩٤٢ .

ففى شهر أغسطس حولت الغواصات عنايتها الى المنطقة المحدقة (بتر ينيداد) والساحل الشمالى للبرازيل ، وجعلت أهدافها البواخر التى تحمل مسحوق الألومنيوم اللازم لصناعة الطائرات الى أمريكا ، والبواخر التى تنقل المؤن الى الشرق الأوسط ، وكان بعضها يعمل على كثب من فريتاون ، فى حين نزل بعضها الآخر جنوبا قرب رأس الرجاء الصالح ، وتوغل عدد قليل فى المحيط الهندى . وأصبح جنوب الأطلنطى مبعث ازعاج لنا فترة من الزمن ، وفى شهرى سبتمبر واكتوبر غرقت خمس بواخر كبيرة للركاب كانت تبحر منفردة ، فى حين استطاعت كل سفننا الحاملة للجنود والمتجهة الى الشرق الأوسط فى قوافل ، أن تمر بسلام دون أن تصاب وكانت لاكونيا التى تحمل عشرين الف طن ضمن البواخر التى غرقت وعلى متنها ألفان من الأسرى الايطاليين كانوا فى سبيلهم الى انجلترا ، وقد غرق عدد كبير منهم .

واستؤنفت المعركة الآن فى طرق القوافل الرئيسية فى شمال الاطلنطى وكانت الغواصات قد أخذت تقدر قوة الهواء . ولهذا فقد حصرت جهودها فى هجماتها الجديدة فى وسط الأطلنطى بعيدة عن الطائرات العاملة من أيسلنده ونيوفوندلند . وفى شهر أغسطس أصيبت قافلتان بخسائر شديدة ، فقد غرق من احداهما احدى عشرة باخرة ، وأفلحت الغواصات فى هذا الشهر فى اغراق مائة وثمانى بواخر تربو حمولتهما على نصف المليون طن . وفى شهرى سبتمبر وأكتوبر رجع الألمان الى أجرائهم السالف فى الغارات السطحية فى وضح النهار . ولما استخدموا أعدادا كبيرة فى مجموعات تشبه مجموعات الذئاب للقيام بالهجوم ، ولما كانت مواردنا محدودة ، فانه لم يكن فى طاقتنا أن نتفادى الخسائر الشديدة وخاصة أننا فقدنا العدد الكافى من الطائرات البعيدة المدى جدا فى القيادة الساحلية . وكان الغطاء الجوى يمتد الى مسافة تبعد ستمائة ميل عن قواعدنا الساحلية وأربعمائة ميل عن نيوفوندلند ، مما جعل هناك فجوة كبيرة فى وسط المحيط الأطلنطى تحتاج الى الحراسة ، حيث أن سفن الحراسة البحرية لا تستطيع أن تلقى مساعدة من الجو . ولكن طيارينا بذلوا المستحيل فى هذه الأوقات المرهقة العصيبة .

ولم يكن في امـــكان سفن الحراسة البحرية أن تحوم بعيـــدا عن القوافل لتفريق أمر الحشود الهائلة من غواصات العدو على الأجنحة ، وهكذا كان في امكان مجموعات الذئاب حين تهاجم قوافلنا أن تستأصل دفاعنا كله ، وكان العلاج الوحيد أن تحـاط كل قافلة بعـــدد كاف من الطائرات للعثور على الغواصات القريبة واجبارها على الغوص في الماء . مما يفتح السبيل أمام قوافلنا . ولم يكن هذا العـــلاج كافيا لأنه كان يجب علينا أن نبحث عن هذه الغواصات ونهاجمها بشدة أينما وجـدت سواء في البحر أو الجو . وكانت الطيارات والطيارون المدربون والأسلحة الجوية قليلة ، ولكننا شرعنا في تشكيل وحدات من القوات السطحية ، سميناها « المجموعات المؤازرة » .

ومنذ وقت طويل كنا ندعو الى هـــذه الفكرة ، ولكننا كنا نحتاج الى الوسـائط . وكانت أولى هذه المجموعات التي غدت فيما بعد عاملا مهما للغاية في حرب الغواصات ، تتكون من سفينتين من ذوات السرية الواحدة ، وأربع « فرقاطات » حديثة من الصنف الذي أخذت أحواضنا تنتجـــه ، وأربع مدمرات ، وعن طريق البحـــارة المدربين والخبراء ، وبوساطة الأسلحة الحديثة إستطاعت هـــذه المجموعات التي تعمـل مستقلة عن وحدات الحراسـة مع القوافل ، والتي لا تجهدها المسئوليات الأخرى ، أن تؤدي واجبها ، بالتعاون مع السـلاح الجوي ، في التفتيش على الغواصات واصطيادها ، وتحطيمها . وفي سنة ١٩٤٣ غدا الأجراء أن ترشـــد الطائرة في « المجموعة المؤازرة » الى مكان فريستها وتدفع مطاردة غواصة واحدة إلى إســـتبانة رفيقاتها ، مما يعـــرض « قطيع الذئاب » كله لخطر الاكتشاف .

واستطعنا أيضا أن نؤمن العدد اللازم من الطـــائرات لمصاحبة القوافل ولم تأت نهـاية عام ١٩٤٢ حتى قامت ســت حاملات بواجبهـا . وتم تشييد عدد من الحاملات في أمريكا الى جانب ما يصنع في بريطانيا ، وفي شهر سبتمبر صاحبت احداها وتدعى « المنتقم » قافلة متجهـة الى شمال روسيا . وأخذت هذه السفن الحديثـة تظهر ظهـــورا مؤثرا مع القوافل المتجهـــة الى شـــمالي افريقيـــة في أواخر أكتوبر . وكانت طائرات « السورد فيش » العاملة من متنها تقوم بعمليات الاستكشـاف الى مسافات بعيدة . مســـتقلة عن القواعد الجوية على البر ، وبالتعاون مع سفن الحراسة السطحية . وهكذا استطعنا أن نبدأ في الربح عن طريق الجهد المستمر والاختراع ولكن قوة العدو كانت تتضاعف كذلك ، وكان يجب علينا أن نقابل عددا من النكسات .

وفيما بين يناير وأكتوبر عام ١٩٤٢ تضاعف عـدد الغواصات . فقد كانت (١٩٦) غواصة تعمل فى عرض البحار ، وتصدت قوافلنـا فى شمالى الاطلنطى لهجمات من « قطعان الذئاب » بصورة أشد وأضخم من أى وقت مر . وكان يجب أن ندخر من قوات حراسـتنا لافتقارنا اليها فى عملياتنا الرئيسية فى شمالى أفريقية وهكذا وصلت خسائرنا فى نوفمبر إلى أقصى رقم وصلت إليه فى الحرب كلها اذ فقـدنا عن طريق الغواصات وحدها (١١٧) باخرة ، حمولتها أكثر من سبعمائة ألف طن ، الى جانب مائة الف فقدناها بفضل عوامل أخرى .

وهكذا غدا الوضع فى المياه الخارجية خطيرا للغاية . مما أجبرنى فى الرابع من نوفمبر على أن أتولى شخصيا الدعوة الى تكوين لجنة جديدة لمكافحة الغواصات . وقد أدت باصدارها قرارات بعيدة المدى دورا مهما فى الصراع ، ورغبة منا فى محاولة اطالة مدى طائراتنا الليبراتور الحاملة للردار ، قررنا سحبها من العمل الى أن يتم ادخال التعديلات الواجبة ، وتلبية لطلبى أرسل الرئيس كل الطائرات الأمريكية الصالحة ، المعدة بأحدث وسائل الرادار للعمل من بريطانيا ، واستطعنا فورا أن نستأنف العمليات فى خليج بسكاى بقوات أضخم وبمعدات أحسن ، وكتب لهذه الجهود أن تؤتى ثمارها فى عام ١٩٤٣ .

انتصارات أمريكا البحرية
بحر المرجان وجزيرة ميدواى

حدثت الآن في المحيط الهادى حوادث مثيرة ، أثرت على سير الحرب كلها .

فلم تأت نهاية شهر مارس حتى كانت المرحلة الأولى من خطة اليابان الحربية قد حققت فوزا تاما ذهل واضعوها أنفسهم . فقد هيمنت اليابان على هونج كونج وسيام والملايو وكل منطقة الجزر الرائعة التى تؤلف جزر الهند الشرقية ، وكانت القوات اليابانية تتوغل فى بورما توغلا عميقا . وما فتئت القوات الأمريكية تحارب فى كوريجيدور فى الفلبين ، ولكن بغير أمل .

وقد وصلت أمجاد اليابان الى قمتها ، فالاعتزاز بالانتصارات العسكرية والثقة فى القيادة ، عززا الاعتقاد بأن الدول الغربية ليس لديها رغبة فى القتال حتى النهاية . وقد وقفت جيوش الامبراطورية على الحدود التى اختيرت لها فى الخطط التى جهزت قبل الحرب لتكون الذروة النهائية فى التقدم . وكان فى امكان اليابانيين فى هذه المنطقة الرائعة التى تشمل موارد وثروات لا حد لها ولا حصر ، أن يوطدوا أقدامهم ويركزوا فتوحاتهم ، ويطوروا هذه القوة التى نالوها حديثا .

وكانت خطتهم المجهزة منذ وقت طويل ، توجب التوقف فى هذه المرحلة فترة للاستجمام قليلا ، ومقاومة أى هجوم أمريكى مضاد وترتيب زحف جديد . ولكن تراءى للقادة اليابانيين فى هذا النصر المتألق ، أن ساعة تحقيق آمالهم قد قربت ، وعليهم والحالة هذه أن يكونوا ذوى كفاية لها . وقد وجدت هذه الأفكار لا من مجرد اغراء غريزى يتعرض له الناس من الانتصار المذهل فقط ، بل من التفكير العسكرى السليم وبان لهم أن مشكلتهم الاستراتيجية المتعادلة تقوم على اختيار احد أمرين ، ترتيب قطاعهم الحديث ترتيبا كليا ، أو التقدم الى الأمام والخوض بعمق لتأمين الدفاع عن هذا القطاع .

وبعد مشاورات طوكيو تقرر اللجوء الى السبيل الأكثر طموحا ، وامتداد قبضتهم لتهيمن على جزر الأليوشان الغربية وجزيرة ميدواى ، وجزيرة ساموا ، وجزر فيجي ، وكاليدونيا الحديثة ، وميناء مورينى فى جنوب غينيا الجديدة . وسيهدد هذا الامتداد ميناء الدر الذى ما فتىء قاعدة أمريكا الرئيسية ، كما أنه اذا حوفظ عليه تماما سيدفع الى قطع المواصلات المباشرة بين أمريكا واستراليا ويؤمن لليابان قواعد مناسبة لشن هجمات أخرى فى المستقبل .

وقد أبدت قيادة اليابان العليا غاية الجرأة والعبقرية فى وضع خططها وتنفيذها ، ولكنها بدأت على مبادىء لم تقدر فيها القوى الدولية فى نسبها السليمة . ولم يمكن هذه القيادة قط أن تدرك القوة الكامنة لأمريكا . وكانت حتى هذا الوقت توقن أن المانية هتلر ستنتصر فى حرب أوروبا . وشعرت فى أعماقها برغبة عارمة فى قيادة آسيا الى فتوحات لا حد لها ولا حصر ، وفى تحقيق أمجادها .

وهكذا إندفعت خلف مقامرة ، لو كتب لها النجاح ، ما غيرت من حقيقة الأمر شيئا غير اطالة هيمنتها عاما آخر ، ولكنها لما فشلت أسفرت عن اختصار مدى الهيمنة سنة كاملة . وهكذا دفعت هذه المغامرة فى واقعها الى إستبدال موقف قوى نسبيا ، وامتيازات أحكمت قبضتها عليها بهيمنة واسعة ، كان من الشاق عليها أن تحتفظ بها ، ولهذا فانها حينما هزمت فى هذه المنطقة الخارجية لقيت نفسها فى موقف تحتاج فيه الى القوى الكافية لخلق دفاع مترابط عن منطقتها الداخلية الأكثر حيوية وأهمية .

وبالرغم من ذلك لم يكن فى طاقة أحد فى هذه المرحلة من مراحل الصراع العالمى أن يتيقن من أن المانيا لن تستطيع تدمير روسيا أو اجبارها على التراجع الى ما خلف الأورال ، وأن تعود أدراجها بعد ذلك فتغزو بريطانيا ، أو تتفرق كحَلٍّ بديل عبر القوقاز وإيران لتلتقى مع طلائع اليابانيين فى الهند . ولارجاع الأمور الى نصابها الصحيح بالنسبة لدول الحلف الأكبر ، كان من الواجب أن تحصل أمريكا على نصر بحرى حاسم يضمن لها التفوق فى المحيط الهادى ، وأن كان لا يضمن لها الاشراف الكامل المباشر العاجل على هذا المحيط . وكتب لنا أن نحرز هذا النصر . وكنت أوقن باستمرار أن الاسطول الأمريكى سيسترد هيمنته على المحيط الهادى فى شهر مايو بما يمكننا تقديمه من مساعدات فى هذا الشهر . وكنت أبنى مثل هذه الآمال على حساب الانشاءات

البحرية الأمريكية والبريطانية الحديثة التى كادت تبلغ حد النضج ، والتى تشمل البوارج وحاملات الطائرات وغيرها من السفن الحربية الأخرى · وفى طاقتنا الآن أن نشرح صورة موجزة ، كما تقضى الضرورة، للمعركة البحرية المتألقة المذهلة ، والتى أكدت هذا الواقع العظيم ، فى صورة لا يتسرب اليها الريب ·

فى آخر شهر ابريل عام ١٩٤٢ بدأت القيادة العليا اليابانية سياستها التوسعية الجديدة . وقد شملت هذه الخطة إحتلال ميناء مورسبى وتولاجى فى جزر سليمان الجنوبية ، مقابل جزيرة جواد قنال الكبيرة . وبالاستيلاء على ميناء مورسبى تتم المرحلة الأولى من هيمنتها على غينيا الحديثة ، ويكفل ضمانة أخرى لقاعدتها البحرية الأمانية فى رباول فى جزيرة بريطانيا الحديثة .

وفى امكانها أن تبدأ من غينيا الحديثة ومن جزر سليمان محاصرة استراليا .

وفى سرعة علمت المخابرات الأمريكية أن جموعا يابانية فى هذه المياه ، فقد شوهدت قوات يابانية كبيرة تحتشد فى راباول قادمة من القاعدة الرئيسية فى ترول فى جزر كاولين · وأصبح التقدم صوب الجنوب أمرا واقعيا لا مناص منه . وكان من المستطاع أن يترقب الانسان بدء العمليات العسكرية فى الثالث من مايو ..

وكانت حاملات الطائرات الأمريكية متفرقة فى هذا الوقت ، تؤدى أعمالا مختلفة ، من بينها الهجوم الجرىء الرائع الذى شنه الجنرال دوليتل من الجو على مدينة طوكيو نفسها فى الثامن عشر من أبريل . ولا مرية فى أن هذا الحادث كان عاملا مهما فى تقرير السياسة اليابانية الجديدة .

وأحس الأميرال نيمتز بالخطر فى الجنوب ، فبدأ يحشد أقوى قوة ممكنة فى بحر المرجان (كورال) . وكان الرير أميرال فليتشر قد قدم الى هناك ومعه حاملة الطائرات يوركتاون وثلاثة طرادات ثقيلة .

وفى الأول من مايو انضمت اليه قوة مكونة من حاملة الطائرات ليكسينجتون ، وطرادين آخرين بقيادة الرير أميرال فيتش ، وقد قدمت من ميناء الدر ، وسرب آخر يقوده الرير أميرال البريطانى كربس وهو مكون من الطرادين الاستراليين « استراليا وهوبارت » والطراد الأمريكى « شيكاغو » ·

وكانت الحاملتان الآخـريان المتوافرتان الآن ، وهمـا انتر برايز وهورنيت ، تسهمان فى غزو طوكيو ، وبالرغم من صدور الأوامر اليهما بالتحرك بسرعة جنوبا للانضمام الى الأميرال فليتشر ، لم يمكنهما ادراكه حتى وسط شـهر مايو ، وكانت المعركة المرتقبة قد انتهت قبل هذا الوقت .

وفى الثالث من مايو كان الأميرال فليتشر يتزود بالوقود فى البحر على مدى أربعمائة ميل تقريبا جنوب جواد قنال ، حينما علم أن العدو نزل الى البر فى تولاجى مستهدفا انشاء قاعدة بحرية هناك فورا . ليراقب منها المداخل الشرقية لبحر المرجان . وقبل يومين تراجعت الحامية الاسترالية الصغيرة من هذا الموقع الأمامى نظرا للخطر القائم وقرر فليتشر أن يتحرك بمجموعته الأساسية الخاصة لمهاجمة الجزيرة لأن مجموعة فيتش كانت ما فتئت تتزود بالوقود . وفى صباح اليوم التالى هاجمت الطائرات العاملة من يوركتاون جزيرة تولاجى بقوة . وكانت القوات التى تغطى العدو قد تراجعت ، ولم يبق فى الجزيرة الا عدد من المدمرات والسفن الصغيرة .

ولهذ أتت النتائج مخيبة للرجاء .

ومضى اليومان التاليان دون حوادث تستحق الذكر ، ولكن كان من الواضح أنه سيحدث فى القريب صدام مسلح . وكانت مجموعات فليتشر الثلاث قد تزودت بالوقود . وأصبحت تؤلف وحدة واحـدة تقف جهة الشمال الغربى من غينيا الحديثة . وكان فليتشر يعلم أن القوة اليابانية التى تستهدف غزو ميناء مورسبى ، قد غادرت راباول ، وأنها قد تمر عبر مضيق جومارد فى أرخبيل لوياد فى السابع أو الثامن من الشهر . وكان يعلم أن بالمنطقة ثلاث حاملات معادية ، ولكنه لا يدرى مواقعها وكان من بين القـوة اليابانية الضـاربة حاملتا طائرات هما زويكاكو وشوكاكو ، وطرادان ثقيلان ، وقد قدمت الى الجنوب من ترول ، شرقى جزر سليمان وهى بعيدة عن متناول طائرات ــ الاستكشـاف ، وفى مساء الخامس من مايو دخلت بحر المرجان من جهـة الشرق . وفى السـادس منه كانت تدنو من قوة فليتشر ، وفى غضون الليل غدت على مدى سبعين ميلا منه ، ولكن كلا من الفريقين لم يعلم بوجـود الآخر ..

وعاد الفريقان فابتعد كل منهما عن الآخر فى الليل ، وفى السابع قدم فليتشر بوحداته الى الجنوب من أرخبيل لويزياد ، حيث قرر أن

يعسكر بها ليضرب قوات العدو ، وأصدر أمره الى مجموعة كريس بالتقدم لمراقبة المدخل الجنوبى لمضيق جومارد ، حيث ينتظر وصول العدو فى ذلك اليوم . وسرعان ما أكتشف العدو موقع كريس ، فأمطره بوابل من قاذفات الطوربيد ، وشن عليه من القواعد الساحلية هجمات عنيفة متعاقبة تشبه فى ضراوتها تلك التى أغرقت « الأمير ويلز » و « ريبالس » . ولم تصب وحدة من وحداتنا التى واصلت السير الى أن وصلت ميناء مورسبى ، بفضل القيادة البارعة ، وحسن الحظ .

ولما علم كريس بتراجع العدو ، انسحب جهة الجنوب .

وفى خلال ذلك ظلت حاملات الطائرات المعادية التى لم يعرف فليتشر عنها معلومات دقيقة ، أهم ما يشغله ويزعجه ، وعند الفجر بدأ حركة بحث واسعة النطاق ، وفى الساعة الثامنة والربع لقى جزاءه حينما بلغه نبأ يقول ان هناك حاملتين وأربعة طرادات معادية الى الشمال من جزر لويزياد ، ولم تكن هذه القوة التى شوهدت هى قوة العدو الضاربة ، بل قوة الحراسة الضعيفة التى تحرس سفن الغزو ، وبينها الحاملة الخفيفة « شوهو » .

على اى حال صوب فليتشر ضربته بأقصى مالديه من قوة ، وبعد ثلاث ساعات أغرقت « شوهو » . وقد افتقدت قوة الغزو بسبب هذا الحادث غطاءها الجوى وأجبرت على التقهقر .

وهكذا لم يكتب لسفن النقل المجهزة للتحرك الى ميناء مورسبى ، دخول مضيق جومارد ، وظلت واقفة الى الشمال من جزر لويزياد الى ان صدر اليها الأمر أخيرا بالانسحاب .

وهكذا كشف فليتشر موقعه للعدو ، فأصبح معرضا لأخطار فادحة ، وكان يجب أن يتوقع هجوما معاديا فى كل لحظة ، فى وقت لم يكن فى طاقته اعادة تسليح قوته الضاربة وتجهيزها لمعركة أخرى قبل العصر .

ومن حسن طالعه ان الجو كان سيئا ، بل انه أخذ يزداد سوءا . ولم يكن لدى العدو أجهزة رادار . وكانت القوة اليابانية الضاربة فى الواقع قريبة ومواجهة للمدافع شرقا . وبدأت هجومها بعد الظهر ، ولكن الطائرات لم يمكنها أن تميز أهدافها فى هذا الجو السيىء . وفى طريق عودتها الى حاملاتها دون تحقيق أهدافها ، مرت بالقرب من قوة

فليتشر فبدت على لوحات رادارها . وبعثت المقاتلات الأمريكية لتقطع عليها سبيلها ، وجرت معركة فى الظلام ومر فيها عدد من الطائرات اليابانية ، التى غادرت الحاملات والتى كان مجموعها سبعا وعشرين قاذفة قنابل .

واستطاعت بضع طائرات منها ان تعود سالمة لتشترك فى معركة اليوم التالى .

وتخيل كل من الفريقين ، ادراكا منه لقرب الفريق الآخر . انه يمكنه أن يشن عليه هجوما فى الليل بقوات سطحيه . ولكنهما قدّرا أن مثل هذا الهجوم سيكفهما كثيرا . فرجعا وابتعد كل عن الآخر ، وحينما طلع صباح الثامن من مايو تغير طالع الطقس ، ففدا اليابانيون فى حماية السحب المنخفضة ، فى حين كانت سفن فليتشر تستحم فى أشعة الشمس المشرقة . وبدأت عملية « الاستخفاء والاستكشاف » من جديد . وأخيرا استطاعت طائرة عاملة من «ليكسينجتون » أن تكتشف موقع العدو فى الساعة الثامنة والدقيقة الثامنة والثلاثين ، وان تلتقط اشارة لاسلكية معادية تنبىء عن اكتشاف العدو مكان الحاملات الامريكية . وهكذا أصبحت المعركة الكبرى محتملة بين قوتين متساويتين ومتكافئتين .

وقبيل الساعة التاسعة بقليل ، انطلقت قوة أمريكية ضاربة مكونة من اثنتين وثمانين طائرة من عقالها ، وفى الوقت نفسه انطلقت تسع وستون طائرة يابانية ، وفى الساعة الحادية عشرة بدأ الهجوم الامريكى ، وبعده بعشرين دقيقة بدأ الهجوم اليابانى ، وانتهت المعركة فى الحادية عشرة والدقيقة الاربعين ، وقد صادفت الطائرات الامريكية بعض المصاعب التى سببتها السحب المنخفضة عند الهدف . وبادرت احدى الحاملتين بالاختفاء تحت ستار من المطر الشديد ، على حين انصبت قوة الهجوم كلها على الحاملة الاخرى شوكاكو ، وقد اشتعلت فيها النيران عندما أصابتها ثلاث قنابل ، ولكن الاضرار كانت أقل كما بدت . فى الظاهر ، وعلى الرغم من أنها تعطلت عن العمل فى الوقت الحالى ، الا أنها تمكنت من أن تصل الى قاعدتها لاصلاحها ، أما الحاملة الأخرى زويكاكو فلم يمسها أى ضرر .

وفى خلال ذلك جرى الهجوم اليابانى فى جو واضح يستهدف الحاملتين : يوركتاون وليكسنجتون . واستطاعت الأولى بفضل المناورة البارعة أن تتفادى الاصابات الفتاكة تقريبا ، وان كانت قد تلقت بعض

الضربات ، فقد اصابتها قنبلة قضت على عدد كبير من رجالها واشعلت فيهـــا النيران ، التى لم تلبث أن حوصرت وأخمدت بسرعة ، واستردت الحاملة قدرتها على القتال بالرغم مما أصابهـــا وأثر فيهـــــا قليلا اما « ليكسـنجتون » فكانت أقل حظا ، اذ أنها تلقت اصابتين بالطوربيد وثلاثا بالقنابل ، ودهمتها النيران عقب انتهاء المعركة ، فأسرعت الى المينـــاء ، وقد غمرت المياه ثلاثة من مراجلها . وبعد محاولات جبارة أخمدت النيران وسُيطر على السفينة ، وراحت تعدو بسرعة خمس وعشرين عقدة .

وقدرت خسائر الطائرات فى هذه المعركة الجوية التى تعد الاولى من نوعها بين حاملات الطائرات ، بثلاث وثلاثين طائرة أمريكية وثلاث وأربعين طائرة يابانية . ولو أن حوادث بحر المرجان انتهت عند هـــذا الحد لكان ميزان النتائج فى صالح الأمريكيين قطعا . فقد أغرقوا حاملة الطائرات شوهو ، وأصابو الحاملة شوكاكو اصابات بالغة ، وأجبروا قوة الغزو المتجهة الى ميناء مورسبى على التقهقر . أما الحاملتان الأمريكبتان فما برحتا فى حالة طيبة ، وكانت خسارتهم الوحيدة حتى هذه اللحظة ناقلة زيت تابعة للاسطول ، ومدمرة مصـاحبة لهـــا . وقد اغرقتهمـا الحاملات اليابانية فى اليوم السابق ، وقد كان من المتوقع أن تحـــدث كارثة الآن ، فبعد ساعة من انتهاء المعركة ، سمع فى ليكسينجتون دوى انفجار عنيف ، شوهدت بعده النيران تشتعل فى كل مكان ، وقد تعــذر مكافحتها ، ولم تنجح كل الجهود التى بذلت لانقاذ الســـفينة ، التى هجرت فى هذه الليلة تفاديا لعدم وقوع خسائر أخرى فى الارواح ، وقد نسفها ــ طوربيد أمريكى ، وانسحب الفريقان من بحر المرجان ، وقـد زعم كل منهما أنه انتصر ، وزعمت الدعاية اليابانية اغراق بارجة وطراد الى جانب حاملتى طائرات الاميرال فليتشر ولكن أعمالهم بعـــد المعركة كانت تتناقض مع هذه الادعاءات فقد أرجأوا زحفهم نحو ميناء مورسبى حتى شهر يوليو على الرغم من انفتاح الطريق لهم الآن . وحينمـــا جاء شهر يوليه كان الوضع قد تبدل تماما ، وعدلوا عن خطتهم ، جريا وراء تقدم من جهة البر ، ما القواعد التى كانوا قد استولوا عليها فى غينيا الحديثة . وتشير هذه الأيام الى الحد الأقصى لتقدم اليابانين بحرا صوب استراليا .

وكان من أهم الضرورات الاحتفاظ بقوة حاملات الطائرات بالنسبة الى الجانب الامريكى . وادرك الاميرال نيميتس أن ثمة أحداثا أكثر أهمية يتوقع حدوثها فى الشمال ، وهى تســـتدعى منه جمع قوته وقد اقتنع

بوقف زحف اليابانيين فى الوقت الحالى جهة بحر المرجان • واستدعى الى ميناء الدركل حاملات طائراته ومن بينها انتر برايز وهورنيت اللتان كانتا تتجهان فى سرعة للانضـــمام الى فليتشر وكانت الحكمة تقضى بتكتم نبأ اغراق حاملة الطائرات ليكسينجتون الى ما بعد المعركة ميدواى ، لأن اليـــابانيين لم يكونوا على علم بحقيقة الوضع ، وكانوا تواقين الى الالمام بالمزيد من المعلومات •

وكانت هذه المعركة من حيث الاهمية التكتيكية التى علقت عليها لها تأثير لا يتناسب مع هذه الاهمية • ومن حيث الاستراتيجية كانت انتصارا أمريكيا مرضيا ، لأنه أول انتصار على اليابان ، ولم يشـهد التاريخ له مثيلا قبل ذلك ، فهذه هى أول مرة تتقابل فيها قطع بحرية سطحية ولا تتبادل طلقة واحدة • وقد حولت فرص الحرب ومخـــاطرها الى معركة جديدة • وفى سرعة البرق الخاطف طافت الانباء بكل مكان فى العالم ، باعثة التشجيع والرضا فى اســتراليا ونيوزيلنده ، الى جانب أمريكا نفسها • وسرعان ما طبقت الدروس التكتيكية التى تمت دراستها فى هذه المعركة ، والتى تكلفت ثمنا باهظا ، وفى معركة جزر ميدواى التى أحرزت فيها انتصارات عظيمة ، والتى دنت الآن من بدايتها •

ولم يكن التقـــدم صوب بحر المرجان الا المرحلة الاولى فى سياسة اليـــابان الاكثر طموحا • وفى الوقت الذى كانت تجرى فيه أول معركة كان ــ ياماموتو أميرال اليابان الاكبر ، يتأهب لتحدى قـــوة أمريكا فى وسط الباسفيك ، بالاستيلاء على جزر ميدواى ومطارها الهائل الذى يمكنه أن يهدد منه ميناء الدر نفسه ، الذى يقـــع على مسافة ألف ميل شرقا ، وأن يحتله حينما تسنح الفرصة • وفى الوقت نفسه قرر ارســـال قوات فرعية للاستيلاء على مواقع ذات أهمية فى جزر اليوشان الغربية وقد بعث التوقيت الدقيق لخطوات ياما موتو لديه الامل فى أن يجتــذب الاسطول الامريكى الى الشمال لمواجهة الخطر الذى يتهدد جزر اليوشان ، ويصبح من السهل لديه ارسال قوته الرئيسية الى جزر ميدواى ، وكان يأمل ، قبل أن يغدو الامريكيون قادرين على التدخل هنـــا بقوة ، أن يكون قد سيطر تماما على الجزيرة وأصبح متأهبا لمقـــابلة أى هجـــوم معاد بقوات متفوقة •

ولا مِرْيَةَ فى أن ميدواى مهمة بالنسبة لأمريكا لأنهـــا الموقع الأمامى لميناء الدر ، وأهميتها هذه كافية لجعل هـــذه الحركات تؤدى إلى إشتباك رئيسى • وأحس ياماموتو بالثقـــة فى قدرته على فرض المعركة الحاسمة

وفقا للشروط التي يمليها هو ، وأنه يمكنه ، بتفوقه الهـائل وخاصة فى البوارج السريعة ، أن يهيىء لنفسه الفرصة الممتازة للقضاء على العدو • وهذه هي الخطوط العريضة للخطة التى صرح بها لمساعدة أميرال ناجومو• وكان كل شيء يتوقف على وقوع الاميرال نيميتز فى الفخ ، وألا يكون قد دبر هو الآخر مفاجأة ضد اليابانيين •

ولكن القائد الامريكى كان يقظا ونشيطا • وكان يطلع عن طريق مخابراته على كل شيء حتى على ميقات ماسيوجه اليه من ضربات • وبالرغم من أن خطة غزو ميدواى قد تكون ستارا لاخفاء الضربة الحقيقية التى قد تصوب الى سلسلة جزر اليوشان للتقدم عن طريقها الى القارة الامريكية، فان ميدواى تمثل بالنسبة اليه الخطر ، الاكبر ولم يتوان فى تركيز قواته فى هذه الناحية • وكان المصدر الرئيسى لقلق القائد الامريكى ، ان حاملات طائراته ، وان كانت فى أحسن حالاتهـا ، قد تكون أضعف من حاملات ناجومو الأربع المجربة التى أحرزت إنتصارات باهرة ـ إمتدت من معركة ميناء الدر حتى جزيرة سيلان • وقد أرسلت منها إثنتان إلى بحر المرجان، وأصيبت إحداهما اصابة بالغة ، ولكن نيميتز خسر بدوره ليكسينجتون، وغدت اليوركتاون مشلولة ، ولم تعد ساراتوجا الى الانضمام اليه بعد أن أبلت بلاءاً حسنا فى المعركة ، ولحقتها أضرار فى حين ما فتئت «الواسب» فى البحر المتوسط حيث بادرت الى هناك لحماية جزيرة مالطة ومساندتها، ولا يمكنه أن يجهز للمعركة القادمة سـوى انتر برايز وهورنيت اللتين تتحفزان الآن للقدوم من جنوب المحيط الهـادى ، ويوركتاون ان أمكن اصلاحها فى الوقت المناسب ليمكنها الاسهام فى المعركة • ولم تكن عنده بوارج أقرب من البوارج الموجودة فى سان فرنسيسكو ، وهى بطيئة فى عملها مع حاملات الطائرات • وكانت لدى ياماموتو احدى عشرة بارجة ، بينها ثلاث من أقوى البوارج وأسرعها فى العـالم • وكانت الفرص غير مواتية للامريكيين ، ولكن كان فى امكان نيميتز الإعتـماد على المساعدة القوية العاملة من مطار ميدواى •

وفى الأسبوع الأخير منشهر مايو بدأت القوة الرئيسية من الأسطول اليابانى تتحرك • وكانت القـوة الأولى التى تحركت هى قوة الأليوشان التى قصد بها التمويه والخداع والتى كلفت مهاجمة الميناء الهولندى فى الثالث من يونية لاجتذاب الأسطول الأمريكى إلى هذا الأتجاه •

وكان من المقرر أن تنزل القـوات بعد ذلك فى جزر آتو وكيسكا واداك الواقعة غربا • وفى اليوم التالى يقـوم ناجومو بقوته المكونة من

أربع حاملات بضرب جزيرة ميدواى ، وفى الخامس من يونية تجىء قوة من قوى المظلات وتســـتولى على الجزيرة • ولم يكن من المرتقب أن تلقى القوة اليابانية مقاومة كبيرة • ثم يعــود ياماموتو بأسطوله الى الغرب متفاديا مناطق الاكتشاف الجوى ليكون مستعدا لتصويب ضربته حينما يبدأ الامريكيون فى هجومهم المضاد •

لقد كانت اللحظة الثانية الهائلة بعد ميناء الدر • وفى السادس والعشرين من مايو وصلت الحاملتان انتر برايز وهورنيت من الجنوب •

وفى اليوم التالى قدمت اليوركتاون ، وكانت الأضرار التى لحقتها تستدعى اصلاحات تستغرق ثلاثة أشهر ، ولما كان الموقف حرجا فقد أجريت بعض الاصلاحات العاجلة بها فى خلال ثمان وأربعين ساعة وغدت مستعدة للمعركة ، بعد أن زودت بمجموعة جوية حديثة •

وفى الثلاثين من مايو أبحرت لتنضم الى الاميرال سبروانس الذى أبحر قبل يومين مع حاملتين أخريين ، وظلت القيــادة التكتيكية للقوة المشتركة بيد الاميرال فليتشر • وامتلأ مطار ميدواى بقاذفات القنابل ، وصدر الأمر إلى القــوات البرية المدافعة عن الجزيرة بأن تكون متحفزة مستعدة • وكان من اللازم التبكير فى الحصول على معلومات عن اقتراب العدو ، ولذلك استمرت عمليات الرقابة الجوية منذ الثــلاثين من مايو • واستمرت الغواصات الامريكية تراقب الشـــمال والغرب من ميدواى ، وانقضت أربعة أيام فى حيرة وقلق • وفى الساعة التاســـعة من صباح الثالث من يونية شـــاهدت «سفينة طائرة» من طراز كاتالينا وهى تقوم بالمراقبة على بعد سبعمائة ميـــل غرب ميدواى مجموعة مؤلفة من احدى عشرة ســـفينة حربية معــادية • ولم يصب الهـــدف من هذه القنابل والطوربيدات سوى طوربيد واحد أصاب ناقلة زيت ، وبدأت المعركة ، وبانت حقيقة ما يرمى اليه العدو • واستطاع الاميرال فليتشر أن يعرف عن طريق مخابراته أن حاملات العدو ستدنو من شمال غربى ميدواى ، ولهذا لم يغير ما تلقاه من تقارير أولية عن مشاهدة العدو ، خطته الأصلية ، فقد قدر ، ووُفّق فى تقديره ، أن ما شوهد لا يتجاوز مجموعة من سفن النقل • وفى فجر الرابع من يونية حرك حاملاته الى مكان انتقاه على مدى مائتى ميل تقريبا شمال ميدواى ، لتكون متأهبة للانقضاض على جناح ناجومو حينما يظهر وحيثما يظهر •

وطلع الرابع من يونية جليا مشرقا ، وفى الساعة الخامسة والدقيقة الرابعة والثــلاثين صباحا ، أرسلت دورية من ميدواى أخيرا برقية طال

انتظارها ، تعلن فيها دنو حاملات الطائرات اليابانية • وأخذت التقارير تتدفق وتنهمر • وشـــوهدت طائرات كثيرة تتجه الى ميدواى وشوهدت البوارج تحمى الحاملات وفى الساعة الســادسة والنصف صباحا حدث الهجوم اليابانى فى قوة وعنف ، وقوبل بمقـــاومة عنيفة ، ولم يعد من الطائرات المهاجمة ثلثها تقريبا ، وحدثت أضرار فادحة ، وسقط الكثير من الضحايا ولكن المطار بالرغم من هذا كله ظل صالحا للاستعمال •

وكانت هناك فرصة لشن هجوم مقابل على أسطول ناجومو • وقد كلف تفوقه الساحق فى الطائرات المقاتلة الامريكيين ثمنا باهظا ، وأتت الغارة الجريئة التى علقت عليها آمال ضـــخمة مثبطة للهمم ، ولـــكن الاضطراب الذى أحدثته فى صفوف العدو أدهش القائد اليابانى ، وشتت تفكيره ، وخاصة أن طياريه الحفوا عليه بضرورة شن غارة أخرى على ميدواى . وكان قد ادخر عددا كافيا من الطائرات للقاء أية حاملات أمريكية قد تظهر فجأة ، بعد أن أعياه الحديث عنها .

وقرر أن يقسم التشكيلات التى جهزها لهذه الغاية ، وأن يسلحها لتصوب ضربة أخرى الى ميدواى • على أية حال كان من اللازم أن يخلى سطح حاملاته ليستغرق الطائرات التى ترجع من الهجمة الأولى •

لكن هذا القرار عرضة لخطر قاتل ، وقد علم ناجومو بعد فوات الأوان بوجود قوة أمريكية فى الشرق تضم احدى الحاملات • وتحتم عليه أن يواجه ضغط الهجـــوم الأمريكى وقد امتلأت ظهور حاملاته بقاذفات لا يرجى منها فائدة ، تقوم بعملية التزود بالوقود والذخيرة •

وبوساطة التقدير السليم كان الأميرال فليتشر والأميرال سبتسر فى مركز قوى يمكنهما من التدخل فى هذا الوقت الحاسم الحرج •

وكان قد تنسما الأخبار التى تدفقت فى الصباح الباكر ،وفى الساعة السابعة صباحا بدأت الانتر برايز والهورنيت هجوما استعملتا فيه كل ما هو متوافر لديهما من طائرات ، ما عدا ما قد يحتاجان اليه من الطائرات للدفاع عن نفســيهما • وقد تأخرت طائرات اليوركتاون لأنها كانت تقوم بعمليات الكشـف منذ الصباح ، ولكنها اســتعدت بسرعة وحلقت قوتها الضاربة فى الساعة التاسعة صباحا فى الوقت الذى كانت الطلائع الأولى من طائرات الحاملتين الأوليين تدنو من صيدها • وقد تعذر على القاذفات أن تحدد هدفها لأن الطقس القريب من العدو كان غائما ، ولم تحس طائرات الهورنيت قط باستدارة العدو ، ولذلك لم تظفر مطلقا بحاملاته ، ولم تسهم

فى المعركة • ونظرا لسوء الطالع هذا اقتصر الهجوم الأول على قاذفات الطوربيد من الحاملات الثلاث ، وبالرغم مما بذلته من ضغط شديد لم تستطع أن تحرز أى نصر أمام ما لقيته من مقاومة عنيفة • ولم يعد من الطائرات الاحدى والاربعين من قاذفات الطوربيد سوى ست طائرات فقط ، ما كاد يراها اليابانيون حتى وجهوا اليها كل الطائرات المقاتلة المتوافرة ، ولحسن حظها وصل الى الميدان في هذا الوقت سبع وثلاثون قاذفة منقضة من الانتربرايز واليوركتاون ، وصبت قنابلها ، دون أن تلقى مقاومة ، على سفينة ناجومو ـ أكاجى ، وشقيقتها كاجا ، فى حين هاجمت سبع عشرة طائرة أخرى من اليوركتاون ، الحاملة سوريو • ولم تمر دقائق حتى تحولت الحاملات الثلاث الى حطام تأكله النيران ، وتنفجر عليه الطائرات ، وتلاشت الحاملات الثلاث نهائيا •

ولم يكن فى وسع الأميرال ناجومو الا أن ينقل رايته الى طراد ، وأن يشهد ثلاثة أرباع أسطوله وهى تحترق •

وقد فقد الأمريكيون ستين طائرة ، حينما كانوا يستعيدون طائراتهم وبالرغم من هذا حصلوا على فرصة عظيمة • ولم يبق من حاملات العدو سوى هيريو التى قررت على الفور أن تسدد ضربة انتقاما لراية « ابن الشمس » وبينما الطيارون الأمريكيون يروون حكايتهم على متن اليوركتاون بعد عودتهم وصلتهم أنباء بأن هجوما عاجلا سيشن عليهم وقدرت طائرات العدو بأربعين طائرة ، هاجمت بعنف وقوة وعلى الرغم من مقاومة المقاتلات والنيران المضادة أصيبت اليوركتان بثلاث اصابات ، وبالرغم من ذلك أمكن اخماد النيران وواصلت السير الى أن عاودت هيريو ضربها بالطوربيدات بعد ساعتين وحطمتها ، ولكنها بالرغم من ذلك ظلت عائمة يومين حتى أغرقتها غواصة يابانية •

وقبل أن تغرق اليوركتاون ثار لها الامريكيون ، ففى الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والاربعين حدد موقع الهيريو ، وفى الساعة الخامسة هاجمتها الطائرات التى حلقت من الانتربرايز ولم تتركها الا حطاما محترقا غرق فى الصباح التالى •

هكذا دمرت الحاملات الأربع لاسطول ناجومو ، وضاع معها كل طياريها المدربين • ولم يكن فى الوسع الاستعاضة عنهم • وهكذا انتهت معركة الرابع من يونية ، وهى المعركة التى اعتبرت نقطة التحول فىحرب المحيط الهادى •

وهنـــاك أخطار أخرى يجب على القـــادة الامريكيين المنتصرين أن يواجهوها ، فقد يهاجم أمير البحر اليابانى بأسطوله الضخمجزيرة ميدواى وقد منيت القوات الجوية الامريكية بخسائر فادحة ولم تكن هناك سفن حربية كبيرة يمكنها أن تشترك فى معركة مع ياماموتو ، اذا أثر مواصلة التقدم • وقرر الاميرال سبروانس الذى كان يقود مجموعة الحاملات عدم مواصلة مطاردة قوات العدو غربا ، لانه يجهل حقيقة قوته ، ولأنه يحتاج الى مؤازرة السفن الكبيرة لحاملاته •

ولا مرية فى أن قـــراره كان سليما • ولكن الشيء الذى يدعو الى التســاؤل هو لماذا لم يحاول الاميرال ياماموتو الثأر ، واسترداد طوالعه فقد قرر في البداية أن يواصل ضغطه ، وأصدر أمره الى أربعة من طراداته القوية بضرب جزيرة ميدواى فى الساعات المبكرة من صباح الخامس من يونيه •

وفى الوقت نفسه تقدمت قوة يابانية ضخمة أخرى جهة الشـــمال الشرقى ، ولو أراد سبروانس مطاردة ما تبقى من مجموعة ناجومو لسقط فى شرك ليلى ، يدفعه الى كارثة • ولكن الاميرال اليابانى غير رأيه فى الليل فجـــأة ، وأصدر أمره بالانسحاب الشامل فى الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والخمسين من صباح الخامس من يونيه •

ولم تكن الاسباب التى دفعته الى اصدار هذا القرار واضحة ، ولكن يبدو أنه تأثر من هزيمة حاملاته النفيسة التى لم يكن يتوقعها • ثم كُتب عليه أن يواجه نازلة أخرى ، فقد اصطدم طرادان من طراداته الثقيلة ، وهما فى طريقهما الى جزيرة ميدواى لضربهـــا حينما حاولا تفادى هجوم شنته غواصة أمريكية ، وقـــد أصيبا اصابات بالغة وتركا وحدهما حين بدأ التراجع الشامل •

وفى السادس من يونية هاجمهما طيارو سبروانس وأغرقوا أحدهما وخلفوا الآخر وهو يغرق ولـــكن هذه السفينة الحربية المدمرة موجتمى إستطاعت أن تصل الى قواعدها •

وقد تراجع اليابانيون فى سكون كما جاءوا ، بعد أن احتلوا جزيرتى آتو وكيسكا الصغيرتين فى المجموعة الغربية من جزر اليوشان •

ولا شـــك فى أن دراسة أوضاع القيادة اليابانية فى هذا الوقت مفيدة للغاية • ففى شهر واحد كلفت القوات البحرية والجوية اليابانية مرتين بالقتال ، وفقا لخطط متقنة وباصرار وعناد •

وفى المرتين كان اليابانيون يتخلون عن هدفهم حينما تمنى قواتهم الجوية باضرار جسيمة بالرغم من أنه يكاد يسقط فى أيديهم وكان رجال ميدواى ، مثل الاميرالات ياماموتو وناجومو وكوندو وهم الذين رسموا ونفذوا خطط العمليات الحربية الجريئة والهائلة ، التى دمرت فى خلال أربعة أشـــهر أساطيل الحلفـاء فى الشرق الاقصى • ودحرت أسطول بريطانيا الشرقى من المحيط الهندى • وقد انسحب ياماموتو من جزيرة ميدواى لأنه اتضـــح من سير الحرب أن الاسطول بدون الحماية الجوية لا يمكنه اذا كان بعيدا عن قاعدته آلاف الاميال ، أن يغامر ببقائه مع قوة ترافقها حاملات طائرات ظلت طائراتها سليمة • وقد أصدر أمره الى سفن النقل بالانسحاب ، لان مواصلة الهجوم عمل انتحارى مالم يعززه السلاح الجوى ، وذلك بالنسبة الى جزيرة تدافع عنها القوات الجوية ، ومساحتها صغيرة الى حد يجعل من الصعب القيام بأية مفاجأة •

ويعزى جمود التخطيط اليـــابانى وتعنته ، والرغبة فى التخلى عن الهـــدف حينما تسير العمليات وفـق الخطط المرسومة الى طبيعة لغتهم المفزعة غير الدقيقة ، بحيث يصعب اختراع الخطط الحـــديثة ، ونقلها بوساطة المواصلات اللاسلكية •

وثمة درس آخر • فقد أفلح نظام المخابرات الامريكية فى الوصول الى أعمق أسرار العدو ، قبل وقوع ماحدث بوقت طويل • وهكذا استطاع الاميرال نيمتز بالرغم من ضعفه ، أن يحشد كل مالديه من قوات كافية فى الوقت والمكان المناسبين• وعندما حان الوقت اثبتت خطته أنها حاسمة

ولا مرية فى أن هاتين المعركتين تلقيان ضوءا على أهمية السرية ، وعلى نتائج تسلل المعلومات فى خلال الحرب •

وكان لهذا الظفر الامريكى الخالد أهمية فى غاية الخطورة لا بالنسبة الى أمريكا وحدها ، بل لقضية الحلفاء كلها • وكان تأثيره المعنوى عظيما وسريعا • فقد انقلب معيار قوة اليابان فى المحيط الهادى بضربة واحدة •

وقد قضى الى الأبد على تفوق العدو المدهش الذى أبطل كل محاولاتنا المشتركة فى الشرق الاقصى مدة تربو على ستة أشهر ، ومنذ هذه اللحظة تغير اتجاه كل أفكارنا بثقة راسخة الى الهجوم ، ولم نعد نفكر فيما سيوجه اليه اليابانيون ضربتهم القادمة • بل صرنا نفكر فى أى مكان أفضل لنا لتصويب الضربة الى العدو لاسترداد المناطق الواسعة التى اكتسحها فى هجومه الاول• وبالطبع سيكون الطريق وعرا طويلا ، وخاصة اننا مابرحنا

نفتقر الى استعدادات جماعية لاحراز النصر فى الشرق ، ولـــكن النتيجة الاخيرة لا ريب فيها ، ولم يبق لمطالب المحيط الهادى هذا الاهتمام الذى يحول بين أمريكا وبين ماتتحفز لبذله من مجهود هائل فى أوروبا •

وليس فى وسع أية قصة من قصص الحرب البحرية أن تقدم صورا أكثر تأثيرا وهزا للنفوس من صـــورة هاتين المعركتين اللتين أبدى فيهما الاسطول والسلاح الجوى الامريكيان والشعب الامريكى كله روحا متألقة قوية مجيدة •

ولا مرية فى أن التجديد والاوضاع المحتملة التى خلقتها الحرب الجوية قد دفعا عجلة العمل والحظ بسرعة فائقة •

ولكن بسالة الطيارين الامريكيين واخلاصهم المتناهى وقوة أعصاب قادتهم وبراعتهم هى أسس كل شىء • وحينما تراجع الاسطول اليابانى الى قواعده القصية فى الوطن عرف قادته أن القوة التى كانوا يملكونها من حاملات الطائرات قد دمرت تدميرا يتعذر إصلاحه ، وفوق هذا عرفوا أنهم يهـاجمون عدوا له من الارادة والاصرار ما يوازى أقصى ما عرف عن أسلافهم من الســاموراى من ارادة واصرار ، وأن خلف هــذا العدو قوة ناهضة ، متطورة فى كمها وعلمها الى درجة لا يمكن تخيلها •

الجبهة الثانية

[وصل كل من هارى هوبكنز والجنرال ماريشال الى لندن فى الثامن من شهر ابريل ١٩٤٢ حاملين مذكرة وافية اعدتها رياسة اركان الحرب الامريكية المشتركة وصدق عليها الرتيس روزفلت ولا شك فى ان اهمية هذه المذكرة تسوغ نشرها كاملة .]

العمليات فى أوروبا الغربية ـ إبريل عام ١٩٤٢

نعتقد أن أفضل مسرح للقيام بأول هجوم رئيسى تشترك فيه أمريكا وبريطانيا العظمى هو أوروبا الغربية ففى هذا المسرح وحده يمكن تطوير مواردنا المشتركة فى البر والجو تطويرا تاما وتقديم أقصى ما يستطاع من المساعدة لروسيا .

ومن المفروض أن يتخذ قرار يقضى بشن هـذا الهجوم فورا نظرا للاستعدادات الهائلة اللازمة فى مختلف الاتجاهات والى أن نستطيع شن هذا الهجوم ، يجب أن يكون وضع العدو فى الغرب فى مركز دقيق وأن يُعَرَّض باستمرار لحالة من الحيرة والشك بوساطة الغارات والخداع ، فمثل هذه الغارات تمكننا من كسب معلومات قيمة ومن تدريب قواتنا على أحسن وجه ..

ولا بد أن تتكون قوات الغزو المشتركة من ثمان وأربعين فرقةبينها تسع فرق مدرعة على أن يكون لبريطانيا فيهـا ثمانى عشرة فرقة بينها ثلاث فرق مدرعة، وتحتاج القوات الجوية المساعدة الى ٥٨٠٠ طائرة للقتال بينها ٢٥٥٠ طائرة بريطانية ، والسرعة جزء أساسى فى المشكلة . ولعل أهم العقبات المعرقلة هى قلة السفن اللازمة للانزال والهجوم ، وندرة البواخر الضرورية لنقل القوات من أمريكا الى بريطانيا ونستطيع أن تعد كل شيء دون أن تتأثر التزاماتنا الضرورية الأخرى فى مسارح الحرب

الباقية قبل الأول من إبريل عام ١٩٤٣ على أن تكون ستون فى المائة من البواخر التى تقوم بالنقل غير أمريكية .

أما إذا أعتمد النقل على البواخر الأمريكية وحدها فانه يتحتم تأخير الهجوم حتى أواخر صيف عام ١٩٤٣ .

وسنفتقر إلى سبعة آلاف قطعة إنزال تقريبـــا ولذا يتحتم علينا مضاعفة برامج البناء الحالية مضاعفة كبيرة لبلوغ هذا الرقم ، وفى الوقت نفسه يجب المبادرة فى الاعمال التمهيدية اللازمة لمواجهة قوات برية وجوية أمريكية واعدادها للعمل .

ويجب أن يحدث الغزو على شواطىء مختارة بين الهافروبولون وأن يكون على دفعات تتألف الدفعة الأولى منها من ست فرق على الأقل تؤازرها فى ذلك القوات الهابطة من الجو ، ويجب تعزيزها بمـــا يوازى مائة ألف رجل فى الأسبوع ، وحينما تثبت رءوس الجسور على الشـــواطىء تبادر القوات المدرعة إلى الاستيلاء على خط [الواز ـ سان كنتان] وبعد ذلك تكون [انتويرب] نفسها » هى الهدف الثانى .

ولما كان من المستحيل أن يتم هذا الغزو فى اطار هذا النطاق قبل الاول من إبريل عام ١٩٤٣ فإنه كان يجب إعداد خطة يلاحظ فيها التوقيت حتى آخر لحظة للقيام بعمل عاجل من قبل قوات قد تتنافر من وقت الى آخر ، ويجب تنفيذ هذه الخطة كإجراء طارىء فى حالة إستغلال حدوث إنحلال ألمانى مفاجىء ، أو كتضحية للتفادى من إنهيار المقـاومة الروسية العاجل ، والتفوق الجوى فى كلتا هاتين الحالتين أمر بالغ الأهمية .

ومن ناحية أخرى ربما لا نستطيع فى خريف عام ١٩٤٢ إرسال أكثر من خمس فرق أمريكية وتزويدها بما يلزمها ، وفى هـذا الوقت تتحمل بريطانيا العبء الأكبر فمثلا يمكن أمريكا أن تجد فى الخـامس عشر من سبتمبر فرقتين ونصـــف الفرقة من الفرق الخمس اللازمة ؛ ولا يجاوز ما يمكنها أن ترسله من طائرات سبعمائة طائرة ، وعلى هذا فان إشتراك بريطانيا يكلفها خمسة آلاف طائرة .

وقد شعر هوبكنز بأرهاق شديد من وعثاء السفر وظل طريح الفراش يومين أو ثلاثة فى حين بدأ مارشال مباحثاته فورا مع رؤساء أركان الحرب البريطانيين ولم يكن من الممكن عقد الاجتماع الرسمى مع لجنة الدفاع قبل يوم الثلاثاء فى الرابع عشر ، وفى خـلال ذلك درست الموضوع دراسة وافية مع رؤساء الأركان والزملاء وقـد أبهجنا كثيرا مابدا على أمريكا من

عقد العزم على التــدخل فى أوروبا ووضع هزيمة هتلر فى الصدارة فى خططها وخاصة أن هــذه الهزيمة كانت تتصــدر كل خططنا وتفكيرنا الاستراتيجى ، ولم يكن فى وسع أى منا أو من المستشارين العسكريين وضــع خطة عملية لاجتياز المانش « بجيش بريطانى ــ أمريكى كبير » والنزول فى فرنسا قبل أواخر صيف عام ١٩٤٣ ، وقد بينت فى فصول سابقة ان هذا النزول وذلك الموعد كانا هدفى بالاضافة الى التوقيت الذى خططته وقد كان بين أيدينا المشروع الامريكى الجديد للنزول بقوات لابأس بها فى حالة الطوارىء فى خريف عام ١٩٤٢ وكنا متاهبين تمــام التأهب لدراسة هذا المشروع أو أى مشروع آخر يســـتهدف توزيع قوة ألمانيا لمساعدة روسيا وللتخطيط لشن الحرب بصورة عامة ٠

وفى ليلة الرابع عشر اجتمعت لجنتنا الدفاعية فى داونتج ستريت رقم ١٠ وحضر الأجتماع أصدقاؤنا الامريكيون ، وكان البحث متشعبا ومتأزما لكننا وصلنا إلى نتيجة جماعية وقــد التقت كلمتنا جميعا على أن القناة يجب أن تُجتاز فى عملية أسميناها عملية الطرد فى عام ١٩٤٣

ولم يكن فى مقدورنا التخلى عن بقية وأجباتنا عنــد التخطيط لهذا المشروع الهائل ، حيث كان علينا واجب إمبراطورى أولى فى الدفاع عن الهند ضد الغزو اليابانى ، وهو خطر أضحى الآن ماثلا للعيان ٠

والى جانب هذا كان لواجب الدفاع عن الهند علاقة حاسمة بالحرب كلها ولم نستطع أن ندع اليابانيين يكتسحون وينهبون أربعمائة مليون من رعايا جلالته فى الهند ، نحس تجاههم بواجب الشرف ، وأن ندعهم فى مواجهة عواصف الطغيان اليابانى العاتية التى تعرضت لها الصين اذ أن مثل هذا التخلى من جانبنا يعد عملا معيبا للغاية السماح للألمان واليابانيين بالتلاقى فى الهند والشرق الأوسط يحمل كارثة خطيرة لقضية الحلفاء كلها لا تقل فى نتائجها عن تقهقر الروس الى ما وراء جبال الأورال، أو عقدهم صلحا منفردا مع ألمانيا ، ولم أكن أحسب أن أىهذه الاحتمالات دافع فى هذه المرحلة فقد كنت أومن بقوة الجيوش الروسية والشعب الروسى واصرارهما على الدفاع عن وطنهما ، أما امبراطوريتنا الهندية فعلى الرغم من كل أمجــادها فانها تتعرض للوقوع فريسة سهلة فى قبضة العدو ، وكان لزاما علىّ أن أعرض وجهة نظــرى هــذه على المبعوثين الأمريكيين ، واذا لم تنهض بريطانيا إلى مساعدة فعالة ، فقد يستولى عليها اليابانيون فى خلال عدة أشهر ، أما استيلاء هتلر على روسيا فقد يحتاج الى وقت أطول وتضحيات أكثر ، ولا مرية فى أن هيمنة بريطانيا وأمريكا

المشتركة على الجو ، سوف تصبح أمرا واقعا قبل أن يتم هذا الاحتلال ، وستصبح هذه الهيمنة عاملا حاسما ولو باءت كل الخطط الأخرى بالفشل.

وقد اتفقت مع «هوبكنز» كل الاتفاق على ضرورة مهاجمة العدو وجها لوجه فى شمالى فرنسا عام ١٩٤٣ ، لكن ماذا يجب أن نصنع قبل هذا الهجوم ؟ اذ ليس فى طاقتنا أن ندع جيوشنا الرئيسية فى فترة تأهب لاغير فى هذا الوقت . وهنا حدث تصدع كبير فى الرأى: فقد تقدم الجنرال ماريشال باقتراح لمحاولة الاستيلاء على « بريست وشربورج » أو الأخيرة ـ على الأقل ـ فى خريف عام ١٩٤٢ ، وأكد ضرورة كون العملية بريطانية خالصة ، وتأمين الإسطول والقوة الجوية وثلثى الجنود وكل معدات الأنزال الكثيرة ، وأبان أن أمريكا لا يمكنها تأمين أكثر من فرقتين أو ثلاث ، وكان هذا الأقتراح جديدا علينا لأنه كان ينبغى أن ينصرم عامان ـ على الاقل ـ وأن تبذل جهود ضخمة وتجهيز قيادة فنية قوية من الضباط قبل تأمين قوات من الدرجة الأولى صالحة لمثل هذا الغرض ، لهذا كان مثل هذا المشروع من المشروعات التى يجب أن يرجح فيها رأى رؤساء أركان الحرب البريطانيين ، لأنه يحتاج قبل كل شىء الى دراسة فنية كاملة .

وفى البداية لم أرفض الفكرة رفضا تاما ، بل أعددت فى ذهنى إقتراحات بديلة للاستعاضة بها عنها ، وقد كان أولاها : أن نقوم بالنزول فى افريقية الشمالية الفرنسية التى تشمل مراكش وتونس والجزائر وهى عملية سميناها : [لاعب الجمباز] ولم تلبث أن أضحت جزءا من عملية [الشعل الكبرى] وقد حضرتنى « فكرة بديلة أخرى » كانت تحلق دائما فى مخيلتى ، وأيقنت ان فى طاقتنا القيام بهـا مع حركة غزو افريقية الشمالية فى وقت واحد ، وهى : [حركة المشترى] التى تقصد تحرير شمال النرويج ، وامداد روسيا بالعون المباشر حيث تتاح الفرصة لتعاون عسكرى مشترك مع قوات روسيا وأسطولها وسلاحها الجوى ، كما يمكن تأمين سلامة الطرف الشرقى من أوروبا وفتح طريق للامدادات على أرحب نطاق الى روسيا ، ومثل هذا المشروع ـ الذى ستجرى معاركه فى منطقة قطبية ـ لا يحتاج الى أعداد ضخمة من الرجال ولا من المؤن والعتاد وقد استطاع الالمان أن يحصلوا على هذه المواقع الاستراتيجية الهامة دون أن تكلفهم إلا اليسير ، وقد يمكننا إستردادها دون أن تكلفنا الكثير .

وهكذا إتجه إختيارى أولا إلى عملية المشعل ، وقد أحاول الاتجاه إلى [عملية المشترى] أيضا فى عام ١٩٤٢ متى هيىء لى ذلك .

وقد بان لى أن محاولة خلق رأس جسر فى شربورج أكثر صعوبة وأقل جاذبية وثمرة وعونا ، ومن الخير لنا أن ننشب مخلبنا الأيمن فى شمال افريقية ، وأن ننشب مخلبنا الأيسر فى أقصى بحر الشمال ثم نترقب عاما آخر قبل أن نغامر بنشوب أسناننا فى القلعة الألمانية المنيعة عبر المانش .

لقد كانت هذه هى الآراء التى أفصحتُ عنها حينئذ ، ولم أعض بنان الندم أسفا عليها قط ، ومع ذلك فقد كنت متأهبا لأن أمنح عملية « شربورج » التى سميناها « المطرقة الكبيرة » ما تتطلبه مع الاقتراحات الاخرى أمام لجان التخطيط من دراسة ، وكنت على يقين بأن هذه العملية ستسقط من حساب تفكيرنا اذا درسناها دراسة وافية ، ولو كانت لى الصلاحيات التى تخولنى اصدار الأوامر ، لقررت البدء بعمليتى : « المشعل والمشترى » فى الخريف القادم ، ولسمحت بنشر الشائعات عن عملية « المطرقة » وعن التأهب لها كستار يحجب حقيقة أغراضنا .

لكن كان على أن أستخدم كل نفوذ وأن أسلك كل أسلوب دبلوماسى رقيق للحصول على موافقة حليفتنا العزيزة وتأييدها وانسجامها ، لأن مؤازرتها تحول دون تعريض العالم للدمار ، لهذا لم أقترح أى حل من هذه الحلول البديلة فى الاجتماع الذى عقدناه فى الرابع عشر من الشهر .

ولقد صادف الاقتراح الحاسم الذى قَدَّمَتْهُ الولايات المتحدة للقيام بغزو شامل لألمانيا فى أقرب وقت ممكن بشرط أن تكون انجلترا هى نقطة الانطلاق من الناحية الاساسية للقضية ترحيبا بالغا منا ، وبعثَ فى نفوسنا مباهج الفرح والسرور .

وكان من المحتمل أن نقابل ـ كما سنرى فيما بعد ـ خطط أمريكا لاسباغ الأولوية على مؤازرة الصين وسحق اليابان ، لكن الرئيس روزفلت والجنرال مارشال قد رأيا منذ بدء تحالفنا ـ بعد هجوم ميناء « اللؤلؤ » بالرغم من تيارات الرأى العام المعارضة ـ أن هتلر هو العدو الأساسى الاول ، وكانت لى رغبة شخصية فى مشاهدة الجيوش البريطانية ـ الامريكية وهى تتقدم فى أوروبا جنبا الى جنب ، ولكننى كنت على يقين مطلق بأن دراسة التفاصيل : كالخطط المتعلقة بالنزول وما ماثلها .. والتفكير الواضح فى استراتيجية الحرب الرئيسية ، سيدفعان الى العدول التام عن « عملية المطرقة » واذا حانت ساعة العمل الجاد ، فلن تستطيع أية سلطة عسكرية أو بحرية أو جوية على أى من جانبى الأطلنطى ، اتخاذ الاستعدادات اللازمة لمثل هذه الخطة أو تحمل اعباء مسئولياتها ـ

حسب معلوماتى ــ ولا تستطيع النوايا المشتركة والنيات الطيبة الانتصار على مرارة الحقائق وقسوتها ٠

وموجز القول ، أننى تقصيت باستمرار فكرتى التى ضمنتها مذكرتى التى قدمتها الى الرئيس فى ديسمبر عام ١٩٤١ والتى تتلخص فى أن على جيوش التحرير البريطانية ــ الامريكية أولا ، أن تنزل فى أوروبا عام ١٩٤٣ ، وأن انزال هذه القوة الهائلة لا يمكن اتمامه الا من جنوبى انجلترا ، وأنه يجب أولا ألا يمنع مانع من تحقيق هذه الغاية ، وأخيرا : ليس فى طاقتنا أن نقف بمعزل عن الروس الذين يحاربون القوات الألمانية الضاربة فى كل ساعة على نطاق هائل ، بل يجب أن نشتبك مع العدو ٠٠ وهذا التفكير يبدو أيضا فى كل خطط الرئيس ٠ فما الذى يمكننا أن نصنعه فى الاشهر الاثنى عشر أو الخمسة عشر التى يجب أن تنسلخ قبل أن نستطيع إجتياز المانش بقوات كبيرة ٠

ولا مَرِيَّةَ فى أن الاستيلاء على شمال أفريقية الفرنسى ، كان فى حد ذاته ممكنا ومعقولا ، ويتفق مع الخطة الاستراتيجية الشاملة ٠

ولقد كنت آمل ، أن تتقدم هذه العملية جنبا الى جنب مع تدهور فى النرويج ، ولا أزال أعتقد احتمال حدوث هاتين العمليتين فى آن واحد وقد يكون من أفدح الاخطار أن يفقد الانسان بساطة الهدف وفرديته فى مثل هذه المناقشات الحامية التى تتناول أمورا لا حصر لها ، على الرغم من أنى كنت آمل أن تتحقق عمليتا «المشعل والمشترى» فى وقت واحد فاننى لم أكن أهدف قط الى أن تربك العملية الثانية العملية الاولى ٠٠ فعشاق التركيز وتكتيل كل الجهود التى تبذلها دولتان قويتان للقيام بهجوم قوى ، بلغت من الكثرة حداً لا يمكن أى غموض من أن يحول دون أية مشورة سليمة لهذا رأيت أن السبيل الوحيد لملء الفراغ ، قبل أن تستطيع أعداد كبيرة من القوات البريطانية والأمريكية محاربة الألمان مباشرة فى عام ١٩٤٣ ــ هو : أن نقوم معا بالاستيلاء بالقوة على افريقيا الشمالية بحيث يسير هذا الاحتلال مع الزحف البريطانى الى الغرب عبر الصحراء صوب طرابلس وتونس ٠

وأخيرا حين انتهى بحث كل الخطط والأدلة الأخرى أصبح هذا الموضوع يحتل قرار الحلفاء الغربيين ٠

وفى شهر مايو زارنا آخرون ٠ فقد جاء مولوتوف ليفاوضنا فى انشاء حلف انجليزى ــ روسى ، وليعرف وجهات نظرنا فى موضوع اقامة الجبهة الثانية ، وقد تم الوصول الى التحالف المذكور ، كما دار البحث حول

موضوع « الجبهة الثـــانية » بالتفصيل وأراد ضيوفنا الروس أن يكون نزولهم خارج لندن طيلة اقامتهم ، لذا وضعت تشيكرز تحت تصرفهم ، وبقيت أنا فى هذا الوقت فى ملحق داوننج ستريت ، وان كنت قد ذهبت الى تشيكرز لقضاء ليلتين فيها ، حيث سنحت لى الفرصة لاجراء مباحثات خاصة ومستفيضة مـع مولوتوف والسفير مايسكى الذى كان من أحسن المترجمين لما يمتاز به من السرعة الفـــائقة وســـهولة التعبير وادراكه موضوعات البـــحث ·· وقد أردت أن أوضح لهـــما بوساطة الخرائط ما نصنعه فى هذا الوقت ، وأبين الحدود والخصائص المعينة فى الطاقة الحربية لدولة بحرية مثل بريطانيا ، وقد أفضتُ فى الحديث عن «أساليب الحرب البرمائية» ، وأوضحت مانكابده من أهوال ومشـــاق فى سـبيل المحافظة على شريان حياتنا عبر الاطلنطى من هجمات الغواصات ، واعتقد أن مولوتوف قد تأثر بكل ماقلت ؛ وعرف أن مشكلتنا تختلف كليا عن مشكلة دولة برية ضخمة ، وعلى أية حال فلقد كانت هذه المباحثات خير معين على التقارب بيننا أكثر من أى وقت مضى ·

وفى خلال زيارة مولوتوف لتشيكرز ظهرت الشكوك المتأصلة لدى الروس تجاه الاجانب فى بعض الحوادث البارزة فقد طلبوا عند وصولهم مفاتيح كل غرف النوم ، واستطاع رجالنا أن يحصلوا عليها بصعوبة بالغة وراح الضيوف يغلقون على أنفسهم أبواب هذه الغرف باستمرار ، وحينما كان الخدم يدخلون الغرف لاصلاح الأسِرّة ، كانوا يعثرون على المسدسات تحت الوسائد ، فى كل مرة ، وقد أتى الثلاثة الكبار من أعضاء البعثة بضباط أمنهم لحراستهم ، كما أتوا بامرأتين روسيتين للاهتمام بملابسهم وتنظيف غرفهم ، وحينما كان المبعوثون الروس يغادرون « تشيكرز » الى لندن كانت المرأتان تتبادلان حراسة غرف الضيوف باستمرار ، فلا تنزلان معا لتناول وجبات الطعام ، ومع ذلك أظهرت المرأتان بعض اللين بعد أيام قلائل من الزيارة ، وطفقتا تتحدثان الى خدم المكان بفرنسية غير سليمة أو بالاشارة ·

وقد اتخـــذت اجراءات وقائية أكثر من المعتـــاد لحماية مولوتوف والمحافظة على سلامته ، وقام رجال شرطته بتفتيش حجرة نومه ؛ ولم يدعوا خزانة فيها أو شبرا أو قطعة من أثاث دون أن يفتشوها تفتيشا دقيقا بعين بصيرة ، وقد كان تفتيش السرير والفراش موضع اهتمام خشية أن تكون بهما معدات فتاكة ، وكان الروس يقومون باعادة تنظيم الفراش لكى يمكنوا صـــاحبه من الفرار منه اذا ما شعر بالخطر يداهمه ، بدلا من الوقوع فى الشرك ·

وفى الليـل كان يضـــع مسدسه وحقيبة أوراقه الى جانبه ، ومن الواجب أن نتخذ دائما أشد الاحتياطات أيام الحرب للوقاية مما قد يحدث من أخطار ، لكن أى اجراءات تتخذ ينبغى أن يراعى فيهـا الحرص على تقدير الواقع تماما ، ولعل أيسر امتحان : أن يسأل المرء نفسه دائما هل للفريق الآخر منفعة فى قتله ، وحينما توجهت الى موسكو منحت الروس ثقتى المطلقة فى حسن ضيافتهم .

وطار مولوتوف الى واشنطن ثم قفل عائدا بالمشروعات التى تتضمن اجتياز القناة فى عام ١٩٤٢ ، وكنا لانزال ندرس هذه المشروعات دراسة جدية مع أركان الحرب الامريكيين ، ولم تبد لنا بعد نتيجة دراستنا غير المصاعب ، ولم يكن هناك حرج فى اصدار بيان ذى صبغة عامة قد يرغم الألمان على التخوف وابقاء أكبر عدد ممكن من جنودهم فى الغرب ، ولقد وافقنا على اصدار بيان رسمى أعلن فى الحادى عشر من يونيو ، واشتمل على العبارة التالية :

[« وتم التفاهم أبان المحـــادثات على الضرورة الملحة لانشاء الجبهة الثانية فى أوروبا عام ١٩٤٢ »] .

ورأيت من الأهمية القصوى أنه يتحتم علينا ألا نحاول خداع حليفتنا حين نحاول خداع العدو ولهذا قمت فى الوقت الذى كنا نعد فيه مسودة البلاغ الرسمى ، بتسليم مولوتوف شخصيا ـ داخل غرفة مجلس الوزراء وبحضور عدد من الزملاء ـ مذكرة أبنت فيها : أنه على الرغم مما سنبذله من جهد مستطاع لوضع الخطط اللازمة فاننا لا نســتطيع أن نتقيد أو نرتبط بوعود معينة ؛ لهذا حينما وجه الينـا اللوم فيما بعد وحين أثار ستالين الموضوع معى بصفة شخصية كنا دائما نستخرج المذكرة ونومىء الى العبارة التى جاءت فيها باننا لا نستطيع ان نتقيد بأى تعهد ، وهذا نص المذكرة :

مذكرة

[« اننا نقوم بوضع الخطط الضرورية لنزولنا فى القارة فى أغسطس أو سبتمبر عام ١٩٤٢ . وكما أبنا فيما سبق ، تحدد الحاجة الى سفن الانزال الخاصة قوة ما سيجرى انزاله من قوات ؛ ومن الجلى أنه ليس فى صالح قضـــية الروس انفسهم ولا فى صالح قضية الحلفاء ككل أن نقـــوم بعملية

لمجرد القول بأننا قد عملنا بأى ثمن ، تؤدى إلى كارثة وتمنح العدو فرصة مواتية لاغتنام الأمجاد والمفاخر نتيجة هزيمتنا ، ومن العسير أولا أن نقول : هل سيؤدى الوضع الى جعل مثل هذه العملية أمرا ممكنا حين يجيء وقتها المناسب ؟ ولهذا : فليس فى طاقتنا أن نبذل أى وعد فى هذا الامر ، لكن اذا تحقق لنا ان مثل هذا المشروع معقول ومنطقى أيضا ، فاننا لن نتردد أبدا فى تنفيذه .

وفى الأسابيع القادمة خَطَتْ آراء الخبراء خُطُوَات واسعة وقد رَكزتْ أفكارى كلها على عملية « المطرقة » الكبرى وطلبت من مُسْتَشَارِيَّ إمدادى بتقارير دائمة ومستمرة ، وسرعان ما إنكشف لى ما فيها من صعاب ومتاعب فاكتساح شربورج بجيش ينزل من البحر فى مواجهة المقاومة الألمانية التى قد تفوق قواتنا عددا وتفيد من حصونها المنيعة ، عملية فى غاية الخطورة ، ولو كُتب لهذه العملية النجاح ، فان قوات الحلفاء ستجد نفسها مضطرة الى البقاء محصورة فى شربورج وشبه جزيرة كوتنتان مدة عام على الأقل ، تعتمد على نفسها فى التزود بما يفتقر اليه من المؤن والذخائر ، وتتصدى لضرب الطائرات والمدفعية المتواصل والطريق الوحيد لايصال هذه الامدادات هو ميناء شربورج نفسه الذى يتحتم علينا الدفاع عنه ضد غارات جوية مستمرة ومتفوقة فى الغالب طيلة فصلى الشتاء والربيع ، ومثل هذه العملية سوف تَفرِض على مواردنا البحرية والجوية حِملا ثقيلا ، قد يستنزفها ويؤثر على عملياتنا الأخرى واذا كُتِبَ لنا النجاح فى هذه العملية فَسَنُرغَمُ على الخروج من شبه جزيرة كوتنتان فى فصل الصيف المقبل بعد أن تكتسح سلسلة طويلة من خطوط الدفاع الألمانية التى تقوم بحمايتها أية قوات يمكن الألمان توفيرها للدفاع عنها .

ولو تحقق هذا فرضا فلن يكون هناك سوى خط حديدى واحد يمكننا استخدامه فى التقدم ، ولا شك فى أن الألمان سيحطمونه قبل ان نتمكن من استخدامه والى جانب هذا لا يمكننى أن أفهم كيف يمكن أن يساعد هذا المشروع الفاشل روسيا ، فقد خَلَّفَ الألمان فى فرنسا خمسا وعشرين فرقة متحركة وليس فى وسعنا أن نُجَهِّزَ قبل شهر أغسطس أكثر من تسع فرق لعملية المطرقة ، من بينها سبع فرق

بريطانية ، ولهذا لم تكن هناك حاجة لدى القيادة الألمانية الى إستدعاء فرق جديدة من الجبهة الروسية ·

وفى الوقت الذى أخذت فيه هذه الحقائق وما شاكلها تظهر ببشاعتها أمام ضباط الأركان ، بدأ شيء من الريب والاحتياج الى الحماسة يظهر لا عند ضباط الأركان البريطانيين فحسب ، بل عند رفاقهم من الأمريكيين أيضا .

وظلّت محادثات الأركان جارية طوال فصل الصيف . هذا وقد تم العدول عن عملية المطرقة الكبرى بالاجماع ، ولم ألق من الجهة الاخرى تأييدا ايجابيا [لعملية المشترى] فى شمال النرويج · واتفقنا كلنا على أن نقوم بغزو رئيسى عبر القناة فى عام ١٩٤٣ وكان السؤال الذى يحضر فى أذهاننا بصورة واضحة لا تقبل الجدل والنقاش هو : ماذا سنصنع فى هذا الوقت ؟ لقد كان من العسير أن تقعد بريطانيا وأمريكا دون قتال ، طوال هذه الفترة الا فى معركة الصحراء ، وكان الرئيس مصرا على أنه يجب على الامريكيين أن يحاربوا الالمان على أوسع نطاق مستطاع إبان عام ١٩٤٢ ·

ولكن فى أى ميدان يمكن أن يجرى هذا القتال ؟ إنه لا يمكن أن يجرى الا فى أفريقيا الشمالية الفرنسية · وقد إرتضى الرئيس هذا المشروع · وهكذا يمكن للخطة الصالحة أن تبقى دون غيرها من الخطط وأنا فى انتظار الرد الأمريكى ·

موسكو

الاجتماع الأول

فى ساعة متأخرة من ليلة العاشر من شهر أغسطس بعد أن تناولنا العشاء فى دار سفارة القاهرة الرائعة الجميلة مع عـــدد من الشخصيات ، بدأنا رحلتنا الى موسكو ، وكان فريقى الذى شـــغل رجاله ثلاث طائرات حينذاك ـ يتكون من رئيس أركان حرب الامبراطورية والجنرال « ويفــل » الذى يعرف الروسية وماريشال « الجو تيدر » والسير «اليكسندر كادوجان» وكان افريل هاريمان قد وصل أخيرا من أمريكا بناء على طلب منى قدمتــه الى الرئيس ، وقد سافرنا معا فى طائرة واحدة ، وعند الفجر ، كنا نقترب من جبال كردستان ، حيث كان الجو بديعا ، وكان طيارنا « فاندركلوت » فى أحسن حالاته ، وعندما اقتربنا من هذه الأرض الجبليـــة السامقة .. سألته عن الارتفاع الذى يعتزم أن يبلغه فى طيرانه فقال : انه تسعة آلاف قدم وهو إرتفاع مناسب ، ثم حانت منى التفاتة الى الخريطة فرأيت قمماً يرتفع بعضها الى أحد عشر ألفا أو اثنى عشر الفا كما رأيت أحداها ترتفع الى ثمانية عشر الفا أو عشرين الفا ، وان كانت بعيدة ، وفى وسع المرء ، ما لم تعترضه سحب مباغتة تحيط به أن يسلك سبيلا ملتويا بين الجبال فى أمان وطمأنينة ، ومع ذلك طلبت الارتفاع الى مدى اثنى عشر ألفا وبدأنا نمتص الأوكسجين من آنابيبنا ، وعندما هبطنا فى الثامنة والنصـــف صباحا فى مطار طهران ـ ولكنا قد اقتربنا من الأرض ـ لاحظت أن جهاز قياس الارتفاع ، كان يسجل أربعة آلاف وخمسمائة قدم فقلت ـ عن جهل ـ « من الأفضل اصلاح هذا الجهاز قبل أن نستأنف الطيران من طهران » ، فرد « فاندركلوت » قائلا : « ان مطار طهران يرتفع مثل هذه المسافة على سطح البحر » .

وكان السير «ريدر بولارد» وزير جلالته المفوض فى طهران ينتظرنى بالمطار ، وقد كان بريطانيا يتســـم بالعنف والقسوة ، وله خبرة طويلة بشئون ايران ولا يجرى وراء الأوهام .

وقد تأخرنا كثيرا ، حتى أننا لم يعد فى وسعنا اجتياز جبال البروز قبل أن ينشر الظلام جناحيه ، وقد دعيت لتناول الغذاء مع الشاه فى قصر به حوض سباحة رائع يقوم وسط أشجار عالية على ارتفاع ملحوظ بين الجبال ، وكانت القمة العظمى التى لاحظتها فى الصباح على الخريطة تسطع أضواؤها بألوان قرمزية وبرتقالية ، وقد عقدنا فى حديقة دار المفوضية البريطانية بعد الظهر ،اجتماعا طويلا حضره أفريل هاريمان وكبار موظفى السكك الحديدية من بريطانيين وأمريكيين ، وتقرر أن تتولى أمريكا ادارة السكك الحديدية عبر ايران كلها من خليج البصرة الى بحر قزوين · وكان هذا الخط الحديدى ـ الذى قامت باتمامه شركة هندسية بريطانية ـ آية فى روعة العمل الهندسى : فقد اشتمل على ما يقرب من ٣٩٠ جسرا كبيرا على طول الخط عبر المضايق الجبلية وقال هاريمان : ان الرئيس يرغب فى تحمل المسئولية الكاملة عن ادارته وتشغيله الى أبعد حدود طاقته ، وفى وسعه أن يؤمن له القاطرات والعربات والخبراء فى وحدات عسكرية الى الحد الذى نعجز عن تأمينه ، ولذا فقد وافقت على عملية النقل هذه بشرط أن ينص على اعطاء الأولوية لاحتياجاتنا العسكرية الملحة · وقد قضيت ليلى فى القصر الصيفى للمفوضية البريطانية ، وهو يرتفع عن طهران بما يقرب من ألف قدم بسبب شدة الحر وضوضاء العاصمة ، حيث بدا وكأن كل شخص يملك سيارة تنطلق الأصوات من أبواقها باستمرار ·

وفى السادسة والنصف من صباح اليوم التالى وكان يوافق الثانى عشر من أغسطس غادرنا طهران وارتفعنا ونحن نطير فوق الوادى العظيم الذى يؤدى الى « تبريز » ثم اتجهنا شمالا الى « اينزلى » على بحر قزوين ، واجتزنا هذه السلسلة الثانية من الجبال على ارتفاع يقرب من أحد عشر ألف قدم لنتفادى قممها وسحبها فى آن واحد وكان معنا الضباط الروس وقد تحملت الحكومة السوفيتية مسئولية سيرنا وسلامة وصولنا ، وبدت المردة من الجبال المغطاة بالثلوج الى الشرق ، ولاحظت أننا نطير وحدنا ، وقد أوضحت لنا احدى الرسائل اللاسلكية سبب تأخر طائرتنا الثانية التى تضم رئيس أركان الامبراطورية وويفل وكادوجان وغيرهم إذ إضطرت الى العودة الى طهران بسبب خلل طرأ على آلاتها ، وبعد ساعتين كنا فوق مياه بحر قزوين ، ثم لاحت لأعيننا « إينزلى » أسلفنا ولم أكن قد رأيت بحر قزوين من قبل ولكنى تذكرت : كيف أننى قبل ربع قرن تقريبا ـ وكنت اذ ذاك وزيرا للخزينة ـ ورثت أسطولا ، ظل يسيطر سنة كاملة على مياهه الهادئة الشاحبة ، وقد هبطنا الآن الى ارتفاع لم نعد فيه بحاجة الى كميات اضافية من الاكسجين على شواطىء البحر الغربية التى كنا لانرى

منها الا لماما حيث تقوم آبار بترول « باكو » وكانت الجيوش الألمانية قد اقتربت حينذاك من بحر قزوين ، فاتجهنا بطائرتنا الى « كويبيشيف » مبتعدين عن ستالينجراد ومناطق القتال ووصلت بنا هذه الحركة الى دلتا نهر الفولجا تقريبا وامتدت آفاق شاسعة من الأرض الى أقصى مدى وكانت هذه الأراضي تبدو منبسطة سوداء ، لا أثر فيها لحياة انسان ، وكنا نرى هنا أو هناك أجزاء مخططة محروثة من الأرض ، تشير الى وجود مزرعة للدولة ورأينا نهر الفولجا العظيم ينساب في دعة بين خطين عريضين من المستنقعات الواسعة ، كما كنا نرى أحيانا طريقا مستقيما كل الاستقامة يمتد من أفق شاسع إلى آخر ، وبعد أن قضيت ساعة في إستجلاء روعة هذا المنظر الذي يستهوي الأفئدة ويسحر العقول ، عدت أنشد الراحة فاستسلمت للنوم .

وقد فكرت في أمر هذه الدولة البلشفية التي كنت بَرِماً بها ، حيث حاولت جهدي خنقها عند ولادتها ، وكنت أعتبرها حتى ظهور هتلر العدو الأول للحرية الحضارية ، وأخذت أسأل نفسي ماذا ينبغي أن أقول لرجال هذه الحكومة الآن ؟ لقد لخص الجنرال ويفل – ذو الميول الأدبية – كل ما أريد أن أقوله في قصيدة واحدة ·· كانت هناك أبيات كثيرة من الشعر ولكن البيت الأخير من كل مقطع كان هو : « لن تكون هناك جبهة ثانية في عام تسعمائة واثنين وأربعين » إن هذا القول أشبه ما يكون بنقل كمية هائلة من الثلج الى القطب الشمالي · ومع ذلك فقد شعرت أن من واجبي أن أنقل اليهم الحقائق شخصيا ، وان أجابه بها ستالين وجها لوجه بدلا من أن أَكِلَها الى البرقيات والوسطاء ، فمثل هذا الاتصال المباشر يبدي اهتمامنا بهم وبمصائرهم – على الاقل – ويوضح تفهمنا لما يعنيه كفاحهم للحرب عامة ، وقد كنا بالطبع نكره دائما نظام حكمهم ، كما كانوا هم كذلك الى أن هوى سوط الألمان عليهم ·· انهم كانوا يؤثرون رؤيتنا – ونحن نمحى من الوجود – دون إهتمام ليقتسموا امبراطوريتنا في الشرق مع هتلر فرحين ·

ولما كان الجو مناسبا والريح مواتية ، وكانت رغبتي قوية عارمة في الوصول الى موسكو بأسرع وقت ممكن : تقرر أن نختصر الطريق عند زاوية « كويبيشيف » ونتجه فورا الى العاصمة وكل ماخشيته أن نكون قد أضعنا عليه مأدبة رائعة وحفاوة كبيرة بروح الكرم الروسي الصادق وفي الساعة الخامسة تقريبا بدأت قباب موسكو ومنائرها تبدو امامنا وقد طفنا حول المدينة في طرق تم تخطيطها بعناية ومهارة وتم تحذير بطاريات

المدافع المضادة من اطلاق النار على طائرتنا ثم هبطنا فى المطار الذى قدر لى أن أعود اليه فى أثناء زيارتى له ابان الحرب .

ورأيت أمامى مولوتوف على رأس مجموعـــة من الجنــرالات ورجال السلك الدبلوماسى مع عدد ضخم من مصورى الصحف الذين اعتدنا أن نشاهدهم فى مثل هذه المناسبات ، وقـــد استعرضنا حرس شرف رائع الهندام على نظام عسكرى طيب ، وبعد أن عزفت الأناشيد الوطنية للدول العظمى الثلاث التى ستقرر مصير هتلر ، توجهت الى مكبر الصوت والقيت كلمة قصيرة وتحدث « أفريل هاريمان » بالنيابة عن الولايات المتحدة ، وقد تقرر أن يقيم هاريمان فى دار السفارة الامريكية ، أما أنا فقد حملنى مولوتوف بسيارته الى المكان الذى أعد لنزولى على بعد ثمانية أميال من موسكو وهى « دار الدولة رقم ٧ » . وحيثما كنا نمر فى شوارع موسكو التى بدت خالية تماماً ، أدنيت زجاج النافذة ، وكم أدهشنى أننى رأيت سمك زجاج النافذة يربو على البوصتين ، على أن هذا التحفظ قد فاق كل ما سبق أن مارسته أو باشرته من تجربة . وقال المترجم «بافلوف» : « يقول الوزير ان هذا أكثر حيطة وحكمة » ، وبعد اكثر من نصف ساعة بقليل كنا فى المكان الذى خصص لى .

وقد أعد كل شىء بما عُرف عن الأنظمة الجماعية من افراط ، على أنه كان تحت أمرتى ضابط مرافق رائع الصورة مهيب الطلعة ، يمت الى احدى الأسر النبيلة فى عهد القياصرة ـ فيما أعتقد ـ وقـــد قام بدور المضيف بالنسبة لى فكان نموذجا طيبا لدماثة الخلق والعناية ، وكان هناك عــدد من الخدم المهرة يرتدون ملابسهم البيض التقليدية تعلو وجوههم إبتسامة مشرقة ، وقد وقفوا ينتظرون تلبية كل طلب أو اشارة من الضيوف ، وفى غرفة الطعام ، مدت مائدة كبيرة وعدد آخر من الموائد الصغيرة ، حوت ألذ وأطيب ما يمكن أن يجمعه المرء على مائدة من ألوان الطعام ، وقـــد كشفت الانوار الكهربية الساطعة روعة الحمّام ونظافتـــه .. تفجر منه المـاء الساخن والبارد وتاقت نفسى الى حمام ساخن يزيل ما عانيت من ارهاق وما أصابنى من حرارة الجو فى رحلة طويلة شاقة .. وفى سرعة فائقــة أعد كل شىء .. ولاحظت أن الأحواض لا تمتلىء بالمـاء الساخن أو البارد كل منها على حدة ، بل ينزل المـاء من صنبور واحد وفقا لدرجة الحرارة التى يرغبها المرء ، ولا يغسل الانسان يديه فى الحوض ، بل تحت السيل المتدفق من المـاء وقد اقتبست هذا النظام فى بيتى ، وأستطيع أن أقول : انه اذا توافرت المياه فتلك هى الطريقة المثلى .

وبعد أن أشبعت رغبتي في الغطس والاستحمام انضممت الى الرفاق في قاعة الطعام ، حيث قدم لنا كل ألوان الطعام والشراب وفي مقدمتهـا ـ الكافيار والفودكا ـ مع عدد من ألوان الخمور الفرنسيـة والالمـانيـة وأطعمتها بشكل لا يمكننا الاتيان عليه ولم يبق أمامنا سوى وقت قصـير ننتقل بعده الى موسكو ، وقد أبلغت مولوتوف أنني سـأكون متأهبـاً لمقابلة ستالين تلك الليلة ، وقد اقترح مولوتوف أن يتم الاجتماع في السابعة .

ووصلت الى الكرملين ، واجتمعت لأول مرة بالزعيم الثوري العظيم والسياسي الروسي المكتمل ، ذلكم المحارب الذي قـدّر أن ارتبـط به ارتباطات رسمية وثيقة فضلا عن أنها مثيرة وان كانت أحيانا في منتهى الرقة والدماثة ، وقد استغرق اجتماعنا أربع ساعات كاملة ، ولمـا كانت طائرتنا الثانية لم تصل بعد حاملة « بروك وويفل وكادوجان » فقد اقتصر الحاضرون على « ستالين ومولوتوف وفورشيلوف وعليّ أنا وهريمان وسفيرنا في موسكو مع عدد من المترجمين » وقد استنـدت في الوصف التالي على تدويننا للوقائع كما تذكرتها فيما بعد وكما بعثت بها في برقياتي الى الوطن حينئذ .

وكان الجفـاف والفتور يسـودان الساعتين الأوليين وقـد بدأت الحديث فورا عن الجبهة الثانية قائلا : انني أود التحدث بصراحة كمـا أطلب من ستالين أن يبادلني الصراحة نفسها ، فمـا قـدمت الى موسكو الاّ لأنني أحس بأنه يستطيع البحث في الأمور الواقعية ، فعنـدما جاء « مولوتوف » الى لندن ، كنت قد أبلغته اننا نقوم بمحاولة لوضـع خطط لتحويل بعض ضغط الألمـان الى فرنسـا ، ولـكنني كنت قـد أوضحت لمولوتوف انه ليس في وسعي أن أعد بشيء في عام ١٩٤٢ ، وقد سلمته مذكرة تتضمن هذا المعنى ، ثم بدأت منذ ذلك التاريخ دراسـات شاملة مفصلة من جانب بريطانيا وأمريكا معا لهذه المشكلة وقد توصلت الدولتان الى الاستنتاج بأنهما تعجزان عن القيام بعملية رئيسية في سبتمبر ـ وهو الشهر الأخير من السنة الذي يمكن الاعتماد على طقسه للقيام بمثل هذه العملية ـ لـكن الدولتين ـ كما يعلم ستالين ولا شك ـ تعـدان العدة للقيام بعملية عظيمة في عام ١٩٤٣ ، ولهذه الغاية من المنتظر أن يصل الى مراكز التجمع في انجلترا في ربيـع عام ١٩٤٣ ، ما يقرب من مليون جندي امريكي ، يؤلفون حملة تضم سبعا وعشرين فرقة تضيف اليهـا بريطانيا احدى وعشرين فرقة أخرى ، وسيكون نصف هذه القوات تقريبا من سلاح المدرعات ولم تصل الى بريطانيا حتى الآن الا فرقتان ونصف

فرقة ، لكن أضخم عمليات النقل ستتم فى أشهر اكتوبر ونوفمبر وديسمبر ·

وقد قلت لستالين : اننى أعرف أن هذه الخطة لا تحقق مساعدة لروسيا فى عام ١٩٤٢ ، ولكننى أعتقد أن من الممكن حينما يتم الاعداد لخطة عام ١٩٤٣ ، أن يكون للألمان جيش فى الغرب أقوى مما لديهم الآن وعندما وصلت إلى هذه النقطة تجهم وجه ستالين وبدا عليه العبوس ، ولكنه لم يقطع علىّ حديثى ، وقلت : ان لدى أسبابا قوية تحول دون القيام بهجوم على الساحل الفرنسى فى عام ١٩٤٢ ، فليست لدينا الآن وسائل ومعدات للانزال تكفى ممارسة انزال أكثر من ست فرق والمحافظة عليها عند وقوع هجوم على ساحل محصن ، واذا نجح هذا الهجوم ، فقد يكون فى وسعنا أن نبعث بفرق أخرى ، على أن افتقارنا الى وسائل الانزال هو العامل الذى يحدد أية حركة من جانبنا ، وهو افتقار نحاول اصلاحه الآن بالاكثار من تهيئة وبناء هذه الوسائل فى بريطانيا ، ولاسيما فى الولايات المتحدة وقد يكون فى وسعنا أن ننقل فى العام المقبل ثمانى فرق أو عشراً مقابل كل فرقة نستطيع نقلها هذا العام ·

وقد بدا ستالين متجهما مقطب الجبين ، وكأنه غير مقتنع بكل ما قلته ، ثم سأل : أيستحيل أن نقوم بمهاجمة أى جزء من الساحل الفرنسى ؟ فعرضت عليه خريطة توضح العقبات التى تحول دون اقامة مظلة قوية فوق قوات الغزو ، الا فوق « مضايق دوفر » وبدا لى أنه لم يفهم ووجه بضعة أسئلة عن سرعة الطائرات المحاربة فيها ، أو ليس فى استطاعة هذه الطائرات مثلا أن تغدو وتروح طيلة الوقت ؟ وقد أوضحت أن فى وسعها أن تفعل ، ولكنها فى مثل هذا المدى لا يمكنها أن تحارب ، وأضفت : ان من الواجب الابقاء على أية مظلة مفتوحة ، اذا أريد منها أن تكون مجدية ، وقال : انه ليست هناك فى فرنسا أية فرقة ألمانية ذات قيمة ، وهى جملة عابرة سارعت الى نفيها ودحضها وأكدت له أن فى فرنسا الآن خمساً وعشرين فرقة ألمانية بينها تسع من فرق الخط الأول ، وهز ستالين رأسه وقد داخله الشك فى ذلك ·· وقلت له اننى قد اصطحبت معى رئيس أركان حرب الامبراطورية والجنرال « ويفل » للبحث فى مثل هذه النقاط بالتفصيل مع أركان الحرب الروسى فهناك نقطة يقف عندها الساسة فى مناقشاتهم المتعلقة بمثل هذه الموضوعات ولا يستطيعون مجاوزتها ·

وقال ستالين ـ وقد اشتد تجهمه : انه قد فهم منى اننا عاجزون عن فتح جبهة ثانية بقوات كبرى ، واننا غير راغبين فى انزال ست فرق ،

فأكدت له انه في وسعنا انزال ست فرق ، ولـكن الضرر الذى يحدث ، نتيجة انزالها أكبر من النفع الذى يترتب على هذا الانزال ، اذ أنه سيؤثر تأثيرا ضارا على العملية الكبرى التى نعد العدة للقيام بها فى العام المقبل : فالحرب حرب لا حماقة ، ومن الحماقة أن يسعى الانسان بنفسه الى كارثة لا نفع فيها لأى فريق ، وقلت له : اننى أخشى أن تكون الأنباء التى حملتها سيئة وانه اذا كان فى استطاعتنا أن نبعث ما بين مائة وخمسين ألفا الى مائتى ألف من الجنود ـ كمظاهرين له ـ وأنها ستكون قادرة على سحب قوات ألمانية ضخمة من الجبهة الروسية ، فثقا لن نتردد لحظة واحدة فى القيام بهذه الخطوات مهما تكبدنا بسببها من خسائر ، أما اذا لم تؤد الى سحب أية قوات ، فان القيام بها يكون خطأ فادحا ، ولا سيما اذا كانت تؤثر على آمالنا فى « حملة عام ١٩٤٣ » ..

وقال ستالين ـ وقد بدا عليه القلق ـ : ان نظرته الى الحرب تختلف عن نظرتنا ، فالرجل الذى لا يكون مستعدا للمجازفة لا يستطيع أن يظفر فى الحرب ، فلماذا اذن هذا الخوف الشديد من الألمان ؟ انه لا يستطيع أن يفهم له سببا ، وقد علمته التجارب أن القوات ينبغى أن تدمى فى المعارك ، واذا لم تعرض قواتك للدماء فلن تقوى على الحكم على قيمتها ، وسألته : ألم تسأل نفسك أبدا لماذا أحجم هتلر عن غزو انجلترا فى عام ١٩٤٠ عندما كان فى أوج قوته ولم يكن لدينا أكثر من عشرين الف جندى مدربين ومائتى مدفع وخمسين دبابة ، ولـكنه لم يقم بهجوم ، لأن هتلر خاف أن يقوم بالعملية ، فليس من اليسير اجتياز قناة المانش ، ورد ستالين قائلا : ان ما قلته لا يعتبر تشبيها فان نزول هتلر فى انجلترا سيلقى مقاومة من جانب الشعب ، أما نزول البريطانيين فى فرنسا ، فسيرحب به الشعب الفرنسى ، وهنا أوضحت له ، ان هذا ينحى جانبا فكرة الغزو غير الناضجة ، اذ أن أى تراجع آخر سيعرض الشعب الفرنسى لانتقام هتلر ، ويبدد قوى هذا الشعب التى سنفتقر اليها أشد الافتقار فى عملية عام ١٩٤٣ الـكبرى » .

وابتسم ستالين ابتسامة متكلفة ، وقال أخيرا : اننا اذا لم نستطع أن ننزل فى فرنسا هذا العام ، فليس من حقه الالحاح على ولـكنه يرى أن من واجبه أن يقول : انه لا يسايرنى فى آرائى ..!

وقد عرضت حينئذ خريطة لجنوب شرقى أوروبا والبحر المتوسط وشمال افريقية ، فما هى اذن الجبهة الثانية ؟ أتراها مجرد نزول على ساحل محض مقابل انجلترا ؟ أم أنها يمكن أن تتبلور فى مشروع آخر

ضخم ، قد يكون مفيدا للقضية المشتركة ؟ وقــد رأيت من الأفضل أن أمضي به جهة الجنوب في خطوات ، وقلت : اننـا اذا استطعنا مثلا أن نوقف تقدم العدو فى خليج كاليه بوساطة جمع قوات ضخمة في بريطانيا واذا استطعنا في الوقت نفسه أن نقوم بالهجوم مثـلا فى « اللوار » أو « الجيروند » أو « الشلدات » فان مثل هــذا الهجوم ، سيــكون مفعما بالاحتمالات ، فهناك حتما صورة شاملة للعملية الكبرى فى العام المقبل . وقد أعرب ستالين عن خشيته ألا تكون خطتنا عملية ، وقد رددت عليــه بأن من المتعذر حقا انزال مليون رجل ولـكن علينا أن نحاول ونصل الى النجاح ! . .

وبعد ذلك تحولت الى موضوع الغارات على المانيا وقد قبلنا ما دار حوله من بحث وقد أكد ستالين أهمية تحطيم معنوية الشعب الألمـانى ، وقال : انه يعلق أهميـــة كبيرة على عمليـــة الهجوم الجوى وانه يدرك أن غاراتنا تخلف وراءها أثرا كبيرا فى المـانيا .

وبعد هذه المقدمة ــ التى كان لها أثر بالغ فى تخفيف حدة التوتر بعض الشيء ــ قال ستالين : انه يفهم من حديثنا الطويل اننا لن نقوم بعملية « مطرقة » أو عمليـــة « طراد » وان كل ما سنقوم به لا يتجاوز ضرب ألمانيا من الجو ، وقررت أن أمنحه الجرعة المرّة أولا ، وأن أهييء الجو الصالح للمشروع الذى قدمت لعرضه والـكشف عنه ، ولهذا لم أحاول بصفة عاجلة أن أخفف من اكفهرار الجو المحيط بى ، وقلت ان من المحتم أن يكون الحديث بين الأصدقاء والزملاء الذين يتعرضون للمخاطر سويا فى غاية الصراحة ، لـكن دماثة خلقى انتصرت أخيرا .

وعندما حان الوقت للقيام بعملية « المشعل » قلت : اننى أرغب فى العودة الى موضوع الجبهة الثـــانية فى عام ١٩٤٢ وهو الموضوع الذى قدمت من أجله ، فأنا لا أعتقد أن فرنسا هى المـكان الوحيد الذى يصلح لمثل هذه العملية ، فهناك أماكن أخرى وقـــد اتخذنا نحن والأمريكيون قرارنا ــ المتعلق بخطة أخرى ــ خولنى الرئيس الامريكى أن أفضى اليك بصورة سرية ، ولذا سـأفضى بها اليـــك الآن مؤكدا أهميـــة السرية وضرورتها . وهنا جلس ستالين مقطب الحاجبين وقال : انه يأمل الا ينشر شيء عن هذه الخطة فى الصحف البريطانية .

وأخذت أشرح لستالين بالتفصيل عملية « المشعل » ، وفي خـلال حديثى هذا رأيت ستالين وقد بدت على وجهه علامات الاهتمام ، وكان أول سؤال وجهه السؤال التالى : ما الذى سيحدث فى اسبانيا و « فرنسا ــ

فيشى ؟ » ٠٠ وبعد قليل كان تعقيبه : ان العملية سليمة من الناحية العسكرية ، بيد أن هناك بعض الشكوك السياسية حول تأثيرها على فرنسا ، ثم سأل ـ بصورة خاصة ـ عن موعد تنفيذ العملية فقلت : إنه لن يتأخر عن الثلاثين من اكتوبر ، وان كان الرئيس ونحن جميعا ، نحاول تقديم الموعد الى السابع من اكتوبر ، وبدا أن ما قلته قد بعث فى نفوس الروس الثلاثة ، بعض الارتياح ٠

وبدأت أوضح المزايا العسكرية التى يكلفها تحرير البحر المتوسط حيث يمكن فتح جبهة اضافية فيه ، واستطردت أقول : انه يجب أن ننتصر فى مصر فى شهر سبتمبر ، وفى شمالى افريقية فى اكتوبر ، وأن نكبح جماح العدو ، ونحصر قواته فى شمال فرنسا ، واذا استطعنا أن نختتم العام باحتلال شمال افريقية كله ، فانه سيكون فى طاقتنا أن نهدد قلب أوروبا ـ « هتلر » ، على أن هذه العملية ستكون متمشية مع « عملية عام ١٩٤٣ » ، وهذا ما اتفقنا عليه نحن والامريكيون !٠

ومن أجل توضيح هذه النقط التى عالجتها ، رسمت صورة تمساح وشرحت لستالين ـ مستعينا بالصورة ـ تصميمنا على مهاجمة بطن التمساح الناعم فى الوقت الذى نهاجم فيه أنفه الصلب ، وكان اهتمام ستالين قد بلغ ذروته فى ذلك الوقت فقال : « ليكلل الله هذا المشروع بالنجاح » ٠٠!

وقد أكدت له رغبتنا فى تخليص الروس من هذا العبء ولو أردنا ذلك فى شمال فرنسا ، فسنصاب بنكسة ، واذا قمنا به فى افريقيا الشمالية ، فان لدينا فرصة كبيرة للنصر ، وسيكون فى طاقتنا بعد ذلك أن نساعد أوربا ، واذا هيمنا على شمالى افريقية ؛ فسيجد هتلر نفسه مرغماً على سحب قواته الجوية والا فسنحطم حلفاءه وفى مقدمتهم ايطاليا ، وندخل بلادها ، وسيكون لهذه الوثبة أثر هام فى تركيا وجنوب أوربا بأكمله ، وأخشى ما أخشاه ، أن نُجبر على تعجل الأمور ، واذا هيمنا على شمال افريقيا فى هذا العام فسوف يكون فى امكاننا أن نقوم بهجوم ساحق على هتلر فى العام القادم ، لقد كان هذا الموضوع نقطة تحول فى مباحثاتنا ٠

وقد بدأ ستالين حينئذ يعرض العقبات السياسية وقال : ان الاستيلاء على مناطق عملية المشعل يساء فهمه فى فرنسا وسأل عما سنصنعه بديجول ؟ فأجبته : اننا فى هذه الفترة لا نريد أن يتدخل ديجول ، ومن المتوقع أن يطلق « فرنسيوافيشى » النار على الديجوليين

دون الامريكيين وعضد « هاريمان » قولى هذا فى حماسة نظرا للتقارير التى يستند اليها الرئيس والتى ترد اليه من عملاء أمريكا فى كل مناطق عملية « المشعل » بالاضافة الى آراء الأميرال « ليهى » ٠

وقد اتضح لى أن « ستالين » لاحظ فجـأة فى هذه اللحظة مزايا عملية « المشعل » الاستراتيجية وذكر أربعة أسبـاب رئيسية تدعو الى القيام بها ، أولها : انها ستؤدى الى اصابة مؤخرة روميل ، وثانيها : انها سترعب اسبانيا ٠ وثالثها : انها ستؤدى الى قيـام قتـال بين الألمـان والفرنسيين فى فرنسا ٠ ورابعها : انها ستعرض ايطاليا لسهام الحرب ٠

وقد ترك هذا البيان الرائع الذى أوضح ادراك الدكتاتور الروسى السريع الكامل ، لمشكلة كانت حتى وقت قصير جديدة بالنسبة اليه ــ أثرا بالغا فى نفسى ، ولا مرية فى أن قلة قليلة من الأحياء كان فى طاقتها أن تدرك ــ فى وقت قصير ــ الأسباب التى كنا جميعا نصطرع معها شهوراً طويلة ، فلقد أدركها كلها فى لحظة واحدة ٠

وهناك سبب خامس ذكرته وهو : اختصار الطريق البحـرى عبر البحر المتوسط وقد كان ما يقلق ستالين أن يعرف ، هل يمكننا أن نجتاز مضايق جبل طارق ، فأكدت له أن كل شىء سيسير على ما يرام وأبلغته ، ما أحدثته فى مصر من تغييرات ، كما أخبرته بتصميمنا على خوض معركة حاسمة هناك فى أواخر شهر أغسطس أو سبتمبر ، واتضـح أخيرا أن عملية « المشعل » قد نالت اعجاب الجميع وان كان مولوتوف قد تساءل عما اذا لم يكن فى وسعنا تنفيذها فى شهر سبتمبر أولا ؟ ٠

ومضيت أقول : « لقد انحدرت فرنسا الى الحضيض ٠٠ ونريد أن نعيدها الى الحياة من جديد وقد علمت فرنسـا ما حدث فى مدغشـقر وسوريا ، ولا مرية فى أن وصول الامريكيين سيؤدى الى وقوف الشعب الفرنسى كله الى جانبنا ؛ وسيدرك فرانكو الخوف وقد يطلب الألمـان من الفرنسيين أن يعطوهم الأسطول الفرنسى وطولون فورا ، ومثل هـذا المطلب جدير باثارة عداوات جديدة أخرى بين « فيشى » و « هتلر » .

وهنا أخذت أتكلم عن امكان وضع بعض السلاح الجوى البريطانى ــ الأمريكى فى الجناح الجنوبى من الجيوش الروسيـة حتى يساهم فى الدفاع عن بحر قزوين وجبال القوقاز ، وفى القتال بصورة عامة فى هذه الجبهة ، بيد أننى لم أستمر فى سرد التفاصيل ، اذ كان علينا بالطبع أن نكسب معركة مصر أولا ، ولم تكن قد توافرت لدى أفكار الرئيس عن مدى

مساهمة الامريكيين فى هذه الخطة ، وسألت ستالين : هل يوافق أولا على هذه الفكرة حتى نبدأ فى اعداد التفاصيل المتعلقة بها ؟ وقد رد : « ان الروس سيكونون شاكرين جدا لهذه المساعدة وأضاف : ان تفاصيل الأماكن تحتاج الى درس أوفى ، وقد كنت مهتما أبلغ الاهتمام بهذا المشروع لأنه سيهيىء الفرصة لحدوث اشتباكات عنيفة بين الانجليز والامريكيين من ناحية ، والألمان من ناحية أخرى ، مما يؤدى الى الظفر بالسيادة الجوية فى ظروف أكثر جدوى من البحث فوق « خليج كاليه» عن المتاعب !

وقد اجتمعنا فى هذا الوقت حول صورة مجسمة للأرض وأوضحت لستالين ما يترتب على تطهير البحر المتوسط من العدو من مزايا كبيرة وقلت له : اننى سأكون تحت تصرفه ان أراد أن يرانى مرة أخرى . فرد : لقد جرت عادة الروس على أن يذكر الضيف ما يريد وأكد أنه على استعداد لاستقبالى فى كل وقت ، وها هو ذا قد علم الآن أسوأ ما كان ينتظر ؛ ولكننا انصرفنا فى جو يسوده حسن النية .

وقد استغرق الإجتماع حتى هذا الوقت أربع ساعات ومضت نصف ساعة أخرى بطيئة ونحن فى الطريق إلى « دار الدولة رقم ٧ » ولما كنت منهكا ، فقد أمليت برقيتى الى وزارة الحرب والى الرئيس روزفلت بعد منتصف الليل ، وتوجهت الى فراشى بعد ذلك وقد شعرت أن الجليد قد ذاب ، وأن اتصالا روحيا قد تم ، ثم داعب النوم جفونى ورحت فى سبات عميق .

موسـكو

علاقات توثقت ..

في ساعة متأخرة من صباح اليوم التالى استيقظت فى جناحى المترف الذى تبدو من جنباته مظاهر الرفاهية ، وكان يوم الخميس فى الثالث عشر من شهر أغسطس — هو يوم « بلتهايم » بالنسبة لى — وكنت قد وضعت ترتيبا لزيارة مولوتوف فى الكرملين عند الظهيرة ، لأسرد له تفاصيل أوسع وأوفى عن طبيعة مختلف العمليات الحربية التى نفكر فيها ، وقد أشرت إليه إلى مدى ما كان سيلحق بالقضية المشتركة من أضرار لو تخلينا عن مشروع « المطرقة » وما يثيره من شكوك سترغمنا على الدخول فى مناقشات علنية حول مثل هذا الموضوع وأوضحت بأسهاب ما تنطوى عليه عملية « المشعل » من هدف سياسى وكان يستمع الى بصورة ودية دون أن يشترك فى الحديث ، واقترحت عليه ان « التقى بستالين مرة أخرى فى العاشرة من مساء ذلك اليوم ، وفى ساعة متأخرة أُخبرت بأن الموعد سيكون فى الحادية عشرة ، وطلب الى أن أُحضر « هاريمان » معي لأن الحديث سيدور حول الموضوعات التى بحثناها بالأمس فرددت بالايجاب وقلت : اننى سأُحضِرُ معى أيضا : « كادوجان وبروك وويفل وتيدر » الذين وصلوا بسلام من طهران فى طائرة روسية ، وقد كان من الممكن أن يتعرضوا مع طائراتهم «الليبراتور» لنيران خطرة .

وقبل أن أغادر مكتب هذا الديبلوماسى — الذى يتسم بالرقة والحزم — نظرت اليه وقلت : لا شك فى أن ستالين سيرتكب أفدح الاخطاء اذا ظل يعاملنا بمثل هذه الغلظة بعد أن قطعنا هذه المسافات الطويلة فى سبيل لقائه ،ولأول مرة لم ينحن مولوتوف وقال : « إن ستالين رجل فى غاية الحكمة وعليك ان تتيقن أنه مهما ناقش فإنه يفهم كل شىء ، وعلى أية حال سأخبره بكل ما تقول » .

وقد رجعت فى الظرف المناسب للغداء فى « دار الدولة رقم ٧ » وقد كان الطقس لطيفا يشبه تماما جو إنجلترا الذى نعشقه ، وتراءى

لى أن فى طاقتنا أن نستكشف المتأنقة . « والدار » منزل ريفى جميل فسيح حديث البناء يقع بين مروج واسعة وحدائق كبيرة من شجر الشربين وتشتمل الغابة على ممرات جميلة . وقد كان ممتعا حقــا ان يستلقى الانسان في جو أغسطس الجليل على الحشائش أو وريقات الصنوبر المتساقطة ، وفى الحديقة عدد من الصنابير ومن البرك الكبيرة التى تشمل أنواعا مختلفة من الأسماك الملونة ، والأسماك الأليفة التى تقبل على تناول الطعام من يدك وقد سُوِّرت المنطقة كلها بسور يرتفع خمسة عشر قدما ، ويحرسه من الجانبين عـــدد كثير من الجنود ورجال الشرطة ، وعلى مدى مائة ياردة من البيت ، يقوم مخبأ للوقاية من الغارات الجوية . وقد نقلنا إليه فى أول فرصـــة ، وقد شيد على أحدث طراز تتوفر فيه الراحة والرفاهية ، تحملك المصاعد لتنزل بك ثمانين أو تسعين قدما تحت الأرض وهناك ثمان أو تسع غرف كبيرة فسيحة مشيدة داخل قفص سميك من الأسمنت المسلح ويقوم بين الغـــرف أبواب ثقيلة متحركة ، أما الأنوار داخل الملجــأ فساطعة والأثاث حـديث الطراز ، زاهى الألوان تحس حين تأوى اليه بالراحة تسرى فى أجزاء جسمك وتجعلك تسيطر على أعصابك. وقد استهوتنى الاسماك الملونة أكثر مما استهوانى المخبأ .

وفى الساعة الحادية عشرة مساء أسرعنا جميعا إلى الكرملين ، وهناك استقبلنا ستالين ومولوتوف وحدهما ومعهما المترجم الخاص ، وقد أخذت حينئذ اناقشه مناقشة مملة وقلت له : ان عليه أن يدرك اننا قد صممنا على اتباع خطة مرسومة ، وأنه لا فائدة من اللوم .. وامتد النقاش أكثر ساعتين تحدث خلالها بأمور غير مناسبة من أننا نخشى كثيرا محاربة الالمان الأ[illegible] وأننا لو حاربناهم مثل محاربة الروس لهم لدلتنا التجربة على أن هذا الخوف لا داعى اليه ، ومن أننا نقضنا عهدنا بشأن عملية «المطرقة» واننا لم نســتطع امداد روســيا بما وعدناها به من مؤن . ولم نرسل اليها غير الفضلات بعد أن أخذنا ما نحن فى حاجة اليه ، وكان من الواضح أن هذه الشكاوى موجهة الى أمريكا مثل ما هى موجهة الى بريطانيا .

وقد رفضت فى حزم كل اتهاماته غير انى لم اســتعمل الفــاظا جارحة ، ومع أنه لم يتعود معارضة الآخرين له مثل ما عارضته أكثر من مرة ، فانه لم يغضب أبدا ولم يثر ، وكرر نظريتـــه : « ان بامكان البريطانيين والامريكيين ان ينزلوا ست فرق أو ثمانى فرق فى شــبه جزيرة شربورج ما دام زمام السيطرة الجوية فى أيديهم .. وقال : أنه يحس بأن الجيش البريطـــانى لو حارب الالمان مثـــل ما حاربهم الجيش

الروسى ، ما شعر بالرعب منهم . وقد أثبت السلاح الجوى البريطانى وبرهن الروس على أن فى الامكان قهر الالمان وأن فى إمكان المشاة البريطانيين أن يثبتوا بالدليل نفسه اذا أتيح لهم أن يحاربوا الألمان ما أثبته الروس .

وقاطعته قائلا : اننى أتساهل فيما أبديته من ملاحظات إعترافا منى ببسالة الجيش الروسى ، ولكن اقتراح النزول في شربورج يتغاضى عن وجود قناة المانش وأخيرا قال ستالين : اننا لا يمكننا أن نستمر فى النقاش، وأن عليه أن يقبل قرارنا ، وفجأة وجه الينا الدعوة لتناول العشاء فى الساعة الثامنة من مساء اليوم التالى .

وقبلت الدعوة وقلت : اننى سأسافر بالطائرة فجر اليوم التالى أى فى الخامس عشر من شهر أغسطس ، وبدا لى أن « جو » قد أفزعه هذا وسألنى : ألا يمكننى أن أبقى مدة أطول ؟ يمكن ما دام فائدة فى بقائى ، وأضفت : اننى سأبقى يوما آخر على أية حال ، وهنا قلت : اننى لا أحس فى موقفه بروح الزمالة ، وقد قطعت هذه المسافة الطويلة لأقيم علاقات عملية طيبة ، وقد بذلنا ما أمكننا من جهد لمساعدة روسيا ، وسنواصل ذلك حتما ، وكنا قد تركنا وحدنا عاما كاملا فى مواجهة المانيا وايطاليا . اما الآن ــ وقد تحالفت الدول العظمى الثلاث ــ فقد غدا النصر مؤكدا ما لم ننقسم أو يمسنا ضعف ، وقد سيطرت على الحماسة ــ الى حد ما ــ وانا أذكر هذا الرد . وقبل ان ينتهى المترجم من نقل ما تحدثت به الى الروسية ، قال ستالين : انه قد أعجب بلهجة خطابى ، ومضى الحديث منذ هذه اللحظة فى جو أقل توترا ..

وراح يتكلم باطناب عن مدفعىْ هاون روسيين للخنادق يطلقان الصواريخ ، وأكد أنهما يتركان آثارا تدميرية واضحة واقترح أن يطلع خبراؤنا عليهما اذا رغبوا فى الانتظار وقال : انه سيمدنا بكل المعلومات المتعلقة بهما، وانه ينتظر أن يكافأ نظير ذلك ، وقال : لِمَ لا نبرم اتفاقا لتبادل المعلومات المتعلقة بالاختراعات ؟ فقلت : اننا على استعداد لأن نعطيهم كل شيء دون مساومة باستثناء تلك الاختراعات ــ التى اذا حملتها الطائرات فوق خطوط العدو ثم اسقطت وحصل عليها العدو ــ كان ضرب المانيا أشد صعوبة . فوافق على هذا ، كما وافق على أن يجتمع خبراؤهم العسكريون مع خبرائنا ، واتفق على أن يتم الاجتماع فى الثالثة بعد الظهر ، وقلت انهم سيفتقرون الى اربع ساعات على الأقل لبحث كل مايتعلق بعمليات الطراد والمطرقة ، والمشعل من تفاصيل

فنية ، وقد لاحظ أحيانا أن عملية « المشعل » صحيحة عسكريا ، وان الناحية السياسية منها تقتضي لمعالجتها بعض الكياسة • وقد كان بين الحين والآخر يعود الى عملية « المطرقة » متبرما من إلغائها ، وحينما قال : اننا لم نف بوعدنا ، أجبته : « انني آبى هذا القول •• لقد وفينا بكل تعهد التزمنا به ، وأومأت الى المذكرة التى سلمتها الى مولوتوف ، وهنا أبدى ستالين اعتذاره قائلا : انه يفصح عن آرائه بصدق وأمانة وأنه يعتقد أنه ليس ثمة ثقة بيننا ، وان كان يوجد بيننا شيء من التباين فى الرأى •

وأخيرا سألته عن القوقاز، وهل قرر الدفاع عن تلك السلسلة الجبلية وكم عدد الفرق التى سيستخدمها ؟ وهنا أرسل يطلب انموذجا للجبال ، وقد أبان صراحة ــ وفى علم وإدراك ــ حصانة هذا الحاجز الطبيعى قائلا : ان خمسا وعشرين فرقة كافية للدفاع عنه ، وهى متوافرة هناك ، وأومأ الى الممرات الجبلية المتعددة وقال : انه سيدافع عنها ، وحين سألته : هل هذه الممرات محصنة ؟ اجاب : « طبعا ــ بكل تأكيد » وقال ان العدو لم يصل بعد الى الخط الروسى الأمامى للدفاع عنها وهو يقع الى الشمال من السلسلة الجبلية وقال ان على هذه الخطوط أن تقاوم شهرين ، ثم بعد ذلك ، تسقط الثلوج ويصبح عبور الجبال مستحيلا ، وأعرب عن ثقته المطلقة بقدرتها على المقاومة ، ثم تكلم عن قوة أسطول البحر الأسود الذى احتشد فى « باطوم » •

وكان الحديث سهلا فى كل هذه الموضوعات وحينما ، سأل « هاريمان » عن مشروعات نقل الطائرات الامريكية عبر « سيبيريا » وهى مشروعات لم يقبلها الروس الا أخيرا بعد الحاح الأمريكيين وضغطهم ــ صرح ستالين : « بأن كسب الحروب لا يكون بالمشروعات ، وقد آزرنى « هاريمان » فى كل ما قلت طيلة الاجتماع ، ولم يتزحزح أحدنا قيد أنملة عن موقفنا المشترك ، كما لم ينطق بأية عبارة جارحة وقد أدى ستالين التحية ثم مد يده إلىّ وهو يغادر القاعة فسلمت عليه بحرارة • وفى الرابع عشر من أغسطس أرسلت الى وزارة الحرب البرقية التالية :

« لقد سألنا أنفسنا مستوضحين هذا التحول عن الأساس الطيب الذى وصلنا اليه فى الليلة السابقة ، واعتقد أن من الممكن أن مجلس وزرائه لم يتقبل الانباء التى حملتها بالروح الطيبة التى تقبلها هو بها ، وقد يكون لهؤلاء المفوضين سلطة اكبر مما نفترض ، وخبرة أقل ، ومن الممكن أيضا أن يكون قد أراد تسجيل أقواله لأهداف مستقبلة ولخدمة هذه الأهداف

أو يكون قد اطلق هذه الاندفاعات لمصلحته الشـخصية ،
ويقول «كاروجان» : انه بعد أن قابل مستر ايدن فى عيد الميلاد وقف موقفا متصلبا مماثلا ·
أما « هاريمان » فيقول : ان هذا الاسلوب قد اتخذ أيضـا فى بداية بعثه « بيفربروك » ·
وانتى لواثق أن ستالين فى قرارة نفسه ، مقتنع بأننا على حق ، وان ست فرق فى « عملية المطرقة » لن تنفعه فى هذا العام ، وانى لواثق من أن سداد تفكيره وسرعة بته فى القضايا العسكرية يجعلانه يعضد تعضيدا قويا « عمليـة المشعل » ولا أعتقد أنه لا يمكنه أن يحاول اصلاح موقفه ، وعلى هذا الامل فانى صامد ، على أية حال ·· اننى واثق من ان الطريقة التى اسـتخدمها هى أحسن الطرق ، ولم يداخلنى الشك مطلقا فى أى يوم من الأيام من انهم ربما لا يمضون فى القتال واننى لواثق كذلك من أن ستالين مؤمن ايمـانا تاما بأنه سينتصر ·· »

وفى تلك الليلة اقيمت مأدبة رسمية بالكرملين حضرها معنا ما يقرب من أربعين شخصا بينهم عدد من القادة العسكريين وأعضاء مكتب الحزب السياسى ، وبعض كبار الموظفين ، وقام ستالين ومولوتوف بدور المضيف بطريقة ودية للغاية ، ومثـل هذه المآدب تطول عادة ، ويشرب فيهـا انخاب كثيرة منذ البداية مع خطب قصيرة ، وقد سمعت قصصا سخيفة عن تحول مآدب العشاء السوفيتية الى حفلات شراب ، ولا مرية فى أن هذه القصص غير صحيحة ، فالماريشال وزملاؤه ، كانوا يشربون أنخابهم من أقداح صغيرة ولا يتناولون سوى رشفة صغيرة أما انا فقد نشـأت نشأة طيبة ! ·

وقد تحدث الى ستالين عن طريق مترجمه « بافلوف » بأسلوب يفيض بالحيوية ، وقال لى : قبل عدة سنوات زارنا المستر « جورج برناردشـو والليدى أستور » ، وقد رأت « أستور » أن ندعو المستر لويد جورج لزيارة موسكو ، فكان ردى عليها : ولماذا ندعوه ؟ لقد تزعم حركة للتدخل ضد الاتحاد السوفيتى ، فقالت « الليدى » : ···

ــ كلا ·· هذا ليس بصحيح ، لقد كان تشرشل هو الذى ضلله

فقلت : على أية حال ، كان « لويد جورج » رئيس الحكومة ، ينتمى الى

اليسار فهو مسئول ونحن نؤثر عدوا صريحا على صديق مدّعٍ ، فقالت « الليدى استور » .. على أية حال لقد انتهى تشرشل فقلت لها : اننى لست واثقا من هذا فاذا حدثت أزمة كبيرة ، فسيلتفت الشعب البريطانى الى حصان الحرب العجوز . . وهنا قاطعته قائلا : ان ماقلته يتضمن كثيرا من الحقيقة ، فلقد كنت كثير النشاط فى موضوع التدخل ، ولا اريدك تعتقد العكس ، فابتسم ابتسامة ودية ، وهنا قلت : وهل غفرت لى ؟ فأجاب المترجم : يقول الرئيس ستالين : ان كل هذه الامور من شئون الماضى وهو أمر يتعلق بالله .

وفى حديث لاحق بينى وبين ستالين قلت له :

لقد أبلغنى اللورد بيفر بروك أننى وجهت اليه سؤالا خلال بعثته لموسكو فى أكتوبر من عام ١٩٤١ ، قلت فيه : ماذا كان يقصد تشرشل فى البرلمان حين قال : انه وجه الى تحذيرات عن الغزو الالمانى المنتظر ؟ وقد كنت بالطبع أشير الى البرقية التى أرسلتها إليك فى أبريل عام ١٩٤١ وهنا أخرجت البرقية التى كان السير ستافورد كريبس قد تأخر فى تسليمها ، وحينما قرأت البرقية وترجمت له ، هز ستالين كتفيه وقال : انى أذكرها ولم أكن بحاجة الى من يحذرنى ، فقلت : لقد كنت أعلم أن الحرب واقعة لامحالة الا أنه قد تراءى لى أن فى امكانى أن أكسب ستة شهور أخرى أو نحوها لأتاهب .. وقد كففت — حرصا منى على القضية المشتركة — عن سؤاله عما كان سيحدث لو أصابنا نحن الانهيار فى حين كان هو يقدم الى هتلر مثل هذه المواد الثمينة والوقت والعون .

وأرسلت الى المستر أتلى والرئيس روزفلت هذا الوصف الرسمى التالى للمأدبة حينما تمكنت من ذلك :

١ — انتهت المأدبة فى جو ودى حافل بالمجاملات الروسية المألوفة وقد ألقى ويفل خطابا رائعا باللغة الروسية حيث اقترحت أن نشرب نخب الموت واللعنة للنازيين ، وعلى الرغم من جلوسى الى يمين ستالين ، لم تسنح لى الفرصة للتكلم معه فى موضوعات جدية وقد التقطت صورة لى مع ستالين وصورة ثانية لى مع هاريمان .

وقد ألقى ستالين خطابا طويلا اقترح فيه أن نشرب نخب المخابرات وقد اشار خلال خطابه إشارة غريبة الى معركة الدردنيل فى عام ١٩١٥ اذ قال : ان البريطانيين قد كسبوا المعركة فى الوقت الذى كاد الالمان والاتراك فيه أن يتقهقروا ، ولكن الحلفاء لم يعلموا بانتصارهم لان

مخابراتهم لم تكن على دراية تامة . وكان الهدف من هذه الصورة التى رسمها ــ على الرغم من عدم دقتها ــ أن تكون بمنزلة اطراء لى .

٢ ــ نهضت من المأدبة فى الساعة الواحدة والنصف صباحا لاننى خفت أن ادعى الى فيلم سينمائى طويل وأنا مجهد وحينما ودعت ستالين قال لى : ان الخلافات القائمة بيننا لا تتجاوز أن تكون خلافات فى الوسيلة وقلت اننا سنحاول أن نقضى على هذه الخلافات فعلا لا قولا وبعد مصافحة ودية تركت المكان وعبرت الغرفة المزدحمة بالناس ، ولكنه اسرع يودعنى مسافة طويلة عبر الأروقة حتى الباب الخارجى حيث تصافحنا مرة أخرى .

٣ ــ من المحتمل أن أكون قد رسمت فى رسالتى اليكم عن اجتماع ليلة الخميس صورة متشائمة للغاية ولكننى أحس بأن علينا الآن أن نتساهل الى أبعد حد تجاه ما أحسوا به من خيبة أمل مؤلمة وواقعية عندما علموا أننا لا يمكننا فى الوقت الحاضر أن نفعل شيئا لمساعدتهم فى كفاحهم الكبير ولكنهم تجرعوا فى النهاية هذا الدواء المر .. وعلينا الآن أن نفعل كل شىء للمبادرة بعملية « المشعل » والحاق الهزيمة بروميل .

وقد ساءتنى أشياء كثيرة ذكرت خلال اجتماعاتنا ، ولكننى تساهلت تجاه ما يعانيه أولئك الزعماء الروس من جهد وهم يرون جبهتهم الواسعة تتقد وتنزف منها الدماء على امتداد ألفى ميل فى حين يقف الالمان على بعد خمسين ميلا فقط من موسكو ، ويزحفون تجاه القوقاز ، ولكن المحادثات العسكرية الفنية لم تسِرْ سَيْراً مرضيا ، فقد وجه «جنرالاتنا» أنواعا مختلفة من الأسئلة . ولم يكن الروس مفوضين فى الرد عليها ، وكان كل ما يريده الروس هو : فتح جبهة ثانية فورا .. وأخيرا وقف «بروك» موقفا متصلبا وانتهى المؤتمر العسكرى فجأة .

وقد تقرر أن نرحل فجر السادس عشر من أغسطس وفى الساعة السابعة من الليلة السابقة للسفر توجهت لوداع ستالين ، وجرى بيننا حديث هام مُجْدٍ وقد سألته بصورة خاصة : هل فى وسعه أن يحافظ على ممرات القوقاز الجبلية وأن يمنع الالمان من الوصول الى بحر قزوين والاستيلاء على حقول النفط فى باماكو ، وكل ما يهدف اليه هذا الاحتلال وأن يمنعهم من الزحف جنوبا عبر تركيا أو إيران ؟ فبسط خريطة أمامى وقال ــ فى ثقة تامة ــ سوف نوقف تقدمهم .. انهم لن يجتازوا الجبال ، ثم قال : هناك شائعات بأن الاتراك سيهاجموننا فى تركستان ، واذا قاموا بهذا الهجوم فسأستطيع أن أعالج أمرهم أيضا ، وبادرته بقولى : انه لاخطر

هناك من مثل هذا الهجوم ، أن الأتراك يريدون أن يظلوا بمنأى عن الحرب وهم بالطبع لن يتورطوا فى خصام مع انجلترا .

ولم يَكَدْ ينتهى حديثنا - الذى استغرق ســاعة - حتى نهضت لأودعه وفجأة بدا الارتباك على ستالين وقال لى بلهجة أكثر ودا مما سبق : انك سترحل عند الفجر ، فلم لا نمضى الآن الى بيتى ونتناول الشراب معا؟ فقلت : اننى من حيث المبدأ أوافق على هذا ، وسرعان ما تقدم أمامى عبر ممرات وغرف كثيرة حتى خرجنا الى طريق وادع داخل الكرملين ، وبعد مائتى ياردة وصلنا الى المسكن الذى يقيم فيه ، ثم أطلعنى على الغرف الأربع التى يعيش فيها ، وكانت متوسطة الحجم بسيطة , فضلا عن أنها فى وضع طيب ، وهى تؤلف من غرفة نوم وغرفة مكتب وغرفة طعــام وغرفة حمام ، وسرعان ما بدت خادم متقدمة فى السن ، وفتــاة جميلة حمراء الشعر قَبَّلَتْ والدها باحترام ، ونظر الى - وقد أومأ باحدى عينيه- وكأنه يريد أن يقول : أترى أن لنا نحن البلاشفة أيضاً حياتنا العائلية وبدأت ابنة ستالين تجهز المـائدة ثم أقبلت الخادم تحمل عددا من الأطباق وكان ستالين فى خلال ذلك يفتح عددا من الزجاجات التى صفت فى شكل مغر ثم قال : لِمَ لا نستدعى مولوتوف ؟ انه قلق على البيان الرسمى الذى سيصدر عنا , فلم لا نُقِرّ البيان - ولمولوتوف ميزة هى قدرته على الشراب- وحينئذ فهمت أننا سنتناول طعام العشاء فى بيته ، وكنت قد تأهبت لتناول العشاء فى المكان الذى أنزل فيه مع الجنرال «اندرز» القائد البولندى الذى ينتظرنى ، ولكننى طلبت من مترجمى الجديد الممتاز : «الرائد بيرس» أن ينبىء الجنرال بأننى لن أعود قبل منتصف الليل ، ووصل مولوتوف وجلسنا مع المترجمين ، حيث كنا خمسة وكان الرائد بيرس قد قضى فى موسكو عشرين عاما ، وأصبحت له علاقات طيبة بالماريشال حيث تحدث اليه حديثا خاصا لم أتمكن من الاشتراك فيه .

وجلسنا على المائدة من الساعة الثامنة والنصف حتى الثـانية والنصف صباحا وكان العشاء لم يجهز بعد ، بيد أن الطعام بدأ يصـل بالتدريج ، وقد كنا نتناول طعامنا على طريقة اختيار الطعام من كل الانواع - على الطريقة الروسية - ونشرب من ألوان الخمور الممتازة ، وقد بدأ مولوتوف فى وضع طيب يفيض عذوبة ورقة ، وكان ستالين يمزح معه بكلمات قاسية وعبارات جافة عن قافلة قطبية أبيدت عن آخرها فى شهر يونيو .

وقال المترجم «بافلوف» فى تردد : يقول المستر ستالين : اليس عند الأســـطول البريطـانى أى احساس بالمجـد والفخار ؟ أم انه لا يفهمها ؟ فاجبته يجب أن تفهم أن ما فعلناه كان صحيحا ، فأنا أعرف الكثير عن الأسطول والحرب البحرية ٠

وهنا قال ستالين : انك تقصد اننى أعرف شيئا عن البحر فقلت ان روسيا حيوان برى ، أما بريطانيا فحيوان بحرى وسكت ســـتالين ثم عاود مرحه . ونقلت الحديث الى مولوتوف وقلت : هل يعرف الماريشال ان وزير خارجيته قد قرر ـ أثناء زيارته الاخيرة لواشنطن ـ القيـــام بزيارة نيويورك وحده دون حاشية أو رفاق ، وأن سبب تأخره لم يكن خللا فى الطائرة ، بل لانه كان يتنسم عبير الهواء كما يحلو له أن يفعل فى نيويورك ٠

وعلى الرغم من أن مجال الحديث كان يمكن أن يتسع لاى أمر على سبيل المزاح أثناء العشاء فى روسيا ، فقد بدا مولوتوف فزعا بسبب ملاحظتى فى حين أشرق وجه ستالين مرحا وقال :

انه لم يتوجه الى نيويورك بل الى شيكاغو حيث يعيش قطاع الطرق من أمثاله ٠

ودار الحديث رخاء بعد أن استعدنا العلاقات الطيبـة وتكلمت عن موضوع نزول القوات البريطانية فى النرويج بمساعدة الروس وأوضحت كيف يمكننا أن نفتح طريق القوافل على مصراعيه بالاستيلاء على رأس الشمال فى الشتاء والقضاء على الالمان هناك ، وقد كانت هذه أحب فكرة الى ، وبدا لى أنها قد استهوت ستالين أيضا . وبعد أن تحدثنا عن الوسائل والسبل ، اتفقنا على وجوب القيام بهذه العملية اذا استطعنا ذلك ٠

وحتى منتصف الليل الاخير ، لم يكن «كادوجان» قد جاءنا بمسودة البيان الرسمى وسألته : هل تحملت هذه الجهود الشخصية فى الحرب مثلما تحملت تنفيذ سياسة المزارع الجماعية ؟

وقد أثار هذا السؤال كوامن الحيوية المتدفقة لدى المـاريشال فورا ٠

فقال : بالطبع لا ، لقد كانت سياسة المزارع الجماعية كفاحا رهيبا٠

قلت : هذا ما اعتقدته ٠٠ لقد ظننت أنك لم تر الامر ميسورا لان المشكلة لم تكن مشكلة بضعة آلاف من الارستقراطيين أو كبار الملاك ، بل مشكلة ملايين الرجال الصغار ٠

وقال ـ وهو يمد يديه ـ : عشرة ملايين ، لقد كان شيئا رهيبا فلقد استغرق العمل اربع سنوات ، ولكن هذه العملية كانت مهمة جدا بالنسبة لروسيا ، اذا كنا نريد أن نتفادى المجاعات من وقت لآخر ، لقد كنا فى حاجة ملحة الى استعمال المحاريث الآلية فى فلاحة الارض ، ولـكننا اذا أعطينا الزارعين المحاريث الآلية ، فانها لا تلبث أن تلحق بها التلف فى خلال بضعة اشهر : فالمزارع الجماعية التابعة للاصلاح ، هى التى يمكنها وحدها ممارسة العمل بالمحاريث الآلية ، وقد كابدنا كثيرا من المتاعب فى سبيل ايضاح ذلك للفلاحين ، حيث كان النقاش معهم مستحيلا ذلك أنك بعد أن توضح للفلاح كل ما تريد ايضاحه يقول لك : ان عليه أن يمضى الى بيته لاستشارة زوجته مع راعى الماشية أيضا وقد كان هذا الاصلاح حديثا بالنسبة الى •

وبعد أن يتحدث اليهما يجيبهما بأنه لا يريد المزارع الجماعية وانه يفضل العمل بدون هذه المحاريث الآلية •

ــ فهل هذه هى ما تطلقون عليها لكولاكس ؟

ــ فقال بعد تردد قصير : (نعم لقد كان العمل فيها مرهقا ، وان كان ضروريا على أية حال ••)

وسألته : ماذا حدث ؟

فأجاب : حسنا ، لقد وافق الكثيرون منهم على الانضمام الينـــا ولقد منحنا بعضهم أراض ليزرعوها فى مقاطعة«تومسك»أو«اركوتسك» او فى أقصى الشمال ، ولكن أكثرهم لم يحظوا بأية شعبية ، وقد محقهم عمالهم تماما •

وتوقفنا عن الحديث مدة طويلة ثم مضى يقول : « ونحن لم نعمل على مضاعفة الانتاج الزراعى بنسبة كبيرة فقط ، بل بذلنـــا جهدنا فى سبيل مضاعفة محصول القمح وانتاجه بصورة احسن ، وها نحن أولاء ننتج القمح الروسى الموحد من أقصى البـــلاد الى أقصاها ، فى حين كان الزارعون فى الماضى ينتجون أنواعا مختلفة تتفاوت فى جودتهـــا ، واذا خالف المزارعون هذه القاعدة ، اخذناهم بالشدة ، وهذا يعنى زيادة أخرى كبيرة فى المحصول •

وينبغى هنا ان أشير الى أننى اكتب هذه الذكريات كما تتوارد الى خاطرى ، وكل ما اتصوره من انطباع الآن هو أن هناك ملايين من الرجال والنساء قد أخرجوا من أراضيهم الى الأبد أو أبيدوا • وسوف يأتى حتما

جيل جديد لا يعلم شيئا عن شقاوتهم ، لكنه يعلم أن طعامه قد إزداد ، فيبارك اسم ستالين ويترنم بحمده ويطريه إطراءً اعطراً • ولم أعد على مسامعه قول «بيرك» المأثور « اذا لم أستطع أن أقوم بالاصلاح — دون ظلم أو اجحاف — عدلت عن الاصلاح — « ففى الوقت الذى تشتعل فيه الحرب العالمية حولنا جميعا ، يكون من العبث حقا أن يتكلم الانسان عن الأخلاق ويجهر بحديثه » •

وقدِمَ كادوجان فى الساعة الواحدة صباحا تقريبا يحمل مسودة البيان الرسمى ، وبدأنا على الفور وضعه فى صيغته الرسمية النهائية • ومما قُدِّمَ الىَّ على المائدة خنزير صغير طهى بطريقة رائعة ، ولم يكن ستالين قد أكل شيئا حتى تلك اللحظة ، ولما حانت الساعة الواحدة والنصف صباحا — وهو الموعد المقرر لتناوله طعام العشاء — دعا «كادوجان» ليأكل معه ولكن الصديق اعتذر ، فقام مضيفنا بالضحية وحده ، وبعد أن فرغ من ذلك توجه الى الغرفة المجاورة فجأة ، حيث تلقى التقــارير عن كل جبهات القتال ، وكانت ترد اليه دائما بعد الثانية صباحا ، وقد مر أكثر من ثلث ساعة قبل أن يعود ، وخلال ذلك اتفقنا على البيــان الرسمى وأخيرا قلت : اننى يجب ان أمضى ، وكانت الساعة الثانية والنصف صباحا وكان الطريق الى البيت يستغرق نصف ساعة ، ونصف ســاعة أخرى فى العودة وقد انتابنى — على غير عادة — صداع شديد • وكان على أن اجتمع بالجنرال « اندرز » ، وقد رجوت مولوتوف الا يحضر لوداعى عند الفجر حيث كان مجهدا كما يبدو ، ولكنه رمقنى بنظرة تنطوى على المعاتبة ، وكأنه يريد أن يقول : وهل تعتقد حقا اننى ســـأتخلف عن الحضور !

وفى الساعة الخامسة والنصف صباحا ارتفعت بنا الطائرة فى الجو وقد نعمت فيها بنوم مريح لم استيقظ منه الا حين وصلنا الى بحر قزوين وبدأنا نصعد « جبال البروز » ، ولم إتوجه الى دار المفوضية فى طهران ، بل فضلت أن أمضى الى الظلال الباردة الهادئة فى مقرها الصيفى فوق المدينة ، وقد لقيت مجموعة منالبرقيات تنتظرنى ، وكنت قد فكرت فى عقد مؤتمر فى اليوم التالى ببغداد مع كل رجالنا المسئولين فى ايران والعراق ، ولكننى تيقنت اننى لا يمكننى أن أطيق حر بغداد فى شـــهر أغسطس ، وقررت تحويل اتجاهى الى القاهرة ، وتناولت طعام العشاء مع رجال السفارة تلك الليلة فى غاية الدار الرائعــة ، وقد القيت كل متاعبى خلفى واستغرقت فى نوم مريح حتى الصباح ! •

فى التاسع عشر من اغسطس قمت أنا واليكسندر بزيارة لجبهة الصحراء وانطلقنا من القاهرة ومررنا بالأهرامات ، وقطعنا مائة وثلاثين ميلا تقريبا عبر الصحراء الى البحر فى « أبو صوير » وقد قال لى اليكسندر : ان الجميع كانوا يهتفون لى ، ومع اقتراب المساء كنا ندنو من مقر قيادة مونتجومرى فى « برج العرب » وفى هذا المكان نفسه رسمت أشعة الضوء صورة رائعة للقافلة المشهورة على الكثبان الرملية ، وقدم لى الجنرال سيارته التى قَسَّمَهَا الى مكتب وغرفة نوم ، وبعد هذه الرحلة الطويلة ، ذهبنا كلنا نغتسل ، وقد قال مونتجومرى « ــ ونحن نجفف أجسادنا من الماء ــ ان كل الجيوش تستحم الآن فى هذا الوقت على امتداد الساحل » ، وأشار بيده الى الغرب ، وعلى مدى الف ياردة منها ، كان ما يقرب من الف رجل من رجالنا يتربصون على الشاطىء وعلى الرغم من اننى كنت أعرف الرد ، فقد سألت : لماذا لم تتحمل وزارة الحربية نفقة تزويد الجنود بسراويل بيضاء للاستحمام ؟ .. انه يجب عليها أن توفر ذلك ، حقا ان كل الجنود كانوا سمر الاجساد داعبت الشمس ما ظهر من ابدانهم ولم تحجبه سراويلهم القصيرة .

وكثيرا ما تغيرت الأوضاع : فحينما قدمنا الى « أم درمان » قبل أربعة وأربعين عاما كانت الفكرة الشائعة : ان على الانسان أن يقى جلده حرارة شمس أفريقية مهما يكن الثمن ، وكانت الأوامر فى هذا الشأن حاسمة للغاية ، وقد كنا نلصق حشايا خاصة فى ظهر سترتنا الكاكية اللون ، وكان من المخالفات التى تسجل جنحة فى المحاكمات العسكرية ان يخرج الجندى أو الضابط دون قبعة القش أو الفلين فى أوقات الفراغ ، وكانوا ينصحوننا بأن نلبس ملابس داخلية سميكة تمشيا مع ما اعتاده العرب واستنبطوه من تجاربهم خلال آلاف السنين ، ولكن ها هم أولاء الجنود البيض الآن فى منتصف القرن العشرين ،

يتوجهون الى أعمالهم اليومية دون قبعات ، عراة تقريبا الا من قطعة صغيرة من القماش تستر جزءا من أبدانهم ، ويبدو أن هذا المنظر لا يمسهم فى شىء ، وعلى الرغم من أن عملية التحول من اللون الأبيض الى البرونزى قد استغرقت عدة أسابيع وتلوينا تدريجيا فان حوادث ضربات الشمس والحرارة قليلة جدا وانى لأعجب تماما بم يفسر الأطباء هذه الظواهر ؟ ..

وبعد أن ارتدينا ملابسنا استعدادا لتناول العشاء ، اجتمعنا فى « عربة » خرائط مونتجومرى وقدم لنا الجنرال وصفا دقيقا للوضع موضحا انه فى خلال أيام انتصر على المشكلة ووقف على دقائقها ، وقد توقع موعد هجوم رومل المقبل بدقة ، وأبان خططه التى وضعها لمقابلة هذا الهجوم ، وقد أثبتت الأيام صحة توقعه ، وسلامة استنتاجه ، ثم شرح لنا خططه لتولى زمام المبادرة والهجوم بنفسه ، ولكنه يفتقر الى ستة أسابيع على أية حال ليصبح الجيش الثامن على أتم استعداد ، وقد قرر اعادة تاليف الفرق على أسس وحدات تكتيكية متكاملة ، وعلينا أن ننتظر حتى تكون الفرق الجديدة ، وقد اتخذت مواقعها فى الصحراء وحتى تكون « دبابات شيرمان » قد وصلت الى الميدان ، وحينئذ ستكون هناك ثلاثة فيالق يتولى قيادة كل منها ضابط محنك يثق فيه هو واليكساندر ، وسيستخدم المدفعية بشكل لم تستخدم به من قبل فى الصحراء وتحدث عن نهاية سبتمبر كموعد للهجوم ، وقد بعث بهذا الموعد احساسا بخيبه الامل الا ان كل شىء كان متوقعا على رومل ، فقد دلت المعلومات التى تلقيناها ، على أن هجومه قد أصبح مرتقبا فى كل لحظة ، وكانت المعلومات قد وصلت الىّ بالفعل مشيرة الى انه سيحاول القيام بحركة تطويق واسعة حول جناحنا الصحراوى للوصول الى القاهرة ، وانه يجب أن تقوم معركة مناورة لمهاجمة مواصلاته .

وفى هذا الوقت فكرت طويلا ، فى هزيمة نابليون فى عام ١٨١٤ ، وتوقفه لضرب مواصلات الحلفاء ، الذين كانوا قد زحفوا رأسا الى باريس المكشوفة تقريبا ، وقد تراءى لى أن من الضرورات الملحة الدفاع عن القاهرة ، وان يشترك فى هذا الدفاع كل جندى قادر من الجنود الذين لا يحتاج اليهم الجيش الثامن ، وبهذه الطريقة وحدها يمكن لجيش الميدان أن يحصل على حرية المناورة الكاملة بحيث يصبح فى امكانه أن يجازف بالسماح لجناحه أن يتعرض للتطويق قبل ان يبدأ الهجوم ، وقد سرنى كثيرا اتفاقنا جميعا على هذا الرأى ، وعلى الرغم من أننى كنت توّاقا الى ان نبدأ هجومنا فى أقرب فرصة ممكنة ، فاننى

قد رحبت باحتمال قيام روملى بالهجوم علينا قبل أن نبدأ نحن هجومنا ، ولكن ، هل لدينا الوقت الكافى لتنظيم الدفاع عن القاهرة ؟ : فالدلائل كلها تشير الى أن القائد الجرىء الذى يواجهنا على بعد اثنى عشر ميــــلا فقط ــ سيسدد ضربته الهـــائلة قبل نهـــاية شهر افسطس ، وقال مونتجومرى : انه قد يحاول فى يوم غير معين المغامرة لتحقيق تفوقــه المستمر فى الجبهة ، واذا تأخر فى هجومه اسبوعين او ثلاثة فسيكون ذلك حتما فى صالحنا !

وفى العشرين من أغسطس خرجنا لنشاهد الميدان المرتقب والقوات الباسلة التى يتوقع صمودها ، وقد توجهت معه الى النقطة الرابعة الهامة التى تقع الى الجنوب الشرقى من جرف الرويسات ، وشـــاهدت فى تلك الأرض الصحراوية الوعرة ــ التى تتميز بالتواءاتها ــ القسم الأكبر من سلاح المدرعات ، وهو ما بين مستتر ومنتشر بأساليب التمــويه العسكرية ، على الرغم من أنه قـــد جمع من ناحيـــة تكتيكية ، واجتمعت هنا بالقائد الشاب روبرتس الذى كان يتولى حينئذ قيادة كل قواتنا المدرعة فى هذا الموقع وكانت كل دباباتنا الممتازة تحت قيادته ، وقد أبان لى مونتجومرى توزيع مدفعيتنا المتعددة الأنواع والأشكال ، وقد كان كل شق فى الصحراء يخفى خلفه بطاريات رهيبة مغطاة بوسائل التعمية ، وقبل أن ندفع دباباتنا الى الميدان سينطلق ثلاثمائة أو أربعمائة مدفع على الدبابات الألمانية المهاجمة .

وعلى الرغم من منع تجمعات الجنود بسبب مناورات العـــدو الاستكشافية المتواصـــلة ، فقد رأيت فى ذلك اليوم عـــددا كبيرا من الجنود ، وقـــــد بادرونى بالتحية والهتافات والاشارات ، وقـــد قمت بتفتيش كتيبتى الرابعة « الهوسار » أو أكبر عدد أمكن حشــــده من رجالها على كثب من مقبرة الميدان ، حيث دفن الكثيرون من رفاقهم قبل أيام ، وكانت كل هذه المناظر مؤثرة للغاية ، وقد نما معها شعور بقوة الجيش المتدفقة ، وكان كل انسان لا يشك فى أن تغيرا كبيرا قد حدث منذ تولى مونتجومرى القيادة ، وكان فى امكانى أن المس هذا الشعور بالارتياح والسرور الذى يغمر الجميع .

وقد كان من المقرر أن نتناول الغـــداء مع بيرنارد فريبرج ، وقـــد استعادت ذاكرتى زيارة مماثلة كنت قد قمت بهـــا له فى الفلاندرز فى مركز الميدان فى وادى سكارب قبل ربع قرن تقريبا حين كان لا يزال يتولى قيادة لواء واحد ، وقد عرض على حينئذ فى سرور أن أمر معــه

على مواقعه الأمامية ، ولكن لما كان لى سابق معرفة به وبخطط الجبهة ، اعتذرت عن المضى معه ، اما الآن فقد تغير الوضع تماما ، اذ كنت اشتعل شوقا لرؤية أحد مراكز المراقبة الأمامية الرائعة ، التى يقوم عليها هؤلاء الجنود النيوزيلنديون ، والتى تبعد خمسة أميال تقريبا الى الأمام ، وكان موقف اليكسندر يتضمن عدم معارضة الحملة ، والرغبة فى الاشتراك فيها . ولكن بيرنارد فريبرج أبَى باصرار ان يتحمل المسئولية. ومثل هذه القضايا لا تصدر الأوامر فيها الا من السلطات العليا .

وفى ظهر أحد أيام شهر أغسطس ، توجهنا فى الصحراء الى خيمته الخانقة التى تستخدم كمطعم ، هناك تناولنا غذاء أحسن كثيرا مما تناولته معه فى سكارب ، وقد كان أول صنف فى الوجبة حساء غاليا من المحار النيوزيلندى المحفوظ ، لم أستسغ طعمه ــ وان تظاهرت بابتلاعه ــ وسرعان ما انضم الينا مونتجمرى الذى كان قد تركنا قبل مدة ، وخرج فريبرج لتحيته ولابلاغه أن مقعده على المائدة محفوظ ، وأننا ننتظره على مائدة الغداء ، ولكن « مونتى » ــ وهو الاسم الذى اطلق عليه ــ كان قد وضع لنفسه قاعدة : هى الا يقبل دعوة أى أحد من مرءوسيه ، وقد استمر نابليون يتبع هذه القاعدة حرصا على النظام العسكرى ، وكان من شعاراته المعروفة أن الأنسان ينبغى أن يكون قاسيا حتى مع الكبار ، ولكنه فى الوقت نفسه سيتناول حتما دجاجة مشوية ، وقد تُقدَّم اليه فى عربته ، أما « مارلبرو » ، فقد كان يدخل قَطْعاً ويشرب أطيب النبيذ مع ضباطه ويتناول الغداء معهم ، وهذا ما صنعه « كرومويل » حتما ، فقد تتباين الأساليب ، ولكن النتائج تكون طيبة فى كل الاحتمالات تقريبا .

وقد قضينا مع الجيش ظهيرة ذلك اليوم كله ، وحينما رجعنا الى القافلة حيث أمواج الشاطىء الجميل كانت الساعة قد تجاوزت السابعة ، وقد ارتفعت روحى المعنوية الى حد تناست فيه كل متاعب اليوم ، وظللت أتحدث حتى ساعة متأخرة من الليل وقبل أن يأوى « مونتجومرى » الى فراشه فى الساعة العاشرة حسب عادته ، طلب الىّ أن اكتب له شيئا فى دفتر يومياته الشخصى ، وقد كتبت له فى هذه المرة وفى مرات لاحقة طيلة الحرب ، وهذا ما كتبته فى هذه المرة :

[« آمل ان تكون الذكرى السنوية « لبلنهايم » التى تشير الى بداية القيادة الجديدة ــ بداية خير لقائد الجيش الثامن ورجاله ، وأن تؤدى بهم الى الشهرة وذيوع الصيت والحظ التى يستحقونها » .]

وفى الثـــانى والعشرين من أغسطس زرت كهوف « طرة » قرب القاهرة ، حيث كانت تجرى عمليات إصلاحية واسعة النطاق ، ومن هذه الكهوف ، قطعت الأحجار التى بنيت منها الأهرامات قبل آلاف السنين ، وقد بدت الآن رائعة الشكل كما بدا لى أن العمل يسـير سـيراً نشيطا دقيقا فى المنطقة ، وان جماهير غفيرة من العمال الفنيين تعمـل ليل نهار فى عمليات الاصلاح الضرورية ، ولـكن كانت لدَىّ أرقامى وحقائقى ، وكنت باستمرار غير راض عن سير العمل . لضيق المجال الذى يسير فيه ، ولعل العيب الوحيد هو أن الفراعنة لم يشـيدوا أهرامات اكثر عددا واضخم حجما ، وكان علىّ أن أتحمل مسئوليـات أخرى ، فقد قضيت بقية النهار أتنقل بالطائرة من مـكان الى آخر أفتش المؤسسات واخطب فى الجنود وقد رأيت فى المطارات بين ألفين وثلاثة آلاف طيار حُشِدُوا فيه لاتحدث اليهم ، وقد زرت ايضا كل الألوية واحدا أثر الآخر ، كما زرت فرقة الجبايين التى كانت قد نزلت الى البر فى ذلك اليوم ، وعدنا الى السفارة فى ساعة متأخرة من المساء .

وفى الأيام الأخيرة من الزيارة تركزت كـل افكارى على المعـركة المتوقعة : فقد يبدأ رومل هجومه فى أية لحظة بقوة هائلة مدمرة ، من السلاح الساحق ومن المحتمل أن يصل الى الاهرامات دون أن يواجه أى دفاع حقيقى ـ عدا قناة واحدة ـ ثم يصـل الى نهر النيـل الذى يجرى عند نهاية المرج « الذى تقـوم فيه دار السـفارة ثم بدرت من طفل « الليدى لامبسـون » ابتسـامة عذبة تفتحت لهـا أسارير وجهه الصغير من عربته الواقفة تحت ظلال اشجار النخيل ، وتطلعت عبـر النهر الى الآفاق المستوية القائمة وراءه ، وبدا كل شىء سهلا وادعا ، لكننى اقترحت على الأم أن تمضى بطلفها الى بلد آخر غير القـاهرة حيث أن جوها غير مناسب للاطفال ، اذ هو شديد الحرارة شديد الرطوبة ، وقلت لها : « لم لا تبعثين بالطفل الى لبنان ليستنشق هواءه العليل ؟ » ولكنها لم تستمع الى نصيحتى ، وليس فى امكان انسان أن يقول انهـا لم تحكم على سلامة الوضع العسكرى حكما صائبا !

وقد اتخذت بالاتفـاق مع الجنرال اليكسـندر ورئيس اركان الامبراطورية البريطـانية سلسلة من الاجراءات المتطرفة للدفاع عن القاهرة والخطوط المائية المتجهة شمالا واقمنا استحكامات للبنـادق ومراكز للمدافع الرشاشة وقد قمنا ببث الالغام فى الجسور وأقمنـا الأسلاك الشائكة على مداخلها واطلقنا مياه السدود على الجبهة العريضة الواسعة وأعطينا كل الموظفين البريطانيين فى القاهرة بنادق وقد كانوا

يفوقون فى تعـدادهم الألوف من ضباط الاركان والكتبة الذين يرتدون الملابس العسكرية ، وأصدرنا اليهم الأوامر بأن يتخذوا مراكزهم حين يحدث أى طارىء عند خط النهر المحصن ولم تكن الفـرقة الجبليـة الحادية والخمسون حتى الآن تعد خليقة بالصحراء ، فعهدنا الى هؤلاء الجنود الممتازين ، بالدفاع عن جبهـــة النيل الجـديدة ، وكان الموقع قويا للغاية بسبب ندرة المعابر والجسور التى تعبر منطقة الأقنية او المنطقة التى يغمرها الفيضان فى الدلتا وبدا لنا أن من الممكن ايقاف هجوم مدرع على هذه الطرق الجسرية ، وكان الدفاع عن القاهرة من اختصـاص الجنرال البريطانى الذى يتولى قيـادة الجيش المصرى الذى اصطفت كل فرقة أيضا للاشتراك فى الدفاع وتراءى لى أن من الافضل على اية حال ان يعهد بالمسئولية ــ اذا حدث أى طارىء ــ للجنرال « ميتلاند ويلسون جميو » الذى كان قد عين لقيادة العراق ــ وايران ، والذى كانت قيادته لا تزال ــ فى هذه الاسابيع الحرجة ــ فى مرحلة التشكيل فى القاهرة ، وأصدرت توجيها طالبا اليـــه أن يطلع على كل تفـــاصيل خطة الدفاع وأن يتحمل المســئولية فى اللحظة التى يبلغه فيها الجنرال اليكسندر أن القاهرة أصبحت فى خطر !

وكان علىّ أن أرجع الى الوطن مساء يوم المعركة ، لأمارس تصريف أمور تتناول آفاقا اوسع ــ وأن كانت لا تقل قطعا عن المعركة المتوقعة ــ وكنت قد حصلت على موافقـة وزارة الحـرب على التوجيه الذى قررت اصداره الى الجنرال اليكسندر ، فقد غدا السلطة العليا التى أتعامل معها فى الشرق الأوسط ، وكان مونتجومرى وجيشه الثامن ، يعملان تحت قيادته ، وكذلك كان « متيلاند ويلســون » وكان قائد الدفاع عن القاهرة ، حين تدعوه الضرورة اليـه ، وكان « اليكس » ــ كما كنت إدعوه منذ امد طويل ــ قد انتقل بقيادته الى الصحراء قرب الاهرامات وكان بوداعته ومرحه وتفهمه لكل شىء يوحى بالثقة المطلقة المتزنة لكل انسان .

وفى الساعة السابعة والدقيقة الخامسة من مساء الثالث والعشرين من أغسطس غادرت مطار الصحراء وقد نمت نوم من استراح ضـميره ــ لنهجه طريق العدل ــ الى ما بعد بزوغ الشمس فى الصباح التالى ، وحينما نهضت من سريرى الى غرفة قيادة الطائرة « الفدائى » كنـــا ندنو من جبل طارق وقد بدا لنا الهبوط أمرا خطرا ، فقد كان ضباب الصباح يحجب كل شىء ولم يكن فى امكان المرء أن يكشف الرؤية أمامه أكثر من مسافة مائة ياردة وقـــد كنا نحلق على ارتفـــاع يزيد على ثلاثين

قدما فوق البحر ، وسألت « فاندر » : هل يسير كل شيء على مايرام ؟ وأفصحت له عن صادق املى فى الا يصدم بصخرة جبل طارق ولم يكن جوابه مطمئنا بصورة خاصة ، ولكنه كان واثقا من الخطة التى اتبعها بشأن عدم الطيران على ارتفاع عال ، وهو ما كنت افضله ومكثنا على هذه الحال أربع دقائق أو خمسا ، وفجأة دخلنا فى جو طيب تبدو فيه أمامنا قمة جبل طارق العظمى « مطلة على البرزخ » وعلى قطعة الارض المحايدة التى تمتد الى القلعة باسبانيا وبالجبل المسمى « ملكة العرش الاسبانى » ولقد أمكن « فاندركلوت » أن يكون دقيقا للغاية بعد طيران ثلاث ساعات أو اربع ، عبر الضباب ، وبعد عدة مئات من الياردات مررنا على الصخور دون أن نرغم على تحويل اتجاهنا وهبطنا هبوطا سليما دقيقا ، ومع ذلك فما برحت احسب انه كان من الافضل ان نرتفع عاليا ودرنا فوق المطار ساعة أو ساعتين ، فقد كان معنا مايكفينا من الوقود ، ولم يكن هناك ما يدعو لأن نتعجل ، ولكن قائد الطائرة تصرف تصرفا رائعا ، وقضينا الصباح مع الحاكم ، وبعد الظهر طرنا الى الوطن بعد أن قمنا بجولة واسعة عبر خليج « بسكاى » عندما أرخى الليل سدوله على الكون .

حينما بدأت بعثتى الى القاهرة وموسكو ، لم يكن قد تم بعد اختيار من يتولى قيادة عملية المشعل ، وكنت قد اقترحت فى الحادى والثلاثين من يوليو انه اذا اختير الجنرال ماريشال لتولى القيادة العليا لعملية عبور المانش فى عام ١٩٤٣ ، فانه يجب أن يعين ايزنهاور نائبا له ، وان يسبقه الى لندن ليعد لعملية « المشعل » التى يجب أن تسند قيادتها اليه ، وان يكون الجنرال اليكسندر نائبا له وقد اتجه الى تنفيذ هذا الاقتراح ، وقبل أن اغادر القاهرة الى موسكو أرسل الرئيس روزفلت الى بموافقته على اقتراحى ، ومع ذلك فقد بقيت أمامنا أمور كثيرة تنتظر الموافقة عليها قبل أن نصل فى خططنا الى مراحلها الأخيرة . وفى اليوم التالى لوصولى الى لندن قدم الى الجنرالان ايزنهاور وكلارك لتناول الغداء معى ، ولبحث أوضاع العملية وقد كانت العلاقات بينى وبين هذين القائدين الامريكيين فى هذا الوقت أوثق ما تكون . وكنت منذ وصولهما الى لندن فى شهر يونيو التقى بهما يوم الثلاثاء من كل اسبوع حول مائدة الغداء فى داوننج ستريت رقم ١٠ . وقد نجحت هذه الاجتماعات نجاحا باهرا وكنت وحدى معهما فى الغالب ، وكنا نبحث كل قضايانا وكأننا من بلد واحد ، وكثيرا ما عقدنا سلسلة من المحادثات غير الرسمية فى حجرة المائدة ، وكانت

تبدأ في العاشرة مساء وتظل الى ساعة متأخرة من الليل . وكثيرا ما قدم الخبيران الامريكيان لقضاء ليلة أو عطلة نهاية الاسبوع فى تشيكرز . وكنا نتحدث فى هذه المناسبات فى كل الشئون العامة . وانى لواثق بأن هذه الاتصالات الوثقى ، ضرورية لادارة دفعة الحرب ولم يكن بوسعى أن أسيطر على زمام الموقف كله دونها .

وفى الثانى والعشرين من سبتمبر ، عقدنا اجتماعا لرؤساء أركان الحرب برياستى وقد شهده ايزنهاور ، واتخذنا فيه قرارا نهائيا ، وحددنا موعد البدء بعملية « المشعل » فى الثامن من شهر نوفمبر .

وفى خلال ذلك قام روميل بمحاولة جديدة ثبت فيما بعد ، أنها المحاولة الأخيرة للوصول الى القاهرة ، وحتى انتهاء هذه المحاولة ظلت أفكارى عالقة بالصحراء وتجربة القوة الدائرة فى ربوعها ، وقد كنت أثق تمام الثقة فى قادتنا الجدد كما كنت متيقنا أن تفوقنا فى العُدّة والعدد ، هو الآن أكثر منه فى أى وقت مضى ، ولكن المفاجآت المزعجة التى حدثت فى العامين الماضيين ، كانت تجعل من العسير استبعاد القلق حتى النهاية .

ولما كنت قد زرت أخيرا الأرض التى سيدور فيها القتال ، وكانت صورة الصحراء بصخورها المتعرجة ، وبطاريات المدفعية ودباباتنا وقواتنا المختبئة فيها تأهباً لوثبة مضادة لا تزال تخطر بفكرى فانى كنت أرقب المعركة الضاربة بأفكارى تمام المراقبة ولا مرية فى أن اية نكسة جديدة لن تحمل فى حد ذاتها كارثة فقط ، بل ستؤدى أيضا الى القضاء على سمعة بريطانيا نهائيا ، فضلا عما يكون لها من تأثير واضح على المحادثات التى نجريها حينئذ مع حلفائنا ، أما اذا صُد روميل من الجبهة الثانية فان الثقة النامية والاحساس المتزايد ــ بأن الميزان تكاد كفته ترجح الى جانبنا ــ سيساعدان على الوصول بمختلف القضايا الاخرى الى مرحلة الاتفاق .

وقد وعد الجنرال اليكسندر أن يخبرنى ببداية المعركة بأن يبعث الى بكلمة « زيب » وهى اسم يطلق على الملابس التى كنت أرتديها وفى الثامن والعشرين من أغسطس أرسلت اليه أسأله : « ما رأيك فى احتمال قيام « زيب » حينما يكون القمر بدراً فى هذا الشهر ؟ .. ان المخابرات العسكرية لا تعتقد أن الهجوم الألمانى قد أصبح وشيكا .. أطيب تمنياتى . وأتى الى رده يقول : ان « زيب » تساوى كل يوم قيمتها من المال ، وتقوى احتمالات عدم قيامها حتى الثانى من سبتمبر عندما تصبح

غير متوقعة ، وفى الثلاثين من سبتمبر تلقيت برقية فى كلمة واحدة هى : « زيب » فأبرقت الى روزفلت وستالين أقول : « لقد بدأ روميل هجـومه الذى كنا نتأهب له ٠٠ وقد تجرى معركة مهمة الآن » ٠

وكانت خطة روميل ـ كما توقعها مونتجومرى بالضبط ـ هى أن يجتاز بسلاح المدرعات نطاق الألغام الذى يضـعف دفاعـــه فى الطرف الجنوبى من الجبهة البريطانية ، وأن يتجه بعد ذلك شمالا ليطوق مواقعنا فى الجناح والمؤخرة ، وكانت المسألة الحساسة الحرجة بالنسبة لنجاح هذه المناورة تقوم على احتلال روابى العلم ـ حلفا ، ولهذا فقد وزع مونتجومرى قواته ، بحيث يضمن ـ أولا ـ عدم سقوط الروابى فى قبضة العدو ٠

وفى ليلة الثلاثين من أغسطس اخترقت الفرقتان المدرعتان الألمانيتان حقول الألغام وفى الصباح قصدتا « منخفض الرجيل » وأخذت فرقتنـــا المدرعة السابعة تتراجع ببطء بصفة مستمرة أمامهـــا الى أن اتخـــذت مواقعها فى الجناح الشرقى وقد حاولت فرقتان ايطاليتان مدرعتان وفرقة آلية أخرى اختراق حقول الألغام شمال الفرقتين الألمـانيتين ولـكنهما لم تحرزا نجاحا يذكر ، فقدكانت الحقول أعمق مما تتوقعه ، وسرعانماوجدت نفسها تحت وطأة نيران مدفعية شديدة من الفرقة النيوزيلندية ، لـكن الفرقة الالمانية التسعين الخفيفة ، كللت جهودها لأختراق حقول الألغـام بالجناح حتى انها شكلت جناحين مدرعين اندفعا صوب الشمال ، وقد شـن الألمـان فى الوقت نفسه فى الطرف الثانى من الجبهة هجمات محكمة على الفرقة الهندية الخامسة والفرقة الاسترالية التاسعة ، فى حين أنه قـــد أوقف تقدمها بعد قتال عنيف ، وقد كان على المدرعات الألمـانية ـ الايطالية ـ بعد اجتياز « منخفض الرجيل » أن تزحف جهة الشمال صوب روابى العلم ـ حلفا « أو الشمال الشرقى » جهة الحمـام » ، وكان مونتجومرى يرجو ألا تتجه الى الحمام ، فقد آثر أن يخوض المعركـة فى الارض التى اختارها وهى « الروابى » وقد أمكننا أن نوصل الى روميل خريطة زائفة توضح سهولة الانطلاق الى الروابى وصعوبة الاتجاه الى الحمام ، وقد أقر الجنرال « فون توما » الذى أسر بعد شهرين بأن هذه الخريطة الخادعة قد نجحت فى تحقيق أهدافها ، وهكذا اتخذت المعركة الآن الشـكل الذى أراده مونتجومرى ٠

وفى الحادى والثلاثين استطاعت قواتنا أن تصد زحفا نحو الشـــمال وفى الليل هدأت مدرعات العدو هدوءا نسبيا بالرغم من أن المدفعية كانت تواصل ضربها بنيرانها فضلا عن قصف الطائرات لها وفى الصباح التالى تقدمت الى الخط البريطانى حيث كانت الفرقة العاشرة المدرعة فى انتظار

لقائها ، وكان الرمل فى المنطقة أكثف مما كان متوقعا ، والمقاومة أعنف مما ارتقبوه ، وبعد الظهر استؤنف الهجوم ، ولكنه فشل وقد وجد رومل نفسه فى مأزق ، فقد أنهك الاعياء حلفاءه الايطاليين ، ولم يكن يأمل فى تعزيز وحداته المدرعة الامامية ، وكانت الاشتباكات العنيفة قد استنفدت ما لديه من وقود ، ولا شك فى أنه سمع أيضا باغراق ثلاث ناقلات أخرى للزيت فى البحر المتوسط وهكذا تحولت مدرعاته فى الثانى من سبتمبر الى موقف الدفاع ، وأخذت تنتظر الهجوم الذى سيُشَن عليها.

ولم يقبل مونتجومرى الدعوة ، فى حين لم يجد له مفرا من التراجع وفى الثالث من سبتمبر بدأت الحركة فى الوقت الذى اندفعت فيه الفرقة البريطانية السابعة لمضايقته من الجناح ملحقة بالعدو أفدح الخسائر فى سياراته غير المدرعة وفى تلك الليلة بدأ الهجوم البريطانى المضاد على فرقته الخفيفة التسعين وفرقة ترْيِسْتا الآلية ، وقد قدر مونتجومرى أنه اذا أمكنه تدمير هاتين الفرقتين فانه بذلك يكون قد سد الثغرة التى فتحها العدو فى حقول الألغام قبل أن تنسحب منها المدرعات الألمانية الى الوراء ، وقد قامت الفرقة النيوزيلندية ، بهجمات قوية صمد لها العدو ، وتمكن الفيلق الألمانى من النجاة ، وتوقف مونتجومرى الآن عن مواصلة المطاردة وقرر تسليم زمام المبادرة حينما تسنح الفرصة .

ولم تكن قد اتضحت كذلك حتى الآن ، وقد اقتنع بصد آخر هجوم قام به رومل نحو مصر ملحقا به خسائر فادحة ، وقد تمكن الجيش الثامن وسلاح الصحراء الجوى من تسديد ضربة قاصمة للعدو ، دون أن تلحق بهما خسائر فادحة ، أو تحدث له أزمة حادة فى خطوط مواصلاته وقد أوضحتْ لنا الوثائق — التى صادرناها فيما بعد — أن رومل عندما وجد نفسه فى مأزق حرج أخذ يلح فى طلب العون والمساعدة ، وعلمنا أيضا أنه كان فى هذه الحالة قائدا منهكا لا يكف عن الشكوى وبعد شهرين اتضحت نتائج معركة « العلم — حلفا » .

وبالرغم من سير كل وسائل الاستعدادات للعمليتين العظيمتين بسرعة فى طرفى البحر المتوسط فان فترة الانتظار كانت تنطوى على القلق الكثير وكانت الحلقة الداخلية التى تعلم كل شىء تحس احساسا جارفا بالقلق مما قد يحدث . أما الذين لا يعلمون فقد أفزعهم ذلك الهدوء الذى ساد الأمور ، وضايقهم اننا لا نؤدى عملا ما .

والآن ، وقد مرت ثمانية وعشرون شهرا فى تصريف شئون البلاد — من الناحية القيادية — منينا خلالها بسلسلة متواصلة من الهزائم العسكرية

المنكرة ، وقد تحملنا هزيمة فرنسا وانهيارها ، والهجوم الجوى على بريطانيا ونجونا من الغزو وما برحنا نحتفظ بمصر ، كما اننا أحيـاء بعد موقف التحدى .. هذا هو كل ما فى الأمر ، ومن جهة أخرى فقد منينا بسلسلة متلاحقه من الـكوارث ، فهناك خيبة الأمل التى تجرعنا مرارتها فى «دا كار» وهناك أيضا خسارة كل ما كسبناه من الايطاليين فى الصحراء ومأساة اليونان وضياع جزيرة كريت ، ونكسات أخرى وأخرى مع اليـابان ، وضياع « هونج كونج » واحتلال « الهند الهولندية » وكارثة سنغافورة ، وغزو اليابان لبورما وهزيمة أوكنلك فى الصحراء واستسلام طبرق ، والفشل فى « دييب » .. كلها حلقات فى سلسلة منينا بالفشل فيها ، ورزئنا بها ، فضلا عن أنها لا مثيل لها فى التاريخ . على أن الحقيقة القائلة بأننا مازلنا وحيدين وان أعظم دولتين فى العالم قد أصبحتا حليفتين لنا تحاربان معنا محاربة يائسة .. هذه الحقيقة أضفت علينا بعض الثقـة بالنصر النهائى ، ولكن هذه الثقة صهرت النقد والحرية وأطلقتهما من عقالهما وخاصة بعد أن تبدد الأخطار الساحقة . أو ليس من الغريب أن تتعرض طبيعة ادارة الحرب ونظامها الى مثل هـذا التحدى وهمـا فى عهدتى ؟..

ومن أبرز الأمور ، اننى فى هذه المرحلة من الجمود الغريب لم أبعد عن السلطة ولم تتعرض لى ازاء هذا رغبات لتغيير أسـاليبى ، ولم أكن قطعا ارتضى هذه الأمور ولو غادرت الميدان فى هذا الوقت لناءت بكاهلى أعباء الكوارث ولنسبت قطوف الظفر التى كان سيتم جنيهـا الى تركى المسرح ، فقد كادت الحرب وأوضاعها فى هذا الوقت تتحول بصفة عامة ، فمنـذ بدأ يحالفنا النجاح المطرد ــ الذى لا يعـكر صفوه بين الفينـة والأخرى الا بعض النكسات البسيطة ورغم أن النضال سيكون طويلا ، شاقا ، وسيقتضى أصدق الجهد وأعظمه منا جميعا ، فقد وصلنا الى قمـة المضيق وبدأ سبيلنا الى النصر يصبح أكيدا على أننى لم أحرم حقى فى الاشتراك فى هذه المرحلة الحديثة من الحرب ، بفضل وحدة وزارة الحرب وقوتها ، وبفضل ما أولانى زملائى السياسيون والعسكريون من ثقـة ونتيجة لولاء البرلمـان الراسخ وحسن نية الشعب التى لم يعتريها الوهن وهذا كله يوضح مدى ما يحظى به الانسان فى الأمور من حظ طيب ، وأنه يجب عليه ألا يكترث بأمر ما اللهم الا بأداء واجبه بأقصى ما يستطيع من عـزم .

وفى خلال ذلك وجدت بعض التسلية عندما عكفت على دراسـة ما قمت بدراسته من اقتراحات وزارة الخارجيـة بالتشاور مع وزارة

الخارجية الامريكية حول مستقبل الحكومة العالمية بعد الحرب ، وقد قام وزير الخارجية فى شهر أكتوبر بتوزيع وثيقة هامة على أعضـــاء وزارة الحرب حول هذا الموضـــــوع وقد أسماها « مشروع الدول الأربع » ، ونصت هذه الوثيقة على أن يتولى الادارة العليا العالمية مجلس مـكون من بريطانيا العظمى وأمريكا وروسيا والصين ، ويسرنى انى وجدت في نفسى القوة لأضمن هذه المذكرة ــ التى بعثت بها الى وزير الخارجية فى الحادى والعشرين من أكتوبر عام ١٩٤٢ ــ آرائى فى هذا الموضوع حيث قلت :

سأحاول بالرغم من ضغط الأحداث ، أن أكتب الرد ، ويبـــدو أن اختيار هذه الدول الأربع الكبرى أمر سهل جداً .. لكن ليس فى طاقتنا على أية حال أن نحدد حقيقة روسيا التى علينـــا أن نواجهها وليس فى طاقتنا أن نحدد الطلبات التى ستتقدم بها وقـد يصبح هـذا أمرا ممكنا بعـــد وقت قصير ، أما بالنسبة الى الصـــين ، فانه لا يمكننى أن أعـد « شونكينج »ممثلة الدولةالعالمية عظمى ، ومن المؤكد أن أمريكا ستصوت فى جانب أية محاولة لتصفية الامبراطورية البريطانية فيما وراء البحار .

« ويجب أن أقر بأن أفكارى تتركز بصفة رئيسية فى أوربا وبعث أمجادها باعتبارها القارة الأم لكل الشعوب والحضارات الحديثة ، ولاشك فى أنه اذا هيمنت البربرية الروسية على حضارات الدول الأوربية الغربية واستقلالها ، فستكون تلك كارثة تجـــل عن الوصف . ولمـــا كان من العسير على المرء أن يحدد الموقف الآن فان الأسرة الاوربية قـد تمضى فى العمل متحدة فى ظل مجلس أوربى وطنى لاتطلـــع الى « ولايات متحدة أوربية » تخفف فيها القيود بين مختلف الدول ، وتحطم القيود المفروضة على التنقل والسفر كما آمل أن أرى اليوم الذى يدرس فيـــه الاقتصـــاد الأوربى كـكل لا فى أجزاء معينة كما أرجو أن أرى مجلساً يشـــمل عشر وحدات مثلا ، كأن يشمل الدول العظمى السابقة مع عدد من الاتحادات التعاونية « كونفيدراسيونات » كاتحاد اسكندينافيا والدانوب والبلقان وما ماثلها وأن يكون لهذا المجلس « قوة بوليس دولية » تتولى مهمة الحفاظ على «بروسيا»منزوعة السلاح ، وعلينا بالطبع أن نتعاون مع أمريكا فى معظم الاساليب المختلفة ، بيد أن أوربا هى أهم ما يشغل بالنا ، ونحن بالطبع نتوقع أن يحول الروس والصينيون بيننا وبين العمل عندما يواجه ــ السويديون والنرويجيون والدانيمركيون والهولنـــديون والبلجيكيون والفرنسيون والاسبان والبولنديون والتشيـــكون والأتراك ــ مشـكلات

شائكة ملحة ويفتقرون الى مساعدتنا ، حتى تسمع أصواتهم ونداءاتهم . ومن اليسير أن يتوسع المرء فى دراسة هذه النظريات ، على أنه من سوء الحظ أن الحرب تستصرخنا كى نوجه اليها أقصى طاقات اهتمامنا » .

وهكذا دنونا من النهاية العسكرية التى يتوقف على نتيجتها كل شىء ..

معركة العلمين

استمرت التدريبات والاعداد التخطيطى دون توقف فى الاسابيع التى تلت التغييرات التى حدثت فى القيادة بكل من القاهرة والجبهة ، وقد عزز الجيش الثامن بشكل لم يشهد التاريخ مثله من قبل ، ووصلت الفرقتان الحادية والخمسون والرابعة والأربعون قادمتين من الوطن ومتأهبتين لحرب الصحراء ، وزادت قوتنا فى سلاح المدرعات الى سبعة ألوية تشمل أكثر من ألف دبابة ، كان أكثر من نصفها من طراز«جرانت»، و « شيرمان » الأمريكيتين ، وتضاعف تفوقنا فى العدد فى حين غدونا متكافئين فى الكَيْف ، وقد حُشدت للمرة الاولى فى الصحراء الغربية قوة مدفعية ضخمة مدربة أحسن تدريب لتعزيز الهجوم المتوقع بين لحظة وأخرى — وأصبح السلاح الجوى فى الشرق الأوسط تابعا لمفاهيم القيادة البرية العليا واحتياجاتها العسكرية ، دون أن تُرغم على اتخاذ اجراءات سابقة لأوانها — وتُفرضها علينا ضرورات الظروف الحرجة بسبب وجود الماريشال الجوى العظيم على رأسه ، فقد كانت العلاقات بين القيادة الجوية « والجنرالات » الجدد أوثق ما تكون ، وغدا السلاح الجوى الصحراوى الذى يتولى قيادته ماريشال الجو «كوننجهام» — قوة تربو على الخمس والخمسين طائرة ، وكان ثمة مع الطائرات العاملة من مالطة مجموعتان تضم ما يقرب من ستمائة وخمسين طائرة مهمتها تحطيم موانىء العدو وطُرق تموينه عِبر البحر المتوسط والصحراء ، واذا أضفنا الى المجموع مائة طائرة أمريكية من المقاتلات والقاذفات المتوسطة يتضح أن مجموع الطائرات العاملة غدا ألفا ومائتى طائرة .

وقد أنبأنا اليكسندر « فى مختلف البرقيات ، أن الرابع والعشرين من اكتوبر هو اليوم المختار لعملية الخطوة السريعة — » وهو الاسم الذى أطلقناه على الهجوم وقال الجنرال فى إحدى برقياته : « ولما لم يكن هناك جناح مكشوف ، فان المعركة ستدور بحيث تفتح ثغرة فى جبهة العدو سينفذ الفَيْلق العاشر — الذى يضم أكثر دباباتنا ويكون رأس رمح هجومنا

ـ من هذه الثغرة ، ثم يتقدم فى وضح النهار ، ولن يستكمل هذا الفيلق تسلحه وعتاده قبل الأول من اكتوبر ، وسيفتقر بعد ذلك الى أن يتدرب مدة شهر تقريبا على الدور الذى سيقوم به » واستطرد الجنرال يقول : وأرى من المحتم أن يشن الهجوم الرئيسى فى منتصف الشهر العربى حين يكون القمر بدراً وسيكون هذا الهجوم رئيسيا ضخما للغاية مما قد يستغرق بعض الوقت ، وخاصة فتح ثغرة مناسبة فى خطوط العدو تنفذ منها قواتنا المدرعة فى أكثر ساعات النهار حتى يصبح الهجوم حاسما تماما ، ومرت الاسابيع . ودنا الموعد ، وكان السلاح الجوى قد بدأ معركته مهاجما قوات العدو ومطاراته ومواصلاته وقد كان فى غاراته التى يشنها يولى القوات المعادية اهتماما خاصا ، وقد أغرقنا فى شهر سبتمبر ثلاثين فى المائة من سفن المحور التى تحمل المؤن إلى افريقية الشمالية ، وقد حققنا هدفنا هذا عن طريق الغارات الجوية . وقد ارتفع هذا الرقم فى شهر اكتوبر الى ٤٠ ٪ أما خسارة ناقلات الزيت ، فقد بلغت ٦٦ ٪ وحطمنا فى أشهر الخريف الأربعة ما يربو على مائتى الف طن من حمولة بواخر المحور ، وكانت هذه الضربات بالنسبة لجيش روميل ، قاصمة بل مميتة ، وأخيرا وردت الكلمة المرتقبة فقد أبرق الينا الجنرال اليكسندر يقول « زيب » .

وفى الثالث والعشرين من اكتوبر انطلق الف مدفع « ليلة البدر » حيث كان البدر تماما ، وقد ركزت هذه المدافع قذائفها على مدافع العدو مدة عشرين دقيقة ثم اتجهت الى مواقع مشاته تقصفها قصفا .. وتحت ستار هذه النيران الرهيبة الهائلة التى كان يعززها قذف شديد من الجو ، تقدم الفيلق الثلاثون بقيادة الجنرال « ليز » والفيلق الثالث عشر بقيادة الجنرال « هورروكس » وقد تقدمت وراءهما فرقتان مدرعتان من الفيلق العاشر بقيادة الجنرال « لومسون » لاحراز النصر ، وقد تمكنت الوحدات المتقدمة من أن تحرز إنتصارات ساحقة تحت ستار النيران الحامية وأن تشق لنفسها طرقا داخلية فى صفوف العدو حينما أخذت خيوط الفجر الفضية تنتشر فى الأفق ، وتدحر جيوش الظلام وقد قام المهندسون بتطهير الألغام خلف القوات الأمامية ولكننا لم نستطع أن نخترق حقول الألغام اختراقا كاملا على عمقها ، ولم يكن هناك أمل مبكر فى أن تستطيع مدرعاتنا اختراق جبهة العدو ، وقد شقت الفرقة الافريقية الجنوبية طريقها فى الجنوب الى الأمام لحماية الجناح الجنوبى المتقدم على حين شنت القوة الهندية الرابعة هجمات من هضاب الرويسات واستطاعت الفرقة المدرعة السابعة والفرقة الرابعة والأربعون من الفيلق الثالث عشر أن تخترقا جبهة

العدو الدفاعية المقابلة لهما وقد أرغم هذا الزحف العدو على أن يحتفظ بفرقتين مدرعتين ثلاثة أيام خلف هذا الجزء من الجبهة على حين كانت المعركة الرئيسية تتطور فى الشمال ٠

وبالرغم من ذلك لم نتمكن حتى الآن من فتح ثغرة فى صفوف العدو المتوغل فى حقول الالغام والخطوط الدفاعية . وفى الساعات الاولى المبكرة من صباح الخامس والعشرين من شهر أغسطس عقد مونتجمرى مؤتمرا حضره كبار قادته العسكريين وفيه أصدر أمره الى سلاحه المدرع بمواصلة ضغطه قبيل الفجر وفقا لتعليماته الأصلية ٠

وبعد قتال عنيف فى اثناء النهار تم الاستيلاء على أراض جديدة ولـكن الحصن الطبيعى الذى يعرف برابيـــة « الـكلى » ، أضحى محور الصراع العنيف مع الفرقة الالمانية المدرعة الخامسة عشرة ، ولم يضاعف مونتجومرى ضغطه الى مدى أبعد من جبهة الفيلق الثـــالث عشر حتى يحتفظ بالفرقة المدرعة السابعة سليمة حتى نهاية المعركة ٠

وفى هذا الوقت حدثت اضطرابات خطيرة فى قيادة العدو فقد نُقل رومل الى المستشفى فى ألمانيا فى آخر شهر سبتمبر ، وخلفه فى القيـــادة العامة الجنرال « شتوم » لـكن الأخير أصيب بعد أربع وعشرين ســاعة من بداية المعركة ــ بنوبة قلبية مفاجئة توفى على أثرهـــا ، وغادر رومل مستشفاه بناء على طلب هتلر وعاد الى قيادته فى الخـــامس والعشرين من هذا الشهر ٠

وقد ظل القتال دائرا طيلة السادس والعشرين من اكتوبر على امتداد الثغرة العميقة التى تم فتحها فى خط العدو وخاصة فى جوار « رابيـــة الكلى » وانطلقت قوة العدو الجوية من عقالها ــ وهى التى كانت هادئة فى اليومين الماضيين وأخذت تتحدى بشكل حاسم تفوقنا الجوى ، وجرت عدة معارك جوية كانت تنتهى دائما بانتصارنا ، وقـــد أفلحت جهود الفيلق الثالث عشر فى تأخير حركة سلاح المدرعات الالمـــانى ؛ وان لم تفلح فى منعه من الانتقال الى ما أصبح يؤلف الآن ٠٠ القطاع الفاصل فى الجبهة ، ولـكن سلاحنا الجوى ، صب على هذه الحركة وابلا من قذائفه ٠

وفى هذه اللحظة انطلقت الفرقة الاسترالية التاسعة بقيادة الجنرال «مورسهيد» شمالا من هذه الثغرة فى اتجاه البحر ، وسارع مونتجمرى الى استغلال هذا النجاح الواضح ، فأمر القوات النيوزيلندية المتقدمة

نحو الغرب بالتوقف . وأصدر أوامره الى لاسترالبيين بمواصلة التقدم صوب الشمال . وقد هدد هذا التقدم مؤخرة قسم من فرقة المشاة الالمانية فى الجناح الشمالى . وفى الوقت نفسه أحس بان قوة هجومه الرئيسى قد بدأت تضغط وسط حقول الالغام ومواقع المدفعية القوية المضادة للدبابات ، ولهذا ، أعاد حشد قواته وقام بهجوم جديد نابض بالحيوية والقوة .

وقد دار قتال فعال طيلة السابع والثامن والعشرين للاستيلاء على « رابيه الكلى » تجاه هجمات الفرقتين المدرعتين الألمانيتين : الخامسة عشرة والحادية والعشرين اللتين قدمتا من القطاع الجنوبى ، وقد أرسل الجنرال اليكسندر يصور القتال بالعبارات التالية :

فى السابع والعشرين من أكتوبر بدأ هجوم مدرع مضاد كبير ، وقد كان على النمط القديم ، وقد هاجمنا الألمان خمس مرات بما كان لديهم من دبابات ألمانية وإيطالية ، ولكنهم لم يحرزوا أى كسب بل مَنُوا بخسائر بالغة لا توازى ما منينا به من خسائر ، اذ كنا نحارب ونحن فى موقف الدفاع ، غير أنها كانت خسائر طفيفة ، وفى الثامن والعشرين قام العدو بهجوم آخر بعد مناورات استطلاع طويلة بالغة الدقة — يبدو أنها استغرقت كل ساعات النهار الباكر — لمعرفة المواقع الضعيفة وتحديد مواقع مدافعنا المضادة للدبابات وقد بدأ هذا الهجوم بعد الظهر — بصورة مركزة — على حين كانت وراءهم الشمس تنحدر الى مغربها ولم تحرز مناورات الاستكشاف فى هذه المرة نجاحا مثلما أحرزته فيما سلف من الأيام لأن دباباتنا ومدافعنا المضادة للدبابات كان يمكنها أن تشتبك مع العدو على أبعد مدى ، وحينما حاول تركيز قواته للقيام بالهجوم النهائى ، تدخل السلاح الجوى الملكى ثانية على نطاق واسع وبشكل مدمر ، وقد ألقت قاذفاتنا فى خلال ساعتين ونصف الساعة ما يقرب من ثمانين طنا من القنابل على منطقة حشوده التى كانت تمتد مساحتها أميالا طولا وميلين عرضا وقد حالف الفشل هجوم العدو قبل أن يستكمل تشكيله ، وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى حاول العدو فيها أن يتسلم قيادة المبادرة » .

وفى الفترة التى تمتد بين السادس والثامن والعشرين من أكتوبر ، قذفت طائراتنا بقنابلها ثلاث ناقلات نفط للعدو كان لها أهمية حيوية فاغرقتها . وبذلك جنينا ثمرة طيبة لعملياتنا الجوية التى كانت جزءا لا يتجزأ من المعركة البرية .

وفى هذا الوقت أعد مونتجومرى خططه ومواقعه للهجوم الحاسم ، الذى اسميناه « الهجوم الأكبر » . وقد أقصى عن الجبهة الفرقة النيوزيلندية والفرقة البريطانية المدرعة وقد كانت الاخيرة فى حاجة ملحة الى التنظيم بعد بلائها الرائع فى صد سلاح المدرعات الألمانى فى روابى « الكلى » وقد حشدت الفرقتان البريطانيتان المدرعتان السابعة والحادية والخمسون بالاضافة الى لواء من الفرقة الرابعة والأربعين وأدمجت فى قوة احتياطية واحدة ، وقد تقرر : أن يكون النيوزيلنديون فى مقدمة الهجوم ومعهم لواءا المشاة البريطانيان : (١٥١) و (١٥٢) ، ولواء المدرعات البريطانى التاسع .

وقد كان التقدم الاسترالى الرائع نحو الأمام وهو الذى تحقق بعد قتال تميز بالضراوة والشدة والعنف ـ هو الذى حول المعركة كلها الى جانبنا منذ بدأت . وفى الساعة الواحدة من صباح الثانى من نوفمبر بدأت عملية « الهجوم الأكبر » وقد تمكنت الالوية البريطانية الملحقة بالفرقة النيوزيلندية فى ظل ستار قوى من المدفعية من ان تنفذ الى المنطقة المحصنة ، وقد مضى اللواء المدرع التاسع فى زحفه ولكنه أمكنه ان يحتفظ بالرواق مفتوحا ، ثم تحركت الفرقة البريطانية فى المعركة فقد هاجم كل ما تبقى لدى العدو من الدبابات على جانبى المرتفع ، ولكنه أمكنه صدها . وهنا حانت « مرحلة القرار الأخير » ولكن تقارير طائراتنا الاستكشافية قد أثبتت انه فى الثالث والعشرين من نوفمبر ـ وعلى الرغم من ان العدو بدأ يتقهقر صمدت قوات مؤخرته المستخدمة فى التغطية على « طريق الرحمن » فى وجه الزحف الرئيسى لسلاح مدرعاتنا ، كالسد المنيع الذى يحول دون تقدمها ، وقد وصل أمر هتلر يحذر من التقهقر ، لكن النتيجة أفلتت من أيدى الألمان ، وكان علينا أن نفتح ثغرة ثانية فى الجبهة ، وقد شن « اللواء الهندى الخامس » فى الساعات المبكرة من صباح الرابع من نوفمبر ، هجوما خاطفا بالسيارات على بعد خمسة أميال جنوب تل العقاقير وقد أحرز هذا الهجوم نجاحا ملموساومنقطع النظير .. وهكذا كسبنا المعركة وأصبح الطريق مفتوحا أمام سلاح مدرعاتنا المطارد للعدو عبر الصحراء الغربية ..

وقد بدأ رومل انسحابه الكامل السريع ، ولكن وسائل النقل لم تكن متوفرة لديه حتى يحمل كل ما لديه من قوات ، كما أن الوقود كان ينقصه ، وعلى الرغم من أن الألمان كانوا قد قاتلوا ببسالة ، فإنهم كانوا يفاضلون بين أنفسهم وبين حلفائهم الايطاليين فى السيارات ، وترك

الألوف من ست فرق ايطالية هائمة فى الصحراء دون غذاء أو ماء ، ولم يعد لديهم من الأمل سوى أن تقوم قواتنا بجمعهم للزج بهم فى معسكرات الأسر .. وبعـد ، فقد امتلأت أرض المعركة بحشد كبير من الدبابات المحطمة والمدافع والسيارات ، وتقول مذكرات الألمان انه لم يبق مما لدى الفرقة الألمانية من مجموع ٢٤٠ دبابة صالحة للاستعمال عنـــد بداية المعركة ــ الا ثمان وثلاثون دبابة فى الخامس من نوفمبر ، وكان السلاح الجوى الألمانى ، قد تخلى عن محاولة الحصول على التفوق الجوى فى مجال الموازنة واصبح فى وسع سلاحنا الآن أن يعمل فى حرية وانطلاق ، لا يمنعه عائق ، مهاجما العدو بما يملك من موارد ، وهو يتقهقر فى قواته الغفيرة من الرجال والسيارات فى اتجاه الغرب ، وقد أثنى رومل ثناءً عاطرا على الدور البارز الذى لعبه الســـلاح الجوى الملكى فى المعركة . وهكذا هُزم جيش رومل هزيمة منكرة ، وغدا الجنرال « فون توما » مع تسعة جنرالات من الايطاليين اسرى فى أيدينا .

وقد راودنا الأمل في تحويل الكارثة التى نزلت بالعدو الى « عملية ابادة » ، واتجه الهجوم النيوزيلندى الى الغوته ، ولكن حينما قدم النيوزيلنديون الى هناك فى الخامس من نوفمبر كان العدو قد انسحب منها ، وقد راودنا هذا الأمل فى طريق تقهقر العدو فى مرسى مطروح التى كانت هدفا لهجوم الفرقتين البريطانيتين المدرعتين الأولى والسابعة. وعندما أسدل ليل السادس من نوفمبر ســدوله على الكون ، كانت الفرقتان تقتربان من هدفهما على حين كان العدو لا يزال يحـاول ــ جاهدا ــ الهرب من الفخ الذى يكاد يحصره ويبيده .. وفجأة هطل المطر ، وتضاءلت كميات الوقود لدى قواتنا الأمامية فتوقفت عمليات مطاردتنا طيلة السابع من نوفمبر ، وقد حال هذا التوقف ــ الذى استمر أربعا وعشرين ساعة ــ دون اتمام حركة الالتفاف لكن اربع فرق ألمانية وثمانى فرق ايطالية لم تستطع أن تصبح تشكيلات مقاتلة ، وأسر ما يقرب من ثلاثين ألف جندى كما استولت قواتنا على كميات كبرى من المعدات الحربية من مختلف الأنواع ، وقد سجّل رومل رايه فى الدور الذى أدته مدفعيتنا في هزيمته فقال : « وقد أظهرت المدفعية البريطانية مرة أخرى تفوقها الرائع المشهور ، ولعل أبرز ما فيها هو ، قدرتها على الحركة وسرعتها على التكيف وفقا لمقتضيات الهجوم » .

والخلاف بين معركة العلمين وبين المعارك الأخرى فى الصــحراء واضح ، فالجبهة محدودة قوية التحصين فضلا عن أنها تضم قوات

كبيرة ، ولم يكن هناك جناح يمكن الالتفـــاف حوله ، وكان على الفريق الأقوى الذى يود الهجوم أن يخترق الجبهـــة ، وتكاد « معركة العلمين » تذكرنا بمعارك الحرب العالمية الأولى فى الجبهة الغربية وقد تكررت فى مصر المظاهر التى سبق ان رأيناها ، من أجل تجربة واختبار القوى التى شهدناها فى « معركة كمبرية » فى آخر عام ١٩١٧ وفى المعارك الكثيرة التى دارت فى عام ١٩١٨ . وأهم هذه المظاهر ، تمتع المهاجمين بطرق مواصلات قصيرة ، واستخدام المدفعية فى أكبر تركيز ممكن والنصف الأجـوف وتوغل الدبابات فى هجوم الى الامام .

وكان الجنرال مونتجومرى ورئيسه الجنرال اليكسـندر قد اجادا اجادة تامة هذا اللون من الحـروب بفضـل التجربة والدراسـة وكان مونتجومرى نفسه مدفعيا عظيما كما كان بؤما ــ كما قال برناردشو عن نابليون : « ان المدافع تقتل الرجال » وسنراه دائما يحاول جمع ما بين ٣٠٠ و ٤٠٠ مدفع ثم يشركها فى عمل تحت قيادة واحدة مركزة ، بدلا من اشتباكات البطاريات ــ وهى العمليات التى لا مفر منها والتى ترافق تقدم سلاح المدرعات فى المجالات الصحراوية ــ وبطبيعة الأمر ، كان كل شىء فى المعركة أضيق وأقل بكثير من معارك فرنســـا « والفلاندرز » ، وقد فقدنا أكثر من ثلاثة عشر الفا وخمسمائة رجل فى العلمين فى اثنى عشر يوما ، وقد فقدنا فىاليوم الأولمن المعركةستين الفا ،وقد تضاعفت القوة النازية الدفاعية ــ من الناحية الثانية ــ عما كانت عليه فى الحرب الماضية ، وفى هذه الأيام كان المفروض أن تكون القوات المحتشدة للهجوم ضعفى القوات المدافعة أو ثلاثة أضعافها لا من حيث عدد المدافع فحسب، بل من حيث عدد الرجال كذلك لتسـتطيع اختراق الجبهـة المحصنة وتحطيمها برغم المدافعين عنها ، ولم يكن لدينا مثل هـذا التفوق فى العلمين ، وكانت جبهة العدو تتألف ــ فضـلا على سـلسلة الخطوط المتعاقبة من المواقع الحصينة ، من مواقع المدافع الرشاشة العميقة للغاية بكاملها وهى تشكل جهازا دفاعيا كاملا وأمام هذه المنطقة كلها يمتد درع هائل من حقول الالغام ، لم يسبق فى تاريخ الحروب له مثيل فى قوته وكثافته ، ولهذه الأسباب كلها ، فان معركة العلمين ستحتل دائما صفحة مجيدة فى التاريخ العسكرى البريطانى .

وهناك سبب آخر لخلود هذه المعركة ، هو انها تشير فى الواقع الى انقلاب فى « محور الخط » ، وقد يقال : ــ وهو قول صحيح ــ اننا لم نحقق أى ظفر قَبل العلمين ، ولكننا بعد العلمين لم نمن بأية هزيمة .

المشعل يوقد

لقد كان ما يضمره الرئيس روزفلت للجنرال ديجول من حزازات ، وما يقوم به من اتصالات عن طريق الأميرال « ليهلى » مع حكومة فيشى، وذكرياتنا عن تسرب أنباء تصميمنا على مهاجمة الأسطول فى « داكار » قبل عامين ، حافزا لنا على اتخاذ قرار بعد الادلاء بشىء للفرنسيين عن عملية « المشعل » ولم يخطر ببالى مناقشة هذا التصميم ، ومع ذلك كنت أدرك تمام الادراك علاقاتنا نحن البريطانيين بديجول كما كنت أحس بما يحس به من اساءة بالغة من جراء تعمدنا استثناءه من الاشتراك فى المشروع . وقد قررت أن يحاط علما بذلك قبل حدوثه ، كما قررت — كوسيلة للتخفيف من الاساءة التى ستلحق به وبحركته — أن أسند اليه الوصاية على مدغشقر وكانت كل الحقائق الماثلة أمامنا فى شهور التأهب، وكل ما حشدنا من معلومات منذ ذلك الحين ، يسوغ الرأى القائل : ان الزج بديجول فى المشروع سيكون له صدى سيىء منبعث عن الفرنسيين فى أفريقية الشمالية .

ان الضرورة الملحة لخلق شخصية فرنسية بارزة كانت جلية واضحة ، وقد بدأ للبريطانيين والأمريكيين أنه ليس هناك من هو أصلح لهذه المهمة من الجنرال « جيرو » القائد الفرنسى صاحب الرتبة العالية . الذى تناقلت الأساطير قصة هروبه المسرحى الغريب من السجن فى ألمانيا ، وكنت قد التقيت بجيرو فى متيز عام ١٩٣٧ . حينما زرت ماجينو ، وكان يتولى قيادة أكبر قطاع فيه ، وقد حدثنى عن مغامراته فى الحرب العالمية الأولى كأسير حرب خلف الخطوط الألمانية ، ولما كنت أنا أسيرا هاربا فى حرب البوير ، كان هناك ما يجمعنا . وقد استعاد حينئذ كقائد جيش بعض مغامرات الصبا بطريقة أكثر اثارة ، وبدأ الأمريكيون محادثات سرية مع الجنرال ، وقد وضعت الخطة لنقله من « الرفييرا » الى جبل طارق فى اللحظة الحاسمة ، وقد تركزت آمال كثيرة على « دبوس الملك » وهو الاسم الذى أطلقناه عليه فى برقياتنا الرمزية ، وقد نقل « جيرو ووالداه فى سلام على الرغم من المخاطرات البحرية التى تعرض لها .

وفى خلال ذلك كان أسطولنا الجبار يدنو رويدا رويدا من مسرح المعركة ، وكان على أكثر القوافل التى أبحرت من الموانى البريطانية أن تمر بخليج بسكاى ، وأن تقطع كل طرق الغواصات ، وقد كنا نفتقر أشد

الافتقار الى قوات حراسة ضخمة ، وكان علينا أن نخفي حشود بواخرنا الضخمة التى بدأت تحتشد منذ أوائل شهر أكتوبر فى « كلايد » وغيرها من الموانى الغربية ، وأن تقوم بأبحارها ، وقد نجحنا فى ذلك نجاحا ساحقا ، وتراءى للألمان — وفقا لمعلومات دوائر مخابراتهم أن « داكار » هى هدفنا الجديد وقد احتشد فى آخر الشهر ما يقرب من أربعين غواصة بين ألمانية وايطالية جنوبى وشرقى جزر الآزور ، وقد هاجمت قافلة كبرى كانت فى طريق العودة الى سيراليون ، وأغرقت ثلاث عشرة باخرة، وكان فى طاقتنا أن نتحمل مثل هذه الخسارة فى مثل هذه الظروف . وفى الثانى والعشرين من أكتوبر رحلت أولى قوافل « المشعل » ، وقبل السادس والعشرين من الشهر كانت كل بواخر نقل الجنود السريعة فى طريقها ، فى حين أبحرت القوات الأمريكية من امريكا الى الدار البيضاء . وهكذا اشتركت نحو ٦٥٠ باخرة فى العملية كلها ، وقد عبرت خليج بسكاى أو « المحيط الاطلنطى » دون أن ترى للغواصات أو الطائرات الألمانية أى اثر .

وقد عبأنا لهذه العملية كل ما لدينا من قوات بحرية ، فتولت طراداتنا فى الشمال مراقبة مضيق الدانمرك ومداخل بحر الشمال لتمنع سفن العدو الحربية من أن تعترض سير الحملة ، وقامت طرادات أخرى بحراسة الطريق الأمريكى قرب « جزر الآزور » كما قامت القاذفات الانجليزية والأمريكية ، بمهاجمة قواعد الغواصات على امتداد الساحل الفرنسى على الاطلنطى ، وفيما بين ليلتى الخامس والسادس من نوفمبر بدأت طلائع السفن تدخل البحر المتوسط دون أن يحس العدو بذلك كما أن العدو لم ير القافلة المتجهة الى « ميناء الجزائر » الا فى السابع من الشهر نفسه ، أى قبل أربع وعشرين ساعة فقط من موعد وصولها الى هدفها ، فهوجمت احدى بواخرها !

وفى الخامس من نوفمبر طار أيزنهاور فى رحلة خطرة حتى وصل الى جبل طارق وكنت قد أسندت القلعة الى قيادته كى يتخذ منها مقره المؤقت باعتباره القائد العام لهذا المشروع الضخم الأول — وهو الذى تقوم به قوات بريطانية — أمريكية — وقد حُشدت القوات الجوية الضخمة الضرورية لمثل ذلك فى القيادة للقيام بعملية « المشعل » ، وقد ازدحم البرزخ بالطائرات ووقف فيه من أسراب الطائرات اربعة عشر على أتم الأهبة لساعة الصفر ، وكان هذا النشاط يتم بالطبع على مرأى ومسمع من المراقبين الألمان ، وكنا نأمل أن يخطر ببال الألمان أن الهدف من هذه

القوات الجوية هو تعزيز مالطة ، وقد بذلنا قصـــارى جهدنا لحملهم على هذا الاعتقاد ، ويبدو أنهم قد اعتقدوا ذلك .

وقد تكلم أيزنهاور فى مذكراته بوضوح عن التجربة التى تثير القلق وهى التى مر بها فيما بين ليلتى السـابع والثامن من نوفمبر ، وفى خلال الأيام القليلة التالية ــ حيث كان الجنرال يبدى من دلائل الروعة ما يجل عن الوصف من احتمال مثل هذه الجهود ، وقد كانت ضخامة العملية التى نقوم بها ، وعدم الاطمئنان الى الطقس العام الذى يقضى على كل شيء ، فضلا على ما يَرد الينا من الأنباء الصغيرة ، والتعقيدات الكبرى عن موقف فرنسا ، والخطر الماثل الذى يطل برأسه من اسبانيا .. كلها أمور ــ اذا أضيفت الى القتـــال تبدو شاقة جدا على قائد يتحمـــل مسئوليات ضخمة مباشرة .

وهنا ظهر الجنرال جيرو فى الميدان ، وقد هيمنت على فكره انه سيعين قائدا أعلى فى افريقية الشمالية ، وان كل الجيوش البريطانية والأمريكية ــ التى لم تكن تعرف عنه شيئا سابقا ستوضع تحت قيادته ، وكثيرا ما كان يحض على القيام بالانزال فى فرنسا بدلا من افريقية ، أو بالاضافة اليها ، وكثيرا ما كان يبدو له أن هذه الصورة لها نصيب من الواقع وقد امتدت المناقشات بينه وبين الجنرال ايزنهاور أكثر من ثمان وأربعين ساعة قبل أن يقتنع هذا الفرنسى الشجاع بمنطق الأحداث .. وكنا قد عقدنا آمالا باسمة على « دبوس الملك » .. لكن يبدو أنه أكبر من أن يُخدع بما يتمتع به من نفوذ فى مواجهة الحكام الفرنسيين ،

وفى هذا الوقت حدث تعقيد غريب . بيد أنه أتى مواتيا فى هذه اللحظة خاصة فقد عاد الأميرال « دارلان » بعد أن قضى جولة تفتيشية فى شمالى افريقية الى فرنسا لأن ابنه أصيب بشلل الأطفال ونقل الى المستشفى فى مدينة الجزائر ، واستدعت خطورة حالته ان يعود الأميرال طائرا الى الجزائر فى الخامس من نوفمبر ، وهكذا قدم « دارلان » الى الجزائر عشية نزول القوات الانجليزية ــ الأمريكية ــ وكان هذا مجرد مصادفة غريبة ورهيبة فى الوقت نفسه ، وكان المستر «روبرت مورفى» الممثل الأمريكى السياسى في افريقية الشمالية يأمل أن يتمكن دارلان من مغادرة البلاد قبل بداية الهجوم على سواحلها .. على أن هذا الذى شغله مرض ولده ، قد تأخر يوما آخر أقام فيه فى دار أحـــد الموظفين الفرنسيين وهو « الأميرال فينارد » .

وفى الأسابيع الأخيرة تركزت آمالنا على الجنرال « جوان » ، القائد العسكرى الفرنسى فى الجزائر ، وكانت علاقته بالمستر مورفى جد وثيقة ـ وان كان المبعوث الأمريكى لم يخبره بالموعد الحقيقى للغزو وبعد منتصف ليلة السابع من نوفمبر أخبره مورفى ان الساعة الحاسمة قد أزفت .. وبرغم علاقات الجنرال « جوان » الوثيقة بنا واخلاصه المتفانى للمشروع كانت هذه الأنباء مفاجئة له ، وكانت آماله قد تركزت فى توليه القيادة الكاملة فى الجزائر باعتباره الشخصية العسكرية الكبرى فى البلاد ولكن وجود الأميرال «دارلان» فى المنطقة حينئذ يعرض سلطته للتحدى ، وكان يعلم أن تحت امرته عدداً لا يتجاوز المئات من الشبان الفرنسيين المتحمسين ، وان الاشراف على الادارتين : السياسية والعسكرية ، قد انتقل زمامه من يديه الى يدى الوزير الأميرال « دارلان » ولا مرية فى أن القوات العسكرية والهيئات الادارية لن تذعن له الآن ،وسأل « مورفى» : لماذا لم يخبروه فيما مضى بساعة الصفر ، وكانت الدواعى واضحة جدا ولم تبدل الحقيقة شيئا من سلطاته وصلاحياته فدارلان موجود فى المنطقة وهو المهيمن على كل ولاء لفرنسا ـ «فيشى » وقد قرر مورفى وجوان أن يطلبا الى دارلان تليفونيا أن يحضر اليهما فورا ، وفى الساعة الثانية صباحا أوقظ دارلان من نومه استجابة لمكالمة تليفونية عاجلة من الجنرال جوان ، وحينما أحيط الأميرال بنبأ الضربة التى ستسدد بعد لحظات ، أحمر وجهه وقال : « لقد كنت أعلم منذ زمن سحيق ، ان البريطانيين سخفاء ، ولكننى كنت اعتقد باستمرار أن الأمريكيين يفوقونهم ذكاء ، وهاأنذا بدأت أعتقد انكم تقترفون من الأخطاء مثل ما يقترفون » .

وكان « دارلان » وهو الذى ذاع عداؤه لبريطانيا منذ زمن بعيد قد ارتبط بالمحور ارتباطا وثيقا ، على حين أنه وافق فى مايو عام ١٩٤١ ، على منح تسهيلات فى « داكار » الى جانب السماح بمرور الامدادات الى جيوش رومل عبر تونس ، لكن الجنرال « ويجان » الذى كان قائدا عاما فى شمال افريقية ، أوقف هذه العملية قبل ذلك لأنها تحتوى على الخيانة وقد نجح فى اقناع « بيتان » برفض هذا الطلب الألمانى ، ولما كان هتلر حينئذ مشغولا في الاعداد للحملة الروسية المنتظرة فانه لم يضغط على « بيتان » فى هذه القضية ، على الرغم من اننا لم نسمع شيئا جديدا عن خطط المحور لاستخدام « داكار » ضدنا ، وقد فتحت الموانى التونسية فيما بعد لسفن المحور ، وقامت بدور كبير بارز فى تأمين العتاد والمؤن لجيوش روممل فى صيف عام ١٩٤٢ ، وقد تغيرت الأوضاع الآن. وتبدل معها موقف دارلان ، لكنه ظل مرتبطا ببيتان مظهرا ومخبرا ،

بالرغم مما يراوده من افكار لمساعدة الاحتلال الانجليزى ــ الأمريكى لشمالى افريقية ، وكان يعلم أنه اذا انضم الى الحلفاء ، فسوف يتحمل مسئولية قيام ألمانيا بغزو مناطق فرنسا غير المحتلة ، بيد أن كل ما يمكن عمله والحالة هذه هو أن يطلب الى بيتان برقيا تخويله صلاحية لعمل ، ولم يكن امامه سوى هذا الطريق ، نظرا للحالة الرهيبة التى ورطته فيها سلسلة من الأحداث المتتابعة ، وهى التى تنكّب فيها جانب الضمير.

وهناك فى بعض الأماكن شرقى الجزائر وغربيها ، بدأت عمليات انزال القوات البريطانية والأمريكية من الأسطول الأمريكى البريطانى بعد الساعة الواحدة من صباح الثامن من نوفمبر بقليل تحت اشراف الرير اميرال بورو . وقد وجهت قطع الانزال الى السواحل التى اختيرت لاتمام العملية بعناية كافية للغاية . وفى الغرب نجحت طلائع اللواء البريطانى الحادى عشر نجاحا كاملا . أما فى الشرق فقد انحرفت بعض قطع الانزال التى تحمل الأمريكيين عن مواقعها المحدودة عدة أميال بسبب التيارات المنطلقة . وقد أدى هذا الى حدوث بعض الاضطراب والتأخر . وقد حققنا ــ لحسن الحظ ــ عنصر المفاجأة ، ولذا كانت المقــاومة على الشاطىء تكاد تكون مفقودة تقريبا . وسرعان ما تحققت الهيمنة التامة ، وقد رأت احدى طائرات سلاح الأسطول اشارة ودية من الأرض ، فهبطت فى مطار « بليدة » ، واستطاعت بالتعـــاون مع القائد الفرنسى المحلى أن تحافظ على المطار حتى وصلت قوات الحلفاء قادمة من الشواطىء ،

وفى ميناء الجزائر نفسها جرى قتال عنيف حينما حاولت المدمرتان البريطانيتان «بروك و ومالكولم» اقتحام مدخل الميناء ، وانزلتا قوات أمريكية ــ على الحاجز المائى ؛ لتسيطر على الميناء ، وقد استولت على بطارياته الساحلية ، وحالت دون اغراق السفن الفرنسية أو تخريبهــا ، وكانت نتيجة هذا العمل تصدى المدمرتين لنيران البطاريات الفرنسية الساحلية وانتهى الأمر الى كارثة رهيبة ، فسرعان ما شــلت حركة « مالكولم » ودخلت « بروك » الميناء بعد المحاولة الرابعة ، وانزلت الجنود الذين تحملهم ، ولكنها سرعان ما غرقت عندما حاولت الانسحاب وأصيبت بأضرار بالغة . أما الجنود الذين نزلوا الى البر فقد وقعوا فى الشرك وأجبروا على الاستسلام .

وفى الساعة الخامسة مساء أرسل دارلان برقية الى رئيسه قال فيها «لقد دخلت القوات الأمريكية المدينة على الرغم من عرقلة عملياتنا لها. وقد خولت الجنرال جوان القائد العام التفاوض لتسليم مدينة الجزائر

فقط وفى السابعة مساء تم استسلام مدينة الجزائر ، ومنذ هذه اللحظة أصبح الأميرال دارلان تحت سيطرة الأمريكيين . وقد استأنف الجنرال جوان قيادته تحت اشراف الحلفاء .

وفى وهران كانت المقاومة أشد . فقد اصطدمت مع قوات الطوارىء الأمريكية — الوحدات الفرنسية النظامية التى حاربت البريطانيين فى سورية قبل ان يؤازرها فى ذلك رجال القيادة البحرية الذين ما فتئوا يحملون ذكريات مؤلمة عن هجومنا على الأسطول الفرنسى فى عام ١٩٤٠ . وقد توزع فى جو عاصف فوج من جنود المظلات الأمريكيين ، كان قد غادر انجلترا لتسلم المطارات فى اسبانيا . واستطاعت هذه الطلائع أن تشق طريقها ، الا انها هبطت على مدى عدة أميال من هدفها بسبب خطأ فى عمليات ملاحتها الجوية .

وفى ميناء وهران — حاولت سفينتان حربيتان بريطانيتان صغيرتان ان تنزلا عددا من الجنود الأمريكيين هادفتين من وراء ذلك — كما هو فى الجزائر — الى الحيلولة دون تخريب الفرنسيين مؤسسات الميناء وتحطيم السفن وتحويل القاعدة الى قاعدة بحرية للحلفاء فى أقرب وقت ممكن . وقد قابلت سفينتان بريطانيتان من سفن الشاطىء بقيادة القبطان « بيترز » وكنا قد حصلنا عليهما من الأمريكيين بمقتضى قانون الاعارة والتأجير — قابلتا نيرانا حامية من مدى قريب فحطمتا ، وبتحطيمهما قتل معظم من كان على متنهما من رجال . أما القبطان بيترز فقد نجا بأعجوبة ، وتشاء الأقدار أن يلقى حتفه بعد بضعة أيام فى كارثة طائرة فى أثناء عودته عليها من انجلترا . وقد منح بعد موته وسامى « صليب فيكتوريا » و « الخدمة الممتازة الأمريكى » .

ومع أشعة الفجر البيضاء الرائعة ، نشطت المدمرات الفرنسية والغواصات فى خليج وهران ، ولكنها لم تلبث ان أغرقت أو دمرت . وقد آزرت الوحدات البريطانية البارجة « رودنى » بضرب البطاريات الفرنسية الساحلية ، وظل القتال حتى صباح العاشر من شهر نوفمبر — حينما شن الأمريكيون هجومهم النهائى على المدينة ، ولم يحن وقت الظهيرة حتى استسلم الفرنسيون .

وقبيل فجر الثامن من نوفمبر وصلت قوة العمليات الغربية الى الساحل المراكشى ، وكان الهجوم الرئيسى ، الى جانب هجمات جناحى الشمال والجنوب من الميناء على مقربة من الدار البيضاء . وكان الجو جميلا ، وان كان معتما . وكانت الأمواج على الشاطىء أقل هياجا مما كان

متوقعا ، ولكنها لم تلبث أن اضطربت بعد ذلك ، وبعد أن أقامت قواتنا لها مركزا ثابتا على الشاطىء ، وقد دار قتال رهيب فى البحر .

ففى ميدان الدار البيضاء اشتبكت البارجة « جان بورت » التى أمكنها ، بالرغم من ان بناءها لم يتم بعد ــ أن تستعمل مدافعها الأربعة عيار ١٥ بوصة « فى معركة مع البارجة الأمريكية ما شويست ، على حين أقلعت المدمرات الفرنسية ، يؤازرها الطراد بريموجيه ، لمقاومة حركة النزول وقد التقت هذه الوحدات وجها لوجه بالأسطول الأمريكى كله ، وحطمت سبع سفن فرنسية وثلاث غواصات ، وفقد الفرنسيون عددا من الرجال زاد على الألف ، وأشعلت النيران فى البارجة جان بورت ؛ وجنحت الى الشاطىء وفى صباح الحادى عشر من نوفمبر استسلم « نوجيس » المقيم الفرنسى العام عندما تلقى أمرا من دارلان ، وبعث الى فيشى ببرقية يقول فيها « لقد فقدت كل ما كان لدى من سفن القتال والطائرات بعد ثلاثة أيام من القتال العنيف المحتدم .

وكان « مبيرين » قبطان الطراد بريموجيه يتمنى أن يظفر الحلفاء بالنصر ، ولكنه مع ذلك صُرع على جسر طراده وهو منهمك فى تنفيذ اوامره . ولا مرية فى ان من حقنا أن نشكر الأقدار لأنها لم توقفنا مثل هذه المواقف الحرجة من الولاء المتعارض وآخذت انباء متناثرة من هنا وهناك ترد الى مقر قيادة الجنرال ايزنهاور فى جبل طارق ، حيث أخذ يواجه الآن وضعا سياسيا خطيرا ، فقد كان متفقا مع الجنرال جيرو على أن يسند اليه قيادة بعض القوات الفرنسية التى قد تنضم الى قضية الحلفاء ، وفجأة ظهر على المسرح السياسى رجل يستطيع أن يقرر بالفعل انضمام هذه القوات الى الحلفاء فعلا ، وبصورة نظامية أولا ذلكم هو الأميرال « دارلان » ولم يكن الأمل فى ولاء هذه القوات « لجيرو » قد اختبر بعد ! وان كانت الدلائل غير مشجعة على الاطلاق ولهذا طار الجنرال جيرو فى صباح التاسع من نوفمبر الى الجزائر ، وطار بعده بقليل ، الجنرال « كلارك » : النائب الشخصى للجنرال أيزنهاور . وكان فى استقبال كبار القادة العسكريين الفرنسيين فى الجزائر ، فتوارى فورا

وكانت فرق المقاومة التى نظمها العملاء البريطانيون والأمريكيون قد انهارت واختفت ، ولم يصل كلارك فى اجتماعه الأول بدارلان الى أى اتفاق ، وكان من الواضح ، أن أى مسئول لن يقبل جيرو قائدا فرنسيا أعلى ، وفى اليوم التالى اجتمع « كلارك » مرة أخرى بالأميرال دارلان ، وقد تحدث الى ايزنهاور بالمسرة بأن الاتفاق مع « دارلان » هو الحل

الوحيد ، وأن الظروف لا تسمح بمناقشات برقية مع لندن وواشنطون . ولم يكن « جيرو » حاضرا هذا الحديث ، أما دارلان فقد تردد لأنه يرتقب تعليمات « فيشي » » ، وقد أعطاه كلارك مهلة نصف ساعة لاتخاذ قراره النهائي . ووافق الأميرال بعد لأى على اصدار أمره بوقف اطلاق النار . بصورة عامة في كل أنحاء افريقية الشمالية وتولى الماريشال السلطة التامة للامبراطورية الفرنسية بافريقية الشمالية وأصدر أوامره الى كل الموظفين بالبقاء في مناصبهم .

وأصدر « دارلان » أيضا أمره الى الأميرال « استيفا » المقيم الفرنسي العام في تونس بأن ينضم الى الحلفاء ، وكان هذا تابعاً مخلصا لفيشي ، وقد تقصى تطور الأحداث في فزع وقلق ، ولما كان اقرب الى العدو من دارلان أو « فوجيس » ، حيث أن الأعداء يرابطون في «صقلية» وعلى حدودها الشرقية . فقد كان وضعه أسوأ من وضعهما ، وكان كبار مساعديه لا يقلون عنه قلقا واضطرابا ، وتردد في اتخاذ القرار ، وفي التاسع من نوفمبر استولت وحدات من السلاح الجوى الالمانى على مطار العوينة « الهام » ، وفي اليوم نفسه وصلت قوات المانية وايطالية الى البلاد ووجد «استيفا» نفسه في وضع يائس بين قوات المحور القادمة من الشرق من طرابلس وقوات الحلفاء التي تستحث الخُطا من الغرب . فقرر أن يظل على ولائه « لفيشي » ، أما الجنرال الفرنسي « باريه » — الذي وجد نفسه في البداية في موقف مضطرب — فقد قرر أخيرا أن يتحرك مع القسم الأكبر من الحامية الفرنسية غربا ، وأن يضع نفسه تحت تصرف الجنرال « جيرو » ، وفي بنزرت استسلم للمحور ثلاثة زوارق طوربيد وتسع غواصات فرنسية .

وفي الاسكندرية — حيث جرد الأسطول الفرنسي من أسلحته منذ عام ١٩٤٠ — لم تصل المحادثات التي جرت مع الأميرال « جوديفري » الى أية نتيجة ، اذ ظل على ولائه الفيشي ، وأبى أن يعترف بسلطة دارلان وكان من رأيه أن الحلفاء اذا لم يستولوا على تونس ، فلن يمكنهم أدعاء تحرير فرنسا ، وهكذا ظلت سفنه معطلة الى أن تمكنا أخيرا — وبعد وقت طويل من الاستيلاء على تونس ، وفي داكار أذعن الحاكم الفيشي الجنرال « بواسون » لأوامر « دارلان » بوقف المقاومة في الثالث والعشرين من نوفمبر ... لكن وحدات الأسطول الفرنسي هناك ، أبت أن تنضم الى الحلفاء ، ولم تنضم البارجة « ريشيليو » والطرادات الثلاثة الى الحلفاء الا بعد أن تم الاستيلاء على الشمال الافريقي كله .

لقد كانت احداث النزول البريطاني ـ الأمريكي في افريقية الشمالية ذات نتيجة عاجلة في فرنسا . فالألمان منذ ديسمبر عام ١٩٤٠ قد أعدوا خطة تفصيلية كاملة لاحتلال ما تبقى من فرنسا ، وقد نفذت هذه الخطة الآن ؛ وكان هتلر يهدف أولا الى السيطرة على الوحدات الرئيسية للأسطول الفرنسي الموجودة في طولون ؛ وكان الجنرال ايزنهاور تواقا كذلك الى أن يستولى على هذه الغنيمة العظمى في الوقت الذى كان يتفاوض فيه مع دارلان ، وكان هذا يبعث بالرسائل الى فيشى ....

لقد كان الالمان يتقدمون بسرعة فائقة نحو ساحل البحر المتوسط، ويحتلون ما تبقى من فرنسا ، وقد يسر هذا التطور مهمة دارلان وأصبح في امكانه أن يقول ـ مع ثقة كل الموظفين والعسكريين فيما يقول : ان الماريشال بيتان لم يطلق سراحه بعد .

وقد هزت الحركة الالمانية دارلان هزة عنيفة ، فقد غدا مصير الأسطول الفرنسي مرة ثانية ـ كما حدث في عام ١٩٤٠ ـ في كفة القدر وكان الأميرال هو الرجل الوحيد الذى يمكنه أن ينقذه ، فبادر الى العمل بشكل حاسم ، وأبرق بعد ظهر الحادى عشر من نوفمبر الى فرنسا يقول : ان على أسطول طولون أن يخرج الى عرض البحر ، اذا كان مهددا بالوقوع سريعا في قبضة الألمان .

وقد أرغم الأميرال « اوفان » وزير بحرية فيشى أن ينضم الى دارلان ؛ ولكنه لم يكن في وسعه أن يقوم بأى عمل في وجه « لافال » وازاء موقف القادة الفرنسيين في طولون ، وكان الأميرال ـ «دى لابورد» القائد العام للأسطول فرنسا في البحر المتوسط متطرفا في عدائه للبريطانيين ، وعندما سمع بنزول الحلفاء في شمالى افريقية أراد أن يخرج الى جانب البحر ثم ينقض على قوافل الحلفاء وقد رفض تلبية طلب دارلان قدومه الى افريقية وقد وصل الألمان الى قطاع القاعدة البحرية الفرنسية في الوقت الذى توصل فيه الى اتفاق لاقامة قاعدة حرة حول الميناء يتولى الجنود الفرنسيون حراستها وقد جرت محاولات لتحصين الميناء وتعزيز حاميته ، ولكن الألمان طلبوا في الثامن عشر من نوفمبر ، انسحاب كل الفرنسيين من المنطقة وفي اليوم التالى استقال الأميرال دوفان » .

وقد قرر الألمان القيام بعمل حاسم ضد الأسطول ، وقد قاموا به في السابع والعشرين من نوفمبر ، ولكن بسالة عدد من الضباط من بينهم

الأميرال « لابورد » نفسه مكنت من القيام بعملية تخريب جماعية للأسطول تمهيدا لاغراقه . وبالفعل غرقت بارجة « وطرادان » وبارجتان، وسبعة طرادات وتسع وعشرون مدمرة وزورق طوربيد وست عشرة غواصة بالاضافة الى مجموعة أخرى من سفن حربية تعدادها ثلاث وسبعون .

وبعد شهر تقريبا لقى الأميرال دارلان مصرعه حيث كان يقود سيارته الى مكتبه فى القصر الصيفى بعد ظهر الرابع والعشرين من ديسمبر وفى مدخل المكتب أطلق شاب يناهز العشرين من عمره ويدعى « بونيه دى لا شابيل » النار على الأميرال . فاصابه اصابة قاتلة أدت الى وفاته بعد ساعة تقريبا وهو على منضدة العمليات فى مستشفى قريب ، وكان القاتل الشاب — مقتنعا منذ وقت طويل — متأثرا بحالة عقلية خاصة بأنه منقذ فرنسا من الزعامة الشريرة ، وقد حوكم أمام محكمة عسكرية بأمر من « جيرو » ، وكم كانت دهشته حينما وجد حكم الاعدام ينفذ فيه رميا بالرصاص بعد فجر السادس والعشرين من ديسمبر بقليل .

وهناك عدد أقل من الرجال دفع ثمنا أبهظ مما دفعه دارلان نظرا لأخطائه فى التقدير فضلا عن احتياجه الى الخلق ، فلقد كان شخصية محترفة قوية ، كرس حياته كلها لبعث الاسطول الفرنسى وقد نهض به الى مركز لم يصل اليه منذ أيام الملوك الفرنسيين ، ولم يحظ بولاء الضباط البحريين فحسب ، بل انه ظفر بولاء كل العاملين فى سلك البحرية ، وكان عليه — طبقا لوعوده المتكررة — أن يأمر كل أساطيل فرنسا في عام ١٩٤٠ أن تتجه نحو فرنسا أو الولايات المتحدة أو الموانى الافريقية أو اى مكان آخر خارج نطاق السيطرة الألمانية ، ولم تكن هناك معاهدة ما تلزمه بذلك سوى ما قطعه على نفسه من تأكيدات بمحض اختياره وكان هذا قراره وتصميمه الى أن ولاه الماريشال « بيتان » وزارة البحرية فى ذلك اليوم البشع : يوم العشرين من يونيو عام ١٩٤٠ . ومن المحتمل أن يكون قد تأثر بعد ذلك بدوافع ذات طابع ادارى ، فكرس ولاءه لحكومة الماريشال « بيتان » وتخلى عن أن يكون بحارا وأصبح سياسيا وترك المجال الذى يعرفه جيدا الى مجال آخر لا يسترشد فيه الا بما يكنه من عداوة لبريطانيا ترجع الى ايام معركة الطرف الأغر « التى قتل فيها أحد أجداده » .

وقد برهن – وهو فى مركزه الجديد – على انه رجل جامد ، لا يزن ما يفعل بالقيم الاخلاقية – كما ينبغى – وكان الطموح هو الذى دفعه الى ارتكاب أخطائه ، وكان أفقه كأميرال لا يمتد الى أبعد من الأسطول ، كما أن آفاقه الضيقة كوزير ، كانت تترامى الى منافعه الشخصية والمحلية فحسب ، وظل يمثل طيلة عام ونصف العام قوة عظمى فى فرنسا المحطمة المنهوكة القوى ، وفى الوقت الذى هبطنا فيه على ارض افريقية الشمالية ، كان – ولا شك – الوارث الذى لا ينازع للماريشال العجوز ، وها هو ذا يتعرض فجاة لسيل منهمر من الأحداث المذهلة .

وقد تحدث عما مر به من صعاب ، فقد أخذت ترنو اليه كل المناطق الفرنسية فى شمال افريقية وغربيها ، وقد خوله غزو هتلر لفرنسا فيشى « السلطة المطلقة » كما منحه الحق فى اتخاذ قرار جديد حاسم ، وقد حقق للحلفاء الانجليز والأمريكيين الآن كل ما يطلبونه اعنى سمعة فرنسا ومكانتها العالمية وصوتها الذى يصغى اليه ضباط فرنسا وموظفوها فى هذا المسرح الواسع الذى غرق الآن فى الحرب وقد سدد ضربته الأخيرة فكانت موجهة الى مصالحنا ... وليس من حق أولئك الذين جنوا فائدة كبرى من انضمامه الى صفوفنا ، أن يسيئوا اليوم الى ذكراه . ويمكن للقاضى المنصف أن يقول : ان واجبه كان يحتم عليه أن يرفض محادثات الحلفاء الذين أساء اليهم فى الماضى وأن يتحداهم ليصنعوا ما يريدون به ، ويسرنا كثيرا أنه اتخذ طريقا مضادا ، وقد دفع حياته ثمن هذا ، بيد انه كان قد استنفد أكبر قسط من هذه الحياة ، ولم يبق له منها الكثير ، وقد اتضح آن ذاك أنه كان مخطئا حيث أنه لم يأمر الأسطول الفرنسى بالأبحار الى الموانى الحليفة أو المحايدة فى يونيو عام ١٩٤٠ ، على أنه كان على صواب حقا فى قراره الرهيب الثانى ، ولعل أكثر ما آلمه وحز فى نفسه انه فشل فى اجتذاب أسطول طولون ، وقد أعلن دائما أن هذا الاسطول يجب ألا يقع فى أيدى الالمان ، لكنه أوفى بهذا التعهد أمام التاريخ ... فلروحه الرحمة ، ولنحمد الله على أن الاقدار لم تشأ أن نواجه ما واجهه من امتحان عصيب تحطم تحت وطأته ..

زيارتى الثانية لواشنطن وطبرق

كان الجنرال أوكنلك ــ بالرغم من احساسه بقصوره عن القبض على زمام المبادرة فى الصحراء ــ يترقب فى ثقة واطمئنان هجوم العدو ، وكان قائد الجيش الثامن الجنرال « ريتشى » قد جهز تحت اشراف رئيسه مراكز دفاعية قوية تمتــــد من الغزالة الى بئر هاشم على مدى أربعين ميلا جنوبا وتتكون من نقط منيعة تسمى « أبراجا » وتدافع عنها ألوية وقوات أكبر منها ، وأمامها خط طويل من الالغام وقف خلفه سلاحنا المدرع والفيلق الثلاثون على أهبة الاستعداد وقد قامت الاسلحة المدرعة فى بداية معارك الصحراء كلها ما عــدا معركة العلمين بحركة التفــاف سريعة للاجنحة الصحراوية · وفى ليلة ٢٦ ــ ٢٧ من مايو بدأ رومل هجــومه فى ضوء القمر وتقدم بكل ما لديه من سلاح مدرع ، راجيا أن يشتبك مع سلاحنا المدرع ويحطمه ، ويستولى على طبرق فى اليوم الثانى من الهجوم ولكنه لم يســـتطع أن يحقق هذا الهدف ، وفى العاشر من يونية أرسل الينا الجنرال أوكنلك بعد قتال باسل مرير ــ تقــديره لخسائر الطرفين وقد أقررتُ أرقام الدبابات والمدافع والطائرات واعتبرتها دقيقة ولكن أذهلنى البيان التالى : « وتبلغ خسائرنا من الرجال ما يقرب من عشرة آلاف بينهم ثمانية آلاف من المؤكد انهم من الأسرى . أما خسائرنا من الفرقة الهندية الخاصة فلم تحدد بعد وهذا الفرق الكبير بين عدد القتلى والجرحى من جهة وبين عدد الأسرى من جهة أخرى يلقى شعاعا على ما حدث مما لا يسر ويوضح أن مقر القيادة العامة فى القاهرة كان لا يستطيع تقدير أهمية الحادث فى بعض الجهات ولكننى لم أومىء الى شىء من هذا فى ردى .

وفى اليوم الثانى عشر والثالث عشر من يونيو جرت معركة عنيفه للهيمنة على سلسلة الصخور الممتدة بين العدم وجسر الفرسان · وكانت هذه المعركة أقوى معركة للدبابات سيطر العدو بعد انتهائها على الميدان. وقد انكمشت قواتنا وضؤلت الى حد كبير وأرغمنا بعد مقــاومة عنيفة على ترك جسر الفرسان الذى كان يعد مركز المواصلات فى هذه المنطقة ، وفى

الرابع عشر ظهر أن المعركة قد اتجهت اتجاها مضادا لنا تماما ، وأرسل الى المستر ميسى وزير الدولة فى الشرق الأوسط برقية تحتوى على رسائل للقوات المسلحة وردت فيها الفقرة التالية : وأما بالنسبة الى اوكنلك فله ثقتى المطلقة لقيادته وادارته دفة المعركة بما لديه من قوات كثيرة • وكنت آمل أن يتمكن من الجمع بين منصبين فى وقت واحد ، فيكون هنا فى مركز نسيج العنكبوت ويكون هناك فى الجبهة يدير معركة الجيش الثامن بنفسه • وقد تراءى لى فى لحظات من الايام الاخيرة أنه قد يكون من الافضل أن يتوجه الى الجبهة ويدير دفة المعركة ، ويدع رئيس أركان حربه يتولى القيادة العامة هنا مؤقتا ولكنه لم يَرْتَضِ هذا ، ولم أشأ أن أضغط عليه ، لأن المعركة معركته وله الحق فى كل ما يتخذ من قرارات تتعلق بالقيادات التابعة له •

وقد أتت ملاحظة المستر كيس على ما وراء تولى أوكنلك نفسه القيادة فى معركة الصحراء من فوائد ، معززة لاحساساتى التى أفصحت عنها للجنرال قبل شهر تقريبا • وقد اتضح لى أن القائد العام يتعرض لضغط واضطراب شديدين بسبب ما يحمله من مسئوليات كثيرة وكان فى مجال عمله يرنو الى المعركة الفاصلة على أنها جزء من مسئولياته لا غير • وكان هناك خطر زاحف من الشمال أحسَّ تجاهه بانه يتحتم عليه أن يمنحه أهمية كبيرة في حين لم نعطه نحن هذه الأهمية من اننا نحتل فى الوطن مراكز تفضل مركزه فى تقرير الأمور .

وقد أخذ إجراءً وسطا فكلف الجنرال ريتشى الذى توقف أخيرا عن القيام بأعماله كنائب لرئيس أركان حربه بالقتال فى المعركة الحاسمة ولكنه فى الوقت نفسه وضعه تحت الاشراف الدقيق المباشر مواصلا إرسال التوجيهات اليه ، ويبدو أنه لم يقتنع الا بعد حدوث الكارثة وبعد الحاح من وزير الدولة بأن يقوم بما كان ينبغى أن يقوم به منذ البداية ، وهو أن يدير بنفسه دفة المعركة مباشرة • وهنا تَلَقَّيَ تَبِعَة فشله وبعض اللوم فيها علىّ وعلىَ رفاقى لما عهدنا به الى القيادة العامة في الشرق الأسط قبل عام تقريبا من مسئوليات واسعة •• وبالرغم من ذلك فقد حاولنا تخليصه من هذه الاعباء الجمة عن طريق المشورة الدقيقة والنصيحة الصادقة التى رفضها • وانى أجزم بأنه لو تولى القيادة منذ البداية ، وكان هذا فى وسعه وداخل نطاق أختصاصه وخلَّف نائبا عنه فى القاهرة يصرف الأمور فى غيابه ويراقب الوضع فى الشمال ، ويهتم بمختلف المسارح الاخرى لكسب المعركة قطعا ، فقد استطاع بالرغم من تأخره فى تولى القيادة أن يُنقذ ما يمكن انقاذه منها •

وسيدرك القارىء الآن الى أى مدى أثرت فى نفسى هذه الانطباعات حتى أننى أبنت للجنرال اليكساندر فى توجيهى له فى العاشر من أغسطس واجبه الأساسى ابانة لا تقبل المناقشة . فالمرء يحيا ليتعلم ٠

وسرعان ما بدت أمامنا صورة طبرق ، ولم نكن نرتاب فى أنها ستقاوم كما قاومت قبل عام مهما يكلفها ذلك من ثمن ٠ والآن وبعد شهر مضى على التأخر الذى لا داعى له ، أصدر الجنرال أوكنلك أمره بتحرك القوة النيوزيلندية للاشتراك فى معركة طبرق ولكن الفرصة قد فاتت ، ولم تُرضنا الأوامر التى أصدرها الى الجنرال ريتشى ، والتى لم تطلب اليه بصورة قاطعة الدفاع عن القلعة وتأكيدا لهذه الناحية أرسلتُ البرقية التالية :

« لقد أبهجنا ما أكدته لنا من أنك لا تنوى التخلى عن طبرق٠ وقد فهمت وزارة الحرب من برقيتك ، أنك تقصد أن الجنرال ريتشى سيترك قوات كافية للدفاع عن طبرق اذا استدعى الأمر . »

وقضى الرد على ما كان يداخلنا من ريب ، وبعثت التجربة التى مررنا بها فى العام السابق الطمأنينة فى نفوسنا — والى جانب هذا بدا مركزنا كما أومأ اليه الجنرال أوكنلك أفضل مما كان عليه فى عام ١٩٤١ فعندنا جيش منتشر فى جبهة منيعة ، وعلى كثب من طبرق ويعتمد فى تموينه على خط حديدى عريض تمت اقامته حديثا . ولم تكن الآن فى وضع مجنح تعتمد عليه مواصلاتنا بصورة رئيسية على البحر ولكن كنا على هدى قواعد الحرب الصحيحة ، نستند فى مؤخرتنا الى زوايا مستقيمة من الوسط تمتد من جبهتنا الى قاعدتنا الرئيسية ، وعلى هدى هذه الظروف ، وعلى الرغم من التألم لما وقع ، احسست من استعراض كل قوات الفريقين ومن ادراك المشقة الكبيرة التى يكابدها رومل فى تموينه بأن الوضع سيتحسن واحسست مع اقتراب الفرقة النيوزيلندية من الجبهة ، ومع ما ينتظر وصوله من امدادات عن طريق البحر بأن مواصلة القتال المرير بكل مالدى الفريقين من قوات سيكون فى مصلحتنا أخيرا ولهذا لم ألغِ ما أعددته من خطط للقيام بزيارة واشنطن مرة أخرى ، حيث تنتظرنا هناك أعمال بالغة الأهمية تتعلق باستراتيجية الحرب الشاملة . وقد أيدنى ، فى ذلك كل رفاقى ٠

وكنت أهدف من وراء رحلتى الى الوصول الى قرار نهائى حول موضوع العمليات الحربية لعام ١٩٤٢ — ١٩٤٣ ٠ وكانت السلطات

الأمريكية على وجه العموم ؛ والمستر ستمسون والجنرال مارشال بوجه خاص شديدى الرغبة فى وضع خطة عاجلة تمكن أمريكا من أن تصطدم مع الألمان صداما عنيفا فى البر والجو فى عام ١٩٤٢ . وكان هناك خطر اذا لم نستطع تحقيق ذلك ، فى أن يعيد أركان الحرب الأمريكيون النظر بصورة جدية وجذرية فى المبدأ الاستراتيجى الذى يقول « ألمانيا أولا » وكانت هناك قضية أخرى تثقل بالى وفكرى ، وهى قضية « السبائك الأمبوبية » وهو الاسم الرمزى الذى أطلقناه على ما أصبح يسمى فيما بعد بالقنبلة الذرية . وقد وصل بحثنا العلمى وما يصاحبه من تجارب الى نقطة تتطلب اتفاقا واضحا محدودا مع أمريكا وليس فى الوسع الوصول الى مثل هذا الاتفاق الا عن طريق محادثات مباشرة بينى وبين الرئيس . ولا ريب فى أن سماح وزارة الحرب لى بمغادرة البلاد وخاصة لندن مع رئيس أركان حرب الامبراطورية والجنرال أيسماى فى الوقت الذى بلغت فيه معركة الصحراء أشدها يشير الى ما كنا نعلقه من أهمية على ضرورة تسوية هذه القضايا الاستراتيجية الهامة والخطيرة بالنسبة الينا .

ولما كانت الأوضاع حرجة وخطيرة فى هذه الأيام العصيبة قررت السفر بطريق الجو لا بطريق البحر . وهذا يعنى أن نظل فى عزلة عن كل مصادر الأنباء ما يقرب من أربع وعشرين ساعة ، ولكنى اتخذت اجراءات ايجابية لارسال الرسائل الواردة من القاهرة الى فورا ، ولحل كل ما يرد من تقارير رمزية ونقلها الى دون أى تأخير ضار فى اتخاذ ما يلزم من قرارات .

وعلى الرغم من معرفتى بما مررنا من مخاطر أثناء رجوعنا من برمودا فى يناير الماضى ، فقد كانت ثقتى بالقائد الأول روجرز وبسفينته الطائرة « بوينج » كبيرة ، ودفعنى هذا الى أن أطلب اليه أن يقوم هو بنقلى الى أمريكا وقبيل منتصف ليلة السابع عشر من يونيه تركنا ستانرير ، وكان القمر بدرا والجو بديعا . ومكثت ما يقرب من ساعتين فى مقعد مساعد القائد أتمتع بمشاهدة البحر المشرق ، وأتأمل مشكلاتى وأتخيل المعركة القلقة الدائرة ، وتمتعت بنوم هادىء حتى الصباح حينما كنا فوق جاندر وكان فى امكاننا أن نهبط فى مطارها لنتزود بالوقود ،ولكن القائد لم ير حاجة لذلك فواصلنا السفر بعد أن حيينا المطار التحية المعروفة .

ولما كنا نطير مع الشمس فقد ظهر لنا النهار طويلا . جدا حتى اننا تناولنا الغداء مرتين بين المرة والأخرى ست ساعات . وأما العشاء فقد تخيلنا أننا سنتناوله فاخرا بعد وصولنا .

وفى نهاية الرحلة طرنا ساعتين فوق الأرض وكانت الساعة السابعة مساء بتوقيت أمريكا حينما دنونا من واشنطن وبينما كنا نهبط فوق نهر بوتوماك ، شاهدت قمة تمثال جورج واشنطن التى ترتفع ما يقرب من خمسمائة وخمسين قدما على المستوى الذى ترتفع فيه طائرتنا وقلت للقائد كيلى روجرز سيكون من سوء الحظ أن تنتهى قصتنا بالاصطدام بهذا التمثال دون غيره فأكد لى أنه سيحرص ألا يصطدم به وهكذا هبطنا بيسر وسهولة على نهر البوتوماك بعد رحلة جوية استغرقت سبعا وعشرين ساعة من الطيران . وقد احتفى بنا اللورد هاليفاكس والجنرال مارشال وعدد من كبار الضباط الأمريكيين .

ولما كان الوقت قد تأخر وتعذر علىّ مواصلة السفر فى تلك الليلة ذهبت الى السفارة وتناولنا العشاء هناك فى الهواء انطلق وقرأت آخر البرقيات فلم أجد بها شيئا مهما . ولا شك فى أن السفارة البريطانية التى تقوم على أرض مرتفعة تعد من أشد الأماكن فى العاصمة برودة وتضاهى الى حد بعيد من هذه الجهة البيت الأبيض .

وفى صباح اليوم التالى التاسع عشر طرت الى هايد بارك . وكان الرئيس روزفلت ينتظرنى فى المطار المحلى ، وشاهد هبوطنا الشاق وقد احتفى بى كل الاحتفاء ، ثم قاد بنفسه السيارة التى ركبت معه فيها الى المرتفعات الشامخة المشرفة على نهر الهوسون – والتى توجد فوقها هايد بارك ، حيث مسكنه العائلى ، وطاف بى الرئيس كل جهات المزرعة لأشاهد مناظرها الجذابة ، وخلال هذا التطواف راودتنى بعض الأفكار . فالعاهة التى يشكو منها الرئيس روزفلت تمنعه من أن يستخدم قدميه فى أجهزة السيارة ، ولهذا اتخذت استعدادات رائعة فى السيارة تسهل له القيام بكل شىء بيديه القويتين بشكل مدهش . وقد دعانى لاختبار عضلاته وقال أن أحد المصارعين المشهورين حسده عليها .

وكانت هذه العضلات القوية تدعو الى الطمأنينة ، ولكنى كنت أدعو الله ، عندما كانت السيارة تقف وتنزلق الى الخلف وتشرف على حافة الهاوية المنحدرة الى نهر الهوسون ، الا يحدث اى خلل فيما كان يعتمد عليه فى ادارة كل أجهزة السيارة بيديه بدلا من رجليه وكنا

نتحدث طول الوقت فى شئون العمل . بالرغم من اننى كنت حريصا كل الحرص على الا أصرف انتباهه عن قيادة السيارة فقد أحرزنا تقدما فى مباحثاتنا أكثر مما يمكن أن نحرزه فى مؤتمراتنا الرسمية .

وقد سر الرئيس اننى أحضرت معى رئيس أركان حرب القوات الامبراطورية وكانت ذكريات الشباب تشرق على مايهتم به من نواح فقد استضاف والد الرئيس والد الجنرال بروك فى هايد بارك . ولذا كان شديد الشوق الى لقاء الولد الذى بلغ هذا المركز المرموق . وحينما تقابلا لأول مرة بعد يومين ، استقبله بود بالغ ، واستطاع الجنرال بروك بشخصيته وجاذبيته أن يخلق صلة بينهما ساعدت كثيرا على سير الأعمال .

وقد أحطت هارى هوبكنز خبيرا بمختلف النقط التى أرغب فى الحصول على قرارات بشأنها ، ونقلها هو للرئيس . وهكذا غدت الأرض معبدة ، وأصبح الرئيس يلم عقله بكل ما يمكنه من بحث هذه الموضوعات ، وكان موضوع السبائك الأنبوبية من أشد هذه الموضوعات تعقيدا ، ومن أكثرها اهمية كما ثبت فيما بعد ، وكنت احمل أوراقى معى ولكن البحث أرجىء لليوم التالى ، لأن الرئيس كان قد طلب امداده بمعلومات أوفى من واشنطن . وفى غرفة صغيرة تبرز وحدها من الأرض ، وتكسوها ظلال للوقاية من وهج الشمس ، جرى الحديث بيننا بعد الغذاء . وكان المستر روزفلت يجلس الى مكتب فى حجم الغرفة تقريبا . وكان هارى يقوم ويقعد فى المؤخرة وظهر لى ان صاحبى الأمريكيين لم يهتما بالحرارة كثيرا .

وأنبأت الرئيس فى عبارات عامة بما أحرزناه من سبق فى هذا الميدان وأن علماءنا أصبحوا الآن مقتنعين بامكان الوصول الى نتائج قبل أن تضع الحرب الحالية أوزارها . وقال الرئيس ان جماعته ماضون فى عملهم كذلك .

ولكن ليس فى طاقة أى شخص أن يعرف ما ستتمخض عنه هذه البحوث من شىء عملى قبل اجراء تجربة واسعة النطاق . وشعرنا معا بالألم لخطورة قعودنا عن عمل شىء ، وكنا نعلم ما يبذله الألمان من جهود لاستخراج كميات من « المياه الثقيلة » وهو تعبير مشئوم ومرعب وغير عادى أخذ يتسلل الى أوراقنا السرية . فماذا يحدث لو استطاع العدو أن يسبقنا الى القنبلة الذرية ومهما شعر الآن بالتشكك فيما

يؤكده العلماء الذين يفرطون فى الجدال والنقاش فى تعابير ليست فى مستوى عقول الناس العاديين فليس فى طاقتنا أن نخاطر بالسماح للعدو بأن يسبقنا فى هذا الميدان الرهيب وحضضت الرئيس على ضرورة الجمع بين معلوماتنا ، والعمل على قدم المساواة والاشتراك فى النتائج ان وُجدت .

وهنا بدأ السؤال عن المكان الذى يجب أن ينشأ فيه مركز البحوث وكنا نعلم تمام العلم مايجب أن نتحمله من تكاليف باهظة ، وماقد يشتمل عليه تحويل مواردنا وقوتنا العقلية من ميادين المجهود الحربى الأخرى من خطورة . وقد بدا من المستحيل انشاء هذه المصانع الكبيرة والعجيبة التى نفتقر اليها فى جزيرتنا ، حينما كانت بريطانيا تتعرض لوطأة الضرب من الجو ، والرحلات الاستكشافية المضادة . وكنا نرى أننا قطعنا شوطا بعيدا فى الميدان الذرى مثل حليفتنا ، وكان هناك افتراض آخر وهو أن ننشىء المصانع فى كندا التى يمكنها أن تشارك هى الأخرى مشاركة فعلية فى هذا الميدان عن طريق كميات كبيرة من معدن الأورانيوم التى جمعتها ، وكان من العسير جدا أن تُتخذ قرارا بصرف مئات من ملايين الجنيهات الاسترلينية بالاضافة الى أشكال الطاقة الحربية المختلفة على مشروع لا يمكن أن يضمن نجاحه أى عالم من العلماء على ساحل الاطلنطى وبالرغم من ذلك فاننا كنا سنقوم وحدنا بالمغامرة — اذا لم يكن الأمريكيون متأهبين للقيام بها — فى كندا أو فى أى جزء من أجزاء امبراطوريتنا عندما تتردد الحكومة الكندية أو تتخوف ولكننى فرحت بالغ الفرح حين أنبأنى الرئيس روزفلت أنه يعتقد أن امريكا يمكنها المضى فى المشروع . ولهذا قررنا الاشتراك ووضعنا أساسا للاتفاق . وسأتم هذه القصة فى فصل تال ولا ريب عندى الآن فى أن ما أحرزه علماؤنا فى بريطانيا من تقدم ، ومن ثقة فى النجاح النهائى وهما ما صرحت بهما للرئيس وهما اللذان حملاه من الجهة الأخرى على اتخاذ هذا القرار .

وفى ساعة متأخرة من ليلة العشرين أقلنا قطار الرياسة الى واشنطن ، وبلغناها فى الساعة الثامنة تقريبا من صباح اليوم التالى وصاحبتنا قوات حراسة كبيرة الى البيت الأبيض ، ونزلت ضيفا مرة أخرى فى الغرفة الكبيرة المكيفة الهواء التى كنت قد أقمت واسترحت فيها ، والتى تنخفض درجة حرارتها عن درجة حرارة بقية غرف البيت الأخرى ثلاثين درجة على الأقل وطالعت الصحف وأمضيت ساعة فى

قراءة البرقيات ، ثم تناولت فطوري ، ومررت بهاري في حجرته عبر الممر ، ثم ذهبت للقاء الرئيس في مكتبه وكان يصاحبني الجنرال ايسماي وسرعان ما وردت برقية الى الرئيس وناولني اياها دون أن ينطق بكلمة وكانت البرقية تقول :

« استسلمت طبرق ، وأُسر خمسة وعشرون ألفا من حاميتها ».

ولم إستطع أن أصدق الخبر لغرابته ، وطلبت الى ايسماي أن يتحرى صحته من لندن بالمسرة . وبعد دقائق رجع يحمل الرسالة التالية التى أرسلها من الاسكندرية قبل قليل الأميرال هاروود القائد العام الجديد لأسطول البحر المتوسط ، وهذا نص الرسالة :

« سقطت طبرق ، وتدهور الوضع تدهورا كبيرا بحيث أصبح هناك توقع لحدوث غارات جوية عنيفة على الاسكندرية في القريب العاجل ، ولما كان البدر قد اقترب، فقد قررت ارسال كل وحدات الأسطول الى جنوب قناة السويس لترقب الأحداث . ارجو أن تخرج الملكة اليزابيث من أرصفة التصليح في آخر هذا الاسبوع » .

وكانت هذه الضربة من أعنف ما تلقيناه من ضربات منذ قيام الحرب . ولم يكن تاثيرها علىّ النتائج العسكرية المؤسفة وحدها بل تجاوزها الى التأثير على سمعة الجيوش البريطانية تأثيرا بالغا . ففي سنغافورة استسلم خمسة وثمانون ألف رجل لعدد أقل منهم من اليابانيين ، وها نحن أولاء نرى في طبرق حامية مكونة من خمسة وعشرين ألف رجل (في الواقع ثلاثة وثلاثون ألف رجل) من خيرة الجنود المدربين تستسلم لعدد أقل من نصف عددهم واذا كان هذا هو تمثال الروح المعنوية لدى جيش الصحراء ، فليس في طاقتنا أن نتكهن بالنوازل التى ستحل بنا في الشمال الشرقي لأفريقية . ولم ارد أن أخفى عن الرئيس صدمتى وكانت اللحظة شديدة المرارة . فالهزيمة شيء والعار المعيب شيء آخر . ولم يكن هناك عطف ونبل يفوقان عطف ونبل صديقي الأمريكي فلم تصدر منه كلمة لوم أو عبارة نابية وتساءل روزفلت : « ماذا يمكننا أن نصنع لمعاونتكم ؟ قلت فورا » امنحونا اكبر عدد يمكنكم الاستغناء عنه من دبابات شيرمان وانقلوها في غاية السرعة الى الشرق الأوسط .

وبعد وصول الجنرال مارشال استدعاه الرئيس وأبلغه ما أريده فأجابه مارشال : « سيادة الرئيس . لقد بدأ انتاج دبابات شيرمان منذ وقت قريب وقد أرسلنا بعض المئات الأولى من انتاجنا الى فرقتنا المدرعة التى كانت لاتزال تستعمل سلاحا فقد أهميته ومن الشناعة ياسيدى ان نأخذ من يد الجندى عنوة سلاحه الذى يحمله ؛ وبالرغم من ذلك فاننا سنعطى البريطانيين ما عندنا من هذه الأسلحة اذا كانوا فى حاجة ماسة اليها ، ويمكننا أمدادها بمائة مدفع أتوماتيكى أخرى من عيار مائة وخمسة ملليمترات .

ولاتمام هذه القصة يتحتم أن اقول : ان سخاء الأمريكيين حملهم على أن يرسلوا الينا أكثر مما وعدوا به . فقد عبئوا لنا فورا ست بواخر من أسرع بواخرهم بثلاثمائة دبابة شيرمان ومعها آلات لم يجر تركيبها بعد ؛ ومائة مدفع اتوماتيكى وأرسلوها الى قناة السويس وقد قذفت غواصة المانية الباخرة التى تحمل آلات الدبابات كلها بطوربيد على كثب من ساحل برمودا فأغرقتها وأمر الرئيس ومارشال ، دون أن يدفعنا الى أن نطلب طلبا جديدا ، بتعبئة باخرة أخرى بهذه الآلات ، وفى الحال أرسلت لتدرك القافلة ؛ وهكذا يجب أن يكون الصديق عند الأزمة والا فلا .[2]

وفي الحادى والعشرين من يونيه كنت أتناول الغداء مع هارى ، وقد قال لى الصديق : « هناك ضابطان أمريكيان فى الجيش ، يريد الرئيس أن يتعرف اليهما ، لأن الرئيس ومارشال ، وكل من يشتغل فى وزارة الحربية ، يقدرونهما غاية التقدير » . وفى الساعة الخامسة من بعد ظهر ذلك اليوم استقبلت فى حجرتى المكيفة الهواء كلا من الميجور جنرال ايزنهاور ، والميجور جنرال كلارك . وسرعان ما تأثرت فعلا بهذين الجنديين اللذين لم يكونا معروفين حينئذ . وكانا قد حضرا فور اجتماع الرئيس بهما للمرة الأولى . وقد تناول حديثنا عملية الغزو الرئيسى عبر القناة عام ١٩٤٣ ، وما أطلقنا عليه حينئذ « عملية الطراد » وهو الموضوع الذى ركزا فيه اهتمامهما ، واستغرق الحديث الممتع بيننا ما يقرب من ساعة . واعتقدت أن هذين القائدين سيؤديان فى هذه العملية دورا كبيرا . وهذا هو ما دفع إلى ارسالهما للتعرف إلى[3] . وهكذا بدأت صداقتنا التى احتفظت بها حتى يومنا هذا بمزيد من الرضا بالرغم من انتكاسات الحرب وانتصاراتها ، وفى خلال ذلك كانت أصداء استسلام طبرق تتردد بين أرجاء العالم ونواحيه . وفى

الثانى والعشرين تناولت الغداء أنا وهوبكنز مع الرئيس فى حجرته . وقـدم المستر الرديفيز ، رئيس دائرة الاستعلامات الحربية ومعـه مجموعة من صحف نيويورك تحمل عناوين مثيرة مثل : « الغضب يسود بريطانيا » و « سقوط طبرق قد يدفع الى تغيير الحكومة و « توجيه اللوم الى تشرشل » ، وغير ذلك من العناوين . وقـد دعانى الجنرال مارشال لزيارة أحد المعسكرات الأمريكية فى جنـوب كارولينا . وقد تقرر أن نبـدأ نحن والمستر ستمسون رحلتنـا بالقطـار ليلة الثالث والعشرين من يونيه ،وهنـا سـألنى المستر ديفيز فى جد السـؤال التالى : هل من الحكمة بالنسبة الى الوضع السـياسى فى الوطن أن أنفذ البرنامج الذى اتخذت كل الترتيبات الدقيقة لتنفيـذه ؟ وقال : أخشى أن يساء تفسير هذه الزيارة التى أقوم خلالها بتقصىّ أحـوال الجنود الأمريكيين فى وقت تجرى فيه قضايا نتائجها بالغة الخطورة فى أفريقية ولندن . فأجبته بأننى سأمضى فى البرنامج ، وجزمت له بأننى أرتاب فى أن تستثير مثل هـذه الزيارة عشرين عضوا من أعضاء مجلس العموم للاقتراع على عدم ثقة بالحكومة . وهذا الرقم فى الواقع هو الرقم الذى وصل اليه الساخطون على الحكومة .

وهكذا قضيت رحلتى بالقطار الى جنوب كارولينا فى الليلةالتالية وفى الصباح التالى بلغنا قلعة جاكسون . ولم يقف القطار فى محطة رسمية الا فى السهل الواسع . وكانت الحرارة مرتفعة جدا فى النهار . وغادرنا القطار الى ساحة العرض التى ذكرتنى بسهول الهند فى فصل الصيف الشديد الحرارة ، وذهبنا الى خيمة مسـقوفة حيث أبصرنا منها السـلاح الأمريـكى المدرع ، ووحـدات المشـاة وهى تمر امامنا ، ثم رحنا ننظر الى تمرينات رجال المظلات ، وقد كان المشـهد مؤثرا ، فلم أشهد فى حياتى قبـل ما يقرب من ألف رجل يثبون فى الجو دفعة واحدة . وناولنى جهاز مسرة متنقل لأحمله ، وكانت هذه أول مرة أحمل فيها مثل هذا الجهـاز . وبعـد الظهر شاهدنا الفرق الأمريكية الضخمة ، تتدرب فى الميدان بالذخيرة الحيـة . وفى النهـاية قلت لمرافقى الجنرال ايسماى : « ما رأيك فى كل ما شـاهدت ؟ » فأجاب : ان دفع مثـل هـؤلاء الجنـود فى معركة مع الألمـان يعتبر جريمة قتل « فقلت : » انك مخطىء . انهم خامة عظيمة صـالحة وسيتدربون بسرعة « . وقد ظللت ألح على أصدقائى الأمريكيين بأن اعداد الجندى مهمة تستغرق سنتين على الأقل . ولا شك فى أن الجنود الذين شاهدناهم فى كارولينا قد تدربوا عامين على الحرب .

وبعد ظهر الرابع والعشرين طرنا عائدين الى واشنطن ، وهنـاك تلقيت عدة تقارير ، وفي الليلة التالية غادرتها الى بليتمور ، وهنـاك كانت سفينتي الطائرة تنتظرني . وقد ودعني الرئيس في البيت الأبيض بكل ما عهـدته من دماثة ورقة . ورافقني هاري هوبكنز وافريل هاريمان الى بليتمور ليودعاني هناك . وكان الطريق الضيق الموصـل الى الماء تحرسه قوات كبيرة من رجال الشرطة الأمريكيين . واتضح لي ان هناك اضطرابا ، وارتسمت على وجه الضباط أمارات الجـد والاهتمام البالغين وقيل لي قبل ان نحلق في الجو ان أحـد الخفراء المدنيين قد اعتقل وهـو يعبث بمسـدس في يده يتلعثم قائلا : انه سيجهز عليّ ، على وجهه أمارات البغض والكره . وحينما بدأ استجوابه اتضح أن الرجل مجنون ومثل هؤلاء المجانين يخشى على الشخصيات الكبيرة منهم لأنهم لا يأبهون بالنجاة أو بالخلاص .

وفي صباح اليوم التالي هبطنا في مطار بوتود للتزود بالوقود ، ثم حلقنا في الجو بعد أن تناولنا وجبة من الاسماك الطازجة . وبعـد ذلك تناولت الوجبات في مواعيدها المعهودة ونمت نوما عميقا . وجلست في مقعد مساعد الطيار ، وبعد أن حلقنا فوق شمال ايرلندا ، دنونا من كلايد عند الفجر ، وهبطنا بسلام وأمان . وكان القطار في انتظاري . وفيه بيك أحد أمناء سري الخاصين ، ومعه بعض الملفات وصـحف الأيام الأربعة أو الخمسة الأخيرة . وبعد ساعة كنا في طريقنا صـوب الجنوب . واتضح أننا خسرنا انتخابا فرعيا بأكثرية ساحقة في مالدون ولا ريب ان هذه الخسارة كانت احدى نتائج طبرق .

واتضح لي أن الظرف سيىء للغـاية . وتوجهت الى فراشي ، وبدأت اطلع على الملفات بعض الوقت ، ثم نمت نوما عميقا مدة أربع ساعات أو خمس حتى بلغنا لندن ، وكان النوم جميلا للغاية . وهناك على رصيف المحطة وجدت أعضاء وزارة الحرب في انتظاري ، وسرعان ما كنت في غرفة مجلس الوزراء غارقا في العمل .

الاقتراع على الحكومة

لقد كان لثرثرة الصحافة وانتقاداتها التي صدرت من أقلام لاذعة تكتب ومن أصوات رفيعة تعلو ، بعض أصـداء متشابهة في نشاط عدة عشرات من أعضاء مجلس العموم ، وفي كآبة وعبوس ممثلي الأغلبية

الكبيرة التى نتمتع بها .. ولن تبقى الحكومة فى الحكم فى هذه المرحلة اذا كانت حزبية ، وستسقط نتيجة خذلانها فى الاقتراع على الثقة او بتأثير هذه الازمة العنيفة التى اثرت على الرأى العام كله والتى ضاهت تلك التى اجبرت المستر « تشمبرلين » على الاستقالة فى مايو عام ١٩٤٠ بيد أن الحكومة القومية الائتلافية ، التى عززها مَاجَدّ عليها من تعديل فى فبراير ، كانت متفوقة فى قوتها ووحدتها . وقد أحاط بى كل وزرائها دون أن يداخلهم أى ريب او انتقاض ، وقد اتضح لى أننى احتفظت بثقة كل المراقبين لسير الأحداث والمطلعين على بواطنها والمشتركين فى مسئولياتها ، ولم يمس أحدهم وهن أو ضعف ، ولم تنبعث همسة واحدة توحى بالريب أو بالوقيعة ، بل كنا كلنا حلقة متماسكة قوية لا تنفصم عراها نستطيع أن نقاوم أى هجوم سياسى يُشَنّ علينا من الخارج ، وأن نحافظ على وحدتنا تجاه القضية المشتركة برغم كل فشل وخيبة رجاء .

وقد مررنا بسلسلة طويلة من المحن والهزائم فى الملايو وسنغافورة وبورما ومعركة أوكنلك الخاسرة فى الصحراء ، وطبرق التى لم ندركها بعد ، والتى ربما لا ندركها أبدا ، وتقهقر جيش الصحراء السريع ، وفقد كل ماسبق لنا الاستيلاء عليه فى ليبيا وبرقة ، أربعمائة ميل من الانسحاب الى حدود مصر ، وقد قتل وأسر من رجالنا أكثر من خمسين ألفا ، وفقدنا كميات كبيرة من المدافع والذخائر والسيارات والمستودعات المتعددة الانواع ، وها نحن أولاء قد رجعنا الى مرسى مطروح .. وهو المكان الذى حللنا به قبل عامين مع فارق واحد هو : أن رومل وجنوده الالمان يتغلبون علينا الآن ، ويضغطون علينا مستخدمين سياراتنا التى سقطت فى أيديهم وبترولنا الذى استولوا عليه ، ويقذفوننا أحيانا بذخائرنا . ولو كتب لهم ان يتقدموا مسافة أخرى ويظفروا بنصر واحد فحسب ، فان موسولينى وروما سوف يدخلان القاهرة أو ما بقى من أنقاضها ... فكل شىء ما فتىء معلقا فى كف القدر ، وكيف يستطيع الانسان بعد ما منينا به من إنتكاسات وازاء عوامل الغيب التى تقابلنا أن نتكهن بالصورة التى سيتحول فيها الميزان ؟ ..

لقد استدعى الوضع البرلمانى تحديدا جليا ، وكان من العسير علينا أن نطلب من المجلس أن يقترع مرة أخرى على الثقة بحكومتنا ، بعد ذلك الاقتراع الذى ظفرنا به قبيل سقوط سنغافورة ، لهذا كان

من مصلحتنا تقرير الاعضـــاء الناقمين فى الخامس والعشرين من يونيو فيما بينهم ، توجيه قرار باللوم الينا ، يضـــمنونه جدول الأعمـال ، ويطلبون الاقتراع على هذا القرار ، وهذا هو نص القرار :

« يقرر المجلس برغم تقديره لما أظهرته قوات التاج المسلحة من بسالة ومقاومة فى أوقات بالغة العنف والصعوبة ــ عدم الثقة بالجهاز المركزى الذى يدير دفة الحرب » .

وقد وقع مشروع القرار السير « جون ووردلو ــ ميلن » وهو أحد الأعضاء الذين لهم نفوذ فى حرب المحافظين ، ورئيس لجنة الشئون المالية التى تضم أعضاء يمثلون مختلف الاحزاب التى كنت أدرس بعناية كبيرة تقاريرها عن تبذير بعض الادارات ، وعدم كفايتها ، وكان للّجنة الكثير من مصادر المعلومات التى فى حوزتها ، كما كانت لها اتصـــالات كثيرة بالحلقة الخارجية لجهـــازنا الحربى ، وحين أعلن ثنـــاء أمـــيرال الأسطول «روجركيسى» على مشروع القرار وان وزير الحربية السابق المستر « هور بيشا » يعضده بَانّ لنا على الفور . أن هناك تحديا حقيقيا للحكومة ، ولقد كان الهمس يدور خلف الكواليس ، كما كانت الصحف تتكلم عن « أزمة سياسية منتظرة » قد تكون حاسمة ..

وقد أُعلن على الفور أن الحكومة مســـــتعدة لأن تمنح المجلس الفرصة التامة لاجراء مناقشة وحددت الأول من يوليو موعداً لها . وأحسست ان واجبى أن أعلن شـــيئا واحدا على الاقـل ، فأبرقت الى « أوكنلك » اقــول : « أرى من اللازم حين أتحدث الى المجلس عند مناقشة قرار لوم الحكومة فى الساعة الرابعة بعد ظهر الخمس ــ ان أعلن انك تسلمت القيـــادة من « ريتشى » بعـــد أن نحيته عنها فى الخامس والعشرين من يونيو » .

وكانت أزمة المعركة فى مصر تتفاقم وتزداد سوءا يوما اثر آخر ، حتى لقد انتشر الاعتقاد بأن القاهرة والاسكندرية سوف تسقطان عما قريب أمام « سيف رومل القهار » وقد أعد موسولينى فعلا العدة ليطير الى مقر قيادة رومل وهو مصمم على أن يشترك فى الدخول الظافر الى أى من هاتين المدينتين وظهر لى اننا سنبلغ القمة فى معركتى البرلمان والصحراء فى وقت واحد ، وحينما ظهر لأندادنا انهم ســـيواجهون حكومتنا الائتلافية ــ وهى متحدة تبخر معظم حماستهم وعرّض صاحب الاقتراع سَحْبه ، اذا استدعى الوضع الحرج فى مصر عدم اثارة مناقشة

عامة فى الموضوع ، ولكنا قررنا الا نمكنهم من الفرار فى يسر وسهولة ، ولما كنا نرى العالم كله يرقب فى الاسابيع الثلاثة الأخيرة فى قلق ازدياد التوتر فى الموقفين السياسى والعسكرى : فقد رأينا من العسير علينا ان نمضى الى آخر الطريق .

* * *

لقد بدأ السير « جون ووردلو ـ ميلن » المناقشة بخطاب قوى بسط فيه القضية الرئيسية فقال : يجب ألا يُعد الاقتراح هجوما على الضباط الذين يحاربون فى الميدان ، وانما هو هجوم على « ادارة الحرب المركزية » هنا فى لندن وأرجو أن ابدى أن عوامل فشلنا قائمة هنا ، لا فى ليبيا ولا فى غيرها ، وكان الخطأ الأول الذى ارتكبناه فى هذه الحرب هو الجمع : بين منصبى : رياسة الوزراء ووزراء الدفاع . وقد ركز على ما يحمله من يتولى هذين المنصبين فوق كاهله من أعباء ضخمة ثم قال : « يجب أن يكون لنا قائد قوى متفرغ يتقلد رياسة لجنة رؤساء الحرب أريد رجلا قويا يمكنه أن يطلب الأسلحة التى يفتقر اليها لتحقيق النصر أريد رجلا يتحمل مسئولية الفروع الثلاثة لقوات التاج المسلحة وأن يضمن تحرر جنرالاته وأميرالاته وماريشالات الجو فى تنفيذ أعمالهم على الوجه الذى يرونه ، ولا يسمح للآخرين بالتدخل في شئونهم وفضلا على ذلك أريد رجلا يقبل على الاستقالة اذا لم يمكنه أن ينفذ ما يريد .. وقد عانينا من الاضطرار الى قيام رئيس الوزراء بتمحيص ما يجرى هنا حقا فى الوطن .. ومن الاحتياج الى ما يجب أن نحصل عليه من توجيه من وزير الدفاع أو من أى ضابط مهما كان اللقب الذى يمنحه بتولى مسئولية القوات المسلحة ، ولاشك فى أنه قد ظهر لكل مدنى أن سلسلة الكوارث التى منينا بها فى الأشهر القلائل الأخيرة بل فى السنتين الأخيرتين ، انما هى نتيجة للعيوب الأساسية فى الجهاز المركزى لادارة ـ دفة الحرب فى بلادنا » .

لقد خلف كل ما قاله السير « جون » أثره واصاب هدفه ، لكنه لم يلبث ان ارتكب جريرة كبيرة حينما قال : « أرجو ان تكون خطوة مرغوبا فيها ، موفقة اذا ما أقر جلالة الملك وصاحب السمو الملكى أن يتولى الدوق « جلوستر » القيادة العليا للجيش البريطانى على الا تكون له صلاحيات ادارية ، وقد كان هذا الاقتراح مُضراً أفدح

الضرر بالقضية التي عرضها . كما أنه أدى الى الزج بالأسرة المالكة في خضم مسئوليات قابلة للمناقشات والمتناقضات .. وكان تعيين قائد أعلى للحرب ، يمنح صلاحيات غير محدودة . وربط هذه الصلاحيات بدوق ملكي . يُعد أمرا يوحي بشيء من الدكتاتورية ، وهكذا بدا بيانه الطويل المطنب يفقد منذ ذلك الوقت تأثيره وقوته واخيرا وصل السير جون الى القول بأنه « على المجلس ان يظهر افتقارنا الى شخص واحد يخصص وقته كله لقضية : « كسب الحرب » ، ويتقلد القيادة الكاملة لكل قوات التاج المسلحة .

وحينما نظفر بهذا الرجل . ينبغي على المجلس أن يقلده بأسباب القوة ويدعمه وييسر له سبيل ممارسة واجباته الملقاة على عاتقه ، في قوة واستقلال واضحين .

وقد أثنى السير روجركيس على الاقتراح في حين تألم الأموال من اقالته من مركزه كمدير للعمليات المشتركة ومن الحقيقة الواقعة أنني لم استطع قبول مشورته والاصاخة الى رأيه دائما حينما كان يشغل هذا المنصب ، بيد أن صداقته الشخصية الطويلة لي كانت نقطة ضعف في موقفه هذا ، لذا فقد ركز انتقاداته وحملته على مستشاري الخبراء وخاصة رؤساء أركان الحرب ، فقال : من المؤلم حقا ان يمنى رئيس الوزراء في حياته ثلاث مرات بالفشل كما حدث له :«جاليبولي» «والنرويج»«والبحر المتوسط»وأن يعجز عن تسديد ضربات استراتيجية كان مقدرا لها أن تغير مجرى الحربين واتجاهاتهما : وذلك أن مستشاره البحري الدستوري « أبي في المرات الثلاث أن يتحمل معه المسئولية ويشاطره أياها ـ اذا كانت تحتوى على أية مجازفة .. ولم يمر هذا التناقض العجيب بين رأى صاحب الاقتراع ورأى المثنى عليه دون ان يلاحظه الجميع وقد تدخل نائب من حزب العمال المستقل هو : المستر ستيفن قاوما الى أن صاحب الاقتراح ، أراد توجيه اللوم على أساس أن رئيس الوزراء جاوز حده في ادارة دفة الحرب ، في حين نرى من أثنى على الاقتراح يقول : ان الرئيس لم يتدخل تدخلا كافيا في توجيه هذه الدفة .. ولقد كانت هذه النقطة جلية لكل أعضاءالمجلس.

وقال الأميرال كييس : « اننا نرنو الى رئيس الوزراء طالبين اليه تنظيم وزارته أولا وأن يجمع كل الشعب خلفه ثانيا لأداء الواجب العظيم » . وهنا تدخل أحد النواب الاشتراكيين تدخلا موفقا صائبا فقال : ان الاقتراح موجه ضد « الادارة المركزية » لدفة الحرب ، فاذا

أقر المجلس الاقتراح ، فعلى رئيس الوزراء أن يستقيل ، في حين نرى العضو الموقر الشجاع ، يناشد المجلس الابقاء على رئيس الوزراء ، فرد السير روجر قائلا : لا شك فى أنها ستكون كارثة تثير كوامن الألم اذا اضطر رئيس الوزراء الى الاستقالة ، وهكذا تضعضعت المناقشة فى بدايتها •

وبالرغم من ذلك استمرت المناقشة وقبض الناقدون على زمام المبادرة وقام وزير الانتاج الجديد ، الكابتن أوليفر ليتلتو ، حين قام يرد على ما وجه الى العتاد من انتقادات فذكر فقرة عاصفة من بيانه المستفيض المفصل الذى تناول ، فيه هذه الناحية ، وقد لقيت الحكومة مؤازرة قوية من صفوف المؤيدين المخلفيين وقد ألقى المستر بوتبى بصورة خاصة خطابا قويا مؤيدا واسترد اللورد دينترتون - وهو الملقب « بأبى المجلس » - زمام الهجوم العنيف ، وركز هجومه على فقال : من الوزير المسئول الذى ادار عملية « نارفيك » وكان الرأس المحرك لكل عملياتها ؟ انه الرئيس الحالى للوزارة الذى كان وقتذاك وزيرا للبحرية .. ولكن لن يجرؤ أى - عضو من الاعضاء على القاء التبعة على الشخص الذى ينبغى القاؤها عليه من الناحية الدستورية ، وهو : « رئيس الوزراء » . واذا كنا سنتلقى الرد نفسه باستمرار وهو : « عدم الانحاء باللائمة على رئيس الوزراء مهما حدث » .. فاننا نكون قد دنونا كثيرا فكريا ومعنويا من الشعب الألمانى الذى يقول : « ان الفوهرر لا يخطىء .. » ولم أشهد طوال السبعة والثلاثين عاما التى امضيتها فى هذا المجلس ، محاولات مثل ما نشهده اليوم من محاولات لتخليص رئيس الوزراء من المسئولية الوزارية .. ولم يحدث أن مرت بنا فى الحرب السابقة سلسلة متلاحقة من النوائب كما مربنا فى هذه الفترة .. وبالرغم من ذلك تنجو الحكومة لأن الفوهرر لا يخطىء .. ونحن جميعا متفقون على أن رئيس الوزراء كان هو القائد الموجه لبسالتنا وصمودنا ابان عام ١٩٤٠ بيد ان أحداثا كثيرة وقعت منذ ذلك التاريخ ، واذا ظلت هذه النوازل تتوالى ، فان من الأفضل - للسيد الموقر جدا - ان يقوم بعمل رائع من أعمال « انكار الذات » التى يقوى كل انسان على القيام بها ، وأن يذهب الى زملائه الوزراء - وبينهم كثيرون يصلحون لتولى رياسة الوزارة - ويقترح عليهم : ان يقوم أحدهم بتاليف الوزارة « شريطة أن يتبوأ السيد الموقر هذا ، منصبا وزاريا معه ، ولعل من الأفضل له أن يأخذ منصب وزير

الخارجية لأنه استطاع ان يدعم علاقاتنا الخارجية بروسيا وأمريكا، ويصل بها الى درجة القوة والكمال ..

ولم يكن فى طاقتى أن أظل أنصت الى أكثر من نصف الخطب التى ألقيت خلال المناقشة الحامية التى استمرت حتى الساعة الثالثة صباحا ، وكان على طبعا أن أجهز برنامجى لليوم التالى ، ولكن افكارى كانت مركزة على المعركة التى ظهرت وكأنها معلقة فى كف الأقدار فى مصر ..

وقد استؤنفت المناقشة ، ولم تمض ساعات قليلة على استئنافها حتى كانت قد استنفدت طاقتها ، وفى اليوم الثانى استؤنفت بحيوية متجددة وبطبيعة الحال ، لم يمنع أى نائب من أن يقول ماينبغى ، فقد كانت حرية الكلام ، وقد اغرب احد النواب فى قوله :

« عندنا فى هذه البلاد خمسة أو ستة جنرالات ينتمون الى دول أخرى كالتشيكيين والبولنديين والفرنسيين ، وهم مدربون على استعمال هذه الأسلحة الألمانية وعلى اساليب القتال التى ينهجها الالمان وانى لأعلم : أن اقتراحى قد يكون جارحا لكبريائنا لكن ألا يمكن أن نسند القيادة فى الميدان الى بعض هؤلاء الجنرالات حتى يتوافر عندنا القادة المدربون ؟ .. وهل هناك حرج فى أن نرسل الى الميدان هؤلاء — الرجال الذين لا يقلون من حيث الرتبة عن الجنرال « ريتشى » ونسند اليهم قيادة قواتنا ؟ .. انهم يعرفون دون قادتنا كيف يخوضون غمار هذه الحرب ، وانى لأصرح بأن من الأفضل أن نكسب المعارك ونحمى أرواح الجنود البريطانيين بقيادة رجال من الأمم المتحدة لا أن نخسرها بقيادة جنرالاتنا .. وعلى رئيس الوزراء ان يعرف أن هناك قولا ذائعاً يردده كل لسان فى هذه البلاد ، بأن روميل لو كان فى الجيش البريطانى لظل حتى الآن عريفا .. أو ليست هذه هى الحقيقة ؟ .. انه كلام شائع فى أوساط الجيش كلها ، ففى هذه البلاد الآن وفى الجيش البريطانى « رجل » هزم مائة وخمسين ألفا فى معركة « الا يبرو » فى الحرب الاهلية الاسبانية ، انه ميشيل دونبار الذى يعمل الآن عريفا فى أحد الألوية المدرعة فى هذه البلاد — وحقيقة المسألة وجوهرها أن الجيش البريطانى تتنازعه الأهواء الطبقية فعليكم أن تغيروا هذا الوضع واذا لم يستطع مجلس العموم أن يدفع الحكومة الى تغييره فان الأحداث ستغيره . وربما لا يعنى المجلس بما ذكرته اليوم ، ولكنه سيعنى به قطعا فى الأسبوع القادم تذكروا ماقلته يومى الاثنين والثلاثاء

القادمين . ان الأحداث هي التي توجه نقدها الى الحكومة وكل ما نصنعه هو : أن نعبر عنها ، وربما يكون تعبيرنا عنها غير واف ، ولكنا نحاول التعبير عنها على أية حال . « وقد لخص المستر هور ـ بليشا » : وزير الحربية السابق القضية الرئيسية ضد الحكومة ، وفي النهاية قال : قد نفقد مصر أو لا نفقدها وانى لأرجو الله ألا نفقدها ، ولكنى حينما أقرأ قول رئيس الوزراء بأننا سنحمى مصر يتضاعف قلقى لأنه قد سبق له أن قال انا سنحمى سنغافورة وكريت ، وسنقضى على الألمان قضاءً مبرماً فى ليبيا . فكيف يمكن المرء أن يضع ثقته فى أحكام اثبتت أكثر من مرة خطأها وسوء توجيهها ؟ ..

هذا هو الموضوع الذى يجب أن يقرره مجلس العموم الآن : عليكم أن تعملوا التفكير فى كل ما هو معرض للخطر فى هذه اللحظة : « لقد خسرنا فى مائة يوم ، امبراطوريتنا فى الشرق الأقصى ، فما الذى سيحدث فى المائة يوم المقبلة ؟ .. اننى لأرجو ان يُحَكِّم كل عضو فى المجلس ضميره قبل الاقتراع » ..

وقد نهضت بعد هذا الخطاب القوى لانهى المناقشة ، وكان المجلس مزدحما بالحاضرين ، ولقد حاولت بالطبع ابانة كل نقطة عرضت على ، وكان المستر « هور بليشا » قد ركز على فشل الدبابات البريطانية ، وعدم كفاية معداتنا فى سلاح المدرعات وكان مركزه ضعيفا فى هذا الهجوم بالنسبة الى سجله السابق قبل الحرب فى وزارة الحربية وقد استطعت أن أنكس الوضع حينما قلت :

ان فكرة الدبابة « مفهوم بريطانى » واستخدام القوات المدرعة على ماهى عليه الآن « خطة فرنسية » كما يظهر فى كتاب الجنرال ديجول ، ولم يكن أمام الألمان الا أن يحولوا هذه الأفكار الى أمور عملية يستخدمونها ، وقد أمضوا السنوات الثلاث أو الاربع الاخيرة قبل الحرب ـ بما عهد فيهم من مهارة واتقان فى التخطيط والصناعة معا ـ فى انتاج الدبابات ودراسة طرق حربها . وكان فى امكان وزير الحربية اذ ذاك ـ ولو لم تتوافر لديه الأموال الكافية لصناعة وانتاج الدبابات على نطاق واسع ـ انتاج نماذج عملية كاملة الحجم يقوم باجراء التجارب عليها ، ويختار المصانع ويكفل لها ما تحتاج اليه من معدات بحيث تبدأ انتاجها الضخم من الدبابات والمدافع المضادة لها حين تبدأ الحرب .

وحينما انتهت الفترة التى ألقيت عليها « فترة بليشا » لم يكن عندنا سوى مائتين وخمسين دبابة تحمل قلة منها مدافع من عيـــار رطلين . وقد وقع أكثرها فى قبضة العدو ، أو حطم فى معركة فرنسا ..

« وانى لأقبل راضى البال . ما يُلزمنى قبوله مما أسماه اللورد النبيل الايرل وينترتون ، (المسئولية الدستورية) عن كل ما حدث ، أرى أننى قد نهضت بهذه المسئولية من ناحية عدم التدخل فى الأمور الفنية للجيوش ، المشتبكة مع العدو . على أنى قبـل بدء المعركة . استنهضت همة الجنرال «أوكنلك» كى يتولى القيادة بنفسه . لأننى كنت واثقا من انه لن يحدث فى منطقة الشرق الأوسط الشاسعة في الشهر أو الشهرين القادمين ، ما يمكن أن يقارن بالقتال الدائر فى معركة الصحراء الغربية ، وقد تراءى لى أنه الرجل الذى يصلح لهذا العمل ، لـكنه اعتذر عن ذلك مبديا عددا من الأسباب ــ المعقولة ؛ وقد خاض الجنرال «ريتشى» المعركة ، وقد ذكرت قبل للمجلس يوم الثلاثاء أن الجنرال « أوكنلك » قد تسلم زمام القيادة من الجنرال « ريتشى » فى الخـــامس والعشرين ، ووافقنا نحن على هذا القرار فورا . ولكن يجب ان اقرر بصراحة أن هذا الموضوع ــ موضوع ابعاد الضابط عن القيـــادة لم يكن من الطراز الذى يمكن أن نتخذ فيه حُكما قاطعا نهائيا ، ولا أستطيع أن آزعم انى قد أصبحت فى حكمى على ما حدث فى هذه المعركة ، ولا أريد أن يحس قادة البر والبحر والجو بأن الحكومة تقف سدا منيعا بينهم وبين أى نقد ــ وينبغى أن تمنحهم الفرصة المعادلة بل أكثر من فرصة واحدة . فقـــد يخطئون ثم يتعلمون من اخطائهم وقد يمنون بسوء الطالع ، لكن طالعهم قد تغير ــ ولكن ليس فى امكاننا أن يكون عندنا عسكريون متأهبون لقبول المخاطر الا اذا أحسوا بأن حكومة قوية تؤازرهم وتساندهم وبالطبع ، أن يغامروا أو يجازفوا اذا أحسّوا بأن عليهم أن ينظروا باستمرار خلفهم ، وأن يستشعروا القلق لمـا يحدث فى الوطن ، والا فانهم سيعجزون عن تركيز أنظارهم على العدو وبالطبع لن يكون فى وســـعهم الحصول على حكومة تقدم على المخاطر ، الا اذا أحست أن خلفها أكثرية قوية مخلصة فانظروا الى ما يجب أن نصنعه الآن ، وتخيلوا نوع الهجوم الذى سنتعرض له اذا أردنا القيام بهذا الواجب ، ثم منينا بالفشل ففى فترات الحروب ينبغى على المواطن أن يمنح الولاء اذا رغب فى خدمة وطنه حقا .

وانى لأود أن أقول بضع كلمات مشفوعة بأصدق التمنيات والتقدير ــ كما يقولون بلغة الدبلوماسيين ، ولى وطيد الأمل فى أن يمنحنى المجلس

الحرية التامة فى المناقشة ان للبرلمان مسئولية خاصة ، فقد كان قائما منذ بداية الكوارث التى لحقت بهذا العالم ولهذا المجلس فضل كبير علىّ ، وأرجو أن يشهد هذا المجلس النصر النهائى وأرى أنه لا يتحقق الا اذا أعطى المجلس الحكومة التنفيذية المسئولة التى اختارها قاعدة قوية ترتكز عليها فى هذا السبيل الشاق الطويل الذى يتحتم علينا أن نجتازه بعد ، وعلى المجلس أن يكون عامل استقرار ثابت فى الدولة ، لا أن يكون وسيلة يُمَكِّن الفئات الناقمة فى الصـــحافة عن طريقها ، خلق أزمة اثر أخرى • واذا قدر للديموقراطية والأنظمة البرلمانية الظفر فى هذه الحرب ، فمن المحتم أن تتمكن الحكومات التى تعتمد عليها من أن تعمل ، وأن تجرؤ على هذا العمل وألا يظل موظفو التاج عرضة للمضايقة بالتجريح والنقد ، وألا نمكن دعاية العدو من استغلال ما نقدمه اليها من مواد • والا نعرض سمعتنا للتشهير والتحطيم فى كل أنحاء العالم ، وعلى النقيض من هذا ، علينا أن نبرز ارادة ــ المجلس فى مختلف المناسبات الهامة • ومن الأهمية بمكان الا يكون هؤلاء المتكلمون وحدهم العامل المهم فى الشئون العالمية • وانما يكون معهم كذلك أولئك الذين يسمعون ويحكمون • فنحن ــ على أية حال ــ ما برحنا نحارب لا من أجل الدفاع عن حياتنا والذود عنها بل من أجل الدفاع ايضا عن قضايا هى أغلى من الحياة نفسها • وعلينا ألا نفترض أن النصر أمر مؤكد وواقع لأنه لن يتم ألا اذا أدينا واجبنا على أحسن وجه • وللنقد البنّاء الوادع • أو ما يوجه من نقد فى جلســـات سرية ــ فضائل كبيرة ، بيد أن واجب مجلس العموم يُحتم عليه أحد أمرين : اما ان يوطد مركز الحكومة أو يغيرها واذا لم يمكنه تغييرها ، فعليه أن يدعمها ، وليس هناك عمل وســـط فى أيام الحروب •• وكل ما ينجم عن الخُطب المعادية يتسرب الى الخارج ويستغله العدو أشنع استغلال • •

لقد قال مُقدم إقتراح «لوم الحكومة» يجب على أن أتخلى عن مسئولياتى الدفاعية لتتولى شخصية عسكرية أو غير عسكرية الادارة العامة لدفة الحرب ، وأن يكون لهذه الشخصية الاشراف على قوات التاج المسلحة وأن ترأس لجنة رؤساء أركان الحرب ، وأن يُخول تعيين الجنرالات والأميرالات واقالتهم وأن يكون مستعدا باستمرار للاستقالة اذا لم يظفر بما يريد ، متحديا زملاءه السياسيين ــ أن صح لنا أن نطلق عليهم اسم الزملاء ــ وأن يعمل تحت امرته أمير من أمراء الأسرة المــالـكة ــ كقائد عام للجيش وأن يساعد رئيس الوزراء هذا الشخص بل أن يكون تابعــا له ويقـــدم الاجابة عن الاســـتفسارات ويذكر الدوافع ويقـــوم بالاعتـــذارات أمام

البرلمان حينما تنحرف الأمور وتتعثر ، وهذا ما يحدث كثيرا ، وسيقع حتما وهذا ما فهمته من الاقتراح وان لم يحدده صاحبه ٠

إن هذا الاقتراح على أية حال ينطوى على سياسة كما أنه ينطوى على نظام يغاير كل المغايرة النظام البرلماني الذى نحيا فى كنفه ، ومن اليسير أن يبلغ حد الدكتاتورية أو ينقلب اليها ، وانى لأود أن أوضح إيضاحا تاما اننى لن أشترك فى مثل هذا النظام ٠٠

وهنا قاطع السير « جون ووردنو ــ ميلن » قائلا : « أرجو الا يكون صديقى ــ الموقر كل التوقير ــ قد نسى عبارتى الأصلية وهى « أن كل شيء متوقف على موافقة وزارة الحرب » ولكننى واصلت خطابى فقلت :

٠٠٠ متوقف على موافقة وزارة الحرب ٠ ان هذا الشخص الذى بلغت قوته غايتها يمكنه أن يهدد بالاستقالة فى كل لحظة اذا لم ينل ما يطلب ٠ انه مشروع على أية حال ٠٠ لكنى لست مستعدا لأن أشترك فيه ولا أعتقد أنه نظام يرتضيه هذا المجلس ٠

« ولعل اشتراك أعضاء من الأحزاب المتباينة فى تقديم الاقتراح بلوم الحكومة والاقتراع عليه يمثل حادثا مهما ٠ على أية حال ينبغى عليكم ألا تدعوا المجلس يهون من خطر ما حدث حتى الآن ، وقد دوى هذا الاقتراح فى كل ارجاء العالم لأنه يتضمن استخفافا بنا وتحقيرا لحكومتنا ، وحينما تنتظر كل حكومة فى العالم ــ صديقة كانت أو عدوة ــ ما سيقرره مجلس العموم ، ، ومايفصح عنه من اعتقاد ، فاننا نحس ان من واجبنا أن نمضى فيه حتى النهاية فهناك فى كل أنحاء العالم فى أمريكا حيث رأيت الوضع بنفسى ٠٠ وفى روسيا ، وهناك فى الصين البعيدة ٠٠ وفى كل بلاد تحت سيطرة العدو ، يتوقع أصدقاؤنا أن يشاهدوا فى بريطانيا حكومة قوية راسخة ، وأن يروا ما ستصبح عليه زعامتها القومية أتتعرض للتحدى أولا ؟ ان لكل صوت أهميته ، واذا انخفضت نسبة مؤيدى أولئك الذين هاجمونا الى درجة مزرية ، وانقلب إقتراعهم بلوم الحكومة القومية الى اقتراع بلوم مقدمى الاقتراح أنفسهم فتيقنوا أن هتافات أصدقاء بريطانيا والمخلصين لقضيتنا سترتفع فى كل مكان وستدوى جلاجل الخيبة فى مسامع العتاة الذين نعمل على التخلص منهم ٠

وكان أن رفض المجلس اقتراح السير « جون ووردلو ــ ميلن » بعدم الثقة بالحكومة بأكثرية (٤٧٥) صوتا مقابل : (٢٥) صوتا ٠

وكان أصدقائى الامريكيون يتطلعون بقلق بالغ الى ما سينجلى عنه الاقتراع وقد انكشف فعلا عما أبهجهم · وفى صبـــاح اليوم التالى أفقت لأتلقى تهانيهم .

وخلال المناقشة تعرض المستر وونتر ايليوت لموضوع تاريخى غريب حينما قرأ ما كتبه ماكسولى عن حكومة المســتر بيت اذ قال : كان بيت يقود شعبا فى معركة الحياة أو الموت ·· ولكن الجيش البريطانى فى الواقع غدا ، بعد ثمانى سنوات من الحرب ومن بَذْلِ الكثير من الأرواح والأموال فى عهد بيت ، مثار سخرية أُروبا كلها .

ولم يكن فى طاقة هذا الجيش أن يزهو بالانتصار فى احدى المعارك ولم يبرز فى أى بقعة من القارة ، الا كتبت عليه الهزيمة والفرار ، ومع ذلك استمر بيت يلقى مؤازرة مجلس العموم · وهكذا كانت الحكومة تنال فوزاً داخل أسوار البرلمان فى فترة طويلة من المحن التى نزلت خلالها خارج البرلمان نوازل مختلفة الألوان .

وفى النهاية لم تبق هناك معارضة لحكومة بيت ، وفى عام ١٧٩٩ التاريخى نال بيت أكثرية ، اذ لم يصوت ضد حكومته الا خمسة وعشرون عضوا · واستطرد المستر ايليوت يقول : ومن العجيب أن التاريخ يكرر نفسه أحيانا ولم يكن فى طاقة المستر ايليوت أن يدرك قبل التصويت مدى صدق قوله · وقد تحيرت أنا الآخر من رقم الخمسة والعشرين ، لأنه كان الرقم الذى ذكرته للرئيس روزفلت ولهـــارى هوبكنز حينما كنت معهما فى البيت الأبيض يوم وافتنا أخبار طبرق .

الجيش الثامن فى موقف التاهب

كان لسقوط طبرق ، دون حصار لفترة طويلة أثره فى قيام ثورة فى خطط المحور ، وكانت الخطة حتى الآن تعتمد على أن يقف رومل على الحدود المصرية وأن تسارع قوات تنقل عن طريقى البحر والجو ، باحتلال مالطة ، وقد أكد موسولينى هذه الأوامر فى الحادى والعشرين من يونيو بيد أنه اقترح بعد سقوط طبرق بيوم واحد : أن يقوم بالقضاء على ماتبقى من قوات بريطانية صغيرة على الحدود وأن يفتح الطريق الى مصر ·· وقد عُززت وجهة نظره فى متابعة المطاردة الى قلب مصر عدة عوامل منها : وضع قواته وروحهم المعنوية العالية والكميات الهائلة من الذخائر فضلا عن الغنائم التى إستولى عليها ، وضعف مركز القوات البريطانية · وطلب الموافقة على خطته ، وقد تلقى موسولينى رسالة أخرى من هتلر تلح عليه بقبول اقتراحات رومل ، واليك فقرات منها :

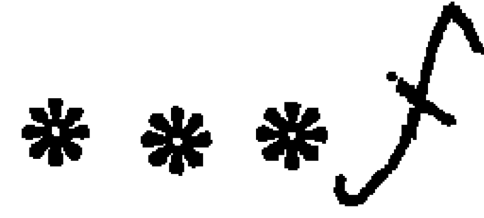
« لقد أراد القدر أن يمنحنا فرصة لن تعوض على مسرح الحرب نفسه ... فقد دُمّر الجيش الانجليزى الثامن تدميرا تاما ، وما زالت تجهيزات الميناء فى طبرق سليمة ، وها انت ذا تملك الآن قاعدة اضافية لها أهمية عظمى ، لأن الانجليز قد مَدّوا منها سكة حديدية الى مصر نفسها ، واذا لم نقم فى هذه اللحظة بمطاردة الجيش البريطانى حتى يلفظ أنفاسه آخر رجل فيه ، فسيتكرر ما حدث حينما حُرم البريطانيون ثمار نصرهم الذى حققوه ، فلم يصلوا الى طرابلس ، وتوقفوا بقواتهم فجأة ، ليرسلوها الى اليونان ··

ان « آلهة المعارك » تزور المحاربين مرة واحدة غير أن من يقعد عن التمسك بها حين تزوره لن يستطيع أن يمسك بها مرة أخرى » ·

ولم يكن « الدوتشى » فى حاجة الى من يقنعه بذلك فقد راوده الأمل مرارا فى احتلال مصر · وقد أرجأ الهجوم على مالطة الى أول شهر سبتمبر وخول رومل ــ الذى أصبح حينئذ ماريشالا بصورة فاجأت الايطاليين

وأدهشتهم ـ الاستيلاء على الممر الضيق نسبيا ، وهو بين العلمين ومنخفض القطارة ليكون « نقطة البداية » فى عملية قادمة تستهدف الوصول الى قناة السويس ، أما كيسلرنج فكان يرى غير ذلك ، فقد أيقن أن مركز المحور فى الصحراء لن يؤمن الا بالاستيلاء على مالطة ، ولهذا فقد أفزعه ما طرأ على الخطة من تحوير ٠ وقد أومأ الى حُمق مشروع رومل وما ينطوى عليه من أخطار جسام ٠

ولم يكن هتلر نفسه على ثقة من النصر على مالطة لأنه كان يرتاب فى كفاية القوات الايطالية التى كان من المقرر أن تقوم بالدور الرئيسى فى الحملة حيث كان من المتوقع أن يُمنَى بالفشل أى هجوم يشن عليها ، ولكن من المؤكد الآن أن خسارة طبرق التى تثير كوامن الحزن والفزع ـ قد أنقذت الجزيرة من محنتها الكبرى ٠ وذلك عزاء ينبغى ألا يفيد منه أى جندى ممتاز سواء أكان ذا شأن في المعركة أم لم يكن ، لأن جانبا كبيرا من العبء يقع على كاهل القيادة العليا أكثر من وقوعه على أى من الجنرالات أو الجنود ٠



وقد نظم روميل بسرعة قوات المطاردة وفى الرابع والعشرين من يونيو اجتاز الحدود الى مصر دون أن يجد مقاومة الا من قواتنا المتحركة الخفيفة بالاضافة الى الأسراب المقاتلة العنيدة التى استطاعت أن تغطى حركة تراجع قواتنا الى مرسى مطروح ولم يكن مركزنا هنا قويا ، وقد تم اتخاذ اجراء دفاعى حول المدينة ، ولم يكن فى جنوبها غير خطوط من حقول الالغام غير المتصلة تفتقر الى الحماية الكافية ، وقد كان الدفاع عن هذا الخط يحتاج الى قوة مدرعة كبيرة لحماية جناحه الأيمن شأنه فى ذلك شأن خط الحدود الذى تخلينا عنه ٠٠ ولم يكن فى امكان الفرقة المدرعة السابعة أن تقوم بهذه المهمة برغم أنها تمكنت حينئذ من حشد مائة دبابة ٠٠

وفى الخامس والعشرين من يونيو وصل الجنرال أوكنلك الى الجبهة الامامية فى مرسى مطروح وقرر أن يتولى قيادة العمليات بنفسه بدلا من الجنرال « ريتشى » وكان من واجبه أن يفعل هذا منذ طُلب اليه أن يفعله فى شهر مايو الماضى ٠٠ وقد توصل الى نتيجة سريعة هى : أنه لا يمكنه أن يصمد نهائيا فى مرسى مطروح ٠ وكانت الاجراءات تتخذ على قدم وساق لاعداد المواقع فى العلمين التى تبعد مائة وعشرين ميلا الى الوراء واتخذت التدابير لوقف تقدم العدو فى هذه المنطقة ، ثم عهد الى الفرقة النيوزيلندية التى قدمت من سوريا ووصلت الى مرسى مطروح فى الحادى

والعشرين من يونيو ـ بالقيام بعمليات حربية في السادس والعشرين من هذا الشهر في المنطقة الصحراوية في « منقا قائم » بين العلمين ومرسى مطروح • وفي هذه الليلة تمكن العدو من أن يخترق جبهة لواء المشاة الهندى التاسع والعشرين في المنطقة التى لم تستكمل فيها حقول الألغام بعد وقد نفذ العدو من الفجوة التى فتحها في الصباح التالى ، وطوق مؤخرة القوات النيوزيلندية التى أصبحت محاصرة من جبهاتها الثلاث ، واستمر القتال عنيفا يائسا طوال النهار ؛ وفي آخر الامر ظهر أن نهاية الفرقة قد غدت محتومة • وقد أصيب قائدها الجنرال « فريبرج » بجراح خطيرة ، بيد أنه قد خلفه الزعيم « انجلر » وقد كان قائدا ماهرا ، فقرر أن ينفذ من الحصار المضروب حوله وبعد منتصف الليل تحرك اللواء النيوزيلندى الرابع صوب الشرق ، وقد انتشرت فرقة وأشهر الجنود أسلحتهم ، ولم يجد النيوزيلنديون أدنى مقاومة مسافة ألف ياردة •• وفجأة •• انصبت عليهم النيران ، وهجم اللواء في صف واحد ، وفوجىء الألمان بهذا الهجوم ، وخرجوا مهزومين من المعارك التى جرت بالسلاح الأبيض في ضوء القمر الساطع ، وقامت بقية الفرقة النيوزيلندية بالهجوم تجاه الجنوب في دفعات دائرية وهذا ما ذكره روميل نفسه عن هذه القصة حيث قال :

« لقد تَنَاوَلَتْ المعركة الحامية الوطيس التى أعقبت ذلك ، مركز قيادتى في الميدان •• وقد تبادل قواتى والنيوزيلنديون اطلاق النيران بصورة قوية عنيفة وسرعان ما وجدت حول مقر قيادتى عددا من السيارات المحترقة التى غدت هدفا لنيران العدو المتواصلة والتى تنطلق من مسافة قريبة ، وبعد فترة قصيرة أدركنى الملل بسبب هذه الحالة ، وأمرت الجنود وضباطهم بالانسحاب قليلا الى الجنوب الشرقى ولا يمكن المرء أن يصف الاضطراب الذى ساد هذه الليلة » •

وهكذا أفلتت الفرقة النيوزيلندية من الحصار واستعادت تنظيم صفوفها ونشاطها مع القوات الأخرى في موقع العلمين الذى يبعد ثمانين ميلا الى الوراء • ولم يكن قد طرأ بعد على الفرقة اى انهيار مما ساعدها كثيرا في تعزيز خطوطها الدفاعية •

وقد تم انقاذ بقية الجيش في أمان لم يخل من كثير من العنف وكان الذهول قد هيمن على القوات برغم أن اليأس لم يسيطر عليها ، وقد أدى قصر المواصلات وبعد الاسكندرية عن الجبهة اربعين ميلا الى المبادرة باعادة تنظيم كل القوات وبدا « أوكنلك » ـ وهو يتولى القيادة المباشرة

شخصا مختلفا كل الاختلاف عن ذلك القائد الاستراتيجى المفكر الذى ينظر بعين واحدة الى المعركة الحاسمة الدائرة ، فى حين تنشغل عينه الأخرى بالأخطار الغامضة البعيدة فى ايران وسورية وقد حاول على الفور أن يسترد زمام المبادرة التكتيكية ، وقام فى الثانى من يوليو بأول هجوم مضاد فى سلسلة الهجمات المضادة التى استمرت حتى منتصف ذلك الشهر وكانت هذه الهجمات تمثل تحديا لتفوق رومل الغريب ، وفى صبيحة يوم الاقتراع على لوم الحكومة رأسلت اليه تشجيعى الذى كان يضاهى ما أطلقه من قصف المدافع ·

وقد امتدت مواصلات رومل فى الواقع الى أقصى مدى ممكن ، فى حين بلغ الجهد بقواته مداه ولم يبق لديه من الدبابات سوى اثنتى عشرة دبابة صالحة للعمل ، وقد بدأ السلاح الجوى البريطانى وخاصة المقاتلات ـ يبدو متفوقا بصورة واضحة وفى الرابع من يوليو أبرق رومل يقول : انه سيوقف هجومه ويتجه الى الدفاع فترة من الزمن يستطيع خلالها اعادة تنظيم قواته وهو مازال واثقا من قدرته على احتلال مصر وقد وافقه كل من موسولينى وهتلر فى هذا الرأى · وبالفعل أصدر الفوهرر أوامره بارجاء الهجوم على مالطة حتى يتم احتلال مصر دون ايماء الى الايطاليين أو الى قيادته البحرية ·

وفى الأسبوعين الأولين كانت هجمات « أوكنلك » المضادة بمثابة ضغط شديد على رومل الذى استأنف الهجوم بعد ذلك ، وحاول فيما بين الخامس عشر من يوليو والعشرين منه اختراق الخط البريطانى ، ولكنه اضطر فى الحادى والعشرين الى الابراق بأن هجومه قد صد ، وقال : ان الأزمة لا تزال قائمة ·· وفى السادس والعشرين بدأ يفكر فى التراجع الى الحدود ، وأخذ يشكو من قلة الامدادات الجديدة واقلاله الرجال والدبابات والمدفعية كما شكا من نشاط السلاح الجوى البريطانى الذى كان ذا فعالية ··· وهكذا استمرت المعركة فى حالة من التأرجح حتى آخر الشهر حينما وصل الفريقان الى حالة من التوقف من جراء قتالهما المستمر ·· وكان الجيش الثامن الذى يقوده « أوكنلك » قد صمد للعاصفة وأضعفها ، وتمكن بهذا الصمود الراسخ من أسر أربعة آلاف ألمانى ، وكانت مصر لا تزال فى مأمن ·

وفى هذه المرحلة السياسية العسكرية الواهنة طُلب الى الولايات المتحدة أن تتخذ قرارا بالتخلى عن كل الخطط لعبور قناة المانش فى عام ١٩٤٢ وتوجيه حملة بريطانية أمريكية مشتركة لاحتلال افريقية الشمالية

الفرنسية فى خريف ذلك العام أو شتائه • وقد كان لهذا القرار أثره فى السيطرة على اتجاه الحرب طوال العامين القادمين •

وكنت قد درست بعناية منذ مدة أفكار الرئيس وما يساورها من انطباعات ، كما كنت واثقا من أن « مشروع شمال افريقية » يستهويه كثيرا ، وكان هذا المشروع هو الهدف الذى أسعى اليه دائما وقد أدرج فى أوراقى التى أعددتها فى ديسمبر عام ١٩٤١ ، وفى هذا الوقت إيقن كل فرد من أفراد حلقتنا البريطانية ان اجتياز القناة فى عام ١٩٤٢ سيمنى بالفشل ، ولم يكن أى عسكرى على جانبى الاطلنطى على استعداد للتوصية بمثل هذا المشروع أو تحمل مسئوليته ، وقد عرضت هذه القضية باذلا أقصى ما أستطيع من حول وقوة مستخدما فى ذلك أبسط عبارات ممكنة فى البرقية التى بعثت بها الى الرئيس فى الثامن من يوليو وهذا نصها :

١ ــ ليس فى مكنة أى من قواد الحرب البريطانيين غزو بريست أو شربورج بعملية المطرقة الكبيرة فى عام ١٩٤٢ ، ويقول رؤساء أركان الحرب : « ان الأوضاع التى يمكن أن تنجح هذه العملية وتجعلها معقولة ، لا ينتظر حدوثها » وهم الآن يوافون رؤساء أركان حربك بتقريرهم عن هذا الموضوع •

٢ ــ ونحن نقوم الآن بالسيطرة على الملاحة لأغراض تتعلق بالتمويه والتضليل على الرغم من أنها تؤدى الى خسائر تلحق بوارداتنا وتبلغ ما يقرب من ربع المليون طن ، ولكن الأخطر من هذا ، هو ما يقوله «مونتباتن» من اننا اذا أرجأنا تدريب قواتنا ، فسنضطر بالاضافة الى خسارتنا قطع الانزال ، وما شاكلها الى تأخير عملية الغزو الرئيسية لفرنسا شهرين أو ثلاثة على الأقل ، حتى لو فشل المشروع واضطررنا الى سحب القوات التى انزلناها بعد فترة وجيزة •

٣ ــ واذا تمكنا من احتلال موقع والحفاظ عليه ، ينبغى علينا مواصلة تموينه بالامدادات واحباط جهود قاذفات القنابل الألمانية التى ستتعرض حتما لغاراتها باستمرار ، وفى هذه الحالة سنستنزف كل جهودنا فى حماية راس الجسر مما قد يؤثر ــ ان لم يقض قضاءاً مبرما ــ على احتمال قيامنا بعملية واسعة النطاق فى عام ١٩٤٣ ، وسنستنزف مواردنا كلها شيئا فشيئا ، فى هذه الجبهة الضيقة جدا ، والمفتوحة لنا وحدها دون سواها وعلى ذلك ، نستطيع أن نقول : ان العمل الذى لم ينضج بعد فى عام ١٩٤٢ ، والذى قد يؤدى فى الغالب الى كارثة سيكون صدمة قاسية لآمالنا ، فى القيام بعمل منظم واسع النطاق فى عام ١٩٤٣ •

٤ ـ وأنا واثق ان العملية فى افريقية الشمالية الفرنسية انما هى « عملية الرياض » وهى بلا ريب ، أفضـــل فرصة لنا لتخفيف الضغط عن الجبهة الروسية فى عام ١٩٤٢ ، وأعتقـــد أن هـــذه العملية تنسجم وأفكارك كل الانسجام بل أنها فكرتك الأساسية ·· انها الجبهة الحقيقية الثابتة لعام ١٩٤٢ ، وقد استشرت الوزراء ولجنة الدفاع فاتفقنا عليها جميعا ، وهذه هى الضربة التى تحقق النتائج المرجوة والأمنية التى يمكن أن نحققها فى هذا الخريف ·

٥ ـ ونستطيع أن نعضد « عملية الرياض » هـــذه بكل الوسائل باستخدام السفن البريطانية لنقل القوات الامريكية أو البريطانية اللازمة للعملية وتأمين سفن الانزال والملاحة وفى امكانك اذا شئت ـ أن تقوم بعملية المهماز من هنا ، ثم تستكمل الترتيبات مباشرة عبر الأطلنطى ·

٦ ـ ويجب أن يكون واضحا لدينا أن الأمل لن يراودنا من أجل دعوة نتلقاها أو ضمان نتسلمه من « فيشى » ·· ولـكن أية مقاومة يبديهـا الفرنسيون ، لن تكون شيئا ذا بال بالقياس الى ما نلقاه من الجيش الألمانى فى خليج « كاليه » فى حالة الغزو ·· والواقع أن المقاومة الفرنسية تعتبر رمزية ، وكلما كنا أقوى ، كانت المقاومة أضعف ، وكان من السهل علينا التغلب عليها · والموضوع هنا يتعلق بالناحية السياسية أكثر من تعلقه بالناحية العسكرية · ويخيل الى أن علينا ألا ندع جانبا هـــذه الضربة الاستراتيجية العظيمة التى تهيأت لنا فى المسرح الغربى فى هذا العام ··

٧ ـ وبالاضافة الى ماسبق علينا أن ندرس الآن امكانية القيام بعملية فى شمال النرويج ، ولا مرية فى أن الصعوبات ستكون بالغة ، لما تتعرض له سفننا من الطائرات المغيرة من قواعدها على الشاطىء وعلى الرغم من أننا نعانى ويلات مخيفة فى تسيير القوافل الروسية الا انه من الضرورى فتح الطريق وتأمين الاتصال بروسيا ·· وقبل أن يُتخـــذ قرار نهائى حاسم كانت هناك فترة من التوقف ·· وقد حدثت أزمة شـــديدة فى القيادة العليا ، لادارة دفة الحرب الأمريكية ، ووقع خلاف بين الجنرال «مارشال» والأميرال « كنج » حول أولوية أوربا أو المحيط الهـــادى ، ولم يكن أى الرجلين راغبا فى « مشروع شمالى أفريقية » وقـــد كان اهتمام الرئيس روزفلت يتضاعف باطراد بالنسبة للمشروع الأفريقى · وقد استطاع الفيلد ماريشال « ديل » بما يتمتع به من مزايا ـ أن يكسب ثقـــة كل المدارس الفكرية المتضاربة ، وبفضل كياسته استطاع أن يحتفظ بثقـــة الجميع ، وكان الرئيس قد أدرك قوة الحجج المعارضة فى عملية « المطرقة »

واذا كان يضع دائما هذه العملية فوق كل اتصالاته بنا فما ذاك الا لأنه أراد اقناع الجنرال ماريشال بأنه سيهيىء لهذه العملية كل فرصة ممكنة. أما اذا عجز الجميع عن التقدم بهذا المشروع فماذا تكون النتيجة ؟ لقد وجد اتجاه جارف لدى ضباط أركان الحرب الامريكيين يذهب الى أنه : اذا لم نستطع أن نفعل شيئا هذا العام فى أوربا فعلينا أن نركز جهودنا ضد اليابان فنوفق بهذه الطريقة بين فكرتى الجيش والأسطول الأمريكيين ، ونقرب بين الجنرال ماريشال والأميرال « كنج » .

بيد أن الرئيس روزفلت قاوم هذا الاتجاه الفكرى الخطر وقضى عليه فلقد كان مقتنعا بأن على الجيش الامريكى أن يقاتل الالمان فى عام ١٩٤٢ — فأين يمكن أن يتم هذا اذا لم يكن فى شمالى افريقية ؟ ويقول المستر « ستمسون » : ان هذه الفكرة ، كانت المولود الحربى الذى وضعه الرئيس سرا .. ولا مرية في ان قوة أدلة ومنطق الرئيس فى هذا الاتجاه ، كانا فى غاية السلامة والوجاهة .

وفى يوم السبت الموافق الثامن عشر من يوليو وصل الجنرال ماريشال والأميرال كنج وهارى هوبكنز بالطائرة الى « بريستويك » واستقلوا القطار فورا الى لندن حيث بدوا على الفور يتشاورون مع القادة الامريكيين المقيمين هناك . وهم ايزنهاور وكلارك و (ستارك وسباتز) ، وجرى النقاش بينهم ثانية فى (عملية المطرقة) وقد كان الرأى المهيمن على الامريكيين لايزال مؤيدا لهذه العملية دون سواها بل ملحاً فى تنفيذها .. وبدا أن الرئيس وحده قد تأثر بالحجج التى قدمتها ، وقد زود الوفدبوثيقة وضعها بنفسه واعتبرها أحسن ما كتب عن سياسة الحرب وأشدها فعالية أوردها بنصها .

«مذكرة الى السادة : « هارى هوبكنز والجنرال ماريشال والأميرال كنج » الموضوع : تعليمات عن مؤتمر لندن — يوليو عام ١٩٤٢

[١٦ من يوليو عام ١٩٤٢]

١ — ستمضون فورا الى لندن كممثلين لى بصفة شخصية وذلك لتبادل الرأى مع السلطات البريطانية المختصة فى موضوع ادارة دفة الحرب .

٢ ـ حدثت تغييرات عسكرية وبحرية استراتيجية كبيرة منذ زيارة المستر تشرشل لواشنطن ، تستدعي الوصول الى اتفاق عاجل على خطط العمليات المشتركة بيننا وبين البريطانيين على أساسين :

(أ) الخطط النهائية في الفترة الباقية من سنة ١٩٤٢ .

(ب) الخطط التي ما زالت تحت البحث لعام ١٩٤٣ ، على أن تكون قابلة للتعديل في هدى ما سيتمخض عنه عام ١٩٤٢ ، مع وجوب اعدادها في هذا الوقت في كل الحالات على اعتبار أنها استعدادات في عام ١٩٤٢ لعمليات ستقع في عام ١٩٤٣ .

٣ ـ يجب أن يكون الهدف المشترك للأمم المتحدة هو :

(أ) هزيمة دول المحور ، وليس هناك أي تساهل في هذه النقطة .

(ب) علينا أن نركز جهودنا وأن نتجنب الفُرقة .

(جـ) من الأمور الحيوية استخدام القوات البريطانية بصورة عامة موحدة .

(د) من الضروري استخدام كل القوات الأمريكية والبريطانية المتأهبة في أي عمل حربي يمكن استخدامها فيه ، وذلك في أسرع وقت ممكن .

(هـ) من الأهمية بمكان ضمان استخدام القوات الأمريكية البرية في عمل ضد العدو في عام ١٩٤٢ .

٤ ـ يجب تنفيذ كل الارتباطات المادية البريطانية والأمريكية التي التزمنا بها لروسيا ، تنفيذا ينطوي على صدق النية والوفاء .

ويجب قبل كل شيء أن ترسل جميع مواد القتال عن طريق ايران اذا كان صالحا للاستعمال ، ومن الواجب أن يستمر هذا الارسال مادام التسليم ممكنا وعلينا أن نشجع روسيا على مواصلة القتال وألا نتراجع في حال الانهيار الكامل ، وهو شيء نستبعده .

٥ ـ عليكم بالنسبة لعام ١٩٤٢ ، أن تدرسوا بعناية : امكانية تنفيذ عملية المطرقة « ولا مرية في أن مثل هذه العملية ، ستُبقي على روسيا في ميدان المعركة هذا العام ، وهي عملية مهمة للغاية بحيث تتطلب كل الأسباب والمسوغات تنفيذها وعليكم أن تحثوا بريطانيا بقوة على اتخاذ كل الاستعدادات العاجلة بغية تنفيذها ، وأن تدفع العملية الى الأمام بمنتهى

الحيوية والنشاط ، وتخرج الى حيز التنفيذ سواء أصبح انهيار روسيا متوقعا فى كل لحظة أم لا ، واذا غدا الانهيار محتمل الوقوع فان عملية «المطرقة» تتجاوز طور الصلاحية ولا مرية فى أن الهدف الرئيسى لعملية «المطرقة» هو تحويل قوات ألمانيا الجوية الايجابى من الجبهة الشرقية الروسية ! ..

٦ ــ أرجو اخبارى حين تقتنعون تماما باستحالة تنفيذ « عملية المطرقة » مع وجود فرصة معقولة لتحقيق اهدافها المتوخاة .

٧ ــ واذا استبعدنا عملية المطرقة نهائيا ــ وبصورة مطلقة ــ فانى أريد أن تدرسوا الوضع العالمى على ما يكون عليه حينئذ ، وتقرروا المكان الآخر الذى ينبغى أن تقاتل فيه القوات الأمريكية فى عام ١٩٤٢ .

ان الصورة التى ارسمها للعالم اليوم هى كما يلى :

(أ) اذا استمرت روسيا فى مناوشة قوات ألمانية كبيرة ، فان « عملية الطراد » غزو أوربا تصبح أمراً ممكناً فى عام ١٩٤٣ ويجب أن نضع الخطط لعملية الطراد ودراستها عاجلا واتخاذ الاستعدادات اللازمة لها .

(ب) وقد تغدو عملية الطراد مستحيلة فى عام ١٩٤٣ اذا انهارت روسيا وتحررت قوات ألمانيا البرية والجوية من الجبهة الشرقية .

٨ ــ يجب أن نحتفظ فى الشرق الأوسط بكل قوة ممكنة ، سواء انهارت روسيا أم لا ، وأريد أن تأخذوا بعين الاعتبار ما يخلفه ضياع الشرق الأوسط من أثر ، ان مثل هذه الخسارة تعنى ما يلى بالتسلسل :

١ ــ ضياع مصر وقناة السويس .

٢ ــ ضياع سورية .

٣ ــ ضياع آبار النفط فى الموصل .

٤ ــ ضياع خليج البصرة بما يشن عليه من هجمات من الشمال والغرب مع امكانية الوصول الى نفط الخليج .

٥ ــ اتصال المانيا واليابان واحتمال ضياع المحيط الهندى .

٦ ــ احتمال قيام ألمانيا فى الغالب باحتلال تونس والجزائر ومراكش وداكار وقطع الطريق المائى عبر فرويتان وليبيريا .

٧ ـ تهديد الطرق الملاحية كلها فى جنوبى الأطلنطى وتهديد البرازيل والساحل الشرقى لأمريكا الجنوبية كله وهذه الاحتمالات تتضمن احتمال استخدام الألمان اسبانيا والبرتغال وكل ممتلكاتها ٠

٨ ـ يجب أن تقرروا أحسن السبل للاحتفاظ بالشرق وهذه السبل تتضمن حتما احدى الطريقتين التاليتين أو كلتيهما معا :

(أ) ارسال النجدات والقوات البرية الى خليج البصرة وسورية ومصر ٠

(ب) القيام بعملية جديدة فى مراكش والجزائر الغرض منها : الزحف على مؤخرة جيوش رومل ، أما موقف القوات الفرنسية فى مستعمراتها فما زال موضع شك ٠

٩ ـ اننى أعرض أن تقوم امريكا وحدها بمجهود فى المحيط الهادى ضد اليابان فى الوقت الحاضر لأن هذا يؤدى الى هزيمتها فى أسرع وقت ممكن ، ولعل من الأهمية بمكان أن نفهم جميعا أن هزيمة اليابان لا تعنى هزيمة ألمانيا ،وأن تركيز القوات الأمريكية ضد اليابان فى هذا العام أو فى عام ١٩٤٣ يضاعف احتمال سيطرة ألمانيا الكاملة على أوربا وأفريقية ومن ناحية أخرى ، يبدو أن هزيمة ألمانيا فى عامى١٩٤٢/١٩٤٣ تعنى احتمال الهزيمة النهائية لألمانيا على المسرحين : الأوروبى والأفريقى والشرق الأوسط ايضا ؛ كما أن هزيمة ألمانيا تعنى اليابان وقد تكون هذه الهزيمة دون اطلاق طلقة واحدة أو ازهاق حياة جندى واحد ٠

١٠ ـ أرجو أن تتذكروا ثلاث حقائق أساسية هى : سرعة تقرير الخطط وتوحيدها والجمع بين الهجوم والدفاع دون الاقتصار على الدفاع وحده : وينبغى أن يكون هذا هو الهدف العاجل للقوات الأمريكية البرية التى تقاتل الألمان فى عام ١٩٤٢

١١ ـ آمل أن تصلوا الى اتفاق كامل بعد أسبوع واحد من وصولكم٠

فرانكلين د٠ روزفلت
القائد الأعلى

وعلى الرغم من هذا الايماء الأخير ، فقد أبلغنى الجنرال ماريشال بعد ظهر الثانى والعشرين من يوليو أنه هو وزملاؤه قد وصلوا فى محادثاتهم مع رؤساء اركان الحرب البريطانيين الى مايشبه الأزمة مما حدا بهم الى التوقف ، وكان عليه أن يبرق الى الرئيس طالبا تعليماته ٠

ورددتُ عليه بأنني أتفق مع الرئيس ومستشاريه العسكريين في رغبتهم الكاملة في الاشتباك مع العدو على أوسع نطاق وفي أسرع وقت ولكنني واثق أنه نظراً للقوات المحدودة الموجودة تحت تصرفنا ، لن يكون ثمة داع للتفكير في القيام بعملية « المطرقة » في عام ١٩٤٢ . وقد أشرت الى ما يواجهنا من احتمالات بشعة كثيرة ، فهناك مثلا احتمال « أوكنلك » واحتلال « دلتا النيل » وقناة السويس أو توطيد أقدامهم في شمالي افريقية وغربيها ، وبذلك يفرضون على ملاحتنا المجهدة المنهوكة عبئا ثقيلا جديداً وقد أضفت : ان الخلاف بين بريطانيا العظمى وأمريكا يترك أثراً أكبر وأعظم من جميع هذه الاحتمالات ، ولهذا فقد اتفقنا على أن ينقل رؤساء أركان الحرب الأمريكيين الى الرئيس عدم استعداد البريطانيين للمضي في عملية « المطرقة » وأن يبرق بذلك الى الرئيس ليبعث بتعليماته.

وقد رد الرئيس روزفلت على الفور بأنه لم تدهشه النتيجة المخيبة للآمال التي وصلت اليها محادثات لندن ، كما وافق على أنه ليس هناك جدوى من الاستمرار في المضي في « عملية المطرقة » تجاه المعارضة البريطانية لها . وأصدر تعليماته الى وفده بالوصول الى قرار معنا يتناول بعض العمليات التي تمكن القوات الأمريكية البرية من الاشتباك مع العدو في عام ١٩٤٢ ، وهكذا اختفت « عملية المطرقة » لتحل « عملية الرياضي » محلها ، وقد أحنى « مارشال وكنج هامتيهما أمام قرار قائدهما الأعلى على الرغم من المرارة وخيبة الأمل التي انتابتهما ، وقد سيطرت النيات الطيبة في أبلغ صورها علينا جميعا من جديد .

وبادرت الى اعادة « تعميد » عمليتي الأثيرة الى نفسي « الرياضي » تحت اسم آخر ، ففي الرابع والعشرين من يوليو أصدرت تعليمات الى رؤساء أركان الحرب بأن يصبح الاسم الجديد للعملية هو : « المشعل » وفي الخامس والعشرين من يوليو أبرق الرئيس الى هوبكنز ، بوجوب المضي في وضع الخطط للنزول في شمالي افريقية على الفور ، على الا يتأخر التنفيذ عن الثلاثين من أكتوبر ، ومضى أصدقاؤنا الأمريكيون في تلك الليلة عائدين الى واشنطن .

وهكذا تم الاتفاق على الأفكار التي جمعتنا أنا وزملائي من عسكريين ومدنيين منذ عهد بعيد ، وقد أثلج الاتفاق صدري ولا سيما أنه جاء في اللحظة التي بدا لنا أنها أحلك اللحظات ، وبهذا تم تبني جميع الخطط التي أجبتها باستثناء خطة واحدة فقد عجزت عن تنفيذ عملية « المشترى » الخاصة بغزو النرويج فهي على الرغم مما لها من مزايا لم تناقش ولم يفض

من شأنها ٠٠ على أنى لم أكن قد تخليت عن هذه الخطة ، وان عجزت أخيراً عن تنفيذها ، وقد ركزت جهدى منـــذ أشهر على الغاء « عمليـــة المطرقة » والاسراع بغزو شمالى أفريقية « وعملية المشترى » وقد سقطت«عملية المشترى » فى الطريق ، ولـكننى حققت ما يستأهل الشكر ٠

لقـــد أبرق الينا المشـــير « الفيلد ماريشـــال ديل » من واشنطن يقول : لقد توجه الرئيس الى هايد بارك للاستجمام بعض الوقت بيد أنه قبل ذهابه أصدر أوامره للاسراع بعملية « المشعل » وتنفيذهـــا بأسرع ما يمكن ، وطلب الى هيئة الأركان المشتركة ابلاغه فى الرابع من أغسطس بالموعد المبكر الذى يمكن تحقيق العملية فيه ، ولا يزال خطر الالتفات الى المحيط الهادى ماثلا ٠٠ وان كان الرئيس قد عقد العزم على ذلك ٠

« ويعنى قبول الرأى العام الأمريكى لعمليـــة المشعل ، اســـتبعاد « عملية الطراد » فى عام ١٩٤٣ ، وينبغى ألا يساورنا القلق من هذا ٠٠ فكل ما نحتاج اليه الآن هو : تركيز تفكيرنا وجهودنا على « المشعل » ترى هل يقدر لأهدافه أن تكلل بالنجاح الذى تستحقه لمـــا يتمتع به من بسالة وخيال عميق » ٠

وقد وصلت الى هذه الرسالة فى منتصف ليـــلة الأول من أغسطس عام ١٩٤٢ وكنت وقتها فى « مطار لينهـــام » أوشـــك على البدء برحلة سأتحدث عنها بايضاح فى الفصل التالى ٠

رحلتي إلى القاهرة
تغييرات في القيادة

لقد كانت التقارير التي تنقيتها من جهات شتى تقوى باستمرار ـ الشكوك التي ساورتني في موضوع «القيادة العليا في الشرق الأوسط». وغدا لزاما على ان أتجه الى هناك ؛ وأسوى القضية بصورة حاسمة ؛ وكان من المقرر أولا إن أمضى الى « جبل طارق فتاكورادى » ثم أجتاز أواسط افريقية الى القاهرة مما يقتضيني السفر بالطائرة زهاء خمسة أو ستة أيام ، وعلى اية حال وصل الى انجلترا في هذه الآونة طيار أمريكي شاب يدعى الكابتن « فاندركلوت » قادما بطائرته « الفدائي » من طراز ليبراتوز ، من الولايات المتحدة بعد أن رفعت منها أوكار قنابلها واستعيض عنها بأماكن لركوب المسافرين ، وقد كان في وسع مثل هذه الطائرة اجتياز الرحلة المرسومة لها في كل مراحلها بسرعة أكبر ، وقد استقبل « بورتال » ـ رئيس أركان سلاح الطيران ـ الطيار الأمريكي مستجوبا اياه في موضوع طائرته ، وسأل « فاندركلوت » ـ الذي كان قد طار ما يقرب من مليون ميل ـ عن الأسباب التي تستدعى الدوران مثل هذه المسافة الطويلة الى « تاكورادى وكانوفورت لامى والعبيد » .. وقال : انه يمكنه أن يطير من جبل طارق الى القاهرة دون توقف ، اذ يتجه من جبل طارق صوب الشرق بعد الظهر ثم يستدير فجأة نحو الجنوب عبر المناطق التي تحتلها إسبانيا « إوفيشى » في شمال افريقية عند حلول الظلام ، ثم يتجه شرقا الى ان يصل الى النيل فوق أسيوط ويتجه شمالا بحيث يصل الى مطار القاهرة شمالي الأهرام بعد ساعة واحدة ، وقد كان هذا الاقتراح كفيلا بتغيير الصورة كلها ، فقد أصبح في طاقتي أن أصل الى القاهرة في يومين أما « بورتال » فقد اقتنع بالاقتراح كل الاقتناع .

وكان أهم ما يشغلنا أن نعرف رد الفعل بالنسبة للحكومة الروسية بشأن الأنباء المؤلمة ـ التي لا مناص من ابلاغها اياهـا وهي أن القناة لن تعبر في عام ١٩٤٢ ، وقد حدث أنني شرفت بدعوة الملك الى العشاء مع

أعضاء وزارة الحرب مساء الثامن والعشرين من يوليو فى غرفة الحديقة فى « دوانج ستريت رقم ١٠ » التى كنا نستخدمها لمآدب العشاء وقد حصلت من جلالته ــ بصفة سرية ــ على الاذن لى بالقيام بالرحلة وبعد مغادرته هذا المكان دعوت الوزراء الى غرفة مجلس الوزراء ، فأبلغتهم كل شىء ، وتقرر سفرى الى القاهرة « وأن اقترح على ستالين مقابلته فى موسكو » .. ولهذا أرسلت اليه فى الثلاثين من يوليو البرقية التالية :

١ ــ نقوم الآن بالتمهيد للقيام بمحاولة أخرى لارسال قافلة كبيرة الى « أركانجل » فى الأسبوع الأول من شهر سبتمبر .

٢ ــ اننى راغب فى المجىء اليك اذا دعوتنى ، للاجتماع بك فى « استراخان » فى « القوقاز » أو فى أى مكان آخر مناسب يماثله ويمكننا ان نستعرض الوضع الحربى معا وأن نتخذ القرارات معا ، وسأبلغك حينئذ بالخطط التى اتفقت أنا والرئيس روزفلت عليها بالنسبة للأعمال الهجومية فى عام ١٩٤٢ ، وسأحضر معى رئيس أركان حرب قواتنا الامبراطورية .

٣ ــ انى ذاهب الى القاهرة فورا ، فلدى عمل جدى فيها لامِرْيَةَ فى أنك تتخيله ، ومن هنا يمكننى أن أحدد الموعد الذى يناسبك للاجتماع اذا رغبت ــ وهو موعد قد يكون بالنسبة الى بين العاشر والثالث عشر من أغسطس ، اذا سارت كل الأمور كما ينبغى .

٤ ــ لقد وافقت وزارة الحرب على اقتراحى ، وجاء الرد فى اليوم التالى ، وهذا نصه :

« نيابة عن الحكومة الروسية أوجه اليك دعوة الحضور الى الاتحاد السوفيتى للاجتماع بأعضاء الحكومة واعتقد ان أنسب مكان للاجتماع هو : موسكو ، اذ ليس فى طاقتى أو فى طاقة أى عضو من أعضاء الحكومة أو كبار رجال القيادة العامة ــ أن ندع العاصمة فى هذه اللحظة التى يقوم فيها صراع عنيف عارم ضد الألمان ولا ريب فى أن وجود رئيس أركان الحرب ، أمر نرحب به أبلغ ترحيب وأصدقه .

أرجو أن تحدد انت موعد اللقاء وفقا لما يقتضيه انجاز أعمالك فى القاهرة من وقت ، كما أرجو أن تتيقن من أن أى موعد تحدده سيكون مناسبا لى .

أرجو أن تسمحوا لى ان اعبر عن شكرى لموافقتكم على أرسال القافلة المحملة بالعتاد الحربى إلى الاتحاد السوفيتى فى الأول من شهر سبتمبر ، وعلى الرغم من الصعوبة البالغة فى تحويل الطائرات عن الجبهة ، فستتخذ كل الاجراءات الممكنة لمضاعفة الدفاع الجوى عن القافلة » .

وهكذا تم ترتيب كل شيء ، وغادرنا « لينهام » بعد منتصف ليلة الأحد فى الثانى من شهر أغسطس على ظهر قاذفة القنابل « الفدائى » على ان هذه الطائرة من طراز لا يوفر لنا المتعة التى توفرها لنا السفينة الطائرة « بوينج » ولم تكن وسائل التدفئة قد ادخلت الى القاذفة ، ولذلك فان البرد القارس ــ الذى يكاد يمزق الأوصال ــ كان يسرى فى مفاصلنا ، ولم يكن فى الطائرة أسرّة ، بل كان فيها رفّان فى الغرفة الداخلية استلقيت أنا « ولورد موران » عليهما وقد توافرت لنا البطاطين الصوفية وكانت متوافرة للجميع ، وطرنا على ارتفاع منخفض فوق جنوب انجلترا ، حتى تتعرف علينا بطارياتنا المقاومة للطائرات والتى كانت فى حالة استعداد للطوارىء على الرغم من انذارها بمرورنا ــ وعندما أصبحنا فوق البحر ، غادرت « مقر الطيار » لآخذ قسطا من الراحة ، ثم تعاطيت بعض الحبوب المنومة .

وفى صباح الثالث من شهر أغسطس وصلنا الى جبل طارق دون ما حادث وأمضينا النهار نطوف بالقلعة ، ثم غادرناها فى السادسة مساء فى طريقنا الى القاهرة ، لنقطع الف ميل أو يزيد فى فترة واحدة تقريبا ، نقوم فيها ببعض الدوران البعيد لنتجنب اللقاء بطائرة معادية فوق منطقة المعارك فى الصحراء ، ولم يواصل فاندركلوت ، طيرانه فوق البحر المتوسط الى ان ينشر الظلام جناحه ، رغبة منه فى توفير الوقود ، بل طار فورا عبر المنطقة الأسبانية ، وفى سماء أرض « أوفيشى » نصف المعادية ، ولما كانت آربع مقاتلات من طراز « البوفايتر » تتولى حراستنا الى أن يحل الظلام ، فاننا قد خرقنا حياد هذه المناطق خرقا صريحا ، ولم يتعرض لنا أحد فى الجو ، كما اننا قد ابتعدنا عن مراكز اطلاق المدافع المضادة القائمة فى المدن الهامة ، وعلى أية حال فقد رقصت طربا حينما حل الظلام وأصبح فى مقدورنا آن نأوى الى المضاجع المتوافرة فى طائرة من طراز « الفدائى » ولا شك فى أن مشكلة معقدة كانت ستحدث لو اضطررنا الى الهبوط فى الصحراء على الرغم من أن ايثار هذا المكان كان كافيا فى حد ذاته لخلق مشكلات كثيرة ، لكن

محركات « الفدائى » الأربعة ظلت تدور بانتظام ، وقد نعمت بنوم هادىء مريح ونحن نحلق فى السماء الصافية ذات النجوم المتناثرة ..

وقد اعتدت فى مثل هذه الرحلات أن أجلس فى مقعد مساعد الطيار قبيل شروق الشمس . وعندما وصلت الى المقعد فى صباح ذلك اليوم الرابع من أغسطس رأيت فى ضوء الفجر الشاحب ، شريطا ملتويا من المياه الفضية يمتد أمامنا ، انه نهر النيل ينساب رائعا فى واديه ، وقد قطعت فى أيام الحرب والسلم ــ برا ونهرا هذا الوادى العظيم من منبعه فى بحيرة فيكتوريا حتى مصبه فى البحر ، ماعدا منطقة « الناقلة » ولكنى لم أشعر قبل بالارتياح حينما تطلعت الى مياهه كما حدث فى هذا الصباح .

وهكذا غدوت ــ بعد فترة وجيزة ــ « الرجل الذى يرقب الأحداث عن كثب » وبدلا من أن يستقر بى المقام فى الوطن فى انتظار وصول الأنباء من الجبهة ، أصبح فى وسعى الآن أن أنقل هذه الأنباء الى أى مكان آخر . ولقد كان هذا حقا ، شيئاً مثيراً .

وكان على أن أقرر عدة قضايا فى القاهرة ، فهل فقد جيش الصحراء ثقته بالجنرال «أوكنلك» وأركان حربه ؟ واذا كان هذا حقا ، فهل يجب أن أنحيه عن القيادة ومن سيخلفه فى حالة تنحيته ؟ .. ومثل هذه القرارات تكون مؤلمة قاسية وخاصة عند التعامل مع قائد له مثل ما « لأوكلنك » من مكانة ومنزلة وميزات وكفايات وتصميم .. ورغبة منى فى تعزيز أحكامى ، طلبت الى الجنرال سُمُطْس ، ان يطير من جنوب افريقية الى القاهرة ، وقد كان فى انتظارى فى دار السفارة حينما وصلت اليها ثم قضينا فترة الصباح معا حيث حدثته خلالها عن كل متاعبنا ومجالات الخيار المتفتحة أمامنا وبعد الظهر عقدت اجتماعا طويلا مع « أوكلنك » الذى بسط لى الوضع العسكرى بصورة جلية واضحة وبعد ظهر اليوم التالى وصل الجنرال « ويفل » قادما من « الهند » وفى السادسة مساء عقدنا مؤتمرا لشئون الشرق الأوسط شهده «سمطس وكيس» الذى كان قد خلف ليلتون فى وزارة الدولة فى الشرق الأوسط، والجنرال « بروك » رئيس أركان الحرب و « ويفل وأوكلنك » والأميرال «هاروود ماريشال الجونيدر» وقد أنهينا كثيرا من الأعمال بالاجماع ولكن عقلى ظل مشغولا طيلة الوقت بالموضوع الأساسى وهو القيادة .

ولا يستطيع الانسان أن يعالج مثل هذه التغييرات دون أن يستعرض الحلول البديلة وكان رئيس أركان الحرب ــ الذى يحتم عليه واجبه تقدير كفايات جنرالاتنا ــ مستشارى الخاص فى هذا الجزء من

المشكلة . وقد عرضت عليه أولا . أن يتولى قيادة الشرق الأوسط وكان الجنرال « بروك » يود من صميم قلبه أن يتولى هـذه القيادة العملية ، ولكنت أعلم أنه ليس هناك من يفضله فى توليها وقد فكر « بروك » فى الموضوع طويلا ، وتحدث فى الصباح التالى طويلا الى الجنرال سمطس ، ورد أخيرا : بأنه تولى رئاسة الاركان العامة منذ ثمانية أشهر فقط . وهو يعتقد أنه متمتع بكامل نقتي وان جهاز الأركان يسير سيرا مرضيا ، وأعرب عن اعتقاده بان أى تغيير فى هذه اللحظة ، قد يحدث انفصاما مؤقتا فى هذا الوقت الحرج . هـذا بالاضافة الى أنه ــ لأسباب تتعلق بالذوق واللياقة لا يود أن يكون مسئولا عن التوصية بتنحية الجنرال « أو كنلك » عن قيادته وان يتسلم هو مقاليد القيادة بدلا منه . وكانت سمعته ترتفع فوق مستوى هذه الاتهامات والاعتبارات ، ولكن تحتم على أن أتطلع الى ناحية أخرى بحثا عن القائد الجديد .

وكان «اليكسندر» «ومونتجومرى» قد اشتركا معه فى المعركة التى تراجعنا فيهـا الى « دنكرك » فى عام ١٩٤٠ وكنا معجبين سويا بالخطة القوية التى قام بها «اليكسندر» فى الحملة اليائسة التى عهد اليه أمرها فى بورما ، بيد أن سمعة مونتجومرى كانت طيبة تضرب فى آفاق الرفعة والسمو ، فاذا قررنا تنحية « أوكنلك » فليس ثمـة شـك فى أن «اليكسندر» هو الرجل الذى يجب أن يحمل العبء فى الشرق الاوسط. ولكن مشاعر الجيش الثامن ينبغى ألا نتجاهلها أو نغفلهـا على أن اختيـار رجلين من انجلترا متخطين الرجال البسلاء الذين خاضوا معركة الصحراء يعد بمثابة تحد لشعورهم على اختلاف رتبهم فهذا هو الجنرال «جوت» ــ وهو قائد أحد الفيالق ــ أفضل من يصلح لقيادة هـــذا الجيش ، والقوات تدين له بكثير من الاخلاص ، ولم تلقبه عبثا «بقاذف القنابل» وقد كان هنـــاك رأى نقله الى «بروك» هو انه مُنهـك ويحتاج الى الاستجمام ، وكان اتخاذ هـذه القرارات بمثل هذه السرعة أمرا سـهلا بعد أن قطعت هذه المسـافة الطويلة كلها حتى تتاح لى الفرصـة لأرى وأسمع كل شىء يمكن الحصول عليه وتدبيره فى ذلك الوقت .

ولقـد كان كرم سفيرنا السير « مايلز لامبسون » وضيافته فى غاية الروعة فقد قدم لى حجرة نومه المكيفة ، ومكتبه المكيف للعمل فيه ، وكان الجو حارا للغاية وهاتان الغرفتان الوحيدتان فى المنزل هما اللتان بهما أجهزة التكييف ، ولم يكن هناك منغصات عدا حرارة الجو ــ خلال ذلك الأسـبوع الذى أمضـيناه فى استكشاف الأجـواء والاستماع للآراء

وزيارة الجبهة والمعسكرات الكبرى شرقى القاهرة فى القصاصين حيث كانت النجدات القوية تتدفق باستمرار .

وفى الخامس من شهر أغسطس قمت بزيارة مواقع العلمين وتوجهت بسيارة الجنرال « أوكنلك » الى النقطة التى تقع الى أقصى الجناح الأيمن للخط ، الى الغرب من « الرويسات » ومن هناك مضينا على طول الجبهة الى مقر قيادته وراء صخور الرويسات حيث تناولنا الافطار فيما يشبه المكعب تحيط به الأسلاك الشائكة ويمتلىء بالذباب والشخصيات العسكرية الهامة ، وقد وددت لو رأيت عددا من الضباط وفى مقدمتهم ، الجنرال قاذف القنابل ، «جوت» فقيل لى : انه كان منهمكا فى خدمته العسكرية الشاقة ، وكان هذا كل ما اردت ان أعلم ، وبعد أن تعرفت الى مختلف قادة الفيالق والفرق الحاضرين ، طلبت أن يرافقنى الجنرال «جوت» بالسيارة الى المطار ـ وهو المركز الثانى الذى سأتوقف فيه ـ وقد اعترض أحد ضباط أركان حرب « اوكنلك » بأن هذا سيبعد الجنرال بعض الوقت عن مكان عمله ، ولكنى أصررت على وجهة نظرى ، وكانت تلك هى مقابلتى الأولى والأخيرة لجوت ، على حين كانت السيارة تصعد بنا وتهبط الطرق الوعرة ، تطلعت الى عينيه الزرقاوين الهادئتين وسألته عما اذا كان مجهدا أو لديه آراء يود الافضاء بها ، فرد جوت انه بلا شك مجهد وانه يود أن يمضى الى انجلترا ، التى لم يشاهدها منذ بضع سنوات فى اجازة تستغرق ثلاثة اشهر ولكنه أبدى ـ مع ذلك ـ مقدرته على القيام بأية مجهودات ـ عاجلة أخرى ، فضلا عما يتحمل من مسئوليات قد توكل اليه ، وافترقنا فى المطار فى الساعة الثانية بعد ظهر الخامس من أغسطس ، وبعد يومين قتل فى الساعة نفسها تقريبا برصاص العدو فى المنطقة الجوية التى كنت اطير فيها حينئذ ..

وقد عهد الى نائب ماريشال الجو كننجهام برعايتى ـ وهو الذى كان يتولى رياسة كل القوات الجوية التى عملت مع الجيش فى ظل قيادة تيدر ، وهى القوات التى لولا نشاطها ما أمكن تحقيق ذلك التراجع العظيم مسافة خمسمائة ميل دون ان تنزل بنا الكوارث التى تفوق فى شدتها تلك التى تحملناها حتى الآن ـ وقد طرنا فى ربع ساعة الى مقر قيادته حيث اعد لنا الغداء واجتمع كبار الضباط من قائد جناح فما فوق وأحسست بالتوتر يسود كل الضباط منذ اللحظة التى وصلت فيها .. ولا يفوتنى أن أشير الى أن الطعام كان قد طُلب من فندق

شبرد فى القاهرة ، وقد حملت سيارة خاصة الطعام من الفندق ، غير أنهـا ضلت الطريق وبُذلت مجهـودات مضنية للعثور عليها ولكنها وصلت اخيرا .

وكانت مناسبة سارة وسط جو صاخب من الهجوم والمتاعب .. أجل لقد كانت واحة حقيقية وسط صحراء كبرى مترامية الاطراف ، وكان يسيرا على المرء أن يرى حرج وضع السلاح الجوى بالنسبة للجيش وما اعترى سلاحنا الجوى من دهشة للهزائم التى تعرضت لها قواتنا المتفوقة ، وعدت فى المساء الى القاهرة ، ونقلتُ مشاهداتى الى المستر اتلى ، وقضيت اليوم التالى كله — وهو السادس من اغسطس — مع « بروك وسمطس » ، وفى اعداد البرقيات اللازمة للوزارة ، كانت المسائل التى يتحتم علىّ البت فيها عاجلا لأتناول كبار القادة فحسب ، بل جهاز القيادة باكمله فى هذا المسرح الواسع ، وكنت أشعر دائمـا ان اختيار اسم « الشرق الأوسط » لمصر وسوريا وتركيا ، كان اختيارا سيئا ، فهذه المنطقة هى الشرق الادنى ، أما ايران والعراق ، فهمـا يؤلفان الشرق الأوسط ، على حين تكون الصين واليابان الشرق الأقصى ، وقـد بدا الى أن هنـاك ما هو أهم من تبديل الاسماء الوهمية .. وهو « تجزئة قيادة الشرق الأوسط الحالية » ، نظرا لاتساعها وشمولهـا آفاقا رحبة شاسعة ، وقد حانت الساعة المناسبة لتحقيق هذا التعديل فى التنظيم ، ولهـذا أبرقت فى الثامنة والربع مسـاء الى المستر أتلى بالبرقية التالية :

١ — توصلت الى نتيجة تدعو الى اجراء تغييرات جذرية عاجلة فى القيادة العامة .

٢ — ولهذا اقترح ان تنظم قيـادة الشرق الأوسط الحالية فى قيادتين مستقلتين هما :

(آ) قيادة الشرق الأدنى وتشـمل مصر وفلسطين وسورية على أن تكون القاهرة مقرها ..

(ب) قيادة الشرق الأوسط وتشمل ايران والعراق ، على أن يكون مركزها البصرة أو بغداد ..

وتشـمل القيادة الأولى : الجيش : الثـامن والتاسع على حين تشمل القيادة الثانية الجيش العاشر ..

٣ ــ يعرض على الجنرال « اوكنلك » تــولى القيادة العامة الجديدة للشرق الأوسط .

٤ ــ يتولى الجنرال اليكســندر القيــادة العامة فى الشرق الأدنى .

٥ ــ يخلف الجنــرال « مونتجومرى » الجنــرال « اليكسندر » فى قيادة عملية « المشــعل » وانى لآسف لاضطرارنا الى نقل « اليكسندر » من قيادة « المشــعل » ولكن مونتجومرى جدير بأن يخلفه فى تلك القيادة لكفايته . .

٦ــ يتولى الجنرال «جوت» قيادة الجيش الثــامن تحت امرة اليكسندر » .

تكون هذه الاقتراحات التغييرات الاساسية التى يقتضيها حــرج الوضع وأهميته وأكون شاكرا لزملائى أعضــاء وزارة الحرب ، اذا ما وافقوا على هذه الاقتراحات ويريد «سمطس» ورئيس الاركان العامة أن أبلغكم انهما متفقان معى كل الاتفاق على أن هذه الاقتراحات تنطوى على خير السبل التى يجب أن نتبعها فى مثل هذه الحالة التى تحيط بهــا المتــاعب الكثيرة وفى خضم هذه الحلول المختلفة البديلة ، وافق وزير الدولة أيضا على هــذه الاقتراحات موافقة تامة ولا ريب عنــدى فى أن هذه التغييرات ستحفز الجيش وتعيد اليه الثقة فى قيادته ــ وهى الثقة التى فقدت فى الوضع الحاضر مع عميق الاسف ــ وارى لزاما على أن أؤكد هنا ضرورة ايجــاد بداية جديدة وعمل عنيف لبعث الحيوية فى هذه المنظمة الضالة الواسعة .. ولن تحقق وزارة الحرب ــ فيما اعتقد ــ فى ادراك مغزى هذا الانتصار على رومل فى أغسطس أو سبتمبر وادراك آثاره الحاسمة على موقف الفرنسيين فى شمالى افريقية عندما تبدأ عملية « المشعل » .

وقد وافقت وزارة الحرب على آرائى فى التغيــيرات الجذرية العاجلة وهى التى أدخلتها فى القيــادة العامة ــ ورحب أعضاؤها ترحيبا حارا باختيار الجنرال «اليكسندر» قائلين : انه سيغادر انجلترا فورا ــ بيــد أنهم ــ على كل حال ــ لم ترقهم فكرة تجزئة قيــادة الشرق الأوسط الى قيادتين منفصلتين ، وبدا لهم أن الأسباب التى حملتنا على تقرير قيــادة موحدة ، أقوى اليــوم مما كانت عليه ، عندما اتخذ القرار فى ديسمبر عام ١٩٤١ ، ووافقوا على أن يحل مونتجمرى محل اليكسندر فى

قيادة « المشعل » واستــدعوه للمجيء الى لنــــدن فورا ، وأخيرا تركوا لى موضوع البت فى بقية التعيينات ٠

وفى صباح اليوم التالى أرسلت توضيحا آخر لاقتراحاتى ،وردت وزارة الحــرب بأن برقيتى الجــديدة لم تستأصل كل مخاوفها ، بيــد أننى لما كنت فى الميــدان ومعى « سمطس » ورئيس الاركان ــ اللذان وافقــا على اقتراحى كانت الوزارة على اســتعداد تام للموافقـــة على ما أبديت من اقتراحات وان كانت قد أوضحت بشــكل قاطع ، أن استمرار الجنرال «أو كنلك» فى حمل لقب القائد العام للشرق الأوسط فى حالة اختياره لتولى القيـــادة فى ايران والعراق ، سيؤدى الى شىء من الارتبــاك وسوء المصير ، وقد رأيت أن الوزارة على حق فى رأيهـــا فأخذت بنصيحتها ..

وقد قضيت طيلة اليوم السابع من أغسطس فى زيارة « الفرقة الحادية والخمســين الجبلية » التى كانت قد وصلت حالا الى مصر على حين كنت أصعد سلم السفارة بعد العشاء قابلت العقيد « ايان جاكوب » الذى غــدا السير « ايان » ، فقال لى العقيد : انها لأنباء سيئة عن جوت ، فقلت : وماذا حدث له ؟ : «لقد أسقطوا الطائرة التى استقلها الى القاهرة بعد ظهر اليوم » وقد اعترانى الأسى والألم لفقدان هــذا الجندى الممتاز الذى قررت أن أسند اليه القيـــادة المباشرة فى المعركة الـكبرى المتوقعة ، وهكذا اضطربتْ كل الخطط التى وضعتهــا ، فقد كان تعيين « جوت » لقيادة الجيش الثامن ــ بما عرف عنه من خبرة فى حــرب الصـــحراء ومكانة حربية ممتـــازة ــ يوازى تنـــحية « أوكنلك » عن القيادة العامة ، ليخلفه فيها اليكسندر فمــــاذا أصنع الآن ؟ ٠ ولم يساورنى شك فى من يجب ان يخلفه فابرقت الى المستر اتلى اقول : « يوصى رئيس الاركان العامة توصية شديدة بتعيين مونتجومرى قائدا ــ للجيش الثــــامن ، وأشعر أنا وسمطس بضرورة ملء هــذا المنصب فى الحال ٠٠ أرجو ايفــاده فى طائرة خاصة فى أسرع وقت ٠ واخبــارى بموعد وصوله » ٠٠

وقد بدا أن وزارة الحــــرب اجتمعت فى الحادية عشرة والربع من مساء السابع من أغسطس لدراسة البرقيات التى بعثت بهــا فى ذلك اليوم ، والتى تم حل رموزها ، وكان المجلس لا يزال يناقش هــذه البرقيات عندما دخل قاعتهم أحد السكرتيرين حاملا الرسائل الجـديدة القائلة : «ان جوت قد قتـــل» .. وانني اطلب ارســـال الجنرال

مونتجومرى فورا الى القاهرة ، وقيل لى : ان تلك اللحظة كانت شاقة على أصدقائنا فى « داوننج ستريت » ولكنهم تحملوا الصدمة الجـديدة ، كما تحملوا ما سبقها من صدمات فى حزم وشجاعة وواصلوا الاجتماع حتى قبيل الفجر ، ووافقوا على كل النقط الرئيسية التى اقترحتها وأصدروا الأوامر اللازمة بشأن مونتجومرى .

وحينما أرسلت رسالتى الى وزارة الحرب ، ابلغها فيها بمصرع « جوت » طلبت من الزملاء عدم ابلاغ الجنرال ايزنهـــاور بأننــا كنا نعتزم اعطاءه مونتجومرى بدلا من اليكسندر ، بيد أن هذه الرسالة جاءت متأخرة ، اذ كان النبأ قـد نقـل اليه : ان التغيير الجديد للخطة ، كان ينطوى على نوع مزعج من الارتباك لعملية « المشعل » فقد اختير الجنرال اليكسندر لتولى قيادة الجيش البريطانى الأول فى هـــذه العملية الكبيرة الضخمة وكان قد بدأ يعمل فعلا مع الجنرال ايزنهاور وقد تفاهما تفاهما رائعا والآن .. ها نحن أولاء ننتزع منه « اليكسندر » لتولى قيادة الشرق الأوسط ، ثم نوفد الجنرال « ايســماى » الى ايزنهاور لينقل اليه النبأ مع تقديم اعتذارى عن انقطاعى من مراســلته ، ـ ووجود بعض الاضطراب وليس لهما من علة الا طبيعة الحرب ومقتضياتها وقد ركز « ايســـماى » حـــديثه على المواهب التى يتمتع بهـــا « مونتجومرى » كقائد فى الميدان ، ووصل مونتجومرى على الفور الى مقر قيادة ايزنهاور ، وتمت كل الاجراءات التى يتطلبها اجتماع مثل هـــذا بين قائدى جيشين يمتان الى شعبين مختلفـين ، وان كانا قد ادمجا للقيام بعملية واحدة ، وفى صباح اليوم التالى أى فى الثامن من اغسطس أصبح من الضرورى ابلاغ ايزنهـــاور بما يتحتـــم على مونتجومرى فى ذلك اليوم من الطيران الى القاهرة لتولى قيادة الجيش الثامن ، وقد اختير « ايسماى » أيضا لأداء هذه المهمة وكان ايزنهاور رجلا واسع الأفق متفانيا فى أداء الخدمات ، عمليا ، يعالج الأحـداث على ضوء الواقع دون تأثر وفى غاية الهدوء ، ومع ذلك فقد أزعجـه دون شك وقوع هذين التغييرين فى يومين متتاليين فى هـــذا المنصب الهام ، وهو مرتبط بعملية عهد اليه بترتيبها وقيادتها ، وها هـو ذا يجـد نفسه مضطرا الآن الى الترحيب بقائد بريطانى ثالث ، ولا عجب أن رأيتـــاه يسأل « ايسـماى » : هـــل البريطانيون جادون فى عملية « المشعل » ؟ . ومع ذلك فقد كان موت « جوت » حقيقة حربيـــة يعيها ويفهمها جيـدا كل جندى ممتاز ، وقد اختير الجنرال «اندرسون» لشغل المنصب ، ومضى « مونتجومرى » الى المطار مع « ايسماى »

الذى مكث معه زهاء ساعة ليحيطه علما بأسباب هـــذه التغييرات المفاجئة ..

وقد رويت قصة عن هذا الحديث لم تتحقق مع الأسف ، فقد قيل ان مونتجومرى قد تحدث عن المتاعب والمخـاطر التى يتعرض لها الجندى فى حياته وذكر أن الجندى يكرس حياته كلها لمهنته وعمله ، ويقضى سنوات طويلة فى الدراسة وضبط النفس ، وها هو ذا يبتسم له الحظ ، فقد أطلّت عليه اشراقة من النجـاح ، وحقق انتصـارا ، وها هى ذى الفرصة تواتيه فيمنح قيادة عظمى ، وقد انتصر ، وغدت شهرته تملأ الآفاق وأصبح اسمه على كل لسان ، ثم تنكر له الحظ فانهار كل ما بناه فى حياته وربما لا يكون هذا نتيجة هفوة هفاها ، ولكن سـوء الحظ يأبى الا أن يسـجل اسمه فى سـجل العسـكريين الفاشلين وهنا قاطعه « ايسماى » محتجا : « ينبغى ألا تحمل الأمور على هذا المحمل السيىء فهناك جيش عظيم يحتشـد الآن فى الشرق الأوسط ، ومن المحتمل ألا تنتهى الى كارثة : وهنا صاح مونتجومرى ــ وهو يجلس فى سـيارته ــ : ماذا تقول ؟ .. ماذا تعنى ؟ .. لقد كنت اتحدث عن رومل ..

***

وقد تحتم علىّ حين ذاك أن ابلّغ الجنرال « اوكنلك » نبأ تنحيته عن القيادة ولما كنت قد تعلمت من دروس الماضى وعبره ، ان من الأفضل أن يكون مثل هذا العمل المزعج كتابة لا مشافهة فقد أرسلت اليه مع العقيد « جيكوب » الرسالة التالية :

القاهرة ــ ٨ من اغسطس سنة ١٩٤٢ .

عزيزى الجنرال أوكنلك :

١ ــ لقد أثرت فى برقيتك الموجهة الى رئيس أركان الحرب فى الثالث من يونيو موضوع رغبتك فى ترك هـذه القيادة ، ورشـحت الجنرال اليكسندر لتوليتها ولم ترغب حكومة جلالتك فى ذلك الوقت العصيب ــ الذى يمر به الجيش ــ فى الافادة من هذا العرض الذى ينطوى على اصـالة رأى وفى الوقت نفسه توليت قيادة المعركة فعـلا ــ كما كنت أرغب منذ عهد بعيد ــ وكما اقترحت عليك فى برقيتى بتاريخ ٢٠ من

مايو وقد تمكنت من ايقاف التيار المضاد ، وغدت الجبهـــة الآن مستقرة .

٢ ــ وقد قررت وزارة الحرب الآن ــ للأسباب التى ذكرتها انت ــ أن الفرصة غـــدت مواتية لاجـــراء تغيير ، واقتراح : فصل العراق وايران عن القيادة الحالية للشرق الأوسط ، وتقرر أن يتولى اليكسندر قيادة الشرق الأوسط على أن يتــولى مونتجومرى قيـــادة الجيش الثـــامن ، وهأنذا أعرض عليك قيادة العراق وايران مع الجيش العاشر، على أن يكون مقر قيادتك فى البصرة أو فى بغداد . وفى الواقع يعتبر هذا الميدان فى الوقت الحاضر أصغر من ميدان الشرق الأوسط . ولكنه قد يُضْحىَ فى خلال عدة شهور ، مسرحا لعمليات حربية حاسمة ، وها هى ذى الامدادات فى طريقها الآن للجيش العاشر ، وستحافظ على ارتباطك بالهنـــد فى هذا الميدان الذى خبرته من قبل ، وانى لآمل ــ بنـــاء على ذلك ــ أن توافق على توجيهاتى ورغبتى هذه ، بما نعهد فيك دائما من روح عالية ورغبة فى الخدمة العـــامة ومن المرتقب أن يصل اليكسندر فورا ، كما آمل أن يتم فى أوائل الأسبوع المقبل تحول المسئولية فى جبهات القتال الغربيـــة بمنتهى اليسر والفاعلية ، مع توقف كل شىء على حركات العدو .

٣ ــ يسرنى جدا أن أراك فى أى وقت يناسبك ، متى رغبت فى ذلك ..

صدّقنى
انى المخلص لك
ونستون ٠١٠ س . تشرشل

ملاحظـة :

لقد كلفت العقيد جيكوب ، حامل رسالتى هذه ، بأن يعرب لك عن تعازى الخالصة بفقدنا المفاجىء للجنرال جوت .

وفى المساء عاد « جيكوب » وكان أوكنلك قد تلقى هذه الضربة بما ينبغى أن ــ يقابلها به من كبرياء رجل عسكرى ، ولم يكن راغبـا فى

قبول القيادة الجديدة ، وقد ذكر للعقيد انه سيحضر لمقابلتى فى اليوم التالى . وكتب العقيد فى يومياته يقول :

لقد استيقظ رئيس الوزراء من نومه فى الساعة السادسة وكان علىّ أن انقل اليه ما أمكننى ـ تفصيل ما دار بينى وبين الجنرال أوكنلك ، وقد انضم الينا رئيس الأركان العامة للامبراطورية .. ان عقل رئيس الوزراء مُركّز على شيء واحد هو أن نهزم رومل ، وأن يتولى الجنرال اليكسندر المسئولية الكاملة عن العمليات فى الصحراء الغربية ، وهو لا يستطيع أن يفهم ، كيف يستطيع الرجل أن يظل فى القاهرة ، على حين تقع أحداث كبرى فى الصحراء تاركا ادارة المعركة لشخص آخر سواه . وكان الرئيس يذرع الغرفة جيئة وذهابا وهو يردد هذه النقطة . مصمما على تنفيذ ما يريد ، ثم صاح فجأة : « رومل .. رومل » أهناك أمر ما يهمنا سوى أن نهزمه ؟ ..

وبعد الظهر بقليل وصل الجنرال أوكنلك الى القاهرة وتحدثنا ما يقرب من ساعة حديثا بدا على الفور فاترا بالرغم من أنه كان بعيدا عن الاخطاء . وفى ذلك المساء اقبل الجنرال اليكسندر لمقابلتى واتخذتُ الترتيبات النهائية للتغيرات التى حدثت فى القيادة ، ونقلتُ كل هذه النتائج الى لندن فى برقية اعتقد أن الفقرة التالية منها مهمة غاية الاهمية .

وجهت الى الجنرال اليكسندر التوجيه التالى الذى جاء موافقا لرغباته وحائزا لموافقة رئيس أركان الحرب ..

١ ـ ان واجبك الأول الأساسى هو : أن تأسر أو تدمر الجيش الالمانى الايطالى الذى يقوده الفيلد ماريشال رومل ، مع كل ما لديه من تجهيزات ومؤسسات فى مصر وليبيا فى اقرب فرصة ممكنة .

٢ ـ ستتولى ادارة وتنفيذ كل ما يتعلق بقيادتك من واجبات على ألا يؤثر عملك هذا على الواجب المنصوص عليه فى الفقرة الأولى ، وهو ما ينبغى أن يكون فى صدر مصالح جلالته .

وقد يكون من الممكن ـ فى مرحلة لاحقة من الحرب ـ عدم تأكيد هذا التوجيه ، ولكننى واثق من أن البساطة فى تحديد المهمة ووضوح الهدف هما شرطان أساسيان فى الوقت الحاضر .

وقد وافانا « اليكسندر » برده بعد ستة اشهر ، وسنتحدث عنه فى حينه .

مؤتمر الدار البيضاء

بما أن اقرار عملية « المشعل » قد وضع حداً لكل أمل فى القيام بعملية عسكرية رئيسية لعبور قناة المانش فى فرنسا المحتلة عام ١٩٤٣ ، وهو ما أيدته الدوائر العليا ، واقتنع به الرأى العام العسكرى الامريكى كافة .

ولما كنت غير ميال لتأييد هذا الرأى ، لأنى كنت لا أزال آمل فى أن تسقط دويلات الشمال الأفريقى (الفرنسى) بما فيها تونس ، بعد قتال لا يتعدى بضعة أشهر ، وفى مثل هذه الحالة قد يصبح غزو فرنسا المحتلة شيئا محتملا فى شهر يوليو أو شهر أغسطس عام ١٩٤٣ .

لهذا فقد كنت أود أن أرى اعداد القوة العسكرية الأمريكية فى بريطانيا يسير جنبا الى جنب مع عملية « المشعل » وذلك طبق امكانياتنا الملاحية ، وكانت مستلزمات الحرب تقتضينا أن نخوضها بكل قوتنا ، حتى ترغم العدو على اتخاذ موقف الأهمية والاستعداد لتلقى الضربات التى تنهال عليه منا ، وسوف تقرر الأحداث وحدها ما اذا كان من حظنا أن نعبر القناة ، أو أننا سنتابع السير وراء طبيعة قواتنا فى البحر المتوسط ، أو نقوم بالعمليتين فى وقت واحد .

وكان من الضرورى لمصلحة العمليات الحربية فى جملتها ــ ولا سيما لمساعدة روسيا وعونها ــ أن تدخل جيوش بريطانيا وأمريكا من الغرب أو من الشرق فى السنة القادمة .

وكان هناك خطر من ألا نتمكن من القيام بأى عمل من العملين فى السنة نفسها ، فحتى لو سارت حملتنا ــ لاحتلال الجزائر وتونس ــ سيرا مرضيا وسريعا فاننا سنجد أنفسنا مضطرين للموافقة على احتلال سردينيا أو صقلية ، أو كليهما وأن نؤجل عبور المانش حتى عام ١٩٤٤ ، وقد يعنى هذا اضاعة عام كامل على الحلفاء الغربيين ، مع وجود نتائج قد تكون قاضية

لا بالنسبة على وجودنا ، بل الى النصر الحاسم ، ولم تكن على استعداد لأن نخسر خمسمائة ألف أو ستمائة ألف طن من الحمولة الملاحية فى كل شهر الى ما لا نهاية ، وكان أمل المانيا الوحيد أن ترانا فى حال من التوقف والجمود •

وكان رؤساء أركان الحرب البريطانيون يدرسون جميع هذه الخطط حتى قبل أن نعرف نتائج معركة العلمين ، أو ما سوف يحدث لحملة « المشعل » وقبل أن تظهر نتائج المعركة الرهيبة الدائرة من أجل احتلال مداخل القوقاز ، وكان واضعو الخطط الحربية مشغولين معهم أيضا ، وكانت تقاريرهم فى رأيى سلبية وكنا على جانبى المحيط الأطلنطى ندنو من مرحله جمود مشتركة •

وكانت القيادة البريطانية تؤيد الاتجاه الى البحر الأبيض المتوسط والقيام بهجوم على سردينيا وصقلية مستهدفا ايطاليا ، اما خبراء الولايات المتحدة فقد فقدوا كل أمل فى عبور القناة فى عـــام ١٩٤٣ ، الا أنهم فى الوقت نفسه كانوا غير راغبين فى اقحام أنفسهم « فى منطقة البحـــر الأبيض ، فى مشروعات قد تحول بينهم وبين تحقيق مشروعهم العظيم فى عام ١٩٤٤ •

هــــذا وقد كتبتُ فى شهر نوفمبر أقول : (يبدو لى أن مخـــاوف الأمريكيين جميعها ستتضاعف بالنسبة لمخاوف البريطانيين ، وهى مخاوف يسهم فيها كل فرع من فروع قواتنا المسلحة اسهاما فعالا) •

وسيقال دون شك ، أن سير الأحداث قد برهن على أن نظرتى الى الآمال المترتبة على الاحتمالات فى الشمال الافريقى كانت مغرقة فى التفاؤل ، وأن القيادة الأمريكية كانت على حق فى الاعتقاد بأن قرار « المشعل » الذى اتخذناه فى شهر يوليو ، قد أغلق الطريق على احتمال نجــاح عبور القناة فى عام ١٩٤٣ ، وبالفعل كان هذا ما حدث تماما •

ولم يكن من المتوقع فى هذا الوقت أن يبذل هتلر مجهودا كبيرا فى تعزيز الجناح التونسى ، حيث أرسل ما يزيد على مائة ألف من خيرة جنوده بطريق الجو والبحر ، وذلك على الرغم من الخسائر الفادحة التى مُنى بها ، وكان هذا العمل من جانبه خطأ استراتيجيا جسيما ، وكانت خطوته هذه سببا فى تأخير انتصارنا فى افريقيا عدة أشهر ، ولو أنه حافظ على القوات التى تم أسرها فى شهر مايو لكان بامكانه أن يعزز بها جبهتـــه

المتدهورة في روسيا ، أو يحشد جزءا منها في نورماندى تؤخرنا عن الزحف حتى لو قررنا النزول فى عام ١٩٤٣ ٠

وليس هناك الآن من يشك فى أن القرار الذى اتخذناه بالانتظار حتى عام ١٩٤٤ كان قرارا حازما ٠

وانى لأشعر بارتياح لأننى لم أخدع ستالين أو أضلله ، فقد بذلت كل ما وسعنى من جهد ، ومن جهة أخرى ، فلو أننا غزونا البر الأوروبى من البحر الأبيض المتوسط فى المرحلة المقبلة ، وأصبحت الجيوش الانجليزية الأمريكية فى حالة اتصال كامل مع العدو ، فاننى كنت راضيا بما سيفرضه القضاء والقدر ٠

وقد قُدِّرَ لنا أن نصاب بنكسة وتَوقُّف فى الشمال الأفريقى ، وعلى الرغم من أننا كنا نتمتع بعنصر المبادأة والمباغتة ، الا أن اعداد قوتنا كان بطيئا بسبب قيود الملاحة الشديدة التى فرضت علينا ، وكانت عمليات التفريغ تتعرض لغارات جوية عنيفة فى ميناءى الجزائر وعنابه ، كما كنا نفتقر الى وسائل النقل البرى أيضا ، وكان الخط الحديدى الوحيد على الساحل الذى يمتد الى مسافة خمسمائة ميل فى وضع سيىء للغاية ، اذ يمتد فوق مئات الجسور الكبيرة والصغيرة التى يمكن تدميرها ونسفها هذا وقد بدأت مقاومة عنيفة من الطراز الأول عندما وصلت أعداد كبيرة من جنود المانيا الى تونس بطريق الجو ، وكان عدد الجنود الفرنسيين الذين انضموا الآن الى جانبنا لا يقل عن مائة الف ، وكان معظمهم من جنود المستعمرات ، وهم محاربون ممتازون ولكنهم يفتقرون الى العتاد الجيد والتنظيم والادارة ٠

هذا وقد دفع الجنرال ايزنهاور الى الأمام بكل ما تحت امرته من وحدات أمريكية ، ودفعنا نحن بكل ما لدينا من قوة ، وقد تمكن لواء بريطانى من المشاة فى الثامن والعشرين من شهر نوفمبر « بمعونة بعض رجال الفرقة الأمريكية المدرعة الأولى » من الوصول الى الحديدة ، التى تقع على بعد اثنى عشر ميلا من تونس ، وكان هذا ذروة معركة الشتاء ٠

وحل الآن فصل الأمطار ، وأخذت السماء تمطر مدرارا ، حتى أصبحت مطاراتنا المؤقتة غير صالحة لهبوط الطائرات اطلاقا . وكان سلاح الجو الألماني على الرغم من ضآلة عدده يعمل من مطارات صالحة لجميع الأجواء ٠

وفي اليوم الأول من شهر ديسمبر قام الالمان بهجوم مضاد ، أحبطوا به الهجوم الذي كنا نعد له العدة ، مما اضطرنا في خلال بضعة أيام الى التراجع نحو المجاز ، ولم يكن في الامكان ايصال المؤن الى القوات الأمامية عن طريق البحر الا على نطاق ضيق ٠ وكان من الصعب مدها بحاجاتها ، ولم يكن في امكاننا أن نشن هجوما من جديد حتى الثاني والعشرين من شهر ديسمبر حيث بدأنا الهجوم الذي لقي نجاحا أوليا ، الا أنه عند الفجر توالى نزول الأمطار واستمرت ثلاثة أيام حتى تعطلت مطاراتنا وغدت غير صالحة للعمل ، كما أن السيارات لم يكن في وسعها أن تتحرك الا على طرق سيئة ٠

ولهذا قرر الجنرال ايزنهاور في مؤتمر عقده عشية عيد الميلاد ، التخلي عن خطته لاحتلال تونس ، وأن يحاول حماية مطاراته الأمامية في المنطقة التي احتلها ، حتى يحين موعد شن الهجوم من جديد ، هذا وقد استمر الالمان في تعزيز قواتهم في تونس ، على الرغم من الخسائر الكبيرة التي عانوا منها بحرا ، ولم تحل نهاية شهر ديسمبر حتى كانت قواتهم قد بلغت خمسين ألفا ٠

وكان الجيش الثامن في أثناء ذلك قد قطع مسافة هائلة ٠ وكان رومل قد تمكن من سحب قواته المحطمة من العلمين ، وظل الضغط مستمرا على قوات مؤخرته الا أن المحاولة التي بذلتها قواتنا للوصول قبله الى الجنوب من بنغازي قد مُنيت بالفشل ، وبذلك تيسر لرومل أن يستريح بعض الوقت في العقيلة ، في حين اضطر مونتجمرى بعد تقدمه الطويل الى مواجهة نفس المصاعب في النقل والتموين التي عاني منها أسلافه ٠ وفي الثالث عشر من ديسمبر ، تمكنت الفرقة النيوزيلندية الثانية من زحزحة رومل عن مواقعه ، حتى أصبح طريقه مهددا بالانقطاع بسبب الحركة الالتفافية الواسعة التي قامت بها الفرقة المذكورة ، بعد أن مُني بخسائر فادحة أنزلها به سلاحنا الجوى حيث واصل هجماته على طرق المواصلات الساحلية ، ولم يكن في استطاعة مونتجمرى أن يتابع المطاردة في أول الأمر الا بالقوات الخفيفة ، وكان الجيش الثامن قد قطع مسافة الف ومائتى ميل منذ معركة العلمين ، واحتلت قواته « سرته » مع مطاراتها يوم عيد

الميلاد ، ثم تقدمت الى مركز رومل الرئيسى فى البويرات فى نهـــاية العام •

هـذا وقد أعدت لجنة رؤساء أجهزة القيادة فى هذه الأثناء مذكرتين أرسلتهما الى وزارة الحرب ، أوضحت فيهما آراءهما المدروسة المتعلقة بالاستراتيجية المقبلة ، وأكدت فى النتائج التى توصلت اليها وجـــود خلافات كثيرة فى وجهات النظر بين أعضائها وبين زملائهم الأمريكيـين ، وكانت هذه الخلافات منصبة على الأفضلية • أكثر منها فى موضـــوع المبـدأ ، وكان رؤساء أركان الحرب البريطانيين أن أفضل سياسة هى متابعة عملية « المشعل » بحماسة ونشاط ، والاستعداد التام لعبور القناة فى عام ١٩٤٣ ، ان أمكن ، فى حين كان من رأى رؤساء أركان الحـرب الأمريكيين بذل غاية الجهد فى محاولة عبور القناة والصمـود فى شـــمالى افريقيا ، وهكذا غدت القضية معقدة ، ولم يكن فى الامكان حلها الا باجتماع أعقده مع الرئيس ، ولذا قررنا بعد نقاش طويل أن نجتمع فى الدار البيضاء لبحث الموضوع والبت فيه . وذهبت الى هناك فى الثانى عشر من ينـــاير عام ١٩٤٣ ، وكانت رحلتى مشـوبة ببعض القــلق ، وكان المسئولون عن طائرتنا « الفدائى » قد أعدوا مدفأة غازية لتوليد الحرارة ، وكانت قوتها شديدة ، وقد أفقت من نومى فى الساعة الثانية صباحا وكنا فوق الأطلنطى على بعد خمسمائة ميل من أقرب نقطة برية ، واحسست بالحرارة تحرق أصابع قدمى وخيل الى أنها ستبلغ حد الاحتراق بعـــد قليل وتشعل النار فى الفراش ، ولهذا فقد أيقظت بيتر بورتال ، الذى كان نائما فى مقعده ووجهت نظره الى الجهة المنبعثة منها الحرارة ، وهبطنا معا الى المكان الذى تحفظ فيه القنابل فى الطائرات ، حيث كانت الطائرة من قاذفات القنابل ، فوجدت رجلين يعملان فى جد ونشاط للابقاء على جهاز الحرارة الغازى مشتعلا ، وقد خيل الى أن هذه العملية خطرة من جميع نواحيها ، لما يمكن أن يسببه الجو البترولى بسبب اشتداد الحرارة من احتمال الانفجـار ، وقد وافقنى بورتال على رأيى ، ولذلك فقـــد فضلت أن نتجمد من البرد على أن نحترق ، وأمرت فى الحال باطفاء أجهزة التدفئة ، وعدنا الى الراحة ونحن نرتجف من شـدة البرد الثلجى حيث كنا على ارتفاع ثمانية آلاف قدم فى الجو وهو الارتفاع الذى تحتم علينا أن نطير عليه لنكون فوق السحاب ، وأود أن أعترف بأن هذه الفترة كانت من الفترات السيئة التى مرت بى •

وعنـدما وصلنا الى الدار البيضـاء ، وجدنا استعدادات طيبة في انتظارنا حيث وجدنا هنـاك فندقا كبيرا به عدد كبير من الغـرف تـكفي لنزول جميع الضباط البريطانيين والامريكيين ، وقاعات كبيرة للمؤتمرات وكان يوجد بجوار هذا الفندق عدد من البيوت المريحة خصصت لاقامة الرئيس واقامتي واقامة الجنرال جيرو . والجنرال ديجول اذا قرر الحضور ، وأحيطت المنطقة كلها بالأسلاك الشائكة وتولى الجنود الأمريكيون حراستها وكنت قد وصلت الى الدار البيضاء قبل وصول الرئيس بيومين مع أركان حربي ، وكنت أسير في بعض الأحيان مع باوند وغيره من رؤساء أركان الحرب على الصخور وعلى الشاطىء حيث كانت الامواج الرائعة تتكسر على الصخور مرغية مزبدة ، مما يجعل النزول الى البر معجزة من المعجزات ، ولم يمر علينا يوم هادىء مطلقا ، حيث كان ارتفـاع الأمواج يبلغ خمسة عشر قدما وكان تكسرها فوق الصخور يتخذ شكلا مخيفا , مما سـبب انقلاب عدة قطع من سفن الانزال وعدة زوارق بما عليها من الرجال ، هناك وفي هذه الأثناء جاء ولدي راندولف من الجبهة التونسية ، حيث كان هناك الكثير مما يتحتم علينا أن نفكر فيه ، كما كان رؤساء أركـان الحرب يجتمعون ويتشاورون ساعات كل يوم .

وقد وصل الرئيس بعد ظهر اليوم الرابع عشر من الشهر ، كان لقـاء حارا بيننا ، وكان أشد ما أبهجني أن أرى زميلي العظيم هنا على هذه الأرض المحتلة أو المحررة . التي تمكنا معا من الاحتفاظ بها ، عـلى الرغم من نصيحة مستشاريه العسكريين ووصل الجنرال ايزنهاور في اليوم التالي بعد طيران محفوف بالخطر ، وكان توّاقا لمعرفة ما ستقرره القيـادة المشتركة ، وأن يظل على اتصال بهم ، وكانت صلاحيتهم دائمـا فوق صلاحيته ، وبعد يوم أو يومين ، وصل الكسكندر ، وقدم إليّ وإلى الرئيس تقريرا عن سير تقدم الجيش الثامن ، قد أثر القائد البريطاني أشد التأثير على الرئيس ، اذ استهوته شخصيته والأنباء التي حملها ، والتي ذكر فيها أن الجيش الثامن سيستولي على طرابلس في المسـتقبل القريب جدا . وأوضح لنا أن مونتجمري الذي كان يتـولى قيادة فيلقين قويين ، انتزع جميع المعدات من أحدهما وسلمها الى الفيلق الثاني ، لاعتقاده بأنه على جانب كبير من القوة لارغام رومل على التراجع غربا عبر طرابلس الى خط ماريث القائم على الحدود ، والذي يؤلف حاجزا مانعا بالفعل ، وقد أثلجت هذه الأنباء أفئدة الجميع وفاضت مشاعرهم بالسرور .

وبعد عشرة أيام من الدرس المتواصل للقضايا الأساسية توصـل رؤساء أركان الحرب للقيادة المشتركة الى الاتفاق ، وكنت أنا والرئيس

على إتصال يومى بهم وعلى علم بما يتم الاتفاق عليه لاقراره ، وقد إتفق على أن نحشد كل ما نستطيع من قوات لاحتلال تونس سواء بوساطة جيش الصحراء وكل ما يمكن للبريطانيين أن يزجوا به من الجنود فى المعركة ، أو بوساطة جيش أيزنهاور أو بهما معا ، وأن يكون الكسندر نائبا لايزنهاور وقائدا فعليا لجميع العمليات الحربية ، ووصلنا الى اتفاق أيضا على الخطوة التالية وهى الهجوم على صقلية أو سردينيا ، وكان من رأيى أن تكون صقلية الهدف التالى وأيدنى فى ذلك رؤساء أركان الحرب بالقيادة المشتركة ، أما واضعو الخطط المشتركة من الناحية الأخرى ومعهم اللورد مونتباتن فكان من رأيهم أن نهاجم سردينيا أولا ، لأن فى امكاننا أن نقوم بهذا العمل قبل ثلاثة أشهر من الوقت المحدد للعملية التالية ، وقد تمكن مونتباتن من اقناع هوبكنز والآخرين برأيه ، ولكنى تشبثت بوجهة نظرى وأصررت على الهجوم على صقلية وأيدنى فى ذلك جميع رؤساء أركان الحرب ، وهكذا أذعن واضعو الخطط لرأيى الا أنهم قالوا انه لا يمكن البدء فى هذه العملية قبل الثلاثين من شهر أغسطس ، وهنا تدخلت شخصيا فى هذه المرحلة ، ودرست معهم جميع الأرقام . ثم أصدرت مع الرئيس أوامرنا بأن يكون يوم الغزو خلال فترة البدر فى شهر يوليو أو ان أمكن خلال هذه الفترة من شهر يونيو ، وبالفعل بدأت عملية الهبوط من الجو ليلة التاسع من يوليو ، كما بدأ النزول من البحر فى صباح العاشر من الشهر نفسه .

وفى أثناء ذلك أثير موضوع ديجول ، فقد أزال مصرع دارلان على الرغم من وحشيته عقبة من طريق الحلفاء ، اذ حررهم من مشكلة التعاون معه ، وقد انتقلت سلطاته بيسر الى المنظمة التى تم تكوينها بالاتفاق مع الأمريكيين خلال شهرى نوفمبر ـ ديسمبر ، وملأ جيرو الفراغ الذى خلفه دارلان ، وأصبح الطريق ممهدا أمام القوات الفرنسية فى شمالى افريقيا وغربيها ، للانضمام الى حركة فرنسا الحرة التى يتزعمها ديجول ، لكى يجتمع شمل الفرنسيين فى العالم بعيدا عن السيطرة الألمانية ، وكنت شديد الرغبة فى ذاك الآن لدعوة ديجول الى الحضور ، وقد وافقنى الرئيس على رأيى هذا ، وطلبت من المستر روزفلت أن يبرق اليه داعيا اياه للحضور ، ولكن الجنرال رفض تلبية الدعوة عدة مرات وهنا طلبت من ايدن أن يضغط عليه بشدة حتى ولو اضطر الى تهديده بأنه فى حالة اصراره على عدم الحضور ، فاننا سنجد أنفسنا مضطرين الى وجوب استبداله بآخر على رأس حركة التحرير الفرنسية فى لندن وقد وصل أخيرا فى الثانى والعشرين من يناير ، وفى الحال هيئ

له المنزل المجاور لبيت الجنرال جيرو . ولما كان غير راغب فى زيارة جيرو فقد انقضت عدة ساعات قبل ان نتمكن من اقناعه بالاجتماع به ، وبعد ذلك اجتمعت بديجول فى جو عاصف فاوضحت له بأنه اذا استمر على وضع العراقيل فى طريقنا فاننا لن نتردد على قطع كل علاقتنا به . وقد ظل صامدا فى موقفه ، وخرج من حجرتى الى الحديقة شامخا بأنفه ، الا أن رجالنا تمكنوا أخيرا من اقناعه بالتحدث الى جيرو . وقد استغرق الاجتماع ساعتين أو ثلاثا ، واتفقا فيما بينهما على كل شىء ، وتوجه بعد ظهر ذلك اليوم لمقابلة الرئيس ، وقد سررت جدا لان الرجلين تفاهما تماما بصورة لم نكن نتوقعها . وقد استهوت الرئيس تلك «النظرة الروحية فى عين الرجل » الا أنه لم يكن فى وسعنا أن نصل بهما الى اتفاق .

وسيجد القارىء فى صفحات هذا الكتاب ، بعض البيانات القاسية عن ديجول مستمدة من أحداث الساعة ووقائعها ، ولا ريب اننى لقيت من الرجل مشكلات مستمرة ، اذ أثار لى الكثير من المتاعب والخلافات ، ولكن علاقتنا ظلت باقية تحت سيطرة عنصر قوى . فلم يكن فى وسعى أن أعتبره ممثلا لفرنسا الاسيرة والخائفة ولا حتى لفرنسا التى كان من حقها أن تقرر لنفسها حرية المستقبل الذى تريده ، وكنت أعرف أنه لا ينطوى على أى شعور بالصداقة لأنجلترا ، الا اننى كنت أرى فيه دائما تلك الروح وذلك المفهوم اللذين ستحملهما فرنسا أبد الآبدين عبر صفحات التاريخ ، وكنت أحب فيه هذا المظهر المتعجرف وأعجب به وان كنت أتضايق منه فهو هنا لاجىء ومنفى من بلاده لصدور حكم الاعدام ضده ، وكان فى وضع يعتمد فيه كل الاعتماد على نوايا الحكومةالبريطانية الطيبة ، وعلى نوايا الحكومة الأمريكية أيضا فى الوقت الحاضر ، وقد احتل الألمان بلاده ، وليس له موطىء قدم حقيقى فى أى مكان ، ومع ذلك فهو يتحدى كل انسان ، وكان يبدو لى حتى فى أسوأ حالاته وتصرفاته معبرا عن شخصية فرنسا ، تلك البلاد العظيمة بكل كبريائها وعظمتها وطموحها ، وكان يقال استهزاء به وسخرية منه انه يعتبر نفسه ممثلا حيا لجان دارك ، التى قيل ان أحد أجداده قد عمل معها ، ولكننى لم أكن أرى فى مثل هذا القول موضعا للغرابة ، كما كان يقال انه يحاول التشبه بكليمنصو ، ولكن هذا كان أكثر منه حكمة وأوسع خبرة فى الشئون السياسية ، ولكن الرجلين كانا من الفرنسيين الذين لا يخنعون ولا يستكينون .

وهناك نقطة أخرى تستحق الذكر ، فقد بعثت الى وزارة الحرب تقريرا بما يلي :

[« لقد أقترحنا إعداد بيان عن أعمال المؤتمر ، لأذاعته عن طريق الصحافة في الوقت المناسب ، ويسرني أن أعرف رأي وزارة الحرب في أن يتضمن هذا البيان إعلانا من جانب الولايات المتحدة والامبراطورية البريطانية يؤكد عزمها على المضي في الحرب قدما ودون هوادة الى أن تستسلم المانيا واليابان استسلاما مطلقا بلا قيد أو شرط ، واذا حذفنا ايطاليا فقد يشجعها هذا الاغفال على الخروج من الحرب ، وقد حبذ الرئيس الفكرة ، ولا ريب انها تستثير أصدقاءنا في كل مكان » ·

/ ويهمني أن يلاحظ القارىء أن استخدام الرئيس لعبارة « الاستسلام بلا قيد ولا شرط » عند اجتماعه التالي برجال الصحافة ، قد أثار قضايا سيتكرر ظهورها في هذه القصة ، وستكون موضع الجدل والنقاش لمدة طويلة ، فهناك مدرسة فكرية في كل من انجلترا وأمريكا ، قالت ان هذه العبارة ، قد أطالت أمد الحرب ، وكانت عاملا مساعدا للديكتاتوريين » في الدفع بشعوبهم وجيوشهم الى حالة اليأس والقنوط و لكنني لم أوافق هذه المدرسة الفكرية على رأيها ، لأسباب سأعرضها في سياق هذه القصة ، ولما كانت الذاكرة تخون المرء أحيانا فمن الخير كل الخير أن أسرد الحقائق كما وردت في سجلاتي ووثائقي ·

هذا وقد دونت وزارة الحرب في سجلاتها ، ان هذا الموضوع أثير في الجلسة التي عقدتها ظهر اليوم العشرين من يناير ، وقد اتجه النقاش لا الى عبارة الاستسلام بلا قيد ولا شرط من ناحية المبدأ ، بل الى استثناء ايطاليا منه وقد بعث الينا المستر اتلي والمستر ايدن في الحادي والعشرين من الشهر بالرسالة التالية :

[« استقر رأي الوزارة على أن سيئات استثناء ايطاليا أكثر من حسناته ، نظرا لما قد يثيره هذا الاستثناء من مخاوف حتمية في تركيا والبلقان وغيرهما ، يضاف الى ذلك عدم الاقتناع بأن أثر الاستثناء سيكون نافعا ومجديا لايطاليا ، فمعرفة الشعب الايطالي بكل ما سيلقاه من قسوة وشدة سيكون أكثر تأثيرا على معنوياته من مثل هذا الاستثناء » ·]

ولهذا فان وزارة الحرب لم تعرب عن عدم موافقتها على عبارة

« الاستسلام بلا قيد أو شرط » المقترح تضمينها فى بياننا المشترك الذى كنا فى سبيل اعداده ويتضح من هذا جليا أن رغبة وزارة الحرب كانت فى عدم استثناء ايطاليا من هذا الشرط ، ولا أذكر كما لا تشير وثائقى الى أنه قد دار الحديث بينى وبين الرئيس حول هذا الموضوع بعد أن وصلتنى رسالة وزارة الحرب ، ومن المحتمل أن يكون ضغط العمل ، ولا سيما بحث العلاقات بين جيرو وديجول ، واجتماعاتنا بهما قد صرفنا عن هذا الموضوع . وقد كان مستشارونا ورؤساء أركان الحرب فى هذه الاثناء يشرفون على اعداد البيان المشترك الذى جاء وثيقة رسمية أعدت بعناية فائقة ، حيث نالت موافقتنا أنا والرئيس بعد أن قمنا بدراستها ، ومن المحتمل ، أنه بسبب عدم رغبتى فى تطبيق « الاستسلام بلا قيد أو شرط » على ايطاليا ، اننى لم أثر هذا الموضوع من جديد مع الرئيس ، وجاء البيان خاليا من أى ذكر لعبارة « الاستسلام بلا قيد أو شرط » ولما عرضته على وزارة الحرب ، وافقت عليه فى صيغته النهائية .

ولذلك فقد دهشت جدا ، عندما سمعت الرئيس يتحدث بعد ذلك فى مؤتمره الصحفى فى الرابع والعشرين من يناير ، ويقول اننا سنفرض « الاستسلام بلا قيد أو شرط » على جميع أعدائنا ،حيث كان المفروض أن البلاغ الذى اتفقنا عليه قد نسخ ما قبله من أحاديث ، وقد دهش أيضا الجنرال ايسماى لأنه كان يعرف ما يدوربخلدى . والذى شهد جميع المحادثات التى دارت بين رؤساء أركان الحرب عندما تم اعداد البلاغ ، ولذلك فانه عندما القيت خطابى بعد الرئيس « فى المؤتمر الصحفى » ، كان لزاما على أن أؤيده تمام التأييد ، وأن أوافق على كل كلمة قالها ، لأن كل خلاف بيننا حتى ولو كان غير مقصود، سيؤثر فى مثل هذه الظروف تأثيرا سيئا وضارا بمجهودنا الحربى . وهكذا فقد تحملت نصيبى من المسئولية بالاشتراك مع وزارة الحرب البريطانية .

وقد اتضح أن ما ذكره الرئيس لهوبكنز فى هذا الصدد كان باتا ، فقد قال « لقد عانينا الكثير من المشقة فى الجمع بين هذين الجنرالين الفرنسيين ، حتى بدا لى أن الجمع بينهما لم يكن أقل صعوبة من الجمع بين جرانت وَلي « فى الحرب الأهلية الأمريكية » وفجأة وجدت أمامى المؤتمر الصحفى ، ولم يكن فى وسعى أنا وونستون أن نستعد له ، وسرعان ما طافت بخاطرى هذه الفكرة ، وهى أن جرانت قد طلب اليه فيما مضى « الاستسلام بلا قيد ولا شرط » وفجأة ودون ما ارادة وجدت نفسى انطق بهذه العبارة .

وقد تكون ذكريات الحرب جلية وواضحه ، ولكن يجب الا يركن المرء اليها دون تثبت أو تحقيق ، ولا سيما اذا كانت تتعلق بتسلسل الأحداث ولا ريب فى أنه قد صدرت عنى عدة بيانات خاطئة عن حادثة « الاستسلام بلا قيد ولا شرط » ذلك لأننى كنت أقول ما يجول بخاطرى وأعتقد فى تلك اللحظة دون الرجوع الى السجلات والوثائق ، ولم أكن أنا الوحيد الذى خانته ذاكرته ، ذلك لأن المستر ارنست بيفن أفضى ببيان مزعج فى الحادى والعشرين من شهر يوليو عام ١٩٤٩ فى مجلس العموم . تحدث فيه عن المتاعب التى واجهته فى اعادة بناء المانيا بعد الحرب بسبب سياسة « الاستسلام بلا قيد ولا شرط » لأنه « كما قال » لم يستشر هو ولا وزارة الحرب فيها عند اعلانها ، وقد رددت عليه ببيان فى الحال لا يقل عن بيانه بعداً عن الدقة ولكن فى حسن النية ، فأعلنت أننى سمعت هذا الكلام لأول مرة على لسان الرئيس فى المؤتمر الصحفى الذى عقد فى الدار البيضاء ، وعندما عدت الى البيت فى ذلك اليوم ، ورجعت الى وثائقى ، رأيت الحقائق التى سردتها هنا ، وتذكرت فى الحال قصة ذلك الأستاذ الذى اجتمع اليه طلابه المخلصون عندما داهمته المنية ، يطلبون منه نصيحته الأخيرة لهم فقال : « تحققوا من الأقوال التى تقتبسونها » .

وعلى الرغم من اعجاب الناس بعبارة « الاستسلام بلا قيد أو شرط » فى حينها الا أنها اعتبرت بعد ذلك لدى الكثير من الأوساط ، كواحدة من الأخطاء العظيمة التى وقعت فيها السياسة الانجليزية ـ الأمريكية ، وأحرى بنا أن نتناولها بالبحث الآن ، فقد قيل انها كانت سبباً فى اطالة أمد الحرب ، وأنا لا أعتقد فى صحة هذا القول ، وكان السبب الرئيسى « فى معارضتى المستمرة فى اصدار بيان آخر يتضمن شروطنا للسلام وهو ما كان يلح علينا فى اصداره » هو ما كنت أعتقده بأن أى بيان يتضمن الشروط الحقيقية والتى تصر عليها دول الحلفاء الثلاث الكبرى والتى يفرضها الرأى العام علينا ، ستكون قاسية جدا . ولايمكن أن نمحو من الأذهان عبارة « الاستسلام بلا قيد أو شرط » خصوصا لدى الألمان ، وانى لأذكر عدة محاولات جرت لوضع مسودة شروط السلام التى يمكن أن يرضى عنها المحتلون لألمانيا ، وقد بدت هذه الشروط لى مزعجة وقاسية عندما دونت على الورق ، وفاقت فى الحقيقة وفى قسوتها كل ما عمل حتى الآن ، حتى ان مجرد نشرها كان كفيلا بأن يستثير المقاومة الألمانية .

وقد أوضحت فى عدة بيانات عامة افضيت بها ، ما انتويت أنا والرئيس عمله فعلا .

وقلت فى مجلس العموم فى الثانى والعشرين من فبراير عام ١٩٤٤ ما يلى :

« ان اصلاح عبارة « الاستسلام بلا قيد أو شرط » لا تعنى مطلقا أن الشعب الالمانى سيتعرض للاستعباد او الدمار ، وان ما تعنيه فعلا هو ان الحلفاء لن يكونوا ملزمين بأى شىء تجاه الالمان فى لحظة الاستسلام . أو مقيدين بأى حلف أو التزام ، « والاستسلام بلاقيد ولا شرط » يعنى أن المنتصرين سيكونون مطلقى الأيدى . ولكنه لا يعنى اطلاقا أن من حقهم أن يسلكوا سلوكا وحشيا ، أو أن يمحوا اسم ألمانيا من خريطة أوروبا ، واننا سنحكم ضميرنا ازاء موقفنا من الحضارة والمدنية ، ولن نلتزم بشىء تجاه الالمان نتيجة لأى عملية من عمليات المساومة ، وهذا هو معنى « الاستسلام بلا قيد أو شرط » وبهذا التفسير زال كل سوء فهم لدى الألمان عن هذا التعبير » .

وكان لزاما علينا أن نختتم مباحثاتنا ، فعقدنا آخر جلسة رسمية أخيرة مع رؤساء أركان الحرب فى الثالث والعشرين من يناير ، عندما قدموا الينا تقريرهم الأخير عن مشروع « ادارة دفة الحرب فى عام ١٩٤٣ » ويمكن تلخيص هذا التقرير على النحو التالى :

« يجب أن تظل المهمة الأولى الملقاة على عاتق الأمم المتحدة أولا القضاء على الغواصات ، وثانيا مد القوات السوفيتية بأكبر كمية من المؤن التى يكون فى وسعنا نقلها الى روسيا وأن نستهدف من العمليات الحربية فى الجبهة الاوربية هزم ألمانيا فى عام ١٩٤٣ ، بأقصى ما يمكن للأمم المتحدة أن تحشده من قوات ضدها » .

وستكون الخطوط الرئيسية للهجوم على النحو التالى :

« فى البحر الأبيض المتوسط » :

(أ) أن نستهدف من احتلال صقلية ما يلى :

١ ــ تأمين سلامة خطوط المواصلات فى البحر الأبيض المتوسط .

٢ ـ تخفيف الضغط الألمـاني عن الجبهة الروسية ٠

٣ ـ تشديد الضغط على ايطاليا ٠

(ب) بذل الجهود الممكنة الفعالة لدى تركيا حتى تكون حقيقة لنا ٠

« استمرار العمليـات فى المحيط الهـادى والشرق الأقصى بقصد الضغط على اليابان ، الى أن نبدأ الهجوم الكاسح عليها فور هزيمة ألمانيا ، على أن تظل هذه العمليات فى حدود النطاق الذى يشير به رؤساء أركان القيادة المشتركة ، انه لن يؤثر على قدرة الامم المتحدة عندما تحين الفرصة المناسبة لايقاع الهزيمة بألمانيا فى عام ١٩٤٣ » ٠

وأخيرا عقدنا مؤتمرا صحفيا صباح الرابع والعشرين من يناير حيث حضره ديجول وجيرو وجلسا فى صف واحد معى ومع الرئيس روزفلت بعـد أن أرغمناهما على أن يتصافحا أمام الجمهور وأمام حشد ضخم من رجال الصحافة والمصورين ، وقد تصافحا بالفعل ، وليس فى وسع الانسان أن ينظر الى هذا الحادث حتى فى مثل هذه الأيام المليئة بالمآسى دون أن يضحك هذا وقد ظل وجودى أنا والرئيس روزفلت فى الدار البيضـاء سرا من الأسرار التى حوفظ عليها بكل دقة وعناية ، حتى ان رجال الصحافة عندما رأونا أمامهم لم يصدقوا عيونهم ، كما لم يصدقوا آذانهم عندما سمعوا أننا كنا هنا منذ أسبوعين ٠

وبعد هذا الزواج الإكراهى بين ديجول وجيرو ـ وهو الاسم الذى أطلقته الصحافة الأمريكية على هـذا الحادث ـ الذى عانينـا الـكثير من المتـاعب فى سبيل تحقيقه ، ألقى الرئيس خطابه أمام رجال الصحافة وقد أيدته فى كل كلمة قالها ٠

ولما استعد الرئيس لمغادرة المدينة ، قلت له ليس فى وسـعك أن ترحل ، بعد أن قطعت كل هذه المسـافة الطويلة لتصـل الى شمالى أفريقيا ، دون أن ترى مدينة مراكش ، وطلبت منه أن نقضى فيها يومين ، لنرى معا مغيب الشمس على ثلوج جبال الأطلسى ، كما ألححت على هارى هوبكنز أيضا بقبول هذا الاقتراح وكان هناك منزل رائع للغـاية ، لم أكن أعرف عنه شيئا ، حيث كان نائب القنصـل الأمريكى المسـتر كنيث بيندار ، قد استأجره من سيدة أمريكية تدعى تيلور ، وكان واسعا يصلح لايوائى أنا والرئيس ، فضلا عما كان يحتويه من غرف خارجية لايواء أفراد حاشيتنا ، وهكذا تقرر أن نمضى جميعا الى مراكش ، وركبت أنا والرئيس

سيارة واحدة قطعنا بها مسافة مائة وخمسين ميلا من الطريق الصحراوى بين الدار البيضاء ومراكش . وكانت خضرة الربيع قد بدأت فى الظهور ، قبل أن نصل الى هذه الواحة المشهورة ، وكنت دائما أصف مراكش بأنها « باريس الصحراء » حيث تؤمها القوافل من جميع أنحاء أفريقيا الوسطى منذ قرون طويلة ، لتدفع الجزيات الباهظة لقبائل الجبال قبل وصولها اليها ، حيث يستمتعون بمباهج الحياة فى المدينة ، ومن بينها قراءة الطالع ، وسحر الأفاعى ، والمطاعم والمشارب ، وكان لكل هذه المباهج فى مراكش شهرة مدوية منذ أقدم العصور ٠

وأمضيت مع الرئيس فى السيارة زهاء خمس ساعات قطعناها فى أحاديث مهمة تخللها بعض النكات ، فى حين انتشر ألوف الجنود من الامريكيين على طول الطريق لحمايتنا من أى خطر ، كما ظلت الطائرات تحوم فوقنا بلا انقطاع حتى وصلنا فى المساء الى المنزل ، حيث أقام لنا المستر بيندار وليمة عشاء كبيرة ، وصعدت مع الرئيس الى برج المنزل ، بعد أن حملوه فى مقعده ، وجلسنا نستمتع برؤية مغيب الشمس وراء ثلوج جبال الأطلس ، ومعنا خمسة عشر أو ستة عشر شخصا وهم الذين حضروا معنا مأدبة العشاء ، وكان يعمنا السرور والبهجة وأنشدنا جميعا أعذب الأناشيد وغنيت بمفردى ، فى حين اشترك الرئيس مع فرقة « الكورس » ولما أراد الرئيس أن يغنى أغنية على انفراد منعه أحد رجال حاشيته ٠

ولما كان على الرئيس أن يغادر مراكش فجر اليوم الخامس والعشرين فى رحلته الجوية الطويلة عن طريق لاغوس وداكار فالبرازيل ، ومنهما الى واشنطن ، فقد افترقنا بعد أن ودعنا بعضنا بعضا ليلة السفر ، ولكنه جاء فى الصباح ، وهو فى طريقه الى الطائرة ، ليكرر الوداع ، وكنت لاأزال فى الفراش ، ولما كنت لا أسمح بأن يمضى وحيدا الى المطار ، فقد قفزت من الفراش ووضعت على وشاحى ، ومضيت بهذه الصورة غير الرسمية الى المطار ، ولما وصلت الى الطائرة ، رأيته يجلس فى مقعده مرتاحا ، فأعجبت بما يبدو عليه من شجاعة على الرغم مما يعانيه من عاهة جسدية ، وفى الوقت نفسه كنت أشعر بالقلق من المخاطر التى سيخوض غمرتها فى طريق عودته ، ولو اننا كنا متعودين على هذه الرحلات الجوية فى أثناء الحرب ، الا أننى ظللت اعتبرها من المغامرات الخطرة دائما ، ولكن من حسن الحظ أن كل شىء سار على ما يرام ، ثم عدت الى المنزل بعد أن ودعته حيث قضيت يومين آخرين كنت فيهما على اتصال مستمر مع وزارة الحرب للتشاور حول حركاتى المقبلة ٠

تركيا - ستالنجراد - تونس

وقد طرأ على الوضع الاستراتيجي للحرب في البحر المتوسط ، تحول أساسي بسبب احتلال قوات الحلفاء للشمال الافريقي واستيلائها على قاعدة ثابتة على شاطئه الجنوبي ، أمكنها أن تجعل منها قاعدة أمامية للحركة ضد العدو في أوروبا ، ولما كنت أنا والرئيس نبحث منذ أمد طويل عن فتح طريق جديد لامداد روسيا ، وتوجيه ضربة الى جناح المانيا الجنوبي . ولما كانت تركيا هي مفتاح جميع هذه الخطط ، فقد استهدفنا منذ عدة أشهر ، أن نقنع تركيا بدخول الحرب الى جانبنا ، وكان هذا هو أملنا الجديد الآن لما لها من أهمية ومظهر بارز كل البروز لنجاح خططنا •

ولما كان ستالين متفقا معي ومع الرئيس على هذا الموضوع ، فقد صممت على أن أعالجه بنفسي ، في اجتماع أعقده مع الرئيس اينونو على الأرض التركية ولما كانت هناك أيضا مشاغل عدة تنتظرني في القاهرة كما أملت في أن أزور الجيش الثامن في طريق عودتي الى الوطن ، على أن تكون زيارتي له في طرابلس التي كاد يحتلها في ذلك الوقت ، ثم أقوم بزيارة الجزائر أيضا ، حيث كان هناك مشكلات كثيرة في وسعي أن أحلها في مكانها ، ولهذا فقد أبرقت من الدار البيضاء الى نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية اقترح عليهما أن أطير من مراكش الى القاهرة لأقضي بها يومين أو ثلاثة ثم اتصل اتصالا مباشرا بالأتراك •

وقد ردت وزارة الحربية بأنها تعتقد أن الاتصال المباشر بتركيا ما زال سابقا لأوانه ، وطلبت مني العودة مباشرة الى لندن ، لأقدم تقريرا الى البرلمان عن اجتماعي بالرئيس روزفلت ، ولكن بعد تبادل عدة برقيات وافقت الوزارة على خطتي ، وبعد أن تناولنا العشاء في منزل السيد بيندار في مراكش ، امتطينا الطائرة « الفدائي » مساء السادس والعشرين ، وقد نمت نوما عميقا ولما استيقظت عند الفجر وجدت نفسي أجلس في مقعد مساعد الطيار بجانب قائد الطائرة فاندر كلوت ، أرقب معه للمرة الثانية

شروق الفجر على مياه النيل ، ولم نكن فى هذه المرة مضطرين الى الهبوط بعيدا فى اتجاه الجنوب ، لأن انتصارنا فى العلمين كان قد جرف أعداءنا بتصريفها كالمعتاد ، وعندما شعرت بنقص ملحوظ فى عدد الأوراق انتهى عشرة أميال عن الأهرام . حيث كان فى انتظارنا السفير اللورد كليرن ورجال القيادة العامة فى القاهرة ، واتجهنا فورا الى السفارة ، حيث وجدت السير الكساندر كادوجان الوكيل الدائم لوزارة الخارجية الذى أوفدته وزارة الحربية الى القاهرة تلبية لطلبى ، وكان فى وسعنا ان نقارن الآن بين أوضاعنا الحالية ، وبين ما كنا عليه فى شهر اغسطس عام ١٩٤٢ ، وأن نشعر باحساس من الرضا والراحة .

وعندما وصلتنى الرسائل التى تشير الى أن الرئيس التركى عصمت اينونو قد أعرب عن سروره لفكرة الاجتماع المقترح . واتخذت الترتيبات لاعداده فى «أطنه» على الشاطىء على مقربة من الحدود التركية ـ السورية ، على أن يتم فى الثلاثين من يناير ،توجهت فى طائرة « الفدائى » لمقابلة الزعماء الاتراك وقد قطعنا المسافة فى أربع ساعات ، ونحن نطير فوق البحر الابيض المتوسط بالقرب من سواحل فلسطين وسورية ، ومعنا طائرة أخرى استقلها كادوجان والجنرالات بيروك والكسندر وويلسون وغيرهم من القادة والضباط ، وقد لقينا بعض المشقة فى أثناء الهبوط فى ذلك المطار التركى الصغير . وما كدنا ننتهى من مراسم الحفاوة والاستقبال ، حتى ظهرت مجموعة من الدبابات المطلية بالميناء تزحف قادمة من الجبال ، تحمل الرئيس التركى وجميع أعضاء حكومته والماريشال شاقماق ، وقد استقبلونا بمنتهى الحفاوة والحماس ، وأعدت لنا جملة عربات فى القطار لنزولنا واستراحتنا لعدم وجود مكان آخر قريب نستريح فيه ، وقد قضينا ليلتين فيه . حيث كانت تدور محادثات يومية طويلة مع الاتراك ، وأحاديث ودية فى أثناء وجبات الطعام مع الأتراك ، وأحاديث ودية فى أثناء وجبات الطعام مع الرئيس اينونو .

وقد دارت معظم المحادثات حول موضوعين ، أولهما ، بناء عالم ما بعد الحرب واقامة منظمة دولية ، وثانيهما ، مستقبل العلاقات بين تركيا وروسيا ، وأرى أن أسرد هنا بعض الملاحظات التى تلوتها على مسامع القادة الأتراك وفقاً لسجلاتى الخاصة ، فقد ذكرت لهم انى اجتمعت بستالين ومولوتوف ، وان الرجلين يرغبان فى اقامة ارتباط سلمى وودى مع المملكة المتحدة والولايات المتحدة ، حيث فى وسع الدولتين الغربيتين أن تقدما الكثير من العون فى الحقل الاقتصادى لروسيا ، ومساعداتهما لها

فى تعويض ما لحق بها من خسائر بالغة . ولو اننى ليس فى وسعى أن أتكهن بما سيقع بعد عشرين عاما ، الا أننا عقدنا معاهدة مدتها عشرون عاما مع روسيا ، لاعتقادى بأن روسيا ستركز جهودها فى السنوات العشر القادمة على اعادة البناء والانشاء ، ولو انه من المحتمل أن تقع فيها تبديلات أساسية بسبب أن الشيوعية نفسها قد تعرضت للتعديل ، وانى لأومن بأن علينا أن نعيش فى علاقات طيبة مع روسيا ٠

واذا واصلت بريطانيا العظمى والولايات المتحدة العمل متعاونتين واحتفظتا بقوة جوية متفوقة ، ففى وسعهما أن تضمنا بقاء فترة طويلة من الاستقرار . ولا ريب فان روسيا ستستفيد من هذا الوضع ، لأن لديها مناطق شاسعة متخلفة تفتقر الى التطوير ولا سيما فى سيبيريا ٠

وقد لاحظ رئيس الوزارة التركية بأننى أعربت عن رأيى فى أن روسيا قد تصبح من الدول الاستعمارية ، ولما كانت مثل هذه الملاحظة جديرة بأن تحمل تركيا على التحفظ والحيطة والحذر ، فقد أجبت بأن منظمة عالمية ستقوم وستكون مسئولة عن الحفاظ على السلم والسلامة ، وستكون أقوى من عصبة الأمم السابقة ، وأضفت بأننى لا أخشى شيئا من الشيوعية ، فقال رئيس الوزارة التركية ، انه يتطلع الى شيء أكثر واقعية ، فأوروبا ملأى بالسلاف والشيوعيين ، ومن المتوقع أن تتحول جميع الدول المهزومة الى البلشفية والسلافية اذا هزمت ألمانيا ، وقد رددت عليه بأن الامور لا تسير دائما الى الأسوأ ، كما يتوقع الجميع وحتى اذا سارت الأمور على هذا النحو ، فمن الخير لتركيا أن تكون أقوى مما هى عليه الآن ، وأن تكون أوثق ارتباطا بالمملكة المتحدة والولايات المتحدة ، واذا قدر لروسيا أن تهاجم تركيا دون أى سبب أو مبرر ، فان المنظمة العالمية التى تحدثت عنها ستستخدم باسرها للدفاع عن تركيا ، وستكون الضمانات بعد الحرب الراهنة أقوى وأشد من تلك التى كانت قائمة قبل الحرب ، لا بالنسبة الى تركيا فحسب ، ولكن بالنسبة الى أوروبا بأسرها ، وفضلا عن ذلك فلن أكون صديقا لروسيا اذا حاولت تقليد ألمانيا ، واذا ما حذت حذوها فان علينا أن نحشد ضدها أكبر عدد ممكن من الدول ولن أتردد عن قول هذا لستالين نفسه ٠

وفى الوقت الذى كانت هذه المحادثات السياسية ذات الطابع العام قائمة على قدم وساق ، فانه كانت هناك مباحثات عسكرية أخرى يقوم بها رئيس أركان حرب الامبراطورية وغيره من القادة العسكريين

البارزين ، وكانت النقطتان الأساسيتان في هذه المباحثات هما : أولا ـ تزويد القوات التركية بما تحتاج اليه من عتاد قبل أن تتخذ تركيا أية خطوة سياسية بعدها ، ثانيا ـ اعداد الخطط لتعزيزها بالوحدات البريطانية فى حالة دخولها الحرب ، وقد تم صياغة نتائج هذه المباحثات فى اتفاق عسكرى أمكننا الوصول اليه ٠

وكان القصد من محادثاتى مع تركيا ، تمهيد الطريق أمامها للاشتراك فى الحرب فى خريف عام ١٩٤٣ ، ولكن هذا لم يحدث ، حتى بعد انهيار ايطاليا وبعد زحف الروس على الألمان من البحر الأسود ، بسبب بعض الأحداث السيئة التى وقعت فى بحر ايجة فى زمن لاحق من ذلك العام ، وهى ما سأتحدث عنها فى مكان آخر من هذا الكتاب ٠

وبعد ذلك طرت عائدا الى القاهرة بعد وقفة قصيرة فى قبرص ، ثم تابعت سيرى الى طرابلس ، وكان الجيش الثامن قد احتلها فى الوقت المحدود وهو الثالث والعشرون من يناير ، وعندما دخلت قواتنا المدينة وجدت ميناءها محطمة تماما ، كما سد مدخلها بالسفن الغارقة ، فى حين بثت فى المنافذ المؤدية اليها مئات الالغام ، وهو ما كنا نتوقعه فى مثل هذه الحالة ، ولذلك فانه لم تدخل أولى سفن التموين الى الميناء الا فى الثانى من شهر فبراير ، بعد تطهيرها من الالغام ، وبعد مضى أسبوع ، كانت البواخر تنزل ما حمولته ألفا طن فى اليوم تقريبا ، وعلى الرغم من أنه ما زال أمام الجيش الثامن مسافات طويلة يتحتم عليه اجتيازها ، الا أن تموينه فى أثناء الزحف الذى امتد ألفا وخمسمائة ميل بعد العلمين ، والذى توّجه فتح ميناء طرابلس بسرعة أمام سفن التموين وهو عمل ادارى رائع ، يرجع الفضل فيه الى الجنرال ليندستيل الموجود فى القاهرة والجنرال روبرتسون الذى كان يرافق الجيش الثامن ، ولم تحل نهاية الشهر ، حتى انضمت الى الجيش الثامن قوة فرنسية قوامها « ٢٥٠٠ » جندى من القوات المختلفة التابعة لفرنسا الحرة ، بقيادة الجنرال ليكليرك ، بعد أن قطعت مسافة ألف وخمسمائة ميل عبر الصحراء ، قادمة من أفريقيا الاستوائية الفرنسية ، ووضع ليكليرك نفسه دون تحفظ تحت تصرف مونتجومرى ، وقدر له ولقواته أن يلعبا دورا هاما فى المراحل المتبقية من الحملة التونسية ٠

وعندما اجتاز الجيش الثامن الحدود الى تونس فى الرابع من فبراير بعد أن تم الاستيلاء على امبراطورية ايطاليا الأفريقية فقد أصبح

منذ هذه اللحظة طبقا للقرارات التى إتخذت فى مؤتمر الدار البيضاء تحت قيادة الجنرال ايزنهاور مع تولى الجنرال اليكسلندر بوصفه نائبا له فى القيادة التنفيذية للعمليات البرية ولعل القارىء يذكر التوجيه الذى كنت قد بعثت به الى اليكسكندر عشية مغادرتى القاهرة قبل نحو من ستة أشهر ، وقد بعث الآن بالرد التالى :

سيدى :

« لقد نفذت الأوامر التى أصدرتها الىّ فىَ العاشر من أغسطس عام ١٩٤٢ ، وقد تم القضاء على جميع أعداء جلالته . وما كانوا يضعونه من عوائق فى مصر وبرقة وليبيا وطرابلس وهأنا الآن فى انتظار أوامر جديدة منك » .

وبعد أن قضينا يومين ، أقلعت من طرابلس لزيارة ايزنهاور وصحبه فى الجزائر ، وكان التوتر هنا شديدا ، فاغتيال دارلان ، كان لا يزال يفرض الكثير من الاحتياطات لحماية جميع الشخصيات البارزة ، ونظرا لما أبدته وزارة الحرب من قلق على سلامتى واظهارها رغبتها فى أن أعود الى الوطن فى أسرع وقت ممكن — وطبعا كان فى هذا الكثير من المجاملة — فقد طرنا ليلة الاحد السابع من فبراير عام ١٩٤٣ عائدين رأساً وبسلام الى الوطن ، وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى طرت فيها فى طائرة « الفدائى » لأنها سقطت فيما بعد . وقتل كل من كان فيها ، ولو أنهم كانوا غير معروفين لى .

وكان أول واجب على بعد عودتى الى الوطن ، هو أن أفضى ببيان مسهب أمام مجلس العموم ، عن مؤتمر الدار البيضاء ، وعن رحلتى فى البحر الابيض المتوسط ، وعن الوضع بصورة عامة ، وقد استغرق القاء الخطاب الذى أعددته فى الحادى عشر من فبراير أكثر من ساعتين ، ويبدو أنه كان يلوح على الاعياء من رحلتى ، حيث قد أصبت ببرد فى أثنائها ولم تمض بضعة أيام حتى كنت طريح الفراش ، أعانى من زكام شديد مصحوب بالتهاب فى الحنجرة ، وفى مساء السادس عشر من الشهر وقد كنت وحيدا مع زوجتى ، ارتفعت حرارتى ارتفاعا مفاجئا ، وقرر اللورد موران الذى كان يتولى علاجى فى ذلك الوقت أننى مصاب بالتهاب فى الجزء الاسفل من الرئة وقد وصف لى الدواء المسمى (ا م . اند . بى) وفى اليوم التالى عملت لى أشعة أثبتت صحة تشخيصه واستدعى الدكتور جيوفرى مارشال طبيب مستشفى « جاى » للاشتراك

في المشاورة الطبية ، وكنت على الرغم من سوء حالتي أتتبع الأحداث وكانت تصلني الاخبار وأنا في الفراش ساعة بعد ساعة ، فأقوم بتصريفها كالمعتاد ، وعندما شعرت بنقص ملحوظ في عدد الأوراق التي تصل الى لابداء رأيي فيها . احتججت على ذلك ، فأكد لي الاطباء وقد انضمت اليهم زوجتي ، وجوب انصرافي عن العمل كلية ، ولكنني ما كنت لأوافقهم على ذلك ، لولا أنهم أبلغوني أني أعاني من ذات الرئة . فقلت لهم « ولكن في وسعكم علاجها ، ألستم واثقين من علاجكم الجديد ؟ » فقال الدكتور مارشال · انه يطلق على ذات الرئة اسم « صديقة الرجل العجوز » وعندما سألته عن السبب ، قال : « لأنها تمضي بالرجال الطاعنين في السن من هذه الحياة بهدوء » وقد رددت عليه رداً مناسباً ، ولكننا اتفقنا على أن تصل الى الأوراق المهمة والمباشرة فقط ، وأن أنصرف الى مطالعة احدى الروايات ، وقد اخترت روايات « مون فلاندرز » التي كنت قد سمعت الكثير عنها ، دون أن يتوافر لدي الوقت لقراءتها والحكم عليها . وهكذا قضيت أسبوعا ثانيا أعاني فيه من وطأة الحمى والألم ، وهكذا لم يتيسر لي كتابة مذكراتي في المدة من ١٩ الى ٢٥ من فبراير ، وقد أبرق الى الرئيس روزفلت والجنرال سمطس وغيرهما من الاصدقاء الذين علموا نبأ مرضي ، طالبين ان أطيع أوامر الأطباء وفعلا قد نفذت أوامر الأطباء ، وعندما انتهيت من قراءة الرواية التي كنت أقرؤها ، أعطيتها للدكتور مارشال ليقرأها ، وفي الوقت نفسه كان قد تم شفائي ·

هذا وقد بعث الى ستالين في هذه الفترة ، شريطا سينمائيا عن انتصار ستالينجراد ، وقد صور تصويرا رائعا كل ما دار من قتال يائس · وأرى أن الوقت قد حان للحديث بايجاز واختصار عن ذلك الكفاح الحاسم الرائع الذي خاضته الجيوش الروسية ·

وكان قد اشتد زحف الالمان في اتجاه القوقاز في أثناء صيف عام ١٩٤٢ وخريفه ومضت الامور في البداية وفق الخطة المرسومة ، وان كانت لم تتم بالسرعة الكبيرة التي كان يأملها الألمان ، وقد تمكنت مجموعة الجيوش الالمانية الجنوبية من اخراج الروس من منحنى حوض نهر الدون الأسفل ، هذا وقد انقسمت مجموعة الجيوش الألمانية بعد ذلك مجموعتين ، الأولى ويقودها ليست ، والثانية يقودها بوك ، وفي الثالث والعشرين من يوليو عهد هتلر الى كل من المجموعتين بالمهمة الموكولة اليها ، حيث كان على المجموعة الأولى أن تحتل الساحل الشرقي

للبحر الأسود بكامله وذلك بالاضافة الى حقول البترول القريبة ، وأن تتقدم المجموعة الثانية بعد اقامة جناح دفاعى على حوض الدون متجهة الى ستالينجراد ، وأن تحطم قوات العدو المتجمعة فيها وتحتلها ، كما قرر هتلر أن تقوم القوات العاملة فى جبهة موسكو بالضغط عليهـا فى حين تحتل قوات جبهة لينينجراد المدينة فى مستهل شهر سبتمبر ٠

كما زحف جيش الصاعقة بقيادة الجنرال فون كلايست والمؤلف من ١٥ فرقة مدرعة على القوقاز ٠ وذلك بعد ان عبر نهر الدون وقطع مسافة كبيرة دون أن يلقى أية مقاومة تذكر ، وقد وصل الجيش الزاحف الى حقول البترول فى ميـــكوب ، ولكنه فشـــل فى الوصول الى حقول غرزونى ، أما حقـــول باكو ذات الاهمية الكبـيرة فكانت لا تزال تبعد ثلثمائة ميل ، كما أن القادة الألمـان لم يستطيعوا احتلال ســـاحل البحر الأســـود بأكمله تنفيذا لأوامر هتلر ، حيث صمد الروس فى كل مكان بعد تعزيزها بقوات جديدة وصلت بسرعة عن طريق السكة الحديدية على ساحل بحر قزوين الغربى فى حين لحق الضعف والاعياء بكلايست بسبب تحويل القوات الى جبهة ستالينجراد ، بعد أن ظل يكافح ويجالد وسط جبال القوقاز حتى شهر نوفمبر عندما داهمه الشتاء ، وكان قد استنفد قواه كلها ٠

أما المجموعة الثانية ، فقـد عانت من مرارة الفشل ، وكان سحر اسم ستالينجراد يستهوى هتلر ، لأنها كانت احدى مراكز الصناعـة الهامة فضلا عن انها كانت نقطة دفاع قوية فى الجناح الدفاعى ضـــد اندفاع قوات هتـلر الرئيسيـة فى اتجاه القوقاز ، وأصبحت ستالينجراد عبـــارة عن مغناطيس يجـــذب اليه كل ما لدى الجيش الألمانى والقوة الجوية من عزم ومجهود ، هذا وقد أخذت المقاومة تشتد يوما بعد يوم، حتى أن الألمـان لم يتمكنوا من الوصول الى ضواحيها الا فى الخـــامس عشر من سبتمبر بعد معارك ضارية فى المنطقة الواقعة بين نهرى الدون والفولجا ، كما استمرت هجماتهم طيلة الشهر التالى التى تحقق بسببها بعض التقدم مقابل خسائر فادحة ، ومع هذا فلم تستطع أية قوة من التغلب على الروس الذين كانوا يقاتلون بحماس واخلاص وسط خرائب مدينتهم ، ولذلك فان الجنرالات الالمان بدءوا يشعرون بالقلق ويحسون بالفزع والانزعاج ، لأنه بعد أن مضت ثلاثة أشهر من القتـــال كانت لا تزال الأهـداف الرئيســـية للحملة وهى « القـــوقاز وستالينجراد ولينينجراد » فى أيدى الروس ، بينـــما كانت خسـارتهم فادحة وكان

تعويضها متعذرا ، وكان هتلر بدلا من أن يرسل وحدات جديدة لتعوض الخسائر التى منيت بها الفرق العاملة هناك ، يشكل فرقا جديدة تفتقر الى التدريب ، وكانت سلامة التقدير العسكرى تتطلب فى ذلك الوقت وقف الزحف ولكن انرجل المغامر لا يصغى الى صوت العقل ، ولذلك فقد اضطر هولدر رئيس أركان حربه الى أن يعارضه معارضة شديدة وذلك فى فى نهاية شهر سبتمبر ، فكان جزاؤه الطرد من منصبه ، واستمر هتلر يدفع بجيوشه الى الأمام ٠

وفى منتصف شـــهر أكتوبر ساء وضع الجيـــوش الألمانية سوءا ظاهرا ، حيث كانت المجموعة الثانية منتشرة على جبهة تمتـــد سبعمائة ميل ، وكان الجيش السادس الذى يقـــوده الجنرال باولوس قد انهدت قواه وغدا منهوكا ومتعبا وكانت لا تحمى جنـــاحاه الا قوات ضعيفة من جيوش حليفة مشكوك فى صلاحيتها ، وكان فصل الشتاء قد اقترب، وأصبح هجـــوم الروس المضـــاد متوقعا فى كل لحظة واذا لم يكن فى الامكان الاحتفاظ بجهة الدون ، فان سلامة الجيوش العاملة فى القوقاز ستغدو مهددة الى أقصى حدود التهديد . ومع هذا فان هتلر كان يرفض البحث فى أى اقتراح يقضى بالانسحاب ، وفى التاسع عشر من نوفمبر شرع الروس فى هجومهم التطويقى الذى أعدوا له ببسالة منذ عهـــد طويل ، مستهدفين شمالى ستالينجراد وجنوبيهـــا ، لتحطيم الجناحين الألمانيين الضعيفين ، والتقى طرفا « الكماشة » الروسية بعد أربعـــة أيام وبذلك وقع الجيش الألمانى السادس فى الفخ بين الدون والفولجا ، ولما حاول الجنرال باولوس خرق الحصار المضروب حوله ، أصــــدر اليه هتلر أمراً بالصمود مكانه ، وبمضى الأيام أخذ الضغط يشـــتد على الجيش المحاصر ، وأخذت شقة الأرض التى يحتلها تضيق شيئا فشيئا وفى الثانى عشر من ديسمبر حيث كان الطقس باردا جـدا قام الألمـــان بمحاولة يائسة لتحطيم الحصار الروسى وانقاذ رفاقهم المحصورين ولكن المحاولة منيت بالفشل ، وعلى الرغم من أن باولوس وجيشه قد صمدا بعد ذلك التاريخ مدة سبعة أسابيع ، الا أن مصيرهما قد تقرر بعد تلك المحاولة الفاشلة ٠

وقد بذلت محاولات جبارة لتموين جيش باولوس من الجو ، ومع هذا فلم يصل اليه الا قليل من المؤن بعد خسائر جوية فادحة ، وقـــد اشـــتد البرد الى حد مخيف ، ونفدت المواد الغذائية والذخائر ، وزاد انتشار وباء التيفود بين الجنود الذى كان سببا كبيرا فى متاعب الجيش وشقائه ، ومع هذا فقد رفض الجنرال باولوس فى الثامن من ينـــاير

انذارا نهائيا روسيا بالاستسلام ولذلك فان الروس قد شرعوا في اليوم التالي بالهجوم العنيف من الغرب وقاتل الألمان ببسالة ومع ذلك فلم يستطيعوا احتلال خمسة أميال الا في بحر عدة أيام ·

وأخيرا بدأت القوات الألمانية تتحطم ، ولم يحل السابع عشر من يناير حتى كان الروس قد غدوا على بعد عشرة أميال من ستالينجراد نفسها ، ثم قذف باولوس في المعركة بكل رجل قادر على حمل السلاح ، ولكن محاولته ذهبت أدراج الرياح ، واندفع الروس في الثاني والعشرين من جديد ، مما اضطر الالمان الى التراجع الى ضواحي المدينة التي حاولوا احتلالها ، وهكذا أصبحت بقايا جيش عظيم محصورة في مستطيل طوله ثمانية أميال وعرضه أربعة ، وصمد الباقون تحت وطأة نيران المدفعية الحامية والغارات الجوية المستمرة في قتال يدور في الشوارع وقد ازدادت حالتهم سوءا ، حتى أنه عندما واصل الروس ضغطهم عليهم ، بدأت هذه الوحدات المنهوكة تستسلم بالجملة ، وأسر باولوس ورجال أركان حربه وأبرق الماريشال فوردلوف في الثاني من فبراير يقول أن المقاومة قد توقفت وأن عدد الأسرى بلغ تسعين ألف رجل . وكانوا هم كل ما تبقى من جيش كان تعداده احدى وعشرين فرقة ألمانية وفرقة واحدة رومانية ، وهكذا انتهت محاولة هتلر لاحتلال روسيا عنوة ، وتحطيم الشيوعية ليحل محلها نوع من الحكم لا يقل عنها غرابة في الطغيان الجماعي ، وسجل ربيع عام ١٩٤٣ · نقطة التحول في الحرب على الجبهة الشرقية ، وكان المد الروسي المتزايد حتى قبل معركة ستالينجراد نفسها ، قد دفع بالألمان الى الوراء على طول الجبهة وتم سحب الجيش الألماني بمهارة ونجاح من القوقاز ، ولكن الروس واصلوا الضغط على العدو ، وأخرجوه من حوض الدون الى ما وراء حوض الدونتز ، وهو خط البداية في الهجوم الذي شرع فيه هتلر في الصيف الماضي ، كما خسر الألمان الأراضي التي كانوا احتلوها في الشمال ، وأصبحوا على بعد يزيد على المائتين وخمسين ميلا من موسكو . كما تحطم الحصار المضروب على لينتجراد ، ومنى الألمان وأتباعهم بخسائر ضخمة في الرجال والمعدات · كما أنهم فقدوا تفوقهم على الروس برا ، وكان عليهم أن يحسبوا الآن حسابا للقوة الجوية البريطانية المتزايدة والعاملة من بريطانيا وأفريقيا في وقت واحد ·

الا أن النصر لم يدخل البهجة والسرور على نفس ستالين ، ولو انه حضر مؤتمر الدار البيضاء ، لأمكن للحلفاء الثلاثة أن يضعوا خطة

مشتركة معا . وبما أنه لم يحضر فقد اتفقنا على ابلاغ قراراتنا اليه بوساطة البرقيات ، وعندما عدت الى الوطن ، بعثت اليه بموافقة الرئيس على الايضاحات الاضافية عن خططنا ، وأكدت له فيها اننا سنحرر تونس في شهر ابريل ثم نستولى على صقلية ، كما أننا سنزحف بجيوشنا لعبور المانش في شهر أغسطس أو سبتمبر ، وقد رد على بقوله انى لا أرى بى حاجة الى القول بأن تأخير احتلال تونس الى شهر ابريل بدلا من فبراير قد خيب الآمال الى حد كبير ، كما أنه طالب بفتح الجبهة الثانية (غزو فرنسا) في موعد أقرب من شهر أغسطس حتى لا نعطى للعدو أية راحة ، ولأنه يرى أن توجيه الضربة اليه من الغرب في الربيع أو في مستهل الصيف هي من الأهمية بمكان عظيم .

كما أبرق الى في الخامس عشر من مارس يقول « مع ادراكى تمام الادراك ما لصقلية من أهمية الا أنه لا يمكن الاستعاضة بها عن الجبهة الثانية في فرنسا ، وأرى من واجبى تحذيركم تحذيرا شديدا ما سيترتب عليه من أخطار على قضيتنا المشتركة اذا تأخر فتح الجبهة الثانية في فرنسا ، وهو يثير القلق الشديد في نفسى وأجدنى عاجزا عن السكوت عليه . »

وكان من الواضح ، أن أقصى عون فعال يمكن لنا أن نقدمه الى الروس هو الاسراع في تطهير شمالى أفريقيا من قوات المحور ، وتوسيع نطاق الحرب الجوية على ألمانيا ، الا أنه على الرغم من أن زحفنا من الشرق قد فاق في سرعته ما كنا نتوقعه ، فقد ظل وضع الحلفاء باعثا على القلق وكان قد أعيد تسليح مالطة ومدها بالمؤن ولذلك فقد قفزت من جديد الى مسرح النشاط والعمليات ، وكانت قواتنا البحرية والجوية التى تعمل من قواعدها الجديدة في الجزائر وبرقة ، تجوب مناطق واسعة وتحمى طرق الحلفاء البحرية ، وتنزل بتمرينات العدو ونجداته أفدح الخسائر ، وبالاضافة الى فرض الحصار على تونس ، حيث كان السلاح الجوى الألمانى لا يزال قويا ، فقد أخذت طائراتنا تصل الى موانى ايطاليا ، وبدأت بالبرمو ونابولى وسبيزيا تحس بوطأة الغارات الجوية مع زيادتها يوما بعد يوم وذلك بالاضافة الى الغارات التى كانت تشنها قاذفاتنا العاملة من وطننا على المدن الواقعة في شمالى ايطاليا ، كما أن الأسطول الايطالى لم يحاول أن يتدخل ، لما كانت تعانيه ايطاليا من أزمة في الوقود ، بالاضافة الى وجود الأسطول البريطانى وقد انقضت عدة أيام ، خلت فيها جزيرة صقلية من الوقود اللازم للبواخر التى تتولى حراسة نقل المؤن والعتاد الى تونس .

لكن كل هذه المظاهر ، لم تكن كافية لاخفاء الحقيقة الواقعة ، وهى اننا قد استنفدنا كل ما لدينا من جهد فى أثناء المحاولة الفاشلة التى قمنا بها فى شهر ديسمبر لاحتلال تونس ، وعلى الرغم من أن هتلر كان عاجزا عن حماية الممر القصير الذى يصل تونس بجزيرة صقلية ، الا أنه أمر باعداد جيش جديد لمواجهة « الهجومين المتوقعين فى كل لحظة من الشرق والغرب ، وفى ذلك الوقت عُهد الى روميل بقيادة جميع قوات المحور ، فحشد فرقتين ألمانيتين مدرعتين شرقى فايد ليقذف بالفيلق الأمريكى المواجه الى الوراء ، وليحول بينه وبين الهجوم على جناحه ومؤخرته ، عندما يشترك فى معركة حامية مع الجيش الثامن ، الذى كان يواصل ضغطه من الشرق ، وبدأ الهجوم الألمانى فى الرابع من فبراير ، وكانت قيادتنا قد أخطأت التقدير ، اذ حسبت أن الهجوم الرئيسى سيأتى من ناحية « فندق » لا من ناحية فايد ، ولهذا فقد تفرقت الفرقة الامريكية المدرعة الأولى التى يتولى قيادتها الجنرال آندرسون ، فلم يحل السابع عشر من فبراير حتى كانت « القصرين وقربانه وسبيطله فى أيدى الألمان ، واندفع روميل بعد ذلك فى اتجاه الشمال ، فى قتال عنيف ، ولم يحل ظُهر الثانى والعشرين من فبراير حتى كان روميل قد بدأ يتراجع تراجعا منظما ، وعاد خطنا الدفاعى الى ما كان عليه فى السابق ، ولكن روميل لم ينته بعد ، اذ لم تمض أربعة أيام حتى عاد يشن سلسلة من الهجمات القوية على جبهة الجيش الخامس البريطانى ، الا أنه صُد دون أن يحقق أى مكاسب ذات قيمة ، أما الى الشمال فقد كسب عدة أميال من الأرض ، واضطُرت قواتنا عند الساحل الى التراجع مسافة عشرين ميلا الى الوراء ، ثم صمدت فى مواقعها الجديدة ٠

وتولى الجنرال اليكسكندر فى الأسبوع الأخير من شهر فبراير قيادة الجبهة كلها ، وتولى مريشال الجوتيدر فى الوقت نفسه طبقا لقرارات الدار البيضاء قيادة القوات الجوية الحليفة ، وكانت معركة تونس قد بلغت الآن قمتها ، وشن روميل فى السادس من مارس أربع هجمات رئيسية على الجيش الثامن الزاحف ، مستخدما كل ما لديه من دبابات (ثلاث فرق مدرعة) ، ولكن هذه الهجمات صُدت كلها بخسائر فادحة ، ولاريب فى أن هذه الهزائم كانت أعظم ما مُنى به روميل من نكسات فى الحرب الأفريقية كلها ، كما كانت فى الوقت نفسه آخر ما قام به من عمل عسكرى هناك ، فقد نُقل عليلا الى ألمانيا ليخلفه أرنيم فى قيادته ٠

وواصل الجيش الثامن زحفه الى الأمام ، ليطبق على مواقع العدو الرئيسية فى (خط ماريت) وهو خط محصن ومنظم كان الفرنسيون قد اقاموه على طول عشرين ميلا قبل الحرب لمنع الايطاليين من الهجوم على تونس ، وها هم أولاء الايطاليون يملئون هذا الخط ويحصنونه ضد البريطانيين ، وكنا فى حاجة الى أسبوعين لاعداد العدة للهجوم على مثل هذه الخطوط الدفاعية المحصنة ، ووجهنا ضربتنا فى الأسبوع الثالث من شهر مارس ، واحطنا بجناح العدو وفى السابع من ابريل وبعد قتال عنيف ، اتصلت دورية من الفرقة الهندية الرابعة بدورية من الفيلق الامريكى الثانى وتبادلا التحية ، وهكذا فقد اتصل الجيشان اللذان بدأ المعركة وبُعد كل منهما عن الآخر ميلا على أقل تقدير ، كما هاجمت طائراتنا من قاذفات اللهب والطائرات الامريكية « دور هوك » قافلة جوية للعدو يربو عددها على المائة طائرة ، على مقربة من رأس بون . فتفرقت شذر مذر ودمّر أكثر من خمسة عشر طائرة منها ، وفى الثانى والعشرين من ابريل اشتعلت النيران فى ثلاثين طائرة أخرى بينها عدد كبير من ناقلات الزيت ، وكانت هذه الضربة قاضية بالنسبة لعناد هتلر واصراره على الاحتفاظ بموقع لا يستطيع البقاء فيه ولم تجرؤ أية طائرات العدو بعد هذا التاريخ على الطيران فى أثناء النهار ، وكانت قد حملت أكثر من أربعين ألف رجل وأكثر من أربعة عشر ألف طن من المؤن الى افريقيا .

وفى السادس من مايو ، شن اليكسلندر هجومه العظيم . وبذلت طائرات الحلفاء مجهودا هائلا ، فقامت بأكثر من ألفين وخمسمائة غارة فى اليوم الواحد ، وكان سلاح المحور الجوى قد ضعف تدريجيا ، ولم يكن فى وسعه أن يقوم فى هذه الازمة بأكثر من ستين غارة فى اليوم ، ولذلك فقد اقتربت الازمة من نهايتها . بعد أن أحكمنا الحصار بحرا وجوا ،والذى كان سببا فى ايقاف حركات العدو منذ مدة طويلة ، كما أن مجهوده الجوى آخذ فى التوقف ؛ وقد تمكن الفيلق البريطانى التاسع من خرق جبهة العدو ، كما عَبَرَتْ الفرقتان المدرعتان وسط قوات المشاة المعادية الطريق الموصل الى ماسيكوت والواقعة فى منتصف الطريق الى تونس ، وواصلت فى اليوم الثانى ضغطها حتى تمكنت الفرقة المدرعة السابعة من دخول مدينة تونس فى السابع من مايو ، ثم انطلقت شمالا للاتصال بالقوات الأمريكية الزاحفة شرقا ، وبعد أن انهارت المقاومة الألمانية أمام الجبهة الأمريكية الرئيسية كما وصلت الفرقة الأمريكية التاسعة الى بنزرت ،

وهكذا تم تطويق ثلاث فرق ألمانية بوساطة قوات الحلفاء فاضطرت الى الاستسلام فى التاسع من مايو •

وقد زحفت الفرقة المدرعة السادسة تتبعها الفرقة البريطانية الرابعة والفرقة المدرعة الأولى الى يمينها شرقا بعد أن عبرت مدينة تونس ، ولكن هذه القوات توقفت أمام مقاومة تم تنظيمها بسرعة على بعد بضعة أميال الى الشرق من المدينة ، الا أن دباباتنا تمكنت من الزحف على الطريق الساحلى حتى وصلت الى الحمامات على الساحل الشرقى فى مساء العاشر من مايو ، كما تقدمت فى الوقت نفسه الفرقة الرابعة فالتفت حول شبه جزيرة رأس بون دون أن تلقى أية مقاومة ، وهكذا سقطت قوات العدو فى الفخ •

وبعث الينا الجنرال اليكسكندر فى الحادى عشر من مايو . يقول : « أتوقع أن تنتهى كل مقاومة منظمة للعدو فى خلال الثمانى والأربعين ساعة القادمة ، وأن تتم تصفية جميع قوات المحور بصورة نهائية فى بحر يومين أو ثلاثة ، وأعتقد أن عدد الأسرى حتى الآن قد تجاوز المائة ألف ، وان كان هذا الرقم لم يتأيد بصورة رسمية بعد •

وكان الأميرال كاتنجهام قد أعد العدة لمواجهة انهيار العدو النهائى فأصدر أوامره الى جميع قواتنا البحرية بحماية مضايق تونس والحيلولة دون أية محاولة قد يقوم بها العدو للجلاء عن تونس كما فعلنا فى دنكرك، كما أصدر اليها أوامره أيضا فى الثامن من مايو « بأن يغرقوا ويحرقوا ويدمروا وألا يتركوا شيئا للعدو يمر » وقد حاولت بعض الزوارق الفرار ولكنها وقعت جميعها فى أيدينا وأغرقناها وقد تم اغلاق جميع الطرق فى الثامن عشر من مايو واستسلم العدو استسلاما كاملا وأبرق اليكسكندر ظهر الثالث عشر من مايو يقول :

سيدى :

« من واجبى ابلاغك بأن حملة تونس قد انتهت ، وتوقفت جميع مقاومة العدو . وأصبحنا سادة الساحل الشمالى الافريقى كله »

وليس فى وسع أى انسان أن يشك فى عظمة انتصار تونس ، انه يقف جنبا الى جنب مع ستالينجراد ، فقد أسرنا نحوا من ربع مليون جندى من جنود الاعداء ، ومنى العدو بخسائر فادحة فى الأرواح ، كما أغرقنا

مالا يقل عن ثلث سفن مؤنه ، وهكذا تطهرت أفريقية من أعدائنا وتم انقاذ قارة واحدة على الأقل ، ولهذا فقد شعرنا فى لندن لأول مرة منذ نشوب الحرب بارتفاع صادق فى المعنويات ، كما اســـــتقبل البرلمان والوزراء بالحماس وسجل شكره البالغ مع أصدق عبارات التقدير للقادة العسكريين وكنت قد أصدرت الاوامر بأن تقرع جميع أجراس الكنائس فى طول البلاد وعرضها ، ويؤسفنى أننى لم اسمع رنينها ، اذ كنت فى ذلك الوقت أؤدى عملا آخر مهما فى الطرف الثانى من المحيط الأطلسى ٠

إخراج إيطاليا من الحرب

لقد أخرتني أسباب مهمة جدا عن السفر الى واشنطن بعد أن انتصرنا فى افريقية ، وسألت نفسى ، ماذا سنفعل بعد ذلك ، وهل سنكتفى بجنى ثمار نصرنا فى شمال افريقية ، أو نعمل كل ما فى امكاننا لاخراج ايطاليا من الحرب ؟ وادخال تركيا الى جانبنا ؟ وهذه أسئلة كانت على جانب كبير من الأهمية والخطورة ، وعزمت على أن أبحث كل هذه المسائل مع الرئيس روزفلت ، مع مسألة تنسيق الخطط فى المسرح الهندى ، وذلك لحسم الخلافات الخطيرة الخفية لاننا اذا لم نقم بحلها فورا فستؤدى الى المتاعب ، والى اضعاف عملنا فى المدة المتبقية من العام ، وهذا هو السبب الذى دعانى لأن أعقد مؤتمرا مع الرئيس ·

ولما كنت لا زلت مريضا ، فقد قرر الأطباء أن أسافر بحرا بدلا من الطائرة ولهذا فقد غادرت لندن مع جميع أعضاء الوفد المرافق على البارجة « الملكة مارى » وكانت قد أعدت بصورة وافية لحاجتنا ، وهيئت غرف خاصة لجميع الأعضاء على السطح الرئيسى للبارجة مجهزة بالمكاتب والخرائط وبها قاعات فسيحة للاجتماعات ، ولذا فقد بدأنا نعمل فى الحال ودون توقف ، لمدة أسبوعين وتناولنا بالبحث كل ناحية من نواحى الحرب مع رؤساء أركان الحرب وعدد آخر من ضباط أركانهم ، بحضور اللورد ليثرز وكبار موظفى وزارة النقل البحرى والجنرال ايسماى وموظفى مكتبى كوزير للدفاع ، وكذلك قادة الفيالق الهندية وهم الماريشال ويفل والأميرال سومرفيل وماريشال الجو الأعلى بيرس ، وكان سبب وجود هؤلاء جميعا هو تنسيق العمل مع أصدقائنا الأمريكيين للقيام بعمليات سريعة من الهند ولمعرفة آرائهم فيما سيطلب اليهم من العمل ·

وفى أثناء رحلتنا كانت اللجنة المشتركة لأركان العمليات الحربية والمخابرات تعقد اجتماعات مستمرة ، على حين كان رؤساء أركان الحرب يجتمعون مرة أو مرتين فى كل يوم ، وكنت أنقل آرائى اليهم

كل صباح على شكل ملاحظات وتوجيهات مكتوبة ، كما كنت أتحدث اليهم دائما بعد الظهر أو فى المساء ، واستمرت هذه الأبحاث والمناقشات طيلة أيام الرحلة ، وقد وصلنا الى قرارات خطيرة مدروسة بعناية ، كما اتفقنا اتفاقا تاما على العمليات التى يجب أن تتم فى أوروبا ، ولما كنا قد قررنا فى مؤتمر الدار البيضاء الهجوم على صقلية ، واتخذت الاستعدادات لتنفيذ هذا القرار ، ولما كان رؤساء أركان الحرب البريطانيين يرون الهجوم على البر الايطالى لاحتلال رأس جسر فى مقدمة الحذاء الايطالى يتبعه هجوم آخر على الكعب كمقدمة للزحف على كل من بارى ونابولى ، فقد أعدوا مذكرة بذلك لتسليمها الى رؤساء الحرب الأمريكيين بمجرد وصولنا الى واشنطن لتكون أساسا للمحادثات ٠

هذا وقد خشينا ألا يتم الاتفاق مع أصدقائنا الامريكيين حول الجبهة الثانية فى الهند ، وكنا قد أعددنا الكثير من الخطط على الورق ولكنه لم يتوافر لنا الوقت لاظهارها بصفة عملية ٠

ولما كان الرئيس روزفلت وأفراد حاشيته يؤملون فى القوة العسكرية التى تستطيع الصين اعدادها اذا أتيح لها الحصول على الأسلحة والمعدات الكافية وكانوا يخشون من انهيارها اذا لم يصلها هذه المعدات ولما كانت لم ترق لى فكرة اعادة احتلال بورما عن طريق الزحف عن طرق اسام غير المعبدة ، وكنت لا أحبذ احتلال الأدغال ، وكان تفكيرى متجها الى القوات الجوية والبحرية والبرية والمواقع الهامة ، ورأيت أنه من الضرورى ألا يشعر أصدقاؤنا بأننا غير راغبين فى اقتحام المصاعب ولكى يقتنعوا اننا على استعداد لتلبية طلباتهم ـ فقد وافقتهم على آرائهم ٠

وفى الساعة الثانية والنصف من بعد ظهر اليوم الثانى عشر من مايو اجتمعنا والرئيس وجميع رؤساء الأركان البريطانيين والأمريكيين فى مكتب الرئيس لاستعراض الاوضاع بصورة عامة ووضع أسس العمل لاجتماعاتنا ومؤتمراتنا ، وقد طلب الى الرئيس أن أبدأ الحديث ، وكانت خلاصة الأفكار التى سردتها على النحو التالى :

« علينا ألا ننسى ان هناك ١٨٥ فرقة ألمانية فى الجبهة الروسية ، وقد حطمنا الجيش الألمانى فى افريقيا ، وعن قريب سنصير غير مشتبكين معهم فى أية جبهة أو ميدان ، ولا ريب ان المجهود الروسى عظيم ، واننا فى وضع المدين لهم ، ولعل خير طريقة لتخفيف الضغط على الجبهة الروسية فى عام ١٩٤٣

هو أن تخرج ايطاليا سواء بالرضا أو بالاكراه من الحرب ، وبذلك نرغم ألمانيا على ارسال قوات ضخمة للمحافظة على البلقان ، ويوجد لنا جيش كبير وقوة جوية كبيرة من المقاتلات فى بريطانيا ، ولدينا أيضا خيرة الجنود وأحسنهم تدريبا فى البحر الأبيض المتوسط ، كما أن للبريطانيين وحدهم ثلاث عشرة فرقة فى شمالى افريقية ، واذا افترضنا اننا انتهينا من صقلية فى شهر أغسطس ، فماذا تعمل هذه القوات فى الفترة الواقعة بين هذا التاريخ وبين عام ١٩٤٣ ، والتى قد تمتد سبعة أشهر أو ثمانية لكى نبدأ عملية عبور القنـاة ؟ ليس فى وسعنا أن نترك هذه القوات بدون عمل ، ولا شك فى أن هذه الفترة الطويلة ستترك أثرا سيئا تحمل وحدها أعباء لا يمكن تصورها » •

وقد وافقنى الرئيس روزفلت ، على انه يحبذ الاشتباك مع ألمانيا لتخفيف العبء عن روسيا ، وأعرب عن رأيه فى أن خير طريقة لارغام ألمانيا على القتال هى أن نشرع فى عملية عبور القناة ، وقد قلت للرئيس بأننا سبق أن اتفقنا على ألا نشرع فى مثل هذه العملية قبل عام ١٩٤٤، ولذلك فانه من اللازم الآن أن نستخدم جيوشنا فى الهجوم على ايطاليا ، حتى اذا انهارت ، فاننا سنحتل الموانى والمطارات الضرورية للقيـام بعمليات مقبلة فى البلقان وجنوب شرقى أوروبا ، ويكون فى وسعنا أن نقيم حكومة ايطالية تتولى الاشراف على البلاد ، وتحت توجيه واشراف الحلفـاء ، وطلبت من أعضاء اللجنة المشتركة لرؤساء أركان الحرب ومستشاريهم أن يدرسوا هذه الخطط دراسة وافية وأن يمحصوها •

وقد ظهر أن هنـاك اختلافات فى وجهـات النظر لا يمكن تذليلها بسهولة أو التغلب عليها ، وأدى تسرب بعض الأخبار من كبار القـادة العسـكريين الأمريكيين فى هـذه الفترة الى الشـيوخ الديموقراطيين والجمهوريين الى مناقشتها فى مجلس الشيوخ ، ولـكنه مع الصبر والأناة أمكن تذليل هذه الخلافات وحلها تدريجيا ومما ساعد على ذلك وجودى مع الرئيس حيث كنت أقيم فى البيت الأبيض وكنا نرى بعضنا بعضاً فى كل ساعة من ساعات النهار ، وكنا دائما متفقين فى الآراء ، وهكذا حلّت تلك الأزمة المستعصية •

كما أسفرت الاتفاقات التى تمت بين الأركان على غزو صقلية ، وقد شعرت بقلق عظيم لأن لجنة الأركان لم تتخذ توصيات محدودة بأن

يتبع احتلال صقلية غزو البر الايطالى ، وكنت أعرف أن آراء أركان الحرب الأمريكيين تتجه الى جزيرة سردينيا ، لانهم كانوا يرون ان هذه الجزيرة يجب أن تكون الهدف الباقي للقوات الكبيرة المحتشدة فى البحر الأبيض المتوسط فى المدة الباقية من عام ١٩٤٣ • وكنت أرى هذا الاتجاه غير سليم لأسباب عسكرية وسياسية ، لان الروس يحاربون في جبهة شاسعة ودمهم يسيل أنهارا فى هذه المعركة الجبارة ، ولا يصح لنا أن نبقي مليونا ونصف مليون من خيرة جنودنا بالاضافة الى القوات الجوية والبحرية الهائلة بدون عمل مدة سنة تقريبا •

واتضح لى أن الرئيس غير مستعد للضغط على مستشاريه بقبول فكرة غزو ايطاليا بصورة محدودة ، ولما كان هذا الهدف الرئيسى هو الذى حملنى على قطع المحيط الى واشنطن ، فقد رأيت نفسى عاجزا عن الوقوف بهذه القضية عند هذا الحد ، وقال لى هوبكنز انك اذا أردت أن نقبل وجهة نظرك ، فعليك أن تستمر مواصلا الالحاح لمدة أسبوع آخر ، ولما كانت النتيجة غير مضمونة تماما ، فقد أحسست بخيبة أمل ، وطلبت الى الرئيس فى الخامس والعشرين من مايو بصفة شخصية أن يسمح للجنرال ماريشال بالمجيء معى الى الجزائر ، بعد أن أوضحت للمؤتمر بأنى أشعر ببعض الحرج فى بحث هذه القضايا مع الجنرال ايزنهاور دون أن يشترك معنا فى الحديث ممثل أمريكى كبير ، اذ ربما تفسر موافقة ايزنهاور على رأيى فى واشنطن أنها كانت بسبب الضغط عليه ، ولما علمت بأن الجنرال ماريشال سيرافقنى فى رحلتى شعرت بالارتياح •

وفى صباح اليوم التالى غادرت واشنطن بطائرة ركب معى فيها الجنرال ماريشال ورئيس أركان حرب الامبراطورية وايسماى وبقية أعضاء الوفد البريطانى ، وقد دارت بيننا محادثات كثيرة أثناء هذه الرحلة الجوية الطويلة وكانت مثمرة ، ولما اقتربنا من جبل طارق بحثنا عن طائرات الحراسة فلم نجد لها أثرا وهبطنا مطار جبل طارق فى المساء وكان فى استقبالنا الحاكم ، وبالنسبة لأن الوقت كان متأخرا فلم يعد فى امكاننا مواصلة الطيران الى الجزائر فى تلك الليلة ، وقد استضافنا الحاكم فى الدير الذى يقيم فيه ، ولم نترك جبل طارق الا بعد ظهر اليوم التالى وقد أتيحت لنا الفرصة للطواف بالجنرال ماريشال فى جميع أنحاء الصخرة وزرنا مشروع تقطير المياه الجديد كما زرنا مواقع بعض المدافع وبعض المستشفيات والثكنات ، وهبطنا الى المكان المفضل عند الحاكم ، وهو الشرفة الصخرية الجديدة التى حفرت داخل الصخر الى عمق بعيد ،

وقد نصبت فيه المدافع التى تسيطر على البرزخ الذى يصل الصخرة بالبر وعلى الأرض الحرام بين بريطانيا وأسبانيا ، وقد ثبت لى انه مهما كانت الأخطار التى قد تتعرض لها صخرة جبل طارق ، فانها لن تخشى أبدا هجوما يُشن عليها من البر الأسبانى ٠

هذا وقد أحاطت بنا أثنـاء ركوبنا الطائرة الى الجزائر ، اثنتا عشرة طائرة مقـاتلة لحراستنا ، ووصلنا فى المساء الى الجزائر ، حيث كان الجنرال ايزنهـاور وبيـدل سميث والأميرال اندرو كاتنجهام والجنرال اليكساندر وعدد من الأصدقاء فى انتظارنا ، وذهبنا فورا الى منزل الأميرال كاتنجهام المجاور لمنزل الجنرال ايزنهاور ، التى وضعها تحت تصرفى مدة اقامتى فى الجزائر ، وقد شعرت بالسعادة طول الثمانية أيام التى قضيتها فى الجزائر وتونس ، وأبرقت الى ايدن طالبا اليه المجىء والانضمام الينا ، ليشرف بنفسه على اعداد الترتيبات اللازمة للمقابلة التى مهدنا لها بين جيرو وديجول وللقيام ببعض المهام الأخرى ٠

ولما كانت تحدونى الرغبة فى الحصول على قرار بغزو ايطاليا ، قبل مغادرتى لأفريقية فى حالة الأنتهاء من إحتلال صقلية ، فقد نقلت أنا وبروك آراءنا الى الجنرال إليكسـاندر والأميرال أندرو كاتنجهـام وماريشال الجو تيدر والجنرال مونتجومرى فيما بعد ، وقد وافقت جميع هذه الشخصيات على آرائنا ، ورأوا فى إحتلال إيطاليا الثمرة الطبيعية لتلك الأنتصارات التى بُدأت بمعركة العلمين وكان أملنا أن نحصل على موافقة حليفتنا العظمى ، لأنى لاحظت من جانب ايزنهاور بعض التحفظ بعد أن استمع الى جميع حججنا ، كما أن ماريشال قد ظل صامتا حتى اللحظة الأخيرة ٠

ولما كانت لدينا قوات تبلغ ثلاثة أضعاف القوات الأمريكية ، كما كانت لدينا أربعـة أضعاف قواتهم البحرية ومثل هـذه النسـبة من الطـائرات ، كما كنـا قد خسرنا منذ معركة العلمين وحدها دون أية اشارة الى الخسائر السابقة فى البحر الأبيض المتوسط ثمانية أضعاف ما خسرته أمريكا من الرجال وثلاثة أضعاف ما خسرته من السفن ، فقد كانت ظروف الاجتماع مواتية للبريطانيين ، فضلا عما لاقته هذه الحقائق الواضحة مما تستحقه من عناية واعتبار لدى القادة الأمريكيين الذين لم يكونوا يجهلون تفوقنا عليهم فى المنطقة فى كل شىء ، كما كان تقبلنا للجنرال إيزنهاور كقائد أعلى ، فقد اقتنع الأمريكيون بصواب رأينا ٠

وعقدنا أول اجتماع لنا فى منزل الجنرال ايزنهاور فى الجزائر فى مساء التاسع والعشرين من مايو ، ورأس الجنرال ايزنهاور الجلسة بوصفه مضيفنا يساعده فيها كل من ماريشال وبيدل سميث ، وأخذت مقعدى أمامه ومعى بروك واليكساندر وكاتنجهام وتيدر وايسماى وآخرين ، وقال ماريشال أن رؤساء أركان الحرب الأمريكيين يرون أنه ليس من الحكمة اتخاذ قرار بشأن غزو إيطاليا حتى تتبين نتيجة الهجوم على صقلية ، وينجلى الوضع فى روسيا تمام الجلاء والطريقة المنطقية هى أن نعد قوتين منفصلتين فى مكانين متفرقين ولكل منهما قيـــادته الخاصة ، وسيجرى تدريب احــدى هاتين القوتين على القيـــام بعملية حربية ضد جزيرتى سردينيا وكورسيكا بينما تدرب الثانية على القيام بعمل حربى فى البر الايطالى ، وهنا قال ايزنهاور انه اذا انتهت عملية صقلية بسهولة فانه سيكون راغبا فى مهاجمة ايطاليا نفسها ووافقه اليكساندر على رأيه .

وهنا قال رئيس أركان حرب القوات الامبراطورية ، ان معـركة هائلة ستنشب عما قريب بين الروس والألمان ، وان علينا أن نبذل كل ما فى وســعنا لمساعدة روسيا ، وأن نُحَمِّل الالمـان على تجزئة قواتهم وتوزيعها ، بعد أن انتشروا فى مساحات شاسعة ولا يمكنهم تخفيضـها لا فى روسيا ولا فى فرنسا ، ولعل المكان الصالح لتجزئة هذه القوات هو ايطاليا ، واذا أمكننا ان نُخرج ايطاليا من الحرب فستجد ألمانيا نفسـها مضطرة الى استبدال الفرق الايطـــالية الست والعشرين الموجودة فى البلقان بقوات ألمانية كما ستُجبر على تعزيز ممر برنو والريفييرا والحدود الاسبانية والأيطالية ، وان توزيع هذه القوات هو ما نرمى اليه لتأمين عبور القناة .

وأعلن ايزنهاور انه اذا نجحت عملية صقلية فى بحر أسبوع ، فأنه سيعبر فورا مضـايق سينا ويقيم رأس جسر له فى البر الايطالى ، وأعربت له عن وجهة نظرى الشخصية فى أن عملية صقلية ستنتهى فى الخامس عشر من أغسطس ، فاذا تحقق ذلك فسنهاجم فورا ايطاليا ، على شرط ألا تكون ألمانيا قد بَعثت بعدد كبير من فرقها الى هناك نظرا لاحتمال قيام رد فعل تركى فى مصلحتنا .

وعندئذ أوضح بروك عدد ما لدينا من قوات فى البحـر الأبيض المتوسط بعد أن حذف سبع فرق يجب أن تعود الى بريطانيا لتشترك فى عملية اجتياز القنـاة وفرقتين لتغطيـة التزامات بريطانيا العســكرية لتركيا ، وان ما سيتبقى فى منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط سبع

وعشرون فرقة حليفة ، وقال ان من المؤسف ألا نتمكن بمثل هذه القوات الضخمة من عمل شيء في الفترة ما بين أغسطس وسبتمبر من هـذا العام ، وعلى ذلك فقد اتضحت لى رغبة جميع القادة العسكريين فى أن نمضى سريعا وبأجرأ ما يكون من خطط ٠

واجتمعنا ثانية بعد ظهر الحادي والثلاثين من مايو ، بعد أن وصل المستر ايدن وأبديت رأيى فى أن نتجه الى غزو جنوب ايطاليا ولربما تكون طوالع المعركة تقتضينا اتخاذ سبيل معاكس٠ ولم يخالفنى الجنرال ماريشال فى هذا الرأى ، الا انه قال ان من الخير تأجيل القرار الى مابعد البدء في عملية صقلية ، وأضاف ان من الضرورى أن نعرف شيئا عن رد الفعل الألمانى لنستطيع أن نقرر ما اذا كان الألمان سيقاومون مقاومة حقيقية في جنوب ايطاليا ، أو سينسحبون الى نهر البو وهل فى وسعهم أن يعتمدوا على الايطاليين ، وأن نعرف امداداتهم التى إتخذوها فى سردينيا وكورسيكا والبلقان ، والتعديلات التى ستطرأ على أوضاعهم فى الجبهة الشرقية ، وكان هو والجنرال ايزنهاور ورجال رياسة الأركان المشـتركة يدركون تماما ، حقيقة مشاعرى فى صدد غزو ايطاليا ، وأيدوا رغبتهم فى أن يتركوا اختيار الهدف التالى الى مابعد صقلية ٠

وقد قلت ان رغبتى الوحيدة ، هى أن أرى ايطاليا قد أزيحت من طريقنا ، وأن أشهد روما فى قبضتنا ، وانى لا أحتمل أن أرى هذا الجيش الضخم عاطلا عن العمل فى الوقت الذى نستطيع أن نقحمه فى معـركة لضرب ايطاليـا واخراجها من الحـرب ، وأكدت لهم أن برلماننا وشعبنا سيفرغ صبرهما اذا تعطل الجيش عن العمل ٠

ويجدر بى هنا أن أوضح بعض الأمور التى كانت موضوعا لسوء التفاهم والخلاف ، فقد طلب منى المستر ايدن أن أبين الوضـع الذى ستكون عليه تركيا اذا خرجت ايطاليا من الحرب ، وهل هـذا سيمهد الطريق لادخالها فى الحرب الى جانبنا عندما تصل قواتنا الى منطقـة البلقان ، وعلى الرغم من اننى كنت متفقا مع إيدن على سياستنا الحربية فقد خشيت أن يؤدى تحوير العبـارة الى تضليل أصدقائنا الأمريكيين ، فقد قال انه ليس من الضرورى أن نبعث الى البلقان الآن بجيش طالما أن الأتراك سيبدءون العمل فى اللحظة التى نستطيع فيها أن نشكل تهديدا مباشرا للبلقان ٠

وهنا طلبت الى الجنرال اليكساندر أن يبدى رأيه ، فقال أن تأمين رأس جسر على البر الايطالى يجب أن يكون جزءا من خطتنا فى الوقت الذى تجرى فيه عملية صقلية ، ولو أن رأس الجسر فى ايطاليا ربما لايكون منيعا كل المناعة مما يتطلب أى تعديل فى خطتنا وعملياتنا لاحتلال قبرص ، وعلينا أن نواصل الحركة دون توقف بعد أن يبدأ هجومنا على صقلية ، وقد يصبح التقدم أكثر صعوبة كلما تحركنا شمالا فى البر الايطالى ، الا أن هذا لا يمكن أن يحول بيننا وبين المضى الى أبعد مانستطيع كجزء من عملية صقلية ، وكثيرا ما تقع فى الحروب أمور لا يكاد الانسان يصدقها فقبل بضعة أشهر ، ما كان ليصدق ان ما حدث لرومل وفيلقه الأفريقى بالفعل ، قد يحدث مطلقا كما كان من الصعب أن يصدّق أن ثلثمائة الف ألمانى سينهارون فى أسبوع واحد ، وقد تم القضاء على قوات العدو الجوية حتى انه أصبح فى وسعنا أن نقيم عرضا عسكريا لكل قواتنا العاملة فى شمالى افريقيا دون أن نخشى خطرا من طائرات العدو .

وفى الحال انبرى كاتنجهام لتأييده ، وقال ان علينا فى حالة نجاح العملية فى صقلية ، أن نعبر المضايق فورا دون أى تأخير ، واختتم الجنرال ايزنهاور الاجتماع بقوله ، ان واجبه يدعوه الى الحصول على المعلومات الكافية فى صدد المراحل المبكرة من غزو صقلية ، وأن يبعث بها الى رياسة أركان القيادة المشتركة فى وقت مبكر ، لتقرير الخطة التى يجب علينا أن نتبعها دون توقف أو انقطاع ، وانه سيشفعها بالتوصيات التى يراها على أساس الأوضاع الراهنة ، وأعرب عن أمله فى أن يتمكن القادة الثلاثة المسئولون اى اليكساندر وكاتنجهام وتيدر من أن يوضحوا له بصفة رسمية آراءهم فى جميع هذه الخطط .

وبعد أن أمضينا يومين فى بعض الأماكن الجميلة فى شمالى افريقيا ، قام الجنرال مارشال بزيارة قصيرة لبعض القوات الأمريكية ، ثم رافقنى ومعنا الجنرال اليكساندر فى زيارة جميع القادة العسكريين وبعض الوحدات وقد أحسسنا بشعور النصر يملأ الجو ، بعد أن تم تطهير شمال افريقية من قوات العدو ، وأصبح فى حوزتنا ما يربو على ربع المليون أسير .

وقد شعرت باننا حققنا تقدما كبيرا فى محادثاتنا وان الجميع أصبحوا يؤيدون فكرة الهجوم على ايطاليا ، ولهذا فعندما عقدنا اجتماعنا

الختامي في الثالث من يونيو لخصت النتائج التى توصلنا اليها وأثنيت بالغ الثناء على الجنرال ايزنهاور .

وبعد انتهاء هذا الاجتـــماع عدت أنا وايدن طائرين الى الوطن فى طريق جبل طارق ، ولما كانت الصـــحافة تنقل أنباء وجودى فى شمال افريقية بصورة كاملة ، فقد نبه ذلك الألمان ، وقد أدى هذا الى مأساة سببت لى الكثير من الألم ، فعندما كانت الطـــائرة التجارية العادية على وشك مغادرة مطار لشبونة تقدم منها رجل ضخم الجثة وفى فمه سيجارا، على أنه سيسافر عليها ، ولكن ظهر أنه من الجواسيس الألمان ، حيث أبرق الى مرجعه يقول انى موجود فى تلك الطائرة ، وعلى الرغم من أن هذه الطائرات التجارية كانت تسافر بانتظام فى الأشـــهر الماضية بين انجلترا والبرتغال دون أن تتعرض لها الطائرات الألمانية ، الا ان طائرة حـــربية ألمانية ، تلقت الأوامر فورا بقطع الطـــريق على طائرة الركاب المذكورة ، فهاجمتها وأسقطتها ، وقضى ثلاثة عشر راكبا نحبهم وبينهم الممثل البريطانى المشهور ليسلى هوارد ، ومن الصعب على الانسان أن يفهم كيف يمكن أن يتصور عاقل ان رجلا مثلى ، تحت تصرفه كل ما لدى بريطانيا العظمى من موارد عظيمة ، يمكن أن يحجز مقعدا فى طائرة ركاب عادية غير مسلحة ، ولا حراسة لها ، تطير من لشبونة الى الوطن فى وضح النهار ، ولكننا كنا قد قمنا فى الليل بدورة واسعة من جبل طارق فوق المحيط ووصلنا الى الوطن دون أى حادث الا اننى أصبت بما يشـــبه الصاعقة عندما علمت بما أوقعه القدر الأعمى بالآخرين .

النصر والمأساة
١٩٤٢ - ١٩٤٥

[« لقد فشل النصر الساحق الذى حققه الحلف الاعظم حتى الآن ، فى أن يأتى للعالم القلق بالأمن والسلام »]

احتلال صقلية وسقوط موسوليني

الآن وبسبب دخول الولايات المتحدة فى الحرب بعد هجوم اليابان على ميناء اللؤلؤ ، قد أصبح انتصار الحرية أمرا مؤكدا ، وفعلا قد وصلنا الى نقطة التحول فى الحرب الكونية الثانية ولم يأت شهر مايو حتى كانت جميع القوات الألمانية والأيطالية فى القارة الافريقية قد أبيدت أو أسرت، كما أوقفت - انتصارات الأمريكيين منذ عام فى بحر المرجان وجزيرة مايدواى - التوسع اليابانى فى المحيط الهادى ، كما اتضح لهتلر أن عليه أن يدفع الثمن غاليا للغلطة الكبرى التى ارتكبها فى محاولة احتلال روسيا عن طريق الغزو ، وعما قريب سيجد الشعب الألمانى نفسه وحيدا فى أوربا ، وكان فى وسعنا أن نرى الميزان ينقلب الى مصلحتنا فى ابريل عام ١٩٤٣ ، حيث كانت قوافل الغواصات المعادية تضطر الى البقاء تحت سطح البحر وكانت مطاردتها تستمر وتتواصل ، بينما تقوم وحداتنا الحارسة من بحرية وجوية بحماية القوافل ، والصمود للغواصات المهاجمة، وتوافر لدينا الآن القوة الكافية لتشكيل مجموعات مستقلة من السفن التى تمثل دور فرق الفرسان ، وكان هذا كل أملى ، ولما كان الألمان قد أنزلوا الى البحر مائتين وخمسا وثلاثين غواصة وهو أكبر عدد دفعوا به

حتى الآن ، وكان بحارتها تنقصهم الخبرة ، فلم تكن هجماتهم تصــيب أهدافها بدقة ، ولهذا فقد هبطت خسائرنا الى ثلثمائة ألف طن ، كمـا أغرقوا لنا أربعين غواصة فى شهر مايو وحده كما أن خسائرنا فى شهر يونيو هبطت الى أقل رقم شهدناه منذ دخلت الولايات المتحـدة الحرب وأخذت القوافل تجتاز طريقها بأمان ٠

كما أصبح فى وسع جيوشنا ، أن تعبر البحر لمهاجمة هتلر فى اوربا ، وذلك بسـبب زوال قوة المحور "فى" الشـمال الأفريقى ، كما أعيد فتح طريق القوافل المباشرة الى مصر والهند واستراليا ، فى حماية قواتنا البحـــرية والجوية على طول الطريق من جبل طـــارق الى الســـويس ، وبذلك لم تعد قوافلنـــا تدور حول رأس الرجاء الصـــالح وهى الطريق التى كلفتنا غالياً من الوقت والجهد والحمولة ، وأدى ذلك الى توفير خمسة وأربعين يوما بالنسبة الى كل قافلة تسافر الى الشرق الأوسط ٠

ولمـا كانت الهزيمـة التى نزلت بغواصاتنا قد أثرت على جميع الأحداث مما جعل الباقى منها يتفرق فى مساحات شاسعة ونائية فى جنوب الأطلنطى والمحيط الهندى ، وأصبحت وسائل دفاعنا أقل قوة ، هذا وقد استمرت عملياتنا الجوية الهجومية فى خليج بسكاى فى الازدياد والقوة يوما بعـد آخر ، حيث أغرقنا للعـدو سبعا وثلاثين غواصة فى شهر يوليو وحده ، كما أغرقنا فى الأشهر الثلاثة الأخيرة من العام ثلاثا وخمسين غواصة ، بينما كانت خسارتنا فى هذه المدة نفسـها أكثر من سبع وأربعين باخرة تجارية ، وقد بذلت غواصاتنا فى أشهر الخـريف العاصفة جهود المستميت ولكن جهودها ذهبت هباء ، وفشلت فى استعادة التفوق فى شمال الأطلنطى ٠

هذا وقد أعلن الأميرال دونتس الألمانى ، ان عام ١٩٤٤ سيكون عاما ناجحا برغم ما فيه من صعوبات ومشقات وقال اننا سنحطم طـريق تموين بريطانيـا بســـلاح جديد من الغواصات ، وكان لهـذه الثقة بعض ما يبررها ، فقد كانت ألمانيـا تبذل مجهودا هائلا ، لبناء طراز جديد من الغواصات يستطيع التحرك بسرعة أكبر تحت الماء وقطع مســافات طويلة ، وفى الوقت نفسـه سحبت معظم غواصاتها القـــديمة لكى يتم تجهيزها بسلاح « شنوركل » الجديد ، وقد مكنها هذا الابتكار الجديد من اعادة تعبئة بطارياتها فى الوقت الذى تكون فيه تحت الماء ، هكذا أمكنها أن تتجنب اكتشاف الطائرات لها ، وأصبح من الواضح أن الغاية من

الغواصات المجهزة بهذا الجهاز الجديد ؛ هى مقاومة عبور القناة الانجليزية عندما تصبح قوات الحلفاء متأهبة لغزو أوربا ٠

أما مسألة غزو صقلية فقد كان من رأى الجنرال أيزنهاور أن الهجوم عليها يجب أن يتم اذا كانت الغاية منه تطهير الطريق البحرى فى البحر الأبيض المتوسط ، أما اذا كان غرضنا غزو ايطاليا فيجب احتلال جزيرتى سردينيا وكورسيكا لأن هاتين الجزيرتين تقعان بالقرب من رأس الحذاء الايطالى ، وعلى الرغم مما في هذه النظرية العسكرية من وجاهة فأنى لم أكن موافقا عليها ، ولكن القوى السياسية تلعب دورها ٠

وبذلك أعددنا العدة لغزو صقلية ، وابتدأنا عمليات النزول فيها مسترشدين بالتجارب التى مرت بنا فى شمال أفريقية ، واشتركت فيها ثلاثة آلاف سفينة وقطعة إنزال كانت تحمل مائة وستين الف رجل وأربعة عشر ألف سيارة وستمائة دبابة وألفا وثمانمائة مدفع ، وقد سارت الأمور سيرا مرضيا ، نتيجة لحسن التعاون بين أركان القيادة المشتركة ، وكنت لأسباب سياسية قد تخليت عن قيادة الحملة فى شمال افريقية واسنادها للولايات المتحدة ، أما الآن فقد دخلنا مرحلة جديدة هى غزو صقلية وقد تقرر أن يتخذ القرار النهائى لغزو ايطاليا على ضوء ما يسفر عنه القتال فى صقلية ، فقد شعرت أنه من الضرورى أن يكون البريطانيون متساوين مع حلفائهم فى تحمل أعباء القيادة ، وقد وافق حلفاؤنا الأمريكيون على ذلك ، وسلمونا القيادة الفعلية للقتال ، وتقرر أن يتولى اليكساندر مجموعة الجيوش الخامسة عشرة التى تضم الجيش الأمريكى السابع الذى يقوده الجنرال باتون ، والجيش البريطانى الثامن الذى يقوده مونتجومرى ، وتولى قائد القوات الجوية تيدر قيادة قوات الحلفاء الجوية كما تولى الجنرال كاتنجهام قيادة قوات الحلفاء البحرية . وكان الجنرال ايزنهاور هو القائد العام للقوات كلها ، وبدات الغارات الجوية على الجزيرة فى الثالث من يوليو لتعطيل مطاراتها ومطارات سردينيا أيضا ، مما اضطر مقاتلات العدو الى الدفاع واضطر قاذفاته البعيدة المدى الى الانسحاب الى قواعد جديدة فى البر الأيطالى ، وعندما اقتربت قوافلنا من الجزيرة كنا قد ضمنا السيطرة الجوية على المنطقة ، ولم تحاول بوارج المحور وطائراته أن تعرقل الحملة ، وتمكنا عن طريق التمويه ، أن نجعل العدو فى حالة من الشك ، ولم يتمكن من معرفة الهدف الحقيقى من هجومنا حتى اللحظة الأخيرة ، لأن حركاتنا البحرية واستعداداتنا العسكرية كانت فى مصر مشيرة الى أن حملتنا ستستهدف اليونان وكنا قد حددنا اليوم العاشر من يوليو لبدء الغزو وفى

صباح التاسع من يوليو تحركت الأساطيل الجبارة من الشرق والغرب الى جنوب مالطة استعدادا لابحارها الى شواطىء صقلية ، وفى الوقت المحدد اتجهت كلها الى ميدان الهجوم وكانت هذه العملية هى أضخم عملية جرت فى التاريخ حتى الآن ، الا أن الرياح اشتد هبوبها بعد الظهر حتى بلغت حدا من العنف جعل النزول الى البر امرا خطرا ولا سيما على الشواطىء الغربية ، ولما كنا نود تأجيل النزول عند الضرورة ، وكان الوقت قد مضى على امكان التأجيل ، فقد شعرنا بالقلق بالنسبة لقوافل الانزال الصغيرة التى كانت تصطرع مع البحر ، وقد تُغرّق بعضها ، كما لقيت قواتنا الجوية الهابطة أسوأ حظ حيث قذفت الطـــائرات الأمريكية بأكثر من ثلث رجال لواء المظـلات الأول ، قبل الأوان ، مما أدى الى غرقهم فى البحر ، أما الثلثان الباقيان فقد نزلا فوق القســم الجنوبى من صـــقلية ، وتمكن ثمانية ضـــباط وخمســـة وســتون جنديا من احتلال الجسر وصمدوا فيه الى أن وصلتهم النجدة بعد اثنتى عشرة ساعة ، وكانت عمليات النزول الى البحر تحت ستار من الحمـــاية الجوية المستمرة ناجحة كل النجـــاح ، وتمكنا من الاســـتيلاء على اثنى عشر مطارا ، وبدأ العدو بعد أن أفاق من ذهول المفاجأة يقاتل بشدة ، وبعد ثمانية وثلاثين يوما من القتال أبرق الجنوال اليكساندر يقول : « فى الساعة الواحدة من صباح اليوم السابع عشر من يوليو عام ١٩٤٣ طُردَ آخر جندى ألمانى من جزيرة صقلية وأصبحت الجزيرة كلها فى أيدينا » ٠

وفى التاسع عشر من يوليو قامت قوة ضخمة من قاذفات القنابل الأمريكية بالاغارة على مطار روما ، وعلى أرصفة السكة الحديدية فيهـــا فاوقعت أضرارا فادحة وكان أثرها النفسى مؤلما ، وأصبح إنهيار إيطاليا السريع أمرا محتملا ، لكن الأمريكيين أصروا على عدم القيام بأى عمل جدى فى البحـر الأبيض المتوسط قد يؤدى الى التأثير على العمليـات الحـربية الأخرى ، وكان هذا التحفظ سببا فى خلق الكثير من المتاعب عندما بدأ نزولنا فى ساليرنو ، وبينما كانت المناقشات الحادة دائرة بيننا ، تبدل الموقف فجأة كليا بسبب سقوط موسولينى ٠

وكان على الدوتشى أن يتحمل الآن أعباء الكوارث العسكرية التى قاد بلاده اليها بعد هذه السـنوات الطويلة من الحـكم ، حيث كانت سلطته مطلقة ، ولم يكن فى وسعه أن يلقى اللوم على الملكية أو النظام البرلمانى

أو الحزب الفاشى أو أركان الحرب ، اما وقد انتشرت الآن بين الطبقات العليمة ببواطن الأمور فى ايطاليا ، الآراء بأن المحور قد خسر الحرب ، فان اللوم قد اتجه الى ذلك الرجل الذى قذف ببلاده بتهوره الى جانب الفريق الخاسر ٠

هذا وكان قد أجرت بعض التنقلات بين قادته العسكريين ومستشاريه السياسيين ، فعين فى شهر فبراير الجنرال امبروزيو خلفا للجنرال كافاليرو فى رياسة أركان الحرب ، وكان امبروزيو مع صديقه الدوق اكوارونى وزير البلاط المستشارين الشخصيين للملك ، وكانا منذ أشهر يأملان فى قلب حكم الدوتشى ووضع نهاية للعهد الفاشى ٠ ولكن موسولينى كان لا يزال مسيطرا على مسرح العمليات الأوربى وكأنه عامل أساسى فيه ، وقد شعر بالأسى عندما طلب اليه قائده الجديد سحب الفرق الايطالية فورا من البلقان ، لأنه كان يعتقد ان وجود هذه القوات يقيم شيئا من التوازن فى وجه السيطرة الألمانيــــة على أوربا ، ولم يدرك موسولينى ان الهزائم فى الخارج وانحلال الروح المعنوية فى الداخل قد أفقداه وضع الحليف بالنسبة الى هتلر ، وكان لا يزال يتعلق بأهداب السلطة وحملها ٠ ولهذا فقد عارض فى طلب امبروزيو الملح ، وكان يخشى من احتمال قيامه بعمل شخصى متطرف ٠

ولما كان الملك الدستورى الحذر ، على اتصال مستمر منذ شهر فبراير ، بالماريشال بادوليو الذى كان قد أقيل من منصبه بعد الكارثة اليونانية عام ١٩٤٠ ووجد فيه الملك أخيرا انه الشخص الذى يستطيع أن يعهد اليه بادارة شئون الدولة ، فقد تم وضع الترتيبات اللازمة لذلك، وتقرر اعتقـال موسولينى فى السادس والعشرين من يوليـو ، ووافق امبروزيو على ايجاد العملاء الذين يتولون اعتقاله ، وقد استعان الجنرال بغباء ، بعناصر من الحرس الفاشى القديم الذين كانوا يبحثون عن امكانية تجديد شباب الحزب ، ورأوا دعوة أكبر هيئة للحزب وهى المجلس الفاشى الأعلى الذى لم يجتمع منذ عام ١٩٣٩ ، الوسيلة لمواجهة الدوتشى بانذار نهائى ، وقاموا فى الثالث عشر من يوليو بزيارة موسولينى وأقنعوه بدعوة المجلس الأعلى الى اجتمـــاع رسـمى يعقد فى الرابع والعشرين من شهر يوليو ٠

الا أن موسولينى غـادر روما فى التـاسع عشر من يوليو يرافقه الجنرال امبروزيو بطريق الجو لمقابلة هتلر فى منزل له فى فيلتربيه على

مقربة من ريميني ، وقد أطال الفوهرر الحديث عن وجوب بذل مجهود أضخم وأكبر ، وقال ان السلاح السرى الجديد سيصبح جاهزا للاستعمال ضد بريطانيا فى الشتاء القادم ، وأضاف أن واجبنا الدفاع عن إيطاليا « وأن تصبح صقلية بالنسبة للعدو كما كانت ستالينجراد بالنسبة الينا » ٠

وحث امبروزيو رئيسه على أن يقول لهتلر بصراحة ان ايطاليا لا تستطيع المضى فى الحرب ، ولكن الديكتاتور الايطالى لم يفه بشىء ٠ ودخل موظف ايطلى ثائر قاعة الاجتماع أثناء حديث هتلر عن الوضع يقول أن روما تتعرض فى هذه اللحظة لغارة جوية عنيفة من الأعداء ، وقد وعد هتلر بارسال امدادات أخرى الى صقلية ، وعاد موسولينى الى روما لا يحمل شيئا جديدا ، وعندما اقترب بطائرته شاهد سحبا عالية من الدخان الأسود تتصاعد من مئات العربات المحترقة فى محطة قطارات ليتوريو ، وفى الحال ذهب لزيارة الملك فرآه « عابسا وشديد العصبية » وقال الملك ان الموقف خطير ، وليس فى وسعنا أن نستمر لمدة أطول ، بعد أن أصبحت صقلية الآن فى أيدى الأعداء ورد موسولينى بأنه يأمل فى اخراج ايطاليا من المحور فى الخامس عشر من سبتمبر ٠

وفى هذا الوقت وصل الى روما دينوغراندى الفاشى المخضرم ، ووزير الخارجية السابق ، والذى عارض فى اعلان بلاده الحرب على بريطانيا ، وزار زعيمه القديم فى الثانى والعشرين من يوليو ، وأبلغه صراحة ، بأنه يعتزم التقدم باقتراح لتاليف حكومة انقاذ وطنى ، واعادة الملك الى صلاحياته كقائد أعلى للقوات المسلحة ٠ ولما اجتمع المجلس فى الساعة الخامسة من مساء اليوم الرابع والعشرين من يوليو ، اقترح غراندى ، دعوة الملك الى تولى زمام السلطة والخروج من عزلته ، وتحمل مسئولياته والقى الخطاب الذى وصفه موسولينى بأنه خطاب عنيف من رجل وَجَدَ أخيرا متنفسا لحقده العميق الدفين ، وسارع تشاينو صهر موسولينى الى تأييد غراندى واتضح للجميع أن هناك فتنة سياسية توشك أن تقع ، وعندئذ طلب الحاضرون الاقتراع حول هذا الاقتراح ، وفعلا بدأت عملية الاقتراع ، وقد كتب موسولينى يقول :

« كان فى وسع كل انسان أن يعرف موقف كل عضو من الأعضاء حتى قبل الاقتراع ، فقد كانت هناك جماعة من الخونة تفاوضت مع التاج وهناك أيضا فريق من الجهلة الذين لم يكونوا يدركون خطورة الاقتراع ولكنهم أدلوا بأصواتهم على كل حال » وقد وافق تسعة عشر عضوا على

اقتراح غراندى بينما عارضــه سبعة ، وامتنع عضوان عن التصــويت ، ولذلك فقــد قال موسـولينى : « لقـــد أثرْتم أزمة ضد العهــد ، فليكن ما أردتم » وانتهى الاجتماع ٠

وفى أثناء ذلك ، كان قد أعد أمر اعتقال موسـولينى فى هدوء وصمت حيث كان قد بعث الدوق اكوارون وزير البلاد بتعليماته إلى امبروزيو الذى أوعز الى وكلائه الموثوق بهم فى الأمن العام بتنفيذ الخطة ٠

وقضى موسـولينى صباح الأحد الخامس والعشرين من يوليو فى مكتبه ، وقام بزيارة بعض الأحياء التى عانت من الغارة الجوية الأخيرة ، وطلب مقابلة الملك فسمح له بهذه المقابلة فى الساعة الخامسة مســاء ، وعندما وصل الى المكان الذى يقيم فيه الملك ، رأى فى كل مكان تعزيزات جديدة من رجال الكاربينيرى ، وكان الملك فى ملابس الماريشالية يقف فى مدخل الدار ، ودخل الرجلان الى غرفة الجلوس وقال الملك : « لم يعــد هناك أى جدوى يا عزيزى الدوتشى فقد تمزقت ايطاليا شر ممزق ، وانهارت معنوية الجيش والجنود لا يريدون أن يمضوا فى القتــال ، وقد أصبحتَ الآن فى هذه اللحظة الرجل الذى يكرهه الايطاليون جميعا ، وأنا أعتقــد ان الرجل الذى يصلح الآن لتولى المسئولية هو الماريشال بادوليو » فرد موسـولينى قائلا : انك تتخذ قرارا خطيرا ، لأن قيام الأزمة فى هذه اللحظة سيحمل الشعب على الإعتقاد بان السلام أصبح متوقعا ، طالما أن الرجل الذى أعلن الحرب قد طُرد من منصــبه ، وستُعتبر الأزمة نصرا للحلفــاء ولا سيما ستالين وعلى كل حال أتمنى حظا حسنا للرجل الذى سيتحمل المســئولية ٠

وعهد الملك فى ذلك المساء الى بادوليو بتأليف حكومة من القـــادة العسكريين وكبار الموظفين ، وأذاع الماريشال فى المساء الأنباء الى العالم ، وبعد يومين نُقل الدوتشى بأمر من الماريشــال بادوليو الى الســجن فى جزيرة بونزا ٠

وهكذا إنتهى عهد موسـولينى الديكتاتورى فى ايطاليا والذى دام واحدا وعشرين عاما ، ارتفعت فيه ايطاليا من مهاوى الخطر البلشفى الذى كان يهددها عام ١٩٢٩ الى مركز فى أوربا لم تكن ايطاليا قد بلغته من قبل ، وكان موسـولينى قد بعث فى حياتها القومية حافزا جديدا ، وبنى لها امبراطوريتها الأفريقية ، وشيد لها الكثير من الأعمال العامة المهمة ، وكان قد تغلب بعزيمته وحدها عام ١٩٣٥ على عصبة الأمم ، وعلى خمسين

دولة تتزعمها دولة واحدة وأكمل احتلاله للحبشة ، وكان نجاحه وانتصاره يلقى التأييد لدى عدد كبير من الايطاليين ، الا أن غلطته الكبرى كانت فى اعلانه الحرب على فرنسا وعلى بريطانيا العظمى بعد انتصار هتلر فى عام ١٩٤٠ ، ولو لم يرتكب هذا الخطأ لحافظ على إيطاليا فى موقف الدولة التى تحقق التوازن والتى ينشد ودّها الفريقان وهكذا مضى قدما فى طريق الدمـــار .

وفى هذه اللحظة إقترف هتلر غلطة كبرى فى ميدان الاستراتيجية والتوجيــه الحربى ، فقد كان عليه بعـدما تبين له من احتمال انسـحاب ايطاليا من صفّه وبعد التقدم الكبير الذى حققته روسيا ، والاستعدادات الواضحة التى تقوم بها بريطانيا والولايات المتحدة لعبور القناة ، أن يعمد الى تركيز جيشه القوى وتنميته كقوة إحتياطية مركزية ، وكان فى وسعه بهذه الطريقة أن يستخدم المزايا الرفيعة للقيادة الألمانية وقواتها المسلحة ، وأن يستفيد فى الوقت نفسه من الوضع المركزى الذى يحتله ، الا أنه حاول الأحتفاظ بكل ما كسبه ، فوزع قوات هائلة في البلقان وأيطاليا ، ولو إحتفظ بقوة إحتياطية مركزية قوامها ثلاثون أو اربعون فرقةمن خيرة الجنود وأقدرهم على الحركة ، لتمكن من أن يوجه ضربته الى أى من خصومه الذين يتقدمون نحو بلاده ، وأن يخوض معركة فاصلة له كل الأمل فى كسبها والفوز فيها ، وكان فى وسعه مثلا أن يقاتل البريطانيين والأمريكيين فى اليوم الأربعين أو الخمسين من نزولهم فى نورماندى فى العـام التالى بقوات جديدة متفوقة وكانت الغلطة التى ارتكبها فى توزيع قواته ، هى العامل الذى مكننا من تنفيذ الهجوم الرئيسى المباشر فى أوضاع تتيح لنا آلاما فسيحة وتحقق لنا نصرا عظيما .

ولما عاد هتلر من اجتماعه الأخير بموسولينى ، كان واثقا من أن الابقاء على ايطاليا فى الحرب لا يمكن أن يتم الا عن طريق تطهير الحـزب الفاشى وتشـديد الضغط الألمـانى على القـادة الفاشيست ، ولكن فى الخامس والعشرين من يوليو بدأت تصل الى مقر قيادة هتلر تقارير مزعجة من روما واتضح فى المساء ان موسولينى اما أن يكون قد استقال أو أقيل، وان الملك اختار بادوليو ليخلفه فى الحكم ، وتبين أخيرا أن القيـام بأية عملية ضـد الحكومة الايطالية الجـديدة يتطلب سحب عدد من الفرق من الجبهة الشرقية ، فى الوقت الذى يحتمل فيه أن تقوم روسيا بهجوم فى أية لحظة ، ووُضعت الخطط لانقاذ موسولينى واحتلال روما ، ودعم الفاشية

الايطالية كما وضعت أخرى لمواجهة احتمال توقيع بادوليو الهدنة مع الحلفاء ، وذلك بالاستيلاء على الأسطول الايطالى واحتلال الموانى والمواقع المهمة فى ايطاليا كلها ، والسيطرة على الحاميات الايطالية الموجودة فى البلقان .

وفى السادس والعشرين من يوليو ، حث هتلر مستشاريه على أن يعملوا فورا لكى لا يتغلب عليه الانجليز والأمريكيون ويضيعوا على الألمان ثمرة انتصاراتهم وقال : انه يجب أن نعيد الحزب الفاشى الى الحكم ، والا فاننا سنتعرض لخطر ضياع ايطاليا نهائيا وانتقالها الى جانب الانجلو سكسونيين .

موانئ مركبة

بالنسبة لما طرأ على الموقف من تحسن مرموق فى توجيه العمليات الحربية ضد صقلية للتغلب عليها واحتلالها ، خصوصا بعـد أن تطورت الأوضاع فى ايطاليا على النحو الذى ذكرناه فى الفصل السابق ، فقـد ازداد لدىّ الشعور بالحاجة الى الاجتماع بالرئيس روزفلت لعقد مؤتمر للبحث فى هذه التطورات ، ولما كان الرئيس يرى أن يكون مكان عقـد المؤتمـر فى مدينة « كويبك » بكندا ، وقد رحب المســتر مكنزى كينج رئيس وزراء كندا بذلك فقد استقر الرأى على عقد المؤتمر بهـا ، وقد اشترط الرئيس ألا تُدعى كندا للاشتراك فيه ، حتى لا يكون ذلك حافزا للبرازيل وغيرها من الدول الأمريكية على المطـالبة بالاشتراك فيه وكذلك استراليا وغيرها من دول الممتلكات المستقلة ٠

وفى الرابع من أغسطس أبحرنا على الباخرة « الملكة مارى » حيث كان معى أكثر من مائتى شخص بالاضافة الى خمسين جنديا من البحرية الملكية ، ولما كانت الموضوعات التى سنبحثها فى المؤتمر تشمل الحملة فى البحر الأبيض المتوسط التى كانت قد بلغت ذروتها ، وكذلك الاعـداد لعملية عبور القناة عام ١٩٤٤ وادارة دفة الحرب بصورة عامة فى المحيط الهندى ، واسهامنا فى الصراع ضد اليابان ، ولما كنا سنبحث أيضا فى مختلف الشئون المتعلقة بالعمليتين الحربيتين فى الهند والشرق الأقصى ، فقد صَحِبْتُ معى ثلاثة من ضباط الأركان الذين أوفدهم الجنرال مورجان ، وكذلك مدير العمليات الحربية فى قيادة الجنرال ويفل ، وأخذت معى أيضا شابا هو الزعيم وينجيت الذى كان قد أبرز كفاية ملحوظة فى قيـــادة القوات غير النظامية فى الحبشة وفى معارك الأدغال فى بورما ، وقد شرع يشرح لى نظـريته فى طريقة التغلب على اليابانيين فى حرب الأدغال عن طريق انزال جماعات من الجو وراء خطوط العدو لتهديدها ، وقد استهوتنى

هذه الفكرة كثيرا ورغبت فى أن يقوم بنقلها الى رؤساء أركان الحرب أيضا .

ولما كنت أعرف ان الرئيس روزفلت يرحب بمقابلة الشباب الباسل فقد أخذت معى أيضا قائد الجناح جاى جيبسون الذى كان قد عاد بعد قليل من حملته الرائعة التى دمر فيها سَدَّىْ المُوهِنْ والآيْدَرْ فى المانيا ، وهما السدّان اللذان يزودان حوض الروهر الصناعى بالقوة الكهربية ، كما جاءت معى زوجتى وابنتى مارى التى عملت كمرافق عسكرى لى .

وفى أثناء الرحلة كنت أدرس مع رؤساء أركان الحرب مختلف النواحى المتعلقة بالمشكلات التى سنبحثها مع أصدقائنا الأمريكيين ، وفى صباح ذات يوم ، جاءنى الزعيم ماكلين مع ضابطين آخرين من أركان حرب الجنرال مورجان ، وفتحوا أمامى خريطة كبيرة وأخذوا يوضحون عليها فى سرد دقيق مقنع الخطة التى أُعدّت لعملية عبور القناة والهبوط فى فرنسا ، وكانت هذه المرة الأولى التى أستمع فيها الى خطة كاملة بجميع دقائقها وتفاصيلها المتعلقة بالأرقام وحمولة السفن ، والمبنية على أساس دراسة طويلة أعدها ضباط يمثلون البلدين .

وقد ضاق مجال الاختيار وانحصر فى موقعين ، إمّا نورماندى أو خليج كاليه ، وكان الأخير يضمن لنا أحسن تغطية جوية ممكنة ، ولكن كانت خطوط العدو الدفاعية فى هذه المنطقة أمنع منها فى أى مكان آخر ، ولما كان الجنرال مورجان ومستشاروه يؤيدون فكرة غزو الساحل النورماندى ، وهى الفكرة التى كان يحملها مونتباتن منذ البداية ، فليس هناك شك فى أن هذا القرار كان سليما ، لأن نورماندى كانت هى المكان الأفضل بالنسبة لان الخطوط الدفاعية فيها ليست من المناعة الى الحد الذى هى عليه فى خليج كاليه ، كما أن الشواطىء كانت مناسبة وصالحة لنزول القوات الغازية الكبيرة فيها ، ولأنها أيضا كانت بعيدة الى حد ما عن قوة العدو الرئيسية وفى وسعنا أن نعزل ميناء شربورج ونستولى عليه بسرعة ، أما بريست ففى وسعنا ان نلتف حولها وان نحتلها فيما بعد .

ولما كنت أفكر منذ عهد بعيد فى موضوع سفن الانزال وفى معدات انزال الدبابات وذلك ببناء أرصفة عائمة فوق سطح البحر ، وكان العمل قد مضى قدما فى اعداد كل هذه المعدات ، على اثر مذكرة وجهتها الى اللورد

لويس مونتباتن قائد العمليات المشتركة ، وذلك فى الثلاثين من مايو عام ١٩٤٢ ، وقد قلت فيها :

« يجب أن تقوم هذه الأرصفة مع التيار ، وعلينا أن نتغلب على مشكلة المرسى ، ومن الواجب أن يكون فى البواخر المبينة جانبية وجسور متحركة هى من الطول بحيث تستطيع الوصول الى مراسى الأرصفة العائمة ، أرجو أن تجدوا لى أفضل حل لهذه المشكلة ، وأرجو الا تناقشوا القضية فان المتاعب نفسها هى التى ستتولى النقاش » •

واتجه الراى فيما بعد الى خلق مناطق صناعية من الماء المحصن من التيارات الهوائية وذلك بوساطة حواجز للماء توضع على سفن خاصة وتنقل الى المكان المعين بقوتها الذاتية ثم يجرى اغراقها وفقا للخطة الموضوعة فى المكان المحدد ، وقد اقترح هذه الفكرة الكومندز هيوز هاليت فى يونيو عام ١٩٤٣ ، وقد وضع مخطط شامل لبناء ميناءين صناعيين كاملين يمكن سحبهما واعدادهما للعمل بعد بضعة أيام من بدء عملية الإنزال الأصلية ، كما انه فى وسع قطع الانزال أن ترسو عليها وأن تفرغ حمولتها •

وقد اقتنعت الآن بالفوائد العظيمة التى يمكن أن نحصل عليها من استخدام هذه الموانى والتى تضمن هبوط جيوش كبيرة تعدادها مليون من الجنود وقد تزاد الى المليونين مع كل ما تحتاج اليه من معدات حديثة وأجهزة وذلك عند مهاجمة قطاع الهافر ـ همبورج ، وبناء على ذلك فقد وضع مصممو المشروع ورؤساء أركان الحرب البريطانيين ثلاثة إفتراضات، وافقت عليها تمام الموافقة كما وافق عليها أصدقاؤنا الأمريكيون ، وكما قبلها الروس أيضا وهى :

١ ـ يجب أن يكون هناك هبوط ملحوظ فى قوة الطائرات الألمانية المقاتلة فى شمالى أوربا الغربى قبل أن يبدأ الهجوم •

٢ ـ يجب ألا يكون هناك فى شمالى فرنسا عند شن الهجوم أكثر من اثنتى عشرة فرقة المانية متحركة ، والا يتمكن الالمان في بحر الشهرين التاليين من اعداد أكثر من خمس عشرة فرقة أخرى •

٣ ـ يجب تذليل مشكلة تموين قوات ضخمة فى وجه التيارات المائية الشديدة فى قناة المانش لفترة طويلة ، ولضمان هذه النتيجة يجب علينا أن نتمكن من بناء ميناءين كبيرين على الأقل •

ولما كنت راضيا عن تمكنى من تقديم هذا العرض الشامل إلى الرئيس مدعما بتأييدى الكامل فسيقتنع به أصدقاؤنا الأمريكيون ، ولذلك فقد عملت على حشد أعظم الخبراء فى هذه الشئون من كل من لندن وواشنطن فى « كويبك » لوضع الحلول لمختلف المشكلات الفنية .

كما دارت لى أحاديث أخرى مع رؤساء أركان الحرب حول مختلف القضايا المتعلقة بحرص الهند والشرق الأقصى ، واستعراض كل ما يتعلق بالقيادة العليا البريطانية المواجهة لليابان ، وبدا لى أن سير العمليات الحربية على نطاق واسع ضد اليابان يتطلب ايجاد قيادة عليا للحلفاء مستقلة كل الاستقلال ، وقد وافقنى رؤساء أركان الحرب على رأيى ، وأعدوا مذكرة بشأنها لكى يبحثوها مع زملائهم الأمريكيين فى « كويبك » وقررت أن أقترح اسم الأميرال مونتباتن لتولى القيادة العليا على الرئيس فى أول فرصة ممكنة ، ولما عرضت الأمر على الرئيس وافق عليه .

هذا وقد وصلنا الى هاليفاكس فى التاسع من شهر أغسطس ومنها انتقلنا الى القطار الذى أوصلنا الى « كويبك » وفى السابع عشر من أغسطس وصل الرئيس ومعه هارى هوبكنز ، كما جاء ايدن وبراندن براكن طائرين من انجلترا وأثناء اجتماعاتنا ، تواردت الينا الأنباء عن مساعى إيطاليا لعقد الصلح .

وقررنا أن نبدأ فى بحث عملية « السَّدُّ الأكبر » أى عبور القناة على ضوء المخططات التى أعدها الجنرال مورجان والتى بحثها رؤساء أركان الحرب وهى تتلخص فيما يلى :

ــ « تكون هذه العملية ، أول مجهود تقوم به القوات البرية والجوية البريطانية والأمريكية ضد المحور فى أوروبا وذلك فى اليوم الأول من مايو عام ١٩٤٤ » .

ــ « توزيع الموارد المتيسرة بين عملية « السد الاكبر » والعمليات الأخرى فى البحر المتوسط بالقوات التى خُصِّصَتْ لها فى المؤتمر السابق الذى عقدناه فى واشنطن فى شهر مايو الماضى ، الا اذا قررت رياسة أركان الحرب المشتركة خلال ذلك » .

ولما كانت الولايات المتحدة قد حصلت على القيادة العليا فى شمالى افريقية فقد اتفقت مع الرئيس على أن يتولى الجنرال بروك رئيس أركان حرب القوات البريطانية قيادة عملية « السَّد الأكبر » ولما كان من المقرر

أن يبدأ هذه العلمية بقوات بريطانية وأمريكية متساوية ، ولما كان مقر القيادة فى بريطانيا نفسها ، فقد كان هذا الترتيب هو الأفضل ٠

أما بالنسبة الى الشرق الأقصى ، فقد كان الخلاف الرئيسى ، بين رؤساء أركان الحرب البريطانيين والأمريكيين ، منصبا على أن بريطانيا كانت تطالب بمركز لائق فى الحرب ضد اليابان ، منذ اللحظة الأولى التى تتم فيها هزيمة ألمانيا وكنت أحث أصدقائى فى لجنة رؤساء أركان الحرب على ان يطالبوا بهذه النقطة اذ إن كل ما كنت أخشاه فى هذه المرحلة من الحرب ، أن يقول الناقدون الأمريكيون « ان انجلترا قد أخذت منا أقصى ما نستطيعه لمساعدتها على هزيمة هتلر ، وستقف فى منأى عن الحرب ضد اليابان تاركة إيانا وحدنا فى المعركة » ولكننا أزلنا هـذه الفكرة تماما عندما اجتمعنا فى « كويبك » وعلى الرغم من عدم اتخاذ قرار فى صدد العمليات الفعلية التى ستتخذ ، الا أننـا قررنا ان نركز جهودنا الرئيسية فى عمليات هجومية تستهدف « إقامة اتصال برى مع الصين وتحسين الطرق الجوية والمحافظة عليها » ٠

كما استقر الرأى على أن نعمل على الوصول الى هزيمة اليابان فى بحر اثنى عشر شهرا من انهيار ألمانيا ٠

أما بالنسبة للحرب فى البحر الأبيض المتوسط ٠ فقد عقد أيزنهاور فى العاشر من أغسطس مؤتمرا عسكريا لقادته العسكريين ، ليتشاورا فى كيفية نقل الحملة الى ايطاليا ٠

ولما كان لألمانيا ست عشرة فرقة فى شمالى ايطاليا تحت قيـادة رومل وفرقتان بالقرب من روما ، وأربعة أخرى فى الجنـوب تحت قيادة كيسلرنج ، كما أن فى امكانها تعزيز هذه الفرق بعشرين فرقة أخرى كان قد تم سحبها من روسيا لاعادة تنظيمها فى فرنسا ٠

ولما لم يكن فى وسعنا حتى فى مدة طويلة أن نجمع مثل هذا العدد من الفرق ولو ان لنا الآن السيطرة على الجو والبحر ، وكان الهجوم الذى تركزت عليه الأفكار الآن يعتبر مغامرة خطرة وجريئة ، وذلك بقصـد الاستيلاء على ميناءى نابولى وتورنتو ليمكن استخدامهما ٠

ولما كان هدفنا الأول احتلال المطارات وخصوصا القريب منها من روما وكذلك المطـارات الموجودة فى فوجيا لصلاحيتها للقـاذفات الثقيلة وكذلك المطارات الكائنة فى مونتيكو وفينو ، فقد قرر الجنرال أيزنهاور ،

أن يبدأ الهجـوم في أول شهر سبتمبر من جهة مضـايق مسينا وانزال بعض القوات في كالابريا بقصد احتلال نابولى ، وانزال فيلق آخـر من البريطانيين والأمريكيين على شواطىء خليج سالرنو الممتازة ، حيث كان هذا الخليج هو الحد الأقصى الذى كان فى استطاعة طائراتنا المقاتلة العاملة من مطار صقلية أن تحميه توطئة لزحف قواتنا شمالا لاحتلال نابولى ٠

ولما كانت رياسة أركان حرب القيادة المشـــتركة قد طنبت الى أنا والرئيس أن نخول لأيزنهاور احلال موضوع سردينيا وكورسيكا المرتبة الثانية من ناحية الاولوية ، وكان هذا هو ما سعيت اليه منذ زمن بعيد ، فقد واتفقنا كما وافقنا على أن تنزل الطـائرات فرقا من الجنود لاحتـلال المطارات الواقعة في جنوبى روما ٠

غـزو ايطـاليا

انتهى مؤتمر « كويبك » في الرابع والعشرين من شهر أغسطس ، وطار زملاؤنا كل الى مقره في مختلف الجهات ، وقررت أن أقضي بضعة أيام من الراحة في مزرعة للماشية يملكها العقيد كلارك على بعد خمسة وسبعين ميلا من كويبك وتقع وسط الجبال بجوار بحيرة الجليد الكبرى ، ولأعِدّ في الوقت نفسه الخطاب الذى تقرر أن أذيعه في الحادى والثلاثين من أغسطس ، وفي هذه المدة شهدت اجتماعا للوزارة الكندية وحدّثت أعضاءها بكل ما لا يعرفونه عن المؤتمر وسير الحرب ، وقد أتيح لى شرف تأدية اليمين كعضو في المجلس الخاص التابع للوزارة الكندية وعدنا الى كويبك في التاسع والعشرين من أغسطس وقد شهدت اجتماعا آخر للوزارة الكندية ، وفي اليوم الحادى والثلاثين أذعت حديثي الى الشعب الكندى والى العالم المتحالف معنا ، قبل سفرى الى واشنطن ، ولما عدت الى البيت الأبيض تحدثت الى الرئيس في مختلف الشئون وجاء الأميرال باوند أيضا ليبحث معنا احدى النقط البحرية • وقد وجه اليه الرئيس عدة أسئلة عن سير الحرب بصفة عامة ، وقد آلمنى أن أراه وهو الموثوق به ، قد فقد ما يمتاز به من دقة في سرد الحقائق التى كانت أعظم مزاياه ، وقد تبين أن ذلك راجع الى اصابته بنوبة مفاجئة سببت له شللا في جانبه الأيمن ، والتى بسببها قدم استقالته وقد قبلتها في الحال ، وأبرقت الى الأميرالية معينا نائب الأميرال سيفريت ليتولى القيادة بدلا منه •

ولما كانت الأحداث تتوالى سراعا في ايطاليا ، أثناء محادثاتنا في كويبك وكنت أتابع مع الرئيس سير مفاوضات الهدنة السرية مع حكومة بادوليو ، فقد تعمدت اطالة مدة اقامتى في الولايات المتحدة ، لأظل على اتصال وثيق بأصدقائنا الأمريكيين في هذه اللحظة الدقيقة ، وفي يوم وصولى الى واشنطن جاءتنا أول أنبـاء رسمية بموافقة بادوليو على الاستسلام للحلفاء •

وفى الثالث من سبتمبر وقَع الجنرال كاستيلانو الشروط العسكرية لاستسلام ايطاليا وذلك فى غابة زيتون على مقربة من سيراقوزه ، وفى فجر اليوم التالى عبر الجيش الثامن مضايق مسينا ونزل فى ايطاليا •

هذا وقد أوفدنا الجنرال الأمريكى تيلور فى السابع من سبتمبر فى مهمة سرية ليرتب مع رياسة أركان الجيش الايطالى تسليمنا المطارات الواقعة حول العاصمة ليلة التاسع من سبتمبر ، الا أنه فى ذلك الوقت طلب الجنرال كاستيلانو حماية الحلفاء لايطاليا ، بسبب وجود قوات كبيرة من الألمان مسيطرة على المطارات الايطالية ، ولان الجيش الايطالى كان فى وضع معنوى سيىء ويفتقر الى العتاد والذخائر ، مما كان له أسوأ الأثر ، وحينئذ طلب الجنرال تيلور مقابلة الماريشال الأيطالى ، وكان كل شيء فى ذلك الوقت معلقا فى كفة القدر لأن القادة الايطاليين كانوا يخشون أن يؤدى اعلان الاستسلام الى احتلال الألمان الفورى لروما ، والى نهاية حكومة بادوليو ، فلما قابله فى صباح اليوم الثامن من سبتمبر ، رجاه فى تأجيل إذاعة شروط الهدنة لان المطارات أصبحت فى أيدى الألمان ، ولذلك فقد أبرق الجنرال تيلور الى القيادة العليا فى الجزائر بأنه لايستطيع ضمان سلامة مطارات روما ، ولذا فقد تقرر العدول عن عمليات الهبوط من الجو فى هذه المطارات •

الا أن الجنرال ايزنهاور صمم على اعلان شروط الهدنة فى الحال ورُفض طلب بادوليو ، مُتبِعاً اياها بالبيان الذى أصدره الماريشال بادوليو بعد ساعة واحدة من روما ، وهكذا تم استسلام ايطاليا •

ولكن القوات الألمانية بدأت فى تطويق روما ، وتحصن بادوليو والأسرة المالكة فى مقر وزارة الحربية ، ومنها نقلوا فى خمس سيارات الى ميناء بسكارا على بحر الادرياتيك ، وكان فى انتظارهم طرادان ، أبحرت عليهما العائلة المالكة وبادوليو وأعضاء حكومته وكبار الموظفين الى ميناء برنديزى فوصلوا اليها صباح يوم ١٠ سبتمبر ، حيث شرعوا فى اقامة حكومة ايطالية معادية للفاشية فى المناطق التى يحتلها الحلفاء •

وبعد مغادرة الفارين روما ، وصل اليها الماريشال كافيليا بطل معركة فيتوريو فينيتو فى الحرب الأولى ، وحمل على عاتقه مفاوضة القوات الألمانية التى تحاصر روما ، ووقع معها هدنة عسكرية ، وبذلك أصبحت الفرق الألمانية لها كامل الحرية فى التجول داخل المدينة •

وبعد ذلك غادرت القوات الرئيسية للأسطول الايطالى ميناءى جنوا وسبيزيا فى رحلة بحرية الى مالطة لتستسلم للحلفاء ، وذلك تنفيذا لتعليمات الحلفاء ، وقد تعرضت هذه القوات أثناء سيرها على مقربة من ساحل كورسيكا الغربى لمهاجمة الطائرات الألمانية ، فأصيبت بارجة القيادة « روما » وانفجرت وغرق كل من عليها بما فيهم القائد العام للأسطول الايطالى الأميرال برجامينى ، كما أصيبت البارجة « ايطاليا » بأضرار جسيمة أيضا ، وواصلت بقية قطع الأسطول سيرها تاركة بعض القطع الصغيرة لانقاذ الناجين ، وقد استقبلها الأسطول البريطانى فى عرض البحر ورافقها الى مالطة ، كما غادرت أيضا مجموعة أخرى من الأسطول الايطالى ميناء تورينتو فى التاسع من سبتمبر فوصلت الى مالطة صباح الحادى عشر من سبتمبر وقد أبرق الأميرال كاتنجهام الى الأميرالية يقول « ان أسطول البوارج الايطالية يرسو الآن تحت حماية مدافع قلعة مالطة » .

وهكذا سارت الأمور بالنسبة للحلفاء سيرا مرضيا ، فقطع الجيش الثامن مضايق مسينا ولم يلق أية مقاومة واحتل ريجيو ، ثم بدأ زحفه على طرق كالابريا الجبلية الضيقة ، وأبرق الينا الجنرال اليكساندر فى السادس من أيلول يقول : « ان الألمان يقاتلون فى آخر معركتهم ويخربون ويحرقون المدن ، وفى هذا الوقت كانت وحدات الحلفاء البحرية من مختلف الأشكال تقطع المضيق بين صقلية والبر الايطالى تنقل الرجال والعتاد ، ولم يتعد القتال بعض المناوشات البسيطة .

وتلقيت من الجنرال اليكساندر ليلة الثامن من سبتمبر ، رسالة تبشرنى ببدء الهجوم عندما كنت أغادر كويبك عائدا الى الوطن ، وقد بعثت اليه بالرد التالى : آمل أن تكون مراقبا لكل ما يدور فى المعركة التى يتوقف عليها كل شىء الآن ، كما يجب ألا نضنّ بأى شىء على معركة نابولى الحاسمة » وكان رده مطمئنا وسريعا ، ويقول : « شكرا جزيلا على عرضك المساعدة ، واننا نبذل كل شىء لنجعل من هذه العملية عملية ناجحة وسيتقرر مصيرها فى الأيام القليلة القادمة » وقد شعرت بشىء من الارتياح عندما علمت بأن الأميرال كاتنجهام لم يتردد فى المجاذفة ببوارجه والدنو بها من الساحل لمساعدة الجيش حيث بعث بالبارجتين «دورسبايت» و «فاليانت» للاشتباك فى المعركة ، وقد أصيبت لسوء الحظ البارجة « دورسبايت» بعد ظهر السادس عشر من سبتمبر بنوع جديد من القنابل المنزلقة التى لم تكن حتى الآن قد سمعنا عنها .

وبينما كنا لا نزال في عرض المحيط نشق طريقنا بالتواء ، عائدين الى الوطن وجهت قواتنا ضربة حاسمة الى ميناء تورنتو . مما أمّن لبوراج الاسطول الملكى الدخول بجرأة فى هذا الميناء كما أمّن نزول قواتنا البرية على شاطىء ساليرنو دون أن تلقى أية مقاومة ، ولم تتعد خسارتنا طرادا واحدا أصيب بلغم فغرق فى البحر ، ولا زلت أحتفظ بالعلم البريطانى الذى رفعه اليكساندر على تورنتو والذى كان أول أعلام الحلفاء التى خفقت فوق القارة الأوربية .

ومضت معركة ساليرنو فى طريقها ، وبعد قتال مرير عانينا فيه مخاوف ومخاطر كثيرة ، فشل الألمان فى قذفنا الى البحر ، وأدرك كسلرنج أنه فاشل لا محالة ، وركز جناحه الأيمن على التلال القائمة وراء ساليرنو ، ليؤمن سحب قواته الى الوراء ، وسرعان ما زحف الجيش الثامن بقيادة مونتجمرى فاتصل بالجيش الخامس الذى كان قد لحق به التعب والانهاك ، وتقدم الفيلق البريطانى العاشر والى يمينه الفيلق الأمريكى السادس ، دافعين أمامهما قوات العدو المتراجعة حول فيزوف ، فعبرا آثار مدينتى بومبى وهيراقليوم ودخلا نابولى فى اليوم الأول من نوفمبر ، وبذلك تم لنا الانتصار .

جمود فى البحر المتوسط

وبعد عودتى من هاليفاكس بأيام قليلة ، أرسلت برقية الى الجنرال أيزنهاور ، أحدد فيها نسبة المجهود الذى يجب أن يكرس لمشروعاتنا المختلفة ولا سيما فيما يتعلق منها بالمراكز الحساسة ، أقول :

١ ـ لما كنت ألح على ضرورة العمل فى اتجاهات مختلفة ، فمن الضرورى أن أعرض عليك « الأوليات » التى أحددها فى فكرى لهذه الأهداف المرغوب فيها بصورة عامة .

٢ ـ علينا أن نكرس أربعة أخماس جهودنا فى اعداد قوتنا فى إيطاليا لأنهاء السيطرة عليها ، وأن نكرس تسعة أعشار مجهودنا للاطمئنان على مصير كورسيكا التى ستنتهى منها قريبا إلى الأدرياتيك ، أما العُشر الباقى فيجب أن يركز على رودس ، ويتوقف هذا كله بالطبع ، على العوامل المحددة لمجهودنا ، وأعنى بها قطع الانزال ، وسفن الهجوم مع الوحدات البحرية الخفيفة .

٣ ـ أبعث اليك بهذا على اعتبار أنه توجيه أولى يدلك على ما أفكر فيه ، لأنى لا أريد منك ان تشعر بأنى أحاول الضغط على جميع الاتجاهات دون فهم القيود والمغارم التى تعانى منها .

وقد رد أيزنهاور فى اليوم التالى بالبرقية التالية :

« اننا ندرس ما لدينا من موارد بعناية ، لنعطى للشرق الأوسط كل ما يحتاج إليه من عون فى هذا المشروع ، وأعتقد أنه فى وسعنا أن نضمن أقل ما نحتاج اليه من متطلبات فى هذه المنطقة .

وعندما يستطيع منتجمرى أن يتقدم بقواته الى الأمام ، لدعم ميمنة الجيش الخامس ، فان الأمور ستسير بسرعة فى

جبهة نابولى ، أما الآن فنحن فى وضع يشبه كل وضع يسود بُعد المراحل المبكرة لأية عملية مشتركة ، اذا تمددت قواتنا من ناحيــة ادارية وتكتيكية ، ونحن نعمل بجهـد لتحسين الموقف ، وسنتلقى أنباء طيبة قبل مضى وقت طويل » •

ولكن هــذا الرد لم يشر إشارة واضـحة للنقـاط التى آثرتها فى رسالتى ، والتى أعتبرها أهم جزء فيها ، وهى المتعلقة بتوزيع قواتنـا لمواجهة المشروعات الفرعية وهى مشروعات كثيرة •

وقد أدى إستسلام إيطاليا ، إلى إتاحة الفرصة لكسب جزر بحر إيجة التى كنا ننظر منذ أمد بعيد اليها كأهداف نتطلع إلى إحتلالها حيث كانت قلاع رودس ولينوس وكوس محصنة وتحتل مرتبة عالية بين أهدافنا ، وكانت رودس تعتبر مفتاحا لهذه المجموعة بالنظر الى مطاراتها الجيدة التى نستطيع منها أن نحمى الجزر الأخرى التى قد نحتاها لاستكمال سيطرتنا البحرية على هذه المياه يضاف الى هذا أن القوات الجوية البريطانية العاملة فى مصر وبرقة تستطيع أن تقوم بحماية مصر ، بطريقة أفضل ، اذا تقدم بعضها الى مطارات رودس واحتلتها ، ولا ريب انه بعد أن سيطرنا على جزر بحر ايجة ، اعتبرنا هذا العمل حاسما بالنسـبة الى تركيا ، التى تأثرت تأثيرا عميقا بانهيار ايطاليا ، واذا تمكنا من استخدام بحر ايجة ومضايق الدردنيل ، فقد يصبح طريقنا البحرى قصيرا الى روسيا ، ولن نعود فى حاجة الى القوافل القطبية الكثيرة الخطورة والباهظة التكاليف ، أو الى طريق التموين الشاق الطويل عبر الخليج العربى •

ولما شعر الألمان بالخطر الشديد المخيف الذى توقعوه منا على جناحهم الجنوبى الشرقى ، حثّ ممثلو الجيش والبحرية فى مؤتمر عقد فى قيادة الفوهرر فى الرابع والعشرين من سبتمبر — زعيمهم على وجوب الجلاء عن كريت وبعض جزر بحر ايجة ، قبل أن يفوت الأوان ، وأشاروا الى القوات الأمامية التى تركزت فى شرق البحر الأبيض المتوسط استعدادا للهجوم وأكدوا ضرورة تجنب فقد القوات والمواد الحربية التى قد تلعب دورا مهما حاسما فى الدفاع عن القــارة ، ولكن هتلر رفض الانصياع الى هــذه الآراء ، وأصر على عدم الجلاء عن كريت وجزر الدوديكانيز بوجه خاص ، لما يترتب عليه من آثار سياسية وقال : « ان موقف حلفائنا فى الجنوب الشرقى وموقف تركيا ، تقررهما الثقة فى قوتنا ، ولا ريب أن التخلى عن هذه الجزر سيخلق أثرا سيئا للغاية » وقد برهنت الأحداث على صحة حُكمه فى النضال دفاعا عن جزر بحر ايجة فقد أحرز مكاسب ضخمة

بأقل ما يمكن من التكاليف بالنسبة للوضع الاستراتيجي الرئيسى ، فلقد كان مخطئا فى البلقان ، ولكنه كان مصيبا فى بحر ايجة .

الا أنه فى هذه الأثناء تحسنت أوضاعنا ولم تَحِلْ نهاية شهر سبتمبر حتى كنا نحتل جزر كوس وليروس وساموس ، ووضعنا فيهـــا حاميات الا أنه لم يكن فى وسعنا بالنسبة لقنة البواخر أن تُؤمن ارسال أسلحة ثقيلة وسيارات الى هذه الجزر ، وكانت جزيرة كوس مهمة للغـاية من الناحية الاستراتيجية لأنها كانت تضم مطارا تستطيع طائراتنا المحاربة إن تعمل منه وسرعان ما أعددنا للخدمة وأنزلنا الى الجزيرة أربعة وعشرين مدفعا للدفاع عن المطار ، وأصبحت الجزيرة طبعا أول هدف للهجوم المضاد من العدو ، وفى صباح الثالث من أكتوبر هبط المظليون الألمان فى المطار وتغلبوا على السَّرِيَّة الوحيدة التى كانت تدافع عنهـا . وتم عزل بقيـة سَرَايَا الفوج فى شمال الجزيرة بحركة إنزال بحرية قام بها العدو ، ولم يتمكن أسطولنا من وقفها وسقطت الجزيرة فى أيدى العدو .

وأبرق إلى ويلسون فى الثانى والعشرين من سبتمبر ، يحدد أقل ما يحتاج اليه من مطالب للقيام بمحاولة جديدة ضد رودس ، وقد قرر استخدام الفرقة الهندية العاشرة وجزءا من لواء مدرع وكان فى حاجة الى بعض القوات الحارسة والى بعض قوات الانزال التى تقصف بمدافعها مواقع الانزال ، وثلاث بواخر لانزال الدبابات ولحمل السيارات وسفينـة مستشفى ، وعدد من طائرات النقل لحمـــل فرق من المظليين ، وقد أزعجنى عجزنا على دعم هذه العمليات ، فأبرقت الى الجنرال ايزنهاور طالبا عونه ، وقد استطاعت المساعدات التى أرسلها الينا أن تحـــرز نجاحا مذهلا .

ولما كان الألمان قد استعادوا زمام المبادرة الآن ، حيث نقلوا عددا كبيرا من طائراتهم الى بحر ايجة لاحباط الخطة التى كنتُ حَزَمْتُ أمرى عليها فقد عَرَضْتُ القضية على الرئيس روزفلت فى السابع من أكتوبر ، ولكنى تألمت أشد التألم عندما تلقيت منه برقية تكاد تشبه الرفض ، وتركتنى هذه البرقية فى وضع حرج ، أواجه الضربة المتوقعة التى لم يُعد منها مناص ، وقد بعثت الى الرئيس روزفلت بالبرقية التالية :

« لا أريد أن أرغم أيزنهاور على تحويل قواته مما يترتب عليه تحديد امكانياته فى تطوير العملية الايطالية ، تطويرا ناجحا ومبكرا يضمن لها الحصول على خط دفاعى أمين الى الشمال من روما .

وانني أعارض في أي تحـويل للقوى ، قد يؤدى الى ما يرى أيزنهاور الى تهديد وضع سلامته الراهنة في ايطاليا ، وهو وضع يجرى اعداده بمنتهى البطء على ضوء الاعتبارات المترتبـة على قوة خصـمه ، الذى يتمتع بتفوق ملحوظ في القوات البرية والفرق المدرعة .

واني لأرى أيضا ضرورة عدم القيام بأى تحويل للقوى او المعدات يؤدى الى التأثير على خططنا لعملية « السد الأكبر» « أى » غزو أوربا » ويوافقنى على رأيى رؤساء أركان الحرب الأمريكيون وقد بعثت بصورة هذه البرقية إلى أيزنهاور » .

وبعد ذلك قررت أن اطير الى تونس حيث يجتمع الآن كافة القواد العسكريين العاملين في مؤتمر حربى .

ولكن رد الرئيس روزفلت قضى على كل ما تبقى لدى من آمال ، فقد اعرب عن رايه في ان حضورى هذا المؤتمر ، سيكون غير مناسب ، ولهذا فقد ألغيت الرحلة ، وفي الوقت نفسه ، وصَلَتْ الأنباء تقول ان هتلر قرر تعزيز جيشه في إيطاليا وأن يخوض معركة رئيسية الى الجنوب من روما ، وكانت هذه المعلومات كافية لقلب الميزان ضد إرسال النجدات اللازمة للهجوم على رودس ، الا أننى ظللت مقتنعا بأنه كان في وسعنـا ادخال احتلال رودس ضمن الاطار العسكرى لخططنا ولكننى على كل حال أَذْعَنْتُ .

ولما لم يكن في وسعى ـ وما زالت أمامنا قضايا خطيرة للغاية معلقة في كفة الأقدار ـ أن أغامر بأى تصدع في علاقاتى الشخصية بالرئيس روزفلت .

ولما كان احتلال روما لم يتم الا بعد ثمانية أشهر ، وقد استخدمنا من البواخر عددا يساوى عشرين ضعفا لما كنا في حاجة اليه لاحتلال رودس في خلال أسبوعين ، طيلة الخريف والشتاء لنقل قواعد القاذفات الثقيلة من أمريكا وبريطانيا الى ايطاليا ، فقد ظلت رودس شوكة في جانبنا ، ولما رأت تركيا هذا الجمود غير العادى من جانب الحلفاء على مقربة من سواحلها غدت أقل استجابة لنا وحَرَّمت علينا استخدام مطاراتها .

ولما نَفَّذَتْ القيادة الأمريكية وجهة نظرها ، تحتم على البريطانيين أن يدفعوا الثمن ، على الرغم من أننا جاهدنا للحفاظ على مواقعنا في ليروس ،

الا أن مصير قواتنا هناك أصبح محتوما ، وسارعت حامية ساموس المؤلفة من لواء كِنْت الملكى الثانى ، الى ليروس فى المراحل الأخيرة ، ولكن المعركة كانت قد انتهت وسقطت النجدة بدورها فريسة للعدو ، لأنهـــا كانت تفتقر الى العون الجوى ، وهكذا سقط هذا اللواء من جنودنا فى قبضـــة العدو ، وانتهت فى الوقت الحاضر جميع آمالنا فى بحر ايجة ، وحاولنا فورا أن نجلى جميع حامياتنا الصغيرة من ناموس وغيرها من الجزر ، وأن ننقذ الناجين من ليروس ، فتمكنا من انقـاذ نحو ألف جندى بريطانى ويونانى مع عدد من الأسرى الايطاليين والألمانيين ولكن خسائرنا البحرية كانت بالغة ، فقد غرقت لنا ست مدمرات ، وغواصتان ، كما أصيبت اربع طرادات وأربع مدمرات بأضرار وقد اشترك معنا فى هذه المحنــة الأسطول اليونانى الذى لعب دورا عظيما طيلة مراحل القتال •

أما عملية « السد الأكبر «أى» غزو أوربا » فقد كان لى فيها فضل كبير حيث زودت أيزنهاور بأربع فرق بريطانية منمصر من خير الجنود واحسنهم تدريبا ، بالاضافة الى الفرق التى كان من المقرر أن نزوده بها فى البداية كما جهزناها بموارد رئيسية لم تكن تتوقعها ، وبدونها كان من المحتمل أن تحل كارثة شاملة بالحملة كلها •

وفى هذا الوقت غيّر هتلر رأيه بالنسبة لاُستراتيجية إيطاليا عملا بنصيحة كسلرنج وأصدر أوامره الى قواته بالقتال فى جنوب إيطاليا وقد إختار خطاً يحاذى نهر سانجرو على جانب الأدرياتيك عابرا سلسلة جبال ايطاليا الى مصب نهر كاراجليانو الى الغرب ، وهكذا تبدل الوضع فى ايطاليا تبدلا كبيرا في غير صالحنا لأن هتلر عزز هذه القوات بقوات كبيرة أخرى ، وكان الحلفاء على النقيض من ذلك ولم تتمكن الفرق الاضافية الأربع التى بعثتُ بها من سَدّ الثغرة ، مما أدى الى اطالة الحرب فى ايطاليا، ومع ذلك فلم يحل هذا كله دون أن نبدأ عملية « السد الأكبر » بنجاح فى السادس من يونيو وبقوات كافية •

القوافل القطبية

إنتهى عام ١٩٤٢ بعمل جرىء قامت به المدمرات البريطانية التى ترافق احدى القوافل الى شمال روسيا فى المياه القطبية ، مما أدى الى أزمة فى القيادة العليـا الألمانية ، وطرد الأميرال ريدر من الاشراف على الشئون البحرية كما قامت قافلتان أخريان مؤلفتان من اثنتين وأربعـين سفينة برحلات خطرة بين شهر نوفمبر وشهر مارس ، أى فى الأشهر التى يكون فيها الجو مظلما فى القطب الشـمالى ، وقد وصلت منها أربعـون سفينة ، ولما انتهت فترة الظلام وابتداءالضوء يسطع أصبح من السـهل على العدو أن يهاجم القوافل ، وكان قد تركز ماتبقى من الأسطول الألمانى بما فيه البارجة تيربيتز فى المياه النرويجية ، فأخـذ يؤلف خطرا كبيرا ومستمرا يهدد معظم الطريق ، كما كانت معركة الأطلنطى مع الغواصات تتجه نحو أزمة عنيفـــة ، وكان العبء على مدمراتنا أكثر مما تطيق وتحتمل ، ولذلك فقـــد اقترحت الأميرالية فى شهر ابريل وقف إرسال المؤن الى روسيا من هذا الطريق حتى يعود الظلام فى الخريف .

وبعد ذوبان الثلوج فى الربيع ، أخذ الفريقان يجمعان شمل قواتهما استعدادا للكفاح الرهيب ، وكان الروس قد أصبحوا الآن متفوقين فى البر والجو وتمكنت المدفعية الروسية من تحطيم دبابات « النمر » الجديدة التى كانوا قد علقوا عليهـا الكثير من الآمال فى النجـاح ، كما انهالت الضربات الروسية أثناء المعارك الثلاث فى كورسك وأوريل وخاركوف ، مما سبب خسائر فادحة لألمانيا .

ولم يأت شهر سبتمبر ، حتى كان الألمان يتراجعون على طول جبهتهم الغربية من منطقة موسكو حتى البحر الأسود ، كما لم يستطيعوا الصمود على نهر الدينيبر ، وخصوصا بعـد أن قطع الطريق على الحامية الألمانية القوية فى شـــبه جزيرة القـرم ، وســقطت كييف فى السادس من نوفمبر ، ولم يحـل شهر ديســـمبر حتى كانت الجيـوش الألمانية فى

أواسط روسيا وجنوبيها قد أرغمت على التراجع الى الوراء مسافة مائتى ميل وفشلت فى الاحتفاظ بخط نهر الدينيبر ·

ولما كانت روسيا فى حاجة ماسة الى أمدادها بما تحتاج اليه جيوشها من عتاد وذخيرة فقد استدعى مولوتوف سفيرنا فى موسكو وطلب اليه سرعة استئناف ارسال القوافل ، وأشار الى أن الأسطول الايطالى فى البحر الابيض قد زال من الوجود ، واكد أن السكة الحديدية الايرانية لا تستطيع أن تحمل ما فيه الكفاية وقال ان الحكومة الروسية تصر تبعا لذلك على استئناف ارسال القوافل بسرعة فائقة .

وعندما اجتمعنا فى لندن فى التاسع والعشرين لدراسة جميع هذه الموضوعات عرضت أمامنا حقيقة مناسبة ، فقد تمكنت غواصاتنا من مهاجمة البارجة تيربيتز وعطلتها عن العمل ، كما أن البارجة لوتزار كانت قد ارتحلت الى البلطيق وهكذا فقد تحسن الوضع بالنسبة لنا فى الميـــاه القطبية لفترة بضعة شهور على الأقل ، ولهذا فقد بعث الى ستالين الرسالة التـــالية :

[« يسرنى غاية السرور أن أبلغك أننا نعد العدة لابحار مجموعة من أربع قوافل الى شمال روسيا فى أشهر نوفمبر وديســـمبر ويناير وفبراير على أن تتألف كل منها من خمس وثلاثين سفينة بعضها أمريكى والبعض الآخر بريطانى »]

وقد أصدرت أوامرى فى الحال باتخاذ الاجراءات اللازمة لارسال هذه القوافل الأربع ولو أن ما كان لدينا من بحارة أقل مما كنا نحتاج اليه ، ولما كان البحارة يشكون من سوء معاملة روسيا لهم ، فقد طلبت الى ستالين أن يعالج هذه الأوضاع لانه كان لا يسمح لهم بالنزول الا فى زورق روسى وبحضـــور موظف سوفيتى كما كان لا يسمح لأى واحـــد بالانتقال من سفينة حربية بريطانية الى سفينة تجارية بريطانية الا بعد اعلام السلطات السوفييتية وينطبق هذا الاجراء على الأميرال البريطانى ·

وقد رد على ستالين يقول :ان السلطات السوفييتية قد منحت رجال القـــوات المســـلحة البريطانية والبحـــارة البريطانيين امتيازات وتسهيلات كثيرة وأن ليس لدى اعتراض على أن تتولى الســـلطات البريطانية نفسها أعمال الرقابة على البريد الشخصى لهذه القوات فى الموانىء الشمالية على شرط المعاملة بالمثل .

وعلى أثر ذلك أعدّت الترتيبات اللازمة لاستئناف سير القوافل ، وقد بدأت القافلة الأولى فى شهر نوفمبر وتبعتها الثـانية فى شـهر ديسـمبر وبلغ مجموعهما اثنتان وسبعون سفينة وصلت كلها بسلام .

هذا وقد قُدِّر للقافلة المتجهة الى شمال روسيا فى شهر ديسمبر أن تشتبك فى معركة بحرية ناجحة مع البارجة الكبيرة شارنهورست فى مياه النرويج وكانت ترافقها خمس مدمرات ، وكانت قوة الحراسة على القافلة تتألف من أربعة عشرة مدمرة وثلاثة طرادات ، وقد أصيب فى هذه المعركة كل من شارنهورست والطراد البريطانى نورفولك ، وبعـد ذلك توقف الألمان وانسحبوا جنوبا ٠

وعنـدما علمنا فى ابريل عام ١٩٤٤ أن البـارجة تيربيتز قد تم اصلاحها وأخـذت تتحرك فى البلطيق هاجمتهـا طائراتنا من الحاملتين « فيكتوريوس » و « فيريوس » بالقنابل الثقيلة ، كما أخـذت طائراتنا التى تقوم بهجماتها من قاعدة فى شمال روسيا بتوجيه الضربة الحاسمة اليها فاغرقتها وأغرقت نصف بحارتها البالغ عددهم ١٩٠٠ رجل دون أن تصاب إلاّ طائرة واحدة بأضرار ، وبذلك أصبح فى ميسور البوارج البريطانية الثقيلة أن تنطلق الآن حرة الى الشرق الأقصى ٠

وقد خسرنا طيلة الحرب احدى وتسعين باخرة تجارية فى الطريق القطبى تبلغ ٨ر٧٪ من مجموع السـفن المرسلة الى روسيا و ٨ر٣٪ من البواخر الفارغة العائدة كما خسر الأسطول التجـارى ٨٢٩ شخصا من رجاله ، بينما دفع الأسطول الملكى ثمنا أغلى ، حيث غرق طرادان وسبع عشرة سفينة حربية اخرى وغرق معها ١٨٤٠ جنديا وضابطا ٠

طهران - الفاتحة

عندما عدت الى الوطن من مؤتمر كويبك ، فكرت في اجتماع يضم رؤساء الحكومات الثلاث ، لما له من أهمية كبرى بالنسبة لعملية عبور القناة ودخولنا أوروبا فى عام ١٩٤٤ ، واختيار قائد أعلى لهذه العملية ، ولما كنت قد اتفقت مع الرئيس فى مؤتمر كويبك على أن يتولى أمريكى قيادة العملية ، فقد اتفقنا على اختيار الجنرال مارشال لتولى هذه القيادة، وقد كان من المقرر أن تكون القوات البريطانية معادلة للقوات الأمريكية فى مستهل عملية « السد الأكبر » وأن يكون العـــدد الموجود منها فى ايطاليا ضعف عـدد القوات الأمريكية ، كما يكون عددها ثلاثة أضعاف القوة الأمريكية فى البحر الأبيض ، ولما كنت أشعر بأهمية الاجتماع مع الروس بعد أن اتّحدت آراؤنا تجاه المشاكل البارزة المتعلقة « بالسد الأكبر » وبموضوع القيادات العليا- كنت أرغب فى أن تمر الاجراءات فى ثلاث مراحل ، أولها ــ اتفـــاق انجليزى ــ أمريكى واســع النطاق فى القاهرة ، وثانيها ــ اجتماع ذروة لرؤساء حكومات دول الحلفاء الرئيسية الثلاث فى طهران ، وثالثها ــ عند العودة الى القاهرة ، وقد وافق روزفلت على المجيء الى القاهرة أولا على أن يأتى اليها أيضا مولوتوف وزير خارجية ~~الصين~~ روسيا ورئيس الصين .

وقد أبحرت فى الثانى عشر من نوفمبر من ميناء بليموث مع أركان حربى فى رحــلة قدر لها أن تبعــدنى عن انجلترا أكثر من شهرين ، ووصلت الى الاسكندرية فى اليوم الحادى والعشرين من الشهر ومنهـا طرت الى القاهرة فى اليوم نفسه وأقمت فى منزل مجاور للاهرامات حيث وجدت أن الجنرال شيانج كاى شك والسيدة قرينته قد وصلا من قبــل ، وفى صباح اليوم التالى وصل الرئيس روزفلت وتقرر أن يكون فنــدق « مينا هاوس » مقرا عاما للمؤتمر ، وأيضا لاجتماع رؤساء أركان الحرب البريطانيين والأمريكيين .

وعقد رؤساء أركان حربنا المشتركون جلسة فى الرابع والعشرين من نوفمبر برياسة الرئيس روزفلت ، لم يشترك فيها الوفد الصينى لبحث العمليات الحربية فى البحر المتوسط وأوروبا ، واستهل الرئيس الاجتماع بالتحدث عن الأثر الذى قد تتركه عليها عملية « السد الأكبر » أية عملية أخرى قد نقوم بها أثناء ذلك فى البحر الأبيض المتوسط بما فى ذلك مشكلة دخول تركيا الحرب الى جانبنا ، وقلت اننى أعتقد أن برنامجنا يجب أن يستهدف محاولة احتلال روما فى نوفمبر وردوس فى شهر فبراير ، وأن نستأنف ارسال المؤن الى اليوغسلافيين ، وأن نعيد فتح بحر ايجة على ضوء نتيجة محاولة جديدة نقوم بها مع تركيا وأن نمضى فى جميع استعداداتنا « للسد الأكبر » بمنتهى السرعة .

وكان المستر ايدن قد وصل من لندن وانضم الينا ، فتحدث عن الفوائد التى سنجنيها من دخول تركيا الحرب ، حيث سيضطر البلغاريون الى تركيز قواتهم على الحدود ، وعلى سحب قواتهم التى تقدر بعشر فرق من يوغوسلافيا واليونان ، مما يحتم على الألمان احلال قوات ألمانية بدلها كما سيصبح فى امكاننا مهاجمة آبار الزيت فى بلويستى ، كما ستقطع تركيا معدن الكروم عن ألمانيا ، كما أن هناك فوائد أخرى ، وهو ان دخول تركيا الحرب ، قد يؤدى الى تعجيل التفسخ بين ألمانيا والدول التابعة لها ، ولكن الوفد التركى لم يتأثر بجميع هذه الحجج والبراهين ، فقد ذكر أعضاؤه أن منح القواعد فى الأناضول للحلفاء سيكون بمثابة تدخل فى الحرب ، مما يستفز الألمان على الانتقام من استامبول وأنقره وأزمير ، ورفض الأتراك قبول وجهة نظرنا ولكنهم وعدوا بعرض وجهة النظر البريطانية على حكومتهم .

وكانت عملية « السد الأكبر » قد وضعت مخططاتها بتفصيل دقيق واسهاب ، لكى تبدأ فى شهر مايو أو يونية أو يوليو على الأكثر من عام ١٩٤٤ كما ان هناك الجيش الانجليزى ـ الأمريكى الضخم الذى يعمل الآن فى ايطاليا والذى يجب علينا أن نمده بقوات جديدة لكى يتقدم شمالا ليحتل المطارات الواقعة فى شمال العاصمة والتى نستطيع أن تشن منها غاراتنا الجوية على ألمانيا واذا قدر لهذه العمليات أن تلقى مقاومة من العدو فانها ستجتذب قوات ألمانية ضخمة مما سيعطى للايطاليين الفرصة للخروج بأنفسهم من المأزق .

كما لم أكن أعارض فى هذا الوقت فى عملية انزال قوات فى جنوب فرنسا على ساحل الريفييرا ، على أن تستهدف العملية مرسيليا وطولون،

ثم تزحف القوات البريطانية والأمريكية شمالا على طول حوض الرون ، كعملية مساعدة لعمليــة الغزو الرئيسى عبر القنــاة ، فاذا قرر الألمـان المقاومة فى هذه الجبهة فسنرغمهم على سحب عدد كبير من فرقهم من الجبهة الروسية .

أما بالنسبة الى حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، فالقـوة الجوية المحتشدة للدفاع عن مصر يمكنها أن تؤدى واجبـات أخرى اذا إعتمدت على قواعد أمامية ، ولو تمكنا من احتلال رودس لأمكننا أن نسيطر سيطرة كلية على بحر ايجة ، ولوجدنا اتصالا بحريا مباشرا مع تركيا ، واذا تمكنا من جهة أخرى من اقناع تركيا بالدخول فى الحرب ، أو مد حيادها على الأقل الى أقصى حد ممكن واقراضنا المطارات التى شيدناها لها أمكننا أن نسيطر على بحر ايجة وفى مثل هذه الحالة لا يصبح احتلال رودس أمرا ضروريا ، ولأمكننا أيضــا أن نسيطر على البحر الأســـود بغواصاتنا وقواتنا البحرية الحقيقة وأن نمد ذراعنا اليمنى الى روسيا ناقلين اليها المؤن التى تحتاج اليها جيوشها بطرق أقل تكاليف وأكثر سرعة بدلا من طريقى القطب الشمالى والخليج الفارسى .

ولما كنا على موعد مع الماريشال ستالين على الاجتماع به فى طهران فقـد طرنا اليها أنا والرئيس ومستشارونا ، وعقدنا الجلســـة الأولى فى دار السفارة السوفيتية فى اليوم الثامن والعشرين من نوفمبر ، وكان مولوتوف والماريشال فورشيلوف هما اللذان يرافقان ســتالين ، وبحثنا جميع الخطط الحربية ســـواء فى روسـيا أو أوروبا واتفقنا على ما يجب عمله ، وبعد العشاء ، انتحيت بستالين واقترحت عليه أن نتحدث بعض الوقت عما سيقع بعد أن نكسب الحرب ، وقد انضــم الينا ايدن ، فقال ستالين ، دعونا ندرس أولا أسوأ ما يمكن أن يحدث ، فقد خيل اليه أن الفرصة ستتاح لألمانيا لكى تعود الى ما كانت عليه ، وستتمكن من شن حرب جديدة فى وقت قصير ، وكان يخشى بعث الروح الوطنية الألمانية ولما ســألته عن الوقت الذى يقدره لذلك قال : « فى بحر خمســة عشر عاما أو عشرين عاما » وكان من رأيه أن ندرس القيود الواجب علينا أن نفرضها على طاقة ألمانيا الصناعية ، فالألمان شعب قدير دائب على العمل ومجد وكثير الموارد وفى استطاعته أن يستعيد قوته بسرعة وســهولة ، فقلت أن من الواجب فرض بعض اجراءات للاشراف عليها ،وانى أؤيد وجوب حرمانهم من الطيران المدنى والحربى ومن نظام الأركان العــامة . فقال ستالين يسألنى : وهل تستطيع أن تمنع صانعى الساعات ومعامل

الأثاث من صنع أجزاء القنابل ؟ : فقلت على العموم يجب علينا أن نؤمن سلامة العالم لخمسين سنة قادمة عن طريق نزع سلاح ألمانيا ومنعها من التسليح والاشراف على مصانعها ، وخطر الطيران عليها ، وكل هذا يتوقف على استمرار صداقة بريطانيا وأمريكا وروسيا •

وكان تعليق ستالين : « ان كل ما ذكرته حسن نافع ولكنه غير كاف » •

هذا وقد عقد الرئيس بعد ظهر اليوم التالى اجتماعا آخر مع ستالين ومولوتوف بُحِثَتْ فيه عدة قضايا هامة ، بينها بصفة خاصة مشروع المستر روزفلت لحكم عالم ما بعد الحرب ، وكان من رأيه أن هذا الحكم يجب أن يعهد به الى « رجال الشرطة الأربعة » وهم الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة وبريطانيا العظمى والصين ، ولم تكن استجابة ستالين مؤيدة ، اذ قال ان شعوب أوروبا الصغيرة لن ترحب « برجال الشرطة الأربعة وهو لا يعتقد بأن الصين ستكون قوية جدا عندما تنتهى الحرب ، وانها حتى لو كانت قوية فان الدول الأوربية سترفض قبول الصين كدولة تفرض عليها ارادتها وتنفذ رغباتها واقترح ستالين أيضا كَحَلٍّ آخر أن تكون هناك لجنة لأوربا وأخرى للشرق الاقصى ، وأن تضم اللجنة الأوربية بريطانيا وروسيا والولايات المتحدة ودولة أوربية أخرى •

وبعد ذلك عقدنا اجتماعنا الثانى ، وذَكَّرْتُ ستالين بالشروط الثلاثة التى يتوقف عليها نجاح عملية « السد الأكبر » وأول هذه الشروط وجوب تخفيض قوة ألمانيا من الطائرات المحاربة فى شمال غربى أوربا فى الفترة الواقعة التى تبدأ من اليوم حتى الهجوم تخفيضا مرضيا ، وثانى هذه الشروط أن الاحتياطى الالمانى فى فرنسا والبلاد المنخفضة يجب ألا يكون أكثر من اثنتى عشرة فرقة كاملة ، والشرط الثالث أن يعجز الألمان طيلة الستين يوما الأولى بعد بدء العملية عن نقل أكثر من خمس عشرة فرقة من الفرق للدرجة الأولى من الجبهات الأخرى ، ولتحقيق هذه الشروط يجب علينا أن نرغم الألمان على الاحتفاظ بأكبر عدد ممكن من قواتهم فى ايطاليا ويوغسلافيا واذا دخلت تركيا الحرب فسيكون ذلك عونا اضافيا ، ولذلك يجب علينا أن نواصل الاشتباك مع العدو وفى الجبهة التى نستطيع الآن محاربته فيها ، واذا تمكنا من مقاتلتهم طيلة أشهر الشتاء فى البحر الأبيض المتوسط ، فان هذا سيسهم أعظم الاسهام فى خلق الأوضاع التى نحتاج اليها لنجاح عملية « السد الأكبر » .

وسأل ستالين : ماذا سيحدث لوكانت لدى الألمان ثلاث عشرة فرقة أو أربع عشرة فرقة متحركة فى فرنســا وأكثر من خمس عشرة فرقة متوافرة في جبهات أخرى ، فهل يعنى هذا العدول عن عمليـة « السد الأكبر » فقلت له : « لا ‥ لا بالطبع لا ‥ » .

وقبل أن نفترق وجه الى ستالين سؤلا آخر قائلا : ـ هل تعتقد أن لدى أركان الحرب البريطانيين اعتقادا جازما بنجاح العملية ؟ قلت ، أعتقد ذلك بشرط أن تتوافر الشروط الثلاثة عندما تبدأ العملية ، وعند ذلك سيكون واجبنا المقدس ، أن نتدفق عبر القناة ضد الألمان وأن ندفع بكل ما لدينا من قوة وبعد ذلك افترقنا .

نتائج مؤتمر طهران

ولما كنت قد بلغت التاسعة والستين من عمرى فى الثلاثين من نوفمبر وكان هذا اليوم زاخرا بالذكريات وكان لدى كثير من الاعمال الهامة ، فقد قضيته فى تصريفها ، وبالنظر الى أن الرئيس كان دائما على اتصال فردى بستالين وقد تجنب فى الوقت نفسه الاجتماع بى على انفراد منذ تركنا القاهرة ، فقد قررت أن أعمل على الاجتماع بستالين اجتماعا شخصيا مباشرا.وكانت قد تكونت لديه فكرة خاطئة عن أنى وأركان الحرب البريطانيين نريد وقف عملية « السد الاكبر » اذا استطعنا ، لأننا نريد غزو البلقان بدلا من فرنسا « ورأيت من واجبى أن انزع هذا الفهم الخاطىء من ذهن ستالين » .

وبما أن الموعد الحقيقى لعملية «السد الأكبر» يتوقف على تحركات عدد قليل من قطع الانزال والتى ليست لنا بها حاجة لأية عملية تجرى فى البلقان ، ولما كان الرئيس قد تعهد بالنيابة عنا ، بالقيام بعملية ضد اليابانيين فى خليج البنغال ، ولو أنه الغى هذا التعهد لتوفر لنا العدد الكافى من القطع لانزال فرقتين فى وقت واحد وتنفيذ العملية كما هو مقرر فى مايو ، وهو الموعد المحدد الذى كنت قد اتفقت مع الرئيس على بدء الغزو فيه ، وقد تمكنت أيضا بعد عودتنا للقاهرة من اقناع الرئيس بالعدول عن مشروع البنغال وصممت على أن يعرف ستالين الحقائق الأساسية اللازمة واننا اتفقنا أنا والرئيس على أن يكون شهر مايو هو موعد عملية « السد الاكبر » على أن يبلغه الرئيس روزفلت ذلك بنفسه كرغبته .

وعندما أعلن ستالين تصريحه الخطير قبل يومين بأن روسيا ستدخل الحرب ضد اليابان بعد استسلام هتلر ، اقترحت فورا على الأمريكيين أن يعدوا قطعا كثيرة للقيام بالعمليات التى يطلب الينا القيام بها فى المحيط الهندى للمساعدة فى عملية « السد الأكبر » وفى مثل هذه الحالة ستتوافر القطع اللازمة لجميع العمليات .

ونيس ثمة ما يدعو الى الاعتقاد بأننى متراخ فى موضوع « السَّد الأكبر » فقد أردت أن أحصل على ما أحتاج اليه فى البحر المتوسط ، وكان من الواجب أن نسوى الأمور بين رؤساء أركان الحرب وكنت آمل أن يتم ذلك فى القاهرة وقبل مجيئنا الى طهران ، ولكن سوء الطالع أن تشيانج كاى شيك كان هناك وأن المشكلات الصينية احتلت أكثر من نصف وقتنا ومع ذلك فانى على ثقة من أن قطع الانزال ستتوافر لجميع العمليات .

أما الاعدادات لعملية « السد الأكبر » فستكون فى نهاية شهر مايو أو يونيو على النحو التالى : ست عشرة فرقة بريطانية مع القوات اللازمة لادارة الفيالق وقوات قطع الانزال والمدافع المضادة للطائرات وهو ما يربو على نصف مليون جندى بالاضافة الى قوات الأسطول الملكى اللازمة لعملية النقل ولحماية الجيش . هذا بخلاف قوات السلاح الجوى العاملة فى الوطن والمؤلفة من نحو أربعة آلاف طائرة ، كما بدىء فى نقل القوات الأمريكية الى انجلترا بمعدل مائة وخمسين الف جندى شهريا ، وكان لهزيمة الغواصات فى الأطلنطى الفضل الأكبر فى تسهيل عملية النقل هذه ، هذا وقد كنت أؤيد القيام بالهجوم على جنوبى فرنسا فى نفس الوقت الذى تقوم فيه عملية « السد الأكبر » حتى نرغم العدو على ابقاء قواته فى ايطاليا .

وهنا قال ستالين انه يود أن يوجه نظرى الى أن الجيش الأحمر يعتمد كل الاعتماد على نجاح غزونا لشمالى فرنسا ، واذا لم تبدأ العمليات فى شهر مايو عام ١٩٤٤ ، فسيعتقد الجيش الأحمر انه لن تقع أية عمليات طيلة هذا العام . كما انه اذا لم يتغير الوضع فى المسرح الأوربى فى عام ١٩٤٤ ، فسيكون من الصعب جدا على الروس أن يواصلوا القتال لأنهم تعبوا من الحرب وهذا هو السبب الذى دعاه لأن يعرف ما اذا كانت عملية « السد الأكبر » ستتحقق فى الموعد المقرر أم لا ، لكى يتخذ ما يراه للحيلولة دون انتشار حالة التذمر والتمرد فى الجيش ، وقد أكدت له أن العملية ستتم حتما بشرط ألا يقابلنا العدو في فرنسا بقوات أكبر مما يستطيع البريطانيون والأمريكيون انزالها لأنه اذا تيسر للألمان أن يواجهوا جيوشنا بثلاثين أو أربعين فرقة فاننى اعتقد أن قواتنا لن تكون قادرة على الصمود أمامها . فقال ستالين انه لو تمكن من أن يعرف بأن الغزو سيقع فى شهر مايو أو يونيو ، فانه سيعد العدة لتوجيه ضربات الى ألمانيا فى هذا الموعد ، وفى هذه الحالة لن تتوافر لألمانيا القوات اللازمة لجبهة

فرنسا • فرددت عليه بأننى لا أستطيع أن أكشف عن الموعد دون موافقة الرئيس •

وعليه فقد توجهنا أنا وستالين لمقابلته ، وقد أبلغه الرئيس أننا اتفقنا على شن حملة « السد الأكبر » فى شهر مايو ، وقد أثلج هذا الخبر الماريشال ستالين ، وقال من سيتولى قيادة عملية « السد الأكبر » ؟ فقلت له ان الرئيس لم يستقر على رأى بعد ، ولكنى واثق من أنه سيكون الجنرال ماريشال ، فسر سرورا عظيما لهذا النبأ •

ولما كنا جميعا متفقين واستقر رأينا على جميع العمليات ، فقد شعرت باحساس قوى من التضامن والزمالة الطيبة •

وتراءى لى أن جميع السحب قد انقشعت ، وبالفعل فان ثقة ستالين بالرئيس ، أقيمت على أساس من الاحترام وحسن النية كما انها لم تصب بوهن طيلة المدة التى قضيناها فى العمل المشترك •

وبلغت محادثاتنا الطويلة الشاقة فى طهران نهايتها فى الاول من شهر ديسمبر وتقرر أن يبدأ الغزو عبر القناة فى شهر مايو بشرط إن تكون التيارات البحرية ملائمة وكذلك أحوال القمر ، كما تقرر ان يُعزّز بهجوم روسى قوى فى الوقت نفسه •

وكان علينا أن نجدد بذل جهودنا القوية لحمل تركيا على الدخول فى الحرب الى جانبنا لما تنطوى عليه هذه الخطوة من أهمية فى بحر ايجة والبحر الأسود ، ولكن هذه الجهود كلها منيت بالفشل •

هذا وقد أصبحت النواحى السياسية أقرب الى الخيال ، وكان من الواضح انها تعتمد على نتائج المعارك العظيمة التى كان من المقرر أن تدور وعلى أوضاع كل من الحلفاء بعد تحقيق النصر ، ولم يكن من المناسب فى طهران بالنسبة للديمقراطيات الغربية أن تقيم خططها على أسس من الشكوك فى موقف روسيا ساعة النصر ، وعند زوال جميع الأخطار . ولما كان ستالين قد وعد بدخول الحرب ضد اليابان فور الانتهاء من هزيمة هتلر ، وكان أمل الغد يتركز فى الأسراع بنهاية الحرب ، فقد تقرر اقامة جهاز عالمى يحول دون نشوب حرب أخرى ، ويقوم على أساس القوة المشتركة للدول العظمى الثلاث •

وبالطبع لم تكن الطريقة التى سيعامل بها المنتصرون المانيا موضوع بحث نهائى فى هذه المرحلة ، وانما كانت موضع عرض تمهيدى لمشكلة سياسية واسعة النطاق ، لأننا كنا لانزال فى كفاح رهيب ضد القوة النازية الجبارة وكانت تشغلنا أهوال الحرب وأخطارها ومختلف عواطف الزمالة بين الحلفاء ، والعقاب للعدو المشترك ، وكانت مشروعات الرئيس تقضى بتجزئة ألمانيا الى خمس دول مستقلة ذاتيا ، والى مقاطعتين تظلان تحت اشراف الأمم المتحدة أكثر قبولا لدى ستالين من اقتراحى الذى يقضى بعزل بروسيا وتأليف اتحاد تعاونى دانوبى أو اتحاد لجنوب ألمانيا مع آخر لحوض الدانوب .

لأننا كنا جميعا نخشى خشية كبيرة من وجود المانيا موحدة ، ولما كان لبروسيا تاريخها العظيم الخاص بها ، فقد كان من الممكن فى رأيى أن نعقد معها صلحا شريفا حازما ، وان نجد فى الوقت نفسه ما كان يُدعى فى الماضى بالامبراطورية النمساوية المجرية ، التى كثيرا ما قيل عنها انها « اذا لم توجد فمن الواجب أن تخترع » وذلك ضمانا لقيام منطقة واسعة الأرجاء يسودها السلام والصداقة .

ومع هذا فما ان انتهت الحرب ، حتى وقعت تغييرات عظيمة ملأى بالكوارث فالحدود البولندية ، لا توجد الا فى عالم الخيال ، وها هى ذى بولندة ، تقع مرتعدة الاوصال فى قبضة الشيوعية الروسية ، وقد قسمت المانيا حقا تقسيما مخيفا ، حيث قسمت الى مناطق محتلة عسكريا ، مما لا يسع الانسان الا القول بأن هذه المأساة لا يمكنها أن تستمر .

عدت من طهران الى القاهرة فى اليوم الثانى من ديسمبر ، كما وصل الرئيس فى المساء • وقد استأنفنا مباحثاتنا الودية حول أوضاع الحرب بصفة عامة ، كما استعرضنا نتائج مباحثاتنا مع ستالين ، كما قرر رؤساء أركان الحرب أن يستمروا فى محادثاتهم المشتركة والتى تتناول جميع العمليات التى اتفقنا على القيام بها . وكان الاميرال مونتباتن قد عاد الى الهند ، بعد أن قدم مشروعه المعدّل عن العملية البرية المائية على جزر اندمان ، والتى ستشترك فيها جميع القطع ذات القيمة الحيوية ، التى بعثنا بها اليه من البحر الأبيض المتوسط ، كما أردت أيضا أن أقوم بمحاولة أخيرة للحصول على تأييد الامريكيين للعملية البديلة ضد جزيرة رودس •

ولذلك فقد اجتمعت أنا والمستر ايدن بالرئيس فى اليوم التالى وبحثنا فى نقط الخلاف القائمة بيننا بالنسبة للوعد الذى قطعه الرئيس للجنرال تشيانج كاى شيك قبل مؤتمر طهران ، بشن هجوم مبكر عبر خليج البنغال ، لأن هذا الهجوم كان كافيا للقضاء على كل أمل وخطة لأحتلال رودس ، والتى يتوقف عليها الى حد كبير دخول تركيا الحرب الى جانبنا ، وعندما أثار رؤساء أركان حربنا هذا الموضوع فى المؤتمر العسكرى رفض رؤساء أركان الحرب الامريكيون البحث فيه نسبة لأن الرئيس قد اتخذ قراره فيه ولا مجال للأختيار •

ولما عقدنا أول اجتماع لنا فى الرابع من ديسمبر بعد عودتنا من طهران قال الرئيس انه يود أن يسافر فى اليوم السادس من الشهر ، وطلب الى المختصين اعداد جميع التقارير لموافقة الفريقين نهائيا عليها ، قبل مساء الخامس من الشهر •

ولما كان لا يزال أمامنا قضايا على جانب كبير من الاهمية وتحتاج الى الحل بالاضافة الى الحادثين الحاسمين اللذين وقعا فى الايام القليلة

الماضية ، أولهما : ان ستالين أعلن أن السوفيت سيعلنون الحرب على اليابان فى الوقت الذى تتحقق فيه هزيمة المانيا ، وهذا يضمن لنا قواعد أفضل بكثير من تلك التى يمكن لنا الحصول عليها فى الصين ، كما يحتم علينا تركيز جهودنا لننتهى من عملية « السيد الاكبر » فى أسرع وقت ممكن حتى ننتهى من أمر المانيا ، فقد رأيت انه من الواجب على أركان الحرب أن يدرسوا ، كيفية تأثير هذا على العمليات فى المحيط الهادى وجنوب شرقى آسيا •

أما الحادث الثاني : البالغ الأهمية ، فهو قرارنا بعبور القناة فى شهر مايو ، والذى كنت أود من ناحيتى أن يكون الموعد شهر يوليو ، وهذه المهمة تفوق غيرها من المهام الأخرى شأنا وخطورة ، حيث أننا سنقذف فى القريب العاجل الى أتون المعركة بمليون أمريكى وخمسمائة او ستمائة ألف بريطانى ولكى نعطى للعملية أقصى ما يمكن من الآمال فى النجاح ، فقد رأيت أن يكون نزولنا فى الريفيرا ، « وقد أطلقنا عليها اسم عملية السندان » على أقوى نطاق ممكن ، كما رأيت انه من الضرورى أن تتخذ كل الخطوات الممكنة للعمل فى اى مكان آخر لتحول بين الألمان وبين تركيز قوات كبيرة ضد رءوس جسورنا •

ولذلك فقد تم الاتفاق بينى • وبين الرئيس على النقاط التالية :

١ ـ يجب ألا نقوم بأى عمل يعرقل عملية « السد الأكبر » •

٢ ـ يجب ألا نقوم بأى عمل يعرقل عملية « السندان » •

٣ ـ ان نتخذ جميع السبل لكى نوفر قطعا للانزال تعمل فى شرق المتوسط فى حالة دخول تركيا الحرب .

٤ ـ يجب ابلاغ الاميرال مونتباتن بأن يبذل جهده فى خليج البنغال بالقوات التى سبق لنا تخصيصها له •

وقد اقترحت ، تعليقا على النقطة الرابعة ، بأنه قد يصبح من الضرورى سحب بعض القوات والموارد من مونتباتن لتقوية عمليتى « السد الأكبر » و « السندان » ولكن الرئيس قال أنه لا يستطيع الموافقة على اقتراحى ، واضاف قائلا اننا ملزمون أدبيا بمساعدة الصين وانه تبعا لذلك ، ليس على استعداد للعدول عنها الا اذا كان السبب قويا وواضحا • وقلت للرئيس بأن هذا السبب القوى ، قائم فى مغامرتنا العظيمة التى سنقوم بها فى فرنسا ، هى لا تزال تقوم على أساس ثلاث فرق ، على حين اننا

أنزلنا في صقلية في اليوم الاول تسع فرق • وعلى هذا يتبين أن أهمية هذه العملية الرئيسية مازلت تعوم حتى وقننا هذا على اسس ضيقة .

كما عاودت الحديث عن هجوم الريفييرا • وبينت وجهة نظرى بانه يجب أن يقوم على أساس قوة هجومية لا تقل عن فرقتين ، لان هذا يؤمن لنا القيام بعملية التفاف فى إيطاليا ، واحتلال رودس اذا تقرر دخـــول تركيا الحرب فورا ، وأشرت فى الوقت نفسه الى أن عمليات جنوب شرق آسيا يجب أن تقرر على ضوء علاقتها بالاهمية البالغة لعملية « السد الأكبر » وقلت اننى مندهش من الطلب الذى وجه الى الأميرال مونتباتن لأحتلال جزر إندمان ، وأنه على ضوء وعد ستالين بأن تدخل روســــيا فى العمليات الحربية ؛ تكون عمليات جنوب شرق آسيا قد فقدت الكثير من قيمتها ، ومع هذا فقد أبدى الرئيس رغبته فى عدم موافقتى عـلى العدول عن هذه العملية ، كما طلبنا الى رؤســاء الأركان البحث فى التفاصيل •

وفى اليوم الخامس من ديسمبر اجتمعنا سويا وقرأ الرئيس التقرير الذى أعدته هيئة أركان القيادة المشـــــتركة عن العمليات فى المسرح الأوروبى ووافقنا عليه •

كمـــا أنه بعد أن تشاور الرئيس مـع مستشاريه بالنسبة لمشروع جزر اندمان قرر التخلى عنها وأرسال برقية للجنرال تشيانج كاى شيك يبلغه فيها بالعدول عن مشروع جزر اندمان وهكذا فقد انتهت الأزمة •

ولما كان من أهم أهداف اجتماعنا فى القاهرة ، استئناف المحادثات مع القادة الاتراك ، وكنت قد أرسلت الى الرئيس اينونو برقيـــة من طهران اقترحت فيها عليه أن يجتمع بنا فى القاهرة ، كما كان قد تم الاتفاق على أن يحضر فيشنسكى الاجتماعات ، ووصل الوفد التركى الى القاهرة فى الرابع من ديسمبر واجتمعنا سويا فى الليلة التالية بالرئيس اينونو الذى أبدى تحفظا شديدا تجاه الجهاز الحربى الألمانى ، الا اننى شددت الضغط عليه هذه المرة ، وأكدت له أن انسحاب ايطاليـا من الحرب زاد من فوائد دخول تركيا فيها وقلل من الأخطـار التى ستتعرض لها ، ولذلك فقد أبدى الرئيس التركى رغبتـــه فى عرض الموضوع على البرلمان التركى وسافر مع بقية أعضاء الوفد في الحال ، وفى هذه الأثناء قررنا أن يجتمع الخبراء البريطانيون لتنفيـذ المرحلة

الأولى من إقامة قوة للحلفاء فى تركيا إلا أنه لم يكد يحل عيد الميلاد حتى كنت قد أصبحت ميالا إلى إبقاء تركيا على الحياد .

هذا وقد أبلغنى الرئيس فى اليوم السابق لسفره من القاهــــرة انه لا يستغنى عن الجنرال مارشال فى واشنطن ، وأنه يقترح تسـمية ايزنهاور قائداً لعملية « السد الأكبر » بدلا منــــه وازاء هـــذا الاصرار فقد تولى إيزنهاور قيادة الغزو .

وبعد ذلك غادر الرئيس القاهرة فى اليوم السابع من ديسـمبر ، كما غادرتها أيضا فى اليوم الحادى عشر بالطائرة الى تونس لقضــــاء ليلة هناك فى ضيافة الجنرال ايزنهاور ، ثم أغادرها فى اليوم التــالى الى مقر قيادتى اليكساندر ومونتجمرى فى ايطاليا الا اننى شعرت فى اليوم التالى لوصولى الى تونس بأعراض الحمى وبظواهر تشير الى عـودة ذات الرئة ، فلم أواصل رحلتى الى ايطاليا وبقيت ملازما الفراش فى تونس ، واستعملت العقار الجديد « أم . أند . بى » الذى كان له أثر السحر فى تخفيف حدة المرض وبذلك لم أتخل فى أية لحظة عن ادارة دفة الأمور .

ولما كانت مهمتى العاجلة بوصفى وزيرا لدفاع بريطانيا ومسئولا أمام وزارة الحربية ، ان اقترح تعيين قائد بريطانى لجبهة البحر المتوسط فتقرر اسناد هذا المنصب الى الجنرال ولسون ، كما تقرر أن يتولى اليكساندر قيادة الحملة الايطالية جميعها ، كما كان يفعل فى أيام الجنرال ايزنهاور ، وتقرر أيضا أن يكون الجنرال ويفرز الأمريكى نائبا للجنرال ولسون فى البحر المتوسط ، وأن يكون قائد القوات الجوية تيدر ، نائبا للجنرال ايزنهاور فى قيادة عملية « السد الأكبر » وأن يتولى مونتجمرى القيادة الفعلية لقوات الغزو عبر القناة ، الى أن يتمكن القائد الأعلى من نقل مقر قيادته الى فرنسا وتولى القيادة الفعلية بنفسه ، وقد تمت هذه الترتيبات بالاتفاق بينى وبين الرئيس وبموافقة وزارة الحرب .

ولما كنت أشعر بأننا قد وصلنا الى احدى ذرا الحرب ، وكانت عملية اعداد « الســـد الأكبر » من أهم الأحداث والواجبات فى التـاريخ ولما كان من أهم عناصر النجاح فى العمليات الحربية وجود الانسـجام التام فى المجهود الحربى عن طريق التناسق بين عمليتى الغزو من ايطاليا وعبور القناة ، حتى يؤدى كل جزء من أجزاء القوة المقاتلة دوره الكامل طول الوقت . وكنت واثقا من أن شن الحملة فى ايطاليا فى النصف

الاول من عام ١٩٤٤ ستكون خير معوان للعملية الضخمة فى عبور القناة ، وهى العملية التى تتركز عليها جميع العيون ، فقد كان من الواجب بحث كل مادة ضرورية لهذه العملية ،وكان علينا أن نعمل على استخلاص عشرين قطعة إنزال من هذه العملية لغيرها ، وقد بدت لى هذه العملية فى منتهى البساطة ، فجميع البواخر التى نملكها ستستخدم لتنقـــل الى انجلترا كل ما يمكن للولايات المتحدة اعداده من الرجال والعتاد . وفى وسع القوات الضخمة التى لم نستطع نقلها بطريق البحر أن تحتـــل ايطاليا بسهولة ، وأن تصل فورا لتعمل فى جبهة ألمانيا الداخلية أو ان تجتذب قوات ألمانية ضخمة عن الجبهة التى كنا سنهاجمها عبر القناة فى الأيام الأخيرة من شهر مايو أو اوائل شهر يونيو .

هذا وقد ادت فترة الجمود التىاضطرت اليها قواتنا بسببالمقاومة الالمانية العنيفة على طول الجبهة الممتدة ثمانين ميلا من البحر الى البحر الى تفكير الجنرال ايزنهاور فى القيام بهجوم جناحى برى بحرى بفرقـة واحدة الى الجنوب من نهر التيبر على روما ، فى الوقت الذى تشرع فيـه جيوشه بهجوم عام على طول الجبهة ، وادى توقف جيوشنا الى شعور كل واحد بأن الحاجة العسكرية تتطلب نزول أكثر من فرقة واحدة . وكنت بالطبع أؤيد فكرة العملية التى أسميها « مخلب القط » وقد لاقت هذه الفكرة تأييدا كبيرا من جانب المحترفين ، واضحى ايزنهاور ملتزما بها من ناحية المبدأ ، كما كان اليكساندر الذى يتولى قيادة الجيش فى ايطاليا يرى أن هذه العملية صحيحة وضرورية كما كنت على ثقة من أن رؤساء أركان الحرب البريطانيين سيؤيدون هذه الخطة ، وقد أبرقوا الى فى الثانى والعشرين من ديسمبر بعد أن عرفوا وجهة نظرى هذه يقولون ، اننـا على اتفاق تام معك بأن هذا الركون الراهن لا يمكن أن يستمر والحـل كما تقول ، يقوم فى استخدام قواتنا البرية والبحرية لتضرب مؤخـرة العدو وجناحه وتمهد الطريق لزحف سريع على روما وأن هذه الخطة الجديدة ستعنى العدول عن احتلال رودس ، كما اقترحوا اثارة المسألة مع رياسة أركان الحرب المشتركة وعلى أساس العمل على ضوء هذا المخطط فورا .

ولذلك فقد عُقد فى صباح يوم عيد الميلاد مؤتمرا فى قرطاجنة ، شهده أيزنهاور واليكساندر وبيدل سميث والجنرال ولسون وتيـــدر والأميرال جون كاتنجهام وغيرهم من كبار القادة ، وقد اتفقنا جميعا على أن نطلب ما لا يقل عن فرقتين .

وعندما انتهت مباحثاتنا ، أرسلت البرقية التالية الى الرئيس ، كما بعثت بأخرى مماثلة الى الوطن ، وقد حرصت كل الحرص على بيـان الحقائق بصراحة :

« ولما كنا قد احتفظنا بست وخمسـين قطعة من قطع الانزال فى البحر الأبيض المتوسط ، هذه المدة الطويلة ، فمن غير المعقول أن ننقلها الآن فى الأسبوع الذى نستطيع فيه أن نسدى خدمة حاسمة . وهل هناك شىء أكثر خطرا من أن نترك المعركة الايطالية فى حالة جمود مستمر طيلة ثلاثة أشهر أخرى ؟ وليس فى وسعنا أن نتقدم الى الامام مخلفين وراءنا عملا لم نكمل الا نصفه ، ولهذا فقد اتضح للحاضرين أن الواجب يتطلب النزول الى انزيو بفرقتين على الأقل ، حوالى العشرين من ينـاير وقد صدرت الأوامر الى الجنرال اليكساندر لأعـداد العدة اللازمة لهذا النزول ، واذا لم ننتهز هذه الفرصـة فعلينا أن نتوقع فشل حملة البحر المتوسط فى عام ١٩٤٤ ، ولهذا فاننى آمـل بأن توافق على تأجيـل عودة الست والخمسين قطعة من قطع الانزال مدة ثلاثة أسابيع ، وأن توعز الى جميع السلطات المختصة بأن تتيقن أن عمليـة « السد الأكبر » لن تتأثر بهذا الاجراء » .

وقد تلقيت فى اليوم الثامن والعشرين من يناير . برقية من المستر روزفلت بالموافقة على تأجيل قطع الانزال ، على شرط أن تظل عمليـة « السد الأكبر » هى العملية المسيطرة ، وأن تنفذ فى الموعـد الذى اتفق عليه فى القاهرة وطهران ، وكان هذا مبعث سرورى الممزوج بالدهشـة وقد أبرقت الى الرئيس ، أشكره على هذا القرار الرائع الذى يعيـد الى صفوفنا الوحدة الشاملة ازاء هذا المشروع العظيم .

وكانت برقية الرئيس أشبه ما تكون بالمعجزة ، وعرفت انى لست مدينا بها الى حسن نية الرئيس وحده . بل الى عقل الجنرال مارشـال الموزون ، وقد قامت هيئة أركان الحرب فى الوطن ولا سيما فى الأميرالية بجهود عظيمة لتحقيق مشروع « مخلب القط » وبعث الى اليكساندر فى اليوم نفسه بخطته ، وبعد أن تشاور مع الجنرال مارك كلارك والجنرال بريان روبرتسون ، قرر استخدام فرقتين احداهما أمريكية والأخرى

بريطانية ، كما تقرر توزيع السلاح المدرع وقوات المظلات والفدائيين على أساس المناصفة ، وعهد بالعملية كلها الى قيادة قائد فيلق أمريكى . وبات من المحقق أن تبدأ العملية فى العشرين من يناير ، على أن يقوم اليكساندر بهجوم كبير على كاسينو قبل الموعد بعشرة أيام لاجتذاب الاحتياطى الألمانى من المؤخرة ؛ على ان يتلو ذلك الزحف العظيم المباشر من الامام بوساطة الجيوش الأمامية ؛ واصبح كل شيء يسير سيرا مرضيا يدعو الى الارتياح ولهذا فقد قررت العودة الى الوطن فى الرابع عشر من يناير .

محنة يوغوسلافيا واليونان

لما كانت يوغسلافيا منذ احتلها هتلر فى ابريل عام ١٩٤١ أصبحت مسرحا لأحداث مخيفة . وكان الملك بطرس قد لجأ الى انجلترا ومعه عدد من وزراء الأمير بول وغيرهم من رجال الحكومة ، حيث بدأت حرب العصابات العنيفة بقيادة الجنرال ميخائيلوفيتش الذى التف حوله من تبقى من الطبقة المختارة فى يوغسلافيا ولما كان الألمان يثأرون من أعمال العصابات بقتل مجموعات من الأهالى يتردد عددهم بين أربعمائة وخمسمائة شخص ، مما جعل ميخائيلوفيتش ينكمش كما اضطر بعض قادته الى اجراء مصالحات محلية مع القوات الألمانية والايطالية لكى يبقوا أحرارا فى بعض المناطق الجبلية على الا يقوموا بأية حركة ضد العدو .

ولم يمر وقت طويل حتى قامت حركة الانصار بقيادة الماريشال تيتو ، فأخذ يحرض الاهالى على القيام بالاضرابات السياسية فى ساحل ألمانيا تنفيذا لسياسة الكومنترن ، وتكونت عصابات كثيرة منهم تحت قيادته ممن لا يرهبون القتل فى سبيل وطنهم ، وكانوا يتسلحون بالأسلحة التى يغنمونها من ضحاياهم الألمان . وما كانت الارهابية التى يقوم بها الألمان باعدام الرهائن لتحول بينهم بين أعمالهم ، حيث أنزلوا بالألمان خسائر كبيرة وأصبحوا سادة مسيطرين على مناطق واسعة ، واشتبكوا فى معارك عنيفة مع أنصار ميخائيلوفيتش الذين كانوا يساومون الألمان على سلامتهم ، والذين كانوا يزودون الألمان بالمعلومات عن حركتهم .

وقد كنت أتابع هذه الأحداث باهتمام ، وكانت طائراتنا تلقى ببعض المؤن القليلة لهؤلاء الثوار ، لأنه لم يكن فى مقدورنا أن نقدم أية معونة فعلية لهم . الا ان قيادتنا فى الشرق الأوسط كانت مسئولة عن عمليات هذا المسرح وكانت تحتفظ بجهاز من العملاء وضباط الارتباط من أتباع ميخائيلوفيتش الذى كان يمثل فى هذا الوقت الحكومة اليوغسلافية فى القاهرة كما كان يمثل حركة مقاومة الألمان .

وفى شهر مايو عام ١٩٤٣ ، قررنا ايفاد جماعة صغيرة من الضباط البريطانيين وصف الضباط لعمل اتصال مع هؤلاء الأنصار اليوغسلافيين على الرغم من الصراع القاسى الذى كان دائرا فى ذلك الوقت بينهم وبين أنصار تيتو الذى كان يشن حربه كشيوعى لا ضد الألمان فقط ولكن ضد الملكية الصربية أيضا والتى يمثلها ميخائيلوفيتش وأنصاره (الشيتنيك) وقد هبط الرئيس الكابتن ديكن وهو أحد عمداء جامعة اكسفورد بالمظلة ليكون ممثلا لنا عند تيتو ، كما تبعته بعثات بريطانية أخرى وفى شهر يونيو ، بعث الينا رؤساء اركان الحرب يقولون : استنادا على المعلومات التى توافرت لديهم والتى كانت تبعث بها البعثات البريطانية من يوغسلافيا أن الشيتنيك اصبحوا متفاهمين مع المحور فى مقاطعتى الهرسك والجبل الأسود .

ولما كان يهمنى جدا الحصول على نتائج المقاومة المحلية للمحور فى يوغسلافيا فقد طلبت معلومات وافية عنها ، وعقدت جلسة لرؤساء أركان الحرب فى داوننج استريت فى الثالث والعشرين من يونيو وأكدت فى أثناء الحديث الاهمية الكبيرة التى أعلقها ، على بذل كل عون ممكن للحركة اليوغسلافية المناهضة للمحور . والتى كانت ترهق المحور بثلاث وثلاثين فرقة فى هذه المنطقة ، وكانت هذه القضية من الأهمية بمكان عظيم ، حتى أننى طلبت الى اللجنة أن تزيد عدد الطائرات لامداد الثوار بما يلزمهم ولمساعدتهم .

كما قررنا قبل أن أسافر الى كويبك ، ان أمهد الطريق لعمل آخر فى البلقان وذلك بتعيين ضابط كبير يتولى رياسة بعثة كبيرة لكى تعمل مع الأنصار فى الميدان ، ولكى يبعث الى توصياته مباشرة عما يراه لمساعدة الانصار ، ولما كان المستر فيتزروى ماكلين عضو البرلمان رجلا جريئا ومغامرا ، فقد قررت أن يتولى رياسة هذه البعثة ، ولما هبط هو ورجاله بالمظلات فى يوغسلافيا فى شهر سبتمبر عام ١٩٤٣ ، وجدوا ان الوضع هناك قد اكتسب طابعا ثوريا ، وفى هذه الأثناء كانت أنباء استسلام ايطاليا قد وصلت الى يوغسلافيا ، عن طريق اذاعة البيانات الرسمية ، وعلى الرغم من أننا لم نبعث بأية تعليمات ، فان تيتو كان قد قام بخطوات جريئة ومثمرة . فلم تمض أسابيع قليلة حتى كان قد نزع السلاح من ست فرق ايطالية ، وقد تمكن اليوغسلافيون من تسليح ثمانين ألف رجل بهذه المعدات الايطالية واحتلوا معظم سواحل الادرياتيك ، وبذلك توافرت لنا الفرصة الطيبة لتقوية وضعنا فى

الادرياتيك بالنسبة للجبهة الايطالية ، واخذ جيش الأنصار الذى تزايد عدده الى مائتى الف رجل يقاتل على طريقة حرب العصابات ويشتبك فى عمليات واسعة النطاق ضد الألمان الذين واصلوا بدورهم أعمالهم الانتقامية العنيفة بشدة متزايدة .

وفى هذا الوقت دب النزاع بين تيتو وميخائيلوفيتش وأنصاره المتخاذلين ، مما دعا قوة تيتو العسكرية النامية بشكل متزايد أن تثير قضية الوضع النهائى للملكية اليوغسلافية ولحكومة المنفى ، وقد بذلت محاولات مخلصة فى كل من لندن ويوغسلافيا للوصول الى تسوية عملية بين الفريقين وكنت أؤمل أن يستخدم الروس وساطتهم فى هذه القضية وخصوصا بعد المحاولة التى قام بها ايدن فى موسكو فى أكتوبر عام ١٩٤٣ ولكن الروس لم يظهروا أية رغبة فى هذا الشأن ، ولذا فقد فقدت الأمل فى الوصول الى تسوية عملية بين الفريقين المتنازعين ، كما أبرقت الى الرئيس روزفلت أقول : ان القتال يتخذ شكلا مخيفا ، ويقوم الألمان بأعمال ثأرية دموية ويعدمون الرهائن بالجملة ، ونحن نأمل فى تهدئة الخلافات اليونانية قريبا ، أما الخصومة بين تيتو وبين جماعة ميخائيلوفيتش فعميقة الجذور .

وفى نهاية نوفمبر عقد تيتو مؤتمرا سياسيا أعلن فيه قيام حكومة مؤقتة لها وحدها السلطة فى تمثيل الشعب اليوغسلافى ، كما جرد الحكومة الملكية فى القاهرة من جميع حقوقها ومنع الملك من العودة الى البلاد الا بعد تحريرها . ولما كان ميخائيلوفيتش قد أصبح شخصية غير مرغوب فيها ، وكان لزاما علينا أن نحافظ على اتصالنا العسكرى بتيتو ، فقد تحتم علينا اقناع الملك باقالة ميخائيلوفيتش من منصبه كوزير للحربية كما سحبنا نحن فى أول ديسمبر تاييدنا الرسمى لميخائيلوفيتش واستدعينا البعثات البريطانية التى كانت تعمل فى المناطق التى يشرف عليها .

هذا وقد بحثنا القضية اليوغوسلافية فى مؤتمر طهران ، وعلى الرغم من أن دول الحلفاء الثلاث قررت تقديم أقصى ما يمكن من العون الأنصار فان دور يوغسلافيا فى الحرب لم يكن أمرا يستحق اهتمام ستالين .

عندما عدت من طهران الى القاهرة ، قابلت الملك بطرس وأبلغته عما أعرفه عن قوة حركة الأنصار واهميتها كما أبلغته أنه قد أصبح من الضرورى فصل ميخائيلوفيتش من الوزارة . وكان أمل الملك الوحيد هو العودة الى بلاده والوصول الى ترتيب مؤقت مع تيتو قبل أن يشدد

الانصار قبضتهم على البلاد ، وقد أبدى الروس استعدادهم للعمل فى سبيل الوصول الى حل وسط ، هذا وقد أبرق المستر ستيفنسون سفير بريطانيا لدى الحكومة الملكية اليوغسلافية الى وزارة الخارجية يقول : « يجب أن تقوم سياستنا على ثلاثة عوامل جديدة ، أولها أن الانصار هم الذين سيتولون حكم يوغسلافيا ، ثانيها : ان هؤلاء الأنصار لهم اهمية عسكرية قصوى بالنسبة لنا بحيث يتحتم علينا دعمهم الى أقصى حد ، ثالثها : أن من المشكوك فيه أن نستمر فى اعتبار الملكية عنصر توحيد فى يوغسلافيا » وقد وافق وزير الخارجية على هذا الرأى ، ولكن الصراع السياسى حول القضايا اليوغسلافية ظل مستمرا شهرين آخرين فى أوساط حكومة المنفى فى لندن ٠

أما فى اليونان فقد أدى انسحاب الحلفاء منها فى ابريل عام ١٩٤١ إلى احتلالها بدولتى المحور ، كما أدى انهيار الجيش وانسحاب الملك وحكومته إلى المنفى ، إلى بعث الخلافات الحادة فى السياسة اليونانية كما كانت الانتقادات القاسية توجه الى الملكية فى داخل الوطن وفى الدوائر اليونانية فى الخارج ، لأنها سمحت بدكتاتورية الجنرال متكساس هذا بالاضافة الى المجاعة الشديدة التى حلت بالبلاد فى الشتاء والتى لم يخفف من حدتها الا المعونات التى بعثت بها جمعية الصليب الأحمر ، وأدت المجاعة التى غمرت جميع البلاد الى تطوع اعداد كبيرة فى حركات المقاومة وقد تسلحوا بالأسلحة التى كانت أخفيت فى الجبال عند استسلام الجيش ، واعلنت الهيئة التى اطلقت على نفسها إسم جبهة التحرير الوطنى والتى تألفت فى خريف عام ١٩٤١ ، عن قيام جيش التحرير الوطنى فى ابريل عام ١٩٤٢ وفى الوقت نفسه التف بقايا رجال الجيش اليونانى التى كانت فى جبال أبيروس وجبال المنطقة الشمالية الغربية حول شخص يدعى العقيد نابوليون زيرفاس ، وانضم اليه بعض الأهالى من سكان الجبلين ، وكان القادة الشيوعيون هم الذين يسيطرون على جبهة التحرير الوطنى وجيشها أما أنصار زيرفاس فكانوا جمهوريين فى عواطفهم ، ولكنهم مع مضى الزمن انقلبوا الى خصوم للشيوعية وحدها ، ولم يكن أى منهما يبدى شعور العطف للحكومة الملكية فى لندن أو يحاول الاتصال بها .

ولما كنا قد قررنا مهاجمة خط الامداد الألمانى الممتد عبر اليونان الى بيريه وهى القاعدة المهمة فى الطريق الألمانى الى شمال افريقيا وذلك فى أثناء قيامنا بمعركة العلمين ، فقد أنزلنا أول بعثة بريطانية بالمظلات

بقيادة المقدم مايزر ، فاتصلت في الحال بالعصابات اليونانية وتم نسف جسر رئيسى على الطريق الحديدى الأساسى المؤدى الى أثينا ، كما قام العملاء اليونان بأعمال تدميرية جريئة ضد ملاحـة المحور فى بيريه ، وعززنا البعثات البريطانيـة فى الصـيف التالى بقوات جديدة اشـتركت مع العصابات اليونانية فى نسف جسر آخر على السكة الحديدية الرئيسية الموصـلة الى أثينا مما اضـطر القيادة الألمانيـة إلى إرسـال فرقتين إلى اليونان كان من المقرر إرسالهما الى صقلية ، وكانت هذه العمليات آخر إسهام حربى قامت به العصابات اليونانية .

كما بدأت العناصر الثلاثة المختلفة ، وهى جيش التحرير الوطنى « إيلاس » الذى يبلغ تعداده عشرين ألفا ، والذى يسيطر عليه الشيوعيون وعصابات زيرفاس التى سميت (إيديس) والتى يبلغ عددها خمسـة آلاف ، والسياسـيون الملـكيون المجتمعون إما فى القاهرة أو لندن حول الملك جورج الثانى ، بعد أن تبينت أن النصر أصبح شبه مضمون للحلفاء ، بدأت تتصارع فيما بينها لنيل السيطرة السياسـية ، وعندما استسلم الايطاليون فى شهر سبتمبر عام ١٩٤٣ تمكنت (إيلاس) من الأستيلاء على ما كان لديهم من الأسـلحة والمعدات ، وبذلك حققت لنفسها التفوق العسكرى .

ولما كان من المحتمل جلاء الجيش الألمانى من البلقان بعد أن وصلت الجيوش السوفيتية الى حدود رومانيا ، وأصبح فى الامكان عودة الحكومة الملكية إلى البلاد بمساعدة بريطانيا ، فقد قرر زعماء جبهة التحرير الوطنى القيام بانقلاب شيوعى .

وكان هذا العمل يُعد تحديا مباشراً لسـلطة الحكومة الملكية فى المستقبل ونذيرا بنشوب ثورة فى القوات اليونانية المسلحة فى الشرق الأوسـط وفى دوائر الحـكومة اليونانية فى الخارج . كما قامت جماعة من ضباط الجيش والبحرية والطيران بزيارة رئيس الوزراء المسـيو تسوديروس فى القاهرة يوم واحد وثلاثين من مايو وطالبته بالاستقالة ، كما أعلن اللواء اليونانى الأول العصيان على ضباطه .

وفي هذه الأثناء وصل الملك الى القاهرة ، في الثاني عشر من أبريل وأصدر بيانا ، أعلن فيه عزمه على تأليف حكومة تمثل الشعب ويكون معظم اعضائها من اليونانيين الموجودين فى اليونان ، واتخذت الخطوات السرية لنقل عدد من الممثلين من أرض اليونان وبينهم المسيو باباندريو زعيم الحزب الديموقراطى الاشتراكى . وقد تولى رئاسة الوزارة ، وفى شهر مايو عقد مؤتمر يمثل جميع الاحزاب فى أحد مصايف جبل لبنان وشهده زعماء اليونان ، اتفق فيه على اقامة حكومة فى القاهرة تمثل فيها جميع الأحزاب تحت رياسة باباندريو .

إحتلال أنزيو

بعد أن إستسلمت إيطاليا فى شهر سبتمبر عام ١٩٤٣ ، تشكلت لجنة من الساسة الذين نحّاهم موسوليني عن السلطة والحكم ومن ممثلى الهيئات التى تتعارض الحكم الفاشي ، لمقاومة الألمان ولتحرير روما ، وفى هذا الوقت كان موسوليني قد إعتُقِلَ فى جزيرة بونزا ثم نقل منها فيما بعد الى لامادالينا الواقعة على مقربة من ساحل سردينيا ، وخوفا من أن يقوم الألمان بحركة خاطفة أمر بادوليو بنقل موسوليني الى قرية قبلية صغيرة تقع على قمة عالية فى أبروزى فى أواسط ايطاليا الا أنه فى صباح اليوم الثانى عشر من سبتمبر هبط نحو تسعين من رجال المظلات الألمانيين من طائرة انزلاق على مقربة من الفندق الذى أعتقل فيه موسوليني وأركبوه طائرة ألمانية تولت نقله فورا الى ميونيخ ، حيث عقد اجتماعا مع هتلر ، وبحثا معا فى طريقة اطالة حياة الفاشية الايطالية فى المناطق التى لا تزال القوات الألمانية تحتلها ، وأعلن الدوتشى فى الخامس عشر من سبتمبر تأليف حزب فاشى جمهورى جديد ليتولى اقامة حكومة فى الشمال الأيطالى، عُرفت باسم حكومة جمهورية سالو ، وذلك بعد أن اتخذ له مقر قيادة على شواطىء بحيرة جاردا •

وكان من نتائج استسلام ايطاليا المباغت أن وقعت جيوشها فى البلقان فى كمين بين قوات عصابات المقاومة المحلية وبين الألمان المتعطشين للانتقام حيث أبيدت الحامية الموجودة فى كورنو والبالغ عددها سبعة آلاف تقريبا ، وكذلك أبيدت القوات الموجودة فى جزيرة كيبهالوتيا ، الا أن الحاميات الموجودة فى بحر ايجه تمكنت من الفرار فى مجموعات صغيرة الى مصر ، كما انضمت وحدات من الايطاليين فى ألبانيا وعلى الساحل الدماسي وفي داخل يوغوسلافيا الى جماعة الأنصار ، حيث قام تيتو بتشكيل الجزء الأكبر من فرقتين ايطاليتين من فرق «غاريبالدى» فى الجبل الأسود وكان مجموع ما خسرته الجيوش الأيطالية فى البلقان وبحر ايجه مايقرب من أربعين ألف جندى •

كما غرقت ايطاليا فى أهوال الحرب الأهلية ، وأخذ ضباط الجيش الايطالى وجنوده المقيمون فى المناطق الشمالية التى يحتلها الألمان ينظمون وحدات من الانصار للعمل ضد الألمان وضد مواطنيهم الذين ما زالوا على ولائهم للدوتشى ، وأخذ هؤلاء الأنصار يتصلون بجيوش الحلفاء فى جنوب روما ومع حكومة بادوليو ، بغية تنظيم المقاومة الأيطالية للاحتلال الألمانى ، وكانت المساعدات التى يبذلونها لأسرانا الذين داهمتهم الهدنة وهم فى معسـكرات الأسر فى شـمال أيطاليا من جملة الأعمال المهمة التى كانوا يتولونها ، وبسبب هذه المسـاعدة تمكن عشرة آلاف أسير من مجموع الأسرى البالغ عددهم ثمانين ألفا من الهرب من معسكرات الاعتقال ٠

ولما رأى موسولينى أن « جمهورية سالو » أخذت تتداعى قدّم الى المحاكمة فى القلعة القديمة فى فيرونا فى نهاية عام ١٩٤٣ ، جميع قادة العهد الفاشى القديم الذين كانوا قد اقترعوا ضده والذين أمكن اعتقالهم فى المناطق الايطالية التى يحتلها الألمان ، وقد حكم عليهم جميعا بالاعدام بما فيهم الكونت تشايفو زوج ابنته إيدا ، وقد نفذ فيهم حكم الأعدام فى شهر يناير عام ١٩٤٤ ٠

أما من ناحيتنا فقد أخذنا نعُد العُدة لعملية « الحصباء » وهو الأسم الرمزى الذى أطلقناه على عملية « انزيو » وذلك فى أوائل يناير واشتبكت قوات الجيش الخامس فى قتال عنيف مع القوات الألمانية لاختراق خط جوستاف الذى كانت كاسينو مركزه الأساسى ، وهو خط دفاعى حصين ، تتخلله مراكز مراقبة على قمم الجبال ، كان العدو يسيطر بنيران مدافعه منهـا على جميع الوديان وما يقع فيهـا من حركات ، مما أرغم قواتنا على الارتداد ٠

وفى هذه الأثناء سارت قوافلنا المتجهة الى انزيو فى عرض البحر تحت حماية الطائرات التى قامت بغارات على مطارات العدو وبالأخص على مطار بيروجيا قاعدة طائرات الأستطلاع الألمانية ، وكنت أرقب بقلق بالغ نتيجة هذه العملية المهمة ، حتى جاءتنى الأنباء ، بأن الفيلق السادس الذى يتألف من الفرقة الأمريكية الثالثة والفرقة البريطانية الأولى بقيادة الجنرال الأمريكى لوكاس ، قد نزل الى البر فى شواطىء انزيو فى صباح الثـانى والعشرين من الشهر واستغرقت عمليات جس النبض فى اتجاه شيشتيرنا وكامبوليونى طيلة يومى ٢٢ و ٢٣ يناير ، كما نزل أيضـا جماعتان من الفدائيين البريطانيين والأمريكيين مع حشد هائل من المعدات والأسلحة على الشاطىء ، ولكن الفرصة التى بذلنا كل هذه المجهودات الهائلة فى سبيل

الحصول عليها قد ضاعت بسـبب ما قام به الجنرال كيسلرنج من رد سريع وهجوم شامل على قواتنا ، وقد وصلتني أنباء خطيرة من الجنرال اليكساندر بانه هو والجنرال كلارك غير راضيين عن سرعة التقدم ، ولكن هجماتنا استمرت على مواقع العدو في كاسينو ، ولم يضعف الخطر الذى يهدد جنـاح كيسلرنج من عزيمته على مقاومة هجماتنا ، وتصميمه على الاحتفاظ بمواقعه تنفيذا للأمر الصادر اليه من هتلر ، والذى قال فيه :

« يجب الاحتفاظ بخط جوسـتاف بأى ثمن ، بالنظر الى النتائج السياسية التي يمكن أن تنجم عنه ، وان الفوهرر يتوقع كفاحا شديدا فى سبيل كل شبر من الأرض » .

ولو أننا حققنا تقدما مرضيا في البداية حيث اجتزنا نهر أبيدو المار ببلدة كاسينو ، ثم هجمنا نحو الجنوب فى اتجاه جبل الدير الا أن الألمان صمدوا صمودا عنيدا ولم يأت أول فبراير حتى كانت قـوة هجـومنا قد ضعفت وجئنا بفيلق نيوزيلندى يضم ثلاث فرق من جبهة الادرياتيك وبدأنا فى الخامس عشر من فبراير هجومنا الرئيسى الثاني بقصف الدير نفسه ، وقد ظهر أن هذا الجبل عائق دفاعى مهم جدا ولم تكن النتيجة مجدية ، كما عهد الى الفرقة الهندية الرابعة التى حلت محل الأمريكيين بالهجوم ، وقاموا فعلا بمحاولات يائسة في ليلتين متتاليتين لاحتلال أكمة بين المواقع التي يوجدون فيهـا وبين الجبل الذى يقـوم عليه الدير ولكنها منيت بالفشل ، وفى ليلة الثامن عشر من فبراير قاموا بمحاولة ثالثة ودار بينها وبين العدو قتال عنيف قتل فيه جميع رجالنا الذين توصـلوا الى الألمان وخسرت قواتنا خسـائر بالغـة مما اضطرها الى التوقف ، وهكذا فشل الهجوم المباشر على كاسينو .

وقد قال الجنرال ويلسون فى تقريره « أُغلق المحيط ، وأصبحت قواتنا فى داخله عاجزة عن التقدم » فعلى الرغم من أن الجنرال لوكاس قد حصل على المباغتة التى كنا نريدها الا أنه فشل فى استغلالها والاستفادة منها ، وكان هذا مثبطا للعزائم عندنا وفى الولايات المتحدة ، وقد كنا فى الظاهر لا نزال أقوى من الألمان فى قوتنا المحاربة ، ولكن السهولة التى كانوا ينقلون بها قطعهم من مكان الى آخر والسرعة التى كانوا يسدون فيها الثغرات الخطرة التى فى جبهتهم الجنوبية كانتـا ظاهرتين مؤثرتين كل التأثير ، ووضح ان كل هذا يبين لنا حقـائق ليست فى مصلحة عملية « السد الأكبر » .

كما بدأت المحاولة الرئيسية المنتظرة للقذف بنا الى البحر ، عندما استخدم العدو أكثر من أربع فرق يدعمها نحو أربعمائة وخمسين مدفعا فى هجوم مباشر من كامبوليونى نحو الجنـــوب تنفيذا لأمر هتلر باخلاء الشاطىء فى بحر ثـــلاثة أيام ، ولكن الخط الذى كان حتى الآن يفرض العراقيل شاء فى اللحظة الأخيرة أن يولينا بعنايته ، فقبل أن تنتهى الأيام الثلاثة المقررة توقف الهجوم الألمانى ، وفى الحال قمنا بهجوم عام تؤيدنا نيران شديدة من مدفعيتنا وغارات طائراتنا ودار قتال عنيف بلغت خسائر الفريقين فيه حدا هائلا ولكننا كسبنا المعركة •

وفى أوائل شهر مارس توقف الفريقان عن الحركة بســـبب رداءة الطقس بعد أن فشلنا فى اختراق جبهة الألمان الرئيسية فى كاسينو كما فشل الألمان فى القذف بنا الى البحر فى انزيو •

ولو أن انزيو لم تعد مصدر قلق لنا ، الا أن الحملة فى ايطاليا فى مجموعها أبطأت فى سيرها ، وكنا نأمل أن نتمكن من طرد الألمان الى الشمال من روما ، كما نتمكن من القيام بعملية انزال قوات ومعـــدات على شاطىء الريفيرا الفرنسى لتكون عونا لنا فى عملية الغزو عبر القناة الا أنه قد تبين أن علينا أن نسير بالحملة فى ايطاليا شوطا بعيدا قبل أن نبدأ فى عملية غزو القناة •

ولما كانت الحاجة ملحة تتطلب انهاء فترة الجمود التى تسود جبهة كاسترو ، فسرعان ما بدأت الاستعدادات لمعركة كاسينو الثالثة ، ولكن رداءة الطقس حالت دون بدء الهجوم حتى الخامس عشر من مارس ، حيث بدأنا الهجوم بالقاء أكثر من ألف طن من قنابل الطائرات وألف ومائتى طن من قذائف المدافع حتى يتيسر لمشاتنا التقدم ، وعندما هبط الظلام كان الجزء الأكبر من البلدة قد أصبح فى أيدينا ، ولكن المعركة استمرت فى خرائب كاسينو حتى الثالث والعشرين من الشهر وهى تتردد بين مد وجزر من الهجمات والهجمات المضـــادة ، ولكننا على كل حال أفلحنا فى تثبيت رأس جسر على نهر رابيدو ، مما كان له كبير الأهمية فى الاندفاع الذى قمنا به فى شهر يناير الماضى ، عبر الحوض الأدنى لنهر كاريجيليانو، وعندما جاء دور المعركة الحـــاسمة الظافرة فيما بعد ، تمكنا من احتلال انزيو ، وقد دل هذا العمل الذى قامت به جيوشنا فى ايطاليا ولا سيما فى ضربة انزيو ، على أننا سننجح فى عملية « السد الأكبر » •

عبور القناة أو عملية السيد الأكبر

لما كنت شديد الرغبة فى اشراك الولايات المتحدة معنا فى هجوم مباشر عبر القناة على جبهة الألمان البحرية فى فرنسا ، ولما كنت أيضا غير مقتنع بأن هذه الخطة كانت الوحيدة التى تضمن الفوز فى الحرب ، وكنت أعرف أنها مغامرة محفوفة بالأخطار وكثيرة المتاعب ، وكانت الأثمان الغالية التى دفعناها من الأرواح البشرية الدماء فى أثناء الحرب العظمى الأولى ، لا تزال منقوشة فى ذاكرتى ، وكنت لا أزال أعرف أن الحصون المبنية من الاسمنت المسلح والفولاذ والمسلحة بالقوة النارية الحديثة والتى يدافع عنها رجال مدربون أكمل تدريب ، لا يمكن التغلب عليها الا بعنصر المباغتة. فقد ظل الجنرال مورجان وأركان حربه من القوات الحليفة المشتركة يعملون طول أشهر الصيف عام ١٩٤٣ فى اعداد الخطة ، وكان من رأى الجنرال ايزنهاور والجنرال مونتجمرى أن يكون الهجوم بقوة كبيرة وعلى جبهة أوسع ليكسبا بسرعة رأس جسر ذا حجم كاف لتعزيز القوات التى تنزل الى البر ، وكان من المهم أيضا الاستيلاء على أرصفة شربورج ، وطالبا أن يكون الهجوم بخمس فرق بدلا من ثلاث • وقد تقرر أخذ قطع الانزال اللازمة لفرقة واحدة من الفرقتين الاضافيتين من عملية «السندان» أما البواخر اللازمة للفرقة الثانية فيمكن ايجادها من تأجيل عملية السيد الاكبر حتى فترة القمر فى يونيو •

وقد أخذت جميع الفرق تجرى تدريباتها النهائية ، وبالطبع لم يمر هذا النشاط عَرَضاً ، فقد كان لنا غاية فى أن يلاحظ المراقبون الأعداء ذلك من خليج كاليه ، كما كنا فى هذه الفترة نجرى عملية استطلاع جوى مستمرة لنكون على علم بما يدور فى القناة ، كماكانت تقوم بعض الجماعات برحلات عدة فى زوارق صغيرة لسبر بعض الأغوار على الشاطىء ومعرفة العقبات الجديدة واختبار طبيعة الساحل وذلك فى جنح الظلام •

ولما كان اختيار يوم الغزو وساعته أمرا دقيقا ومعقدا ، كما أن جميع الشروط المرغوب فيها ماكانت لتتوافر إلا ثلاثة أيام فى كل شهر قمرى ،

وكانت الأيام الثلاثة التى حددها الجنرال ايزنهاور هى الخامس والسادس والسابع من يونيو فقد اتفق على أن يكون اليوم الخامس من حزيران هو بدء الغزو ، واذا لم يكن الطقس ملائما فى أى من هذه الأيام الثلاثة فان العملية كلها ستتأجل شهرا كاملا إنتظارا للقمر ٠

ولما كان حشد القوات المهاجمة والتى كان يبلغ تعدادها (١٧٦) ألف جندى وعشرين ألف سيارة وعدة ألوف من أطنـــان الذخائر ، التى تقرر نقلها فى اليومين الأولين مهمة كبيرة للغاية ، فقد بدأ نقل الجنود من جميع مراكزهم فى أنحاء بريطانيا الى المقاطعات الجنوبية كما جمعت فرق الجو الثلاث وهى التى تقرر هبوطها فى نورماندى قبل بدء الهجوم البحرى فى أماكن قريبة من المطارات التى ستستقل الطائرات منها ٠

ولما كان من غير المعقول ، أن تظـل جميع هذه التحركات فى البر والبحر خافية عن عيون العدو واهتمامه ، وكانت هنـــاك أهداف مغرية لطائرات العدو فقد اتخذنا الاحتياطات اللازمة كافة لمواجهة ذلك ، وأعددنا أكثر من سبعة آلاف مدفع مضاد للطـائرات والصـواريخ وأكثر من ألف منطاد لحماية هذه الحشـود الهائلة من الرجال والسيارات ٠

وقبل ثلاثة أسابيع من ابتداء الغزو ، عقدنا مؤتمرا ثانيا فى لندن، فى مقر قيادة مونتجمرى شـهده الملك والمارشال سمطس ورؤساء أركان الحرب البريطانيين وقواد الحملة وعدد كبير من أركانهم ، وكان قد أعد خريطة كبيرة لنورماندى وشواطئها ومداخلها ، ليتمكن كبـــار الضباط الذين يشرحون خطة العملية والطرق الموصلة للأماكن التى يشيرون اليها ، وانتهت الجلسة بعـد أن ألقى الملك والجنرال مونتجمرى وضباط الأركان خطاباتهم ٠

هذا وقد لاحظنا أن العدو يعد نجدات من القوات البحرية الخفيفة فى شربورج والهافر كما أبدى نشاطا كبيرا فى عمليات زرع الألغـــام فى القناة ، وعندما حل يـــوم الغزو وهو الخـامس من يونيو ، منعنا جميع الأشخاص الذين تقرر اشتراكهم فى الحمـــلة من مغـــادرة بواخرهم أو معسكراتهم أو نقاط تجمعهم على الساحل ، كما احتجز البريد بأنواعه ، وأخذنا ندرس التقارير عن حالة الطقس ، وقد عرفنا أن الطقس سيكون سـيئا للغـــاية ، وهذا أمر كبير الأهمية بالنسبة لغارات الطائرات التى ســـتمهد للانزال ، وطال أمد التأجيل الى ما بعد السابع وأصبح من غير الممكن الحصول على الجمع بين القمر والمد قبـل مضى نحـــو أسبوعين ٠ وكانت فى هذه الأثناء قد صدرت التعليمات الى جميع الجنود بالاستعداد ،

ولكن لما كان من الواضح أنه ليس فى وسعنا الاحتفاظ بهم على ظهر هذه البواخر الصغيرة إلى أمد غير محدود ، كما أنه كان فى مثل هذه الحالة لا يمكن أن تحول دون تسرب الأنباء ووصولها الى العدو فى حالة حدوث تأجيل طويل وعليه فقد أصدر الجنرال ايزنهاور أمرا بتأجيل العملية وعادت جميع البواخر والسفن المحملة بالجنود والعتاد الى مكان تجمعها الأصلى •

ولكن خبراء الأرصاد الجوية عادوا وأكدوا وجود تحسن مؤقت صباح السادس من يونيو ويعود الطقس بعدها الى السوء ، الى وقت غير محدود • وكان على ايزنهاور أن يواجه الخيار الخطير بين أمرين • اما تقبل الأخطار أو تأجيل الهجوم مدة أسبوعين على الأقل ، ولكنه على ضوء نصائح قادته قرر بجرأة وحكمة كما أثبتت الأيام •• أن يمضى قدما فى العملية وتقرر أن يقع الغزو فى اليوم السادس من يونيو ، وبعد أن تتابعت الأحداث تبين لنا أن هذا القرار قد بررته الأحداث وكان سببا فى أن قبضنا على ناصية المباغتة مع ما تنطوى عليه من فوائد ، وكان من حسن حظنا أن ضباط الأرصاد الجوية الألمان ، كانوا قد أبلغوا قيادتهم العليا أن الغزو الخامس والسادس من يونيو فى حكم المستحيل بسبب رداءة الطقس التى قد تستمر عدة أيام ، وعلى ذلك فقد مضت العملية الكبيرة فى طريقها بدقة متناهية • وتقدم أعظم أسطول غزو فى التاريخ متجها الى ساحل فرنسا تتقدمه كاسحات الألغام وتحرسه من جميع جهاته القوات البحرية والجوية الحليفة •

وكانت شبكة الدفاع حول جميع شواطئنا محكمة وتعمل فى منتهى الدقة والنشاط كما كان أسطول الوطن يقظا ومتربصا لأية حركة قد تقوم بها السفن الحربية الألمانية ، وكانت الدوريات الجوية تراقب شواطىء العدو من النرويج حتى القناة ، وفوق المداخل الغربية وخليج بسكاى ، وفى هذه الأثناء جاءتنى أنباء مثيرة عن احتلال قواتنا لروما •

الاستيلاء على روما

لقد توقف زحف الحلفاء في ايطــاليا لمدة شهرين بسبب مالاقته قواتنا من صعاب في جبهتي انزيو وكاسينو ، في أثناء القتــال الذي دار هناك وقد تحتم علينا أن نعيد تنظيمها ، وأن ننقل الجزء الأكبر من الجيش الثامن ومن ناحية الادرياتيك لكي يتأهب الجيشان للهجوم القادم • وفي هذه الاثنـــاء كان الجنرال ويلسون يستخدم كل مالديه من قوات جوية ليعرقل حركات العدو ، ويلحق به أفدح الخسائر ، كمـا اشتركت قوات الحلفاء الجوية في مهاجمة مواصلات العدو البرية أملا في تطعها • لكي ترغم القوات الألمانية على الانسحاب بسبب افتقـــارها الى المؤن • وكذلك تحطيم الجسور والقنـــاطر وغيرهـا من الأماكن الحساسة لتوقف ســير القطارات الى الشمال من روما ولكن العملية فشلت • وتمكن العـدو من المحـــافظة على طرق امداده ، باستخدام الملاحة الداخلية ونقل شحناته بالسيارات بدلا من القطارات ، ولكنه عجز عن جمع كميات كبيرة من المؤن والذخائر تكفي قواته للاستمرار في القتال لمدة طويلة ؛ وظهر الضعف في صفوفه في أثناء القتال العنيف الذي نشب في الأيام الأخيرة من شـــهر مايو • مما حقق لنا الاتصال بجيوشنا المنفصلة ، كما تحقق لنا الاستيلاء على روما في أسرع مما كنا نتوقع • كما مُنِيَ سلاح الجو الألمـاني بخسائر فادحة •

وقد كان الجيش الخامس بقيادة الجنرال كلارك يضم في هذا الوقت سبع فرق بينها أربع فرق فرنسية ويحتل الجبهة الممتدة من البحر الى نهر ليري ، كما كانت جبهة الجيش الثـــامن الذي يقوده الجنرال ليز • مكملة الخط عبر كاسينو الى الجبال والذي يضم اثنتي عشرة فرقة وقـد تجمع للحلفاء بذلك ثمان وعشرون فرقة ، مقـــابل ثلاث وعشرين فـرقة للألمـان • وكانت خطواتنا التضليلية تذهل كيسلرنج مما دعاه الى توزيع قواته على مســاحة شاسعة ، وبذلك لم يكن لديه في الجبهة الممتدة بين

كاسينو والبحر ، حيث تقرر أن توجه ضربتنا اليها أربع فرق ، وقد بدأ الهجوم فى مساء اليوم الحادى عشر من مايو ، عندما أطلقت مدافعنا البالغ عدّها الفى مدفع قذائفها على العدو وعززها فى الصباح قصف جوى شديد قامت به طائراتنا وبذلك تم لنا فى اليوم الثامن عشر من مايو التغلب على العدو وتطهير كاسينو بصورة نهائية ٠

كما كانت هناك ست فرق يقودها الجنرال الأمريكى تروسكوت قد احتشدت فى رأس شاطىء انزيو اندفعت فى هجومها مع الجيش الثامن ، ولم يمض يومان حتى اتصلت بالفيلق الأمريكى الثانى ٠

وبذلك تحطمت المقاومة الألمانية فى مساء اليوم الثانى من يونيو ، وفى اليـــوم الرابع من يونيو دخلت طلائع الفرقة الثامنة والثمانين الى ساحة البندقية فى قلب العاصمة (روما) ٠

وفى اليوم السادس من حزيران عـــام ١٩٤٤ ، أعلنتُ فى مجلس العموم تحرير مدينة روما على أيدى جيوش الحلفاء تحت قيادة الجنرال اليكساندر كما بعثت الى ستالين أعلمه بذلك وبسير عملية « السد الأكبر » نحو غايتها ، وقد رد على يقول :

« تلقيت رسالتك عن النجاح الذى حققتموه فى بداية عملية « السد الأكبر » مما بعث السرور الى نفوســـنا والأمل فى انتصارات أخرى ، هذا وسيبدأ حوالى منتصف هذا الشهر هجوم الصــيف بالنســبة للقوات السوفيتية كما اتفقنا فى مؤتمر طهران ، على أن تتطور العمليات الهجومية خلال شهر يوليو الى هجوم عام تشنه الجيوش السوفيتية فى جميع أنحاء الجبهة » ٠

وبعد أيام أبرق الى ستالين يقول :

« لقد أصبح واضحا أن النزول الذى خطط له على نطاق واسع ، قد نجح نجاحا كاملا ، ولا أســـتطيع أنا وزملائى الا الاعتراف بأن تاريخ الحــرب لا يعرف عملية أخرى مماثلة من حيث تطوراتها وتصوراتها الواسعة وتنفيذها العبقرى ٠

ومن المعروف جيدا أن نابليون قد فشل فشلا معيبا فى اجتياز القناة بالقوة ، وهتلر المجنون الذى ظل يتبجح عامين كاملين بانه سيعبر المانش ، لم يستطع أن يحزم أمره حتى

على مجرد الاشارة بأنه سيحاول تنفيذ وعيده ولم يتمكن سوى حلفائنا من أن يحققوا بشرف الخطة العظيمة فى عبور المانش ، ولا ريب فى أن التاريخ سيسجل هذا العمل على أنه عمل من أعظم الأعمال » .

وأبلغنا الجنرال مونتجمرى فى العاشر من يونيو بأنه قد أصبح ثابت الأقدام على الشاطىء بحيث يستطيع تقبل الزيارات ، فقمت ومعى الجنرال سمطس وبروك لزيارته على ظهر احدى المدمرات كما استقل الجنرال مارشال والأميرال كينج وضباط أركان حربهما مدمرة أخرى ليكونوا معنا فى هذه الزيارة ، ونزلنا الى البر وأخذت السيارة تطوف بنا المنطقة المحدودة التى يحتلها فى نورماندى وعدنا بعد ذلك على المدمرة « كيلفن » .

وبعد عودتى ، بعثت بالرسالة التالية الى الرئيس شرحت له فيها جميع القضايا ومن بينها بالطبع الزيارة التى ينوى الجنرال ديجول القيام بها لفرنسا والتى أعددت لها العدة دون استشارة الرئيس ، قلت له فيها :

« لقد قضيت يوما ممتعا على الشاطىء الفرنسى وفى الداخل ، وهناك كتلة ضخمة من البواخر تنتشر على مسافة تتعدى الخمسين ميلا على طول الشاطىء ، وتقوم الموانى الاصطناعية بحماية هذه البواخر . وفى وسعى أن أقول ان كل عنصر من هذه الموانى كان ناجحا فى حد ذاته ، وستصبح عما قريب عاملا مهماً فى تأمين الملاذ الأمين ضد الطقس السيىء ، ويبدو أن قوة سلاحنا الجوى وقوة وسائلنا فى مقاومة الغواصات قد ضمنت لنا حدا كبيرا من الحماية وبعد أن قمنا بواجبات كثيرة منهكة أطلقنا نيران مدافعنا من مدمراتنا على الرغم من أننا كنا على بعد ستة آلاف ياردة ولكن العدو لم يكرمنا برد تحيتنا » .

تحرير باريس

ولنبين الآن مما توضح لنا ما كانت عليه أوضاع وخطط العدو ، فقد كان الماريشال رونشتادت يتولى قيادة (جدار الأطلنطى) وتحت امرته ستون فرقة تتولى العمل فى القطاع الممتد من الأراضى المنخفضة حتى خليج بسماى ، ومن مارسيليا الى نهاية الساحل الفرنسى الجنوبى ، وكان روميل يتولى القطاع الساحلى الممتد من هولندا الى اللوار وكان جيشه الخامس عشر المؤلف من تسع عشرة فرقة على حين كان جيشه السابع المؤلف من تسع فرق مشاه وفرقة مدرعة فى نورماندیا نفسها . أما الفرق العشر المدرعة الموجودة فى الجبهة الغربية كلها فكانت منتشرة من بلجيكا الى بوردو ، ومن الغريب أن الألمان وقد أصبحوا فى مركز المدافع فقد ارتكبوا الأخطاء التى ارتكبها الفرنسيون عام ١٩٤٠ عندما وزعوا أقوى سلاح يمكن لهم الاعتماد فى الهجوم المضاد .

ومن الغريب أن هذا الهجوم الضخم جاء مباغتا للعدو ، ففى صباح الخامس من يونيو كان روميل قد غادر مقر قيادته لزيارة هتلر فى بختسجادن عندما حلت الضربة بقطاعه وكان رونشتادت يعتقد بأن ضربتنا الرئيسية ستوجه من مضايق دوفر ، ولكن يظهر أن هتلر وأركان حربه كانوا قد تلقوا تقارير تشير الى أن نورماندیا ستكون ميدان المعركة الرئيسى ، وظلت تساوره الشكوك حتى بعد نزولنا ، واضاع يوما كاملا قبل أن يقرر ارسال أقرب فرقتين مدرعتين الى الجبهة لتعزيزها لأنه كان فى رأيه أن عملية الانزال فى نوماندیا لم يكن الا مجرد عملية أولية وفرعية ، ولم يرسل القوات الاحتياطية من الجيش الخامس المرابط فى خليج كاليه جنوبا لتشترك فى المعركة الا بعد أن انقضى ستة أسابيع على يوم الغزو .

ومع ذلك فقد قاتلت جيوش العدو بعناد واصرار ولم يكن من السهل التغلب عليها ، ولكن على الرغم من جميع الصعوبات التى لاقيناها ،

فقد حققنا تقدما طيبا باستثناء فشلنا فى احتلال كاين ، التى كانت ذات أهمية عظيمة بالنسبة لنا ، ولأن مونتجمرى كان قد قرر أن يقيم بوساطة القوات الامريكية فيها نقطة ارتكاز يسارية ضخمة تدور منها المعارك ولأن أرضها كانت تصلح لاقامة أماكن لهبوط الطائرات فيها ، كما كانت هذه البلدة مهمة أيضا بالنسبة للألمان ، لأن اختراق الجبهة فيها يجبر جيشهم السابع بأكمله على الانسحاب فى اتجاه جنوبى شرق اللوار ويفتح ثغرة بينه وبين الجيش الخامس عشر فى الشمال ، كما يتفتح الطريق فى الوقت نفسه الى باريس •

وقد تمكن الحلفاء فى الحادى عشر من يونيو من اقامة جبهة متصلة واندفع الأمريكيون شرقا وغربا تؤيدهم الطائرات المقاتلة ، وبعد قتال عنيف توافقوا عند أبواب الخطوط الدفاعية لمدينة شربورج فى الثانى والعشرين من يونيو •

وفى هذه الأثناء وقعت أحداث أخرى وراء الميدان أثرت على مستقبل المعركة تأثيرا حاسما ، ففى ليلة الثالث عشر من يونيو سقطت على لندن أولى القنابل الطائرة ، وكانت هذه القنابل تنطلق من سواحل فرنسا الشمالية من أماكن بعيدة عن جيوشنا النازلة الى البر ، ولو كنا احتللنا هذه الأماكن فى وقت مبكر لأرحنا السكان المدنيين فى لندن من تعرضهم لهذه الغارات الجوية الفظيعة •

وفى اليوم التاسع عشر من يونيو عقد هتلر مؤتمرا فى مارجيفال على مقربة من سواسون ، شهده رونشتادت ورومل ، وبين له القائدان وجوب سحب الجيش السابع بانتظام قبل أن يتعرض للدمار الى نهر السين حيث يستطيع أن يخوض بالاشتراك مع الجيش الخامس عشر معركة حاسمة ومتحركة ولكن هتلر لم يذعن لرأيهما ، وأصر كما سبق أن أصر فى روسيا وايطاليا على وجوب القتال عن كل شبر من الأرض •

هذا وقد تم لنا فى الستة الأيام الأولى من بدء الهجوم تثبيت أقدامنا وانزلنا (٣٢٦) ألف رجل و (٥٤) ألف سيارة و (١٠٤) آلاف طن من العتاد والذخائر ، كما أقمنا جهازا هائلا للتموين ، كما أعددنا ميناء « بورت آن باسان » ليكون الميناء الرئيسى للامداد بالبترول فى المنطقة كلها وفى هذه الأثناء هبت عواصف شديدة استمرت أربعة أيام فحالت دون نزول أية قوات أو معدات جديدة الى الساحل كما ألحقت أضرارا كبيرة بحواجز الماء ، وأفلتت قطع عائمة كثيرة • فاصطدمت بحواجز المياه

وبالسفن الراسية فى مرافقها وتحطم الميناء الموجود فى المنطقة الأمريكية وقد تسببت فى تعطيل تقدمنا فى الميدان ، وأقام البريطانيون فى الأسبوع الأخير من يونيو رأس جسر لهم فى جنوب كلن ولـكن المحاولات التى بذلت لتوسيعه جنوبا وشرقا منيت بالفشل ٠

وفى السابع عشر من شهر يوليو ، وقع حادث مهم للغاية ، حيث أصيب رومل بجراح بالغة من جراء هجوم طائراتنا المحاربة من ارتفاع منخفض على سيارته ولكنه بعد أن شفى من جراحه لقى حتفه فيما بعد بأمر من هتلر ، كما نُحِّى رونشتادت عن قيادة الجبهة الغربية كلها ليخلفه فيها فون كلوجه ، وهو قائد أظهر تفوقا عظيما فى الجبهة الروسية كما وقعت فى العشرين من يوليو محاولة أخرى فاشلة لاغتيال هتلر ، بوساطة قنبلة زمنية وضعها الكولونيل فون شتوفنبرج ، وقد قُتل عدد من الضباط الذين كانوا حاضرين ولكن الفوهرر برغم الصدمة الشديدة والجراح التى أصيب بها نهض هاتفا « من يقول ان الله لا يرعانى بحمايته » ٠

وفى الثامن عشر من يوليو هجم الجيش البريطانى بثلاثة فيالق تقدمها قصف جوى هائل ، حال بين سلاح ألمانيا الجوى وبين التدخل فى المعركة وتقدمنا الى الشرق من كاين ، الى أن حالت الغيوم الملبدة فى السماء بين طائراتنا وبين الحركة الفعالة ، مما سبب تأخرا فى عملية الاقتحام فى القطاع الأمريكى لمدة أسبوع ٠

وفى هذه الآونة صدرت الأوامر بالغاء الحظر الذى كانت القيادة العليا الألمانية قد فرضته على جيشها الخامس عشر والتى كانت محتفظة به وراء نهر السين ، كما توجهت فرق جديدة لتعزيز الجيش السابع الذى لحق به الاجهاد ، وقد تمكنت طائراتنا من عرقلة نقل هـذه الفرق بالسكة الحديد ٠

وحانت أخيرا لحظة الهجوم الأمريكى العظيم بقيادة الجنرال برادلى ففى الخامس والعشرين من يوليو ، اندفع الفيلق السابع جنوبا من سان لو وانضم اليه الفيلق الثامن المرابط الى ميمنته فى اليوم التالى ، تؤيدهما قاذفات القنابل الأمريكية ، كما اندفعت القوات المدرعة تجرف فى طريقها كل شىء مستهدفة نقطة كوتانس ، ذات المركز الحساس ، فقطعت طريق النجاة بالنسبة للألمان على طول ساحل نورمانديا الغربى ، وأصبحت جميع مراكز الألمان اندفاعية الى الغرب من نهر فير فى حالة من الشلل والاضطراب ومضى الزحف مندفعا للأمام ، وتم احتلال افرانسن فى الحادى والثلاثين

من يوليو ، وتلتها الزاوية البحرية التى فتحت الطريق الى شبه جزيرة بريتانى وقام الكنديون فى الوقت نفسه بهجوم من كاين جنوبا فى اتجاه طريق ناليز ولكنه لقى مقاومة فعالة من أربع فرق مدرعة •

وفى هذا الوقت تم تشكيل الجيش الأمريكي الثالث بقيادة الجنرال باتون وشرع يعمل فى ميدان القتال ، وقد أوفد هذا الجيش فرقتين مدرعتين وثلاث فرق من المشاة الى الجنوب والغرب ، لتطهير جزيرة بريتانى ، بمساعدة حركة المقاومة الفرنسية التى كانت تضم ثلاثين ألف رجل ، وقد تم الاستيلاء على شبه جزيرة بريتانى •

وبعد أن تم تطهير بريتانى ، شرعت بقية جيش باتون فى الزحف شرقا فى الخطاف الطويل « الذى سيصل بها الى الثغرة الواقعة بين باريس واللوار وهبوطا مع السين فى اتجاه روان » ودخلت قواتنا بلدة لافال فى السادس من أغسطس وفى السابع منه بلدة ليمانز ، ولكن الصعوبة الكبرى كانت من تموين الأمريكيين الزاحفين فى مساحات طويلة شاسعة وكان من الواجب فى هذه اللحظة نقل كل شيء الى شواطيء الانزال الأساسية ومنها الى الطرف الغربى من نورماندىا عبر افرانش حتى تصل المؤن الى الجبهة ، وهكذا أصبحت افرانش بمثابة عنق الزجاجة ، وقد حانت فرصة مغرية للألمان ليشنوا عليها هجوما مضادا واستحوذت الفكرة على خيال هتلر ، فأصدر أوامره بأن تقوم القوات بالهجوم على مورتان ، لتشق طريقها منها الى افرانشن • ولتقطع بذلك طرق مواصلات باتون ، وأجمع القادة الألمان على استنكار هذا الهجوم الجديد ، لادراكهم أن معركة نورماندىا قد انتهت بفقدها ، ولكن هتلر أصر على رأيه وفى السابع من أغسطس شنت خمس فرق مدرعة وفرقتان من المشاة هجوما عنيفا على مورتان من ناحية الشرق ، فسقطت الضربة على فرقة أمريكية واحدة ، ولكنها صمدت للهجوم حتى وصلتها ثلاث فرق أخرى لمساعدتها وصد العدو • ومضت قوات الحلفاء تندفع فى طريقها مهاجمة الألمان المكتظين فى الجيب الضيق الطويل ، وتمكنت بفعل المدافع من أن تنزل بها خسارة هائلة ، وصمد الألمان بعناد واصرار محاولين انقاذ ما يمكن انقاذه بوساطة قواتهم المدرعة ، وتحول المنظر الى مذبحة وانطبق الفكان فى العشرين من أغسطس ، وقد تمكن شطر كبير من قوات العدو من الخلاص من الطوق والنجاة ، الا أن ما لا يقل عن ثمان فرق ألمانية قد تمت ابادتها فى هذه المعركة •

كما تمكن الجيش الأمريكي الثالث من تطهير بريتاني والاسهام في نصر فاليه الرائع ، بدفعه ثلاثة فيالق في اتجاه الشرق والشمال الشرقي من ليمانز ، وقد وصلت في السابع عشر من أغسطس الى أورليان وشاراد ودرو • ثم اندفعت في اتجاه شمالي غربي للقاء القوات البريطانية الزاحفة على روان •

وكان ايزنهاور الذي تولى القيادة العليا الآن عازما على تجنب خوض معركة لاحتلال باريس ، ولما كانت ستالنجراد ووارسو قد برهنتا على ما في الهجمات الجيبية من مفازع ومخاوف ومن انتشار روح الوطنية بين المدافعين ، فقد قرر تطويق العاصمة وارغام الحامية التي بها اما على الاستسلام أو الهرب ، وحانت في العشرين من أغسطس ساعة العمل ، وكان الجنرال باتون قد عبر نهر السين على مقربة من سانت ووصل جناحه الأيمن الى فونتبنلو ، وأعلنت الحركة السرية الفرنسية الثورة وأضرب رجال الشرطة ووصل أحد ضباط المقاومة الفرنسية الى مركز قيادة باتون حاملا تقارير هامة وقد نُقلت هذه التقارير الى الجنرال ايزنهاور في ليمانز ، كما التحقت الفرقة الفرنسية المدرعة الثالثة بقيادة الجنرال ليكليرك والتي كانت قد هبطت الى البر في نورمانديا في أول أغسطس بجيش الجنرال باتون • وأدت دورا مهما في التقدم ووصل ديجول في اليوم نفسه فأكد له القائد الأعلى للحلفاء ، أنه عندما يحين الوقت وطبقا للاتفاقات السابقة ، ستكون قوات ليكليرك أول القوات التي تدخل باريس ، وما أن وصلت الى ايزنهاور أنباء عن وقوع قتال في شوارع العاصمة حتى قرر أن يعمل فورا وأصدر أمره الى ليكليرك بالزحف على باريس •

وفي الرابع والعشرين من أغسطس تحرك الاندفاع الرئيسي بقيادة العقيد بيلوني من أورليان في اتجاه باريس ، ووصلت طليعة الدبابات في تلك الليلة بوابة أورليان ، ودخلت الى الساحة القائمة في مدخل دار الأمانة ، وفي صباح اليوم التالي ، كانت قوات بيلوني المدرعة تحتل ضفتي السين وعند الظهر تم تطويق مقر قيادة الجنرال الألماني فون شوليتز في « قصر موريس » وجيء بفون شوليتز أمام ليكليرك ، وكانت هذه خاتمة المطاف من دنكرك الى بحيرة تشاد فالوطن ثانية وتم التوقيع على شروط تسليم حامية المدينة ، ودخل ديجول في السادس والعشرين من أغسطس العاصمة سيرا على قدميه الى الشانزليزيه ومنها الى ساحة الكونكورد حيث استقل ورفاقه السيارات صاعدين الى نوتردام ، وبعد

فترة قصـــيرة جرى الاحتفـال الرســمى بتحرير باريس وفقا للخطـة الموضوعة •

وفى الثلاثين من أغسطس عَبرَت قواتنا نهر السين من عدة جهات وكانت خسائر العدو هائلة ، فقد بلغت أربعمائة ألف رجل وأكثر من نصفهم وقعوا فى الأسر ، والفا وثلثمائة دبابة وعشرين ألف سيارة وألفا وخمسمائة مدفع ميدان ، وقد مُزِّق الجيش الألمانى السابع وجميع الفرق التى أُرسِلت لنجدته وكتب الجنرال أيزنهاور فى تقريره الرسمى يقول : « لولا التضحيـــات العظيمة التى قدمتها الجيــوش الانجليزية والكندية فى معارك كاين وفاليه الوحشية ، لما كان فى امكاننا أن نحقق الزحف الرائع بوساطة قوات الحلفاء الأخرى فى المناطق الثانية » •

تحرير ايطاليا والنزول فى الريفيرا

لما كان تحرير نورمديا من الأحداث العظيمة فى الحملة الأوروبية لعام ١٩٤٤ ولكنه لم يكن إلاّ إحدى الضربات الموجهة الى ألمانيا النازية ، وكان الروس فى الشرق يتدفقون على بولندا والبلقان ، على حين كانت جيوش اليكساندر فى الجنوب « أى فى ايطاليا » تضغط فى اتجاه نهر ألبو ، فقد كان من المحتم الآن اتخاذ القرارات فى صدد حركتنا المقبلة فى البحر الأبيض المتوسط ، وانه لِماً أسجله مع المزيد من الأسف ، ان هذه القرارات تسببت فى أول خلافات مهمة فى الخطط الاستراتيجية العليا بيننا وبين حلفائنا الأمريكيين ٠

من ذلك اننا كنا قد وعدنا بتنفيذ عملية « السيد الأكبر » وكانت مهمتنا الأولى هى انجاح تلك العملية ، ولما كنا لا نزال نحتفظ بقوات قوية فى البحر الأبيض المتوسط ، فقد صممنا على أن تحتل هذه القوات روما ، التى كنا نحتاج الى مطاراتها لقصف ألمانيا الجنوبية ، وأن نتقدم فى شبه الجزيرة الى خط بيزا ـ ريمينى ، وأن نرغم هناك أكبر عدد من قوات العدو على البقاء كما كنا قد اتفقنا على عملية ثالثة وهى عملية النزول فى جنوب فرنسا ، وكان الخلاف يكاد ينشب على هذه العملية بالذات ، لأن الأمريكيين كانوا قد أصروا على وجوب القيام بهجوم حقيقى تشنه عشر فرق على الأقل ، وقد أيدهم ستالين فى هذا الرأى ، وقد اضطررت لقبول هذا الرأى لكى أمنع تحويل هذه القوات الى بورما ٠

وهكذا فقد كان سقوط روما شرطا أساسيا للقيام بعملية «السندان» وأيضا فى الوقت نفسه تبدأ عملية « السد الأكبر » والى أن يتحقق ذلك لم يكن فى وسع اليكساندر الاستغناء عن أى جزء من قواته ٠

ومع هذا فقد أخذنا عددا من أحسن فرقنا فى ايطاليا للاشتراك فى عملية « السد الأكبر » الرئيسية ، قبل انتهاء عام ١٩٤٣ ، ولهذا

فقد لحق الضعف بقوة الجنرال اليكسـاندر ، على حين تقوّت كيسلرنج ، حيث بعث الألمان بنجدات الى ايطاليا فأوقفت احتلال أنزيو ، كما أخّرت دخولنا روما حتى قبيل يوم الغزو فى نورمانديا ، وأدى هذا القتال غير الحاد الى اشـغال عدد مهم من قوات العدو الاحتياطية كان فى الامكان نقلها الى فرنسا ، مما سـاعد عملية السـد الأكبر فى مراحلها الحرجة المبكرة ، ومهما يكن ، فان تقدمنا فى البحر الأبيض المتوسط قد اضطرب الى حد كبير ، ولهذا فقد بعث الجنرال ولسون فى الحادى والعشرين من مارس يقول : « ان عملية (السندان) لا يمكن القيام بها قبل نهاية يوليو ، ثم عـاد فأجل الموعد الى منتصف شهر أغسطس ، وأعلن ان خير طريقة لمساعدة عملية « السد الأكبر » تقوم على التخلى عن مهاجمـة الريفيـيرا والتركيز على ايطاليا •

وعندما سقطت روما فى الرابع من يونيو ، تحتم علينا اعادة النظر فى المشكلة قبل ان تبدأ عملية « السندان » •

وكان من رأى الجنرال ايزنهاور تقوية الهجوم على شمـال غربى اوروبا بجميع الوسائل والامكانيات المتيسرة ،ووافق رؤساء اركان الحرب الامريكيون ايزنهاور على خطته • كما ايدهم الرئيس روزفلت وقال ان التقدم تجاه ممر بوبليانا قد يشغل عددا من الفرق الألمـانيـة ولـكنه لا يؤدى الى سحب أى منها من فرنسا وحث على ضرورة القيـام بعمليـة السندان على حساب جيوشنا فى ايطاليـا ، الا أن رؤسـاء الأركان البريطانيين اتخـذوا موقفا مغايرا تمـاما ، وكانوا يفضلون أن يرسلوا قوات من ايطاليا بطريق البحر الى ايزنهاور بدلا من النزول فى الريفييرا، كما اعلنوا ان القيام بعملية « السندان » ستؤثر على القوات الباقية لدى الجنرال اليكساندر ، بحيث لايمكنه القيام بأى نشاط جديد •

ولما لم يكن فى الامكان التوفيق بين هذه الآراء التى يتمسك بها كل من الفريقين ، فقـد أبرقت الى الرئيس فى الثـامن والعشرين من يونيو أقول : « ان هذه الأزمة بين رؤساء أركان حربنا كفيلة بأن تؤدى الى أخطر النتائج ، وغايتنا الأولى هى مساعدة الجنرال أيزنهاور بأسرع ما يمكن ، ولكننا لا نعتقد أن تحقيق هذه الغـاية ينطوى بحكم الضرورة على تدمير جميع الجهود العظيمة التى قمنا بها فى البحر الأبيض المتوسط تدميرا كاملا ، وانى لأرجو رجاء حارا أن تدرس هـذه القضية بنفسك

دراسة تفصيلية كما ارجو ان تتذكر حديثك معى فى طهران عن موضوع ايستريا » ٠

وكان رد المستر روزفلت مقتضبا وجافا ، فقد كان مصمما على استقلال عملية « السد الأكبر » الى أقصى حدود الاستقلال ، وتحقيق تقدم فى ايطاليا مع القيام بهجوم مبكر على جنوب فرنسا ، وقد أيد ستالين نفسه عملية « السندان » وقال ان العمليات الأخرى فى البحر الأبيض المتوسط ليست بذات أهمية ، ولذا فقد أعلن روزفلت أنه لا يستطيع ان يتخلى عن هذه العملية ، وأضاف يقول :

« إن إهتمامى وأمانىّ يتركزان على هزيمة الألمان امام إيزنهاور وأنا واثق بأنه ستتوافر لنا فى إيطاليا حتى بعد سحب القوات اللازمة بعملية « السندان » الموارد الكافية لمطاردة كيسلرنج إلى الشمال من خط بيزا ــ ريمينى ، والضغط الشديد على جيشه لأرغامه على الاحتفاظ بقواته الراهنة هناك ، كما أننى لا أستطيع ان أقتنع بأن الألمان سيدفعون الثمن بزج عشر فرق اضافية بقصد الاحتفاظ بشمال ايطاليا كما يقدر الجنرال ويلسون » ٠

كما انه فى وسعنا ان نسحب فورا كما يؤكد الجنرال ويلسون خمس فرق : ثلاث منها امريكية وفرقتان فرنسيتان من القوات العاملة فى ايطاليا حاليا لتقوم بعملية « السندان » ، وستؤيد من الاحدى والعشرين فرقة الباقية بالاضافة الى عدد من الألوية المتفرقة للجنرال اليكساندر تفوقه البرى ٠

ولكن اعتراضات المستر روزفلت على النزول فى شبه جزيرة ايستريا والاندفاع نحو فيينا عن طريق ممر بوبليانا ، قد أقامت الدليل على تزمت الخطط العسكرية الأمريكية وعدم مرونتها من ناحية وعلى شكوكه فيما سماه بحملة « فى البلقان » من ناحية أخرى ، وإدّعى أن اليكساندر وسمطس ، اللذان يؤيدان وجهة نظرى « لعدة أسباب طبيعية وانسانية للغاية » يميلان الى تجاهل اعتبارين حيويين للغاية أولهما أن العملية تمس « الاستراتيجية العظمى » وثانيهما ، أنها قد تطول الى حد كبير ، وإننا قد لا نستطيع توزيع أكثر من ست فرق من فرقنا ، وكتب يقول : « لا أستطيع الموافقة على استخدام القوات الأمريكية ضد ايستريا وفى طريق البلقان ، كما لا أستطيع أن أرى الفرنسيين يوافقون على استخدام قواتهم فى مثل هذه الخطة ، كما

لا أستطيع أيضا أن اصمد لاعتبارات سياسية لأية « صدمة » قد تصيبنا في عملية « انسد الأكبر » ولا سيما اذا عُرف ، اننـــا قـــد حولنا قوات ضخمة الى حد ما الى البلقان ٠

لكنني على كل حال قررت الاذعان مؤقتا ، وأصـــدرت أمرى فى الثانى من يوليو الى الجنرال ويلســون ، باعداد العدة لشــن هجوم على جنوب فرنسا فى الخامس عشر من شهر أغسطس ، وقد بدأت الاعدادات فورا ، وهنا يجب على القارىء أن يعلم أننا بدّلنا اسم عملية « السندان » « بعملية التنين » مخافة أن يكون العدو قد فهم معنى الكلمة الأولى ٠

وعندما وقع تبدلملحوظ فى ميادين القتال فى نورمانديا فى أوائل شهر أغسطس ، وكانت هناك تطورات كبيرة متوقعة ، فقد قمت فى السابع من الشهر بزيارة الجنرال ايزنهاور فى مقر قيادته على مقربة من بورتســماوث وبســطت له آخر أمل لى فى وقف الهجوم على جنــوب فرنسا ٠

لكنني لم أستطع زحزحته عن موقفه أو التأثير عليه ، وقد تلقيت فى اليوم التالى برقية من الرئيس يقول فيها : « لقد تبينت بعد الدرس أن علينا أن نشن عملية « التنين » طبقا لمخططنا السابق فى أسرع وقت ممكن ، ولى كل الثقة فى نجاح العملية ، لأنها ستكون عونا كبيرا لايزنهاور فى طرد الألمان من فرنسا ٠

ولذلك قررت فى الحال أن أذهب الى ايطاليا ، لأرى القادة والجنود ، كما كنت شديد الرغبة للقاء تيتو ، الذى كان فى امكانه أن يأتى بسهولة الى ايطاليا من جزيرة فيز ، التى كنا نتولى حمايته فيها ، كما كان فى وســع المسيو باباندريو رئيس وزراء اليونان وبعض زملائه الآخرين أن يفدوا من القاهرة ، لكى نضع معهم الخطط لمســـاعدتهم فى العودة الى اثينا ، عندما يبارحها الألمان ، ولما وصلت الى نابولى بعد ظهر الحادى عشر من أغسطس أوضح لى الجنرال ويلسون أن الترتيبات قد اتخذت لعقد مؤتمر فى الغد بين تيتو وسوباجيك رئيس وزراء حكومة الملك بطرس الجديدة فى لندن ، وكان الرجلان قد وصلا الى نابولى فعلا ٠

هذا وقــد اجتمعت بالماريشال تيتو فى المكان الذى أنزل فيه فى غرفة كبيرة تملأ جدرانها خرائط جبهات القتال وبعد أن تحدثنا طويلا ، أشرت الى شبه جزيرة ايستريا على الخريطة ، فأيد الماريشال مشروعنا

بمهاجمتها ووعد بتقديم كل عون ، واتفقنا على بذل كل جهد ممكن لتقوية يوغوسلافيا حربيا ، وعلى رأب الصدع بينه وبين الملك بطرس ٠

وبعد ذلك طرت الى جزيرة كورسيكا فى اليوم الرابع عشر من أغسطس ، لمشاهدة عملية انزال القوات فى الريفيرا ، وارى لزاما على أن أدون هنا باختصار كل ما حدث :

فقد تم تأليف الجيش السابع بقيادة الجنرال باتسن للقيام بالهجوم وكان يضم سبع فرق فرنسية وثلاث فرق أمريكية مع فرقة أخرى من البريطانيين والامريكيين الذين نقلوا بالطائرات ، تؤيدها نحو ست بوارج وواحد وعشرين طرادا ومائة مدمرة ، وكان تفوقنا الجوى كبيرا ، كما كان هناك نحو خمسة وعشرين ألف فرنسى مسلح من قوات المقاومة فى جنوب فرنسا على استعداد للثورة ، وبدأ الهجوم فى صباح الخامس عشر من أغسطس بين كان وهايير ، وكانت الخسائر طفيفة نسبيا ، ولم يأت اليوم الثامن والعشرون من أغسطس حتى كان الأمريكيون قد تجاوزوا فالانس وجرينوبل ، ولم يبذل العدو أية مقاومة جدية لوقف الزحف ، وكانت قوة الحلفاء الجوية تنزل بالألمان أفدح الخسائر وتحطم مواصلاتهم ، على حين كانت مطاردة ايزنهاور لهم من نورماندیا مستمرة ولا سيما بعد أن وصلت قوات الحلفاء الى نهر السين عند فونتنبلو فى العشرين من أغسطس ، وبعد خمسة أيام كانت قواتنا قد تجاوزت تروييه ، وكانت العناصر الباقية من الجيش الألمانى التاسع عشر قد أخذت تتراجع تاركة وراءها نحو خمسين ألف أسير فى أيدينا ، كما تم احتلال ليون فى اليوم الثالث من سبتمبر ، وبيزانسون فى الثامن منه ، كما حررت قوات المقاومة ديجون ، وبذا قد تلاقت قوات « السيد الأكبر » و « التنين » فى اليوم الثامن من سبتمبر فى بلدة سوميرنون ، وقد تم فى المثلث الواقع فى جنوب فرنسا الغربى عزل بقايا الجيش الألمانى الأول وعددها عشرون ألف جندى استسلموا بدون مقاومة ، الا أننا دفعنا فى مقابل ذلك ثمنا باهظا للغاية ٠

هذا وقد بعثت الى الرئيس من نابولى البرقية التالية لأنبئه عن حقيقة الموقف بشكل لا لبس فيه :

« ان أحاديثك الى فى طهران عن ايستريا لا تغيب عن بالى قط ، وانى لواثق من أن وصول جيش قوى الى تريستا وايستريا فى مدى أربعة أسابيع أو خمسة سيكون له أثر

بالغ الأهمية ، ولا ريب فى أن جماعة تيتو سيكونون فى انتظارنا فى ايستريا ، وليس فى وسعى أن أتصور ماذا سيكون عليه موقف المجر اذ ذاك • ولكننا سنكون على الأقل فى وضع يمكننا من استغلال الأوضاع العظيمة » •

وبعد عودتى للوطن تلقيت الرد التالى من الرئيس روزفلت :

« اننى أشاطرك الثقة فى أن قوات الحلفاء فى ايطاليا كافية لأداء المهمة الملقاة عليها ، وان قائد المعركة سيواصل الضغط بقوة وعزم مستهدفا تحطيم قوات العدو ، •• أما بالنسبة الى استخدام قواتنا الموجودة فى ايطاليا فى المستقبل ، فهذه مسألة يمكننا بحثها فورا ، وبالنظر الى أوضاع الفوضى التى تسود الألمان فى جنوب فرنسا ، فانى آمل أن تتصل قواتنا فى الشمال والجنوب فى وقت أسرع مما كان منتظرا فى السابق •

وسنرى أن هذين الأملين لم يتحققا لأن الجيش الذى انزلناه فى الريفييرا والذى كلفنا انزاله هذا الثمن الباهظ بالنسبة الى عملياتنا فى ايطاليا ، وصل متأخرا للغاية ، وبذلك لم يستطع أن يقدم العون لصراع ايزنهاور الرئيسى فى الشمال ، وفى الوقت نفسه مُنِىَ جيش اليكساندر بالفشل بعد أن كاد ينجح ، مما سبب تأخير تحرير ايطاليا ثمانية أشهر، كما حِيلَ بيننا وبين زحف جناحنا الأيمن فى اتجاه فيينا ، وباستثناء ما حققناه فى اليونان ، فان قدرتنا العسكرية على تحرير جنوب أوروبا الشرقى قد ضاعت وتلاشت •

ولما كان كيسلرنج قد تلقى نجدات جديدة حتى أصبح عدد القوات الألمانية العاملة تحت امرته ثمان وعشرين فرقة كما تمكن من تجميع فرقتين جاء بهما من قطاعين هادئين وشرع فى هجمات مضادة ، اذا أضيفت الى مشكلات تموييننا فوق الممرات الجبلية ووعورة الأرض ، فقد أثمرت فى وقف زحفنا ، الا أنه على الرغم من الخسائر الفادحة التى منينا بها فقد تحقق لنا بعدها الظفر ، وبدأ المستقبل زاهيا مشرقا ، لأن جيوش الحلفاء فى ايطاليا ظلت تواصل الضغط لكى تحول بين العدو وبين وصول المساعدات اليه ، ولكنه بعد منتصف شهر نوفمبر استحال علينا القيام بأى هجوم رئيسى ، ولم تستطع جيوشنا تحقيق النصر الذى تستحقه والذى كادت تحصل عليه فى الخريف الا عندما حل الربيع الجديد ••

انتصار الروس فى بولندا واحتلالها

كان النضال الروسى يفوق فى نطاقه الى حد كبير جميع العمليات العسكرية التى سردتها فى الفصول السابقة ، ولما كان العدو قد مُنِى بنكسات متتالية فى مطلع شتاء عام ١٩٤٣ ، فقد صمموا على ألا يتيحوا له فرصة للاستراحة ، حتى أنهم فى منتصف شهر يناير سنة ١٩٤٤ شنوا عليه هجوما فى جبهة طولها مائة وعشرون ميلا تمتد من بحيرة ايلمان الى لينينجراد وتمكنوا من اختراق الخطوط الدفاعية التى أقامها العدو أمام المدينة والى الجنوب من هذه الجبهة ، كما أنهم صدوه فى نهاية شهر فبراير الى شواطىء بحيرة بيبوس ، بعد أن تحررت لينينجراد نهائيا ، وقد أصبح الروس بهذا الانتصار يقفون على حدود دول البلطيق كما أرغموا الألمان أيضا على التراجع من غرب كييف الى حدود بولندا ، كما واصلوا طيلة شهر مارس ضغطهم على طول الجبهة ، حتى أرغموا العدو على التراجع من جومر الى البحر الأسود ، ولم يتوقف هجوم الروس حتى تم دحر الألمان وتحطيم الجيش السابع عشر واسترداد سباستبول .

وقد أثارت هذه الانتصارات العظيمة قضايا ذات أهمية بالغة وخصوصا بعد أن أطل الجيش الأحمر الآن على أواسط أوروبا وشرقها كما أثارت كثيرا من التساؤلات ، عن مصير بولندا والمجر ورومانيا وبلغاريا واليونان أيضا التى ضحينا من جلها بالكثير وعملنا المستحيل لمساعدتها وهل ستدخل تركيا الحرب الى جانبنا ؟ وهل ستحاط يوغسلافيا بالفيضان الروسى ؟ ولما كانت أوروبا قد بدأت تتطور بعد الحرب ، فقد أصبح من الضرورى اعداد ترتيب سياسى سريع بالنسبة لها مع السوفيت .

لذلك فقد قام السفير السوفيتى فى لندن بزيارة وزارة الخارجية فى الثامن عشر من مايو للبحث فى الاقتراح الذى كان المستر ايدن قدمه

للسوفيت وذكر فيه أن في وسع الاتحاد السوفيتي أن يعتبر المشكلات الرومانية مؤقتا من القضايا الخاصة به ، على أن يترك مشكلات اليونان لنا لنعالجها ، ولما كان الروس على استعداد لقبول هذا اقتراح ، فقد أرادوا أن يعرفوا اذا كنا قد استشرنا الولايات المتحدة بخصوصه فاذا اتضح اننا استشرناها فليس لديهم مانع من الموافقة عليه ، ولذلك فقد بعثت في الحادى والثلاثين من مايو ببرقية الى المستر روزفلت قلت فيها :

« آمل أن تتمكن من أن تمنح هذا الاقتراح بَرَكَتَكَ ، ونحن بالطبع لا نريد تقسيم البلقان الى مناطق نفوذ ، وعند الموافقة عليه ، يجب أن توضح تماما ، انه لا ينطبق الا على أوضاع الحرب ، والا يؤثر على حقوق الدول العظمى الثلاث ومسئولياتها ، التى ستمارسها فرادى فى أية تسوية سلمية بالنسبة الى أوروبا كلها ، كما أن هذا الترتيب لا يؤثر على كل حال ، على التعاون الراهن القائم بيننا وبينكم ، فى تخطيط سياسة الحلفاء تجاه هذه الدول وتنفيذها ، ونحن نشعر أن هذا الترتيب المقترح ، سيكون وسيلة نافعة فى الحيلولة دون أى خلاف فى السياسة بيننا وبينهم فى البلقان » .

وقد أثار هذا الاقتراح أعصاب المستر هِل وزير الخارجية الأمريكية لأنه كان لا يوافق على ايجاد مناطق نفوذ لأى كان ولا حتى قبول فكرتها ، ولذلك فقد ابرق الرئيس إلىَّ فى الحادى عشر من يونيو يقول :

« نحن نقر باختصار ، بأن من حق الحكومة العسكرية المسئولة فى أى ارض أن تتخذ القرارات التى تتطلبها التطورات العسكرية ، ولكننا على يقين من ان مثل هذا الاتفاق المقترح ، سيقوى الميل الطبيعى لتوسيع هذه القرارات لتشمل آفاقا اخرى غير عسكرية ، كما انه سيؤدى حتما الى اشتداد الخلاف بينكم وبين الروس ، بسبب تقسيم منطقة البلقان الى مناطق نفوذ ، على الرغم من التصميم المعلن أن يكون هذا فى نطاق المسائل العسكرية فقط ، كما اننا نعتقد أن المحاولات يجب أن تبذل عوضا عن ذلك ، لاقامة

جهاز استشارى يتولى ازالة سوء التفاهم ، والحد من الاتجاه الى تنمية مناطق النفوذ الخاصة »

وقد أزعجتني هذه الرسالة ، فبعثت الى الرئيس فى اليوم نفسه أقول : « ان العمل سيقف تماما اذا تحتم على كل انسان أن يستشير الآخر في كل موضوع أو اجراء قبل اتخاذه ، فالأحداث في البلقان ستسبق في سرعتها دائما الأوضاع المتغيرة فى المنطقة ، ويجب أن يكون هناك من يملك سلطة التخطيط والعمل ، أما قيام لجنة استشارية فسيكون بمثابة عائق ، نتخطاه دائما فى حالات الطوارىء ، عن طريق الاتصال المباشر بينى وبينك أو بين كل منا وبين ستالين .

ولننظر الآن الى ما وقع فى عيد الفصح ، لقد تمكنا من السيطرة على الوضع بالنسبة لتمرد القوات اليونانية طبقا لآرائك الشخصية ، لأننى كنت قادرا على اصدار الأوامر الدائمة الى القواد العسكريين الذين كانوا في البداية يؤيدون فكرة الصلح والتفاهم ، ويعارضون فى استخدام القوة ، أو حتى فى مجرد التهديد باستخدامها ، وقد تحسن الوضع فى اليونان تحسنا كبيرا ، كما أن الروس على استعداد للسماح لنا بتولي الشئون اليونانية ، وهذا يعنى أن فى امكان جيوش اليونان الوطنية نفسها أن تسيطر على جبهة التحرير الوطنية وعلى كل ما تبينته من النوايا السيئة ، واذا كان من المحتم علينا فى مثل هذه المصاعب ان تستشير دولا أخرى ، وأن يجرى تبادل البرقيات بشكل ثلاثى أو رباعى ، فان النتيجة الوحيدة لمثل هذه الحالة أن تسود حالة الفوضى والعجز .

ويبدو لى أنه بالنظر الى اعتزام الروس القيام بغزو رومانيا بقوات كبيرة والى رغبتهم فى مساعدتها على استعادة جزء من ترانسلفانيا من المجر ، على شرط ان يبدى الرومانيون اخلاصا لمجهودها ، وهو ما قد يفعلونه ، فان من الخير أن نحذو حذو السوفيت ، ولا سيما ، أنه لا يوجد لنا أو لكم أية قوات هناك ، وأن فى وسعهم تحقيق ما يريدون هناك على أى حال ، ولهذا فانى أقترح بأن توافق على تجربة الترتيبات التى حددتها فى رسالتي فى الحادى والثلاثين من مايو لمدة ثلاثة أشهر ، على أن تعود الدول العظمى الثلاث الى اعادة النظر فيها بعد انتهاء هذه المدة » .

وقد وافق الرئيس على هذا الاقتراح فى الثالث عشر من يونيو ، ولكنه أضاف يقول ، انه يجب علينا ان نحرص أشد الحرص على ان نوضح بكل جلاء أننا لا نقيم فى عملنا هذا مناطق للنفوذ ، وقد وافقته على رايه وبعثت اليه بالرد التالى :

« اننى شاكر لكم أجزل الشكر ، وقد طلبت الى وزير الخارجية ان ينقل هذه المعلومات الى مولوتوف ، وان يوضح له ان السبب الذى حملنا على تحديد فترة الأشهر الثلاثة ، هو رغبتنا فى الا يكون هناك اى مجال للتفكير بأننا نعنى اقامة مناطق نفوذ لما بعد الحرب » .

وقد أبلغت هذا لوزارة الحرب ، واتفق على أن يقوم وزير الخارجية بابلاغ الحكومة السوفيتية موافقتنا على هذا الاقتسام العام للمسئولية ، وتم تنفيذ ذلك فى التاسع عشر من يونيو ، لكن الرئيس لم يكن مرتاحا للطريقة التى عملنا بموجبها ، فقد تلقيت منه رسالة يقول فيها :

« لقد أزعجنا ، أن يقوم رجالك بالتحدث الينا فى هذا الموضوع بعد أن تم الاتفاق عليه مع الروس » .

ولما كانت رسـالته هذه تغيض بالألم وفيها معنى التأنيب فقد أرسلت اليه الرد التالى :

« أن روسيا هى الدولة الوحيدة التى تستطيع أن تفعل شيئا فى رومانيا كما يقع العبء اليونانى من الناحية الأخرى على كاهلنا ، وقد حملنا هذا العبء منذ أن خسرنا نحوا من أربعين ألف رجل فى محاولة غير مجدية لمساعدة اليونان فى عام ١٩٤١ ، بالاضافة الى انكم قد سمحتم لنا بأن نعمل ما نريد مع تركيا ، ومع ذلك فقد كنا نستشيركم دائما فى القضايا السياسية ، واعتقد اننا كنا على اتفاق بصدد الاتجاه الذى نسير فيه ، وقد يكون من السهل على ان انزلق من ناحية المبادىء العامة الى اليسار ، وهو ما غدا مألوفا الآن فى السياسة الخارجية ، وأن أسمح للأمور بأن تسوء ، فيجد ملك اليونان نفسه مضطرا للنزول عن العرش وتفرض جبهة التحرير الوطنى حكما من الارهاب فى البلاد ، مرغمة القرويين وغيرهم من أبناء الطبقات الأخرى على تأليف أفواج للسلامة والأمن تحت اشراف الألمان لمنع البلاد من الوقوع فى الفوضى ، والطريقة الوحيدة التى تمكننى من الحيلولة دون ذلك هى اقناع الروس بأن يوقفوا دعمهم لجبهة التحرير ودفعهم للأمام بكل ما لديهم من قوة ، كما قمت أيضا بالاجراءات اللازمة لأحقق وحدة يوغسلافيا ، بالجمع بين

قوات تيتو وقوات الصربيين مع جميع من يؤيد الحكومة الملكية التى اعترفنا بها معا ، وكنا نطلعك فى كل مرحلة على الطريقة التى حملنا بها هذه الأعباء الثقيلة التى نتحملها الآن وحدنا ، وليس أسـهل هنا أيضـا من القذف بالملك وحكومته الى الذئاب تنهشهما ، ومن السماح للحرب الأهلية بأن تندلع فى البلاد ، مما يثلج صدور الألمان ، واننى أجاهد لاستخلص النظـام من الفوضى فى كل من البلدين ، ولأركز كل الجهود على مقارعة العدو المشترك ، كما أننى أواصل اطلاعك على كل ما أعمله ، وكل أملى فى ان أنال ثقتك ومسـاعدتك فى الميادين كلها . » .

وجاء هذا الرد من الرئيس روزفلت لكى يضع حدا لهذا الجدل بين الأصدقاء :

« يبدو لى ان كُلاًّ منا قام متهاونا بعمل من جانب واحد فى اتجاه نتفق معا الآن على أنه نافع ومفيد ، ومن المهم أن نكون متفقين دائمـا فى جميع القضايا التى تتعلق بمجهودنا الحربى » .

وقد رددت عليه أقول : « فى وسعك أن تثق فى أننى سأتطلع دائما الى الاتفاق معك حول جميع الأمور قبل العمل وفى أثناء القيام به وبعده » .

ومع ذلك فقد ظلت المتـاعب تترى ، فعندما أدرك ستالين الشكوك الأمريكية فى الموقف ، أصر على إستشارتهم مبـاشرة ، ولم نتمكن فى النهاية من الوصول الى اتفاق أخير حول تقسيم المسئوليات فى البلقان ، كما بعث الروس فى أوائل شهر أغسطس بطريق التهريب بعثة من ايطاليا الى جيش التحرير اليونانى (ايلاس) المنبثق من جبهة التحرير الوطنى والذى يعمل فى شمالى اليونان ، وعلى ضوء تردد الحكومة الأمريكية وسوء نية الروس ، تخلينا عن محاولتنا للوصول الى تفاهم كلى ، الى أن التقيت بستالين فى موسكو ، بعد مضى شهرين ، وتمت فى أثنائها أمور كثيرة فى الجبهة الشرقية .

ففى فنلندا اقتحمت جيوش سوفيتية خط مانرهايم وأعادت فتح السكة الحديدية بين لينينجراد ومورمانسك ، وأجبروا الفنلنديين قبـل نهاية شهر أغسطس على طلب الهدنة ، وبدأ هجومهم الرئيسى على الجبهة

الألمانية فى الثالث والعشرين من يونيو ، ولم تحل نهاية يوليو حتى كانت الجيوش الروسية قد وصلت الى نهر النيمن بين جوردنو وكوفينو ؛ أما الخسائر الألمانية فكانت ماحقة ، اذ زال من الوجود نحو من خمس وعشرين فرقة ألمانية ، كما تم تطويق عدد مماثل فى كورلاند ، وفى السابع عشر من يوليو ، مر فى شوارع موسكو سبعة وخمسون ألف أسير ألمانى الى جهة لا يعلمها الا الله .

كما أنه وقع فى الثالث والعشرين من أغسطس انقلاب عسكرى فى بوخارست أعده الملك الشاب ميخائيل وقد أخلصت الجيوش الرومانية أشد الاخلاص لملكها ، اذ لم تمض ثلاثة أيام حتى كان قد تم نزع سلاح القوات الألمانية التى لم تنسحب فى اتجاه الحدود الشمالية وجلا الألمان عن بوخارست فى الاول من سبتمبر ، ولما دخلت الجيوش الروسية رومانيا اكتسحت البلاد بأكملها واستسلمت الحكومة الرومانية ، وكذلك تم اخضاع بلغاريا ، كما انتشرت الجيوش الروسية غربا ، فزحفت من وادى الدانوب مخترقة ترانسلفانيا وجبال الألب فى اتجاه الحدود المجرية على حين كان جناحها الايسر قد اصطف على حدود يوغسلافيا للزحف غربا فى تجاه فيينا .

أما فى بولندا فقد وقعت مأساة تتطلب منا شرحا أوفى : ففى نهاية شهر يوليو ، وقفت الجيوش الروسية أمام نهر الفستولا ، وكانت جميع الدلائل تشير الى أنه لن يمضى وقت طويل حتى تكون بولندا بأسرها فى أيدى الروس ، وتحتم على قادة جيش المقاومة السرية البولندية وهم الذين يدينون بالولاء لحكومة بولندا التى فى لندن : ان يقرروا موعد القيام بثورة عامة ضد الألمان للاسراع فى تحرير بلادهم ، وقد خولت حكومة لندن القائد العام الجنرال بور ـ كوموريسكى تحديد موعد الثورة واعلانها وبدأت الفرصة مواتية فعلا عندما حملت الأنباء فى العشرين من يوليو قصة المؤامرة على هتلر ، وقد تبعها بسرعة اختراق الحلفاء لجبهة نورمانديا ، كما عبر الروس نهر الفستولا فى اليوم نفسه واندفعت دورياتهم الأمامية فى اتجاه وارسو ، ولم يبق أى شك فى أن الألمان باتوا على وشك الانهيار العام .

ولذلك فقد قرر الجنرال بور تبعا لذلك القيام بثورة عامة وتحرير العاصمة وكان لديه أربعون ألف رجل ، وتألفت فى الوقت نفسه لجنة شيوعية لتحرير الوطن فى شرقى بولندا ، وفى التاسع والعشرين من شهر يوليو ، وجه الحزب الشيوعى البولندى نداء من اذاعة موسكو

الى أهالى وارسو ، يطلب اليهم أن يشتبكوا مع الألمـــان الآن ، وكانت الدبابات الروسية قد اخترقت خطوط الألمان الدفاعيـــة الى الشرق من العاصمة ، كما أصبحت الجيوش الروسية على بعد عشرة أميـــال من المدينة ، فلم يمض أكثر من خمس عشرة دقيقة على نشوب الثـورة حتى كانت المدينة كلها قد اشتبكت فى معركة ضارية ، وهكذا بدأت معركة المدينة .

ولما وصلت الأنباء الى لندن فى اليوم التالى ، أخذنا ننظر بلهفـة وبقلق المزيد منها ، وقد سكتت الاذاعة الســـوفيتية وتوقف النشـــاط الجوى الروسى عندما شرع الألمان فى الرابع من أغسطس يهجمـون من المراكز المنيعة داخل العاصمة ومن ضواحيها وأصبح الثائرون يواجهون الآن خمس فرق ألمانية حُشدت فى المنطقة بصـــورة عاجلة ، كمـا جىء بفرقة هيرمان جورنج أيضــــا من ايطاليا وبفرقتين من رجال الحرس فيما بعد .

فأبرقت الى ستالين أقول :

« تلبية لنداء عاجل من الجيش السرى البولنــــدى ، قررنا أن نُنَزِّل ـ اذا ساعدتنا الأحوال الجوية ـ نحو ستين طنـــا من المعدات والذخائر فى الأحياء الغربية الجنوبية من وارسو ، حيث يقال : ان الثورة البولندية تشتبك مع الألمــان فى قتال عنيف ، وهم يطلبــون فى الوقت نفســــه المساعدة الروسية التى تبدو قريبة منهم » .

وقد تلقيت من ستالين ردا جافا يقول فيه :

« تسلمت رسالتك ، واعتقد أن المعلومات التى نقلهـــا اليك البولنديون مبالغ فيهــا كل المبالغة ، ولا توحى بالثقة مطلقا ، لأنه ليس لديهم مدافع ولا دبابات ولا طائرات ، ولا أستطيع أن أتصـــور كيف يمكن هذه الفصـــائل أن تستولى على وارسو التى حشد الألمان للدفاع عنهـــا أربع فرق من فرق الدبابات بينها فرقة هيرمان جورنج » ؟

هذا وقد استدعى فيشنسكى ليلة السادس عشر من أغسطس سفير الولايات المتحدة فى موسكو لزيارته ، وأوضح له ، انه رغبة منه

فى تجنب أى احتمال لسوء الفهم ، يود أن يتلو على مسامعه البيــان المذهل التــالى :

« لا تستطيع الحكومة السوفييتية بالطبع أن تعترض على قيام الطائرات الانجليزية أو الأمريكية بالقاء الســلاح على مقاطعة وارســو اذ أن هذا الأمر يهم الانجليز والأمريكيين وحــدهم ، ولكن الحكومة الســـوفييتية تعارض مصرّة فى هبوط الطائرات الأمريكية أو الانجليزية بعد القائها الأسلحة على وارســـو فى الأراضى السوفييتية وذلك لأن الحكومة السوفييتية لا تريد أن ترتبط بصورة مباشرة أو غير مباشرة « بمغامرة وارسو » .

وبعد مضى أربعة أيام بعث هـــذا النداء المشـــترك بالاتفاق مع الرئيس روزفلت الى ستالين :

« اننا نفكر فى الرأى العام العالمى ، وما سيُحلق به من صدمة ، اذا تخلينا عمليا عن المكافحين ضد النازية فى وارسو ، وأعتقد أن من واجبنا نحن الثلاثة ان نبذل كل ما فى وسعنا لانقاذ أكبر عدد ممكن من أرواح الوطنيين فيها ونحن نأمل أنك ستلقى المساعدات والذخائر من الجو على الوطنيين البولنديين فى وارسو أو أنك ستوافق على مساعدة طائراتنا فى أداء هذا العمل بكل الطرق الممكنة ولا ريب فى ان عامل الوقت مهم للغاية .

وكان هذا هو الرد الذى تلقيناه منه :

« تلقيت رسالتك التى اشتركت فيها مع المســـتر روزفلت بصدد وارسو وواجب أن أوضح آرائى تمـــام الايضاح :

ستعرف هـذه الحقيقة ان عاجلا أو آجـلا ، عن تلك المجمـوعة من المجرمين الذين شرعوا فى مغـــامرة وارسو ، رغبة منهم فى اغتصاب السلطة ، وقد استغل هؤلاء المجرمون سذاجة أهل وارسو وحسن نواياهم ، فقذفوا بالعزل من أهلها أمام دبابات الألمان ومدافعهم وطائراتهم ، وقد نشـــأ وضع لا يخـدم البولنديين لتحرير وارسو ، بل يخـــدم الهتلريين الذين يقتلون أهل وارسو بصورة وحشية .

وكان هذا الوضع الناشىء ضارا بالجيش الأحمر من الناحية العسكرية بقدر ما هو ضار بالبولنديين أنفسهم ، لأنه وجه اهتمام الألمان بشكل متزايد نحو وارسو ، وقد واجهت القوات السوفييتية هجمات ألمانية مضادة وهى تقوم ببذل كل ما فى وسعها لتحطيم هذه الهجمات التى يقوم بها الهتلريون ، وليس ثَمّة شك فى أن الجيش الأحمر سيحطم الألمان ويحرر المدينة لأهلها ، وسيكون هذا العمل خير مساعدة فعالة يمكن الجيش الأحمر أن يقدمها الى البولنديين » .

وكانت معركة وارسو قد وصلت فى هذه الأثناء الى ذروتها حيث صب رجال الدبابات جام غضبهم وسخطهم ومرارة خيبتهم على الأبنية المجاورة لهم ، فأشعلوا فيها النيران كما أشعلوا النار فى جثث الموتى التى تملأ الشوارع ، كما دفن بعضهم فى حدائق البيوت الخلفية والساحات العامة ، وصارت المواد الغذائية قليلة ولكن المدينة لم تصل الى حد المجاعة ، وقد جف الماء فى الأنابيب ، وضاعف اسقاط المؤن من الجو من رفع الروح المعنوية لدى الأهالى وشد من عزائمهم .

وكنت آمل أن يساعدنا الأمريكيون فى اتخاذ عمل جذرى ، ولكن المستر روزفلت عارض فى ذلك .

ولما كانت قضية وارسو من الأهمية بمكان عظيم فقد اجتمع مجلس وزرائنا ليلة الرابع من سبتمبر ، لبحثها ، وكنت أود أن أقول للروس : « اننا نعتزم ارسال طائراتنا للهبوط فى أراضيكم ، بعد القاء حمولتها فى وارسو ، فاذا أسأتم معاملتها فسنوقف ارسال قوافلنا اليكم منذ هذه اللحظة » .

ولا ريب أننا لو كنا اتخذنا هذه الخطوة لكانت مجدية ، فقد كنا نتعامل مع رجال فى الكرملين تتحكم الأرقام فى أعمالهم دون عواطفهم وكان وقف القوافل عنهم فى هذه اللحظة الحرجة من زحفهم العظيم كفيلا بأن يترك فى عقولهم آثارا لا تقل عما تتركه اعتبارات الشرف والانسانية والايمان الكريم فى الناس العاديين الآخرين ، ولهذا فقد بعثت وزارة الحرب بالبرقية التالية الى ستالين ، وكانت هذه هى الخطوة المثلى التى رأينا من الحكمة القيام بها :

« تود وزارة الحرب من الحكومة السوفييتية أن تعلم أن الرأى العام فى هذه البلاد متأثراً أعمق التأثر بالأحداث الجارية فى وارسو ، وبالآلام المرعبة التى يتحملها البولنديون ، ومهما كانت الأخطاء التى إرتُكبت فى بداية الثورة فى وارســـو ، صــحيحة أو غير صــحيحة ، فإن شعب وارسو نفسه لا يمكن أن يُعتبر مســئولا عن القــرار الذى إتّخذ ، ولا يستطيع شعبنا أن يفهم لماذا ضن بالمساعدة المادية من الخارج على البولنديون فى وارسو وأصبح الكل عندنا يعرفون أن مثل هــذه المساعدة لا يمكن ارســالها لأن حكومتكم ترفض الســـماح للطائرات الأمريكية بالهبوط فى المطارات التى فى أيدى الروس ، واذا قُدّر للبولنديين فى وارسو أن يُسحقوا بعد هذا كله على أيدى الألمان ، وهو أمر بات متوقعا خلال يومين أو ثلاثة كما قيل لنا ، فان الهزّة التى سيصاب بهـا الرأى العام عندنا ستكون أكثر مما يحتمل ويطاق .

واحتراما منا للمارشال ستالين وللشعوب الســوفييتية التى نود مخلصــين أن نعمل معهـــا فى الســنوات المقبلة ، تود وزارة الحرب منىّ أن أوجه نداء آخر الى الحكومة السوفييتية لتقدم كل ما فى وسعها من طاقة فى هذا الصدد ، وأن تؤمّن هبوط الطـــائرات الأمريكية فى مطاراتكم تحقيقا لهذا الغرض .»

ولهذا فقد شرع الكرملين فى تغيير أسلوبه فى العاشر من سبتمبر كما بدأت قذائف المدفعية السوفييتية تتساقط على الضواحي الشرقية من وارسو ، وشقت القوات البولندية الشــيوعية بأمر من الروس طريقها الى حدود العاصمة ، وأخذت الطـائرات السوفييتية تلقى المؤن على العاصمة ، ولكن معظم المظلات لم تتفتح فتحطمت الصـناديق التى بها المؤن وأخذت المجاعة تسيطر على المدينة .

وقد أدت المحاولات التى بذلتُها مع الأمريكيين للحصـــول على مساعدتهم دورها ، فحلقت مائة وأربع قاذفات ثقيلة فى الثـامن عشر من سبتمبر فوق العاصمة ، والقت فوقها المؤن ولكن النجدة جــاءت متأخرة ، وجاءنى ميكولاجيك فى الثانى من أكتوبر ليقول لى : ان القوات البولندية فى وارسو على وشـك الاستسلام للألمان . والتقطنا فى لندن آخر اذاعة صدرت من المدينة الباسلة ونصها الآتى :

« انها الحقيقة البشعة ، لقد عوملنا أسوأ مما عومل به أتبــاع هتلر ، عوملنا أسوأ من ايطاليا ورومانيا وفنلندا ، واننا لنبتهـل الى

الله العادل القدير ، أن ينزل عقابه بأولئك الذين عرّضوا الشعب البولندى لظلم مروع ، وأن يقتص من جميع المسئولين عما لحق بنا من عذاب » .

« مثل هذا الشعب الذى استطاع حشد هذا القدر من البطولات انما هو من الخالدين ، ولقد انتصر الذين قضوا نحبهم ، أما الذين عاشوا فسيمضون فى القتال ، وسينتصرون ، وسيقيمون الدليل من جديد على أن بولندا ستظل حية طالما أن هناك بولنديين بين الأحياء .

ولا يمكن لانسان أن ينسى أبدا هذه الكلمات ، فلقد استمر الصراع فى وارسو أكثر من ستين يوما ، وسقط فى ميدان النضال أكثر من خمسة عشر ألفا من أربعين ألفا من الرجال والنساء كانوا يؤلفون جيش المقاومة السرية وأصيب أكثر من مائتى ألف من سكان العاصمة ، كما كلف اخماد الثورة الألمان أكثر من عشرة آلاف قتيل وسبعة آلاف مفقود وتسعة آلاف جريح .

وعندما دخل الروس المدينة بعد ثلاثة اشهر لم يجدوا شيئا غير الشوارع المحطمة والجثث التى لم تدفن ، وهكذا كان تحرير الروس لبولندا التى يحكمونها الآن ، ولكنها لن تكون نهاية القصة على كل حال .

بورمــا

أما الموقف في جنوب شرقي آســيا فانه يختلف كل الاختلاف عن مثيله في أوروبا ، حيث كان اليابانيون يحتلون منذ أكثر من ثمانية عشر شهرا ، قوسا دفاعيا يضم المناطق الجديدة التي احتلوها ، وكان هــذا القوس يمتد من الجبال التي تغطيها الغابات في شمال بورما وغربيها ، حيث كانت قواتنا البريطانية والهندية تشتبك معها في قتال عنيف يمتد الى جزر انداماان وجزيرتي سومطرة وجاوه • ومن هناك في انعطاف نحو الشرق الى غينيا الجديدة •

وقد أقام الأمريكيــون قواعد الطائرات البعيــدة المدى في أرض الصين لمهاجمة اليابان نفسها ، كما كانت تقوم بتدمير مواصلات العدو البحرية بين اليابان وجزر الفليبين ، وكذلك تقوم أيضا بنقل المعدات للقوات الصينية بطريق الجو فوق جبال هملايا وكانت هذه عملية شاقة ومتعبة جدا ، وقد طلب منا الأمريكيون أن نعيد احتلال شــمالي بورما بسرعة لتأمين الطريق الى الصين ، لأننا كنا نؤيد بقاء الصين في الحرب واستخدام أراضيها كقواعد جوية لطائرات الحلفاء ، ولكنني لم تستهويني فكرة القيام بحملة واسعة النطاق في شمالي بورما لأن هــذا المكان كان أسوأ ميدان لكي نقاتل فيه اليابانيين ، كما أن شق الطريق الذي طلبه الأمريكيون ليصل ليدو بالصين كان عملا في ذاته منهكا ، وكان لا يمكن اتمامه الا بعد أن تكون الحاجة اليه قد انتهت وحتى لو تم اتمامه في الوقت المناسب لاستعماله في تزويد القوات الصينية بالمعدات والسلاح فان ذلك لا يغير شيئا من طاقتها ، ولا ريب في أن الحاجة الى تقــوية القواعد الجوية الأمريكية في الصــين ستخف تدريجيا كلما تقدمت قوات الحلفاء في المحيط الهادي ومن ناحية استراليا ، واحتلت مطارات تقربها من اليابان •

وقد كنت أفضل ابقاءعلى اليابانيين فى مركز الدفاع فى بورما وأن نخترق القوس الدفاعى العظيم من الجزر التى تؤلف الطرف الخارجى لجزر الهند الهولندية ، حيث كان فى وسع جبهتنا الهندية فى هذه الحالة أن تتقدم الى خليج البنغال لتشتبك مع العدو عن طريق إستخدام العمليات البرمائية فى كل مرحلة من هذه المراحل ٠

هذا وقد بدأت الحملة فى ديسمبر عام ١٩٤٣ عندما اجتاز الجنرال ستلويل بفرقتين صينيتين ، الحاجز المائى من ليدو الى الأدغال التى تحت سلسلة الجبال الرئيسية ، وقد قاومته الفرقة اليابانية الثامنة عشرة المشهورة ولكنه واصل التقدم حتى توغل مسافة أربعين ميلا ، كما قام فيلق بريطانى فى الجنوب بالزحف على طول ساحل أراكان على خليج البنغال ، وتمكنا فى الوقت نفسه بمساعدة الطائرات القاذفات اللهب من احراز شىء من التفوق الجوى ، ومع هذا فقد توقف زحفنا فى شهر فبراير فجأة ٠

أما اليابانيون فقد أخذوا يعدون خططهم منذ شهر نوفمبر ، حيث ضاعفوا قواتهم فى بورما من خمس فرق الى ثمان ، كما فكروا فى غزو شرقى الهند ، لرفع علم الثورة ضد البريطانيين ، وكانت الضربة الأولى التى فكروا فيها هى القيام بهجوم فى أراكان نحو ميناء شيتا جونج ، لكى يرغمونا على سحب قواتنا الاحتياطية كما تمكنوا من وقف زحف فرقتنا الخامسة على الساحل ، ثم تسللوا بفرقة أخرى داخل الأدغال حول فرقتنا السابعة التى كانت فى الداخل ، وقد تمكنوا فى بضعة أيام من تطويق هذه الفرقة ، كما هددوا بقطع طريق الساحل وراء فرقتنا الخامسة وظلت قواتنا تتلقى الغذاء والماء والعتاد بطريق الجو مدة أسبوعين ٠

ولم يكن هذا كل شىء ، فقد تلقينا اشارات واضحة تؤكد أن جبهتنا الوسطى فى أجهال ستتعرض للهجوم ، وكنا بدورنا نستعد للزحف نحو نهر شندوين ٠ وأعدت قوات الشنديت المشهورة التى يتولى قيادتها الجنرال وينجيت لتوجيه ضرباتها الى خطوط تموين العدو ومواصلاته ، كما بدأنا فى الخامس من مارس نقل لواءين آخرين من القوات البريطانية وجنود الجوركا (من الهنود) تعززها وحدة من الفدائيين الجويين الأمريكيين تحملها ٢٥٠ طائرة ، وبعد أن اجتمعت هذه القوات فى مكان واحد شرعت فى هجومها فقطعت مواصلات السكة الحديدية الى الشمال من ايندداد ، ولكن ضربة العدو الرئيسية سقطت على

جبهتنا كما توقعنا حيث شرعت ثلاث فرق يابانية فى الهجوم في الثامن من شهر مارس ، كما سحب الجنرال سكونيز فيلقه الرابع المؤلف من ثلاث فرق أيضا الى هضبة امبهال ، ليخوض معركة فى أرض يختارها هو ، وكرر اليابانيون الخطة التى اتبعوها نفسها فى أراكان ، وركزوا خطتهم من أجل الاستيلاء على مستودعاتنا الضخمة فى امبهال ، كما كان هدفهم أن يقطعوا الطريق الى ديمابور والسكك الحديدية أيضا ، وذلك لقطع طريق تموين قوات الجنرال ستلويل ، والجسر الأمريكى الى الصين ، وقد اضطررنا لايقاف عملياتنا الحربية على ساحل أراكان ، كما سحبنا الفرقة الهندية لمساعدة الفرقة الخامسة فى امبهال ، ونقلنا الفرقة السابعة الى ديمابور ، بقيادة الجنرال ستوبفورد ٠

ولما كانت بلدة كوهيما تسيطر على مفترق الطرق وعلى المضيق المؤدى الى وادى آسام ، فقد شن اليابانيون هجوما عنيفا عليها استخدموا فيه فرقة كاملة وكانت حاميتنا تتألف من فوج من قوة كِنْت الملكية ولواء من قوة نيبال ولواء من قوات آسام ، وأيضا كل جندى يستطيع حمل السلاح من الناقهين فى المستشفيات ، وقد اضطرت قواتنا الى التراجع الى منطقة صغيرة ثم حوصرت فى تل واحد ٠

هذا وقد اشتد القتال حتى بلغ ذروته فى مايو سنة ١٩٤٤ وقد حوصرت قواتنا البالغ عددها ستين ألف جندى بريطاني وهندى بكل معداتهم الحديثة فى دائرة فى سهل امبهال وأيقنت أن كل شىء يتوقف الآن على طائرات النقل ، فأبرقت الى مونتباتن فى الثانى والعشرين من يونيو أقول :

« أعرب رؤساء أركان الحرب عن قلقهم بصدد الوضع فى امبهال ، ولا سيما بالنسبة الى احتياطى الذخائر والمؤن ، ونحن نخولك أن تطلب ما تشاء من الطائرات اللازمة للمحافظة على الوضع ، سواء أكانت من الطائرات التى تنقل المعدات الى الصين أم من أى مصدر آخر ، ومن الواجب اعتبار طائرات هاملايا (السنام) احتياطيا دائما ، تسحب منه ما تحتاج اليه فى كل وقت اذا اقتضت الضرورة ، حتى لا يبقى لك أى عذر اذا فشلت فى مسعاك ، ويجب عليك أن تحافظ على مهام منصبك خصوصا فى هذه المرحلة الحرجة الخطيرة » ٠

وقد جاء منه الرد التالى :

« كان الوضـــع فى الأسبوع الثالث من شهر يونيو حرجا جدا ، الا أنه بعد وصول الفرقة البريطانية الثانية والفرقة الهندية الخامسة أمكننا أن نفتح الطريق الى القـوة المحاصرة فى امبهال ، وبدأت القوافل سيرها فى الحال » •

وهكذا انتهت قصة غزو اليابان للهند ، بعد أن خسر اليابانيـون أكثر من ثلاثة عشر ألف قتيل ، واذا ما أضفنا اليهم أولئك الذين فقدوا أرواحهم بسبب اصاباتهم بجراح قاتلة ، أو من جراء الجوع أو المرض ، أمكن القول ان خسائرهم بلغت خمسة وسبعين ألف رجل •

وعندما بلغت الرياح الموسمية ذروتها توقفت العمليات الحربية ، وفى أثنـــاء ذلك ، تم تعزيز الشـــنديت ، وكانت أربعة من ألويتهـا الخمسة تشق طريقها شمالا بجوار السكة الحديدية فى انداو ، لتحـول بين وصول النجـدات الى العدو ، ولتدمر كل ما تلقـاه فى طريقها من مستودعات الا أنه على الرغم مما أوقعته هـذه القوات من اضطراب فى مؤخرة العدو ، فان القوات اليابانية لم تحاول أن تسحب جنودا من جبهة امبهال ، كما لم تسحب الا لواء واحدا من جبهة ستلويل ، وكذلك جاءت الفرقة الثالثة والخمسون من جبهة سيام ، ولكن محاولتهم منيت بالفشل، حيث واصل ستلويل تقدمه المستمر فاحتل متكينا فى الثالث من أغسطس، كما استمر العمل فى تمهيد الطريق الطويلة الممتدة من شمالى آسام لايصالها بالطريق الأساسى الممتد من بورما الى الصـين ، وبذلك تيسر انشاء خط أنابيب للزيت طوله ٧٥٠ ميلا يمتد من كلكوتا •

وعلى الرغم من هذه الانتصارات ، فقد ظللت أواصل حث حلفائنا على وجوب الاستمرار فى القتال فى الأحراج الى أجل غير مسمى ، كما كنت راغبا فى توجيه ضربة برمائية من خليج البنغال الى رانجون فى قاعدة البر البورمى حتى اذا زحف الجيش الرابع عشر آن ذاك من أواسط بورما أمكننا فتح الطريق لهجوم نشنه على سومطرة ، وهكذا مضينا ببطء نخوض أعظم معركة برية مع اليابان وقعت حتى الآن فاتصل الجيش الرابع عشر بالقوات الأمريكية الصينية الزاحفة من الشمال وأمكن فى منتصف شهر ديسمبر أن نقيم رأس جسر على نهر شندوين استعدادا للزحف

الرئيسى الى سهل بورما الأوسط ، الا أنه اعترضتنا مشكلات إدارية هائلة :

فهناك فى جنوب شرقى الصين ، بدأ اليابانيون الزحف على شونكينج عاصمة تشيانج كاى شيك ، وأيضا على كونمينج ، وهى النقطة التى تسلم فيها المعدات التى تنقل بالطائرات الأمريكية ، وقد اهتم الأمريكيون اهتماما بالغا بهذا التطور ، فقد اكتسح العدو مطاراتهم الأمامية فى الصين ، ولم تتمكن قوات شيانج كاى شيك من الصمود واستنجدت بفرقتين صينيتين من القوات العاملة فى شمال بورما ، كما طلبت الاستعانة بأسراب جوية أمريكية جديدة خصوصا طائرات النقل •

وكانت هذه الأنباء سيئة للغاية ، ولكن لم يكن لنا مناص من قبولها، ولو اننا كنا فى حاجة ماسة الى هذه الطائرات لتموين الجيش الرابع الذى كان يقوده الجنرال سليم بطريق الجو ، لعدم صلاحية الطرق البرية فى تموينه ، مما سبب تأخيرا خطيرا للحملة ، الا أنه على الرغم من كل هذه العقبات فقد تمكن الجيش الرابع من الاندفاع من الجبال للسهل الذى الى الشمال الغربى من مندلاى كما تمكن الجنرال سلطان الذى خلف ستلويل فى نهاية يناير عام ١٩٤٥ من اعادة فتح الطريق الى الصين •

وفى الشهر التالى عندما بدأت المعارك الحاسمة ، واجه الأميرال مونتباتن صعوبات إستراتيجية ، حيث كانت الأوامر قد صدرت اليه بأن يحرر بورما ثم يحتل الملايو ويفتح مضايق ملقا ، مع ادراكه بأنه لن يستطيع الحصول على قوات جديدة لتحقيق جميع هذه الأهداف ، وكانت مهمته الأولى أن يحتل السهل الأوسط فى بورما ومدينة رانجون قبل حلول الرياح الموسمية فى أوائل شهر مايو ، وكان فى وسعه أن يختار بين عمليتين : اما ان يركز جميع قواته فى معركة حاسمة فى سهل مندلاى ثم يتقدم بسرعة الى الجنوب أو يستخدم جزءا منها فى عملية برمائية ضد رانجون ، وكان كل شىء يتوقف على التموين الجوى الذى تقوم فيه الطائرات الأمريكية بدور بارز •

ولما كانت فكرة مساعدة الصين لا تزال تحتل الجزء البارز من السياسة الأمريكية وكان من المحتمل أن تسحب طائرات أخرى من الطائرات التى تعمل معه ، مما يدمر خططه كلها ، فقد قرر القيام بعملية واحدة ضد قوات العدو الرئيسية الى الغرب من مندلاى ، وأن يتقدم فى الوقت نفسه فى اتجاه رانجون ، وقد تمكنت احدى فرقه من احتلال رأس

جسر على الضفة المقابلة لنهر ايراوادى ، على بعد أربعين ميلا الى الشمال من مندلاى ، كما عبرت الفرقة العشرون فى الثانى عشر من فبراير النهر الى الجنوب والى الغرب من مندلاى ، وسرعان ما انضمت اليها الفرقة البريطانية الثانية ، وعندئذ اقتنعت القيادة العليا اليابانية بأن المعركة الحاسمة أصبحت وشيكة الوقوع ، فسارعت الى ارسال النجدات الى الميدان التى اشتبكت مع قواتنا فى قتال عنيف تمكن فى أثنائه الجنرال سليم من عبور نهر ايراوادى بفرقته السابعة فى الثالث عشر من فبراير، وتمكن من اقامة راس جسر فوق النهر ، وفى الحادى والعشرين من فبراير انطلق لواءان مدرعان من الفرقة السابعة عشرة ولواء من الدبابات من رأس الجسر فوصلت كلها الى ميكتيلا فى الثامن والعشرين منه ؛ وكانت هذه البلدة هى المقر الادارى للجبهة اليابانية كلها ـ كما كانت مركز مواصلاتهم ومطاراتهم ، وبعد قتال عنيف إستغرق أسبوعا كاملا سقطت البلدة فى أيدينا .

كما كان الجنرال سلطان يتحرك فى الشمال أيضا فوصل فى منتصف شهر مارس الى منتصف الطريق الممتد من ألآشيو إلى مندلاى ، ولكن شيانج كاى تشيك فرض التوقف على قوات الحلفاء ولم يسمح للفرق الصينية بمواصلة السير ، وأصر على سحبها ، واقترح على الجنرال سليم وقف زحفه بعد احتلال مندلاى ، وكان هذا ما خشيه مونتباتن حقاء عندما أعد خطته قبل شهر ، وبالفعل فقد تمكن اليابانيون من نقل فرقتين من فرقهم الثلاث من هذه الجبهة ، وبعثوا بهما فورا الى جبهة الجيش الرابع عشر .

واستمرت معركتا مندلاى ومكيتيلا ناشبتين طوال شهر مارس ، ودخلت قواتنا مندلاى فى التاسع من الشهر ، كما احتلت جبل مندلاى ولكن اليابانيين قاوموا بشدة ، وصمّت أسوار قلعة دوفرين أمام الصواريخ العادية ، وأخيرا تم خرق هذه الأسوار بقنابل زنة الفى رطل ، وفى العشرين من مارس فر العدو من القلعة ، وواصلت بقية الفيلق الثالث والثلاثين طريقها الى ميكتيلا ، ولقيت مقاومة عنيفة ، لأن القائد اليابانى العام ـ على الرغم من تدخل الفرقة السابعة عشرة وراء جبهته ـ لم يبد أية علامة تشير الى رغبته فى الانسحاب ، الا أنه بعد أن يئس من المعركة بدأ ينسحب على الطريق الرئيسية الممتدة الى تونجو ورانجون مخترقا الجبال الى الشرق ، وكذلك توقف الجنرال سليم على

طريق لاشيو ، كما أنه لم يعد هناك أى أمل فى وصول الجيش الرابع عشر الى رانجون فى أواسط ابريل •

ولما كان الجنرال سليم مصمما لا على الوصول الى رانجون فحسب، بل أيضا على القاء شبكة مزدوجة فى جنوبى بورما لاصطياد العدو فيها ، فقد اندفع الفيلق الثالث والثلاثون من ميكتيلا على طول نهر ايراوادى بسرعة فائقة فوصل الى بروم فى الثانى من شهر مايو ، كما كان الفيلق الرابع يتقدم أيضا على الطريق والسكة الحديدية اللتين الى الشرق ، كما وصل رتل مدرع مع الألوية الآلية التابعة للفرقتين الخامسة والسابعة عشرة الى تونجو فى الثانى والعشرين من ابريل ، على أن تكون قفزتها الثانية نحو بيجو لاحتلالها ، مما سيؤدى الى سد طريق النجاة على قوات العدو المرابطة فى الطرف الأسفل من بورما ، ولما وصلت قواتنا الأمامية اليها فى التاسع والعشرين من ابريل ، سقطت الأمطار بشدة ، فتوقفت المطارات الأمامية عن العمل ولم تستطع الدبابات والسيارات أن تتحرك على الطريق •

ولما كان اليوم الثانى من مايو هو موعد النزول البرمائى أيضا ، فقد ظلت قاذفات الحلفاء الثقيلة تقصف مدة يومين تحصينات العدو فى مدخل نهر رانجون ، كما أنزلت الطائرات فى اليوم الأول من مايو فوجا من المظليين على خطوط العدو ، ووصلت أيضا سفن الفرقة السادسة والعشرين تؤيدها وحدات المجموعة الجوية ٣٣٤ فى اليوم التالى الى مصب النهر •

ولما كان اليابانيون اعتقادا منهم باستحالة القيام بنزول برمائى فى مثل هذا الوقت ، فقد أخلوا مدينة رانجون واتجهوا الى الشمال للدفاع عن بيجو ، وحلقت طائراتنا عليها ووجدتها خالية من جيوش الأعداء ، أنزلت اليها الملاحين بالطائرة فدخلوها دون مقاومة •

وفى الوقت نفسه سارعت القوات البرمائية الى الاتجاه شمالا ، نحو بيجو وبروم ، وهكذا انتهى الصراع الطويل الذى خاضه الجيش الرابع عشر ببسالة •

إحتلال ليتى

أما حرب المحيطات ضد اليابان وهى التى تشتمل على سلسلة طويلة من مجموعات الجزر التى تمتد نحو ألفى ميل فقد بلغت ذروتها أيضا ، كما وصلت قوة الحلفاء البحرية فى المحيط الهادى الى مرتبة التفوق ، ولما كان العدو قد حصن عددا كبيرا من هذه الجزر وجهزها بأحدث المطارات بالاضافة الى قاعدة تروك البحـرية الكبرى التى فى الطرف الجنوبى من اليابان ، كما يلى هـذه الدرع الواقية فرموزا والفلبين والصـين وذلك لحماية طرق تموينه الأمامية فقد أصبح من المتعذر علينا أن نقـوم بغزو اليابان أو قصفها من الجو ، قبل أن نحطم هذه الحلقة ، واحتلال جميع الجزر المنيعة المحصنة ، ولذلك فقد اتبع الأمريكيون أسلوب الضفدعة فى القفز ، حيث كانوا يحتلون الجزر الهامة منها •

ففى مسـتهل شهر يونيـو سنة ١٩٤٤ أكمل الجنرال ماك أرثر احتلال غينيا الجديدة على حين واصل الأميرال نيميتز فى الوسط الضغط على سلسلة الجزر المحصنة ، وكانا يهدفان من وراء ذلك الى جزر الفلبين والى تدمير الأسطول اليابانى الذى كانت تأمل اليابان من ورائه احراز نصر بحرى كبير ضد الحلفاء •

ورغبة منها فى المحافظة على قوتها لهذه المغامرة الخطيرة والحيـوية ، سحبت من قاعدة تروك القسـم الأكبر من أسطولها ، وقسمته بين جزر الهند الشرقية وبين مياه اليابان نفسها ، الا أنه فى الوقت نفسه وجه الأمـيرال سبروانس ضربة بحـاملات طائراته الى جزر الماريان ونزل فى الخامس عشر من يونيو فى جزيرة سيبان المنيعة ، مما اضطر الأسطول اليابانى الى التدخل واتجه بسرعة نحو الشرق على مقربة من الفلبين ، كما هاجمت طائراته أسـطول الحاملات الأمريكية من جميع الاتجاهات حيث ألحقت بالقوات الأمريكية خسائر فادحة •

وفى العشرين من يونيو اشتبكت القوات البحرية الأمريكية مع مثيلاتها من القوات اليابانية ، فأغرقت للعدو حاملة طائرات كما أغرقت الغواصات الأمريكية حاملتين كبيرتين أيضا مما اضطر الأسطول اليابانى الى الانسحاب ، وبذلك أصبحت جزيرة سيبان تحت أيدينا كما تم أيضا اجتياح جزيرتى جوام وتينيان فى اليوم التاسع من يوليو ٠

وفى نهاية الشهر كانت كل جزر الماريان فى قبضة الأمريكيين ، وكان سقوط جزيرة سيبان ضربة صاعقة للقيادة العليا اليابانية مما أدى الى زوال حكومة توجو ، اذ كانت بها قلعة منيعة جدا وممتازة ولكنها بسقوطها فى أيدى الأمريكيين تكون قد فصلت المناطق الدفاعية الجنوبية وأصبح فى وسع القاصفات الأمريكية الثقيلة أن تستخدم هذه القاعدة لمهاجمة اليابان نفسها ، كما أصبحت الطرق مفتوحة أمام البوارج الأخرى للاشتراك فى الهجوم ، ولو أن الأسطول اليابانى كان لا يزال قويا فانه أصبح عاجزا عن خوض أية معركة شديدة دون الاستعانة بطائرات ترتكز الى قواعد ثابتة ٠

كما كانت حالة الجيش اليابانى أفضل قليلا ، الا أنه مع كثرته العددية كان منتشرا فى الصين وفى جنوب شرقى آسيا وفى مختلف الجزر النائية ، وقد أصدرت القيادة العليا أوامرها بالقتال أمام فورموزا والفلبين حتى النهاية كما قررت أن تدفع بالأسطول كله الى ميدان المعركة فى شهر أغسطس ولتضمن عدم انقطاع الزيت الذى يصلها من الهند الشرقية ، ولما كانت خطة حلفائنا حتى الآن تستهدف غزو الجزء الجنوبى من الفلبين أى جزيرة ميندناو ، فقد بدأت طائرات هالس تهاجم المطارات اليابانية فى الجزيرة ، وفى جزيرة لوزون الشمالية الكبيرة ، فحطمت عددا كبيرا من طائرات العدو ، واكتشفت فى أثناء المعارك الجوية أن الحامية اليابانية فى ليبيتى ضعيفة الى حد لم تكن تتوقعه ، وكانت هذه الجزيرة بين جزيرتى ميندناو ولوزون اللتين كانتا هدفى النزول الأمريكى فقرر الأميرال نيمتز غزو جزيرة ليبيتى فورا ، وقد وافقه الجنرال ماك أرثر ٠

وقد بدأ الأمريكيون حملتهم فى اليوم العاشر من أكتوبر بغارات على المطارات التى بين اليابان والفلبين ، فأنزلوا بالعدو خسائر فادحة جدا ، وصمد أسطول حاملات طائراتهم للهجمات اليابانية ٠

ولما كانت جزيرة ليبيتى بين جزيرتى الفلبين الكبيرتين وهما لوزون فى الشمال وميندناو فى الجنوب وتعتبر أهم هذه الجزر ، فقد استهدف

الأمريكيون احتلال هذه الجزيرة ، على حين صمم اليابانيون على وقفهم وتدمير الأسطول الأمريكي ، ولذلك أصدر القائد الياباني العام أوامره فى السابع عشر من أكتوبر الى أسطوله بالابحار الى مضيق سوريجار للدفاع عن هذه الجزيرة وغيرها من الجزر الأخرى ٠

وقد اشتبك هذا الأسطول مع الأسطول الأمريكي فى موقعة ضارية تغلب فيها الأسطول الأمريكي عليه واحتل جزيرة لييتى بعد أن خسر فيها ثلاث حاملات طائرات وثلاث مدمرات وغواصة ، فى حين غرقت للعدو ثلاث بوارج وأربع حاملات طائرات وعشرون سفينة حربية ، ولم يبق له من سلاح فعال الا القاذفات الانتحارية ، مما ساعد على هبوط أكثر من ربع مليون أمريكى فى جزيرة لييتى فى نهاية شهر نوفمبر ٠

وقد واصل الجنرال ماك أرثر زحفه الرئيسى فاحتل دون مقاومة جزيرة ميندورو التى لا تبعد أكثر من مائة ميل عن مانيلا ٠

وفى التاسع من يناير ١٩٤٥ انزل أربع فرق جديدة في خليج لينجاين الى الشمال من مانيلا مفتتحة صفحة جديدة فى معركة الفلبين ، وعندما اندفع الأمريكيون نحو مانيلا أخذت المقاومة اليابانية تشتد ولكن القوات الأمريكية هبطت فى مكانين آخرين على الساحل الغربى وأحاطت بالمدينة بعد أن خسر العدو من القتلى ستة عشر ألف جندى ، الا أن الطائرات الانتحارية اليابانية ألحقت بنا خسائر فادحة حيث أغرقت ست عشرة باخرة أمريكية فى يوم واحد ، كما أصيب الطراد أوستراليا ٠

هذا وقد تمكنت حاملات طائرات الأميرال هالسى فى منتصف يناير من شق طريقها الى بحر الصين الجنوبى وتمكنت طائراتنا من الحاق أكبر الأضرار بهونج كونج ٠

وعلى الرغم من استمرار القتال فى الجزر عدة أشهر أخرى تمكنت القوات الأمريكية من السيطرة على بحار الصين الجنوبية ، وبذلك تم الاشراف على طرق تموين اليابان بالزيت والمواد الأولية الأخرى التى يعتمد عليها مجهودها الحربى ٠

تحـــرير أوروبا الغربية

فى الأول من سبتمبر ، تسلم الجنرال أيزنهاور القيادة العليا للقوات البرية فى شمالى فرنسا ، وهى مكونة من مجمـوعة الجيوش البريطانية الحادية والعشرين بقيادة المارشال مونتجمرى ، ومجموعة الجيوش الأمريكية الثانية عشرة بقيادة الجنرال برادلى ، وبذلك كان يسيطر على أكثر من سبع وثلاثين فرقة تضم أكثر من نصف مليون رجل ، وكانت قوات العـدو تبلغ سبع عشرة فرقة •

وكانت خطة الجنرال أيزنهاور تستهدف الاندفاع فى الاتجاه الشمالى الشرقى بأقصى ما لديه من قوات لاجتياح مراكز اطلاق القنابل الطـائرة الألمانية واحتلال انتويرب ، لأنه ما لم تحتل قوات الحلفاء هذا الميناء الضخم لم يكن فى امكانها القيام بهجوم عبر الجزء الأدنى من نهر الراين والاندفاع الى سهول ألمانيا الشمالية، ولذلك فقد اتجهت جيوش مونتجمرى الى ميناء انتويرب فاحتلت مدينة امبان وأسرت الفرقة المدرعة الحادية عشرة قائد الجيش الألمانى السابع فى أثناء تناوله الفطور فى امبان ، وواصلت اندفاعها الى مدن الحدود وهى أراس ودواى وليل ، قد أخلى الألمان بروكسل فدخلتها فرقة الحرس المدرع الثالث فى اليوم الثالث من سبتمبر ، كما اتجهت فرقة الحرب بعد ذلك شرقا الى لوفين •

وقبل التاسع من سبتمبر كانت قواتنا قد تمكنت من تطهير منطقة خليج كاليه ، بما فيها من مراكز اطلاق القنابل الطائرة ، وكذلك موانى القتال وهى دييب وبولون ودنكرك ، الا ميناء الهافر حيث ظلت حاميته المؤلفة من أحد عشر ألف رجل تقاوم بشدة واصرار على الرغم من قصفها بمدافع بحرية من عيار خمس عشرة بوصة ومن أكثر من عشرة آلاف طن من القنابل من الجو ، حيث استسلمت فى الثانى عشر من سبتمبر ، كما احتلت الفرقة المدرعة البولندية مدينة جنت التى لا تبعد أكثر من أربعين ميلا عن انتويرب •

وبقيت أمامنا القفزة الأخيرة نحو أرنهيم ، حيث كان الطقس السيىء قد حال دون إيصال الامدادات والمؤن والذخائر بطريق الجو ، وكانت الفرقة الأولى التى نقلت بالطائرات بالجو فى وضع يائس ، فقد عجزت عن الوصول الى الجسر وأصبحت محصورة فى قطاع ضيق على الضفة الشمالية ، متعرضة لهجمات عنيفة ، وقد بُذلت كل محاولة ممكنة من الضفة الجنوبية لانقاذها ، ولكن العدو كان قويا للغاية ، وقامت بهذه المحاولات فرقة الحرب والفرقة الثالثة والأربعون ولواء المظليين البولنديين، ولكنها جميعا منيت بالفشل ، حتى اضطر الماريشال مونتجمرى إلى إصدار أوامره الى من تبقى من الفرقة بالعودة ٠

وبعد ذلك اتجهنا لتطهير مصب الشلوت وفتح ميناء انتويرب للملاحة حيث كانت فرقة مدرعة ألمانية ومدربة خير تدريب تتولى الدفاع عن جزيرة بريسكينز وقد أثبتت صلابتها ، كما دار قتال عنيف جدا لعبور قناة ليوبولد واحتلال جنوبى بيفيلاند ، وقد تمكنا فى نهاية الشهر وبعد جهود عظيمة هائلة من الاستيلاء على البرزخ كله وأسر نحو ١٢٫٥٠٠ ألمانى ٠

وهكذا أصبحت الطرق ممهدة للهجوم على وولشيرين ، ووجه السلاح الجوى الملكى فى أوائل أكتوبر الضربة الأولى حتى تمكنت طائراتنا من فتح ثغرة عظيمة وقد اشترك فى هذه العملية ثلاث وحدات من فدائيى البحرية٠ كما اشترك الأسطول البحرى أيضا فى الهجوم ٠

وعلى الرغم من الاصابات القاسية التى وقعت برجال الأسطول فقد تمكن من مواصلة اطلاق مدافعه حتى تمكنت وحدات الفدائيين من النزول الى الساحل ، كما صبت مدافع الفيلق الكندى الثانى نيرانها القوية عبر الماء من شاطىء بريسكنيز على مدافع العدو القوية المثبتة فى دعائم من الأسمنت المسلح ، وقد تمكنت وحدة الفدائيين الثامنة والأربعون من قتل وأسر بقية رجال حامية الجزيرة ، ولم تمض بضعة أيام فى قتال عنيف حتى كانت الجزيرة كلها فى أيدينا ٠

كما واصل برادلى ، وضباطه المتحمسون ، اندفاعهم القوى على الجناح الأيمن وراء باريس ، على رأس مجموعة الجيوش الأمريكية الثانية عشرة ، فسقطت فى أيديهم شارلروا ، ومونز ، ولييج ، وتمكنوا خلال أسبوعين من تحرير اللكسمبورج بأسرها وجنوبى بلجيكا ، ووصلوا فى

الثاني عشر من سبتمبر الى الحدود الألمانية ، كما اخترقوا خط سيجفريد على مقربة من آخن ٠

هذا وقد قامت القوات الجوية الاستراتيجية بدور بارز في زحف الحلفاء الى حدود فرنسا وبلجيكا ، ثم عادت في الخريف الى دورها الأساسي في قصف ألمانيا مستهدفة مستودعات البترول وأجهزة المواصلات كأهداف محدودة ، كما أرغمت هجماتنا المستمرة الألمان على توزيع مصانعهم في نقاط متباعدة وقد دفعت قواتنا الثمن غاليا لتحقيق هذا الهدف ٠

ولما كان الألمان يعتمدون على طرق مواصلاتهم الجيدة ، وقد تعطل أكثرها بسبب الغـــارات فقد تسبب ذلك في تكديس أكوام الفحم في المحطات لعدم وجود عربات الشحن التي تنقلها كما إضطر أكثر من ألف قطـار من قطـارات الشحن للتوقف يوميـا بسبب الافتقار الى الوقود ، وكذلك بدأت محطات القوة الكهربية والمصانع ومعامل الغاز تُغلق أبوابها وهبط انتاج البترول واحتياطيه هبوطا هائلا مما أثر لا على حركة القوات العسكرية فحسب ، بل على النشاط الجوى وتدريب الطيارين ٠

وقد حـذر سيبر في شهر أغسطس الفوهرر من شل الصـــناعة الكيماوية كلية بسبب الافتقار الى المنتجات الثـانوية من مصانع الزيت الكيماوى ، وأخذ الوضع يزداد سوءا يوما بعد يوم ، وقال سيبر : انه اذا استمر الوضـع في التردى والتوقف في حركة القارات فان النتيجة ستؤدى الى كارثة انتاجية ذات أهمية حاسمة ٠

ولهذا السبب فقد بدأ هجومنا الجوى يحقق غاياته أخيرا ٠

الاجتماع البريطانى السوفييتى فى موسكو

لما كنت قد اتفقت مع الرئيس فى أوائل فصل الصيف على تقسيم المسئوليات بالنسبة لمختلف البلاد المتأثرة بحركات الجيوش ، وكانت الاوضاع قد تحسنت خلال الأشهر الثلاثة التى إتفقنا على أن يستغرقها الإتفاق ، فإنه عندما حَلّ فصل الخريف أخذ كل شىء فى أوروبا الشرقية يسير فى طريق الازمة والتوتر حيث كانت الجيوش السوفييتية تضغط بشدة على المسرح البلقانى ، وأصبحت رومانيا وبلغاريا فى قبضتها ، كما أصبح من المحتم أن تسقط بلغراد فى قبضتها بعد قليل ، على حين كان هتلر يقاتل بعناد واصرار للاحتفاظ بالمجر •

ولما كان انصار الحلفاء الأعظم قد أصبح قضية وقت ليس الا ، بعد البداية الناجحة لعملية «السد الأكبر» فقد كان من الطبيعى أن تنمو أطماع الروس ، بعد أن رفعت الشيوعية رأسها وراء الجبهات الروسية المزمجرة ، لذلك شعرت بالحاجة إلى إجتماع شخصى بستالين ، وأن أستغل العلاقات الطيبة التى تربطنا بالسوفييت للوصول معهم الى حلول مرضية للمشكلات الجديدة التى بدت بين الشرق والغرب ، وعلى الأخص مصير بولندا التى دخلنا الحرب بسببها وكذلك مصير اليونان الذى كان يؤثر علينا تأثيرا كبيرا ، وكانت حكومتاهما قد لجأتا الى لندن ، وكنا نشعر بمسئولياتنا فى اعادتهما الى بلديهما ، وكان هذا رغبة شعبيهما أيضا ، وكانت الولايات المتحدة تشاركنا فى هذه المخاوف الى حد كبير ، ولو أنها كانت غير مدركة لقوة النفوذ الشيوعى الذى تسرب قبل زحف الجيوش الروسية القوية ثم سار فى ركابها •

وبالاضافة الى هذه القضايا الخطيرة التى اثرت على أواسط أوروبا كلها ، فان مشكلات التنظيم العالمى ، بدأت تلقى بثقلها على تفكيرنا ، كنا قد عقدنا من قبل مؤتمرا طويلا فى « دومبارتون أوكس » على مقربة من واشنطن ، امتد بين أغسطس وأكتوبر ، حيث وضعت الولايات المتحدة

وبريطانيا والاتحاد السوفييتي والصين المشروع الذى أصبح الآن معروفا لحفظ سلام العالم وأمنه .

وقد كشفت المناقشات عن خلافات عدة بين الدول الكبرى الثلاث ، لان وفد الكرملين لم يكن راغبا فى الاشتراك فى هيئة دولية تتغلب فيها أصوات مجموعة من الدول الصغرى على صوته ، وقد كنت على ثقة من أننا نستطيع الوصول الى قرارات طيبة مع روسيا طالما أننا لا نزال فى حرب مع عدو مشترك .

وقد هبطنا فى مطار موسكو فى التاسع من أكتوبر ، وعقدنا أول اجتماع فى الكرملين ، شهده ستالين ومولوتوف وايدن ، وقررنا أن نوجه الدعوة الى رئيس وزراء بولندا ووزير خارجيتها المسيو رومير والى المسيو جرايسكى ، للحضور الى موسكو فورا ، كما أبرقت كذلك الى المسيو ميكولاجيك لكى يحضر للتباحث مع الحكومة السوفييتية ومعنا ومع لجنة لوبلين البولندية ، وأوضحت لهم أن رفضهم الحضور للاشتراك فى المحادثات سيعنى رفضا واضحا لنصيحتنا وسيؤدى من ثم الى تحللنا من كل مسئولية تجاه حكومة بولندا التى فى لندن .

وبينت لستالين أن الفرصة متاحة للعمل ، لكى تسوّى جميع القضايا المتعلقة بالبلقان ، كما أنه يجب علينا ألا نقف متعارضين فى أهدافنا تجاه قضايا بسيطة بالنسبة الى بريطانيا وروسيا ، وقلت له : ماقولكم فى أن يكون لكم التفوق بنسبة تسعين فى المائة فى رومانيا وأن تكون لنا النسبة نفسها فى اليونان وأن نكون متعادلين فى يوغسلافيا ، وبينما كان المترجم ينقل ما قلته الى الروسية كتبت على ورقة صغيرة البيان التالى :

رومانيا :

روسيا	٩٠ ٪
الدول الأخرى	١٠ ٪

اليونان :

بريطانيا بالاتفاق مع الولايات المتحدة	٩٠ ٪
روسيا	١٠ ٪

يوغسلافيا :

روسيا	٥٠ ٪
بريطانيا وأمريكا	٥٠ ٪

المجر :

روسيا	٥٠ ٪
بريطانيا وأمريكا	٥٠ ٪

بلغاريا :

روسيا	٧٥ ٪
الدول الأخرى	٢٥ ٪

• ودفعت بالورقة الى ستالين ، فكتب عليها بقلمه بالموافقة ، وأعادها الى ، وهكذا تم اقرار كل شيء في أسرع وقت ممكن ، أما القضايا الكبرى فقد أرجأناها لمائدة الصلح ، هذا وقد بعثت الى الرئيس كتابا خاصا قلت فيه :

« أرى من الضرورة أن نحاول التفاهم بصدد البلقان، لكي نتمكن من الحيلولة دون وقوع الحروب الأهلية في عدد من البلاد عندما أكون أنا وأنت الى جانب فريق من الناس ويكون ستالين الى الجانب الآخر ، وسأواصل اطلاعك على ما يجد في هذا الموضوع ، ولن يتقرر أي شيء باستثناء اتفاقات أولية تمهيدية بين بريطانيا وروسيا ، وأنا واثق أنك على هذا الأساس لن تعارض في أن نحاول الالتقاء فكريا مع الروس » •

وبعد هذا الاجتماع استعرضت في مخيلتي علاقاتنا بروسيا بالنسبة لمناطق أوروبا الشرقية ، ورغبة مني في ايضاع أفكاري ، أعددت كتابا الى ستالين في الموضوع مُرْفَقَةً به مذكرة توضح تفسيراتنا للنسب المئوية التي اتفقنا عليها ولكنني لم أبعث بهذه الرسالة في النهاية ورأيت من الحكمة أن اترك الأمور تسير وحدها •

غير أنني قد بعثت الى اخواني في الوطن برسالة مؤرخة ١٢ من أكتوبر عام ١٩٤٤ بينت فيها النسب المئوية التي اتفقنا عليها وتفصيل الاسباب التي دعت الى ذلك ، كما بينت أنه سيعاد النظر فيها عندما تجتمع الدول العظمى بعد انتهاء الحرب على مائدة الهدنة أو الصلح لاعداد تسوية أوروبية عامة •

ولما وصل البولنديون من لندن ، اجتمعنا في الثالث عشر من أكتوبر في دار ضيافة الحكومة السوفييتية المعروفة باسم « سبيريدونوفكا »

لنستمع الى ميكولاجيك وزملائه وهم يعرضون قضيتهم ، وكانت هـــذه المباحث بمثابة تمهيد لاجتماع آخر يعقده الوفدان البريطانى والأمريكى مع ممثلى لجنـــة لوبلين البولنـــدية الشيوعية ، وقد الححتُ على ميكولاجيك ليدرس قضيتين :

الأولى ــ الاعتراف واقعيا بخط كرزون ، مع اجراء تبادل فى السكان واجراء محادثات ودية مع لجنة لوبلين لتأمين السبل لقيام بولندا متحدة ، وقلت : أن الخير كل الخير فى تحقيق الوحدة الآن فى هذه المرحلة الختامية من الحرب ، وطلبت اليهم أن يدرسوا هذا الموضوع بعناية فى هذه الليلة، وأكدت لهم أننى والمستر ايدن سنكون تحت تصرفهم، ولكنه من الضرورى أن يتصلوا بلجنة لوبلين وأن يَقْبَلوا بخط كرزون كترتيب عمـلى على أن يعاد النظر فى الموضوع كله فى مؤتمر الصلح .

وعندما اجتمعنا فى الساعة العاشرة مساء من تلك الليلة الى ما يسمى باللجنة البولندية ، اتضح لنا فورا ، أن البولنديين أعضاء لجنـة لوبلين ليسوا سوى مخالب فى ايدى روسيا ، وقد حفظوا الدور الذى يجب عليهم أن يمثلوه ، فمثلا قد تحدث الينا المستر بَيْرُوُن زعيم اللجنة بقوله : «اننا نطالب هنا باسم بولندا بأن تكون جزءا من روسيا وهذه هى ارادة الشعب البولندى » كما تحدث زعيم آخر من زعماء لجنة لوبلين هو المسيو أوسوبكا موروفسكى باستفاضة واسهاب وكان حديثه باعثا على الالم وقد كون المستر ايدن أسوأ فكرة عن الزعماء البولنديين الثلاثة ، ودام المؤتمر أكثر من ست ساعات ولكن النتائج كانت مخيبة للأمل ، ومع مضى الأيام لم يتحقق الا القليل فى طريق تحسين العلاقات البولندية الروسية ، وكان بولنديو لندن على استعداد لقبول خط كرزون ، كخط للحدود بين روسيا وبولندا ، ولكن الروس اصروا على استعمال العبارة التالية « كأساس للحدود بين روسيا وبولندا » واصر كل من الفريقين على رأيه .

وقد كان ستالين معارضا فى محاولة تاليف حكومة بولندية موحدة قبل تسوية مشكلة الحدود أولا ، وقال : انه اذا سويت مسألة الحدود فانه سيكون على استعداد لقبول تولى جيكولاجيك رياسة الحكومة الجديدة . وقد خيل الى أن صعوبات ليست بأقل حدة وعنادا ستنشب عند البحث فى ادماج الحكومة البولندية فى لجنة لوبلين ، لانهم كانوا يطمعون فى تولى حكم بولندا ، ولذا فقد رايت من الأفضل طبقا للظروف الراهنة ، أن يعود كل من الوفدين البولنديين الى المكان الذى جاء منه ، وأحسست احساسا

عميقا بالمسئولية الملقاة على عاتقي وعاتق وزير الخارجية في محاولة وضع الاقتراحات لايجاد تسوية روسية ـ بولندية ، وأنه مما لاريب فيه ، أن فرضنا خط كورزون على بولندا سيثير علينا عاصفة من النقد •

ولما كان من الواضح أن الحكومة السوفييتية تعتزم مهاجمة اليابان فور سقوط هتلر ، وان هذا الهجوم سيؤدى الى تقصير أمد الكفاح كله ، فانه مما لا ريب فيه أن الترتيبات التى اتخذناها بصدد البلقان ، كانت خير ما يمكن الوصول اليه ، واذا ما سارت هذه الاجراءات جنبا الى جنب مع عمليات عسكرية ناجحة فستؤدى حتما الى انقاذ اليابان ، ولم يكن لدى شك أيضا فى أن اتفاقنا على اتباع سياسة مشتركة بنسبة الخمسين فى المائة فى يوغسلافيا كان احسن حل لمتاعبنا بالنسبة الى سلوك تيتو ، الذى جاء بعد أن عاش ثلاثة أشهر أو أربعة فى حمايتنا الى موسكو بصفة سرية ليشاورها دون اطلاعنا على المكان الذى سافر اليه ، ولا سيما بعد أن وصلت قوات روسية وبلغارية تحت القيادة الروسية الى بلاده لمساعدة جناحه الشرقى •

ولم يكن ثمة شك فى اننا ضمن دائرتنا الضيقة ، كنا نتحدث أنا وستالين بمنتهى الحرية والود ، وبشكل لم يسبق له أن ساد العلاقات بين بلدينا ، الا أننى ازددت اقتناعا الآن بأنه ليس على كل حال الحاكم المطلق فى بلاده ، وقد قلت لزملائى فى الوطن : « ان هناك يداً خفية تلعب وراء ظهر الفارس » •

باريس وجبهة الأردين

عندما تم الاتفاق على أن خير موعد أقوم فيه بزيارة باريس هو يوم الهدنة فى الحادى عشر من نوفمبر عام ١٩٤٤ ، وأعلن رسميا أننى سأقوم بهذه الزيارة فى ذلك التاريخ ، فقد وصلتنا تقارير عدة تقول ان المتعاونين مع الالمان سيحاولون الاعتداء على حياتى ، وبناء على ذلك فقد اتخذت الاحتياطات الوقائية اللازمة ، وهبطت فى العاشر من نوفمبر فى مطار أورلى ، حيث كان ديجول فى استقبالى على رأس ثلة من حرس الشرف ، ثم ركبت معه عربة مكشوفة ، فاجتزنا ضواحى باريس الى أن وصلنا الى « الكى دورسيه » حيث حَلَلْتُ مع زوجتى وابنتى مارى ضيوفا رسميين على الدولة ، وكان كل شىء على أحسن ما يرام ٠

وفى اليوم التالى غادرنا باريس إلى بيزانسون ، لكى يطلعنى الجنرال ديجول على الهجوم الواسع النطاق الذى تقرر أن يقوم به الجيش الفرنسى بقيادة الجنرال دى لاتردى تاسينى ، وقد وصلته قبل بدء المعركة بوقت طويل ، وكان من المقرر أن نزور مركز مراقبة على الجبال ، ولكن بالنظر الى الثلوج الغزيرة حيث كانت الطرق غير صالحة للسير تقرر تأجيل العملية كلها ٠

وفى المساء توجهت بالقطار الى ريمز فوصلتها فى الصباح حيث قمت بزيارة للجنرال إيزنهاور وعدت فى المساء طائرا إلى نور فهولت ٠

ولم يكن الوضع فى الجبهة الغربية فى هذه الآونة مناسبا تماما ، فلقد كان هناك الكثير من الأعداد للزحف نحو نهر الراين ، إلا أن جيش ديسمبس الثانى فى القطاع البريطانى تمكن من طرد العدو الى ما وراء نهر الموز ، أما فى الجنوب فقد تلاقت قواتنا مع الجيش الأمريكى التاسع وأخذت تناضل زاحفة فوق أرض مشبعة بالمياه للوصول الى نهر الروهر، وكان من المجازفة حتى الآن محاولة عبور هذا النهر ، لأنه كان تحت

سيطرة سدود ضخمة كانت لا تزال فى قبضة العدو ، وكان فى وسعه عن طريق فتح السدود أن يعزل قواتنا التى على الضفة الأخرى ، وقد حاولت قاذفاتنا التى على الضفة الأخرى ، تحطيم هذه السدود ، واطلاق هذه المياه ولكن على الرغم من اصابتها اصابات مباشرة لم تفتح فيها أية فجوات مما اضطر الجيش الأمريكى الأول فى الثالث عشر من ديسمبر الى تجديد زحفه للاستيلاء عليها .

وفى هذا الوقت كان الجنرال باتون قد عبر نهر الموزيل فى الجنوب من الاردين وزحف شرقا متجها الى الحدود الألمانية ، واضطر جيشه الى التوقف أمام حصون منيعة من خط سيجفريد ، كان يدافع عنها العضو بعناد واصرار ، والى يمين هذا الخط ، تمكن جيش الجنرال وبغير السادس من شق طريقه نحو الفوج وثغرة بيلفورت ، كما تمكن الفرنسيون بعد معركة دامت أسبوعا ، من الاستيلاء على بيلفورت فى الثانى والعشرين من نوفمبر ، ووصلوا الى نهر الراين الى الشمال من بال ، وهنا التف الفرنسيون جنوبا حول الجناح الألمانى فى الفوج ، مما أرغم العدو على الانسحاب بسرعة ، ويَسَّرَ دخول الحلفاء ستراسبورج ، فى الثالث والعشرين من نوفمبر ، كما طهَّر الجيش الأمريكى السابع فى الأسابيع التالية جميع المناطق الشمالية من الألزاس ، واستدار حول ميمنة الجيش الثالث ، ثم عبر الحدود الألمانية واخترق خط سيجفريد على مقربة من ويسمبورج .

ولكن هذه الانتصارات المهمة ، لم تكن لتخفى الحقيقة الواقعة وهى أن الحلفاء الغربيين مَنُوا بانتكاسة إستراتيجية حيث كنا قد سجلنا قبل البدء بهذه الحركة الواسعة وجهة نظرنا فى أن من الخطأ الهجوم فى الجبهة كلها ، وعلى الرغم من خيبة الأمل التى منينا بها .

هذا وقد بعثت برسالة الى الرئيس فى السادس من ديسمبر أُعربت فيها عن مخاوفى وقلت فيها : « لقد حان الوقت لأعرض عليك الوضع الحربى الحَرِجّ والمُخيِّب للآمال الذى يواجهنا فى نهاية هذا العام ، فعلى الرغم من إحرازنا بعض الإنتصارات فقد ظلت هناك الحقيقة الماثلة ، وهى اننا فشلنا حتما فى الوصول الى الأهداف الاستراتيجية التى حددناها لجيوشنا قبل أسابيع ، فلم نصل بعد إلى الراين فى طرفه الشمالى ، وهو أهم قطاع فى الجبهة ، وسنقضى عدة أسابيع أخرى فى معارك ضارية ، قبل أن نأمل الوصول الى الراين ، واقامة رءوس جسورنا عليه وبعد

ذلك علينا من جديد أن نستأنف الزحف داخل ألمانيا ، ومازال الألمان يحتفظون فى ايطاليا بست وعشرين فرقة وهو ما يعادل ست عشرة فرقة كاملة التجهيز أو نحوها على جبهتنا .

ولا ريب أن السبب الذى حال بين مجموعة الجيوش الخامسة عشرة وبين تسجيل نصر حاسم على قوات كيسلرنج ، هو التأخر الذى نجم عن إضعاف قواتنا لتأمين عملية « التنين » والنزول فى جنوبى فرنسا ، ولهذا لم نستطع عبور جبال الأبنين ، قبل أن تغمر المياه حوض نهر البُوْ ، هكذا لم نستطع لا فى الجبال ولا فى السهول استخدام مالدينا من تفوق فى سلاح المدرعات .

وبالنظر الى عناد المقاومة الألمانية فى جميع الجبهات ، لم نقم بسحب الفرق البريطانية والهندية الخمس من أوروبا لنمكن مونتباتن من الهجوم على رانجون فى شهر مارس ، ولهذا فقد بدأ مونتباتن — وفقا لما اتفقنا عليه فى كويبك — زحفا عاما فى تجاه بورما من الشمال والغرب ، واحرز تقدما مرضيا ، أما الآن وبالنسبة الى الزحف اليابانى فى الصين ، بما سينطوى عليه من تهديد بالقتال لكومينج ، وربما لشونكنج ، وللجنرال لسمو شيانج كاى شيك ، فقد تقرر سحب فرقتين صينيتين أو أكثر للدفاع عن الصين ، ولو أن هذه الخطوة كانت صائبة فقد كانت نتائجها مع ذلك بالغة الخطورة ، وهكذا انتكست جميع آرائى فى توجيه ضربة ثقيلة عبرالأدرياتيك أو عبر خليج البنغال .

وعلى الرغم من جهودنا المشتركة يقوم هنا سؤال محدود تماما : « ترى ماذا فى وسعنا أن نفعل ؟ » ويزداد قلقى من إنهيار جميع الآمال فى قيام اجتماع مبكر بين ثلاثتنا ، ومن التأجيل الذى لا نهاية له فى عقد اجتماع بينى وبينك ، يحضره أركان حربنا ، لنبحث فى مشكلاتنا الانجليزية الأمريكية ككل ، ولهذا أرى لزاما على أن أقول : انه اذا لم يتيسر لك الحضور بنفسك قبل شهر فبراير ، فلتبعث برؤساء أركان حربك الى هنا فى أسرع وقت ممكن ليكونوا على اتصال وثيق بجيوشنا الرئيسية وبالجنرال ايزنهاور ، لكى يكون عملنا المشترك مُرَكَّزاً تمام التركيز بصورة مماثلة لما وقع فى حملاتنا عام ١٩٤٤ .

وقد بدأ لى أن الرئيس روزفلت ، على الرغم من شعوره الودِّى لم يكن يشاطرنى مخاوفى ، فقد بعث إلىَّ يقول : « لقد كنت أشعر دائما بأن احتلال ألمانيا حتى الضفة اليسرى من الراين سيكون دائما عملية شاقة كما أننى لم أشعر بالتفاؤل من سهولة إجتياز نهر الراين بجيوشنا

المشتركة ، ومع ذلك فانى أعتقد أن خططنا الاستراتيجية الواسعة والمتفق عليها ، تسير وفقا للخطة المرسومة ، واذا كان قد طرأ بعض التأخير فى الوقت الحاضر ، فاننى أرى أن الاستمرار فى المعارك ونتائجها موكولان الى قادتنا فى الميدان الذين يتمتعون بكامل ثقتى » .

وكان من المقدر أن نتحمل الآن ضربة ثقيلة ، فبعد ستة أيام من إرسال هذه البرقية تعرّضنا لأزمة خطيرة ، فقد كان القرار الذى إتخذناه بتوجيه ضربتنا من آخن إلى الشمال وعبر الألزاس فى الجنوب ، قد جعل جبهتنا الوسطى ضعيفة كل الضعف ، إذ كان الفيلق الأمريكى الثامن الذى يضم أربع فرق يتولى حراسة جبهة طولها خمسة وسبعون ميلا فى الأردين ، وقد توقعنا الخطر ، وكانت النتائج خطيرة ، وكان من المحتمل أن تزداد فى الخطورة ، فقد تمكن العدو بعد جهد رائع من حشد نحو سبعين فرقة فى الجبهة الغربية بينها خمس عشرة فرقة مدرعة تشتمل على الجيش المدرج السادس الذى هو فى منتهى القوة والإعداد .

كما أن الألمان ، كانوا قد أعدوا بالفعل خطة رئيسية ، فقد حشد رونشتادت جيشين مدرعين هما الجيش الخامس والسادس ومعهما الجيش السابع أى ما يقرب من عشر فرق مدرعة وأربع عشرة فرقة مشاة .

وكان من المقرر أن تخترق هذه القوة الضخمة يقودها سلاحها المدرع جبهة الأردين إلى نهر الموز ، وأن تندفع شمالا وشمالا بغرب ، فتشطر خط الحلفاء شطرين وتحتل ميناء انتويرب وتقطع شريان الحياة على جيوشنا الشمالية، وكان هتلر قد وضع هذه الخطة ولم يكن ليقبل أى تبديل فيها، مما قد يقترحه قادته الذين يشكّون فى سلامتها ، وحُشِدت بقايا القوة الجوية الألمانية للقيام بمجهود نهائى على حين عُهد إلى رجال المظلات والمخربين والوكلاء الذين يرتدون ملابس الحلفاء العسكرية بأداء دورهم فى المعركة المنتظرة .

وقد بدأ الهجوم فى السادس عشر من ديسمبر ، بعد قصف مدفعى شديد ، وهاجم الجيش الألمانى المدرع السادس من ناحية جناحه الشمالى ميمنة الجيش الأمريكى الأول الذى كان يتقدم فى إتجاه سدود نهر الروهر . وبعد معركة ظلت متأرجحة فترة من الزمن تمكنت قوات الحلفاء من وقف العدو ، كما تمكن الألمان فى الجنوب من اختراق جبهتنا فى قطاع ضيق ، وشن الجيش المدرع الألمانى السادس هجوما اختراقيا جديدا فى اتجاه الغرب والشمال الغربى على نهر الموز قبل مدينة ليبج ،

وتمكن الجيش المدرع الخامس من اختراق جبهة الفيلق الأمريكى وتوغل مسافة كبيرة فى إتجاه نهر الموز .

وعلى الرغم من أن اتجاه العدو جاء مفاجئا لقيادة الحلفاء العليا من ناحية توقيته وثقله ـ قررت أن نعزز فورا «كتفَىْ» منطقة الأختراق ، وأن نحافظ على معابر الموز ، إلى الشرق والجنوب من نامور وسارع أيزنهاور بوقف جميع هجمات الحلفاء ، وأستقدم اربع فرق من القوات الأمريكية الاحتياطية وست فرق أخرى من الجنوب ، وفرقتين محمولتين من الجو من انجلترا ، كما قذف الجيشان الأمريكيان الأول والتاسع بكل مالديهما من قوات إحتياطية لتوسيع جناحيهما الدفاعى إلى الغرب من ماليدى .

ولما كان الألمان قد شطروا جبهة مجموعة الجيوش الثانية عشرة التى يقودها الجنرال برادلى ، وحالوا بينه وبين ممارسة القيادة الفعلية من مقر قيادته فى لكسمبورج ، فقد عهد الجنرال ايزنهاور الى مونتجمرى بالقيادة المؤقتة لجميع قوات الحلفاء فى الشمال على حين عهـــد الى الجنرال برادلى بالاحتفاظ بمواقعه وشن هجمات مضادة على العدو من الجنوب ، كما قام أيضا باجراء تبديلات مماثلة فى قيادة سلاح الجو التكتيكى .

ولما كانت القوات المدرعة الألمانية قد حُرِمت هدفها الرئيسى وهـو نهر الموز ، فقد استدارت الآن بوحشية على باستون ، وتفوّق العدو تفوّقاً هائلا فى العدد على الفرقة الواحدة بعد المائة على الرغم من تعزيزها الا أنها قد تمكنت من الصمود فى البلدة أسبوعا آخر ، وعندما حلت نهاية شهر ديسمبر أُدركتْ القيادة العليا الألمانية أنها قد خسرت المعركة الا أنها بذلت مجهودا آخر بطريق الجو حيث قامت فى اليوم الأول من يناير عام ١٩٤٥ بهجوم مباغت عنيف وعلى ارتفـــاع منخفض على جميع مطاراتنا الأمامية .

وعلى الرغم من أن خسائرنا كانت جسيمة فأننا عوضناها بطائرات جديدة فورا ، ولكن السلاح الجوى الالمانى خسر أكثر مما يستطيع احتماله من خسارة فى آخر هجوم قامت به ألمانيا فى الحرب الثانية .

وكان هذا هو آخر هجوم شنّه الألمان فى الحرب ، ولو أن هذا الهجوم قد أقلقنا القلق وأخّر زحفنا ، فاننا استفدنا منه فى النهاية ، فلم يكن فى وسع الألمان ان يجدوا بديلا عن الخسائر التى خسروها .

وعلى الرغم من أن معاركنا المقبلة على نهـر الراين كانت عنيفـة وقاسية ، فان هجوم الأردين الفاشل قد سهل مهمتها . ولا ريب فى أن القيادة العليا الألمانية وهتلر نفسه قد خدعا عندما باغتهما إيزنهاور وقادتهم بهجومهم ، أما الفضل كل الفضل لنجاحنا فيعود الى ما ذكره مونتجمرى فى تقريره وهو « لقد كسبنا معركة الأردين بفضل ما يتمتع به الجندى الأمريكى من روح حربية عالية » وفعلا قد قامت القوات الأمريكية بأكبر قسط فى المعركة أكبر قسط فى الخسائر .

عيد الميلاد في أثينا

لقد أشتهر اليونانيون بأنهم من أكثر شعوب العالم اهتماما بالسياسة ، وانه مهما كانت أوضاعهم قاسية أو كانت الأخطار التى تتعرض لها بلادهم خطيرة ، فانهم لا ينفكون عن الانقسام إلى شيع وأحزاب عدة ، يتولى قيادتها عدد من الزعماء يتخاصمون ويتشاحنون بحيوية وحماس .

ولما كنت قد طلبت الى رئيس أركان حرب القوات البريطانية ، أعداد التفاصيل المتعلقة ، بايفاد حملة بريطانية الى اليونان فى حالة انهيار الألمان وذلك قبل أن أغادر إيطاليا فى نهاية شهر أغسطس ، فقد تم اعدادها فى أوائل سبتمبر ، واطلقنا على هذه العملية إسم « إلمن » وفى الوقت نفسه كنا قد أتينا بالمسيو باباندريو رئيس الوزراء وزملائه الى إيطاليا وأخذ يعمل مع ممثلى جبهة التحرير الوطنى « أيام » ومع منافسيهم القوميين من جماعة الجيش الوطنى الديموقراطى «ايديس» يساعده فى ذلك المستر ماكميلان وزيرنا المقيم في البحر الأبيض المتوسط والمستر ليبر سفيرنا لدى الحكومة اليونانية وتمكنوا جميعا من الوصول الى اتفاق شامل تم التوقيع عليه فى السادس والعشرين من سبتمبر ، وقد نص الاتفاق على أن تضع جميع قوات العصابات فى البلاد نفسها ، تحت أوامر الحكومة اليونانية التى وضعت نفسها بدورها تحت تصرف القائد البريطانى الجنرال سكوبى ، وقد قُدِّر لهذه الوثيقة التى سميت باتفاق « سايبسترا » أن تسيطر على جميع أعمالنا فى المستقبل .

وقد بدأ تحرير اليونان فى شهر أكتوبر ، وبعثنا بوحدات من الفدائيين الى جنوبى اليونان ، وتمكنت قواتنا فى الساعات الأولى من صباح الرابع والعشرين من شهر أكتوبر من احتلال باتراس ، وكانت هذه أول موطىء قدم لنا منذ أن خرجنا ذلك الخروج المؤلم فى عام ١٩٤١ .

ولما شرع الألمان فى الجلاء عن أثينا ، فى الثانى عشر من أكتوبر ، هبط المظليون البريطانيون فى اليوم التـالى فى مطار ميجارا ، القريب من العاصمة ، واحتلوا المدينة فى أعقاب الانسحاب الألمانى كما دخلت قواتنا البحرية ميناء بيريه يصحبها الجنرال سكوبى مع أكثر جنوده ، وكما وصلت أيضا الحكومة اليونانية بعد يومين يرافقها سفيرنا .

ولما كانت المؤن قد نفدت ، وكان المستر إيدن وهو فى طريق عودته من موسكو ، عرج على اليونان لزيارة أثينا ، وكان يرافقه فى هذه الزيارة اللورد موين الوزير المقيم فى القـاهرة والمستر ماكميلان ، فقد بحث كل ما يمت الى موضوع الاغاثة واتخذت كل التدابير الممكنة تأمينها ، كما بدأ رجال فرقة المهندسين البريطانيين فى إصلاح طرق المواصلات التى لا غنى عنها ، وعندما حل اليوم الأول من نوفمبر كان الألمان قد انسحبوا من سلانيك وفلورينا ، وبعـد عشرة أيام اجتـازت آخر قواتهم الحدود الشـمالية ، وبذلك تحررت اليونان بأسرها ، باستثناء بعض الجزر الصـغيرة النائية والمعزولة والتى كانت الحاميـات الألمانية لا تزال فيها .

ولما كانت الحكومة اليونانية لم تكن تملك القوات الكافية للسيطرة على البلاد وارغام « ايلاس » على احترام اتفـاقية سايبستا ، وانتشرت الفوضى وعمت البلاد ، وكان من المتوقع أن تقوم جبهة التحرير الوطنى بثورة فى كل لحظة ، فقد أصـدرنا الأوامر الى الجنرال سـكوبى فى الخامس عشر من نوفمبر باتخاذ استعدادات مضادة كما تقرر اعلان مدينة أثينا منطقة عسكرية وكذلك صدرت الأوامر الى جيش التحرير « ايلاس » بمغادرتها ، وفى هذا الوقت كانت الفرقة الهندية الأولى قد وصلت الى اليونان ، وكان من الواضح أن الطريقة الوحيدة لتجنب الحرب الأهلية انما هى فى نزع سلاح أفراد العصابات والقوات الأخرى ، واقامة جيش وطنى جديد وقوة من الشرطة تعمـل تحت الاشراف المباشر لحكومة أثينا .

وفى اليوم الأول من شهر ديسمبر استقال وزراء جبهة التحرير الستة وأعلن الاضراب العام فى أثينا فى اليوم التالى ، وأصدرت البقية الباقية من مجلس الوزراء مرسوما بحل العصابات ، كما نقل الحزب الشيوعى مقر رياسته من العاصمة ، ووجه الجنرال سكوبى رسالة الى الشـعب اليونانى أكد فيهـا وقوفه الى جانب الحـكومة الدستورية

القائمة ، الى أن تتم اقامة الدولة اليونانية عن طريق انتخابات حرة ، كما وجهت رسالة مماثلة من لندن .

وفى اليوم الثالث من يناير إصطدم أنصار الشيوعيين الذين كانوا يسيرون فى مظاهرة ممنوعة مع رجال البوليس وبدأت الحرب الأهلية ، ولذلك اصـــدر الجنرال سكوبى أوامره الى قوات جيش التحـرير « ايلاس » بالجلاء عن أثينا وبيريه ، ولكن هذه القوات يؤيدها المدنيون المسلحون حاولت الاستيلاء على العـاصمة بالقوة ، وعندما علمتُ أن الشـيوعيين قد استولوا على معظم مراكز الشرطة وذبحـوا كل الرجال الذين كانوا فيها ، ولم ينضموا اليهم ، وانهم أصبحوا على بعد ربع ميل من مقر الحكومة ، أصدرت أوامرى الى الجنرال سكوبى والى خمسة آلاف جندى من البريطانيين الذين يعملون تحت امرته بالتدخل واطلاق النار على المعتدين الآثمين ، ولا ريب فى أن وجود مثل هذه الأوامر فى حيازته ، لا تقتصر على تشجيعه على القيام بعمل حاسم ، بل تمنحه التأكيد اللازم بأنى ساكون الى جانبه فى أى اجراء حازم قد يتخـذه مهما تكن النتائج .

أما وقد عَرَفَ العالم الحر الآن الكثير عن الحركة الشيوعية فى اليونان وغيرها ، فإن الكثير من القراء سيدهشون حتما من الحملات العنيفة التى تَعَرَّضتْ لها الحكومة البريطانية ، وتعَرَّضْتُ لها أنا شخصيا بصفتى رئيسها ، كما إسْتَنكَرَتْ معظم الصحف الأمريكية ، اجراءنا ، أشد الاستنكار . واصدرتْ وزارة الخارجية الأمريكية التى كان يرأسها المستر سبيتيتينوس ، بيانا انتقاديا واضحا ، وشهدت انجلترا نفسها غليانا وهيجانا شديدَيْن ، ووجّهتْ صحيفتا « التيمس » و « المانشستر جارديان » اللوم العنيف لما أسمتاه بسياستنا الرجعية أما ستالين فقد حافظ من جانبه بأمانة على اتفاقنا الذى عقدناه فى شهر أكتوبر .

كما شهد مجلس العموم اضطرابا شديدا ، وكانت هناك تيارات قوية من الآراء الغامضة ومن العطف والتأثر ، ولو كانت هناك حكومة أخرى لا تتمتع بما تتمتع به حكومتنا القوية من أسس ثابتة قـوية لتهاوت محطمة منهارة ، ولم يقترع ضدنا الا ثلاثون فقط واقترع معنا نحو من ثلثمائة ، وكانت مناسبة جديدة أظهر فيها مجلس العموم قوته المستمرة وسلطته .

وفى ذلك الوقت كانت القوات البريطانية تقاتل بشـدة فى قلب أثينا وقد حوصرت وتفوق عليها العدو عَدَداً ، وكانت تشتبك فى قتال

من بيت الى بيت مع عدو يرتدى أربعة اخماس أفراده الملابس المدنية ، وكان باباندريو ومن تبقى من وزرائه قد فقدوا كل سلطة ، كما رفض الملك اقتراحا باقامة مجلس وصاية يرأسه رئيس الأساقفة داما سكينوس إلا أن سفيرنا المستر ليبر عاد فعرض الفكرة ثانية على الملك فى العاشر من شهر ديسمبر ، ولكنه ظل معارضا لها ولم نكن فى ذلك الحين نرغب فى الضغط عليه لقبولها .

وكان قد وصل الى أثينا فى هذا الوقت كل من الماريشال اليكساندر والمستر هارولد ما كميلان ، وصدر الأمر بتحول الفرقة البريطانية الرابعة - التى كانت تنتقل من إيطاليا الى مصر - الى اليونان ، وأدى وصولها فى النصف الأخير من الشهر وفى الوقت المناسب الى قلب الأوضاع ، وان كان قتال الشوارع فى أثناء ذلك ظل متأرجحا على نطاق واسع ، ولذلك فقد حذرنى اليكساندر بضرورة الوصول الى تسوية فى أسرع وقت ممكن ، وأكد أن خير سبيل لذلك يكون بتدخل رئيس الأساقفة ، وأبرق الىّ يقول : « ما لم تقم بذلك فاننى أخشى اذا استمرت مقاومة الثائرين على ما هى عليه الآن من شدة وعنف أن أضطر إلى ارسال نجدات كبيرة أخرى من الجبهة الايطالية ولأضمن تطهير مقاطعة أثينا - بيريه ، وهى منطقة تضم خمسين ميلا مربعا من المنازل » .

فقررت أن أذهب الى أثينا لأرى الأمور بنفسى على مسرحها وكان ذلك فى اليوم الرابع والعشرين من ديسمبر ، وكنا قد أعددنا حفلة عائلية تضم عددا من الأطفال بمناسبة ليلة عيد الميلاد ، لكنى شعرت بالحاجة الماسة الى أن أطير الى أثينا ، وأن أتعرف على رئيس الأساقفة الذى يتوقف عليه وعلى شخصه الكثير ، وأسرعت باعطاء الأوامر لاعداد طائرة لى فى تلك الليلة فى نور شهولت حيث كان ينتظرنى المستر ايدن لكى نستقلها معا الى أثينا ، فهبطنا عند الظهر فى مطار كالماكى ، وكان فى انتظارنا الماريشال اليكساندر والمستر ليبر والمستر ماكميلان ، فصعدوا الى الطائرة حيث قضينا ثلاث ساعات فى مناقشات حادة استعرضنا فيها الموقف بكامله من نواحيه السياسية والعسكرية واتفقنا على الخطوات التى يجب أن نتخذها فورا .

وتقرر أن نمضى الليلة على ظهر الطراد اجاكس ، ولكى نستقبل فيه رئيس الأساقفة وبطانته ، فذهبنا الى حيث الطراد وعند وصول رئيس الأساقفة اجتمعنا به ، فتحدث بمرارة بالغة عن فظائع جيش

التحرير « ايلاس » وعن اليد الأثيمة البشعة التى تقوم وراء جبهة التحرير « أيام » ، وعندما أصغيت اليه تبين لى دون شك أن الرجل يخشى الشيوعيين خشية كبيرة ، كما يخشى تدخلهم فى الشئون اليونانية وقال : انه قد أصدر منشورا بطريركيا أعلن فيه حرمان جيش التحرير « ايلاس » لأخذه ثمانية آلاف من الرهائن معظمهم من الطبقة الوسطى وبينهم عدد من الصربيين ، ولقتله عددا منهم كل يوم ، وأضاف أنه سينقل هذه الأنباء الى الصحافة العالمية ، اذا لم يقم جيش التحرير باطلاق سراح النساء فورا ، وقد أثر على تأثيرا طيبا بصورة عامة ، لما يتميز به من ثقة فى نفسه ، وفى النهاية قَبِلَ اقتراحنا بأن يتولى رياسة المؤتمر الذى سيعقد فى اليوم التالى والذى دُعِيَ جيش التحرير «ايلاس» لارسال ممثليه اليه .

وفى صباح اليوم التالى توجهنا الى السفارة ، حيث قابلت رئيس الأساقفة وقد وافق على كل ما اقترحناه ووضعنا مخططا للمؤتمر الذى تقرر عقده بعد ظهر ذلك اليوم .

وفى الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم انعقد المؤتمر برياسة رئيس الأساقفة وقد جلست عن يمينه ، وجلس المستر ايدن والمارشال اليكساندر عن يساره ، كما حضر المؤتمر المستر ماكفى السفير الأمريكى والمسيو بيليه وزير فرنسا المفوض والممثل العسكرى السوفيتى ، وكذلك حضر الزعماء الشيوعيون الثلاثة الذين يمثلون جيش التحرير وكانوا يرتدون زى الميدان البريطانى ، وقد بدأت الحديث بقولى :

« من الخير ان نبذل كل مجهود لجعل اليونان عاملا من عوامل النصر وان نبدأ جهودنا الآن ، وليس من قصدنا أن نقف حائلا دون تفاهمكم وتشاوركم وسنترككم نحن البريطانيين ومن معنا من ممثلى الدول الحليفة لتتشاوروا وحدكم برياسة هذا المواطن البارز جدا ، ولن نزعجكم الا اذا استدعيتمونا وكُلِّى أمل على كل حال ، فى أن هذا المؤتمر الذى يبدأ هنا فى أثينا سيعيد اليونان مرة أخرى الى شهرتها وقوتها بين الحلفاء وبين الشعوب المحبة للسلام فى العالم ، وسيضمن سلامة الحدود اليونانية من أى خطر من الشمال وسَيُمَكِّن كل يونانى من أن يُظْهِر نفسه وبلاده بأحسن مظهر أمام العالم بأسره » .

وبعد ان انتهينا من القاء الخطب الرسمية انسحبنا من المؤتمر

وقد استغرقت المحادثات العنيفة بين الأحزاب اليونانية معظم ساعات النهار وبعد ذلك اجتمعت فى الخامسة والنصف مساء اجتماعا أخيرا مع رئيس الأساقفة وعلى ضوء المحادثات التى أجراها مع ممثلى جيش التحرير « ايلاس » تقرر أن أطلب الى ملك اليونان تعيينه وصيا ، لكى يشرع فورا فى تاليف حكومة جديدة لا تضم الشيوعيين ، وتعهدنا له بأن تظل القوات البريطانية على استعداد ، الى أن يتم أحد أمرين ، اما أن يقبل جيش التحرير الهدنة أو تُطَهَّر منطقة أثينا من قواته ، وقلت له : اننا سنحاول الاحتفاظ بالقوات البريطانية فى اليونان الى أن يتم تأليف الجيش اليونانى الوطنى .

هـذا وقد غادرتُ أثينا ومعى المستر ايدن الى لندن فى التاسع والعشرين من ديسـمبر وفى الحال عقـدنا اجتماعا مع الملك وقد وافق جلالته فى نهايته على ألا يعود الى اليونان الا اذا دُعِىَ للعودة بارادة حرة ونزيهـة ، كمـا وافق على تعيين رئيس الأساقفة وصـيا على العرش ، وبذلك اصبح الجنرال بلا ستيرس رئيسا للوزارة .

وبذلك انتهى القتـال المسـتمر فى أثينا بطرد الثائرين أخيرا من العاصمة كمـا أصبحتْ القوات البريطانية مسيطرة على جميع مقـاطعة أثينا وَوُقِّعَتْ الهدنة فى الحادى عشر من يناير ، وفى الوقت نفسـه تحررت اليونان من العبودية الشيوعية .

واذا ماقورنت أحداث اليونان بما كان يدور حين ذاك فى أنحـاء العالم حيث يقف نحو من ثلاثة ملايين رجل يتصـارعون فى الجبهة الغربية ، وحيث تنتشر قوات أمريكية كبيرة فى أنحاء المحيط الهادى ضد اليابان ، بدت صغيرة تافهة ، ولكنها على كل حال ، كانت تقع فى العصب الحساس لحرية العالم الغربى وسلطته وقانونه .

ومن الغريب انه عندما ينظر الانسان الى هذه الأحداث ، فأنه لا شك يقر السياسة التى تبنيتها انا وزملائى ، والتى قاتلنا باصرار من أجلها فقد رأيت بوضوح أن الشيـوعية سـتكون الخطر الذى يهدد الحضارة ، والتى يجب أن نواجهها بعد هزيمة النازية والفاشية .

واذا كانت اليونان قد نجت من مصير تشيكوسلوفاكيا ، واذا قدر لها أن تعيش الآن كدولة من الدول الحرة ، فالفضل فى ذلك لا يعود الى الاجراء الذى اتخذته بريطانيا فى عام ١٩٤٤ وحده ، بل الى المجهودات الصامدة التى اصبحت بعد مدة بسيطة تعبيرا عن القوة المتحدة للعالم الناطق بالانجليزية .

لما كانت جيوش هتلر قد سُحِبَتْ داخل حدودها فى نهاية شهر يناير عام ١٩٤٥ باستثناء بعض فلول منها واهية كانت لا تزال قابضة على المجر وعلى شمالى ايطاليا . فان الوضع السياسى مع ذلك على أية حال فى شرقى أوروبا لم يكن مرضيا ، ولو أن الهدوء ساد اليونان ، وبدا ان حكومة ديموقراطية حرة ستقوم على اساس الانتخاب المباشر العام والاقتراع السرى فان رومانيا وبلغاريا قد أصبحتا فى قبضة الاحتلال العسكرى السوفيتى كما كانت المجر ويوغوسلافيا تحتدم فيهما المعارك ، أما بولندا فعلى الرغم من تحررها من الألمان ، فقد احتلتها روسيا ، مع أن الاتفاق غير الرسمى والمؤقت الذى عقدتُه مع ستالين فى اثناء زيارتى فى شهر أكتوبر لموسكو ، لم يكن المقصود منه ، من ناحيتى على الأقل ، أن يتحكم أو يؤثر فى مستقبل هذه المناطق الواسعة بعد هزيمة ألمانيا .

وكان وضع أوربا بعد الحرب وكيانها كله يتطلبان ضرورة إعادة النظر فيهما حتما ، وكذلك فى الطريقة التى ستتبع فى معاملة الألمان بعد هزيمتهم والمساعدة التى يمكننا ان نرجوها من الاتحاد السوفيتى فى المرحلة الأخيرة لكى نهزم اليابان ، وبعد أن تتحقق لنا أهدافنا العسكرية ، أما الترتيبات والتنظيمات التى تستطيع دول الحلفاء الكبرى أن تقدمها لسلام العالم ولحسن تنظيمه ؟ هذا هو السؤال الذى كنت أردده فى ذهنى دائما .

ولما كانت المحادثات التى جرت فى دومبارتون أوكس قد اسفرت عن خلافات جزئية ، كما انتهت أيضا المحادثات التى هى اضيق نطاقا والتى دارت بين لجنة لوبلين البولندية التى يرعاها السوفييت وبين مواطنيها القادمين من لندن الى نتيجة مماثلة ، مع اننى عملت أنا والمستر ايدن كل ما فى وسعنا لانجاحها فى اثناء زيارتنا للكرملين فى

نوفمبر عام ١٩٤٤ ، وعلى الرغم من الاتصالات غير المجدية التى دارت بين الرئيس روزفلت وستالين اعترفت السوفييت فى الخامس من يناير بلجنة لوبلين على إعتبار انها حكومة بولندا المؤقتة .

ولما كان الرئيس مقتنعا كل الاقتناع بضرورة عقد اجتماع آخر بالثلاثة الكبار ، وبعد الحاح شديد من جانبى ، وافق الرئيس أيضا على أن نعقد أنا وهو مؤتمرا تمهيديا فى مالطة ، ولعل القراء يذكرون المخاوف التى عبّرت عنها للرئيس فى برقيتى التى بعثت بها اليه فى السادس من ديسمبر ، وكانت هذه المخاوف لا تزال تلازمنى ، كما كان رؤساء أركان الحرب البريطانيون والأمريكيون فى حاجة الى التشاور قبل الاجتماع ، فغادرت نورثهلت فى التاسع والعشرين من شهر يناير عام ١٩٤٥ على طائرة ومعى ابنتى سارة وعدد من الموظفين الرسميين ، ووصلنا الى مالطة فى الثلاثين من يناير ١٩٤٥

وكما وصلت السفينة الحربية الأمريكية « كوينس » صباح اليوم الثانى من فبراير عام ١٩٤٥ الى خليج فالينا ، وعلى ظهرها الرئيس روزفلت وصحبه ، وفى الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم ، عقدنا انا والرئيس أول اجتماع فى قمرته الخاصة ، واستعرضنا تقرير هيئة اركان الحرب المشتركة والمباحثات العسكرية التى كانت دائرة فى مالطة منذ ثلاثة أيام ، وانتهزنا الفرصة بالطبع لاستعراض الوضع العسكرى كله ، وفى ذلك الحرب ضد الغواصات ، والحملات المقبلة فى جنوب شرقى آسيا والمحيط الهادى ، والوضع فى البحر المتوسط .

وقد وافق برمين على سحب فرقتين من اليونان عندما يمكن سحبهما ، ولكننى أوضحت أننا لن نجد أنفسنا مضطرين للقيام بذلك ، الا أن يصبح للحكومة اليونانية جيشها كما تقرر سحب ثلاث فرق اخرى من ايطاليا لتعزيز قواتنا فى شمالى أوروبا الغربى ، ولكننى أكدت انه ليس من الحكمة القيام بسحب عام للقوات البرمائية وقد كان من المهم أن نتتبع أى انسحاب لألمانيا من ايطاليا ، كما أبلغت الرئيس أن الواجب يحتم علينا احتلال أكثر ما يمكننا من النمسا ، اذ ليس من المرغوب فيه أن يحتل الروس مسافات أكثر من اللازم فى أوروبا الغربية .

وقد اسفرت المباحثات عن نتائج مهمة واتفاقات حول مختلف القضايا العسكرية ، كما أن هيئة اركان الحرب المشتركة اصبحت على علم بجميع نقاط الاتفاق ، وعلى جميع وجهات نظرنا ، قبل الشروع فى

المحادثات مع اركان الحرب السوفييت ، والتى ستبدأ بعد ذهابنا الى هناك للاجتماع بهم .

هذا وقد أُعِدّتْ الطائرات لنقلنا ولنقل رجال الوَفْدَيْنِ الرسميين البريطانيين والأمريكيين البالغ عددهم نحو سبعمائة رجل ، الى مطار ساكى فى جزيرة القرم ، ولما وصلنا الى هناك انتقلنا بالسيارات الى يالتــــا .

وكان المقر الســـوفيتى فى يالتا هو قصر يوسويوف ، حيث كان ستالين ومولوتوف وجنرالاتهما يتولون ادارة دفة الحكم فى روســيا والسيطرة على جبهتهم الهــائلة التى يحتدم القتال فيها الآن من هذا المركز ، هذا وقد نزلنا فى قصـــور فسيحة اعدت لكل منا ، وقد بذل مضيفونا كل جهد لضمان راحتنا ، وكانوا يهتمون بكل ملاحظة عارضة تصدر منا .

وقد بدأت الجلسة الأولى للمؤتمر بعد ظهر الخامس من فبراير ، وتناول الحديث مستقبل ألمانيا ، وكنتُ بالطبع قد فكرتُ فى هــذه المسألة ، ووجّهتُ الى المستر ايدن من حوالى شهر تقريبا الرســالة التالية :

« بالنسبة لمعاملة ألمانيــا بعد الحرب ، اعتقــد أن من السابق لأوانه تقرير مثل هذه الموضوعات الكبــيرة ، اذ من الواضح انه عندما تتوقف المقاومة الألمانية المنتظمة فان المرحلة الأولى ستكون ممثلة فى إشراف عسكرى قاس ، وقد يستغرق هذا الاشراف عدة اشهر أو سنة أو سنتين ، اذا ظلّت المقاومة السرية الألمانية نشيطة ، ولهذا فانى أقترح مع كل المشاغل التى ننوء تحت أعبائها فى الوقت الحاضر الا نسارع الى بحث هذه المشكلات المؤلمة التى قد تؤدى الى تصدع كبير .

وانى لأوثر التركيز على القضايا العلمية التى ستحتل الصدارة فى السنتين أو السنوات الثلاث القادمة ، بدلا من أن نضيع وقتنا فى مناقشات عن علاقات ألمانيا الطويلة الأجل بأوروبا ، ولهذا فهناك الكثـــير من الحكمة فى أن يحتفظ الانســان بقراراته أطـول مدة ممكنة ، حتى تتكشف جميع الحقائق والوقائع التى قد تصبح قائمة وعملية » .

ولهذا فقد قلت لستالين ، عندما تساءل عن الطريقة التى ستجزأ بها المانيا : إن هذه القضية من التعقيد بحيث يتعذر حلها فى خمسة أيام أو ستة ، فمثل هذا الموضوع يتطلب دراسات عميقة فى التاريخ وعلم الاجناس البشرية ، والحقائق الاقتصادية ، واستعراضا طويلا تقوم به لجنة خاصة تتولى دراسة مختلف الاقتراحات وتقدم رأيها فيها ، فهناك الكثير من المسائل التى يجب أن تدرس ، اذ ماذا سنعمل فى بروسيا ؟ وأى مناطق يجب أن تكون لبولندا والاتحاد السوفيتى ؟ ومن يتولى الاشراف على وادى الراين والمناطق الصناعية المهمة فى الروهر والسار ؟ وأرى أن تؤلف هيئة خاصة لدراسة هذه القضايا ويعرض تقريرها علينا قبل الوصول الى أية قرارات نهائية ، واقترح المستر روزفلت أن يعهد الى وزراء خارجيتنا باعداد خطة لدراسة هذه القضية على أن يتم اعدادها فى أربع وعشرين ساعة وأن يوضع المشروع النهائى لتجزئة المانيا خلال شهر وتركنا الموضوع عند هذا الحد .

واتفقنا على أن نجتمع فى اليوم التالى لدراسة موضوعين مهمين جدا ، وهما مشروع دومبرتون أوكس لضمان الأمن العالمى وموضوع بولندا .

هذا وقد انتهى مؤتمر دومبرتون أوكس مما سبق لى أن ذكرت دون الوصول الى اتفاق كامل بشأنه .

وقد قال ستالين : انه يخشى — على الرغم من أن الدول العظمى الثلاث متحالفة الآن ، وانه لن تقوم أيَّةٌ منها بأى عمل من أعمال العدوان يُخْشَى أن الزعماء الثلاثة قد يختفون من المسرح فى غضون عشر سنوات أو نحوها وقد يتولى السلطة جيل جديد لم يمر بتجربة الحرب وقد ينسى كل ما مررنا به من محن ، ثم قال « اننا جميعا متفقون على الرغبة فى احلال السلام لمدة خمسين عاما على الأقل ، ويقوم الخطر الاكبر فى أن نتصارع بعضنا مع بعض ، فلو ظللنا على اتحادنا ، فلن يكون للخطر الألمانى أية أهمية .

ولهذا يجب علينا ان نفكر في ضمان وحدتنا فى المستقبل وأن نُؤَمِّنَ بقاء الدول العظمى الثلاث ومعها الصين وفرنسا إن أمكن فى جبهة متحدة .

ومضى ستالين يقول : ولا يستطيع زملائى فى موسكو أن ينسوا ماحدث فى أكتوبر عام ١٩٣٩ فى أثناء الحرب الروسية الفنلندية ، عندما

استخدمت الحكومتان البريطانية والفرنسية عصبة الامم ضـــدنا ، ونجحتا فى عزلنا ، وفى طرد الاتحاد السوفييتى من العصبة ، ولذلك فانه يجب الحصول على ضمان بأن أمورا كهذه لن تتكرر فى المستقبل .

[وقد تمكنا بعد الكثير من الجهد والايضـاح من اقناعه ، بقبول مشروع أمريكى يصبح فيه مجلس الأمن عاجزا عن اصدار أى قرار الا اذا أجمع عليه « الأربعة الكبار » واذا رفضت أية دولة منها أى مشروع فلا يجوز لمجلس الأمن اقراره ، وهذا هو « الفيتو » .]

وكنت من ناحيتى أرى أن اقامة أى جهاز عالمى يجب ان تكـون على أساس اقليمى ، فهنـــاك مناطق اقليمية رئيســـية موجودة وتفرض هذا الوجود ، كالولايات المتحدة وأوروبا المتحدة وجامعة الشـــعوب البريطانية والاتحاد السوفيتى وامريكا الجنوبية ، وهنـــاك مجموعات أخرى ، كالمجموعات الآسيوية والمجموعة الأفريقية ، وفى الامكان تنمية هذه الفكرة عن طريق الدرس . وكان الهدف من فكرتى هو حل القضايا التى تدور حولها الخلافات المحلية الحادة فى المجلس الاقليمية التى تبعث بعد ذلك بثلاثة أو أربعة من ممثليها الى المجلس الأعلى ، الذى سيتألف من ثلاثين أو أربعين شخصـا من أبرز الساسة العالميين يكون كل واحد منهم مسئولا عن منطقة ومعالجة القضايا العالمية ايضا ، ولا سيما قضية حرب ، اما دعوة جميع الدول صغيرها وكبيرها قويهـا وضعيفهـا الى الاشتراك على قدم المساواة فى الهيئة المركزية « الجمعية العمـومية » فهى أشبه ما يكون بتنظيم جيش لا تفريق فيه بين قيادته العليا وقادة فرقه وألويته ، ويكون كل ما حصلنا عليه من هذا الاجراء ، انما هو برج بابل جديد ، يتميز بشىء من المهارة فى مناورات ماوراء الكواليس ، ولكن علينا أن نتحمل ، وأن نصبر على أية حال .

روسيا وبولندا

لقد بحثنا موضوع بولندا في نحو سبعة إجتماعات من الأجتماعات الرسمية التي عقدناها في يالتا ، وتمكنا بمساعدة وزراء خارجيتنا ومساعديهم — الذين عقدوا اجتماعات عدة وطويلة واحتدمت بينهم المناقشات الحادة — من الوصول أخيرا الى بيان رسمي ، يمثل وعدا منا للعالم واتفاقا بيننا على اجراءاتنا المقبلة . ولكن فصول القصة المؤلمة لم تكتمل بعد ، كما لم تُعرف جميع الحقائق الصحيحة تمام المعرفة ، الا أن ما دونتُه هنا يلقى ضوءا على الجهود التي بذلناها في المؤتمر قبل الأخير ، من مؤتمراتنا الحربية ، حيث كانت المشكلات والمتاعب قديمة ومتعددة وحتمية ، وكانت حكومة لوبلين البولندية التي يرعاها الروس والتي يطلقون عليها اسم حكومة « وارسو » تنظر الى حكومة لندن البولندية ، بشعور من العداء المرير ، وكانت العلاقات بينهما قد ساءت بعد اجتماع موسكو الذي عقد في أكتوبر ، وكانت القوات الروسية تتدفق عبر بولندا ، وقد أُسْنِدَتْ الى جيش المقاومة السرية البولندى مهمة قتل الجنود الروس ، وأعمال التخريب والهجوم على مناطق المؤخرة وعلى طرق المواصلات ، ولم يكن في وسع الحلفاء الغربيين الحصول على معلومات أو الوصول الى المنطقة ، وكان هناك اكثر من مائة وخمسين الف جندي بولندي يقاتلون ببسالة في ايطاليا .. وفي الجبهة الغربية لتدمير الجيوش تدميرا نهائيا ، وكان هؤلاء وغيرهم كثيرون في أوروبا يتطلعون بشوق الى تحرير وطنهم ، كما كانت الجالية البولندية الكبيرة في الولايات المتحدة تنتظر في شوق ولهفة الى تسوية نهائية بين الدول العظمى .

ويمكن تلخيص الموضوعات التي بحثناها فيما يلي :

١ـ كيف يمكن تاليف حكومة بولندية واحدة مؤقتة ؟

٢ـ وكيف ومتى تجرى الانتخابات الحرة ؟

٣ ـ وكيف تسوى الحدود البولندية فى الشرق والغرب ؟

٤ ـ وكيف نُؤَمِّنُ مناطق المؤخرة وطرق المواصلات للجيوش السوفيتية الزاحفة ؟

ولا ريب فى أن قضـــية بولندا ، كانت من أهم العوامل التى دعت الى عقد مؤتمر يالتا . وكانت من أهم القضايا الرئيسية التى أدت الى أنهيار الحلف الأعظم ، وكنت من ناحيتى على ثقة ، فى أن قيام بولندا ، قوية . وحرة ومستقلة ، أهم بكثير من الحدود الأقليمية المعنية ، وقد أردت أن يعيش البولنديون أحرارا ، وأن يحيوا الحيـــاة التى يريدونها كما يشاءون . ولا ريب فى أن هذا هو السبب الذى دفعنا الى الحرب ضد ألمانيا فى عام ١٩٣٩ ، وكاد هذا الثمن نفسه يكلفنا حياتنا لا كأمبراطورية ، بل كدولة أيضا .

ولذلك فانه عندما إجتمعنا فى الســـادس من فبراير عام ١٩٤٥ ، عرضت الموضوع على النحو التالى : أليس فى وسعنا أن نخلق حكومة أوجهازا حكوميا لبولندا يتولى ادارة البلاد بصـورة مؤقتة الى أن يتم اجراء انتخابات حرة وكاملة يعترف بها الجميع ؟ واذا تمكنا من تحقيق ذلك فاننا نكون قد خطونا خطوة عظيمة نحو احلال السلام فى المســتقبل لأوروبا الوسطى .

وإدَّعَى ستالين ، فى النقاش الذى تلا ذلك ، انه فهم موقفنا وذكر أن بولندا ، تمثل بالنسبة الى البريطانيين قضية كرامة ، ولـكنها تمثل بالنسبة الى الروس قضية كرامة وسلامة معا ، حيث توجد خلافات كثيرة بين الروس وبينهم ، وهم يريدون القضاء على أسباب هذه الخلافات ، لأن بولندا تقوم على حدود روسيا ، ولقد كانت دائما ممرا يجتازه أعداء روسيا لمهاجمتها وقد فعل الألمان هذا مرتين فى بحر ثلاثين عاما ، لأن بولندا كانت ضعيفة وتريد روســـيا من بولندا أن تكون قوية تستطيع اغلاق هذا الممر بقوتها وحدها ، لأن روسيا لا تستطيع اغلاقه من الخارج، وهذه قضية حياة أو موت بالنسبة الى الدولة السوفييتية .

أما بالنسبة الى الحدود ، فقد قال ســـتالين ان الرئيس روزفلت قد اقترح اجراء بعض تعديلات على خط كرزون ، وان تُعْطَى « لوار » وبعض المناطق الأخرى الى بولندا ، وقد قلت ان مثل هذا العمل سيكون بادرة ترمز الى الشهامة ، الا أن ستالين أشار الى أن الروس لم يكونوا هم الذين اخترعوا خط كرزون ، فقد رسم كرزون وكليمنصو وممثلوا

الولايات المتحدة هذا الخط في مؤتمر الصلح لعام ١٩١٨ ، الذى لم تُدْعَ روسيا الى حضوره ، ولم يوافق لينين على هذا الخط .

وعندما عدنا الى الاجتماع في السابع من فبراير ، ذَكَّرْتُ مُستمعيَّ بأنني قد حددت دائما تحرك الحدود البولندية غربا بقولي ، إن من حق البولنديين أن يكونوا أحرارا في الحصول على أراضى فى الغرب على ألا تكون أكثر مما يستطيعون ادارته ادارة صحيحة ، ولو أخذتْ بولندا بروسيا الشرقية وسيليزيا حتى نهر الاودر ، فإن هذا يَعْني نقل ستة ملايين ألمانى الى ألمانيا ، ومن الممكن أن يسوى الموضوع على هذا النحو .

وقال ستالين ان هذه المناطق خالية من الألمان لأنهم فروا منها جميعا ، وقد رددت عليه قائلا ، ان السؤال هو ، هل يتسع للألمان ما تبقى من المانيا ؟ ولقد قُتِلَ ستة ملايين او سبعة ملايين ألمانى ، وقد يُقْتَل مليون أو مليونان كما اقترح ستالين قبل انتهاء الحرب ، ولذا فسيكون هناك مجال لهؤلاء المهاجرين الى حد ما ، وأنا لا أُفزع من مشكلة نقل السكان ، اذا كان في وسع البولنديين أن يديروا أمر البلاد التى يستولون عليها ، ولكن هذه القضية تتطلب درسا ، لا كموضوع مبدأ ، ولكن كموضوع ارقام تجب معالجتها .

وقد وافق المستر روزفلت في الثامن من فبراير ، على أن يكون خط كرزون هو الحدود الشرقية لبولندا ، ولكنه كان صلبا ودقيقا في موضوع الحدود الغربية ، اذ من الواجب أن تأخذ بولندا تعويضات على حساب ألمانيا ، ولكن ليس ثمة مبرر لامتدادها الى نهر الميسيسبى الغربى ، وكان هذا رأيى دائما ، وكان علىَّ أن أعيد التكلم فى موضوعه ، عندما اجتمعنا فى بوتسدام بعد خمسة أشهر .

وهكذا كنا متحدين فى بالتنا ، من ناحية المبدأ ، بصدد الحدود الغربية وكان السؤال الوحيد ، هو اين يجب أن يرسم تماما هذا الخط ؟ وما يمكننا قوله في هذا الموضوع ، هو انه يجب أن يأخذ البولنديون جزءا من بروسيا الشرقية ، وان يكونوا احرارا فى الامتداد الى نهر الأودر ، ولكننا لم نكن على ثقة ، فيما اذا كان فى وسعنا أن نمضى الى أبعد من هذا ، أو أن نقول شيئا من هذا الموضوع فى هذه المرحلة ، وبعد ثلاثة أيام قلت للمؤتمر ، اننى قد تلقيت برقية من وزارة الحرب ، تعترض على أية اشارة الى الحدود على نهر الميسيسبى الغربى ، لأن مشكلة نقل السكان ستكون أضخم من أن تعالج .

ولهذا فقد قررنا أن ندخل الفقرة التالية فى إعلاننا المشترك :

« يرى رؤساء الحكومات الثلاث أن حدود بولندا الشرقية يجب أن تسير مع خط كرزون ، مع بعض الانحرافات عنه فى بعض المناطق التى لا تتجاوز خمسة كيلو مترات أو ثمانية لمصلحة بولندا ، وهم يعترفون أن على بولندا أن تتنازل عن بعض الأراضى فى الغرب والشمال ، وهم يشعرون أن من الواجب تحرّى راى الحكومة البولندية المؤقتة الممثلة للوحدة الوطنية ، فى الوقت المناسب ، بالنسبة الى مدى هذه التساهلات وان يؤجل التخطيط النهائى لحدود بولندا الغربية الى مؤتمر الصلح » .

وظلت أمامنا مشكلة تأليف الحكومة البولندية التى نستطيع الاعتراف بها جميعا ، والتى يرضى بها الشعب البولندى ، وقد بدأ ستالين الحديث بالاشارة الى أننا لا نستطيع تعيين حكومة بولندية الا اذا وافق عليها البولنديون أنفسهم . وكان ميكولاجيك وجرابسكى قد وصلا الى موسكو ، فى أثناء زيارتى الماضية لها ، وكاناقد اجتمعا مع حكومة لوبلين ، ووصلا معها الى حد من الاتفاق ، ثم غادرنا ميكولاجيك الى لندن على أساس انه سيعود ، ولكن زملاءه فى لندن ، أخرجوه من رياسة الوزارة . لمجرد أنه فكر فى الاتفاق مع حكومة لوبلين ، وكانت حكومة لندن البولندية معادية تمام العداء لمجرد فكرة حكومة لوبلين ، وكانت تصفها بأنها شركة من المجرمين وقطاع الطرق وكانت حكومة لوبلين تضفي على حكومة لندن البولندية الأوصاف نفسها وكان من الصعب الوصول الى حل فى هذا الموضوع ، وقد قال ميكولاجيك :

« تحدثوا الى حكومة لوبلين ان شئتم ، فسأحيلهم على المجىء اليكم هنا أو فى موسكو ، ولكنهم لا يقلون ديمقراطية عن ديجول ، وفى وسعهم أن يحفظوا السلام فى بولندا وأن يوقفوا الحرب الأهلية والهجمات على الجيش الأحمر ، ولكن جماعة لندن لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك ، فعملاؤهم فى بولندا قد قتلوا الجنود الروس وهاجموا مستودعات أسلحتهم للحصول على السلاح ، وكانت محطات اذاعتهم تعمل بدون ترخيص وبدون تسجيل » .

ومن المهم بالنسبة للجيش الأحمر ، ان تكون مناطق مؤخرته سليمة مأمونة وهو كرجل عسكرى لا يستطيع أن يؤيد الا الحكومة التى تستطيع تامين هذه المؤخرة ٠

ولما كان الوقت متأخرا فى هذه الليلة ، فقد اقترح الرئيس روزفلت تأجيل الاجتماع الى اليوم التالى ، ولكننى رايت من المناسب أن أقول انه طبقا لمعلوماتنا ، فانه لا يوجد أكثر من ثلث الشعب البولندى يؤيد حكومة لوبلين ، اذا سمح له أن يعبّر عن رأيه فى انتخابات حرة ، وأكدتُ لستالين اننا كنا نخشى دائما من وقوع إصطدام بين الجيش السرى البولندى وحكومة لوبلين ، لما يسفر عنه من سفك دماء واعتقالات ونفى ، وان هذه الخشية التى تدفعنا الى الرغبة فى الوصول الى ترتيب مشترك ، ومن الواجب حتما أن يعاقب المسئولون عن مهاجمة الجيش الأحمر ، ولكن بالنسبة الى مَالَدىّ من معلومات ، فأننى لا أستطيع أن أشعر أن من حق حكومة لوبلين أن تقول انها تمثل الشعب البولندى ٠

ولما كان الرئيس شديد الرغبة فى انهاء النقاش ، فقد قال ، لقد كانت بولندا مصدرا للمتاعب أكثر من خمسمائة عام ، فرددت عليه قائلا ، وهذا وحده كاف ليدفعنا الى أن نعمل كل ما فى وسعنا لانهاء هذه المتاعب ، ثم انفض الاجتماع ٠

هذا وقد وجه الرئيس فى تلك الليلة رسالة الى ستالين ، حثه فيها على وجوب دعوة ممثلين عن حكومة لوبلين ، وممثلين آخرين عن حكومة لندن ، يأتون من انجلترا أو من داخل بولندا نفسها للمجىء الى يالتا ، والاشتراك فى المؤتمر ، وأن يحاولوا معا ، وبحضورنا ، الاتفاق على حكومة مؤقتة ، نستطيع الاعتراف بها جميعا ، لتتولى اجراء الانتخابات الحرة فى أسرع وقت ممكن ، ولكن بدا أن هذا الاقتراح غير عملى ، فقد أطرى مولوتوف فضائل حكومة لوبلين ــ وارسو ــ وحَمَلَ على مساوىء جماعة لندن وعيوبهم ، وقال ، اننا اذا حاولنا خلق حكومة جديدة ، فان البولنديين أنفسهم قد لا يصلون الى اتفاق أبدا ، ولذا ، فانه من الأفضل « توسيع » الحكومة القائمة ، وستكون هذه الحكومة على كل حال مؤقتة ، اذ ان هدفنا الوحيد جميعا ، هو اجراء انتخابات حرة فى بولندا فى أسرع وقت ممكن ، وسيتفق على طريقة تدعيم الوزارة مع السفيرين البريطانى والأمريكى فى موسكو ، ولكونه

راغبا فى الاتفاق فانه يقبل اقتراح الرئيس روزفلت بدعوة بولنديين من غير رجال حكومة لوبلين ، ولما كان هناك احتمال بأن ترفض حكومة لوبلين التحدث الى بعضهم كميكولاجيك مثلا ، الا أنه اذا ما بعثوا بثلاثة ممثلين وجاء ممثلان من أولئك الذين اقترحهم المستر روزفلت فان المحادثات قد تبدأ فورا ٠

وهنا قلت : ان هذه النقطة هى عقدة المؤتمر بالذات ، وان العالم كله يرقب تسوية هذه القضية ، واذا افترقنا من هنا وما زال كل منا يعترف بحكومة بولندية تختلف عن الأخرى ، فان العالم بأسره سيرى أن الخلافات الجوهرية مازالت قائمة بيننا ، وستكون النتائج باعثة على الأسى ، وستحكم على اجتماعنا بالفشل الذريع ، واذا أطحنا بحكومة لندن ، وأيدنا حكومة لوبلين ، فسترتفع هناك ضجة عالمية ، وسيحتج علينا جميع البولنديين الذين يعيشون خارج بولندا ٠

ولما كان يعمل معنا جيش بولندى يضم مائة وخمسين ألفا ، جُمعوا من كل الرجال القادرين على حمل السلاح خارج بولندا ، وقد قاتل هذا الجيش ومازال يقاتل ببسالة ، فأنا لا أستطيع أن اصدق بأن هذا الجيش سيرضى ابدا عن حكومة لوبلين ، واذا كانت بريطانيا العظمى ، ستنقل اعترافها من الحكومة التى اعترفت بها منذ بداية الحرب ، الى حكومة لوبلين ، فان هؤلاء الجنود سينظرون اليها على أنها خانتهم ٠

ومضيت أقول : ولا ريب فى أن الماريشال ستالين والمسيو مولوتوف يدركان تمام الادراك ، بأننى لم أكن راضيا عن أعمال حكومة لندن ، التى كنت أرى فيها الحمق فى كل مرحلة من المراحل ، ولكن نقل اعترافنا رسميا من هؤلاء الذين كنا نعترف بهم حتى الآن ، الى هذه الحكومة الجديدة ، سيعرضنا الى أشد ما يمكن من النقد ، وسيقال ان حكومة جلالته ، قد سلمت تسليما كاملا فى موضوع الحدود الشرقية ، كما فعلنا حقا ، واننا قد قبلنا وتبنينا الدفاع عن وجهة النظر السوفييتية ، وسيقال أيضا اننا فصمنا علاقاتنا كلية مع حكومة بولندا الشرعية ، التى اعترفنا بها طيلة السنوات الخمس الماضية من الحرب ، واننا لا نعرف شيئا عن حقيقة ما يقع فى بولندا ، فنحن لا نستطيع دخول تلك البلاد ، ولا نستطيع أن نرى ، وأن نسمع حقيقة الرأى العام فيها ، كما سيقال اننا نقبل كل ما تقول به حكومة لوبلين

عن رأى الشعب البولندى ، وستتهم فى برلماننا نفسه ، بأننا تخلينا عن قضـية بولندا ، وستكون المناقشات التى ستتلو ذلك فى البرلمان مؤلمة كل الايلام ، ومربكة لوحدة الحلفاء ، حتى ولو إفترضنا أننا قد تمكنا من قبول اقتراحات صديقى المسيو مولوتوف •

واستطردتُ أقول : واعتقـد أن هذه الاقتراحات ستقربنـا الى الوصـول الى حل . فاذا تخلينا عن حكومة لندن البولندية ، فيجب أن نبـدأ بداية جديدة من الطرفين على أسس متكافئة تقريبـا ، فقبل أن نتوقف عن الاعتراف بحكومة لندن ، وقبل أن ننقل هذا الاعتراف الى حكومة أخرى ، يجب أن نتأكد من ان هذه الحكومة الجديدة تمثل حقا الشعب البولندى ، وأنا أوافق على أن هذه وجهة نظر واحدة ليس الا ، لاننا لا نعرف حقا . جميع الحقائق وستزول جميع خلافاتنا حتما ، اذا جرت انتخابات عامة وحرة فى بولندا على أساس الاقتراع السرى ، والتصويت العام ، وحرية الترشيح ، واذا ما تحقق هذا ، فان حكومة بريطانيا ، ستحنى رأسها إجلالا للحكومة التى تتمخض عنها مثـل هذه الانتخابات . ودون ان تكترث بحكومة لندن ، ولا ريب فى ان الفترة التى تسبق الانتخابات هى التى تسبب لنا الكثير من القلق •

وقال مولوتوف : انه يأمل أن تسفر محادثات موسكو عن نتـائج مجدية ، وستتاح الفرصة للبولنديين ليقولوا ما يريدونه ، وسـيكون من الصعب معالجة الموضوع بدون وجودهم ، وقد وافقتـه على رأيه ، ولكننى قلت ان من المهم أن ينقض المؤتمر ، وقد ظهر بمظهر المتفق على شىء يجب أن نعمل جميعا بأناة للوصول اليه .

وهنا تدخل ستالين . فتناول شكواى من اننا لا نتلقى أية معلومات ولا سبيل لنا للوصول الى هذه المعلومات •

فرددت عليه ، بأن لدى بعض المعلومات •

فقال : ولكنها لا تتفق مع معلوماتى ، ثم مضى يؤكد لنا ان حكومة لوبلين ، تحظى بتـأييد الشـعب ولا سـيما بيروت وغيره من رجالها ، فهؤلاء الرجال لم يغادروا البلاد ابان الاحتلال الألمانى لها ، ولكنهم ظلوا يعيشون فى وارسو طيلة الوقت • ثم خرجوا من أماكن اختفائهم الى حيث يوجدون الآن وهو لا يعتقد أنهم من العبـاقرة ، فقد تضـم حكومه لندن رجالا أكثر منهم ذكاءً ولكن الشعب لا يحبهم ، لانه لم يرهم معه يحتملون معه آلام الاحتلال الألمانى ، فى الوقت الذى كان يرى فيه أعضاء الحكومة

المؤقتة ، ولكنه كان يتساءل : أين هم رجال حكومة لندن ؟ ولا ريب في أن هذه المشاعر ، حطمت نفوذ حكومة لندن ، وكانت السبب فى أن يتمتع رجال الحكومة المؤقتة بمثل هـذه الشعبية العظيمة مع أنهم ليسـوا من الرجال العظام ، وأضاف يقول :

كما أنه ليس فى وسعنا أن ننسى كل هذه الأمور ، اذا أردنا حقـا تفهم المشـاعر الصادقة للشعب البولندى ، وقال ان المستر تشرشل يخشى أن ينفض المؤتمر قبل الوصـول الى اتفاق ، فماذا يمكن أن نفعل يا ترى ؟ فالحكومات المختلفة تملك معلومات متباينة ، وتبنى على هـذه المعلومات استنتاجات متفاوتة ، ولعل أول ما يجب أن نفعله • هو أن ندعو البولنديين من مختلف المعسكرات والفئات ، وان نسـتمع الى ما يقولونه وقد حان الوقت الذى فيه يصبح فى الامكان اجراء الانتخابات والى أن يتم ذلك علينا أن نتعامل مع الحكومة المؤقتة ، كمـا تعاملنا مع حكومة الجنرال ديجول فى فرنسا ، وهى حكومة لم تُنْتَخَبْ أيضاً ، وهو لا يستطيع أن يحدد ما اذا كان بيروت يتمتع بشعبية أكثر من ديجول أو أن ديجول يتمتع بشعبية أكثر منه ، ولذا فلم لا نفعل الشيء نفسه مع بيروت كما فعلنا مع ديجول وأن نعقد معه معاهدة ممـاثلة لتلك التى عقدناها مع الجنرال ؟ ولا ريب فى أن أية حكومة تعمل فى بولندا ، لن تكون أقل ديموقراطية من حكومة ديجول ، واذا ما عالجنا الموضـوع بدون أهواء وميول امكننا الوصول الى اتفـاق مشترك • فالوضع ليس على النحو الذى صـوره المستر تشرشـل من الأسى ، وفى الامكان حل القضية ، اذا لم نعلق كبير أهمية على القضايا الثانوية وركزنا اهتمامنا على القضايا الجوهرية •

وتساءل الرئيس روزفلت : ترى متى يصـبح فى الامكان اجراء انتخابات ؟

فقال ستالين : فى بحر شهر ، الا اذا وقعتْ كارثة فى الجبهة ، وهو أمر بعيد الاحتمال •

ووافقت على أن مثل هذا القول يزيل قلقنا ، وفى وسعنا أن نؤيد من صميم قلوبنا حكومة تُنْتَخَبْ انتخابا حـرا ، ولكن يجب ألا نطلب شيئا قد يؤدى فى أى حال من الاحوال الى عرقلة العمليات الحربيـة ، فهى الهدف الأول والأهم ، واذا كان فى الإمكان الوقوف على رأى الشعب البولندى فى مثـل هذا الوقت القصير أو حتى فى بحر شـهرين ،

فان الوضع يختلف آن ذاك كل الاختلاف ولن يكون فى وسع أى انسان الاعتراض عليه •

وعندما عدنا للاجتماع فى اليوم التاسع من فبراير عام ١٩٤٥ ، تقدم مولوتوف باقتراح جديد : وهو أن يعاد تشكيل حكومة لوبلين ـ بدلا من « توسيعها » ـ على أسس ديموقراطية أكثر شمولا ، بحيث تضم زعماء ديموقراطيين من الذين يعيشون داخل بولندا نفسها أو فى خارجها وسيتشاور هو مع السفير البريطانى والأمريكى فى موسكو فى الطريقة التى يتم بها تحقيق ذلك ، ومتى أُعيد تنظيم حكومة لوبلين فستتعهد باجراء انتخابات حرة فى أسرع وقت ممكن ، وسنعترف بأية حكومة تنبثق عن تلك الانتخابات •

وقد قلت أن اقتراح مولوتوف لا بأس به ، ولكننى أرى من واجبى أن أوجه إنذاراً عاماً . وهو انه من حيث أن هناك جوا من الاتفاق ، فإنى أشعر أنه ليس فى امكاننا أن نسمح للعجلة بالتدخل فى تسوية مثل هذه القضايا المهمة ، وان نضيّع ثمار مؤتمرنا ، لعدم رغبتنا فى مد مؤتمرنا أربعا وعشرين ساعة أخرى ، ويجب ألا نرتجل قراراتنا ارتجالا ، وقد تكون هذه الأيام من أهم الأيام فى حياتنا •

هذا وقد أعلن المستر روزفلت ، ان الخلافات بيننا وبين الروس أصبحت شكليات ليس الا . وأكد أنه يهمه كما يهمنى جدا أن تكون الانتخابات حرة ونزيهة حقا ، وقلت لستالين : اننا نشعر بنقص معيب فى معرفة حقيقة ما يدور فى داخل بولندا ، ومع ذلك يُطْلَبُ الينا أن نتخذ قرارات خطيرة تتناول مسئوليات ضخمة ، فقد كنت أعرف مثلا أن هناك شعورا بالمرارة والألم بين البولنديين ، لما قِيلَ لِى أن حكومة لوبلين قد أعلنت بصراحة عن عزمها على محاكمة جميع أفراد الجيش البولندى الداخلى وحركة المقاومة السرية كخونة ، ولو انى أَوْلِى قضية سلامة الجيش الأحمر المقام الأول من اهتمامى . الا أننى أرجو من ستالين أن يدرس الصعوبة التى نواجهها ، فالحكومة البريطانية لا تدرك حقيقة ما يدور فى بولندا ، الا عن طريق القاء بعض الرجال البواسل بالمظلات ، وخروج بعض أعضاء حركة المقاومة الداخلية ، وأكدتُّ له أنه ليست لدينا وسائل أخرى للمعرفة ، وأننا لا نود الحصول على معلومات بهذه الطريقة ، فهل يمكن اصلاح هذا الموضوع دون عرقلة حركات القوات السوفييتية ؟ وهل

يمكن منح تسهيلات للبريطانيين والأمريكيين ليروا بأنفسهم كيف تسوّى المنازعات البولندية ؟

وقد ذكر تيتو انه عندما تجرى الانتخابات فى يوغوسلافيا فلن يعارض فى حضور المراقبين الروس والبريطانيين والامريكيين ، لينقلوا الى العالم بشكل غير متحيز أن هذه الانتخابات قد جرت بصورة عادلة ونزيهة •

أما بالنسبة لليونان ، فان حكومة جلالته تتعهد بأن ترحب ترحيبا حارا بمجيء المراقبين الأمريكيين والبريطانيين والروسيين ليتحققوا من أن الانتخابات ستتم كما يشتهى الشعب ، وهذا ينطبق أيضا على ايطاليا ، ومن المستحيل أن يبالغ المرء فى تقدير أهمية اجراء الانتخابات بصورة نزيهة ، فمثلا : هل يستطيع ميكولاجيك أن يعود الى بولندا ، لينظم حزبه قبل الانتخابات ؟

فقال ستالين : هذا موضوع يدرسه السفراء مع المسيو مولوتوف عندما يجتمعون بالبولنديين •

فقلت : انه يجب أن أتمكن من ابلاغ مجلس العموم أنّ الانتخابات ستكون حرة ، وأنه ستكون هناك ضمانات فعالة ، بأنها ستجرى فى جو من الحرية والنزاهة •

وأشار ستالين : الى أن ميكولاجيك يمت الى حزب الفلاحين ، ولما لم يكن هذا الحزب من الأحزاب الفاشية ، فسيسمح له بالاشتراك فى الانتخابات والتقدم بمرشحيه ، وقلت : ان هذا الأمر سيتأكد أكثر وأكثر اذا كان حزب الفلاحين ممثلا فى الحكومة البولندية . ووافق ستالين على وجوب ضم أحد ممثلى الحزب الى الحكومة ، واضفت بأننى أرجو الا يكون فى أى شيء قلته ما يدعو الى الاساءة •

ورد ستالين قائلا : يجب أن نسمع ما سيقوله البولنديون على أى حال ، وأوضحت أننى أرغب فى أن أحْيِلْ البرلمان على قبول موضوع الحدود الشرقية ، وأنا اعتقد ، أن البرلمان قد يتساهل فى هذا الموضوع اذا اقتنع بأن البولنديين قد تمكنوا من أن يقرروا لأنفسهم ما يريدونه حقا •

فرد ستالين قائلا : ان بينهم عددا لا بأس به من الناس الطيبين ، وهم محاربون من خيرة الجنود ، وظهر بينهم عدد لا بأس به من العلماء والموسيقيين ولكنهم شعب مشاكس بطبعه ٠

فقلت : ان كل ما أريده ، هو أن يتمكن جميع الأفراد من إسماع كلمتهم ٠

وقال الرئيس : يجب أن تكون الانتخابات فوق مستوى النقد ، وكل ما أريده هو نوع من التأكيد أستطيع أن أقدمه الى العالم ، ولا أريد أن يشك أى انسان فى العالم فى نزاهة هذه الانتخابات ، والمسألة مسألة مبدأ ٠

واقترح المسيو ستيتينوس ، أن نكتب تعهدا خطيا بأن يؤكد السفراء الثلاثة فى وارسو ، بناء على ملاحظاتهم ، أن الانتخابات جرت حقا فى جو من الحرية والحيدة ، فقال مولوتوف : اننى أخشى أننا اذا قمنا بذلك ، حمّلنا البولنديين على الشعور باننا لا نثق فيهم ، وأرى من الخير أن نبحث هذا الموضوع معهم ٠

ولم أقتنع بهذا ، وقررت اثارة الموضوع مع ستالين فى وقت آخر ، وقد حانت الفرصة فى اليوم التالى ، عندما قابلته ومعى المستر أيدن بحضور مولوتوف ، وشرحت له من جديد ، ما نحس به من صعوبة لعدم وجود من يمثلنا فى بولندا ، لكى يتمكن من أن ينقل الينا ما يدور هناك ، وقلت : ان هناك احتمالين أما أن نبعث سفيرا مع عدد من موظفى السفارة ، أو نبعث بلفيف من المراسلين الصحفيين ، ولم يكن راغبا فى ارسال الصحفيين ٠

وقد قلت له: اننى سأُسأل فى البرلمان عن حكومة لوبلين ، وعن الانتخابات وأن من الواجب أن أعرف ما هناك لأتمكن من الرد ٠

ولقد قال ستالين : بعد الاعتراف بالحكومة البولندية الجديدة سيكون فى وسعكم ارسال سفير الى وارسو ٠

فعدت اسأله : وهل سيكون حرا فى التنقل داخل البلاد ؟

فقال ستالين ، أما من ناحية الجيش الأحمر ، فلن يكون هناك تدخل منه وأعِدُكَ بأننى سأصدر التعليمات اللازمة ، ولكن عليك أن تقوم بترتيباتك الخاصة مع الحكومة البولندية ٠

ولذلك فقد قررنا اضافة الفقرة التالية إلى إعلاننا :

« وعلى ضوء ما تقدم ، فسينطوى الاعتراف على تبادل السفراء لكى تستطيع الحكومات المعنيات على ضوء تقـــاريرهم ، أن تعرف حقيقة الوضع فى بولندا » ٠

وكان هذا هو ما أمكن الحصول عليه ٠

وهكذا ، انتهت زيارتنا للقرم فى اليوم الحادى عشر من فبراير الا أنه قدظلت عدة قضايا خطيرة ـ كما هو المألوف فى مثل هذه المؤتمرات ـ دون حل ، وقد وضع البيان الذى اصدرناه عن بولندا سياسة فى خطوط عريضة ، لو قدر لها أن تتبّع باخلاص وولاء وصدق لأدت غرضها حقا حتى يحين موعد مؤتمر الصلح العام ٠

ولما كان الرئيس يود العودة الى بلاده ، وأن يمر فى طريقه «بمصر» لكى يبحث مع سفرائه مختلف قضايا الشرق الأوسط ، فقد وقعنا الوثائق النهائية والبلاغات الرسمية فى أثناء فترة الغداء ٠

وقد رأيت من واجبى أن أزور أثينـــا ، لأطلع بنفسى على حقيقـــة الوضع فى اليونان بعد الاضطرابات الأخيرة ، فتوجهت ومن معى الى مطار ســـاكى ، صباح اليوم الرابع عشر من فبراير ، وركبنا منـــه الطائرة الى أثينا ، وكان فى استقبالنا فى المطار السفير البريطانى المستر كيبر والجنرال سكوبى ، واستقبلنا بحماس كبير وعندما وصـــلنا الى ساحة الدستور ألقيت خطبة قصيرة فى الجماهير ، وفى صباح اليوم التالى أخذنا الطائرة الى مصر ٠

وفى هذا الوقت كان الطراد الأمريكى « كوينسى » قد وصـــل الى الاســـكندرية وعلى ظهره الرئيس روزفلت ، فتوجهت الى حيث يوجد الطراد ، لمقابلته ، وكان معى ابنتى سارة وابنى راندولف ، وقد وجدت الرئيس فى حالة ضعف واعياء ، فما أن أشعرنى بأنه على وشك مفارقة الحياة ، حتى ودعته وداعا حارا عند ابحاره الى أمريكا ظهر اليوم ، كما طرت فى اليوم التاسع عشر من فبراير الى لندن ٠

وقد طلبت الى مجلس العموم عندما انعقد فى السابع والعشرين من فبراير ان يوافق على نتائج مؤتمر القرم ، فوافق عليها بالاغلبية ٠

وكان ثمة شعور من الأسى ، قد ملأ قلبى ، مخـــافة ان نضطر الى مواجهة احتمال استعباد شعب بطل ، وقد خالج هذا الشعور نحو ثلاثين نائبا آخرين حتى ان بعضهم قد عارض الاقتراح •

وأود أن أوجه نظر هؤلاء الذين تقع على عواتقهم مهمـــة معـــالجة الأحداث فى أوقات الحروب والأزمات ، ألا يحصروا أنفسهم فى البيانات المجردة ، ذات الطابع الذى يتناول المبادىء العامة التى يتفق عليها جميع النـــاس الطيبين ، وعليهم أن يتخـذوا قرارات محدودة وواضحة من يوم لآخر ، وأن يحافظوا على تنفيذها بصـــلابة واصرار ، وإلاَّ فمن الصـــعب المحافظة على الاتحاد •

وقد يكون من السهل بعـد أن يُهزَمْ الألمان ، أن نحمل على أولئك الذين بذلوا كل ما لديهم من جهد لتقوية مجهود روسيا الحربى وخصوصا الولايات المتحدة التى وقع عليها العبء الأكبر من التضحيات ، وماذا كان يحدث لو اختلفنا مع الروس فى الوقت الذى كان لدى الألمان فيه ثلثمائة فرقة فى جبهات القتال ، ان آمالنا كانت ستتحطم حتما •

عبور الراين

قرر الألمانيون ، على الرغم من الهزيمة التى لحقت بهم فى الاروين ، أن يخوضوا معركة جديدة الى الغرب من الراين ، بدلا من الانسحاب عبر النهر ، ليستجمعوا قواتهم ، ويلتقطوا أنفاسهم ، ولذلك فقد خاض الماريشال مونتجمرى معركة طويلة وشاقة طوال شهر فبراير ومعظم شهر مارس ، لأن الخطوط الدفاعية الألمانية كانت قوية وقد أصروا على الدفاع عنها بعناد ، وقد كانت الأرض موحلة بسبب فيضان نهرى الراين والموز ، ولما كان الألمانيون ؛ قد حطموا فتحات السدود الكبيرة المقامة على الروهر ، فقد أصبح النهر غير صالح للعبور ، واستمر الحال كذلك حتى نهاية شهر فبراير ، ومع ذلك فقد تراجعت ثمانى عشرة فرقة ألمانية الى ما وراء النهر فى اليوم العاشر من مارس ، مما مكن الجنرال برادلى من تطهير الأرض الممتدة ثمانين ميلا والواقعة بين دسلدورف وكوبليتز بعد حملة سريعة وقصيرة •

وفى السابع من الشهر واتت الحلفاء فرصة سانحة ، فسارعوا الى اغتنامها ، فقد وجدت الفرقة المدرعة التاسعة التابعة للجيش الأمريكى جسر السكة الحديد فى ريماجن مدمرا جزئيا ولكنه مازال صالحا للاستعمال فاندفع قائد الفرقة بطلائعه فوق الجسر وتبعته القوات الأخرى ، ولم يمر وقت طويل حتى كانت أربع فرق قد عبرت النهر وأقامت لها رأس جسر يمتد عدة أميال ، ولم يكن هذا الاندفاع جزءا من خطة ايزنهاور . ولكنه برهن على أنه عامل مساعد ممتاز ، مما اضطر الألمان الى تحويل قوات مهمة الى الشمال لصد الاندفاع الأمريكى وتمكن باتون من قطع خطوط العدو حول تريير وتحطيمها ، وبذلك تم تطويق المدافعين عن خط سيجفريد المخيف ، ولم تمض بضعة أيام حتى توقفت كل مقاومة منظمة للعدو فى هذه الناحية •

وكنتيجة فرعية لهذا الانتصـــار ، قامت الفرقة الأمريكية الخامسة بعبور نهر الراين على بعد خمسة عشر ميلا الى الجنوب من ماتينز .

وبعد معارك مستمرة دامت ستة أسابيع على جبهـة طولها مائتـان وخمسون ميلا ، اضطر العدو الى الانسحاب الى ما وراء الراين ، بعد أن منى بخسائر لا يستطيع تعويضها فى الرجال والعتاد ، هذا وقد لعبت قوات الحلفاء الجوية دورا بارز الأهمية فى هزيمة العدو ، وانزال الفوضى بقواته ، ووقتها تدخل سلاح الجـو الألمانى المنهار ، كمـا كانت الغارات المستمرة التى تشنها قاذفاتنا الثقيلة ؛ سببا فى انقاص انتاج الزيت عند الألمـان الى درجة كبيرة ، وفى تخريب مصانعه ومواصـلاته ، بحيث أرغمتها تقريبا على التوقف .

وقد رغبتُ فى أن أشهد مع جيوشنا عبور الراين ، وأخذت معى سكرتيرى جوك كولفيل ومرافقى البحرى تومى ، وطرنا الى مقر القيـادة البريطـــانية ؛ على مقربة من فيناو ، وانتقلنا بعد ذلك الى عربة خرائط مونتجمرى واطلعت على جميع الخرائط التى أعدتها مجموعة منتقاة من الضباط ، أوضحوا فيها جميع الخطط المتعلقة بهجومنا وتوزيع قواتنا . وكان علينا ان نشق طريقا لنا عبر النهر فى عشر نقاط على جبهة تمتـد عشرين ميلا من رينسبرج الى ريس ، وتقرر أن نستخدم جميع مواردنا ، حيث يوجد ثمانون ألف جندى يؤلفون مقدمة جيوش يبلغ تعداد رجالهـا مليونا على الأقل ، كما كان يوجد حشد كبير من القوارب والعوامات على أهبة الاستعداد ، وفى الوقت نفسه كان يقف الجنود الألمان على الطرف الثانى من النهر داخل خنادقهم ، وقد انتظموا وتسلحوا بأحدث معدات الحرب والقوة النازية .

وكنت طبقا لدراساتى أو لاختباراتى فى الحروب ، أشك فى أن يصبح أى نهر حاجزا طبيعيا للدفاع ضد عدو متفوق ، ولهذا فقد كنت أعلق آمالا ضخمة على المعركة ، حتى قبل أن يشرح لى الماريشال الخطط التى وُضعت لها ، يضاف الى ذلك أننا أصبحنا لنا السيادة المطلقة فى الجو .

هذا وقد أراد القائد العام أن يوضح لى بصورة خاصة طريقة انزال فرقتين محمولتين فى الجو تضمان نحوا من أربعة عشر ألف رجل مع مدافعهم ومعدات الهجوم ، وراء خطوط العدو . وكان قد أعد لى مكانا فوق رابية لكى أراقب فيه من الصباح حركات الهبوط من الجو ، وعند الضـــحى سمعنا هدير الطائرات الهائل فوق رءوسنا ورأينا أسرابها تنـدفع من

الأفق ، وتعود بعد أن تتم قصف مواقع العدو ، الا أننى شعرت بالأسى عندما رأيت الطائرات فى أثناء عودتها وبعضها يتصاعد منه الدخان والبعض الآخر ينبعث منه اللهب ، كما رأيت أيضا فى هذه اللحظة بقعا صغيرة تندفع عائمة نحو الأرض ، مما سبب لى الما قاسيا جدا ٠

ثم أخذت أطوف بالسيارة فى جولة طويلة من نقطة الى أخرى مارا بمختلف قيادات الفيالق ، وقد سارت الامور على ما يرام طوال ذلك اليوم وتركزت الفرق الأربع المهاجمة وهى الفرقتان الخامسة عشرة والحادية والخمسون البريطانيتان والفرقتان « الثلاثون والتاسعة والسبعون الأمريكيتان » تركزت عبر النهر وأقامت رءوس جسور بجوار النهر تمتد خمسة آلاف ياردة ، كما كان ضرب أسلحة الحلفاء الجوية الذى لا يفوقه فى العنف الا ما حدث يوم الغزو فى نورماندیا ، يشمل أيضا القوات الجوية الاستراتيجية العاملة من بريطانيا والقاذفات الثقيلة العاملة من ايطاليا ، والتى توغلت الى مسافات بعيدة فى ألمانيا ٠

وعندما عدنا فى المساء الى عربة الخرائط ، أتيحت لى فرصة رؤية أساليب مونتجمرى فى ادارة دفة المعركة ، حيث رأيت سلسلة متعاقبة من الضباط الشبان لا يتجاوز أعلاهم مرتبة الرائد ، يتوافدون واحدا بعد الآخر مدة ساعتين ، وقد عاد كل منهم من أحد قطاعات الجبهة ، وهؤلاء الضباط هم الممثلون الشخصيون المباشرون للقائد العام ، وفى وسعهم أن يذهبوا الى أية جهة يريدونها ، وان يوجهوا أى سؤال الى القادة فى الاماكن التى يذهبون اليها كما يبلغونهم أوامر القائد العام ، وعندما قدم كل منهم تقريره وأجاب على أسئلة القائد العام الكثيرة والدقيقة والشديدة الاهتمام بكل شىء ، اتضحت القصة الكاملة لمعركة اليوم ، وكانت هذه خير طريقة للتثبت من الوقائع التى تسردها التقارير الواردة من مختلف القيادات والقادة ، والتى عهد الى الجنرال دى جوينجانير رئيس أركان حرب لمونتجمرى دعنا نعبر به النهر لنلقى نظرة على الضفة الأخرى ، فوافق ، الوسيلة التى يستطيع القائد العصرى بوساطتها أن يرى وان يقرأ ما يقع فى كل جزء من أجزاء الجبهة ٠

وقد ذهبنا فى اليوم التالى الموافق الخامس والعشرين من مارس لمقابلة أيزنهاور ، واجتمعنا به ، وكان معه حشد من القادة الأمريكيين ، وبعد ان تحدثنا فى مختلف الشئون ، قال ايزنهاور ان هناك بيتا على الطرف الذى نقف عليه من الراين ، وهو يبعد نحو عشرة أميال من هنا ، ويمكن

مشاهدة النهر والضفة الثانية منه بصورة واضحة ، واقترح ان نذهب الى ذلك البيت ، وقد وجدنا على مقربة من ضفتنا قاربا بخاريا صغيرا ، فقلت لمونتجمرى دعنا نعبر به النهر لنلقى نظرة على الضفة الأخرى ، فوافق ، وبعد أن قام ببعض التحريات شرعنا فى عبور النهر ومعنا أربعة من القادة الامريكيين وستة من الجنود المسلحين ، ونزلنا بمنتهى الهدوء على الجانب الألمانى وسرنا هناك على الضفة نحوا من نصف ساعة دون أن يزعجنا أحد ٠

وعندما عدنا طلب مونتي ، أن نذهب الى الجسر الحديدى فى ويل ٠ لنرى بأنفسنا ما يجرى هناك ، فركبنا سيارة الى هناك حيث كان الألمان يردون على نيراننا بقذائف كانت تتساقط فى مجموعات أربع على بعد نحو ميل منا ، كما سقطت عدة قذائف أخرى بين السيارات التى كانت خلفنا ، ولهذا فقد تقرر أن نبتعد عن هذا المكان ، وقد عدنا الى مقر القيادة ثانيا ٠

هذا ؛ وقد واصلت جيوشنا تقدمها ، وفى ختام الشهر ، كنا قد استولينا على مسطح كبير يمتد الى الشرق من نهر الراين ، استطعنا منه أن نشن عملياتنا الرئيسية الى داخل ألمانيا الشمالية ، أما فى الجنوب فان الجيوش الأمريكية على الرغم من مواجهتها مقاومة جدية الا أنها تقدمت تقدما عظيما ، بفضل شجاعتها ، كما تم عبور الراين فى أماكن أخرى الى الجنوب من كوبليتز وعند وورمز ، ووصل الجيش الأمريكى الثالث فى التاسع والعشرين من مارس الى فرانكفورت ، وتم تطويق حوض الروهر وحماته الذين يبلغ تعدادهم ثلثمائة وخمسة وعشرين ألفا ، وبذلك فقد انهارت جبهة ألمانيا الغربية بأكملها ٠

وعلى هذا الأساس ، فقد استعلمت عن الخطة الإستراتيجية التى أعدتها قيادة الحلفاء العليا لتقدم الجيوش الأنجلو ـ أمريكية ، وأبرق الىّ الجنرال ايزنهاور يقول :

اقترح أن نزحف شرقا ، لنلتقى مع الروس ، أو لنقيم خطا عاما على نهر الالب ، وأرى أن هذا يتوقف على رأى الروس . وان محور كاسيل ـلايبزج ، هو خير مكان للزحف ، اذ سيضمن اجتياح تلك المنطقة الصناعية الهامة ، التى يعتقد بأن الوزراء الألمان قد انتقلوا اليها ، كما انه سيشطر القوات الألمانية شطرين ، ولن يقحمنا فى مشكلة عبور نهر

الألب ، وأن هذه الخطة تستهدف تجزئة ما تبقى للعدو من قوات رئيسية في الغرب وتحطيمها •

هذا هو الاتجاه الأساسي لزحفنا ، واذا لم يتضح لنا أن تركيز جميع جهودنا على هذا الاتجاه ، لم يعد ضروريا ، فانني على استعداد لأن أوجه جميع قواتي لأضمن نجاح هذا الهدف •

وعندما نتأكد من نجاح الاندفاع الرئيسي ، فانني أقترح القيام بتطهير الموانئ الشمالية ، وهي عملية تساعد على عبور نهر الألب من ناحية كييل ، وسيكون مونتجمري مسئولا عن هذه العمليات ، وأنا أعتزم زيادة القوات العاملة تحت امرته اذا رأيت ذلك ضروريا لأداء العمل المطلوب منه •

وعلمت أيضا ، أن ايزنهاور ، قد أعلن سياسته هذه في برقية مباشرة بعث بها الى ستالين في الثامن والعشرين من مارس ، أخبره فيها انه بعد عزل نهر الروهر ، سيندفع مباشرة على محور ويرفورت ـ لايبزيج ـ دريسدن ، ليلتقي بالجيوش الروسية ، وليشطر ما تبقى من قوات ألمانيا ؛ وسيقوم بتقدم فرعي آخر عبر ريفينسبرج الى ليتر ، حيث يتوقع أيضا الالتقاء بالجيوش الروسية وليحول دون تركيز المقاومة الألمانية في الكمائن الموجودة في جنوبي ألمانيا •

وقد وافق ستالين في الحال على اقتراحات ايزنهاور ، وقال بأنها تتفق تمام الاتفاق مع الخطة التي وضعتها القيادة العليا السوفييتية ، وأضاف ستالين يقول :

أما برلين فقد فقدت قيمتها الاستراتيجية السابقة ، ولهذا فان القيادة العليا السوفييتية تعتزم تحويل قوات ثانوية في اتجاه برلين ، ولكن الأحداث التالية كانت تتعارض تماما مع هذا البيان » •

ولما كان هذا الموضوع مهما للغاية فقد أبرقت الى الرئيس في أول ابريل أقول :

« من الواضح أنه اذا نحينا جانبا كل عائق ، وتجاهلنا كل انحراف ، فان الواجب يقضي على جيوش الحلفاء في الشمال والوسط ، ان تتجه الآن وبأقصى سرعة ممكنة نحو نهر الألب ، وهنا يكون المحور مرتكزا على برلين . أما الجنرال ايزنهاور ، فبالنسبة الى تقديراته لمقاومة العدو والتي أعلق

عليها بدورى أهمية عظمى ، يود الآن أن يوجه المحور نحـــو الجنوب ليضرب فى اتجاه لايبزيج ، وحتى فى اتجاه دريسون فى الجنوب البعيد ، واننى لأقول بمنتهى الصراحة ، ان برلين ما زالت على جانب كبير من الأهمية الاستراتيجية ، فلا شيء يمكن أن يؤدى الى التأثير نفسيا والايحاء باليأس لجميـــع قوات المقاومة الألمانية من سقوط برلين نفسها ، انها ستكون الدليل الأكبر على الهزيمة بالنسبة الى الشعب الألمانى ، أما اذا تُركتْ منفردة ليحاصر الروس ما تبقى من حطامها ، وليظل العلم الألمانى خفاقا فوقها ، فانها ستبعث المقاومة والحيوية عند جميع الالمان الذين يحملون السلاح ٠

وهناك أيضا ناحية أخرى ، أرى من الجدير بنا ، ان نجعلهـا موضـــع الاعتبار ؛ فلا ريب أن الجيوش الروسية ستجتاح جميع أراضى النمسا ، وتدخل الى فيينا ، واذا كانوا هم الذين سيدخلون الى برلين أيضا ،أفلا يؤدى الى أن الانطباع الذى يحملونه بأنهم هم الذين أسهموا اســـــهاما أكبر فى نصرنا المشترك ، سيتركز فى عقولهم بشكل لا ضرورة له ، كما يؤدى هذا أيضا الى قيام حالة فكرية لديهم تثير لنـــا الكثير من المتاعب الخطيرة والقاسية فى المستقبل ، ولهذا فانى أرى من الناحية السياسية أن علينا أن نسرع بالزحف شرقا الى المانيا بأقصى سرعة ، حتى اذا وقعت برلين فى قبضتنا فاننا نستولى عليها ، ويبدو لى أن هذا الرأى سليم من الناحية العسكرية أيضا » ٠

ولكن حالة الرئيس الصحية ، كانت فى هذا الوقت ، قد ساءت الى الحد الذى أصبح فيه ، الجنرال مارشال ، هو الذى يعالج هذه القضايا الخطيرة ، وان كنت لم أكن أعرف هذه الحقيقة ، وقد رد المســـئولون فى الولايات المتحدة بما معناه ، ان خطة أيزنهاور تبدو متفقة مع الاستراتيجية المتفق عليها ومع توجيهات واشنطن ، فقد كان يوزع عبر الراين فى الشمال أقصى ما يمكن استخدامه من قوات ٠ المجهود الثانوى الى الجنوب ، فقد كان يحقق نجاحا بارزا ، ويجرى إستغلاله بقدر ما تسمح به ظروف التموين كما أنهم على ثقة من أن عمل القائد الأعلى ، سيضمن الموانى وكل ما ذكره البريطانيون بصورة أكثر حسما من الخطة التى يقترحها البريطانيون ٠

وقالوا ان معركة ألمانيا قد وصلت الى الحد الذى يجب أن يترك فيه الى قائد الميدان ، الحكم على الاجراءات التى يجب عليه ان يتخذها ، وأن يقرر بنفسه هذه الاجراءات ، وليس من الحكمة فى شيء أن نبعد أنظاره بصورة متعمدة عن الاستغلال ما يبدو على العدو من ضعف فالهدف الوحيد يجب أن يكون النصر السريع الكامل . وعلى الرغم من أن واشنطن تدرك وجود عوامل لا تعنى القائد العام مباشرة ، الا انهم يظنون أن مفاهيمه الاستراتيجية سليمة كل السلامة .

كما أكد لى أيزنهاور نفسه ، انه غير غافل مطلقا عن الأهمية العظمى فى الزحف نحو الساحل الشمالى ، على الرغم من أن برقيتك التى أرسلتها الى والتى ترغبون فيها تحقيق أهداف ذات أهمية عظمى بالنسبة للسياسة العامة ، وانى لأرى النقطة التى أشرت اليها فى هذا الصدد بكل وضوح . كما أنه لكى أضمن نجاح مجهود من المجهودات التى خططتُ لها ، فاننى أركز جهودى أولا على الوسط ، لأحصل على الوضع الذى أحتاج اليه ، وأرى كما يبدو لى الآن ، أن الخطوة التالية التى يجب أن نقوم بها ، هى أن نسمح لمونتجمرى بعبور نهر الألب ، وأن نعزز قواته بما تقضى به الضرورة من قوات أمريكية ليصل الى خط يضم لوبيك على الشاطيء ، واذا كانت المقاومة الألمانية من الآن فصاعدا ، ستنهار حتما ، ففى وسعك ألا ترى فرقا كبيرا فى الزمن ، بين ما أراه من كسب موضع فى الوسط ، وما تراه أنت من عبور نهر الألب ، أما اذا كانت المقاومة الألمانية ستستمر فاننى أرى من الضرورى جدا ، أن أركز كل مجهود على حدة ، والا أسمح لنفسى بالتشتت والضياع فى محاولة القيام بجميع المشروعات فى وقت واحد .

ومن الطبيعى ، انه اذا وقع الانهيار فجأة فى أية لحظة وفى كل مكان من الجبهة فسنندفع الى الأمام بسرعة وستكون لوبيك وبرلين بين أهدافنا المهمة .

وبعد أن شكرته قلت له اننى لا أزال أعلق أهمية كبرى على دخول برلين وهى كما يبدو من رد موسكو ، مفتوحة أمامنا ، إذ قالت فى البرقية ، ان برلين قد فقدت أهميتها الاستراتيجية السابقة ، واننى أرى من الأهمية بمكان عظيم أن نلتقى بالروس فى أبعد نقطة الى الشرق ، مهما كانت الأسباب ، اذ قد تحدث أشياء كثيرة فى الغرب قبل أن يبدأ ستالين هجومه الرئيسى .

ورأيت من وجبى أن أنهى هذا النقاش ، وأن أسجل اعتقادى بأنه لا بد أن يكون قد تغلبتْ على واشنطن آراء أطـول مدى وأوسـع أفقـا كما أنه من الحق أن يقال ان التفكير الأمريكى ، لا يهتم مطلقـا بالقضايا التى تبدو ذات علاقة بالتوسع الاقليمى . وقد اتضح لى أن نقاط الخلاف بيننا لم تكن كبيرة الاهمية بالنسبة الى قادة الولايات المتحدة ، ولكن هذه النقاط قد لعبت دوراً مسيطرا فى مصير أوروبا •

وفى وسعنا الآن أن نرى الفجوة المخيفة التى قامت بين اضمحلال قوة الرئيس روزفلت ، ونمو قوة الرئيس ترومان وسيطرته على المشكلات العالمية ، ففى هذا الفراغ المحزن ، لم يكن فى وسع رئيس فى طريق الرحيل عن الحياة أن يعمل ، ولا فى وسع رئيس جديد أن يعرف ، ولم يكن القادة العسكريون ؛ ولا رجال وزارة الخارجية يتلقون التوجيه الذى يحتاجون اليه ، فالأوائل حصروا أنفسهم فى مجالاتهم المهنية ، والآخرون لم يفهموا القضايا الخطيرة التى تنطوى عليها الاحتمالات ، وهكذا فقـد التوجيه السياسى الذى لا مندوحة عنه ، فى اللحظة التى كان الجميع فى أشد الحاجة اليه ؛ ووقفت الولايات المتحدة على مسرح النصر مسيطرة على مصير العالم . دون أن يكون لها تصميم صادق أومنسجم ، أما بريطانيـا فعلى الرغم من قوتها الكبيرة جدا ، فقد كانت عاجزة عن تقرير الأمن بشكل حاسم وحدها ؛ ولم يكن فى وسعى فى هذه الرحلة أن أفعل غير التحذير والرجاء •

وهكذا فقد أصبحتْ هذه الذرة من النجاح الظاهرى الذى لا حدود له من أكثر اللحظات ألما وشقاء على نفسى ، وكنت أسير بين الحشود الهاتفة أو أجلس الى المائدة التى ازدانت برسائل التهانى والتبريك ، وقلبى ينصهر بالألم كما كان عقلى واقعا تحت كابوس من المخاوف والقلق •

فلقد جـاء تحطيم القوة العسكرية الألمانية معه بتبدل جوهرى فى العلاقات بين روسيا الشـيوعية والديموقراطية الغربية ، فبعد أن تحطم عدوهما المشترك . الذى كان هو الرباط الوحيد الذى يشدهما ويوحّـد بينهما ، بدأت الاستعمارية الروسية والعقيدة الشيوعية فى فرض سيطرتهما المطلقة التى لا تحدها قيود •

وما كنت لأكتب هذه القصة الآن ، بعد أن اتضح كل شيء في ضوء النهار الســـاطع ، لو لم أكن آن ذاك أعرف كل شيء ، وأحس بكل شيء عندما كان كل ما حولنا غامضا ، وكان النصر الذى حققناه ، يضاعف من هــذه الظلمة الداخلية فى القضايا الانسانية ، واننى أترك للقارىء وحده أن يحكم لنا أو علينا .

الستار الحديدي (١)

بعد أن مرت عدة أسابيع على مؤتمر يالتا ، اتضح لنا أن الحكومة السوفيتية لم تنفذ ما اتفقنا عليه ، حول زيادة عدد رجال الحكومة البولندية ، لتشمل جميع الأحزاب البولندية ، والفريقين المتنازعين ، كما رفض مولوتوف أن يعطى رأيا فى البولنديين الذين ذكرنا اسماءهم ولم يسمح لأى منهم بالمجيء حتى ولا الى مؤتمر تمهيدى على مائدة مستديرة وكان قد عرض علينا ارسال مراقبين الى بولندا ، الا أننا عندما أبدينا استعدادنا لذلك ، أفزعه قبول هذا العرض السريع : واحتج بأمور عدة ، منها : أن هؤلاء المراقبين ، قد يقللون من سمعة الحكومة البولندية المؤقتة فى لوبلين ، ولذا فان محادثات موسكو لم تحقق أى تقدم ، وكان الوقت الى جانب الروس وانصارهم من البولنديين الذين أخذوا يشددون قبضتهم على البلاد بمختلف الوسائل ، والأساليب ، التى لم يكونوا راغبين فى اطلاع العالم الخارجى عليها على طريق المراقبين.

وفى احدى الأمسيات ، عندما كنت أتحدث فى مجلس العموم عن نتائج جهودنا فى مؤتمر يالتا ، وقع أول نقض لاتفاقنا فى رومانيا من جانب الروس ، مع أننا كنا قد التزمنا فى الاعلان الذى أصدرناه عن أوروبا المحررة ، والذى وقّعناه قبل مدة قريبة ، بأن نضمن انتخابات حرة قيام حكومات ديموقراطية فى البلاد التى تحتلها جيوش الحلفاء .

ولكن فيشنسكى الذى وصل الى بوخارست فجأة فى السادس والعشرين من شهر فبراير ، طلب فى اليوم التالى ، مقابلة الملك ميخائيل وأصر على وجوب طرد الحكومة الممثلة لجميع الأحزاب والتى تم تأليفها بعد الانقلاب الملكى فى شهر اغسطس عام ١٩٤٤ والتى قامت بطرد الألمان من رومانيا ، الا أن الملك يؤيده وزير خارجيته فيسويانو أجل هذه الطلبات حتى اليوم التالى ، وعندما قام فيشنسكى بزيارة الملك ثانية رُفِضَ طلب الملك السماح له على الأقل باستشارة زعماء الأحزاب

السياسية ، وضرب بقبضة يده على المائدة ، وصرخ طالبا الاذعان الفورى ثم خرج من الغرفة بعد أن رد الباب وراءه بعنف ، وفى هذه الأثناء انتشرت القوات السوفيتية بدباباتها فى شوارع العاصمة ، وتولت الحكم الادارة التى اختارها الروس فى السادس من شهر مارس •

وقد أزعجتنى هذه الأنباء كل الازعاج ، لأنها كانت دليلا على ما يجب أن ننتظره من أحداث ، لكننا لم نستطع الاحتجاج ، لأننى كنت قد وافقت أنا والمستر ايدن فى أثناء زيارتنا لموسكو فى شهر ديسمبر الماضى على أن تكون لروسيا الكلمة الأولى فى رومانيا وبلغاريا ، وأن تكون لنا الكلمة الأولى فى اليونان ، وكان ستالين قد حافظ باخلاص ودقة على هذا الاتفاق ، طيلة الأسابيع الستة التى دار فيها القتال ضد الشيوعيين وضد جيش التحرير « ايلاس » فى مدينة أثينا .

وقد كنت آمل ، بعد أن عاد الهدوء والسلام الآن فى اليونان ، أننا سنتمكن فى الأشهر القليلة القادمة من إجراء انتخابات حرة نزيهة واننا بعد ذلك سنتمكن من ضمان قيام دستور وحكومة طبقا لارادة الشعب اليونانى التى لا تعارض ولا تقاوم •

ولكن ستالين كان يسير فى البلدين الآخرين الواقعين على البحر الأسود على سياسة مغايرة تماما لسياستنا ، بل ومتعارضة تماما مع كل فكرة ديموقراطية ، وكان قد أقر على الورق مبادىء يالتا ، وها هو يدوس عليها بقدمه فى رومانيا ، وكنت أخشى أننى اذا ضغطت عليه ، أن يرد على قائلا : « اننى لم أتدخل فى عملكم فى اليونان ، فلماذا لا تعطوننى الفرصة نفسها فى رومانيا » ، كما كنت أخشى بصورة خاصة ، أن تقوم هذه الحكومة بعمليات تطهير عمياء ضد العناصر المعادية للشيوعية فى رومانيا على غرار ما هو متبع الآن فى بلغاريا .

وهكذا أخذت السياسة السوفيتية تزداد وضوحا يوما بعد يوم ، كما أخذ يتضح لنا ما تجنيه من فوائد ، عن طريق سيطرتها المطلقة التى لا رقابة عليها ولا اشراف على بولندا : حيث طلب الروس أن تمثل بولندا فى المؤتمر المقبل الذى ستعقده الأمم المتحدة فى سان فرانسسكو ، وأن يقتصر هذا التمثيل على حكومة لوبلين ، وعندما رفضت الدول الغربية هذا الطلب ، رفض السوفييت السماح لمولوتوف بحضور المؤتمر ، وكان هذا التطور يهدد أى تقدم فى سان فرانسسكو بل ويهدد الفكرة نفسها بالفشل ، وقد أصر مولوتوف على أن بلاغ يالتا لا يعدو أن يكون مجرد اضافة عدد صغير آخر من البولنديين الى

الحكومة القائمة من « الدمى » الروسية ، واحتفـــظ فى أن يستعمل « الفيتو » ضد ماجولاجيك ، وضد غيره من البولنديين الذين نقترح أسماءهم .

وكان من الواضح أن هذا الأسلوب يرمى الى التسويف والماطلة فى الوقت الذى تكون فيه لجنة لوبلين ماضـــية فى تثبيت أقدامهـــا وسلطانها ، ولم تؤد المفاوضات التى قام بها سفراؤنا الى أى أمـل فى الوصول الى تسوية بولندية مشرّقة .

وكنت على ثقة ، من أن خير طريقة لايقاف مولوتوف عند حده ، هى أن أبعث برسالة شخصية الى ستالين ، ولذلك فقد ناشدت الرئيس أن نوجه رسالة مشتركة على أرفع مستوى ، ولكن لسوء الحظ ، كان المرض قد اشتد عليه ، وكان اتجاه وزارة الخارجية منصرفا الى تجنب تأزيم الأمور والرئيس فى هذه الحالة من الضعف ، والى إلقاء العبء على السفراء فى الخارج وفى موسكو بالذات . حقا لقد كانت أسابيع باهظة الثمن كلفتنا جميعا الغالى من النتائج .

وفى هذه الأثناء كانت تدور بين الحكومتين البريطانية والأمريكية من ناحية وبين السوفيت من ناحية أخرى رسائل أكثر مرارة وأهمية تتناول قضية مختلفة كل الاختلاف عن هذه القضايا ، فقد ادى تقدم الجيوش السوفيتية وانتصارات اليكساندر فى ايطاليا ، وفشل الهجوم الألمـانى المضـاد فى الأردين ، وزحف أيزنهاور على الراين ، إلى اقناع جميع الألمـان ماعدا هتلر ، وأفراد بطانته الأقربين ، بأن استسلام ألمانيا أصبح أمرا لا مفر منه ولا مناص ، وكان الســـؤال الذى يتوارد فى خواطرهم ، ترى لمن يجب أن نستسلم ؟ ولما كان لم يعد فى وســـع ألمانيا أن تخوض حربا فى جبهتين ، كما كان الصلح مع السوفييت أمرا محالا كما هو الظاهر ، فلم يبق أمامهم الا الحلفاء فى الغرب ، وكانوا يسائلون أنفسهم ، الا يمكن والحالة هذه أن نعقد هدنة مع بريطانيـا وأمريكا ؟ فلو تمكنوا من عقد هدنة مع الغرب ، فان فى وســـعهم أن يركزوا قواتهم لوقف الزحف الروسى ، وكان هتلر وحده الذى يعارض فى ذلك ، حيث قد انتهى الرايخ الثالث ، وعزم على أن يموت معه ، وقد حاول عدد من أتباعه اجراء اتصالات سرية مع الحلفاء الغربيين ، ولكن جميع اقتراحاتهم رُفضت بالطبع ، وكان شرطنا الوحيـــد الاستسلام بلا قيد أو شرط فى جميع الجهات ، كما سُمِحَ فى الوقت نفسه لقوادنا فى الميدان بصلاحيات مطلقة لقبول أية استسلامات عسكرية من جانب

قوات العدو التى تواجههم ، وقد ادت المحاولة الى ترتيب ذلك — فى الوقت الذى كنا لا نزال نحارب فيه على حوض الراين — الى سوء تفاهم بين الروس وبين الرئيس الأمريكى الذى وقفتُ الى جانبه .

فقد اتصل الجنرال كارل وولف قائد قوات الحرس الهتلرى فى ايطاليا فى شهر فبراير عن طريق الوسطاء الايطاليين ، بدوائر المخابرات الأمريكية فى سويسرا ، وقرر فحص وثائق اعتماد الأشخاص الذين شملهم الاتصال ، واعطى للواسطة الإسم الرمزى « الكلمات المتقاطعة » .

وجاء الجنرال وولف نفسه فى الثامن من مارس الى زيوريخ ، وقابل المستر الن دالس رئيس منظمة المخابرات الأمريكية ، وقد قيل له بحزم وصراحة ، « ان ليس ثمة مجال لأية مفاوضات من أى نوع » وان المضى فى الاتصالات يجب أن يستهدف الاستسلام بلا قيد ولا شرط ، ولا شىء غيره ، وقد نقلتُ هذه المعلومات بسرعة الى مقر قيادة الحلفاء فى ايطاليا والى الحكومات الأمريكية والبريطانية والسوفييتية ، كما وصل الى سويسرا فى الخامس من مارس رؤساء أركان الحرب البريطانيون والأمريكيون فى سايبسترا بايطاليا ، متنكرين ، وعقدوا بعد أربعة أيام اجتماعا استطلاعيا آخر مع الجنرال وولف .

وقد أدركتُ على الفور ، أن شكوك الحكومة السوفييتية قد تثار من جراء استسلام عسكرى منفصل فى الجنوب يمكن جيوشنا من التقدم دون مقاومة الى فينا والى ما وراءها ، وحتى الى نهر الآب وبرلين ويضاف الى هذا ، أنه لما كانت جميع الجبهات المحيطة بالمانيا جزءا لا يتجزأ من حرب شاملة ضد المانيا ، فان الروس سيتأثرون بطبيعة الحال ، من أى عمل قد يقع فى أية جبهة من هذه الجبهات .

واذا كنا سنجرى أية اتصالات مع العدو ، رسمية أو غير رسمية ، فيجب اطلاعها عليها قبل حدوثها ، وقد اتبعتُ هذه القاعدة بصورة حتمية ، وأبلَغَ السفير البريطانى فى موسكو ، الحكومة السوفييتية فى الثانى عشر من شهر مارس ، بنبأ الاتصال الجديد ، والمتوقع حدوثه مع الألمانيين ، وأكد لها أن أى اتصال لن يتم قبل وصول الرد الروسى ، وفعلا لم تكن هناك أية محاولة لاخفاء أى شىء عن الروس ، وفى الثالث عشر من مارس أبلغنا الروس ، انه اذا ثبت أن « الكلمات المتقاطعة » ذات أهمية جدية ، فاننا سنرحب بالمبعوثين الروس فى مقر قيادة اليكساندر ، وبعد ثلاثة أيام ، أبلغ مولوتوف السفير البريطانى فى

موسكو ، أن الحكومة السوفييتية تجد موقف الحكومة البريطانية ، « مما لا يمكن تفسيره أو فهمه ، بالنسبة لرفضها منع التسهيلات اللازمة للروس لارسال مبعوثيهم الى بون » ، كما سلّمت الحكومة السوفييتية مذكرة مماثلة الى السفير الأمريكى .

وصدرت التعليمات الى سفيرنا فى موسكو ، بابلاغ الحكومة السوفييتية ثانية ، أن الغرض الوحيد من الاجتماعات ، كان للتأكد من أن الألمان كانوا يملكون الصلاحيات للتفاوض على استسلام عسكرى، وأن النية متجهة الى دعوة المبعوثين الروس للمجىء الى مقر قيادة الحلفاء فى سايبسترا ، وقد نفّذ السفير هذه التعليمات ولكن مولوتوف سلمه فى اليوم التالى ردا تضمن الآتى :

« كانت المفاوضات تدور فى بون « خلال أسبوعين ، من وراء ظهر الاتحاد السوفييتى الذى يحمل وحيدا عبء الحرب ضد ألمانيا » ، بين ممثلين للقيادة العليا الألمانية من ناحية وممثلين للقيادتين الانجليزية والأمريكية من الناحية الأخرى » .

وقد أوضح السير ارشيبالد كلارك كير بالطبع ، أن السوفييت قد أساءوا فهم ما وقع ، وان هذه المفاوضات لم تكن أكثر من مجرد محاولة لاختبار وثائق اعتماد الجنرال وولف وصلاحياته ، ولكن تعليق مولوتوف كان جافا ومهينا ، فقد كتب يقول « اذن ففى مثل هذه الحالة ، لا ترى الحكومة السوفييتية مجرد سوء تفاهم ، بل ما هو أسوأ من ذلك » ، كما حَمَلَ على الحكومة الأمريكية بالأسلوب نفسه .

ولهذا فقد رأيت من الضرورى اطلاع كل من مونتجمرى وايزنهاور على رسالة مولوتوف .

وقد انزعج الجنرال ايزنهاور انزعاجا شديدا من هذه الرسالة وبان عليه الغضب من جراء ما اعتبره تُهَماً غير عادلة ولا أساس لها من الصحة ، وقال انه كقائد عسكرى ، مستعد لقبول أى استسلام غير مشروط من أية مجموعة من قوات العدو فى جبهته ، مهما كان حجم هذه المجموعة ، سواء كانت سرية أو جيشا بأكمله وأنه يعتبر هذا الموضوع قضية عسكرية بحتة ، وأن لديه السلطات الكاملة لقبول مثل هذا الاستسلام ، دون أن ينتظر معرفة رأى أى انسان ، أما اذا ظهرت مسائل سياسية ، فانه على استعداد لاستشارة الحكومات المعنية فورا،

كما أعرب عن خشيته من أن اقحام الروس فى موضوع احتمال استسلام قوات كيسلرنج وهو احتمال يستطيع هو أن يبت فيه بنفسه ، فى غضون ساعة ، قد يؤدى الى اطالة أمد المحادثات ثلاثة أسابيع أو أربعة مما لا ينتج عنه الا شىء واحد ، وهو الحاق خسائر فادحة بقواتنا ، وأوضح أنه سيصر فى حالة وقوع استسلام ، أن تضع جميع القوات العاملة تحت امرة القائد طالب الاستسلام أسلحتها ، وأن تقف دون أى عمل الى أن تتلقى أوامر جديدة ، بحيث لا تتاح لها الفرصة ، للانتقال عبر ألمانيا لمقاومة الروس مثلا .

وكنت أرى أن هذه القضايا ، يجب أن تترك لتقدير القائد العسكرى نفسه ، وأن على الحكومات ألا تتدخل الا فى حالة ظهور مشكلات سياسية ، ولم أستطع أن أرى ، لماذا يجب أن نأسى وأن نتألم ، اذا تمكنا عن طريق استسلام جماعى فى الغرب من الوصول الى نهر الألب ، أو الى ما وراءه قبل ستالين ، ويُذكرنى جوك كولفيل بأننى قلت له تلك الليلة :

« اننى لا أحب التفكير فى تجزئة ألمانيا قبل أن تتبدد شكوكى تجاه نوايا روسيا » .

وتلقيت فى الخامس من ابريل ، من الرئيس روزفلت ، النصوص المذهلة للمخابرات التى جرت بينه وبين ستالين .

فقد كتب ستالين يقول : « لا شك فى أنك محق كل الحق ، انه بالنسبة الى القضية المتعلقة بالمفاوضات بين القيادة الأنجلو - أمريكية ، والقيادة الألمانية ، فى مكان ما ببرن أو فى غيرها ، فان جوا من الشكوك والمخاوف يستحق الأسف ، قد خلق بيننا » .

« وانك لتصر على أن أية مفاوضات لم تُدرْ بعد ، وقد يقال انك لم تطلع على الموضوع تماما ، أو لم يطلعوك عليه ، ولكن زملائى من العسكريين لا يساورهم أدنى شك فى أن المفاوضات قد وقعت فعلا ، وانها انتهت بالاتفاق مع الألمان على اساس قيام القائد الألمانى فى « الجبهة الغربية » الماريشال كيسلرنج بفتح جبهته ، والسماح للقوات الأنجلو - أمريكية ، بالتقدم شرقا ، فى حين وعد الأنجلو ، أمريكيون الألمان مقابل ذلك بتسهيل بنود الصلح وتخفيفها » .

« وكنتيجة لهذا ، فان الالمانيين فى الوقت الحاضر ، قد توقفوا فعلا عن الحرب ضد انجلترا والولايات المتحدة ، فى حين هم يواصلون فى الوقت نفسه الحرب ضد روسيا ، حليفة انجلترا والولايات المتحدة » .

وقد أغضب هذا الاتهام الرئيس روزفلت ، ولم تكن صحته لتسمح له بأن يكتب رده بنفسه ، فقام الجنرال مارشال بصياغة الرد الذى وافق عليه روزفلت ، وجاء فيه :

« ثقة منى بأنك لا تشك فى استقامتى الشخصية ، وتصميما منى على الحصول معك على استسلام غير مشروط من النازيين ، يدهشنى ان أسمع بأن الحكومة السوفييتية قد تَسَلَّطَ عليها الاعتقاد بأننى قد توصلت الى اتفاق مع العدو ، دون أن أحصل مقدما على موافقتك التامة ، وأود أن أقول أخيرا : انها ستكون من أشد مآسى التاريخ ايلاما ، اذا كنا فى ساعة النصر الذى أصبح فى متناول أيدينا ، ثم يقوم بيننا مثل هذا الجو من عدم الثقة ، والافتقار الى الايمان ، مما يؤثر حتما على كل ما قمنا به بعد هذه التضحيات الكبيرة فى الأرواح والأموال والموارد.

وأود أن أصارحك بأننى لا أستطيع أن أكتم الشعور بالسخط الشديد على مُخْبِريك ، أيا كانوا ، على مثل هذا التشويه اللئيم لتصرفاتى وتصرفات مُسَاعِدِيّ الموثوق بهم » .

وقد كتبت اليه فورا ، كما كتبت أيضا الى ستالين ، وتلقيت بعد بضعة أيام شيئا يشبه الاعتذار من الديكتاتور الروسى ، وأبرق الى الرئيس فى الثانى عشر من ابريل يقول : « أفضل أن أقلل من المشكلة السوفييتية العامة الى أقصى حد ممكن ، لأن مثل هذه المشكلات تبدو كل يوم تقريبا ، وأن بعضها يصل الى حد الأزمة ، كما وقع فى حادث اجتماع بون ، وعلينا أن نكون على كل حال متماسكين ، وأعتقد أن السبيل الذى اختططناه كان صحيحا » .

هذا وقد توفى الرئيس روزفلت فجأة بعد ظهر الخميس الثانى عشر من شهر نيسان عام ١٩٤٥ ، وعندما تلقيت هذا النبأ شعرت وكأننى قد اصبت بصدمة قوية على رأسى ، وأحسست بشعور عميق يغمرنى للخسارة الفادحة التى لا تعوض ، وقد اقترحت على مجلس العموم أن تُفَضّ جلستنا اليوم اكراما لذكرى الفقيد العظيم .

وكان أول خاطر جال فى فكرى ، أن أطير الى واشنطن لحضور المأتم ، وفعلا أصدرت أوامرى باعداد الطائرة ، وقد أبرق الى اللورد هاليفاكس يقول : ان هوبكنز وستينيوس قد تأثرا أشد التأثر من فكرتى بالمجىء ، ووافقا بحرارة على قرارى ، الذى قد ينتج عنه الكثير من الخير ، كما طلب اليه المستر ترومان ابلاغى أنه قَدَّرَ شخصيا كل التقدير

أن تتاح له الفرصة للقائى فى أقرب وقت ممكن • وأن أظل بعد تشييع الجثمان يومين أو ثلاثة لنتحدث معا » .

ومع ذلك فقد تعرضت لضغط هائل ، بالا اغادر البلاد فى هذه الفترة الحرجة والكثيرة المصاعب ، ووجدت نفسى مرغما على الاذعان لرغبات أصدقائى ، اما الآن وعلى ضوء ما حدث بعد ذلك فاننى لآسف أشد الأسف على تخلفى عن تلبية اقتراح الرئيس الجديد ، لأنه لم يسبق لى أن اجتمعت به ، واننى لأشعر بأنه كانت هناك نقاط عدة يكون الحديث الشخصى بصددها مهما كل الأهمية ، ولا سيما اذا دارت هذه الأحاديث فى أيام عدة ، ولم تُرْتَجل ، أو تتخذ شكلا رسميا مختصرا ، كما بدا لى « أن من الغرابة بمكان عظيم ، ولا سيما فى بضعة الأشهر الأخيرة » ان روزفلت لم يحاول أن يجعل خلفه المحتمل مطلعا تمام الإطلاع على الأحداث كلها ، كما لم يقحمه مطلقا فى القرارات التى كانت تُتخذ فى ذلك الحين ، وقد برهنتْ هذه السياسة على ضرر كبير لحق قضايانا ، فليس ثمة وجه للمقارنة بين ان يقرأ الانسان الحوادث فيما بعد ، وبين أن يعيش فيها ساعة بعد أخرى ، فكيف يمكن للمستر ترومان أن يعرف جميع القضايا ذات الخطورة ، ونحن فى ذروة الحرب وأن يزنها ؟ ولقد دل ما عرفناه عنه فيما بعد على أنه رجل جرىء وذو عزيمة وقادر على اتخاذ أخطر القرارات وأعظمها ، الا أن مركزه فى الأشهر الأولى كان صعبا كل الصعوبة ، ولم يمكنه من اظهار مواهبه البارزة الى حيز التنفيذ .

وكان أول عمل سياسى قام به المستر ترومان فى الشئون التى تعنينا ، الاهتمام بالقضية البولندية ، من النقطة التى توقفت عندها ، وقد اقترح أن نوجه بيانا مشتركا الى ستالين •

كما اعترف بأن موقف ستالين لا يوحى بالكثير من الأمل ، ولكنه أكد ضرورة قيامنا « بخطوة جديدة » واقترح تبعا لذلك ، أن نبلغ ستالين ، أن سفيرينا فى موسكو قد وافقا دون تردد على دعوة ثلاثة من قادة حكومة وارسو الى موسكو للتشاور ، وأن نؤكد له باننا لا ننكر مطلقا على حكومة وارسو الحق فى أن تلعب دورا بارزا فى تاليف حكومة الوحدة القومية البولندية المؤقتة ، وكانت المشكلة الحقيقية هى : هل تستطيع حكومة وارسو أن تضع « الفيتو » على أسماء أى المرشحين للتشاور ؟

وقد بعثنا برسالتنا المشتركة فى الخامس عشر من أبريل ، وكان

المسيو ميكولاجيك فى اثناء ذلك قد قَبل قرارات مؤتمر القرم المتعلقة ببولندا وفى ضمنها تخطيط حدودها الشرقية على أساس خط كرزون ، فأبلغتُ ستالين بموافقته ، ولما كنتُ لم أتلقَّ ردا ، فقد ظننت أن الديكتاتور قد رَضِيَ عن هذه النتيجة ، هذا وقد أبرق الى المستر ايدن من واشنطن يقول : انه متفق مع المستر ستيتينوس على ضرورة تجديد طلبنا بايفاد المراقبين الى بولندا ، وأن علينا من جديد أن نضغط على الحكومة السوفييتية لوقف مفاوضاتها لعقد معاهدة صلح مع لجنة اوبلين ، ولكن ما كادت هذه البرقية تصل الينا حتى حملت الينا الأنباء أن المعاهدة قد تم توقيعها .

وعندما تبين لى أننا لن نصل الى أى شيء ، أرسلت فى التاسع والعشرين من أبريل البرقية التالية شارحا فيها وجهة نظرى كلها :

« ان من الحق آن يقال اننا وصلنا مع بولندا الى خط محدود من العمل بالاتفاق مع الأمريكيين ، واننا نشعر معا وباخلاص ، بأن معاملتنا قد تغيرت منذ مؤتمر القرم ، حيث كنا متفقين مع الأمريكيين على أن العهد الذى قطعناه على انفسنا ، بقيام دولة مستقلة وحرة ذات سيادة فى بولندا ، ولها حكومتها التى تمثل جميع العناصر الديمقراطية بين البولنديين ، هو قضية واجب وكرامة بالنسبة الينا . وأنا لا أرى أى أمل هناك فى أى تبديل فى موقف دولتينا .

لقد وافقناك بصورة عامة فى مطلع عام ١٩٤٤ على مشروعك لتخطيط الحدود البولندية ـ الروسية ، وفقا لخط كرزون ، مع اضافة لوار الى روسيا ، وأرى ان عليك أن تقابلنا فى منتصف الطريق تجاه السياسة التى اشتركتَ أنت معنا فى اعلانها ، وهى سيادة بولندا واستقلالها وحريتها على شرط أن تكون صديقة لروسيا .

« وهناك متاعب أخرى فى الوقت الحاضر ، بسبب هذه القصص المختلفة التى تخرج من بولندا ، والتى قد تثار فى المجلس أو فى الصحف فى أية لحظة على الرغم من الجهود التى أبذلها للحيلولة دون ذلك ، وعلى الرغم من أن المسيو مولوتوف يضن علينا بأية معلومات فى صددها متجاهلا طلباتنا المتكررة ، فهناك ، مثلا قصة أولئك البولنديين الخمسة عشر ، الذين قيل انهم قابلوا السلطات الروسية ، قبل نحو من أربعة أسابيع للبحث معها ، كما أن هناك قصصا أخرى تتناول أشخاصا قيل انهم أبعدوا من البلاد ، وما شابه ذلك من قصص ، فكيف يسعنى أن أرد على هذه الشكاوى عندما لا أحصل

منكم على أية معلومات ، وعندما لا يسمح لنـا ولا للأمريكيين بارسال أى شخص الى بولنـدا ، ليرى بنفسه حقيقـة ما يدور فيهـا ، مع أنه ليس هناك أى جزء من المناطق التى حررناها أو نحتلها لا تستطيعون ان ترسلوا اليه بعثاتكم ، ولا نعرف ما الذى يحول بينكم وبين قبول زيارات مماثلة تقوم بها وفود بريطانية الى بلاد أجنبيـة قمتم أنتم بتحريرها .

وليس هنـاك من آمال مشرقة ، اذا تطلعنا الى المستقبل ، فرأيناكم فيـه مع البـلاد التى تسيطرون عليها ، ومع الأحـزاب الشيوعية فى العديد من الدول الأخرى ، تقفون فى صـف واحـد ، فى حين يقف فى الجانب الآخـر أولئك الذين يؤيدون الدول النـاطقة بالانجليزية وشريكاتها وممتلكاتها المسـتقلة ، ومن الواضح أن النزاع بين الفريقين سيمزق العالم الى أشلاء ، وسيحل بنا العار جميعا نحن المسئولين عن تولى القيادة أمام التاريخ ، يضاف الى هذا أن الاستمرار فى فترة طويلة من الشكوك والاهانات والرد عليهـا بمثلها ، والسياسات المتعارضة ، سيكون بمثابة كارثة تعرقل التطورات العظيمة للرخـاء العالمى بالنسبة الى الجماهير .

وارجو يا صـديقى ستالين ألا تقلل من الخـلافات التى بدأت تظهر حول قضايا قد تعتبرها صغيرة بالنسبة لنـا ، ولكنها قد تكون معبرة عن الطريقة التى تنظر بها الديمقراطية الناطقـة بالانجليزية الى الحيـاة » .

وأرى لزاما علىّ هنا ان اسجل حادث البولنديين المفقودين الذى أشرتُ اليه فى الفقرة الثانية من البرقية ، والتى أصدرتْ أيضا بشأنه الحكومة البولندية فى المنفى ، بيانا فى لنـدن فى السادس من أبريل كشفتْ فيه الخطوط العريضة لهذه القصة الغريبة ، فقـد اختفى الزعماء البـارزون لحركة المقـاومة السرية البولنـدية دون أن يتركوا أثرا يدل عليهم ، على الرغم من الضمانات التى تلقوها بالمحـافظة على سلامتهم ، وقد وُجّهتْ بسببهم أسئلة عدة فى البرلمان البريطانى ، كما نقلتْ قصص عـدة عن اغتيال الزعماء البولنديين المحليين فى المناطق التى تحتلها الجيوش الروسية واعدامهم ، وكان من أفظع هـذه القصص ما وقع فى سيديلشى فى شرقى بولنـدا ، ولم يعترف مولوتوف الا فى الرابع من مايو وهو فى سان فرانسيسكو بأن هؤلاء القـادة معتقلون فى روسيا ، ثم ذكرت وكالة الأنبـاء الروسية فى اليوم التالى ، أنهم

ينتظرون محاكمتهم بتهمة القيـــام بأعمال تخريبية فى مؤخرة الجيش الأحمـــر .

وقد اعلن ستالين فى الثامن عشر من مايو رسميا ، أن هـــؤلاء الزعماء المعتقلين لم يُدْعَوا مطلقا الى موسكو ، وأكد انهم اعتقلوا لأنهم مخربون ، وسيحاكمون بموجب قانون « يشبه قانون الدفاع عن المملكة فى بريطانيا » وبذلك فانه لم يعد أحد يسمع شيئا عن ضحايا هـــذا الفخ ، حتى بدأت محاكمتهم فى الثامن عشر من يونيو ، وقد جرت هـــذه المحاكمات وفقا للطريقة الشيوعيـــة ، المعهودة ، فقد اتُّهموا بالتخريب والارهاب والتجسس ، واعترفوا جميعـــا باستثناء واحد منهم بجميع التهم التى وجهت اليهم أو ببعضها على الأقل ، وادين ثلاثة عشر منهم وصدرت عليهم احكام بالسجن متفاوتة ، أقصاها عشر ســنوات ، فى حين بُرِّئت ساحة ثلاثة منهم ، وكانت هذه هى التصفية القضـــائية لقيـــادة الحركة السرية البولنـــدية التى قاتلت ببطـولة ضـد هتلر ، أما رجـال هـــذه الحـــركة من الأفراد العـــاديين فقـــد ماتوا تحت أنقاض وارسو .

وفى أثنـــاء ذلك تلقيت ردا علىّ ، غير مشجع من ستالين بتاريخ خمسة مايو وهذا نصه :

« أرى لزاما على أن أذكر عدم موافقتى على الحجج التى اســتندت اليهـا فى تأييد موقفك ولا أستطيع مطلقا أن أشاطرك آراءك ، ولا سيما الفقرة المتعلقة باقتراحك ، بأن تتولى الدول الكبرى الثـلاث الاشراف على الانتخابات ، فمثل هذا الاشراف بالنسبة الى شــعب دولة حليفـــة لا يمكن أن يعتبر الا اهانة له ، وتدخلا صارخا فى شئونه الداخليـــة ، كما ان هذا الاشراف لم يكن ضروريا بالنسبة لبعض الدول التى كانت ضحية مع ألمانيا سابقا ، ثم عادت فأعلنت الحـــرب عليها وانضمت الى الحلفـــاء ، كما هو الحال فى فنلندا ، حيث تمت الانتخابات فيهـــا دون تدخل أجنبى ويجب أن يكون وضع بولندا كدولة مجـــاورة للاتحاد السوفييتى ، أن تكون حكومتها المقبلة صديقة مخلصة ، ويهم الأمم المتحدة ان تقوم هناك صـــــداقة قوية ودائمة بين الاتحـــاد السوفييتى وبولندا ، وعلى ضوء هذا فاننا لا نود أن يشترك فى تأليف الحكومة البولندية المقبلة رجال كما تصفهم انت ليســـوا معـــادين للسوفييت مطلقا ، ان هذا التصنيف لا يعجبنا ولا يرضـينا ، فنحن نُصِرّ وسَنُصِرّ دائما على أن الذين يؤلفون الحكومة البولنـــدية المقبلة

أولئك الذين وقفوا موقفا وديا حقيقيا تجاه الاتحــاد السوفييتى ، والذين هم على استعداد حقا وباخلاص وبأمانة للتعاون مع الاتحــاد السوفييتى .

أما ما ورد فى رسالتك عن المتاعب الناشئة عن شائعة اعتقــال خمسة عشر بولنديا وما أشبه ذلك .

فاننى أستطيع أن أبلغك ان تلك الفئــة من البولنديين الذين تشير اليهم لا تضم خمسة عشر شخصا فقط ، بل هم ستة عشر برياســة الجنرال البولندى المعروف أوكوليكى ، وقد اعتقلوا من قِبَل السلطات العسكرية فى الجبهة السوفييتية ، ويجرى التحقيق معهــم الآن فى موسكو ، لاتهامهم بالقيام بأعمال التخريب فى مؤخرة الجيش الأحمر ، مما أدى الى مقتل أكثر من مائة جندى وضــابط من رجال هذا الجيش كما أن الجنرال اوكوليكى متهم ايضا بالاحتفاظ بمحطات ارســال لاسلكية غير مشروعة فى مؤخرة قواتنا مما يتعارض مع القوانين ، وبعد الانتهاء من التحقيق معهم سيقدم جميعهم أو بعضهم الى المحاكمة ، وهذه هى الطريقة التى يشعر الجيش الأحمر بوجوب اتباعها لحماية جنوده ومؤخرته من أعمال المخربين والمعكرين لصفو الأمن والنظام .

أما ما ينشره جهاز الاستعلامات البريطانى من الشائعات عن قتل البولنديين فى سيديلشى واطلاق النار عليهم ، فهو محض اختــلاق ، وقد اعتمدَ فى اذاعتها كما يبدو على الأنباء التى تصله من الوكلاء المعادين للسوفييت .

أما ما أوضحتَه فى رسالتك من انك لا تعتزم الاعتراف بالحكومة البولندية المؤقتة ، كما انك لست على استعداد أيضا لاعطاء هــذه الحكومة مكانها الشرعى فى الحكومة المقبلة ، فانى أصــارحك القول ، بأن هــذا الموقف يُبْعِدُ امكان الوصــول الى حل متفق عليه للمشكلة البولندية » .

وقد أرسلت نص هذه الرسالة الى الرئيس ترومان ، بعــد أن اضفت اليها التعليق التالى :

« يبدو لى أن الأمور لا يمكن أن تخطو خطوة جديدة عن طريق الرسائل ، وأن من الواجب عقد اجتماع لرؤساء الحكومات الثــلاث فى اقرب وقت ممكن ، وعلينا ان نصمد بثبات للوضــع الراهن الذى

حصلت عليه قواتنا أو ستحصل عليه فى يوغوسلافيا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا ، وفى جبهة الولايات المتحدة الوسطى والجبهة البريطانية ، ويجب علينا آن نصل الى لوبيك والدانمارك ، كما رسمت للمستر ايدن الذى كان يشهد مؤتمر سان فرانسيسكو ، الصورة الأوروبية كما أراها ، وكان على وشك القيام بزيارة ثانية للرئيس ترومان فى واشنطن كما كان على اتصال يومى بستيتينوس ومولوتوف : وقلت له فيها :

أعتقد أن الأزمة البولندية لا يمكن أن تحل الآن الا فى مؤتمر يعقده رؤساء الحكومات الثلاث فى آية مدينة تكون قد نجت من التدمير فى ألمانيا ، وأن يعقد هذا المؤتمر فى أوائل شهر يوليو على اكثر تقدير .

وقد يصبح من الأسهل حل المشكلة البولندية اذا رُبطت بالمشكلات البارزة المتعددة ، وذات الخطورة البالغة ، التى تتطلب تسوية عاجلة مع الروس ، وانى آخشى أن تكون أشياء مخيفة قد وقعت ابان الزحف الروسى الى ألمانيا عبر نهر الألب ، كما أن الانسحاب المقترح للجيوش الأمريكية الى خطوط الاحتلال التى تم الاتفاق عليها فى كويبك ، يعنى امتداد السيطرة الروسية مائة وعشرين ميلا الى الأمام ، على جبهة تمتد ثلثمائة ميل أو أربعمائة ، وسيكون هذا الحادث أن وقع من أكثر الحوادث ألما فى التاريخ ، فهولندا بعد أن تم احتلالها ستصبح جزءا من الأراضى المدفونة فى المنطقة التى يحتلها الروس ، وبذلك ستمد الحدود الروسية من رأس الشمال فى النرويج على طول الحدود السويدية ـ الفنلندية ، وعبر البلطيق الى نقطة تقع الى الشرق من لوبيك ، ومن ثم على طول خط الاحتلال المتفق عليه وعلى طول الحدود بين بافاريا وتشيكوسلوفاكيا الى حدود النمسا ، التى ستكون اسميا تحت الاحتلال الرباعى ، وهكذا فان المناطق التى ستقع تحت الاشراف الروسى ، ستشمل دول البلطيق وجميع الأقسام الألمانية الواقعة الى شرق خط الاحتلال ، وكل تشيكوسلوفاكيا وقسما كبيرا من النمسا ، وجميع يوغوسلافيا والمجر ورومانيا وبلغاريا حتى حدود اليونان ، كما أنها ستضم جميع العواصم المهمة فى أواسط أوروبا ومنها برلين وبودابست وبلغراد وبخارست وصوفيا ، وسيجرى البحث فورا فى وضع تركيا والقسطنطينية .

ان هذا الوضع سيكون حدثا لم يسبق له مثيل ، ولم يواجهه

الحلفاء في صراعهم الطويل · المليء بالمخاطر ، كما ستكون التعويضات التي تطلبها روسيا من المانيا كبيرة الى الحد الذى يمكنها من فرض الاحتلال عليها الى أمد غير محدود ، أو الى عدة سنوات على الأقل ، كما ستصبح بولندا خاضعة للاشراف البوليسي السوفييتي .

وأرى أن الوقت قد حان لبحث هذه القضايا الهامة والخطيرة بين الدول الكبرى مجتمعة ، وتوجد لدينا أوراق رابحة نستطيع استخدامها فى المساومة ، لنصل الى اتفاقات سلمية ، كما أرى انه من الواجب أولا ألا يتراجع الحلفاء من مراكزهم الحالية الى خطوط الاحتلال المتفق عليها ، إلىَ أن نعرف ما سيقع فى بولندا ، وكذلك الأوضاع التي سيكون عليها الاحتلال الروسي لألمانيا والبلاد التي يشرف عليها الروس فى حوض الدانوب ، وفى وسعنا أن نُرْضِي الروس عن طريق مداخل البحر الأسود وبحر البلطيق كجزء من تسوية عامة .

واذا لم تسو جميع هذه القضايا قبل سحب الجيوش الأمريكية من أوروبا ، وقبل أن يطوى العالم الغربي أجهزته الحربية ، فلن يكون هناك أمل فى الوصول الى حل مرض ، وتجنب حرب كونية ثالثة .

وعلينا أن نركز جميع آمالنا الآن على مثل هذا الصراع لتسوية جميع هذه المشكلات مع روسيا فى أسرع وقت ممكن ، وليكن معلوما أننى أعارض كل المعارضة فى تخفيف مطالبنا من روسيا بسبب بولندا » .

وفى اليوم التالى أرسلت برقية أخرى الى الرئيس قلت فيها :

« ليس فى وسع اى شيء ان ينقذنا من الكارثة ، الا اجتماع عاجل، ونزاع وصراع فى أى مكان من المانيا يقع تحت الاحتلال الأمريكى أو البريطانى ، لكى يؤمن أماكن الراحة للجيمع » ·

استسلام المانيا

انتهت حملاتنا فى البحر الأبيض المتوسط ، بانتصار مُشرِّف ، وقد تولى اليكساندر القيادة العليا فى شهر ديسمبر خلفا لويكسون ، كما تولى مارك كلارك قيادة مجموعة الجيوش الخامسة عشرة ، وبالنسبة للجهود المضنية التى بذلتها الجيوش فى ايطاليا ، فقد أصبحت فى حاجة الى التوقف لفترة تعيد فيها تنظيمها وتجديد روحها المعنوية وقوتها الهجومية .

وكانت المقاومة الألمانية الباسلة والطويلة ، والتى كانت غير متوقعة على جميع الجبهات ، قد جعلتنا نحن والأمريكيين مفتقرين الى العتاد المدفعى ، كما أرغمتنا تجاربنا القاسية ، فى حروب الشتاء فى ايطاليا على تأجيل الهجوم العام حتى الربيع ، الا أن قوات الحلفاء الجوية بقيادة الجنرال كانون ظلت تقصف خطوط تموين الجيوش الألمانية حتى تم اغلاق الطريق المهم الممتد من فيرونا الى ممر برنر حيث كان هتلر وموسولينى يعقدان اجتماعاتهما فى أماكن عدة طوال شهر مارس ، وقد تسبب اغلاق هذا الطريق فى تأخير نقل الفرقتين الألمانيتين اللتين تقرر ارسالهما الى روسيا أكثر من شهر .

وكان لدى العدو كميات كافية من العتاد والمؤن ، ولكنه كان فى حاجة الى الوقود ، وكانت وحداته لا تزال كاملة وروحها المعنوية عالية على الرغم من هزائم هتلر فى الراين وعلى نهر الأدور ، ويبدو أن القيادة العليا الألمانية ما كانت لتخشى الكثير لولا سيطرتنا الجوية ولولا أننا كنا نتمتع بزمام المبادرة ونستطيع أن نوجه الضربة حيث نشاء ، بينما كان الخط الدفاعى الذى اختاره الألمان سيئا ، اذ جعلوا نهر اليو الواسع وراء ظهورهم ، وكان من الأفضل للألمان لو تخلوا عن شمال ايطاليا كلها وانسحبوا الى الخطوط الدفاعية المنيعة فى الجبال ، حيث كان فى

استطاعتهم أن يصمدوا أمامنا بقوات قليلة ، وأن يبعثوا بما يتوافر لديهم من قوات الى الجبهات الأخرى .

ولكن الهزيمة التى لحقت بالألمان فى جنوبى نهر اليو كانت بمثابة كارثة . ولا ريب فى أن كيسلرنج قد أدرك ذلك ، وهو ما حمله على المفاوضات التى سجلناها فى الفصل السابق ، ولكن هتلر كان دائما العقبة الكأداء ، بدليل أنه عندما اقترح فيتينجهوف الذى خلف كيسلرنج فى الانسحاب التكتيكي ، جاءه الرد الصارم من هتلر وقد قال فيه : « ان الفوهرر يتوقع الآن كما توقع دائما أن تؤدى بثبات وصلابة مهمتك الراهنة فى الدفاع عن كل شبر من أراضى شمال ايطاليا ، وهى الأراضى التى أوكل اليك أمر الدفاع عنها » .

وقد شرع الجيش الثامن فى هجومه مساء التاسع من أبريل بالغارات الجوية ومدافع الميدان ، ولم يحل اليوم الرابع عشر من ابريل حتى كانت الأنباء الطيبة قد وصلت من جميع أنحاء الجبهة ، وقد تمكن الجيش الخامس بعد قتال عنيف استمر أسبوعا من الخلاص من المنطقة متحديا أوامر هتلر ، ولكن الفرصة كانت قد ضاعت ، حيث استمر شمالا . وفى اليوم العشرين من ابريل أمر فيتينجهوف قواته بالانسحاب متحديا أوامر هتلر ، ولكن الفرصة كانت قد ضاعت ، حيث استمر الجيش الخامس فى اندفاعه نحو نهر اليو ، ومهدت له الطائرات طريق تقدمه ، حيث قطع خط الرجعة على ألوف الألمانيين الذين وقعوا فى الفخ وانقطعت بهم السبل فوقعوا أسرى ولم تتمكن هذه البقايا التى خلفت وراءها جميع معداتها الثقيلة قبل عبور النهر من اعادة تنظيمها ، فقد طاردتها جيوش الحلفاء الى سفوح الأريج ، فى حين كان رجال المقاومة الايطالية ينزلون المصاعب بالعدو فى الجبال والمناطق الخلفية .

وفى الخامس والعشرين من ابريل ، صدرت الأوامر لقوات المقاومة باعلان الثورة العامة وفى الحال شرعت تشن هجمات واسعة النطاق وتمكنت من السيطرة على مدن مهمة كميلانو والبندقية وغدت عملية الاستسلام فى شمال غربى ايطاليا بالجملة ، كما سلمت حامية جنوة المؤلفة من أربعة آلاف جندى نفسها الى ضابط ارتباط بريطانى والى قوات المقاومة .

وفى هذه الأثناء . جاء وولف الى سويسرا ثانية بعد أن منحه فيتينجهوف السلطات الكاملة ، كما وصل رسولان آخران مفوضان الى

مقر قيادة اليكساندر ، ووقعا فى التاسع والعشرين من ابريل وثيقة الاستسلام غير المشروطة بحضور بعض الضباط البريطانيين والأمريكيين والروسيين ، كما انه فى الثانى من مايو استسلم نحو من مليون ألمانى كأسرى حرب وانتهت ــ باستسلامهم ــ الحرب فى ايطاليا كلها .

وهكذا انتهت حملتنا التى استغرقت عشرين شهرا ، وكانت خسائرنا كبيرة الا أن خسائر العدو كانت أعظم .

وجاءت النهاية لموسولينى أيضا ، ويبدو أنه ظل كهتلر محتفظا بأحلامه وخيالاته ، حتى اللحظة الأخيرة ، فقام فى نهاية مايو بآخر زيارة لشريكه الألمانى ، ثم عاد لمقر قيادته على شاطىء بحيرة جاردا ، وقد انتعشت فى خاطره احلام الأسلحة السرية التى ستؤدى الى النصر ، ولكن سرعة زحف الحلفاء من جبال الأبنين قد قضت على هذه الأحلام .

وقرر موسولينى فى الخامس والعشرين من أبريل أن يحل ما تبقى من قواته المسلحة وأن يطلب الى كردينال ميلانو ورئيس أساقفتها أن يرتب اجتماعا له مع أعضاء اللجنة السرية العسكرية لحركة التحرر الوطنى الايطالية ، ودارت المحادثات فى قصر الكردينال فى ظهر ذلك اليوم ولكن موسولينى خرج غاضبا منه ، وفى المساء سار موسولينى على رأس قافلة تضم معظم الباقين من زعماء الفاشية الى دار الشرطة فى كومو ، بعد أن ارتدى معطفا وخوذة من التى يرتديها الجنود الألمان ، ولكن دوريات رجال المقاومة أوقفت القافلة وتعرف أفرادها على موسولينى فوضعوا أيديهم عليه ونقلوه الى السجن ، كما أعتقل آخرون من بينهم عشيقته السنيورة بيتاتشى ، وحُمل الدوتشى وعشيقته فى اليوم التالى بأمر من الشيوعيين فى السيارة الى خارج البلدة وقُتلا ، ونقل جثمانهما الى ميلانو ، حيث علقا من الأقدام على خطافات اللحم فى محطة بنزين فى « بياز الى لورينو » ، وهكذا كانت خاتمة الديكتاتور الايطالى .

وقد واصلت الجيوش النازية زحفها فى ألمانيا بقوة ، واخذت المسافات بينها تضيق يوما بعد يوم ، وكان ايزنهاور فى أوائل شهر أبريل قد اجتاز نهر الراين وأخذ يندفع الى ألمانيا وأواسط أوروبا ضد عدو كان لا يزال يقاوم بضراوة فى بعض الجهات ، وان كان عاجزا عن وقف زحفنا المُظَفَّر ، وكانت بولندا خارج نطاق امكاناتنا وكذلك كانت فيينا ، التى ضاعت فرصتنا فى الوصول اليها قبل الروس ، عن طريق زحف سريع من ايطاليا قبل ثمانية أشهر ، عندما ضوعفت قوات الجنرال

اليكساندر ، لتمكين حركة الانزال فى فرنسا من النجاح ، وكان الروس قد زحفوا على المدينة من الشرق والجنوب وامتلكوها .

وقد بدا لى أنه ليس هناك ما يحول بين الحلفاء الغربيين وبين احتلال برلين ، وكان الروس على بعد خمسة وثلاثين ميلا منها ، وكان الألمان قد تحصنوا فى خنادقهم على نهر الادور ، وكان من المتوقع أن تدور معارك شديدة للغاية قبل أن يتمكن الروس من عبور النهر واستئناف الهجوم ، وكان الجيش الأمريكى التاسع من الناحية الأخرى قد عبر نهر الألب على مقربة من مجدبورج وغدا على بعد ستين ميلا من برلين وتوقف هناك . وبعد أربعة أيام شرع الروس فى هجومهم وأتموا تطويق برلين فى الخامس والعشرين من ابريل ، مع أن ستالين كان قد أبلغ ايزنهاور أن ضربته الرئيسية الثانية ضد ألمانيا ، ستشن حوالى النصف الثانى من شهر مايو ، ولكنه تمكن من الزحف قبل شهر من الموعد الذى حدده ، ولعل فى تقدمنا السريع نحو نهر الألب ، التفسير الصحيح لزحف الروس بمثل هذه السرعة .

وفى الخامس والعشرين من ابريل عام ١٩٤٥ ، التقت طلائع قوات الجيش الأول الأمريكى القادمة من ليبزيج بالقوات الروسية على مقربة من تورجاو على نهر الألب ، وهكذا تم شطر ألمانيا الى شطرين ، ورأينا الجيش الألمانى ينحل أمامنا ، وسقط فى الأسر أكثر من مليون ألمانى فى الأسابيع الثلاثة الأولى من شهر ابريل .

ولما كان الجنرال ايزنهاور يعتقد بأن النازيين المتعصبين سيحاولون الدفاع عن جبال بافاريا وغربى النمسا ، فقد اتجه بالجيش الأمريكى الثالث جنوبا ، ودخل جناح الجيش الأيسر الى تشيكوسلوفاكيا ، فوصل الى بوديجوفيك وبيلسين وكارلسباد وأصبحت براج فى متناول أيدينا ، ولم يكن هناك ما يحول دون احتلالها من الناحية العسكرية ، وقد اقترحت على ترومان أن يقوم ايزنهاور باحتلال العاصمة التشيكية ، ولكن ترومان عارض الفكرة ، وبعد اسبوع أبرقت شخصيا الى ايزنهاور بذلك ، ولكنه رد على بأنه اذا تطلب الوضع فقد يجتاز الحدود الى الخط العام الممتد من كارلسباد الى بيلسين فبوديجوفيك ، وقد وافق الروس على ذلك ، وبعد أن تحركت قوات ايزنهاور الى الخط الجديد ، عارض الروس بشدة فى أن يستمر الجيش الأمريكى الثالث فى زحفه حتى نهر فولتافا ، الذى يمر عبر مدينة براج ، وهكذا توقف الجيش الأمريكى ، فى حين ظهر الجيش الأحمر على الضفتين الشرقية والغربية لنهر مولداو

واحتل مدينة براج ، فى التاسع من شهر مايو ، أى بعد يومين من التوقيع على الاستسلام العام فى ريمز .

ولما كان موضوع احتلال الحلفاء الرئيسيين لألمانيا قد دُرس دراسة عميقة فى صيف عام ١٩٤٣ بالاتفاق مع رؤساء أركان الحرب ، فقد تقرر أن تُحتل ألمانيا بأكملها اذا أريد نزع سلاحها بصورة فعالة ، أما اذا أريد التخلص منها بتقسيمها ثلاث مناطق احتلال رئيسية متساوية حجما ، فيجب أن يحتل البريطانيون الشمال الغربى ، والأمريكيون الجنوب والجنوب الغربى والروس المنطقة الشرقية ، كما يجب أن تكون مدينة برلين منطقة مشتركة منفصلة يحتلها الحلفاء الثلاثة ، وقد ووفق على هذه التوصيات وقُدِّمت الى المجلس الاستشارى الأوروبى الذى كان يتألف من السفير السوفييتى المسيو جوسييف والسفير الأمريكى المستر وينانت والسير ويليام سترانج من وزارة الخارجية البريطانية .

وبدا الموضـــوع فى ذلك الوقت مجرد شىء نظرى ، فلم يكن فى استطاعة أى انسان أن يتكهن آن ذاك كيف ومتى ستنتهى الحـرب ، وكانت الجيوش الألمانية لا تزال تحتل مناطق واسعة من روسيا ، وكان لا بد أن يمضى عام واحد على الأقل قبل آن تضع الجيوش البريطانية والأمريكية أقدامها فى أوروبا الغربية ، وعامان قبـل أن تدخل هـذه الجيـوش ألمانيا ، وهكذا ظلت هـذه الاقتراحات كغيرها موضـوعة على الرف ، وكانت الفكرة السائدة فى تلك الأيام أن روسيا لن تستمر فى الحرب بعد أن تستعيد حدودها السابقة ، وكان على الحلفاء الغربيين أن يبذلوا جهودا ضخمة لاقناع الروس بعدم التراخى فى مجهودهم ، ولهذا فان موضوع احتلال الروسى لألمانيا لم يتبلور فى أفكارنا ولا فى المحادثات البريطانية الأمريكية ، كما لم يثر فى اجتماع الكبار الثلاثة فى طهران .

وعندما اجتمعنا فى القاهرة فى طريق عودتنا الى الوطن فى آكتوبر عام ١٩٤٣ ، أثار رؤساء أركان الحرب الأمريكيون الموضوع ، ولكن لم تكن إثارتهم اياه بناء على طلب من روسيا ، وقد ظلت مسألة الاحتلال الروسى لألمانيا ، لا تعدو أن تكون أمنية أو خيالا ، كما انه قد قيل لى ان الرئيس روزفلت رغب فى أن يُغيِّر وضع احتلال المنطقتين البريطانية والأمريكية فى ألمانيا ، لكى تكون طرق مواصلات القوة الأمريكية فى ألمانيا مستندة الى البحر مباشرة ولا تمر عبر فرنسا ، ولم نتوصل الى قرار ، وكان من رأى أركان حرب القيادة البريطانية أن الخطة الأصلية هى

الافضل ، كما كان يشاطرهم زملاؤهم الأمريكيون فى هذا الرأى ، وقد توصلنا فى مؤتمر كويبك فى سبتمبر عام ١٩٤٤ الى اتفاق ثابت بيننا ٠

وعندما اقتنع الرئيس بهذا الرأى العسكرى ، اشترط أن تتمكن الجيوش الأمريكية من الحصول على منفذ قريب الى البحر ضمن منطقة الاحتلال البريطانى ، واتفقنا على أن بريمن وضاحيتها بريمن هافن ، تفيان بهـذا الغرض وبمتطلبات أمريكا ، وتقرر أن يُعهـد الى القوات الأمريكية بالاشراف عليها ٠

وقد قُبلت الخطة التى وضعناها فى كويبك فى مؤتمر يالتا الذى عقدناه فى شهر فبراير عام ١٩٤٥ ، دون أية دراسة ، وتركنا البحث الشامل فيها الى معاهدة الصلح ، كما اقترحنا ايضا أن نتفق على مناطق الاحتلال فى النمسا ، ووافق ستالين بعد جهود كبيرة بذلتُها لاقناعه ، على أن تعطى للفرنسيين منطقة احتلال ضمن المنطقتين البريطانية والأمريكية وأن نعطى لها مقعداً فى مجلس الاشراف الحليفى ، وكان مفهوما للجميع أن هذا الاتفاق على مناطق الاحتـلال ، يجب ألا يعرقل سير الحركات العملية لجيوش الحلفاء ، وأن يكون فى وسع اى جيش أن يحتل برلين أو براغ أو فيينا اذا وصل اليها قبل غيره ، وعندما افترقنا فى شبه جزيرة ألقرم ، لم نفترق كحلفاء فحسب بل كأصدقاء ، نواجه عدوا ما زال قويا ٠

وشهد الشهران اللذان تليا ذلك الاجتماع تبدلا هائلا نفذ الى أعماق تفكيرنا ، حيث كان قد تقرر مصير ألمانيا الهتلرية ، حيث كان الروس يحاربون داخل برلين نفسها كما أضحت فيينا ومعظم أجزاء النمسا فى أيديهم ، وأصبحت العلاقات بين روسيا وبين الحلفاء الغربيين فى حالة سيئة من التوتر ، وظلت كل قضية تتعلق بالمستقبل قائمة لا حل لها بيننا ، وقد طرح الكرملين المنتصر الظافر جانبا ، كل ما اتفقنا عليه أو تفاهمنا بشأنه فى يالتا ، وبرزت مخاطر جديدة لا تقل فظاعة عن تلك التى تغلبنا عليها ، على العالم الممزق المتعب ٠

وقد زاد قلقى لهذه التطورات المنذرة بالشر ، حتى قبـل وفاة الرئيس روزفلت ، وكان هو بدوره ايضا قد احس بالقلق والاضطراب ، وقد سجلتُ فى هذا الكتاب ما احسَّ به من غضب بسـبب اتهـامات مولوتوف بشأن اتصالات برن ٠ وعلى الرغم من زحف جيوش أيزنهاور الظافرة ، فقد وجد الرئيس ترومان نفسه فى النصف الأخير من شهر أبريل ، يواجه أزمة ضخمة ، وكنت احاول منذ مدة ان أبَصِّر الحكومة

الأمريكية بالتبدلات الهائلة التى أخذت تطرأ على المسرحين السياسى والعسكرى .

وتشير البرقيات التى نشرتها فى مكان آخر ، إلى اننى لم اقترح قط النكوص عن تعهداتنا بشأن مناطق الاحتلال المتفق عليها ، على شرط أن يحترم الآخرون الاتفاقات التى التزموا بها ، وأصبحت مقتنعا اننا قبل أن نتوقف فى زحفنا يجب أن نجتمع بستالين وجها الى وجه ، وأن نتوصل معه الى اتفاق يتناول الجبهة كلها ، وكنت أرى من الكوارث الحتمية ، أن نحافظ نحن باخلاص وصدق على جميع التزاماتنا فى حين يضع السوفييت أيديهم على كل ما يستطيعون الإمساك به ، دون أى احترام للالتزامات التى إرتبطوا بها .

وكان الجنرال أيزنهاور قد اقترح ، انه فى الوقت الذى تعطى فيه الحرية للجيوش من الشرق والغرب ، بالزحف والتقدم دون اعتبار مناطق الاحتلال وان فى وسع هذه الجيوش بعد أن يتم اتصالها فى أية منطقة ، أن تنسحب الى ما وراء حدود الاحتلال المقررة ، كما تعطى الصلاحيات لتوجيه طلبات الانسحاب ولاصدار الأوامر المتعلقة بها ، الى قواد مجموعات الجيوش ، وبذلك تتم عمليات الانسحاب وفقا لمقتضيات العمليات الحربية ، وقد رأيت إن هذا اقتراح سابق لأوانه ، وانه يتجاوز الاحتياجات العسكرية الفورية .

وعلى ضوء هذا الرأى وجهت رسالة فى الثانى عشر من ابريل الى الرئيس الجديد المستر ترومان ، ولما كان الرئيس حديث عهد بكل هذه المشكلات التى تواجهنا ، فقد كان من الطبيعى بالنسبة له ، أن يلجأ الى مستشاريه ، ولهذا فقد أحرزت الفكرة العسكرية المجردة ، تأكيدا وتأييدا أكثر مما تستحقه ، وقد أبرقت إليه أقول :

« اننى على أتم استعداد للتقيد بمناطق الاحتلال ، ولكننى لا أحب ان أرى قوات الحلفاء والقوات الأمريكية ، ترغم على الرجوع فى أية نقطة ، تلبية لطلبات سخيفة من قائد روسى محلى ، وأرى أن يتفق على هذا بين الحكومات ، بحيث تتوافر لايزنهاور الفرصة ليقرر فورا وفى المنطقة نفسها ، الاجراء الذى يجب أن يتخذ وفقا لطريقته » .

« ولما كان قد أتفق على مناطق الاحتلال بصورة عاجلة فى كويبك فى شهر سبتمبر عام ١٩٤٤ ، عندما لم نكن نتوقع

أن تتمكن جيوش الجنرال أيزنهاور من احراز هذا التوغل العميق داخل ألمانيا ، وليس فى الامكان تبديل هذه المناطق الا عن طريق الاتفاق مع الروس ، الا انه فى الوقت الذى يتم فيه النصر النهائى فى أوروبا ، يجب علينا أن نحاول فورا وفى اليوم نفسه اقامة مجلس الاشراف الحليف فى برلين ، وأن نصر على توزيع عادل للمواد الغذائية التى تنتجها ألمانيا على جميع أجزاء البلاد ، وقد كانت منطقة الاحتلال الروسى فى الوقت الحاضر ، تنتج أكبر نسبة من المواد الغذائية فى حين أن عدد سكانها كان ضئيلا ، بالنسبة لغيرها من المناطق ، كما لا يملك الأمريكيون نسبة كافية من المواد الغذائية فى مناطقهم تكفى لأهلها أما نحن البريطانيين المساكين ، فسنأخذ ما تبقى من حطام حوض الروهر والمناطق الصناعية الأخرى التى تعتمد مثلنا فى الأوقات العادية على ما تستورده من كميات ضخمة من المواد الغذائية » .

ولما كان المستر ايدن فى واشنطن ، فقد وافق تماما على آرائى التى بعثت بها برقيا اليه ، ولكن رد المستر ترومان ، لم يتقدم بنا خطوة واحدة الى الأمام ، فقد اقترح أن تنسحب قوات الحلفاء ، من المناطق المتفق على احتلالها فى ألمانيا والنمسا ، عندما تسمح الأوضاع العسكرية بهذا الانسحاب .

وكان هتلر يفكر فى أثناء ذلك فى المكان الذى يجب أن يقف فيه وقفته الأخيرة ، وكان حتى العشرين من أبريل لا يزال يفكر فى مغادرة برلين « واللجوء » الى حصنه فى الجنوب فى جبال الألب البافارية ، وقد عقد فى ذلك اليوم اجتماع شهده كبار القادة النازيين .

ولما كانت الجبهة الألمانية المزدوجة فى الشرق والغرب ، قد أصبحت معرضة للانقطاع والانشطار شطرين بسبب اندفاع الحلفاء من الناحيتين فقد وافق على اقامة قيادتين منفصلتين ، وعهد الى الأميرال دونتس بأن يتولى المسئولية العسكرية والمدنية فى الشمال ، وأن يكون مكلفا باعادة مليونى لاجىء ألمانى من الشرق الى الأراضى الألمانية ، أما فى الجنوب فقد تقرر أن يتولى الماريشال كيسلرنج قيادة ما تبقى من الجيوش الألمانية ، كما تقرر أن يشرع فى تنفيذ هذه المخططات عقب سقوط برلين .

وفى الثانى والعشرين من أبريل ، اتخذ هتلر قراره الأخير والخطير بالبقاء فى برلين حتى النهاية ، وفى الحال أتم الروس تطويق العاصمة

بعد أن فقد الفوهرر كل قدرة على السيطرة على الأحداث ، وقد أعلن لمن تبقى من الزعماء النازيين معه بأنه سيموت فى برلين ، وكان جورنج وهملر قد غادرا برلين بعد مؤتمر العشرين من أبريل ، وقد طافت برأسيهما أفكار التفاوض لعقد الصلح واتجه جورنج الى الجنوب وافترض أن هتلر قد تنازل عن سلطانه ببقائه فى برلين وقد طلب منه تأكيدا رسميا بأن يكون خليفته ، وكان رد هتلر ، أن طرده من جميع مناصبه ، وبعدها وقع أسيرا هو ومائة من كبار قادة السلاح الجوى الألمانى فى أيدى القوات الأمريكية .

ولم يبق مع هتلر من كبار شخصيات العهد الا جوبلز وبورمان حتى النهاية ، وكانت القوات الروسية ، قد بدأت تقاتل فى شوارع برلين ، وفى الساعات الأولى من صباح التاسع والعشرين من ابريل كتب وصيته الأخيرة ، واستمر يؤدى أعماله العادية فى الملجأ الموجود تحت دار المستشارية الى أن وصلته الأنباء عن نهاية موسولينى ، وبعد أن تناول غذاءه فى اليوم الثلاثين صافح أفراد حاشيته ، ثم انسحب الى غرفته الخاصة • وانتحر بمسدسه ، وكانت بجواره ايفا براون ـ التى كان قد تزوجها سرا ـ بعد أن تناولت السم وتم احراق الجثتين فى ساحة المستشارية ، وكانت نهاية مؤلمة للرايخ الألمانى •

هذا ، وقد عقد من تبقى من القادة النازيين مؤتمرا أخيرا ، وحاولوا التفاوض مع الروس ، الا أن جوكوف طلب الاستسلام بلا قيد ولاشرط وفى الحال اختفى بورمان دون أن يترك أثرا ، وقتل جوبلز أولاده الستة بالسم ، ثم أمر رجال حرسه باطلاق النار عليه وعلى زوجته ، ووقع من تبقى من رجال مركز قيادة هتلر اسرى فى أيدى الروس .

وصلت الى الأميرال دونتيس تلك الليلة البرقية التالية :

« لقد عينك الفوهرر ، أيها الاميرال الاكبر ، خلفا له ، بدلا من ماريشال الرايخ السابق جورنج ، وسيصلك الخطاب الرسمى ، اذ هو فى الطريق اليك ، وعليك أن تتخذ فورا جميع الاجراءات التى يتطلبها الموقف ، بورمان » .

وكان دونتيس على اتصال بهملر ، وقد سيطرت الفوضى ، فأخذ يعد العدة لتنظيم أمر الاستسلام .

أما هملر ، فكان قد ذهب الى الجبهة الشرقية وأخذ يجرى اتصالات شخصية موعزا بها مع الحلفاء الغربيين ، مؤملا الوصول الى صلح منفرد منذ عدة أشهر ، وقد جدد الآن المحاولة عن طريق الكونت برنادوت رئيس الصليب الأحمر السويدى ولكن عروضه رُفضت كلها فاختفى ولم يُسمع عنه شىء ، الى أن قبض عليه متنكرا وعند ذلك تناول قارورة من سم السيانيد فمات لتوه .

أما نهاية المسرحية فى الشمال الغربى فكانت أقل اثارة ، فقد وصلت أنباء الاستسلام فى ايطاليا فى الثانى من مايو ، وكانت قواتنا قد وصلت الى لوبيك الواقعة على البلطيق ، واتصلت بالروس ، فقطعت خط الرجعة على القوات الألمانية الموجودة فى الدانيمارك والنرويج ، ووصلنا فى الثالث من مايو مدينة همبورج دون مقاومة ، واستسلمت الحامية دون قيد أو شرط ، وبعد ذلك وصل وفد المانى الى مقر قيادة مونتجمرى فى لونبرج هيث ، برئاسة الأميرال فريدبرج الذى حاول الوصول الى اتفاق باستسلام يشمل القوات الألمانية فى الشمال التى تواجه الروس أيضا ، وقد وقّع وثيقة الاستسلام لجميع القوات الألمانية فى شمال غربى المانيا وهولندا والجزر وشلزويج هولشتين والدانمارك .

وتوجه فريدبرج الى مقر قيادة أيزنهاور فى ريمز حيث انضم اليه الجنرال بودول فى السادس من مايو ، الذى أصر على استسلام كامل ، وقد وقع فريدبرج وثيقة الاستسلام الكلى فى صباح السابع من مايو ، كما وقع عليها اللفتنانت جنرال بيدل سميث والجنرال بودل وشهد عليها قائدان « فرنسى وروسى » ، وبذلك أوقفت جميع الأعمال الحربية فى منتصف ليل الثامن من مايو ، وتم التصديق الرسمى من قبل القيادة العليا الألمانية فى برلين طبقا للترتيبات التى وضعها الروس فى التاسع من مايو ، ووقّع الوثيقة قائد عام القوات الجوية بندر بالنيابة عن أيزنهاور والماريشال جوكوف بالنيابة عن الروس والماريشال كاتيل بالنيابة عن ألمانيا .

وعندما أصدر دونتيس أوامره بالاستسلام كانت هناك تسع وأربعون غواصة فى عرض البحر ، وقد استسلم نحو من مائة غواصة فى الموانى ، فى حين قام البحارة الألمان بتخريب نحو من مائتين وعشرين غواصة قبل الاستسلام . ولا ريب أن هذه الأرقام تقوم دليلا على اصرار ألمانيا فى جهودها وعلى مدى احتمال سلاح الغواصات الألمانى ، كما خسر

الألمان فى ثمانية وستين شهرا من القتال سبعمائة وواحدة وثمانين غواصة .

وقد غرق فى الحرب العالمية الأولى عن طريق الغواصات وحدها ما حمولته أحـد عشر مليونا من الاطنان من البواخـر ، فى حين أغرقت الغواصات فى الحرب الكونية الثـانية بواخر حمولتها أربعة عشر مليونا ونصف المليون من الأطنان . واذا أضفنا الخسـائر الناتجة عن أسـباب أخرى تبين لنا أن مجموع الخسائر فى البواخر بلغت فى الحـرب الأولى اثنى عشر مليونا وسبعمائة وخمسين ألفا من الأطنان ، فى حين بلغت فى الحرب الثـانية واحدا وعشرين مليونا ونصف المليون من الأطنان ، وقد تحمل البريطانيون ستين فى المائة من هذه الخسـائر فى الحرب الأولى وأكثر من خمسين فى المائة فى الحرب الثانية .

وبعـد استسـلام العـدو بلا قيد أو شرط ، أحس الظـافرون والخاسرون على حدا سـواء ، براحة لا توصف ، أما بالنسـبة الينا فى بريطانيا والامبراطورية البريطانية ، اذ كنا الوحيدين الذى خضنا الحرب من أول يوم فيها حتى آخر يوم ، فلقد كان هناك معنى لانتهاء الحرب ، يفوق المعنى الذى يحمله بالنسبة لأقوى حلفائنا وأكثرهم بسالة .

وعندما طُلِبَ إلىَّ ، أن أتحدث إلى الأمة وجهت اليها الكلمة التالية :

« كم كان بودى أن أبلغكم الليلة ، أن جميع متاعبنا ومشكلاتنا قد انتهت ولو كان فى استطاعتى ابلاغكم ذلك لكان فى امكانى أن أنهى خـدمتى التى اسـتمرت خمس سـنوات ، ولكن أرى لزاما على ، أن أحذركم كما حذرتكم من قبل عندما تسلمت هذه الأعباء ، بأنه ما زال أمامنا الكثير لنفعله ، وان عليكم أن تستعدوا لجهود أخرى بدنية وعقلية ولاحتمال تضحيات ثابتة فى سبيل القضايا العظيمة ، فعليكم الا تضعفوا ولا تهنوا بأى شكل من الأشكال ، فى يقظتكم وحذركم وانتباهكم ، ومع أن أفراح الأعياد ضرورية للروح الانسـانية ، الا انه يجب أن تضفى عليها القوة والمرونة ، لكى يعود كل رجل وامراة الى العمل الذى يجب أن يعمله .

فما زال علينا فى القارة الأوروبية أن نتأكد من أن الأهداف النبيلة والبسيطة التى خضنا غمار الحرب من آجلها لن يكون مصيرها التجاهل فى الأشهر التى تلى النصر ، وأن كلمات الحرية والديموقراطية والتحرير لن تفقد معانيها الحقيقية كما فهمناها ، ولن يكون كبير جدوى من عقاب

الهتلريين على جرائمهم اذا لم يقم حكم القانون والعدالة فى أوروبا ، واذا قدّر للحكومات الجماعية أو البوليسية أن تحل محل الغزاة الألمان .

" اننا لا نطلب غُنما لأنفسنا ، ولكننا نرى لزاما علينا أن نتأكد من أن المُثُل التى حاربنا من أجلها ، سَتَلْقَى ما يجب أن تلقاه من اعتراف على مائدة الصلح ، عملا لا قولا ، وعَلَيْنا أن نبذل كل جهد لنرى المنظمة العالمية التى تقوم(الأمم المتحدة)الآن بخلقها فى سان فرانسيسكو لن تصبح مجرد اسم لا عمل له ، ولن تغدو درعا للأقوياء ، وأضحوكة للضعفاء ، وعلى المنتصرين أن يرجعوا الى قلوبهم ، وأن يكونوا جديرين عن طريق شرفهم بتلك القوى الهائلة التى يحملونها فى أيديهم .

« وعلينا ألا ننسى أبدا أن هناك اليابان على الرغم من قوتها المنهارة ، وضعفها ، تمثل مائة مليون من الناس ، لا يرى المحاربون منهم فى الموت ما يفزع أو يخيف ، وليس فى وسعى فى هذه الليلة أن أحدد لكم الوقت أو الجهود التى سنحتاج اليها لارغام اليابانيين على اصلاح ما ارتكبوه بغدرهم وفظاعتهم ، فنحن ، مثل الصين التى احتملت ما احتملته من أضرار فظيعة دون أن يطرأ عليها وهن أو ضعف ، ونحن ملتزمون بأحكام الشرف وروابط الولاء الأخرى للولايات المتحدة أن نمضى فى هذه الحرب العظيمة ، فى ذلك الطرف النائى من العالم الى جانبها دون ضعف أو تردد ، وعلينا أن نتذكر أن استراليا ونيوزيلندا وكندا كلها مهددة تهديدا مباشرا من هذه القوة الشريرة ، وهذه الدول من ممتلكاتنا المستقلة تهب لنجدتنا فى أحلك ظروفنا ، وعلينا الا نترك أية مهلة تتعلق بسلامتها ومستقبلها غير ناجزة ، وسأكون غير جدير بثقتكم وبكريم عواطفكم اذا لم أواصل النداء لكم قائلا : الى الأمام ، دون تردد ودون خوف ، ودون لين ودون هوادة ، الى أن تكملوا واجبكم كله ، والى أن يصبح العالم كله آمنا مطمئنا وخاليا من كل شائبة » .

بدء الانفصـــام

كان القلق من المستقبل ، وغيره من مشـــاعر الخوف تملأ جوانحى ، وأنا أنتقل بين الجماهير المختلفة بالنصر الذى إستحقوه عن جدارة ، بعد تلك المصائب التى إجتازوها ومروا بها وبدا لمعظمهم أن خطر هتلر قـد إختفى بعد أن إستسلم العدو الهـــائل ، الذى قاتلوه أكثر من خمس سنوات دون قيد أو شرط ، وكل ما بقى هناك أمام الدول الظافرة الثلاث هو أن تضع سلاما عادلا ودائما تحرسه منظمة عالمية ، لـكى يدخل العالم فى عصر ذهبى من الرخاء والازدهار •

ولـكن كان هناك جانب آخر من الصورة ، فاليابان لم تستسلم بعد والقنبلة الذرية لم تخلق بعد . وكأن العالم يعيش فى إضطراب وإرتباك ، فقد إختفت تلك الوشيجة العظيمة من الخطر المشترك ، التى كانت تربط بين الحلفاء ، بين عشية وضحاها •

أما أنا فقد رأيت أن الخطر الشيوعى قد حل محل الخطر النازى ، مع فارق واحد ، هو عدم وجود روح من التحالف والزمالة ضده ، كما إختفت أيضا من الوطن أسس الوحدة القومية التى قامت عليها الحكومة القومية ، فى أثناء الحرب قوية ثابتة ، ولم يكن فى وسعى أن أخلّص عقلى من الخوف ، لأن جيوش الديموقراطية الظـافرة ستتفرق عمـا قريب ، مع أن أقسى التجارب والاختبارات وأكثرها حقيقة ووقعاً مازالت أمامنا •

وكان همى الأول منصرفا الى عقد اجتماع آخر للثلاثة الكبار ، وكنت آمل فى أن يأتى الرئيس ترومان الى هذا الإجتماع عن طريق لندن لنلتقى ، أولا ، وكانت هناك كما سيرى القارىء ، أراء مخالفة تماما ، تضغط بهـا جهات ذات نفوذ فى واشنطن على الرئيس الجـديد . وكان يقـــال ان على الولايات المتحدة ، أن تكون حريصة كل الحرص ، فلا تسمح لأحـــد بأن يجرها الى خلاف أو عداء مع روسيا السوفييتية ، لأن مثل هـــذا العداء سيحفّز المطامع البريطانية على الظهور ، ويخلق هوّة جديدة فى أوروبا ،

وعلى السياسة الأمريكية من الناحية الأخرى ، أن تقف وسطا بين بريطانيا وروسيا ، كوسيط صديق أو كحَكَم ، وأن نحاول التقليل من خلافاتهما حول بولندا والنمسا ، وأن تُساعد على تهيئة الأوضاع والوصول بها الى سلم هادىء سعيد ، لتمكين القوات الأمريكية من التركيز ضد اليابان ، ويبدو أن ضغط هذه الآراء على ترومان كان قويا للغاية ، ولم يكن فى وسعى بطبيعة الحال ، أن أقدِّر القوى التى تعمل فى الجهاز الحساس لأقرب حلفائنا الينا ، وان كنت قد شعرت بها ، وكان فى وسعى فقط أن أحس بالمظاهرة الهائلة للاستعمارية الروسية السوفييتية وهى تقتحم طريقها فى أراض لا حول لها ولا قوة •

وقد أبرقت للرئيس بعد ثلاثة أيام من إستسلام ألمانيا أقترح عليه دعوة ستالين الى مؤتمر ، وأضفت أقول : « وآمل حتى يعقد هذا المؤتمر أملا كبيرا ، ألا تنسحب الجبهة الأمريكية عن الخطوط التكتيكية المُتَّفق عليها الآن » • وقد رد الرئيس فورا ، بأنه يؤثر أن يَصْدُر إقتراح الأجتماع عن ستالين ، وأنه يأمل فى أن يتمكن سفيرانا فى موسكو من اقناعه بذلك ، كما أعلن المستر ترومان بعد ذلك أن علينا أن نذهب أنا وهو الى المؤتمر منفردَيْن ، تجنبا لاثارة الشكوك فى نفس ستالين عن تكتلنا ضده ، وأعرب عن أمله فى أن يزور انجلترا بعد انتهاء المؤتمر اذا سمحتْ له ظروفه وواجباته فى أمريكا بمثل هذه الزيارة ، وقد أدركتُ فورا ماتنطوى عليه هذه البرقية من اختلاف فى وجهات النظر •

وقد بعثت الى الرئيس ترومان بالبرقية التالية وأرى أن يَحْكُم القارىء علىَّ وعلىَ آرائى ، على ضوء ما ورد فيها :

« اننى أشعر بقلق عميق ، من جراء الوضع فى أوروبا ، وقد علِمتُ أن نصف القوة الجوية الأمريكية فى أوروبا قد انسحب الى مسرح العمليات بالمحيط الهادى ، والصحف ملأى بأخبار تحركات الجيوش الأمريكية العظيمة خارجة من أوروبا ، ومن المحتمل أن تمر جيوشنا وفقا لترتيبات سابقة ، فى مرحلة مماثلة من التخفيض الواضح ، وسينسحب الجيش الكندى ، أما الجيش الفرنسى فضعيف ، ومن الصعب التعامل معه ، وفى وسع كل انسان أن يرى أنه بعد وقت قصير جدا ، ستختفى قواتنا المسلحة من القارة الأوروبية ، باستثناء قوات صغيرة سيحتفظ بها للسيطرة على ألمانيا •

ولقد سعيت دائما لتوثيق أواصر الصداقة مع روسيا ، ولكننى أشعر ، كما تشعر أنت ، بالقلق العميق من سوء تصويرهم لقرارات يالتا ومن موقفهم تجاه بولندا ، ومن نفوذهم الطاغى فى البلقان كله باستثناء

اليونان ، ومن المشكلات التى يخلقونها فى فِيِنّا ، ومن الدمج بين السيطرة الروسية ، وبين البلاد التى تقع تحت احتلالهم أو إشْرَافهم ، ومن الأساليب الشيوعية التى تُتّبع فى بلاد عدة ، وفوق ذلك كله قـدرتهم على الاحتفاظ بجيوش ضخمة على هذا النحو فى الميـدان الى مثل هـذا الأمد الطويل ، ويجوز لى أن أتساءل : ماذا سيئول اليه الوضع بعد سنة أو سنتين عندما تذوب الجيوش البريطانية والامريكيـة من القـارة ولا تـكون الجيوش الفرنسية قد نظّمت أمرها بعد على نطاق واسع ، فلا تبقى لنا سوى بعض فرق معظمها فرنسى ، تواجه مائتين ، أو ثلاثمائة فرقة آثرت روسيا الابقاء عليها فى الخدمة الفعلية ؟ ..

ان ستاراً حديدياً يُسْدَل الآن على الجبهة الروسيـــة ، فنحن نجهل مايدور وراء هذا الستار ، ولا يبدو أن هناك مجالا للشك فى أن جميـع المناطق الواسعة الى الشرق من خط لوبيك ــ تريستا ــ كورفر ، ستصبح بعد قليل فى أيدى الروس ، ومن الواجب أن نضيف الى هـــذه المنطقة المساحات الشاسعة التى احتلتهـا الجيوش الأمريكية بين ايزناخ ونهر الألب ، والتى ستنسحب منها بعد أسابيع ، لتـأتى الجيوش الروسيـة فتحتلها بعد انسحاب الامريكيين ، ولذلك فانه يجب على الجنرال أيزنهاور أن يتخـذ أقصى ما يمكنه من الترتيبـات للحيلولة دون فرار جماعى من جانب السكان الألمـان فى اتجاه الغرب عندما يشرع « الموسكويون » فى هذا الزحف الضخم الجديد الى أواسط أوروبا ، وهكذا فانالستار الحديدى سيعود ليسدل من جديد على مئات الأميال من الاراضى وهـكذا سـيقوم حزام عريض يفصل بيننا وبين بولندا .

وفى هذه الأثناء سينحصر تفكير شـعبَيْنا فى توقيع العقوبات على ألمـانيا ، التى تحطمت وتدمرت ، وسيكون فى وسع الروس بعـد وقت قصير أن يتقدموا إذا شاءوا إلى مياه بحر الشمال والمحيط الأطلنطى .

وأرى لزاما علينا ، أن نصل فوراً الى تفاهم مع روسيا ، أو نجـد لنا معها حلا ، وذلك قبل أن تضعف جيوشنا ، أو تنسحب الى منـاطق الاحتلال المتفق عليها سابقا ، ولا يمكن أن يتم هذا الا عن طريق اجتماع شخصى ، وأكون جد ممتن لو بعثت الى برأيك ومشورتك .

وبالطبع يمكننا أن نفترض أن روسـيا ستسلك سلوكا منزهاً عن الخطأ ، ومثل هذا السلوك سيضمن حتما أحسن الحلول المناسبة ، وأود أن أختصر رسالتى فأقول : ان قضية تسوية الأمور مع روسيا ، قبل أن نخفض قواتنا ، هى من الأهمية بحيث تتضاءل أمامها جميع القضايا » .

وفى الثانى والعشرين من مايو ، أبرق الى الرئيس يقول : انه قـد أوفد المستر جوزيف ديفيز ، ليقابلنى قبل انعقاد المؤتمر الثلاثى ، وليبحث معى بعض القضايا التى يؤثر عدم معالجتها عن طريق البرقيات •

وقد كان المستر ديفيز سفيراً لأمريكا فى موسكو قبل الحرب ، وكان من المعروف عنه أنه من المؤيدين للنظام القائم، وأعددت الترتيبات لأستقبله فوراً ، وقد قضى معى ليلة السادس والعشرين فى تشيكرز ، ودار بيننـا حديث طويل ، وكان أهم ما قاله ان على الرئيس أن يجتمع بستالين أولا فى مكان ما فى أوروبا ، قبل أن يجتمع إلىّ، وقد أدهشنى هذا الاقتراح كل الدهشة حقا ، كما لم يكن تعبير « التـكتل » الذى استخدمه الرئيس فى رسائله السابقة قد أعجبنى ، عنـدما كان يصف أى اجتماع أحب أن يعقده معى •

ولقد كانت بريطانيا والولايات المتحدة ترتبطان بوشائج من المبادىء والاتفاق على السياسات فى نواح واتجاهات عدة ، وكنا معـا على خـلاف عميق مع السوفييت فى العديد من القضايا المهمة ، ولذا فان عقـد أى اجتماع بين الرئيس الأمريكى ورئيس الوزارة البريطانية للبحث والنقاش على ضوء هذه الأسس المشتركة ، كما كان يجرى دائما فى أيام الرئيس روزفلت ، لم يكن ليستحق تسمية شبيهة بهذه التسمية التى تطلق على « التكتل » لمقاصد الشر وتأليف العصابات ، ومن الناحية الثانية ، فان تجاوز الرئيس الأمريكى لبريطانيا العظمى ، واجتمـاعه برئيس الدولة السوفييتية التى كنا نحن والامريكيون متحـدين تجاههـا ــ ولم يكن فى وسعى ، تحت أى ظروف ، أن أوافق عليه ــ يمكن اعتباره اساءة ، مهمـا كانت غير مقصودة ، وعارضت فى مجرد الفـكرة القائلة بأن الخلافات القائمة هى بين بريطانيا وروسيا ، وأكدت أن الولايات المتحدة يجب أن تكون معنية بهذه القضايا عنايتنا بهـا ، وقد أوضحت هـذه النقطة بجلاء للمستر ديفيز فى حديثى معه ، وتجنبا لأى سوء فهم أو تفسير فى هـذا الموضوع ، أعددت له وثيقة رسمية تضمنت وقائع الحديث الذى دار بيننا ، وقد قرأ الرئيس هذه الوثيقة بروح من الود والتفاهم •

وكان الرئيس فى الوقت الذى بعث الى فيه بالمستر ديفيز ، قـد بعث الى موسكو المسـتر هارى هوبكنز كموفد خاص ، ليقوم بمحاولة أخرى للوصول الى حل عملى لمشكلة بولندا ، وقد اسْتُقْبِل بحفاوة وترحيب بالغين ، وتم لأول مرة بالفعل تحقيق بعض التقدم فى طريق حل المشكلة حيث وافق ستالين على دعوة ميكولاجيك واثنين من زملائه فى لندن الى

موسكو للتشاور معهما ، متمشيا في ذلك مع اتفاقنا في يالتا ، كما وافق أيضـا على دعوة عدد من البولنديين المهمين ، من غير رجال حكومة لوبلين من داخل بولندا نفسها •

وقد بعث الرئيس ببرقية قال فيها ، انه يشـعر بأن هذه الخطوة تعد مرحلة ايجابية مشـجعة في المفاوضـات ، كما تبين ان معظم التهم الموجهة الى الزعماء البولنديين المعتقلين هي حيازة أجهزة ارسال لاسلكية غير مشروعة وتشغيلها ، وأخذ هوبكنز يواصل الضغط على ستالين لمنحهم العفو ، حتى تدور المفاوضات في جو ودي ملائم ، وقد طلب إلى أن أحث ميكولاجيك على قبول دعوة ستالين ، فأقنعت ميكولاجيك بالذهاب الى موسكو ، وتم في النهاية تشكيل حكومة بولندية مؤقتة ، وتم الاعتراف بها من قبل بريطانيا والولايات المتحدة في الخامس من شهر يونيو •

ولما كنا لا نزال اليوم أبعد من أي يوم مضى ، عن القيام بأية محاولة حقيقية ونزيهة للحصول على ارادة الشعب البولندى عن طريق انتخابات حرة ، وكانت لا تزال هنـاك بقية من أمل ، في أن يؤدى اجتماع الكبار الثلاثة المنتظر الآن في كل لحظة الى الوصول الى تسوية كريمة •

ولما أبلغنى الرئيس ترومان في الأول من شهر يونيو بأن الماريشال ستالين موافق على عقد اجتماع لمن يسميهم « الثلاثة » على أن يتم في برلين حوالى الخامس عشر من يوليو ، فقد أجبته فورا باستعدادى للذهـاب على رأس وفد بريطاني الى برلين ، ولـكننى أكدت له أن الموعد الذى يقترحه متأخر جدا بالنسبة للقضايا التى تتطلب سرعـة البت ، وقلت : اننـا سَنُسِيء الى الآمال التى يعلقها العالم علينا ، والى الوحدة العالمية ، كمـا أبرقت أيضا الى الرئيس أقول :

انه على الرغم من أننى أخوض معركة انتخابات حامية الوطيس ، الا أننى أرى أن واجباتى في المعركة يمكن أن تقارن بالمهام المترتبة على اجتماع نعقده ثلاثتنا ، واذا لم يكن الخامس عشر من يونيو مناسبا ، فلماذا لانجتمع في اليوم الأول أو الثانى أو الثالث من يوليو ، وقد رد على المستر ترومان يقول : انه بعد دراسة الأوضاع كلها تبين له أن الخامس عشر من يوليو ، هو أقرب موعد يستطيع أن يحضر فيه الى الاجتماع ، كما أن ستالين لم يكن راغبا في عقد الاجتماع في موعد قريب •

وكان السبب الرئيسى الذى حدانى للاسراع في الاجتماع ، هـو أن يقع قبل انسحاب الجيش الأمريكى من الخط الذى وصـل اليه في القتال

الى المنطقة التى خُصِّصَتْ للاحتلال الأمريكى بموجب الاتفـاق السابق ، وكنت أخشى أن تَتَّخذ واشنطن قرارا بتسليم هـــذه المنطقة الهائلة التى تبلغ أربعمائة ميل طولا ومائة وعشرين ميلا عرضا ؛ وتضم عدة ملايين من الألمان والتشـــيكيين ، وان مجرد التخلِّى عن الأرض سيوسع الفجوة بيننا وبين بولندا ، وسيقضى على كل سلطة أو قدرة لنا على تغيير مصـيرها ، فالموقف المتبدل الذى تقفه روســيا منا ، والخرق المستمر للاتفـاق الذى توصلنـــا اليه فى يالتا ، ومحــاولة القفز على الدانمارك التى أحبطهـا مونتجمرى لحسن الحظ فى اللحظة الأخيرة ، والزحف فى النمسا ؛ وضغط المـاريشال تيتو المصحوب بالتهديد فى تريستا ، كلهـــا أمور بدت لى ولمستشارى أنها قد غيرت الأوضاع بالنسبة لتخطيط منـاطق الاحتـلال التى اتفقنا عليها قبل عامين ، وأصبح من الواجب البحث فى جميع هـــذه القضايا كـكل الآن ، قبل أن تنسحب القوات البريطانيـــة والأمريكيـة وقواتهما الجوية بفعل التسريح ، ومطالب الحرب اليابانية الشديدة ، كما أن الوقت صالح الآن لتسوية عامة ٠

وكنت أرى أن التخلى عن قلب ألمــانيا كلها « بل قلب أوروبا وحجر الزاوية فيها ، بمجرد عمل فردى من جانب واحد » قرار يعتبر على جانب كبير من الخطورة والارتجال ، واذا كان لابد من هذا التخلى فيجب أن يكون جزءا من تسوية عامة ودائمة ، والا فاننا سنذهب الى بوتسدام وليست فى أيدينا أوراق نساوم عليها ، وبذلك تتعرض جميع آمال الســلام فى أوروبا للخطر ، وكان كل ما فى وسعى أن أفعله ، هو أن أرجو الاسراع فى موعد اجتماع الثلاثة ، فاذا فَشَلْتُ فى ذلك ، فانى أعمل على تأجيل الانســـحاب الى أن يتم بحث جميع المشكلات دفعـــة واحدة على أسس متـكافئة ٠

ترى كيف أَضْحَتْ الحالة بعد ثمانى سنوات ؟ لقد امتد خط الاحتلال الروسى فى أوروبا من لوبيك الى لينز ، وأصبحت تشيكوسلوفاكيا كلهـا ضمن الاطار السوفييتى ، كما أصبحت دول البلطيق وبولندا ورومانيا وبلغاريا دويلات تابعة يحكمها نظام شـــيوعى جماعى ، وقـــد خرجت يوغوسلافيا على هذا النطاق ، ولم نتمكن الا من انقاذ اليونان وحـدها ، وهكذا سمحنا فى لحظة النصر باختفاء تلك الفرصة التى كانت خير فرصنا بل آخر فرصة لنا للوصول الى سلام عالمى دائم ، وقد أرسلت للرئيس فى

اليوم الرابع من يونيو البرقية التالية ، التى أعتقد أن هنـاك اليوم من يستطيع مناقشتها أو عدم تأييدها قلت فيها :

« أعتقـد أنك مدرك السبب الذى يحملنى على التلهف لعقد اجتماعنا الثلاثى فى موعد مبكر ، ولنقل انه الثالث أو الرابع من يوليو ، وانني لأنظر نظـرة متشائمة الى احتمـال انسحاب الجيش الأمريكى الى خط الاحتـلال فى القطـاع الأوسط ، بحيث تتقـدم القوة السوفيتية الى قلب أوروبا الغربية ، وبحيث يسدل ستار حديدى بيننا وبين كل مايقع الى الشرق من أراض ، وكنت آمل أن أمثل هذا الانسحاب ، اذا كان لابد منه يجب أن يصاحب تسوية الكثير من الأمور العظيمة التى يقوم على أساسها السلام العالمى ، ولم تتم حتى الآن تسوية أى شىء مهم ، وأرى أننى واياك نتحمل المسئولية الـكبرى بالنسبة الى المستقبل ، ولذا فمازلت آمل فى تقديم موعد الاجتماع » ٠

وقـد رد على المستر ترومان فى الثـانى عشر من يونيو يقول : ان الاتفاق الثلاثى المتعلق باحتلال ألمانيا والذى أقـره الرئيس روزفلت بعد مشاورات تفصيلية ودرس طويل معى ، يجعـل من المسـتحيل تأجيـل انسحاب القوات الأمريكية من المنطقة السوفيتية حتى تتم تسوية المشكلات الأخرى ، وليس فى امكان مجلس اشراف الحلفاء أن يبدأ عمله الا بعد اتمام هذا الانسحاب ، كما أن الحكم العسكرى الذى يباشره القائد الأعلى للحلفاء يجب أن ينتهى دون تأخير ، وأن توزع مسئولياته بين أيزنهاور ومونتجمرى ، وأضاف الرئيس يقول : أن مستشاريه قد أفهموه بأن تأجيل الانسحاب الى ما بعد يوليو ، سيضر بعلاقاتأمريكا مع السوفييت، ولذلك فهو يقترح ارسال رسالة الى ستالين ، كما اقترح أن نصـدر الأمر فورا الى جيوشنا بالانسحاب الى مناطق احتلالها المقررة ٠

وكان الرئيس على اسـتعداد لاصـدار أمره الى القوات الأمريكية للبدء فى الانسحاب من ألمانيا فى الحادى والعشرين من يونيو ، وأن يُعِدّ القادة العسكريون الترتيبات اللازمة لاحتلال المناطق المعينة لهم فى برلين، وأن يُؤَمِّنُوا ٠ حرية الاتصـال عن طريق السكة الحديد والطرق العادية والجوية من فرانكفورت وبريمن بالنسبة للقوات الأمريكية ، كما انه فى الامكان اسـتكمال الترتيبات فى النمسا بصورة اسرع وأكثر سـهولة ، وذلك بجعل القادة المحليين مسئولين عن تحديد مناطق احتلالهم فى البلاد

وفى العاصمة ، وألا يعودوا الى حكوماتهم الا فى القضايا التى يعجزون هم عن حلها .

وكانت هذه الرسالة بمثابة نذير شر مستطير لى ، ولكن لم يكن فى وسعى غير الاذعان .

ويجب ألا ننسى ان المستر ترومان لم يكن له شأن ولم يُستشر فى خطة تحديد مناطق الاحتلال الأصلية ، وكانت القضية بالنسبة اليه ، بعد تسلمه مدة الرياسة هى، هل يجوز له أن ينقض سياسة إتفقت عليها الحكومتان البريطانية والأمريكية فى عهد سلفه العظيم ؟ وليس لدى شك ، فى أن مستشاريه السياسيين والعسكريين قد أيدوه فى موقفه وكانت مسئوليته فى هذه اللحظة محصورة فى أن يقرر ما اذا كانت الأوضاع قد تبدلت بصورة جذرية بحيث يتطلب تبدلها اجراء مغايراً كل التغيير يمكن أن يتهم بنقض العهود والمواثيق .

وقد بدأت الجيوش البريطانية والأمريكية فى اليوم الأول من شهر يوليو ، انسحابها الى المناطق المخصصة لها ، تتبعها جموع حاشدة من اللاجئين الألمان ، وبذلك ثبتت روسيا السوفيتية أقدامها فى قلب أوروبا ، وكان هذا أسوأ تاريخ فى مستقبل الجنس البشرى .

وبينما كانت جميع هذه الأمور تسير على قدم وساق ، كنت مشغولا الى قمة رأسى فى المعركة الانتخابية التى اشتد وطيسها فى الأسبوع الأول من يونيو ، وكان هذا الشهر والحالة هذه ، من أقسى الفترات التى مرت علىّ، حيث بدأت الرحلات المجهدة بالسيارة الى مدن انجلترا واسكوتلنده الكبيرة ، مع القاء ثلاث خطب أو أربع كل يوم على جماهير كبيرة يبدو عليها الحماس ، واعداد أربع اذاعات حسنة الصيغة والاقناع مما كانت تستنزف كل وقتى وقوتى ، وكنت أشعر طيلة الوقت أن ما حاربنا من أجله فى أوروبا قد بدأ ينهار ، كما أن الآمال فى حلول سلمية دائمة ومبكرة ، أخذت تنطوى ، وكنت أقضى الأيام فى وسط الجماهير الصاخبة ، وعندما آوى فى الليل الى القطار الذى جعلت منه مركز قيادتى ، كان ينتظرنى عدد لابأس به من الموظفين وسيل لاينقطع من البرقيات ، فاضطر الى قضاء ساعات طويلة أخرى فى أعمال شاقة .

وقد سررت أخيراً بحلول يوم الاقتراع ، حيث تم اغلاق الصناديق وختمها بعد الانتهاء من الاقتراع ، وقد وُضعت فى أماكن أمينة ، لكى

تفتتح بعد ثلاثة أسابيع ، بعد جمع الصناديق من جميع أنحاء العالم التى توجد بها قواتنا .

ولهذا فقد قررت أن أقضى أسبوعا أستمتع فيه بالراحة ودفء الشمس وحرارتها قبل موعد المؤتمر ، فسافرت الى بوردو مع زوجتى وابنتى مارى ، ونزلت فى فيلاّ جميلة وضعها تحت تصرفى الجنرال بروتينيل فى « هنداى » على مقربة من الحدود الاسبانية ، وكنت أقضى معظم ساعات الصباح كل يوم فى قراءة قصة رائعة لكاتب فرنسى عن تاريخ هدنة بوردو ، وقصة وهران المحزنة ، ومن الغريب أننى استعدت ذكرياتى عن سنوات خمس سابقة ، وقد تعلمت من هذه القصة أشياء كثيرة لم أكن أعرفها فى حينها ، كما كنت أخرج بعد الظهر ومعى لوحاتى وأدوات الرسم الى بعض الأماكن الجذابة على نهر نيف وخليج سان جان دى لوز فاصورها .

وقد اقتصر عملى الرسمى فى هذه الفترة على تصريف بعض البرقيات التى تتناول مؤتمرنا المقبل ، وقد حاولت ما وسعنى من جهد فى أن أبعد الخلافات الحزبية عن تفكيرى ، ومع ذلك يجب أن أعترف أن سر صناديق الاقتراع وما تضمه ، كان يطغى على تفكيرى ، وما كنت لأستطيع ابعاد هذه الأفكار عنى ، الا عندما أعد لوحتى وأبدأ الرسم .

وقد احتفى بنا أهل الباسك ، احتفاء رائعا ، فلقد عانوا فترة طويلة من الاحتلال الألمانى ، وكانوا سعداء باستنشاق نسيم الحرية من جديد ، ولم أكن فى حاجة الى اعداد أى شىء للمؤتمر ، فقد كنت أحمل فى رأسى كل شىء ، ولما كان الرئيس ترومان قد أبحر على ظهر الطراد الامريكى أوغسطا ، وهو الطراد الذى استقله الرئيس روزفلت عند مجيئه لاجتماعنا فى الأطلنطى عام ١٩٤١ ، فقد أخذت السيارة فى الخامس عشر من يوليو الى مطار بوردو ، حيث أقلتنى طائرتى « سيدة الأجواء » الى برلين .

وصل الرئيس ترومان الى برلين فى اليوم الذى وصلت فيه اليها ، وقد كنت متلهفا للتعرف عليه ، وكانت علاقاتى الودية معه على الرغم من بعض الخلافات ، قد أقيمت عن طريق المراسلة ، فقمت بزيارته فى صباح اليوم التالى لوصولنا ، وقد تأثرت بما يبدو عليه من اشراق ودقة فى الحديث ، وقدرة على الحسم فى المواقف .

وقد قام كل منـــا منفردا بجولات فى المـــدينة ، فى اليوم التالى لوصولنا ، ولم تكن المدينة الا حطاما من الخرائب . ولم يكن قد صدر بيان عن زيارتنا ، ولذلك فقد كانت الشوارع خاليـــة الا من المارة العاديين ، الا أننى رأيت حشداً من الناس فى الساحة الواقعة أمام دار المستشارية ، وعندما نزلت من السيارة ومشيت بين هولاء النـــاس ، هتف لى الجميع ، باستثناء رجل عجوز واحد ، هز رأسه هزة تنطوى على عـــدم الموافقة ، وكانت كراهيتى لهم قد زالت باستسلام ألمـانيا . وقد تأثرت تأثرا بالغا بمرآهم ، وبما يبدو على وجوههم من انهـــاك وتعب ، وعلى أجسامهم من ملابس رثة مهلهلة ، ودخلنا دار المستشارية ، وقضينا وقتا طويلا نجوب أبهاءها وقاعاتها المحطمة ، كما رأينا الملجأ الذى أعده هتلر لنفسه للاحتماء فيه من الغارات الجوية .. كما رأينا الغرفة التى انتحر فيها هو وزوجته .

وكان المسلك الذى اتبعه هتلر ، أكثر ملاءمة لنـــا من المسلك الذى كنت أخشى أن يتبعه ، فقد كان فى وسعه فى أى وقت من الأشهر الأخيرة من الحرب أن يطير الى انجلترا وأن يســـلم نفســـه قائلا : « افعلوا بى ما تشاءون ، ولـكن اتركوا شـــعبى الذى لم يكن له حول أو طول » ، ولاريب عندى فى أنه فى مثل هذه الحالة كان سيشترك مع مجرمى نورمبرج فى مصيرهم ، لأن المبادىء الخُلقية للحضارة الحديثـــة تقضى بأن يعـــدم المنتصرون قادة الدول المنهارة فى الحرب ، ولا ريب فى أن مثل هـــذه المبادىء ستدفع القادة فى أى حرب مقبلة الى المضى فى القتال الى النهاية ،

فمهما ضحوا بأرواح جديدة فان مصيرهم واحد ، وفي مثل هـذه الحالة فان جماهير الشعب التي لا شأن لها في شن الحروب أو انهائها هي التي تدفع الثمن الاضافي .

أما الرومان فقد كانوا يَتَّبِعُون سبيلا مغايرا ، ولا شك في أن الفضل في انتصاراتهم يعود الى ما تميزوا به من رأفة بقدر ما تميزوا به من قوة ،

وفي السابع عشر من يوليو ، وصلت أنباء هزت العالم بأسره ، فقد قام ستمسون بعد ظهر ذلك اليوم بزيارة مسـكني ، وبسط أمامي ورقة كتب عليها « ولد الطفل بصورة مَرْضِيَّة » وتبينت من حديثه أن شيئا بارزا قد وقع ، واستمر يقول : « ان هذه الجملة تعني أن التجربة التي أجريت في صحراء المكسيك قد نجحت ، وان القنبلة الذرية أصبحت أمرا واقعا » ، وعلى الرغم من أننا كنا نتابع هذا البحث مما يصل الينا من أنباء متفرقة ، الا أنني لم أعرف من قبل على الأقل بموعد التجربة الحاسمة ، كما أنه لم يكن في وسع أي عَالِمٌ مسئول أن يتكهن بما قد يقع عندما تُجْرَى تجربة أول تفجير ذري ، هل هي عديمة الجدوى أو أنها مبيدة وقاتلة ؟

لقد عرفنا الآن أنه قد تمت « ولادة الأطفال » بشـكل مُرْضٍ ، لكن ليس في وسع أي انسان حتى الآن تقدير النتائج العسكرية الفورية لهذا الاكتشاف ، كما لم يقم أي انسان حتى الآن بتقدير أي شيء عنها .

ووصلت في الصباح التالي ، طائرة تحمل وصفا كاملا لهذا الحدث العظيم ، في التاريخ البشري ، وجاء ستمسون بالتقرير إليّ ، وأنني أشرح الآن القصة كما أتذكرها .

فقد فُجِّرَتْ القنبلة أو ما يعادلها على قمة « بيلون » ـ عمارة فرعونية ارتفاعها مائة قدم ـ وقد أُخْلِيَتْ منطقة دائرية نصف قطرها عشرة أميال من كل إنسـان ، ووقف العلماء ومساعدوهم وراء دروع ضخمـة من الأسمنت المسلح ، وملاجيء تبعد نحوا من هذه المسافة ، وكان الإنفجار مُرَوِّعاً ، فقد ارتفع عمود هائل من اللهب والدخان الى مقربة من حـدود المنطقة الجوية التي تحيط بأرضنا المسكينة ، وكان التخريب داخل دائرة قطرها ميل واحد كامل ، وهكذا بدت النهاية السريعة للحرب الـكونيـة ولأشياء أخرى أيضا .

وقد دعاني الرئيس للتشاور معه بعد ذلك ، وكان معـه الجنرال ماريشال والأميرال ليهي ، وكنا قد وضعنا خططنا بالنسبة لليابان ، على أساس مهاجمة جزرها الأصلية بقصف جوي مرعب ، وبغـزو تقوم به

جيوش هائلة ، وكنا نتوقع مقاومة شديدة من اليسابانيين الذين يقاتلون حتى الموت ، بتكريس رجال الساموراى ، لا فى المعارك الحربية الضخمة فحسب ، بل فى كل كهف وحفرة أيضا ، وتصورت منظر جزيرة أوكيناوا حيث آثر عدة ألوف من اليابانيين بدلا من الاستسلام ، أن يقفوا فى صف واحد ، وأن يقضوا على أنفسهم بالقنابل اليدوية بعد أن كان قادتهم قد أتموا طقوس الانتحار المعروفة بالهاراكيرى ٠

ويعنى القضاء على المقاومة اليابانية رجلا رجلا واحتلال بلادهم شبرا شبرا ، ضياع مليون أمريكى ونصف هذا العدد من البريطانيين أو أكثر منه ، هذا اذا تمكنا من ايصال هذه القوات الى بلادهم ، أما الآن فقد اختفى هــذا الكابوس المرعب ، وطلعت أمامنا صورة بدت لنا جميلة ومشرقة ، وهى أن تنتهى الحرب كلها بهزة أو بهزتين عنيفتين ، وفكرتُ لتوّى ، كيف يمكن لهذا الشعب اليابانى الذى كنت دائم الاعجاب بشجاعتــه ، أن يرى فى هذا الطيف من السلاح الغَيْبى أو فوق الطبيعى ، ذريعـــة تحفظ له شرفه وتحرره من التزاماته بالموت حتى آخر رجل محارب ٠

وكان هناك شىء أهم ، وهو أننا لن نحتاج الى الروس ، اذ أن نهاية الحرب مع اليابان لم تعد تعتمد على تدفق جيوشهم ، لتوجيه الضربة الأخيرة والحاسمة ، ولم نعد فى حاجة الى أن نطلب منهم مِنّة أو فضلا ، وأصبح فى وسعنا أن نواجه مشكلات أوروبا على حقيقتها ، ووفقا لمبادىء الأمم المتحدة الواسعة ، وبدا أننا أصبحنا فجأة واقعين تحت ســيطرة رغبة رحيمة فى اختصار المذابح فى الشرق ، وأمل أكثر اشراقا وســعادة فى أوروبا ، وعلى أى حال ، لم يكن هناك ما نُضَيِّعه فى النقــاش ، فى هــل تُستَعْمَل القنبلة الذرية أو لا تستعمل ؟ واتضح لنا أن تجنب مذبحة هائلة لا حدود لها ، وان الوصول بالحرب الى نهاية ، وبالعالم الى السلام ، وأن مد يد الرحمة الى شعوبه المعذبة عن طريق غرض لقوة طاغية ، لا تــكلف الا بعض انفجارات ، كلها أمور جاءت بعد هذه الأخطار والمتاعب ، كمعجزة من معجزات الانقاذ ٠

وكانت موافقة بريطانيا المبدئية على استعمال هذا السلاح ، قــد صدرت فى الرابع من شهر يوليو أى قبـــل اجراء التجربة ، أما القرار النهائى فقد أصبح الآن بين يدى الرئيس ترومان ، الذى يملك السلاح ، ولم يداخلنى الشك قط فيما سيكون عليه هذا القرار ، وفى أنه كان على حق فى اتخاذه ، لــكن الحقيقة التاريخية تظل قائمة ، ويجب الحــكم على ضوئها فى مستقبل الأيام ، وهى أن القرار الذى اتخذ باستخدام القنبلة

الذرية لأُرغام اليابان على الاستسلام ، لم يكن في يوم ما مصدر خلاف حيث كان هناك اتفاق إجماعي وأُتوماتيكي ودون حاجة إلى سؤال أو نقاش حول المائدة التي كنا نجلس عليها • ولم أسمع أي إعتراض من أية جهة ، على أن الواجب يحتم علينا عدم إستعمالها •

وكان السؤال الدقيق المعقد ، هو ماذا سنقول لستالين ، بعد أن أصبحنا في غير حاجة إلى مساعداته في إخضاع اليابان ، وكان ستالين قد تعهد في مؤتمري طهران ويالتا ، بأن تهاجم روسيا السوفييتية اليابان فور هزيمة الجيش الألماني ، وتحقيقا لهذا الوعد ، بدأت منذ أوائل مايو ، حركة نقل واسعة ومستمرة للقوات السوفييتية إلى الشرق الأقصى على سكة حديد سيبريا ، ورأينا الآن أنا لسنا في حاجة الى هذه القوات ، وبذلك يكون ستالين قد فقد قوة المساومة ، التي كان قد استخدمها بنجاح مع الأمريكيين في يالتا ، الا أنه كان على كل حال حليفا عظيما في الحرب ضد هتلر ، وقد شعرنا في هذه اللحظة ان من الواجب إبلاغه (الحقيقة الجديدة العظيمة) التي أصبحت تسيطر على الموقف دون أن نعطي له التفاصيل ، ولكن كيف ننقل اليه هذا النبأ ؟ أيكون النقل كتابة أو شفويا ؟ وهل سيكون الإبلاغ في جلسة رسمية أو خاصة أو في أثناء إجتماعاتنا اليومية أو بعدها ؟ وقد إختار الرئيس أخيرا الوسيلة ، فقال أعتقد أن من الخير أن أبلغه النبأ بعد إجتماعاتنا ، وأن أقول له اننا توصلنا الى اختراع طراز جديد من القنابل يختلف عن النوع المألوف ، وسيكون ذا أثر حاسم في عدم استمرار اليابانيين في الحرب ، وقد وافقت الرئيس على هذا الاجراء •

كما استمرت في هذه الأثناء الهجمات المدمرة على اليابان من الجو والبحر ، ولم تحل نهاية شهر يوليو ، حتى كان الاسطول الياباني قد اختفى من الوجود تقريبا ، كما سيطرت الفوضى على الوطن ، وأخذ الديبلوماسيون المحترفون يميلون الى الاقتناع بأن الطريقة الوحيدة لانقاذ اليابان من التفكك الكلي ، هي أن يصدر الامبراطور أمره فورا بالاستسلام ولكن السلطة كانت لا تزال في أيدي زمرة من العسكريين الذين صمموا على أن يقودوا البلاد كلها الى الانتحار الجماعي ، بدلا من قبول الهزيمة ، ولم يرهب الدمار الرهيب الذي يواجههم ، هذه الزمرة الحاكمة المتعصبة ، التي ما فتئت تؤمن بمعجزة من نوع ما ، تقلب الوضع الى صالحهم •

هذا ، وقد بحثت مع الرئيس في محادثات طويلة عدة على انفراد أو مع بعض مستشاريه ، ما يجب أن نفعله ، وأشرت الى الثمن الباهظ

فى أرواح الامريكيين وفى أرواح البريطانيين أيضـــا ، اذا ما فرضنا على اليابان «الاستسلام بلا قيد ولا شرط» وتركت للرئيس أن يقرر ، مايضمن لنا الحصول على كل ما نراه ضروريا للسلام والأمن فى المستقبل ، ويترك لليابانيين فى الوقت نفسه بعض المظاهر للحفاظ على كرامتهم العسكرية ، مع التأكيد لهم بوجودهم القومى اذا ما قاموا بتنفيذ جميع الضمانات التى يطلبها المنتصرون ، وقد رد الرئيس على باشمئزاز قائلا :

ـ انه لا يعتقد فى وجود أى شرف عسكرى لليابانيين بعـد هجوم ميناء اللؤلؤ « بيرل هاربور » .

وقد تقرر أخيرا أن نوجه انذاراً نهائياً الى اليـابان ، نطلب فيـه استسلام قواتها العسكرية بلا قيد ولا شرط فورا ، ونشرنا هذه الوثيقة فى السادس والعشرين من يوليو ، ولمـا رفض حكام اليابان العسكريون هذا الانذار ، أعد سلاح الجو الأمريكى خططه تبعا لذلك ، لالقاء قنبلة ذرية على هيروشيما ، وأخرى على نجازاكى ، واتفقنـا على أن نعطى للأهلين كل فرصة ممكنة ، وتم وضع الاجراء بالتفصيل وللتقليل الى أكبر حد ممكن من الخسـائر فى الأرواح ، قامت الطائرات الأمريكية فى السابع والعشرين من شهر يوليو ، بالقاء نشرات على احدى عشرة مدينة يابانية ، تحذرهـا فيها أنها سوف تتعرض لقصف جوى هائل ، وهوجمت ست من هـذه المدن فى اليوم التالى ، كما حذرت الطائرات اثنتى عشرة مدينة أخرى فى اليوم الحادى والثـلاثين من يوليو . وقصفت منها فى اليـوم الأول من أغسطس ، ووجه الانذار الأخير فى الخامس من شهر أغسطس .

وفى اليوم السادس من أغسطس ألقيت القنبـلة الذرية الأولى على هيروشيما ، كما ألقيت فى اليوم التاسـع من أغسطس القنبلة الذرية الثانية على مدينة ناجازاكى ، وفى اليوم التالى وافقت الحكومة اليابانية ـ على الرغم من فتنة قام بها بعض العسكريين المتطرفين ـ على قبول الانذار ، على شرط ألا يؤثر ذلك على سلطات الامبراطور كحاكم مطلق ، فـدخلت أساطيل الحلفاء خليج طوكيو ، وتم فى اليوم الثانى من سبتمبر توقيـع وثيقة الاستسلام الرسمية على ظهر البارجة الأمريكية « ميسورى » ، وكانت روسيا قد أعلنت الحرب على اليابان فى الثامن من شهر أغسطس ، أى قبل أسبوع واحد من انهيارها ، ومع ذلك طالبت بجميع حقوق الدولة المحاربة .

ومن الخطأ الافتراض بأن القنبـلة الذرية ، هى التى قررت مصـير اليابان ، فقد كان المصير المحتوم بالهزيمة ينتظرها ، قبل القائها ، وقد

فرضت هـذا المصير قوة الحلفاء البحرية المتفوقة التى مكنت الحلفاء فى الوقت نفسه من احتلال القواعد البحرية فى المحيط ، لتشن منها الهجوم النهائى ، ولترغم الجيش اليابانى فى الوطن على الاستسلام ، دون أن توجه اليه أية ضربة ، فقد تحطمت بحرية اليـــابان ، حيث دخلت الحرب وهى تملك أسطولا من البواخر تزيد حمولته على خمسة ملايين ونصف مليون من الأطنان ، ثم زاد هذا الرقم من البواخر التى استولت عليها أو بنتها ، ولـكن نظام القوافل والحراسة الذى وضعته كان غير كاف وكان مفتقرا الى التنظيم ، وقد تم اغراق بواخر يابانية تزيد حمولتها على ثمانية ملايين ونصف مليـون من الأطنـــان ، ذهب منها نحو خمســة ملايين ضـحية للغواصات •

ولـما كانت خيبة الأمل ، هى الطابع الذى تميز به مؤتمرنا الثلاثى الأخير ، فلن أحاول أن أشرح جميع القضايا التى أثيرت فىمختلف الجلسات وان كانت لم تُسَوَّ ولم تحل ، وسأكتفى بالحديث عما أعـــرفه بخصوص القنبلة الذرية ، وبتخطيط قضية الحدود الألمانية ـ البولندية ، لأن هذه الأحداث لازالت تعيش معنا حتى الآن •

فقد تم الاتفاق بيننا فى مؤتمر يالتـــا ، على أن تتقدم روســـيا بحدودها الغربية مع بولندا الى خط كرزون ، كما كنا قد اعترفنا دائماً لبولندا فى حقها بدورها فى الحصول على تعويضات مناسبـة من الأرض الألمانية ، وكان السؤال هو الى اى مدى ؟ والى أية مسافة فى ألمانيا يجب أن تمضى بولندا فى توسيع حدودها ؟ فقد اختلفنا حول ذلك أكبر اختلاف وكان ستالين قد أراد توسيع حدود بولندا الغربية على طول نهر الأودر حتى نقطة التقائه بنهر النييسى الغربى ، وكان رؤساء الحكومات الثلاث، قد تعهدوا علنا فى يالتا ، باستشارة الحكومة البولندية ، ويترك الموضوع للتقرير النهائى فى مؤتمر الصلح ، وكان هذا خير ما استطعنا عمله ، ولـكننا واجهنا فى يوليو عام ١٩٤٥ وضعا جديدا ، فقد وسَّعت روسيا حدودها الى خط كرزون ، وكان هذا يعنى كما أدركت أنا وروزفلت ، ان الملايين الثلاثة أو الأربعة من البولنديين الذين يعيشون على الجانب الثانى من الخط ، يجب أن ينزحوا الى الغرب ، وواجهنا الآن أمرا أسوأ من هذا ، فقد وسعت حكومة بولندا التى يسيطر عليها السوفييت حدودها لا الى النييسى الشرقى بل الى الغربى أيضا ، ويسكن الألمـان معظم هذه المنطقة ، وعلى الرغم من أن عدة ملايين قد فروا غربا ، الا أن عددا كبيرا قد ظل فى مكانه ، فماذا سنصنع بهؤلاء ؟ كما أن نقل أربعة ملايين بولندى أمر سيىء فى حد ذاته ، فهل يتحتم علينا أن ننقل ثمانيـــة ملايين ألمـانى أو أكثر

أيضا ؟ وحتى لو أمكننا تحقيق ذلك ، فليس هناك ما يكفيهم من الطعـام في الأقسام المتبقية من ألمـانيا لأن معظم القمح الذى تنتجـه ألمـانيا فى الأراضى التى أخذها البولنديون ، واذا حُرِمنا هذا القمح ، فاننـا معشر الحلفاء الغربيين سنظل مسيطرين على مناطق صناعية خربة ، وشـعب متضخم جائع ، وهنا يكمن خطر بالنسبة لسلام أوروبا فى المستقبل أكبر من الخطأ الذى تمثله الالزاس واللورين ، أو ممر دانزيج ، وسيأتي يوم يطالب فيه الالمـان باسترداد أراضيهم ، ولن يكون فى وسع البولنديين أن يحولوا بينهم وبين استعادتها •

والآن يجب على أن أتحدث عن الاتصالات الشخصية والاجتماعيـة التى خففت شيئا من حدة مناقشاتنا الجدية ، وكان على كل وفد من الوفود الـكبيرة أن يقيم الولائم للوفدين الآخرين ، وقد وقع الدور على الولايات المتحدة أولا ، وعندما جاء دورى ، اقترحت أن نشرب نخب « زعيم المعارضة المقبل أيا كان الزعيم » وقد سر المستر أتلى الذى كنت قد دعوته الى المؤتمر ، تطبيقا لنظريتى فى أن من واجب رئيس كل حكومة فى أوقات الأزمات أن يَعُد نائبا له يعرف كل شيء ، ويسـتطيع أن يحـافظ على الاستمرار فى حالة وقوع أحداث ، كما كان العشاء السوفييتى رائعا أيضا واشتمل على حفلة موسيقية عزف فيهاكبار الفنانين الروس ، وقد استمرت الحفلة الى ساعة متـأخرة من الليل ، حتى اننى اضطررت الى التسـلل والذهـاب •

وعندما انتهى اجتماعنا الرسمى فى اليوم التـالى ، أى فى الرابع والعشرين من يوليو ، ونهضنا جميعا ، رأيت الرئيس يتجه الى سـتالين فيقف بجانبه ، ويأخذ الرجلان فى حديث وليس معهما الا المترجمان ، وكنت واقفا على بعد خمسة ياردات تقريبا ، حيث كنت أرقب باهتمام بالغ الحديث الخطير التاريخى ، لأنى كنت أعرف ما اعتزم الرئيس أن يقوله وكان يهمنى أن أعرف مدى تأثير قوله على ستالين ، وانى لأرى الصورة أمامى الآن وكأنها وقعت بالأمس لقد بدا عليه السرور ، وقال : قنبـلة جديدة ! لها قوة خارقة ! قد تكون حاسمة فى تقرير الحرب كلهـا مع اليابان ! يا له من حظ سعيد ! كانت هذه الانطباعات التى حُملتُها تلك الساعة ، وكنت على ثقة من أنه لم يقدر تماما أهمية ما قيل له ، وبدا لى أن القنبلة الذرية لم تلعب دورا فى متاعبه وجهوده ، ولو كانت لديه أية فكرة ولو ضئيلة ، عن الثورة التى تحدث الآن فى الشئون العالمية بسبب هذا الاختراع لـكان رد فعله مغايرا تماما ، ولم يكن أسهل عليه من أن يقول « شكرا لك على ابلاغك اياى نبأ قنبلتك الجديدة وبالطبع أنا أعرف شيئا

عن الحقائق المتعلقة بها ، فهل تسمح لى بأن أبعث بخبرائى فى العلوم النووية لمقابلة خبرائك فى صباح غد ؟ » ، ولكن وجهه ظل مرحا وطبيعيا ، ولما انتهى الحديث بين الزعيمين ، استفهمت من الرئيس ، عن كيفية سير الأمور ، فرد على بقوله : ان ستالين لم يوجه اليه أى سؤال ·

وعاد المؤتمر للاجتماع فى اليوم الخامس والعشرين من يوليو ، وكان هذا آخر اجتماع حضرته ، وقد أثرْتُ من جديد موضوع بولندا ، وقلت ان حدودها الغربية لا يمكن أن تقرر دون أن نأخذ بعين الاعتبار مشكلة المليون وربع المليون من الألمانيين الذين يعيشون فى المنطقة ، وهنا أكد الرئيس بأن أية معاهدة للصلح لا يمكن أن تُبرم دون موافقة مجلس الشيوخ الأمريكى ومشورته ، وعلينا اذن أن نجد حلا ، يستطيع أن يوصى به معتذرا للشعب الأمريكى ، فقلت اننا اذا سمحنا لبولندا بأن تكون دولة الاحتلال الخامسة فى ألمانيا دون أن تُتَّخذ الترتيبات لتوزيع المواد الغذائية ، التى تنتج فى ألمانيا بصورة عادلة على الشعب الألمانى كله ، ودون أن نتفق على التعويضات وغنائم الحرب ، فان مؤتمرنا يكون فاشلا ، لأن جذور المشكلات لا تزال قائمة أمامنا ، ولم نصل حتى الآن الى اتفاق بشأنها ، فقال ستالين : ان الحصول على الفحم والمعادن من الروهر أهم بكثير من المواد الغذائية وقلت أن هذه المعادن يجب أن تتم مقايضتها بالمؤن من المنطقة الشرقية ، والا فان المُعَدِّنين لن يستطيعوا استخراج الفحم والمعادن · وكان رد ستالين : انهم قد ألغوا فى الماضى استيراد المواد الغذائية من الخارج وفى وسعهم أن يواصلوا استيرادها ، فسألته : اذن كيف يمكن لهم أن يدفعوا التعويضات ؟ فرد قائلا : « مازال هناك شحم كثير على جسم ألمانيا » · ورفضت أن أقبل فكرة المجاعة فى الروهر لأن البولنديين يريدون الاحتفاظ بجميع المناطق التى تنتج القمح فى الشرق وقلت ان بريطانيا نفسها تفتقر الى الفحم · فقال ستالين : « اذن فليشتغل الأسرى الألمان فى مناجمكم ، ان هذا ما أفعله أنا الآن » · وأضاف قائلا : وما زال هناك أربعون ألف ألمانى فى النرويج وفى وسعك أن تأخذهم من هناك ، وقلت : اننا نُصَدِّرُ الفحم الذى نحتاج اليه الى فرنسا وهولندا وبلجيكا ، فلماذا يبيع البولنديون الفحم الى السويد فى حين تُحَرِّم بريطانيا نفسها الشىء الذى تحتاج اليه لمساعدة البلاد المتحررة ؟ ··

فرد ستالين قائلا : ولكنها تبيع الفحم الروسى وما زال موقفنا أصعب من موقفكم ، فقد خسرنا أكثر من خمسة ملايين رجل فى الحرب ، ونحن فى أشد الحاجة الى الأيدى العاملة ، وعدت الى نقطتى أثيرها من جديد ،

سنُرسل الفحم من الروهر الى بولندا أو الى مكان آخر ، بشرط أن نحصل بدلا منه على المواد الغذائية لعمال المناجم الذين ينتجون الفحم » .

وهنا توقف ستالين لحظة ليفكر ، وقال : ان القضية كلها تحتاج الى المزيد من الدرس ، فوافقته على ذلك ، وقلت انني لا أريد إلاّ الإشارة إلى المتاعب التى نواجهها ، وهذا بالنسبة إلى هو كل ما يهمنى .

وبما أنه لا يمكنني أن أتحمل مسئولية تتجاوز النتائج التى توصلنا اليها فى مؤتمر بوتسدام ، فقد أثرْتُ فى المؤتمر جميع النقاط التى لم نتفق عليها وتركتها معلقة . وهكذا فقد تكدست مجموعة ضخمة من القضايا التى لم نصل الى اتفاق بصددها ، وكنت أعتزم اذا ظهرت نتائج الانتخابات في بلادنا فى صالحنا ، وعدت الى الحكم ، كما كان متوقعا ، أن أشتبك مع السوفييت فى حطام مكشوف لتقرير هذه القضايا ، فما كنتُ لأقبل قط، وما كان للمستر ايدن أن يقبل أيضا ، أن يكون نهر النييسى الغربى حداً لبولندا ، وكنا قد قبلنـــا بخط الأودر والنييسى الشرقى كتعويض على بولندا مقابل انسحابها الى خط كرزون ، ولــكن ما كان لأية حـــكومة أرأسها ، أن تقبل اجتياح الجيوش الروسية لجميع المناطق الممتدة حتى النييسى الغربى والى ما وراءه أيضا ، ولم تكن القضية تتعلق بالمبـدأ فحسب ، وانما كانت تتناول حقيقة هائلة ، تؤثر على نحـو ثلاثة ملايين آخرين من المشردين الذين سَيُجْلَوْن عن بيوتهم .

وكانت هناك قضايا أخرى ، وكان لزاماً علينا أن نصمد بسببها أمام الروس وأمام البولنديين الذين بدوا وكأنهم بعد أن ابتلعوا هذه القطع الـكبيرة من الأرض الالمـانية قد أصبحوا أشد أنصار السوفييت . ولـكن نتائج الانتخابات العامة ، قد أدت الى تجزئة المفاوضات كلها ، والى وصولها الى نتـــائج سابقة لأوانها ، وأنا لا أقول هـذا لأنحى باللائمـة على وزراء الحـكومة الاشتراكية التى خلفتنـــا ، والذين أقحموا فى المفاوضات دون دراسة جدية سابقة ، كما لم يكونوا على اطلاع على آرائى وخططى ، بحيث يشتبكون فى نزاع فى نهاية الأمر . ويحكمون عليه بالفشـل اذا اقتضى الأمر ، بدلا من السماح بتجاوز نهرى الاودر والنييسى الشرقى ، واعطاء الأراضى الواقعة وراءهما الى بولندا ، وكان فى الامكان اصلاح الوضع حتى فى مؤتمر بوتسدام .

ولـكن تحطيم الحكومة القومية البريطانية واختفائى عن المسرح فى ذلك الوقت الذى كنت لا أزال أتمتع فيه بنفوذ عظيم وقوة كبيرة ، قد جعلا من المستحيل الوصول الى حلول مرضية .

ولو كانت الظروف عادية ، لشعرت بالحرية فى أن أقضى بضعة أيام فى إستكمال القضايا الرسمية بالطريقة المألوفة ، وكان فى وسعى من الناحية الدستورية ، أن أنتظر إنعقاد البرلمان بعد بضعة أيام ، وأن أودّع المجلس الجديد ، وكان فى وسعى عن طريق مثل هذا الترتيب أن أتقدم الى المجلس والى الشعب قبل الاستقالة حاملا خبر إستسلام اليابان ، ولكن الحاجة الى تمثيل بريطانيا فورا تمثيلا قويا يستند الى صلاحيات صحيحة فى المؤتمر الذى غادرناه ، والذى كانت القضايا الكبرى التى بحثناها فيه مازالت معلقة أمامه ، جعلت كل تأجيل فى الاستقالة ، يتنافى مع المصلحة العامة ، وقد كان حكم الناخبين من الناحية الأخرى مُبْرَماً ومُعَبِّراً بشكل طاغ ، مما جعلنى غير راغب فى البقاء ساعة أخرى مسئولا عن تصريف شئونهم ، فطلبت التشرف بالمقابلة الملكية ، وتوجهت فى الساعة السابعة الى القصر ، حيث رفعت استقالتى الى الملك ، وأشرت على جلالته بأن يعهد بالحكم الى المستر أتلى ، ووجهت إلى الأمة الرسالة التالية التى أرى أن أختم بها هذا الكتاب :

(٢٦ يوليو ١٩٤٥)

[« لقد سجل الشعب البريطانى قراره فى الأحداث التى جمعها اليوم ، ولهذا فقد أزاح عن عاتقى المسئولية التى اضطلعت بها فى أوقات أكثر حلوكة وظلاما ، ويؤسفنى ، اننى لم يسمح لى ، باكمال العمل ضد اليابان ، ولكن جميع الخطط والاعدادات لاكمال هذا العمل قد تمت ، وستظهر النتائج فى وقت أقرب بكثير مما كان فى استطاعتنا أن نتصوره أو نتخيله ، وستقع على عاتق الحكومة الجديدة مسئوليات ضخمة فى الخارج والداخل ، ولنتوجه كلنا بالدعاء لها بأن توفق فى تحمل هذه المسئوليات .

ليس أمامى الآن الا أن أُعرب للشعب البريطانى ، الذى عملتُ من أجله ، طيلة تلك السنوات الخطيرة ، عن عميق شكرى ، للتأييد الكامل ، الذى لم تشُبْهُ أية شائبة من التردد ، والذى أولانى إياه فى أثناء قيامى بالواجب ، كما أعرب عن صادق عرفانى لمظاهر العطف التى غمر بها الشعب خادمه المطيع » .]

الخاتمة

[اتاحت لى هذه الطبعة الجديدة من المذكرات التى وضعتها عن الحرب الماضية الفرصة اليوم لاستعرض الاحداث الضخمة التى وقعت فى الاثنى عشر عاما الاخيرة التى تلت انتهاء الحرب ، ولاعرب عن آرائى تجاهها .]

فعندما غادرت بوتسدام فى الخامس والعشرين من شهر يوليو عام ١٩٤٥ ، كنت أتوقع الفوز فى الانتخابات بأغلبية معقولة ، وكان من المذهل أن تصدمنى الحقائق المرة القاسية ، ولما كانت ادارة دفة الحرب ومعالجة الأوضاع عند نهايتها الظافرة ، قد ألهتنى عن فهم حقيقة ما وقع فى الجزر البريطانية ، ولو اننى فهمتها حين ذاك ، لكان فى امكانى أن أرتب الأمور بشكل مغاير تماما ، فلقد جاء رأى أغلبية الجنود ، بعد ما أظهروه لى فى أثناء تلك الفترة من علائم الحب والنوايا الطيبة ، مفاجئا لى تمام المفاجأة ، كما كانت نتائج الانتخابات وأرقامها مفاجأة أكبر لأوروبا وأمريكا وروسيا ، لأن الجميع كانوا لا يتوقعون بعد ما رأوا من ثبات الشعوب البريطانية ما مكنها من التغلب على جميع المحن التى مرت بها فى عام ١٩٤٠ ، والذى جعل من السهل عليها أن تجتاز سنوات النضال الخمس منتصرة ظافرة ، الا تتبدل الحكومة .

كما لم أحاول فى أثناء مؤتمر بوتسدام حتى اللحظة الأخيرة أن أشتبك مع روسيا فى خصام ، بسبب سلوكها الذى يبعث على الدهشة والذهول منذ أيام مؤتمر يالتا ، وكان املى كبير فى الا تنسحب الجيوش الأمريكية من المناطق الواسعة التى احتلوها فى أوروبا الوسطى ، فلقد كانت هذه هى الورقة الرابحة الوحيدة التى يحملها الحلفاء فى أيديهم عندما توقف القتال ، للوصول عن طريقها الى تسوية مرضية ، ولم تكن

بريطانيا تطلب شيئا لنفسها ، ولكنى كنت واثقا من أنها كانت ترى فى هذا التقدم الذى تقوم به روسيا فى جميع الاتجاهات ، شيئا يفوق كل ما هو عدل ، وظهر أن الأمريكيين لم يكونوا مدركين لخطورة الوضع ، أما الدول التابعة ، كما أصبحت تدّعى ، فتحتلها الجيوش الروسية ، كما كانت برلين فى أيديهم ، مع أنه كان فى وسع مونتجمرى أن يحتلها لو سُمِحَ له بذلك ، وكان الروس يسيطرون على فيينا ، ولم يكن يسمح لممثلى الحلفاء ، حتى كأفراد بالوصول الى العاصمة المهمة ، أما بالنسبة للبلقان ، فقد أصبحت رومانيا وبلغاريا محتلتين ، كما كانت يوغوسلافيا تهتز تحت تيتو زعيمها الوطنى المشهور ، وكان الروس قد إحتلوا براغ بموافقة أمريكا كما يبدو ، وهم يسيطرون على بولندا التى إتُّفِقَ على أن يمتد حدها الغربى الى قلب أوروبا على حساب ألمانيا ، ومع ذلك فقد إتضح أن وجهة النظر الأمريكية كانت ترى أن هـذه الأمور ضرورية للابقاء على ألمانيا تحت السيطرة ، كما كانت تهدف الى عدم الوقوف فى صف بريطانيا ضد روسيا .

وقد سافرت عندما حل الشتاء الى الولايات المتحدة حيث قضيتُ فيها عدة أشهر ، زرت خلالها البيت الأبيض ووزارة الخارجية ، كما تلقيت دعوة لألقى خطابا فى كلية وستمنستر فى فولتون ، وميسورى فى شهر مارس عام ١٩٤٦ ، ولما كان أمامى بضعة أشهر قبل حلول موعد الخطاب فقد ظللت أطلع على الأحداث أولا بأول ، كما استفهمت من البيت الأبيض ومن وزارة الخارجية ، عما اذا كانت إثارتى لبعض الموضوعات ستحدث حرجا للحكومة الأمريكية ، فأكد لى الجميع ، بأن فى وسعى أن أقول كل ما أريد ، ولذلك فقد عكفت على اعداد خطابى اعدادا لائقا ، وفى أثناء هـذه الفترة ، بدأ الوضع المتمثل فى شراهة روسيا والشيوعية الدولية التى لا تشبع ، والذى يواجهنا ، يترك أثره وانطباعاته القومية فى الأوساط الأمريكية .

وقد عرضت النقاط التى أعددتها على المستر بيرنز وزير الخارجية الأمريكية فوجدته متفقا مع آرائى الى حد كبير ، ولما حل الموعد ، دعانى الرئيس للسفر معه فى قطاره الخاص حيث كان سيرأس المحاضرة ، فمضينا الليل كله فى القطار حتى وصلنا الى فولتون ، وقضينا معا وقتا ممتعا ، ولما كنت واثقا من أن وزير الخارجية قد أُطلع الرئيس على المخطط العام لمحاضرتى ، وقد ظهر لى أنه كان راضيا عنه ، فقد قررت

أن أُلقيه كما وضعته ، لأن الانسان يجب أن يكون على حذر فى موضوع الخُطب التى يلقيها فى بلاد الآخرين ، وهذا بعض ما قلته فى المحاضرة :

(« لقد خَيَّمَ ظِلٌّ ثقيلٌ على المناطق التى أضاءتها انتصارات الحلفاء مؤخرا ، ولا يدرى الانسان ، ماذا تنوى روسـيا السوفيتية ومنظمتها الشيوعية الدولية ، أن تفعلا فى المستقبل القريب ، أو ما الحدود « ان وجدت » لاتجاهاتها الواسعة والتبشيرية ؟ .

وانى لمعجب أشد الاعجاب بالشعب السوفييتى الشجاع واحترمه كل الاحتـرام ، كما أعجب بزميلى أيام الحـرب الماريشـال سـتالين وأحترمه ، كما ان هناك احساسا عميقا من العطف وحسن النيّـة فى بريطانيا وهنا كما أعتقد نحو شعوب روسيا كلها ، كما ان هناك تصميما على الاستمرار برغم جميع الخلافات والصدمات ، على اقامة صداقات دائمة ، ونحن نفهم تمام الفهم حاجة روسيا الى الطمأنينة على حدودها الغربية ، وازالة كل احتمال للعدوان الألمانى ، كما نرحب بروسـيا فى المكان الذى تستحقه بين دول العالم القائدة ، ويسرنا أن نرحب بِعَلَمِها يخفق فوق البحار ، وفوق ذلك كله فاننا نرحب بالاتصالات المستمرة والدائمة والمتزايدة بين الشعب الروسى وبين شـعبينا على جانبى الأطلنطى .

ومع ذلك فان واجبى يفرض علىّ ـ وأنا واثق من أنكم تريدون منى ذلك ـ أن أذكر لكم الحقائق كما أراها ، وأن أضع تحت أعينكم بعض القضايا التى تتعلق بالأوضاع الراهنة فى أوروبا .

فقد هبط ستار حديدى على القارة الأوروبية ، ممتدا من ستيتين على بحر البلطيق الى تريستا على بحر الادرياتيك ، ووراء هـذا الستار تقوم عواصم جميع الدول العريقة فى أواسط أوروبا وشرقيها ، فوارسو، وبرلين وبراغ وفيينا وبودابست وبلغراد وبوخارست وصـوفيا ، أجل كل هـذه المدن الشهيرة وما حولها من سكان ، تقوم الآن ويقيمون فى المنطقة التى أدعوها بالسوفييتية ، وكلها تتعرض بشـكل أو بآخر ، لا للنفوذ السوفييتى فحسب ، بل الى حد ضخم من اشراف موسكو وسيطرتها فى كثير من الحالات ، أما أثينا ـ «اليونان الخالدة بأمجادها» ، فهى الوحيدة التى لها مطلق الحرية فى تقرير مستقبلهـا فى انتخابات تجرى فى ظل مراقبـة بريطانية وأمريكية وفرنسـية ، وقد شجعت الحكومة البولندية التى يسيطر عليها الروس ، على أن تقوم باغتصابات ضخمة وخاطئة من ألمانيا ، وها نحن أولاء نشـهد الآن طرد وتشريد

الملايين من الألمان على نطاق ضخم لا مثيل له فى التاريخ وبشكل محزن ومؤلم ، وقد ارتفعت الأحزاب الشيوعية التى كانت صغيرة جدا فى جميع دول أوروبا الشرقية الى مرتبة البروز والسيطرة ، دون أن يتفق هذا مع قوتها العددية ، وهى تحاول فى كل مكان الوصول الى السيطرة الجماعية ، كما تسيطر الحكومات البوليسية فى كل مكان وليست هناك ديموقراطية حقيقية فى أى مكان باستثناء تشيكوسلوفاكيا .

وقد أصاب الفزع العميق كلا من تركيا وايران من جراء هذه المطالب التى تتقدم بها حكومة موسكو إليهما ، ومن جراء هذا الضغط الذى تفرضه عليهما ، ويقوم الروس فى برلين بمحاولة لاقامة حزب شبه شيوعى فى المناطق التى يحتلونها من ألمانيا ، عن طريق ما يبدونه من عطف خاص على الجماعات ذات الجناح اليسارى ، وقد انسحبت الجيوش الأمريكية والبريطانية فى نهاية الحرب فى شهر يونيو ، غربا ، طبقا لاتفاق سابق الى مسافة تبلغ فى بعض النقاط مائة وخمسين ميلا على جبهة تمتد أربعمائة ميل ، وذلك لكى نسمح لحلفائنا الروس باحتلال هذه المساحات الشاسعة من الأرض التى فتحتها قوات الدول الديموقراطية الغربية .

واذا ما حاولت الحكومة السوفييتية الآن عن طريق عمل فردى ، أن تقيم ألمانيا موالية للشيوعية فى المناطق التى تحتلها ، فان هذه المحاولة ستخلق متاعب خطيرة وجديدة فى المناطق البريطانية والأمريكية ، وستعطى للألمان المهزومين القدرة على المساومة بين السوفييت والديموقراطيات الغربية ، ومهما كانت النتائج التى نصل اليها من هذه الحقائق ــ وهى حقائق حتما ــ فانها ليست الصورة التى حاربنا من أجلها ، والتى أردناها لأوروبا المحررة ، كما انها ليست الصورة التى تشتمل على أسس السلام الدائم »

وكان الجمهور يصغى الى باهتمام زائد ، كما أعرب الرئيس والمستر بيرنز عن استحسانهما لما قلت ، أما الصحف فقد صدرت وهى مليئة بالتعليقات المختلفة ، وعندما وصلت الأنباء الى روسيا قوبلت مقابلة سيئة ، ورد على ستالين كما ردت على البرافدا ، وهذا ما كنت أتوقعه ، وقد وصفتنى البرافدا بأننى « داعية للحرب ومن أعداء السوفييت » وقالت اننى أحاول تحطيم الأمم المتحدة ، واتهمنى ستالين بأننى أدعو لمحاربة الاتحاد السوفييتى وشبهنى بهتلر .

كما وُجِّهَتْ أيضا أسئلة بصدد هذا الخطاب فى مجلس العموم ، وقد رد عليها المستر آتلى الذى كان رئيسا للوزراء فى ذلك الحين ، بأنه لا يطلب الى الحكومة أن تبين وجهة نظرها فى خطاب يلقيه مواطن عادى فى بلد أجنبى .

وكان من المقرر أن أُلقِى خطابا آخر بعد بضعة أيام فى نيويورك ، حيث أكون ضيفا على رئيس البلدية والمجلس البلدى ، ورأيت لافتات شيوعية تحيط بفندق والدروف أستوريا ، الذى كان من المقرر أن ألقى خطابى فيه ، فى أثناء مأدبة العشاء التى تقام تكريما لى ، وفوجئت أيضا بامتناع المستر دين اتشيسون ، وكيل وزارة الخارجية عن حضور المأدبة ، ولما سمع المستر جون وينانت بهذا التغيير فى الخُطّة وهو فى واشنطن بعد الظهر ، استقل فورا القطار ووصل فى أثناء المأدبة لكى يؤيدنى ، وليلقى خطابا وديا للغاية ، وقد جاء فى خطابى ما يلى :

[وعندما تحدثت فى فولتون قبل عشرة أيام ، شعرت أن ليس من الضرورى بالنسبة لشخص لا يشغل مركزا رسميا ، أن يتحدث فى عبارات متحفظة حول الأوضاع الراهنة فى العالم ، وانى لا أرغب فى أن أعدل كلمة واحدة مما قلته فى ذلك الخطاب ، ولقد دعيت لأقول رأيى بحرية فى هذه البلاد الحرة ، وانى لواثق من أن الأمل الذى أعربت عنه فى تزايد الترابط بين بلدينا ، سيتحقق حتما ، لا بسبب خطاب يقال ، بل للتيارات التى تسرى فى القضايا الانسانية ، وفى سير مصير العالم الذى أخذ فى التكشف .

والسؤال الواضح الصريح فى رأيى ، هو هل يتحقق الانسجام الضرورى فكرا وعملا ، بين الشعبين البريطانى والأمريكى بصورة واضحة وكافية ؟ وبشكل سريع ، بحيث يضمن الحيلولة دون وقوع صراع عالمى جديد ، أو انه لن يقع هذا الانسجام الا بعد أن يكون الصراع العالمى قد وقع كما حدث فى الماضى ؟

على أى حال دعونى أقول لكم ، ان تقدم جميع شعوب العالم وحريتها ، فى ظل حكم من القانون تفرضه منظمة عالمية أمران لن يتحققا ، ولن يحل عهد من الرخاء دون جهود مستمرة وصادقة وغير هيابة من نظامى المجتمع فى بريطانيا وأمريكا .]

وقد أخذ الغليان والاضطراب فى الصحف والرأى العام يشتدان كما أخذ جو من الاثارة والحماس يتزايد .

وقد قضيت مطلع خريف عام ١٩٤٦ فى منزل على شواطىء بحيرة جنيف ، وعندما حان أوان أوبتى للوطن ، قمت بزيارة ممتعة الى جامعة زيوريخ ، والقيت في طلابها خطابا عن مأساة أوروبا وعن الحالة التى وصلت اليها ، ودعوت الى اقامة ولايات متحدة أوروبية أو شيء من هذا القبيل ، وقلت :

« لقد سرنى غاية السرور ما قرأته فى الصحف قبل يومين ، من أن صديقى الرئيس ترومان قد أبدى اهتمامه وعطفه على هذا المشروع العظيم ، ولا أرى سببا هنـــاك يدعو الى وجود أى تضارب بين منظمـة اقليمية من هذا النوع وبين منظمة الأمم المتحـدة العالمية ، وانى على النقيض من ذلك أعتقد بأن المنظمة الكبيرة لن يقدر لها العيش الا اذا قامت على أساس مجموعات منسجمة انسجاما طبيعيا ، فهناك مجمـوعة منسجمة طبيعيا تقوم فى منتصف الكرة الغـــربى ، كما نملك نحن البريطانيين جامعة شعوبنا البريطانية ، ومثل هاتين المنظمتين لا تضعفان المنظمة العالمية وانما تدعمانها وتقويانها ، انهما فى الحقيقة الدعامة التى تدعمها ، فلم لا تكون هناك أيضا مجموعة أوروبية ، تضفى معنى أوسع من الوطنية والرعاية المشتركة على الشعوب المستضعفة فى هذه القارة القوية ، والملأى بالمشاغبات والفتن ؟ ولم لا تأخذ مكانها الصحيح مع المجموعات الكبيرة الأخرى فى تقرير مصير الانسانية ، وللوصول الى هذا يجب أن يكون هناك احساس من الايمان تشـترك فيه ملايين الأسر التى تتحدث لغات مختلفة اشتراكا واعيا .

وكلنا يعرف أن الحربين العالميتين اللتين خضناهما ، قد نشأتا عن رغبـة عابثة من جانب المانيـا ، التى أرادت أن تلعب دورا مسـيطرا على العالم ، فعلينا أن ننزع من المانيا القدرة على اعادة التسلح وعلى شن حرب عدوانية أخرى ، ولكن عندما يتم هذا كما يجب أن يتم ، فيجب أن تكون هناك نهاية للقصاص والعقوبة ، ويجب أن يكون هناك ما أسماه المستر جلادستون قبل سنوات ، « بعمل مبارك من أعمال النسيان » .

وعلينا أن نتناسى جميعا أهوال الماضى ومتاعبه ، وأن نتطلع الى المستقبل دون أن نحمّل السـنوات القـادمة الكراهيات والثارات التى تخلفت عن اساءات الماضى ، واذا قدر لأوروبا ، أن تنجو من التعاسة التى لا حدود لها ، وأن تتخلص من الدمار النهائى ، فيجب أن يكون هناك ايمان بالعائلة الأوروبية ، وأن يكون هناك نسيان لجميع جرائم الماضى وحماقاته .

وسأقول الآن شيئا قد تذهلون له ، ان الخطوة الأولى لخلق الأسرة الأوروبية هي في قيام شركة بين فرنسا وألمانيا ، فبهذه الطريقة وحدها تستطيع فرنسا استعادة زعامتها الأوربية لأوروبا ، ولا يمكن أن يكون هناك بعث لأوروبا بدون وجود فرنسا عظيمة روحيا وألمانيا عظيمة روحيا ، وسيكون كيان الولايات المتحدة الأوروبية ، اذا قدر لها أن تقوم على أسس قوية وصحيحة من النوع الذي يجعل القوة المادية لأية دولة منفردة غير ذات أهمية ، لكي تكون للدول الصغرى قيمة الدول الكبرى نفسها ، وستحقق جميعها كرامتها عن طريق الاسهام في القضية المشتركة ، وفي وسع دول ألمانيا واماراتها العريقة التي اتحدت لمنافع متبادلة في نظام اتحادي ائتلافي (فيدرالي) أن تأخذ مركزها الفردي كما تشاء في الولايات الأوروبية المتحدة ، ولن أحاول وضع برنامج مفصل لمئات الملايين الذين يريدون أن يعيشوا سعداء وأحرارا ، مرفهين وآمنين ومطمئنين ، والذين يرغبون في أن يتمتعوا بالحريات الأربع التي تحدث عنها الرئيس العظيم روزفلت ، وأن يعيشوا طبقا للمبادىء التي تضمنتها اتفاقية الأطلنطي واذا كانت هذه هي أرادتهم فعليهم أن يعلنوها ، وفي الامكان ايجاد الوسائل واقامة الأجهزة التي تضمن لرغبتهم الأثمار الكامل .

ولكني أرى لزاما على أن أحذركم ، فالوقت قد يكون قصيرا ، اننا الآن نعيش فترة استراحة ، فقد توقفت المدافع عن الانطلاق ، ووقف القتال ، ولكن الأخطار ما زالت قائمة ، واذا كان لزاما علينا أن نصف الولايات المتحدة الأوروبية ، أو أن نسميها أية تسمية نشاء ، فعلينا أن نبدأ الآن » .

هذه هي الأفكار التي ساورتني في عام ١٩٤٦ ، وقد بدت لفرنسا المعذبة التي نجت أخيرا من الاحتلال والاذلال ، فكرة الترابط الوثيق مع جلادها الذي أخضع أخيرا ، شيئا لا يمكن تصوره ، ولكن انسياب الاخوة الأوروبية قد عاد تدريجيا الى شرايين فرنسا وعروقها ، وتغلب العقل الغالب الطبيعي أخيرا على مرارات الماضي .

وكنت ولا أزال أحترم الشعب الروسي الباسل كل الاحترام ، الا أن ظل هذا الشعب أناخ بكلكله المدمر على مسرح ما بعد الحرب ، ولم تكن هناك حدود مرئية للضرر الذي يمكن لهذا الظل أن يحدثه ، ولما كانت بريطانيا وأمريكا ، بتصميمهما الكلي على الانتصار على دول المحور ، لم تضعا الشروط الكافية لتقرير مصير أوروبا المثلة ومستقبلها ، فقد

خضنا الحرب لا دفاعا عن استقلال البلاد الصغيرة فحسب ، بل لنعلن الحقوق للأفراد ولنضمنها أيضا ، كما نضمن الحريات التى تُقوم عليها أسس الحياة الخلقية ، ولما كانت لروسيا السوفييتية أهداف أخرى تهتم بها ، فقد شددت قبضتها على الأراضى التى اجتاحتها جيوشها ، وأقامت حكومات ائتلافية فى جميع الدول القابعه وراء الستار الحديدى يشترك فيها الشيوعيون ، وكان الأمل يتركز فى امكان الاحتفاظ بالديموقراطية بأى شكل من الأشكال ، ولكن الشيوعيين أخذوا يضعون أيديهم على المراكز المهمة فى بلدة بعد أخرى ، ومن ثم شرعوا فى اضطهاد الأحزاب السياسية الأخرى ومضايقتها ، مطوحين بزعمائها الى حياة النفى والتشريد ، كما جرت محاكمات واعمال تطهير ، وفى الحال سيطرت الشيوعية على رومانيا والمجر وبلغاريا .

وقد كافحتُ كفاح الجبابرة دفاعا عن بولندا فى مؤتمرَىْ يالتا وبوتسدام ، وبَاءَ كفاحى بالفشل .

وقام الوزراء الشيوعيون بانقلاب مفاجىء فى تشيكوسلوفاكيا مما اثار يقظة الرأى العام العالمى ، وتحطمت الحرية فى داخل البلاد . وحظر عليها التعامل بحرية مع الغرب .

كما يرجع الفضل الى بريطانيا على الغالب ، فى بقاء اليونان مستقلة بصورة غريبة بين هذه الدول ، فقد خاضت بمساعدة بريطانيا وامريكا حربا أهلية طويلة ، ضد العصاة الشيوعيين ، وبعد كل تلك الجهود والآلام الطويلة التى فرضتها الحرب الكونية الثانية تبين أن أكثر من نصف أوروبا لم يفعل أكثر من استبدال طغيان بآخر .

وتبدو هذه النقاط اليوم شيئا عاديا مألوفا ، وقد أصبح الكفاح الطويل وغير الفاشل الى حد ما ، لوقف تيار الاجتياح الروسى أو الاجتياح الموحى به من الروس جزءا من أعمالنا اليومية وحياتنا ، وكان من الضرورى حقا فى بعض الأحيان ، كما هى الحالة بالنسبة الى القضايا الصحيحة ، تخفيف الحماس والتنكر للانتهازية ، ولم يكن من السهل أبدا فى ذلك الوقت أن ينتقل الانسان بأفكاره من انتصار عظيم منهك على طغيان واحد ، الى توقع حملة مضنية وباهظة التكاليف ضد طغيان آخر .

وكانت منظمة الأمم المتحدة لا تزال فى طفولتها ، الا أنه اتضح منذ البداية ، ان العيوب الموجودة فيها قد تقيم الدليل على انها من الخطورة

الى الحد الذى يُبطل الأهداف التى قامت من أجلها . على أى حال تبين أنها لا تستطيع أن تؤمن بسرعة وبصورة فعالة بتلك الوحدة ، وتلك القوى المسلحة التى تحتاج اليها أوروبا الحرة والولايات المتحدة للمحافظة على كيانهما ، وكنت قد اقترحت فى محاضرة فولتون أن تكون الأمم المتحدة مجهزة بقوة دولية مسلحة ، كما ألححت بالنسبة الى المستقبل الراهن والى المستقبل البعيد المدى على استمرار العلاقة الانجليزية — الأمريكية الخاصة ، التى كانت احدى النظريات الأساسية التى كرّست لها حياتى السياسية .

وهنا قلت فى الخطاب نفسه :

« فليس فى امكان التثبت مع منع الحروب ، ولا فى امكان النهوض المستمر للمنظمة العالمية أن يتحققا دون ما أسميته بالترابط الأخوى للشعوب الناطقة بالانجليزية ، وهذا الترابط يعنى قيام علاقة خاصة بين جامعة الشعوب البريطانية وامبراطوريتها وبين الولايات المتحدة ، وفى وسع هذه العلاقة أن تحمل معها استمرارا للتسهيلات الراهنة المتخذة للسلامة المشتركة عن طريق استخدام القواعد البحرية والجوية فى البلدين بصورة متبادلة ومشتركة ، وفى جميع أنحاء العالم ، وبما أن الولايات المتحدة قد عقدت اتفاقا دفاعيا دائما مع الحكومة الكندية ، فان الواجب ان يعقد مثل هذا الاتفاق مع جميع دول جماعة الشعوب البريطانية على أساس التبادل الكامل » .

وقد قدر للسنوات الثلاث التالية ، أن تشهد مشروعا اقترب من تحقيق هذا الهدف وان لم يصل اليه تماما .

ولا أريد أن احتكر الفضل فى جميع هذه الأمور ، ولعل من مزايا المعارضة ، ان الانسان الذى يكون فى خارج الحكم ، يستطيع أن يمضى بخياله الى آفاق أوسع من تلك التى يمضى اليها أولئك الذين شاء لهم طالعهم أن ينقلوا المخططات الى حيز التنفيذ ، فقد تمكنت الحكومة البريطانية بوحى من ذلك الانسان ذى القلب الكبير والحكمة البالغة المستر أرنست بيفن ، أن تتولى زمام القيادة فى اعادة بناء جزء من المجتمع الأوروبى ، أو ما تبقى من أوروبا على الأقل ، وقد كانت الأفكار الأولى منبعثة من الأخطار الناجمة عن احتمال بعث ألمانيا ، وقد وقّعت بريطانيا

وفرنسا فى عام ١٩٤٧ معاهدة دنكرك ، التى التزمتا فيهما أن تساعد الواحدة منهما الأخرى فى حالة تعرضها لهجوم ألمانى ، الا أن حقائق الحاضر غير المطمئنة ، أخذت تكشف مخاوف الماضى .

وبعد مضى اشهر طويلة من النشاط الديبلوماسى ، تم التوقيع على معاهدة بروكسل فى عام ١٩٤٨ ، وتعهدت كل من فرنسا وبريطانيا العظمى وهولندا وبلجيكا ولوكسمبرج ، بموجب هذه المعاهدة ، بأن تساعد بعضها بعضا فى حالة تعرض أى منها لعدوان أيا كان مصدره ، ولم يذكر اسم ألمانيا فى هذه المعاهدة .

وقد تم انشاء منظمة عسكرية برياسة الماريشال مونتجمرى ، لتقدير الموارد المدّخرة للدفاع ، ولوضع خطة تتناول هذه الموارد ، وقد أُسميت هذه المنظمة بالاتحاد الغربى ، وقد أيدتُ هذه الاجراءات ، وأعربتُ عن أملى بقوة ، فى أن تَحمِل الولايات المتحدة على نوع من الارتباط معها ، اذ بدون مساعدتها ، تكون المنظمة ناقصة الى حد مخيف .

وكنا سعداء فى أن يكون على رأس وزارة الخارجية الأمريكية فى هذا الوقت الجنرال ماريشال ، البعيد النظر والكثير الاخلاص ، الذى عملنا معه بروح الزمالة الوثيقة والثقة طوال سنوات الحرب ، وقد حاول الجنرال والرئيس ترومان ، ضمن الحدود التى يفرضها الكونجرس والرأى العام الأمريكى ، أن يضيفا وزنا وأهمية للجهود التى كانت تبذل حين ذاك فى أوروبا ، وقد اثمرت الجهود المبذولة على جانبى الأطلنطى ، وتم التوقيع فى شهر أبريل عام ١٩٤٩ ، على معاهدة شمال الاطلنطى ، التى التزمت الولايات المتحدة بموجبها ، لأول مرة فى تاريخها ، مع مراعاة الحقوق الدستورية للكونجرس ، بمساعدة حلفائها اذا ما هوجموا ، وقد تضمنت الدول الأوروبية التى وقعت على المعاهدة بالاضافة الى دول معاهدة بروكسل ، كلا من النرويج والدانمارك وايسلندا وايطاليا والبرتغال ، كما وقعت كندا أيضا على المعاهدة مقدمة دليلا اضافيا جديدا على الثقة التى كنا نصفها — نحن فى بريطانيا — دائما فى صداقتها وولائها .

وكان العمل الذى تلا ذلك معقدا كل التعقيد ، وقد نجم عنه اقامة منظمة حلف الاطلنطى ، التى ترأسها هيئة تخطيط عسكرية ، يتولى قيادتها الجنرال أيزنهاور ، الذى جعل مقر قيادته فى فرساى ، ونشأ من الجهود التى بذلتها القيادة العليا لمنظمة حلف شمال الاطلنطى فى أوروبا

ثقة هادئة ورصينة فى أن أى غزو قادم من الشرق ، سيلقى مقاومة فعالة ومنتجة .

ومن الثابت ان حلف الاطلنطى قد حقق بوجوده فى البداية أكثر مما حقق بعمله ، فقد أعاد الى أوروبا الثقة ، ولا سيما البلاد الواقعة على مقربة من الاتحاد السوفييتى وتوابعه ، وقد سبب هذا الاثر انحسارا لحق بقوة الاحزاب الشيوعية فى البلاد المهددة ، وفى بعث ظهر فى النشاط القومى الصحيح فى ألمانيا الغربية .

وقد ظلت قضية اشراك المانيا فى حلف الاطلنطى فى مقدمة الخطط الغربية ، ولكن كان من الصعب تبديد مخاوف فرنسا من اعادة بعث الجيش الألمانى ، وكان هذا الموضوع صالحا لاستخدام ذوى النوايا السيئة والمخدوعين ، فى آن واحد ، فقد غزا الألمان فرنسا ثلاث مرات فى بحر سبعين عاما ، وكان من الصعب أن ينسى الفرنسيون « سيدان » وحمام الدماء فى فردان ، وانهيار عام ١٩٤٠ ، والاحتلال الطويل الأمد فى الحرب الكونية الثانية ، الذى حطم الكثير من الولاء وجعل الفرنسى يقاتل أخاه الفرنسى ، وأحسست فى بريطانيا بشعور العداء من أجل اعطاء أية أسلحة ، حتى ضمن حدود أقسى الضمانات والالتزامات الى الجمهورية الألمانية الجديدة .

ولما كان أى غزو سوفيتى لأوروبا الغربية لا يمكن صده دون معاونة الألمان ، وقد جُرِّبَتْ خُطَطٌ عِدَّة وفَشِلَتْ ، فقد تولى الفرنسيون زمام القيادة فى قيام ادماج أوسع لأوروبا الغربية في القضايا المدنية ، كما تبنوا مشروعا لقيام جيش أوروبى بزى موحد ، تَدْخُلُ فيه الوحدات الألمانية دون أى تهديد لجيرانها ، ولم أهتم بهذه الفكرة ، فمن الصعب أن تجعل مزيجا غريبا يضم جنودا من نحو ستة شعوب ، يحمل الولاء نفسه ، ويتبادل مشاعر الثقة التى هى ضرورية بين الزملاء فى المعركة ، وبذلك لم يتحقق اسهام ألمانيا المباشر ، عن طريق جيشها القومى فى قوة الغرب ، الا بعد مضى عدة سنوات ، ومع ذلك فلم ينفذ من المشروع الجديد حتى الآن ، الا القليل ، أما أنا فكنت لا أرى ضيرا فى التعاون مع عدوى عند ما تنتهى الحرب ، بكل ما ينطوى عليه هذا التعاون من تعاون ضد خطر خارجى .

وقد واصلتْ الولايات المتحدة جنبا الى جنب مع هذه التطورات التى كان القسم الأكبر منها لا يزال على الورق ، اظهار تصميمها على

مساعدة أوروبا ، ومساعدة نفسها عن هذا الطريق ، فقبل توقيع حلف الأطلنطى بزمن طويل ، كانت الطائرات الأمريكية ترابط فى شرقى انجلترا بأعداد كبيرة ، وكانت هذه القوات كابحا عمليا وادعا ، ولكن مع الأسف ، فان الجهاز الرائع لهيئة أركان الحرب البريطانية والامريكية المشتركة ، التى كانت بانية التخطيط الذى قادنا إلى النصرة ، حل بناء على إقتراح أمريكى ، ولم يكن فى وسع أى جهاز آخر أن يضاهيه روعة وقوة ، كما انه لا يمكن لاحسن الترتيبات التى أعدها حلف الأطلنطى ، إلا أن تعتبر ظلا تعسا ، لتلك المنظمة الاخوية والقوية التى كانت قائمة وموجودة .

وقد جاءت التجربة العصيبة فى شهر يونيو عام ١٩٤٨ عندما قطع الروس برلين عن العالم الخارجى ، وكانت غايتهم ادخال برلين كلها فى الدولة الشيوعية التى أقاموها فى شرقى المانيا ، وبدا أن على بريطانيا وفرنسا وأمريكا اما أن تتخلى عن المدينة أو تبعث بقوافل التموين اليها من المانيا الغربية بطريق القوة ، وهو حق مشروع لها ، وقد عثر على حل لحسن الحظ ، أمكن عن طريقه تجنب الكثير من الأخطار ، فقد بدأ الجسر الجوى فى العمل ، وحتى أوائل فبراير عام ١٩٤٩ ، كان قد نقل أكثر من مليون طن من المؤن الى برلين بوساطة الطائرات الأمريكية والبريطانية طوال مدة الحصار وهى ثمانية شهور ، وقد اضطر الروس الى الاذعان فى الوقت المناسب ، وتخلوا عن الحصار الذى فرضوه .

وكانت المساعدة الاقتصادية للحلفاء أمرا حيويا ، فنحن فى بريطانيا انفقنا أموالا ضخمة فى الحرب ، بحيث اننا مهما اقتصدنا فسنظل نعانى ضائقة شديدة ، وعلى الرغم من القرض الأمريكى الضخم ، فان الوضع كان يتجه عندنا نحو الخطورة ، كما كانت بقية أجزاء أوروبا تعانى الحالة نفسها على درجات متفاوتة ، ولولا مشروع العون الاقتصادى الذى وضعه الجنرال ماريشال والتعاون المتبادل مع ست عشرة دولة أوروبية أخرى ، فان أوروبا كانت ستنهار حتما الى حالة من الخراب والفقر ، تنمو فيها جذور الشيوعية بسرعة هائلة .

وكان هناك رأى آخر لآمالنا المتعلقة بتوحيد أوروبا وتقويتها لمواجهة أى عدوان خارجى ، أو هدم داخلى ، فالأفكار التى استهللت بها خطابى فى فولتون ، قد ترجمت الى حد كبير الى أفعال وحقائق عن طريق الجهود الحكومية ، وسلسلة المعاهدات والمنظمات الرسمية التى شرحتها بايجاز ، وكان من المهم جدا بالنسبة للمفاهيم البعيدة المدى ، عن فكرة أوروبا المتحدة التى جعلناها مَثَلْناَ الأعلى النهائى ، أن تجد لها ندوة تناقش

فيها وتدرس ، وكان يوجد عدد كبير من أبرز الساسة الاوربيين وقادة الفكر يحملون الآراء نفسها ، وقد شرعنا فى عام ١٩٤٧ فى « الحركة الأوروبية » التى تستـــتهدف الدعوة الى وحدة أوروبا ، وبحث الوسائل التى تؤدى الى تنفيذها عمليا ، ولكن بصورة تدريجية ، لأن من الخطأ فى المشروعات الضخمة ، أن يحاول المرء تنفيذ كل شيء فورا ، كما أنه من الصعب فى قضايا من هذا الطراز أن يحاول المرء التخطيط وكأنه فى عمليه عسكرية ، وكانت مهمتنا اقامة اتحادات ووشائج أدبية وثقافية وأخلاقية واجتماعية فى جميع أنحاء العالم •

وقد قويت شوكة « الحركة الأوروبية » واشتد نشاطها ، وأدت دورا بارزا فى التفكير الحكومى ، وقد اشار الجنرال مارشال ، الى أن هذه الفكرة كانت من جملة الأسباب التى حملته على وضع مشروعه لمساعدة أوروبا اقتصاديا ، وأثمرت المناقشات المتعددة التى جرت عن خلق المجلس الاوروبى فى عام ١٩٤٩ ، متخذا مدينة ستراسبورج مركزا له ، وتم فى هذه المدينة انجاز الكثير من الأعمال النافعة مع اختلاف الخطوط وظلال الدعايات •

هذا وقد احتلت القنبلة الذرية ، وطفلتها القنبلة الهيدروجينية ، وهما آخر ما امتلكه الانسان من الأسلحة المدمرة الشاملة للبشرية ، المكانة المتألقة ، فى جميع افكارنا المتعلقة بشئون الدفاع ، وكانت بريطانيا والولايات المتحدة ، قد اتفقتا فى مطلع الحرب الماضية،على تجميع معلوماتهما وتجاربهما فى البحث النووى ، وقدمنا بلا ثمن ، ثمار ســـنوات من الاكتشافات والتجارب التى توصل اليها الرواد من علماء الطبيعة الانجليزية فى هذ الميدان ، كاسهام منا للمشروع السرى الضخم المشترك ، الذى شرع فى تنفيذه فى الولايات المتحـدة وكندا ، وكان فى وســـع هؤلاء الذين خلقوا هذه الأسلحة ، أن يسيطروا على العالم ويستعبدوه ، كما كان يفعل غيرهم ، من ذوى الأيدى المشكوك فى صدقها ، ولكنهم أثبتوا جدارتهم بمسئولياتهم ، الا أن الأسرار تسربت على أى حال الى الاتحـــاد السوفييتى ، فساعدت العلماء الروس الى حد كبير فى أبحاثهم ، وانعكست بعد ذلك جميع النظريات المقبولة عن الاستراتيجية العسكرية ، وخلق نظام جديد لم تكن تحلم به من توازن القوى ، يقوم على أساس حيازة وسائل الابادة المتبادلة •

وقد شعرت فى نهاية الحرب العظمى بالرضا عن نفسى ، لأنى توصلت مع الرئيس روزفلت فى كويبك فى عام ١٩٤٣ الى أحسن اتفاق فى هذا

لصدد ، وقد نص على التأكيد بأن بريطانيا وأمريكا لن تستخدما هذه لأسلحة ضد بعضهما البعض ، كما أنهما لن تستخدماه ضد فريق ثالث لا بعد الاتفاق المشترك بينهما ، وألا تقوما بنقل أية معلومات تتعلق بالموضوع الى فريق آخر الا بعد موافقة مشتركة من الدولتين المتعاقدتين.

الا أن الكونجرس الأمريكي أصدر فى عام ١٩٤٦ قانونا يحظر بموجبه نقل أية معلومات من الحكومة الأمريكية الى أية دولة أخرى ، وكان الشيخ مكماهون الذى تبنى مشروع القانون لا يعرف شيئا فى هذا الوقت عن اتفاق كويبك ، وقد ابلغنى فى عام ١٩٥٢ ، أنه لو كان يعلم بوجود هذا الاتفاق لما صدر قانون مكماهون ، وقد وجهت الحكومة البريطانية الاشتراكية (العمالية) احتجاجا فى هذا الصدد ، كما انها لم تكشف عن اتفاقية كويبك والافضاء بوجودها ، الى لجنة مكماهون على الأقل ، ولو فعلت ذلك لبررت موقفنا ، ولوفرت علينا سنوات طويلة من البحث المضنى والباهظ التكاليف ومن التطوير أيضا ، وهكذا حرمت بريطانيا حصتها فى المعلومات التى كان لها حق مؤكد فيها ، وبذلك فاننا لم نتمكن من تفجير قنبلتنا الذرية الا فى عام ١٩٥٢ .

وهكذا فان الأساس المضمون لآمالنا فى السلام يرتكز على هذه الناحية ، أى على حيازة أمريكا وتفوقها فى الأسلحة النووية ، ولا تعتبر جيوش الدول الغربية شيئا مهما ، اذا ما قورنت بالعدد الذى لا يحصى من الفرق التى تستطيع روسيا نشرها من البلطيق الى حدود يوغوسلافيا ولكن المعرفة الأكيدة بأن الزحف الذى سيؤدى الى اطلاق القوة الجوية المدمرة من عقالها ، هى الكابح الزاجر .

وعندما كانت الولايات المتحدة هى المالكة الوحيدة والفعالة للأسلحة الذرية ، كانت هناك فرصة للوصول الى تسوية عامة ودائمة مع الاتحاد السوفييتى ، ولكن ليس من طبيعة الدول الديمقراطية أن تستخدم ماتتمتع به من مزايا وتفوق فى التهديد وفى اتباع أساليب الديكتاتورية ، ولا ريب فى أن الحالة الفكرية التى كانت مسيطرة حين ذاك ، ما كانت لتسمح بأى نوع من خشونة القول مع حليفتها السابقة ، مع أنه كان فى وسع هذه الخشونة لو استعملت ، أن توقف الكثير من التطورات غير اللائقة التى وقعت ، ولكن الولايات المتحدة آثرت بتأييدنا طبعا ، أن تقف موقفا أكثر تعقلا بالنسبة لمشكلات الاشراف على استخدام الأسلحة النووية وجاءت مُعارضةً لوسائل المراقبة الفعالة فأحبطت كل شيء .

وقد أدت هذه التطورات الى تبديل كل ناحية من نواحى التخطيط العسكرى والسياسى ، وأصبحت القواعد الضخمة اللازمة لتموين الجيوش فى الحربين الكبيرتَيْن الماضيتين أكثر الأهداف تعرضا للدمار ، وفى وسع قذيفة واحدة ، تُلقَى بها طائرة واحدة ، أن تدمر جميع المشاغل والمخازن فى قاعدة قناة السويس ، التى كانت المصدر الرئيسى لتموين الجيش الثامن فى الصحراء بالمعدات والذخائر ، وفى وسع الموانى مهما حمتها المدافع المضادة للطائرات والطائرات المحاربة ، أن تصبح مقبرة الاساطيل التى كانت تتولى فى الماضى حمايتها ، كما كان اجلاء المدنيين وغير المحاربين من المدن اقتراحا معقولا حتى فى أيام تطور الأساليب الجديدة فى القصف الجوى فى الحرب الأخيرة ، أما اليوم ، فعلى الرغم من الرغبة فى مثل هذا الاجلاء ، فان وسائله لا تعدو أن تكون شيئا مخففا من أهوال كوارث الحرب النووية المدمرة المهلكة ، كما قد تحتم تبديل جميع الترتيبات الدفاعية لمواجهــة الوضع الجـديد ، وما زالت الأسلحة التقليدية ضرورية للمحافظة على النظام فى ممتلكاتنا ، ولخوض ما يسميه الناس بالحروب الصغيرة ، ولكننا لا نستطيع انتاج القدر الكافى منها ، لأن انتاج الأسلحة النووية ووسائل توجيهها والتصرف فيها ، باهظة التكاليف للغاية بحيث تستنزف كل مخصصاتنا .

وظلت الآمال فى قيام اتصالات أكثر ودا مع روسيا ، تسيطر على فكرى دائما ، وبدا لى ان الفرصة قد توافرت بوفاة ستالين الفجائية فى مارس عام ١٩٥٣ ، وكنت قد أصبحت رئيسا للوزارة ثانية ، وقد اعتبرت موت ستالين نقطة فاصلة فى تاريخ روسيا ، فقد سَبَّبَ طغيانه الكثير من الآلام لبلاده ، ولأماكن أخرى فى العالم ، وكانت الشــــعوب الروسية فى نضالها ضد هتلر ، قد بنت لنفسها الكثير من حسن النية فى الغرب ، وفى الولايات المتحدة قبل غيرها من دوله ، ولم يكن فى وسع أى انسان ان يتكهن بالنسبة الى سياسات الكرملين الغامضة بمن سيخلف ستالين ، وعلينا الا نقسو فى الحكم على قادة روسيا ، فقد غزت أوروبا بلادهم ثلاث مرات فى نحو من قرن ، وليس فى وسعهم أن ينسوا بسهولة ، بورودينو وتانبرج وستالينجراد ، كما انهم لازالوا يذكرون المذابح التى قام بهـــا نابليون فى بلادهم ، ولا يمكنهم ان يغفروا لألمانيا القيصرية أو النـــازية فظائعها ، ولكن السلامة لاتتحقق عن طريق العزلة ، ولم يحاول ستالين أن يعزل الجمهوريات السوفييتية وحدها وراء ستار حديدى عسكرى وسياسى وثقافى ، بل حاول أيضا ان يقيم له خطا عميقا من المراكز الأمامية فى الدول

لتابعة ، يتحكم فيه بشدة من موسكو ، بعد أن أخضع هذه الدول لاحتياجات الاتحاد السوفييتى الاقتصادية ، ومنع كل اتصال لها بالعالم الحر ، وحتى ببعضها البعض ، ولكن لا ريب أن جميع المفكرين يرون فى بعض المظاهر المؤْحِيَة بالأمل ، شيئا من الجلاء فى الأوضاع الراهنة فالعقيدة الشيوعية آخذة فى الانفصال تدريجيا على الآلة العسكرية الروسية ، وستواصل الشعوب ثورتها على الامبراطورية الاستعمارية السوفييتية لا لشيوعيتها ، بل لأنها غريبة عنها ، ولأنها طاغية ومستبدة، ولن يؤدى سباق التسلح حتى فى الأسلحة النووية والصواريخ الموجهة الى ايجاد الطمأنينة و صفاء الذهن للدول الكبرى التى تسيطر على المساحات الشاسعة من الأرض فى آسيا أو شمالى أمريكا ، أو الى البلاد التى تقع بينها ، واننى لا أوجه نداء لنزع السلاح ، فهذه نتيجة طبيعية ومظهر للتجاوب الحر بين الشعوب ، انه العقل الذى يسيطر على السلاح ، واننى أرى أن تتحدث الشعوب الحرة الى عقول شعوب روسيا وشريكاتها.

وقد بدا لى أن جوا أهدأ قد يسيطر بعد وفاة ستالين وبهذه الصورة عرضت بعض أفكارى على مجلس العموم فى الحادى عشر من مايو عام ١٩٥٣ ، واقترحت عقد مؤتمر غير رسمى بين رؤساء الدول الكبرى ، فقد ينجح من حيث فَشِلَتْ الاتصالات الحادة المتكررة ، وأوضحتُ ان مثل هذا الاحتمال يجب ألا يصحب استرخاء فى علاقات الأمم الحرة واستعداداتها اذ أن أى إضْعَافٍ لجهودنا الدفاعية ، سيشل أى اتجاه نافع للسلام ، ولم يتحقق تماما ما استهدفته وبحثت عنه .

ولا أقصد مطلقا ان أُنْحِى باللائمة على أية جهة من الجهات بالنسبة الى الأمور المزعجة التى وقعت منذ عام ١٩٤٥ ، ولا ريب أن أولئك الذين كانوا مسئولين عن الحكم فى بريطانيا فى السنوات التى تلت الحرب ، قد اضطربوا أمام المشكلات المعقدة التى واجهوها فى الداخل والخارج ، وكانت الأساليب التى اختاروا اتباعها لحل هذه المشكلات ، مفروضة عليهم ، إما من الظروف التى أوجدتها ، أو من السياسات العقائدية المقررة سلفا ، ولم تكن نتائجها دائما نافعة لبريطانيا أو للعالم الحر .

وكان موضوع مَنْح الاستقلال لشبه القارة الهندية ، يحتل واجهة التفكير السياسى البريطانى ، وكنت قد أسهمت فى هذا الموضوع فى السنوات الواقعة بين الحربين ، وكنت قد حاربت استقلال الهند فى مراحله الأولى بكل ما لدى من قوة ، يؤيدنى فى ذلك نحو سبعين نائبا من

المحافظين ، وعند ما أصبحت رئيسا للوزارة الائتلافية ، اقتنعت بتعديل آرائي السابقة في هذا الصدد ، ولا ريب في أننا خرجنا من الكفاح العالمي وقد التزمنا باعطاء مركز « الدومنيون » الى الهند ، مع اعطائها الحق في الانفصال عن جامعة الشعوب البريطانية اذا رغبت في ذلك ، وفكرت في ان الطريقة التي ستتبع في اقامة الحكومة الجديدة ، يجب أن تضمن للأغلبية الكبرى من الشعب الهندي ، القدرة والحق في اختيار ما تريده لنفسها بصورة حرة ، واعتقدت أن عقد مؤتمر دستوري تمثل فيه جميع العناصر القوية في الهند ، سيدلنا على الطريق لاخراج الهند التي تحكم نفسها بطريقة تمثيلية حرة ، وتتعلق بالامبراطورية البريطانية ، ومن الواجب أن تكون في المشروع الجديد حصة لضمان مصالح « المنبوذين » والراجات والموالين الذين يعدون بمئات الملايين ، وغيرهم من الفئات الأخرى المهمة .

وعلينا أن نتذكر أن السّنة الأخيرة من الحرب ، قد شهدت ثورة قام بها المتطرفون من رجال حزب المؤتمر الهندي ، وقد أخمدت دون صعوبة وبأقل ما يمكن من خسارة في الأرواح ، وكان الحزب الاشتراكي البريطاني ، يرى رأيا مخالفا لوجهة نظري، فهو يؤمن بأن الفائدة الكبرى تقوم في منح الحكم الذاتي في أسرع وقت ممكن ، ولم يتردد في منح هذا الحكم وتسليمه الى تلك الفئات التي كنا قد أخضعناها بسهولة ، ولم يمر عامان على انتهاء الحرب ، حتى كان الهنود قد حققوا هدفهم ، ففي الثامن عشر من شهر أغسطس عام ١٩٤٧ . أعلنت بريطانيا استقلال الهند ، وفشلت جميع الجهود في الحفاظ على الوحدة الهندية ، وأصبحت الباكستان دولة مستقلة . وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها لجنة تخطيط الحدود ، فقد جاءت الحدود بين الدولتين الجديدتين مجحفة بصورة مُخَرِّبَة للمناطق التي تمر بها ، ونجم عن ذلك سلسلة من المذابح ، التي نتجت عن عمليات التبادل بين المسلمين والهندوس ، التي تناولت أربعمائة أو خمسمائة ألف من الرجال والنساء والأطفال في كل منطقة من المناطق .

وكان هناك على رأس أكبر هاتين الدولتين الجديدتين اللتين قامتا على أسس من الدماء المسفوكة ، لحسن الحظ ، رجل يتمتع بمواهب ومزايا لا مثيل لها ، انه نهرو ، وكان هذا الرجل قد قضى سنوات طويلة في السجن ، وقد ظهر الآن كزعيم « أقلية ضئيلة من أعداء الحكم البريطاني متحرر الى حد كبير من خطيئتين من أكبر خطايا الطبيعة البشرية ، وهما الكراهية والخوف ، هذا وقد اغتال أحد المتعصبين غاندي ، الذي تولى

مدة طويلة قيادة الحركة الاستقلالية الهندية ، بعد أمد قصير من تولى نهرو رياسة الحكومة الهندية ، كما رأس جناح الدولة الاسلامية بباكستان وأصبح لنا علاقات طيبة بالجمهوريتين اللتين ظهرتا الى حيز الوجود ، ويحضر قادتهما اجتماعات جامعة الشعوب البريطانية ، ولهم شأن يذكر فى طريق الخير والشر فى آسيا وفى العالم .

كما انفصلت بورما أيضا فى السنة نفسها التى استقلت فيهـــا الهند ، عن جامعة الشعوب البريطانية ،وكانت هذه البلاد المسرح الرئيسى للعمليات البرية التى جرت فى الشرق الأقصى ، وكنا قد بذلنا مجهودا رئيسيا فى استعادتها من اليابانيين الذين كانوا قد أخرجونا منهـــا فى عام ١٩٤٣ ، وتعاونت العناصر الوطنية مع الغزاة اليابانيين لتحقيـــق أهدافهم الاستقلالية ، وبذلك تولت الحكم ، ولم تكن سيطرتهم كاملة على البلاد ، وحتى يومنا هذا فان قانون الحكومة البورمية لا يسرى على جميع أنحاء البلاد .

ولم يكن الصراع بين الشـــيوعية والعالم الحر ، فى كل من الهند وبورما ، كبير الأهمية فى السنوات التى تلت الحرب مباشرة ، ولا ريب فى أن روسيا قد طربت لكل دليل على تضاؤل نفوذنا فى العـــالم ، وحاولت بكل الوسائل الموجودة تحت تصرفها أن تستغل قيام هذه الدول الجديدة ، ولكن روسيا انزلت أكبر الآثار السيئة فى الهند الصينيـــة والملايو ، وان كان اهتمامها الرئيسى ظل متمركزا فى الصين ، حيث أخذ يظهر نظام جديد وسط المذابح والفوضى ، وكان نظام تشيانج كاى شيك صديقنا وحليفنا فى الحرب ، قد أخذ يفقد سيطرته بصورة تدريجية ، وحاولت الولايات المتحدة بكل وسيلة ، الا التدخل العسكرى ، ايقـــاف الزحف الشيوعى ، ولكن الحكومة الصينية كانت تحمل معهـــا بذور دمارها وانهيارها ، حيث استشرى الفساد فى جهازها مما شجع عـلى تقدم الجيوش الشيوعية وساعدها ، وفى نهاية عام ١٩٤٩ كان كل شىء قد انتهى ، وسيطرت حكومة الشعب كما أسهمت نفسها ، على بكين ، وعلى البر الصينى بأكمله ، وفر تشيانج كاى شيك الى فرموزا ، حيث ضمن الأسطول والسلاح الجوى الأمريكى له الاستقلال ، وهكذا انتقلت أكثر بلاد العالم سكانا الى أيدى الشيوعيين ، ولا ريب فى أنها ستصبح قوة فعالة فى الشئون العالمية ، وفى هذه الفترة برز نفوذ الصين فى كل من كوريا والهند الصينية ، وكانت العقبات التى قامت فى طريق قبول

الصين فى الامم المتحدة من أبرز المظاهر فى ضعف هذه المنظمة ، كما توقفت الصداقة التقليدية القائمة بين الصين وأمريكا •

وتجلت فى السنة التالية المحاولات الشيوعية المضايقة للغرب ، واستغلال الشعور الوطنى في آسيا ، ومحاولة السيطرة على الأماكن المكشوفة فى شبه جزيرة كوريا ، ففى الهند الصينية على الرغم من أن الخصم الكبير للفرنسيين هوشى مينة ، كان منزويا فى موسكو ، الا أن العون المادى الذى تلقته العصابات لم يكن على نطاق كبير ، كما أرغم عدد ضئيل نسبيا من الارهابيين فى الملايو عن طريق قتل المزارعين البريطانيين والموالين من الصينيين والماليزيين أرغموا قوات بريطانية كبيرة على البقاء لاعادة فرض النظام •

وكنا أنا والرئيس روزفلت وتشيانج كاى شيك ، قد سجلنا فى عام ١٩٤٣ تصميمنا على أن تكون كوريا مستقلة ، وكانت قد تحررت فى نهاية الحرب من اليابانيين ، واحتل الأمريكيون الأقسام الجنوبية منها ، بينما احتل الروس أقسامها الشمالية ، وأقيمت دولتان كوريتان ، وأخذت العلاقات بينهما تتأزم وتحتد ، وغدتا أشبه ما تكونان بالدولتين الألمانيتين الشرقية والغربية ، وأحبطت المعارضة السوفييتية كل محاولة قامت بها الأمم المتحدة لاعادة توحيد البلاد ، وأخذ التوتر وحوادث الحدود يتجهان الى الازدياد ، وشرع الكوريون الشماليون فى الخامس والعشرين من شهر يونيو عام ١٩٥٠ ، فى غزو كوريا الجنوبية ، وأخذوا يتقدمون بسرعة ، فطلبت الأمم المتحدة من الغزاة أن يتوقفوا وينسحبوا ، ولعب الحظ السعيد دورا بارزا فى وقف « الفيتو » السوفييتى عن منع تنفيذ قرار مجلس الأمن ونواياه ، « اذ تغيب الاتحاد السوفييتى عن الجلسة لأنه قاطعها » ولكن أخطاء نظام الامم المتحدة ظلت عرضة للاستغلال مرة بعد أخرى فى السنوات التالية ، وهيأت الأمم المتحدة فى هذه المناسبة الاطار الذى قامت فيه الولايات المتحدة بالعمل الفعال ، وأحاطت هذه الحقائق العارية بقرار تاريخى وخطير اتخذه الرئيس ترومان ، اذ لم تمض فترة قصيرة جدا على انتشار أنباء الغزو ، حتى كان الرئيس قد توصل الى الاستنتاج بأن التدخل العسكري الفورى للولايات المتحدة، هو السبيل الوحيد لانقاذ الوضع ، وكانت القوات الأمريكية هى أقرب القوى من مسرح الاعتداء وأكثرها عددا ، ولكن هذا لم يكن كل شىء ، فقد كتب فى مذكراته يقول :

« وتأكدت من أننا اذا سمحنا لكوريا الجنوبيـة فى السقوط ، فان سقوطها سيشجع الزعماء الشيوعيين على أن يطئوا بأقدامهم دولا أخرى أقرب الى شواطئنا ، واذا سمحنا لمثل هـذا التطـور بأن يقع دون تحـد من جانبنا فانه سيعنى الحرب العالمية الثالثة »

ولا ريب فى أن حزمه وحكمته وجرأته فى هذه الأزمة ، جعلتنى أضعه فى مصاف أعظم الرجال الذين تولوا الرئاسـة فى الولايات المتحدة .

وقد بينت الحكومة البريطانية القضية الأمريكية ، وعرضت على أمريكا تقـديم الوحدات البحرية ولم يأت شـهر ديسـمبر حتى كانت القوات البرية البريطانية أيضا على أرض كوريا ، كما أيدت المعارضـة فى الخامس من شهر يوليو فى مجلس العموم المستر آتلى رئيس الوزراء ، وقلت بوصفى زعيما للمعارضة فى تلك الجلسة ، « اننى أشعر بقدرتى على مشاطرته الرأى ، فى أن النتيجة الواسعة التى توصل اليها ، من أن العمل الذى قامت به الولايات المتحدة ، هو خير طريق للحفـاظ على السلام العالمى » .

أما الجناح اليسارى من الحزب الاشتراكى ، فتطبيقا منه لتقـاليده ظل فى منأى ، عن العمل الحكيم الباسل الذى كنا نقرره حين ذاك .

وكان سـير الحـرب شاقا ومخيبـا للآمال ، وباهظ التكاليف فى الدماء التى سفكت ، حتى تمكنت قوات الحلفاء من وقف الغزاة الشماليين، وأخذ تدخل القوات الجوية يؤتى ثمارا فعالة ، ونفذ الجنرال ماك آرثـر المهمة بحماس وجرأة ، حيث استعادت قوات الحلفاء سيول فى اليـوم الرابع عشر من مارس عام ١٩٥١ ، ووصلت بعد شهرين الى خط العرض الثامن والثلاثين واجتازته ، وفى هذه الاثنـاء تدفقت قوات المتطوعين الصينيين ، كما بدأت النجدات تتدفق على نهر بالو ، فى شكل جيـوش كبيرة العدد وان كانت فقيرة العتاد ، ورأى القادة العسكريون الأمريكيون أن من الصعب عليهم أن يقبلوا وجود هذا « الملجأ الممتاز » وراء حـدود منشوريا ، وكانت هناك أيضا قواعد الطائرات السوفييتية النفاثة التى كانت تتدخل بصورة مستمرة فى القتال ، وعندما اشتد الضغط للسماح

بمهاجمة الأراضي الصينية من الجو عارض الرئيس ترومان هذا الضغط بشدة لأن هذه الخطوة كانت متناهية في الخطورة ، وقال :

« ان الحُمر يقومون بِسَبْر أَغْوَار الضغط في أسلحتنا ، وعلينا أن نواجه اندفاعهم بدورنا مع شعور متزايد من القلق ، وقلت لمجلس العموم في اليوم الثلاثين من شهر يناير « ان قضية العالم ستقرر في أوروبا ، فهناك يكمن الخطر الاكبر » ، وامتنعت عن الادلاء بآرائي مخافة أن يعتبر ذلك بمثابة انتقادات موجهة الى القادة العسكريين الامريكيين ، مما قد يعرقل جهودهم ، أو يضعف الارتباطات التي توثق مصايرنا ، وقد أسهمت القوات البريطانية وقوات جامعة الشعوب اسهاما ضيقا وان كان فعالا في القتال ، ولكن أمريكا احتملت العبء كله تقريبا ، ودفعت الثمن بمائة ألف من زهرة شبابها •

ولن أطيل الحديث عن ميزان الانتصار والفشل في كوريا ،ولايمكن بأي حال أن نحسب النتيجة مرضية ، لكن جنوبي كوريا ظل مستقلا وحرا على كل حال ، ومُنِيَ المعتدون بنكسة بالغة التكاليف والثمن ، وأهم من ذلك كله أن الولايات المتحدة أظهرت أنها لا تخشى استخدام القوة المسلحة ، دفاعا عن الحرية ، حتى في أماكن نائية ككوريا •

وقد أخذت الإمبراطوريات الغربية تنهار في أماكن أخرى من القارة الآسيوية ، كما أُرْغِمَ حلفاؤنا الهولنديون على الخروج من جزر الهند الشرقية ، التي كانوا قد جعلوا منها نموذجا في الادارة الفعالة ، كما تحمل الفرنسيون سنوات طويلة من خيبة الأمل ومن الحروب الموهنة المضنية في الهند الصينية ، حتى تجاوزت الاصابات بين الضباط في كل عام عدد من تخرجهم كلية سان سير من الضباط الجدد ، وتمكنت الجيوش الشيوعية التي تعززت بقوة من النجدات الصينية ، من احراز السيطرة التدريجية على شمالي البلاد ، وعلى الرغم من قصص المقاومة البطولية ، اضطر الفرنسيون الى الجلاء عن هذه المنطقة العظيمة الماهولة بالسكان ، وبعد مفاوضات طويلة وشاقة ، أمكن انقاذ شيء ما من حطام الآمال المهدمة ، فقد ظهرت ثلاث دول جديدة الى حيز الوجود ، وهي فيتنام الجنوبية ولاوس وكمبوديا ، وتأكد استقلالها ، وان كان استقلالها لم يتضح تماما ، أما فيتنام الشمالية ، فقد أقامت لها حكومة شيوعية منفصلة شأنها في ذلك شأن كوريا الشمالية ، وهكذا كان التقسيم من جديد ، هو الحل للصراع بين المصالح الشيوعية والغربية ، وظلت الخلافات

الداخلية تمزق هذه الدول الجديدة ، التى تهددها جارتها الجبارة الى الشمال •

وكانت التبديلات التى وقعت فى آسيا ، شيئا لايقاس بحساب ، ومن المحتمل أن تكون هذه التبديلات محتومة لا مناص منها ، واذا كان القارىء يجد فى هذا العرض القصير لمحة من الأسف ، فعليه ألا يفترض انه ناجم عن العداء لحق الشعوب الآسيوية فى تقرير مصيرها ، لكن الوسائل التى إتُّبعت فى الوصول الى الوضع الراهن ، تستدعى قليلا من التفكير والتأمل ، فهل كان من الضرورى ، أن يُسفك هذا القدر الكبير من الدماء ؟ أو لم يكن فى الامكان الوصول عن طريق التطور الى النتيجة السعيدة نفسها مع مزيد من الثبات والاستقرار ، بدلا من الارتجال الذى دفع به الضغط الأجنبى ، والذى بسببه ضاع نفوذنا بسبب الهزائم السابقة التى منينا بها فى حرب الشرق الأقصى •

لقد دار شطر كبير من الحرب العالمية الثانية للدفاع عن الجسر البرى الذى يربط آسيا بأفريقيا ، والحفاظ على تموينا تنا من الزيت ، وحماية قناة السويس ، وكانت دول الشرق الأوسط ، ولا سيما مصر ، قد تمتعت بمزية الحماية التى أضفيناها عليها من الغزو الألمانى والايطالى دون أن تُكَلِّف نفسها عناء الاشتراك فى الدفاع عن نفسها ، وقد أعقبت الحرب زيادة جديدة فى عدد الدول المستقلة التى كانت توجد ضمن الممتلكات السابقة للامبراطورية العثمانية ، وكان خروج الفرنسيين من سورية ولبنان مؤلما لهم ، ولكنه كان محتوما ، وليس فى وسع أى انسان أن يزعم اننا حصلنا لأنفسنا على أى قدر من الفوائد هناك ، فقد شهد العالم فى هذه المنطقة اندفاعا فى الاحساس الوطنى ، كان من المقدر لنتائجه أن تسير سيرها فيما بعد ، فالشعوب الاسلامية من أندونيسيا حتى مراكش فى حالة غليان واضطراب ، وأدى تصميمها الى مواجهة الدول الغربية ولا سيما تلك التى تتحمل مسئوليات وراء البحار ، الى مشكلات ذات صعوبة خاصة ، وفى وسع هذه الشعوب ، وسط الهتافات الصاخبة للاستقلال والحكم الذاتى ، أن تنسى المنافع الكثيرة والمهمة التى أضفاها عليها الحكم الغربى ، ومن الصعب أيضا الاستعاضة عن النظام الذى طبقته الدول الاستعمارية فى هذه المناطق الشاسعة ، بأنظمة جديدة ومستقرة من الحكم السيادى •

[وكانت مشكلة فلسطين من أعقد المشكلات التى واجهتها بريطانيا فى هذه الارجاء ، ولقد كنتُ أنا منذ صدور وعد بلفور فى عام ١٩١٧ ،

من أخلص أنصار القضية الصهيونية ومؤيديها ، ولم أشعر قط أن البلاد العربية قد جنت منا الا العدل في معاملتها ، فالعرب مدينون لبريطانيا ولبريطانيا وحدها في وجودهم كدول ، فنحن خلقنا هذه الدول ، فلقد دفعت الأموال البريطانية والمستشارون البريطانيون بها سريعا في طريق التقدم ، وكانت الأسلحة البريطانية هي التي تتولى حمايتهم ، وكان لنا ، وما زال كما آمل ، عدد من الأصدقاء الأوفياء والشجعان في المنطقة ، وكان الملك عبد الله حاكما في منتهى الحكمة ، وأدى اغتياله الى زوال الفرصة في تسوية سلمية للمشكلة الفلسطينية ، وكان الملك ابن السعود حليفا قويا ، وكنت أتابع في العراق باعجاب سلوك نوري السعيد الشجاع والحكيم ، اذ كان يخدم باخلاص مليكه ، ويقود بلاده في طريق الحكمة ، دون أن يتأثر بالتهديدات الخارجية ، أو بالضجيج المتأثر من الخارج في الوطن ، ومن سوء الحظ أن هؤلاء الرجال كانوا من الشواذ(١) .

وواجهت الحكومة البريطانية كدولة منتدبة ، المشكلة الشاقة من الجمع بين هجرة اليهود الى « وطنهم القومي » ، وحماية حقوق السكان العرب ، ولا يستطيع الا القليلون منا لوم اليهود على آرائهم العنيفة المتطرفة في هذا الموضوع ، وليس في مكنة شعب عاني خطر الابادة الكلية لوجوده القومي ، أن يكون عاقلا ومنطقيا كليا ، ولكن أعمال الارهابيين اليهود الذين حاولوا تحقيق أهدافهم عن طريق اغتيال الموظفين البريطانيين والجنود ، كانت مظهرا غريبا من مظاهر نكران الجميل ، ترك أثرا عميقا في النفوس ، وليس هناك من بلاد في العالم أقل صلاحا لمقارعة الارهاب ، من بريطانيا العظمى ، ولا يعود هذا الى الضعف أو الجبن ، وانما الى ضبط النفس والفضائل ، والى طريقة الحياة التي عشناها في جزيرتنا التي نجحنا في الدفاع عنها ، وأحست الحكومة البريطانية بلذعة جرائم القتل في فلسطين ، وبالمهانة من بلاد الشرق الأوسط ، وحتى من حلفائنا ، فكان من الطبيعي أن تقرر أخيرا في عام ١٩٤٨ غسل أيديها من مشكلة فلسطين ، وأن تترك اليهود وحدهم ، يجدون طريقة خلاصهم وأدت الحرب القصيرة التي وقعت بصورة مسرحية ، الى تبديد ثقة البلاد العربية في نفسها ، بعد أن أطبقت على فلسطين آملة في نصر سريع .

---

(١) يدل هذا الرأى على وجهة نظر الاستعمار وارتماء حكومات هذه الدول في أحضان الاستعمار .

المترجم

[وأدى العنف الذى صاحب ولادة دولة اسرائيل الى اشتداد المتاعب في الشرق الأوسط بصورة مستمرة ، وانى لأتطلع باعجاب الى ما تم انجازه من عمل هناك فى بناء دولة واستصلاح صحراء وتقبل هذا العدد الكبير من اليهود من جميع أطراف المعمورة ، ولكن الوضع قاتم تماما ، فوضع مئات الألوف من العرب الذين أُخرجوا من ديارهم ، والذين يعيشون حياة الفاقة والعوز ، فى المناطق الحرام التى خلقت حول حدود اسرائيل ، خطر وفى منتهى الوحشية ، ويُكثِر العرب من ترديد العداء الذى لا ينطوى ولا يزول للدولة الجديدة ، ولا يستطيع القادة العرب الأبعد نظراً ، أن يدعوا الى الاعتدال ، دون أن يتعرضوا لخطر الاسكات والتهديد بالاغتيال، انه منظر مظلم وخطر وعنيف لا حدود له وهناك شىء واضح ، فالشرف والحكمة يتطلبان بقاء دولة اسرائيل والحفاظ عليها ، والسماح لهذا الشعب بأن يعيش فى سلام مع جيرانه « شرف من ياترى ! » وفى وسع هذا الشعب أن يأتى الى المنطقة باسهام لا يقدر بثمن من المعرفة العلمية والعمل والانتاج ، ومن الواجب اعطاؤه الفرصة لمصلحة الشرق الأوسط كله .]

وقبل أن أنتهى من هذا العرض الموجز للأمور التى أثرّت علىّ منذ انتهاء الحرب أرى أن ألقى نظرة على الأمم المتحدة ، ففى وسع أى جهاز لحكومة عالمية أن يفشل بسهولة فى تحقيق غرضه ، وكان من رأيى عندما دنت الحرب من نهايتها ، أن من الواجب أن تتحكم أعظم العقول وأعظم الافكار التى يملكها البشر فى مصير العالم ، وكان هذا المشروع يقضى ، اذا تحتم تمثيل جميع البلاد كبيرها وصغيرها ، أن تضعف البلاد المذكورة ، فالمغزى الذى تقدمه الأمم المتحدة ، ليس الا تأكيدا لا جدوى منه لتعادل النفوذ والسلطان ، لا يمت بصلة الى الحقائق المجردة ، وقد أسفرت النتيجة عن عمليات من النشاط اللامع وراء الكواليس تحاول أن تقبض على زمام الحكومة العالمية ، وقد استعملت كلمة « المحاولة » لأن صوت أى بلد لا يُعَدّ سكانها أكثر من مليون أو مليونين ، لا يمكن أن يقرر أو حتى يتحكم في أعمال الدول الكبرى ، وتميل الأمم المتحدة فى شكلها الحالى الى مصانعة الدول الديكتاتورية وارهاب الدول الضعيفة، وليس من حق الدول الصغرى ، أن تتحدث باسم الجنس البشرى كله وعليها أن تقبل ، ولا ريب فى انها ستقبل ذلك عن طيب خاطر ، مرتبة أكثر خفضا ، ولكنها أكثر قربا من الدول الكبرى ، ويجب أن تقوم على حكم العالم مجموعة من القادة البارزين فى مجموعات من البلاد المؤلفة

حسب أوضاعها الجغرافية وان عملية السماح لهذه المجموعات بأن تؤلف نفسها دون الحكم عليها بحسب قواتها أو عدد سكانها هى التى تتـــولى تقرير الموضوع كله ٠

ولا أرى من وراء كل ما قلت ، الايحاء بأن جميع الجهود والتضحيات التى بذلتها بريطانيا وحلفاؤها ، والتى سجلتُها فى هذه المذكرات قد ضاعت عبثا ، ولم تؤد الا الى قيام وضع أكثر خطورة وظلاما ، مما كان عليه الوضع فى البداية ، واننى على النقيض من ذلك ، أتمسك برأيى السابق فى أن محاولاتنا لم تذهب سُدًى ، فقد أصبحت روسيا دولة تجارية عظمى ، ويجرى أهلها فى كل يوم بحماس تام ومتزايد هـذه التعقيدات والملطفات الموجودة فى الحياة البشرية ، التى تجعل من خطط كارل ماركس ومشروعاته ، أمورا مضى عهدها ، وغدت أصغر من أن تتفق مع المشكلات العالمية ، ولقد أخذت القوى الطبيعية تعمل بحرية أكبر ، وبفرصة أعظم ، فى نشر الآراء والأفكار المتعلقة بفردية الرجال والنساء وتنويعها ، وهذه القوى أضخم وأكثر ليونة فى هذا الكيـــان الواسع من امبراطورية الكون ، مما قد تَصَوَّرَهُ كارل ماركس فى كوخه الحقير ، وعند ما يضيق نطاق الحروب نفسها بالفرعية المتبادلة نفسهـا للقضاء عليها ، يصبح من المتوقع بصورة متزايدة تأجيلها وعدم اللجوء اليها ، وستستمر الخلافات حتما بين الدول أو القارات أو مجموعات الدول ، ولكن المجتمع الانسانى سينمو فى أشكال متعـــددة ، بحيث لا تفهمه الأجهزة الحزبية ، وما دام العالم الحـر متماسكا والحالة هذه ، ولا سيما بريطانيا العظمى والولايات المتحدة ، وما دامتا تحتفظـــان بقوتهما ، فستجد روسيا أن السلام والرخاء أجدى نفعـــا من حرب الابادة ، وان توسيع آفاق الفكر ومجالاته ، عملية تتطلب الاندفاع عن طريق البحث عن الفرص لكل من يطلبها ، ومن الخير أيضا ، اذا ما التزم الجميع جانب الحكمة والروية ، أن تسيطر الرغبـــة فى تأمين الفرص للجميع على مشاعر الجنس البشرى وتعمل بمثابة ضابط لها ٠

شارتويل ـ ويسترهام ـ كنت

١٠ فبراير ١٩٥٧

ونستون تشرشل

تم الكتاب



الهيئة المصرية العامة

الثمن ٧٥ قرشا
خصم ٢٠٪ ١٥ قرش
الصافي ٦٠ قرشا